











# كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى  
وترجمة مؤلفه

---

بقلم

حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الرسول  
رئيس التصحيح العربي بالقسم الأدبي  
بالمطبعة الأميرية

---



- الباب الرابع — من المقالة التاسعة في الهدن الواقعة بين ملوك  
الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان ... ٢
- الفصل الأول — في أصول تعيين على الكاتب معرفتها ،  
وفيه ثلاثة أطراف ... ٢
- الطرف الأول — في بيان رتبها ومعناها وذكر ما يرادفها  
من الألفاظ ... ٢
- » الثاني — في أصل وضعها ... ٤
- » الثالث — فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن ،  
وفيه نوتان ... ٧
- النوع الأول — ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام  
وأهل الكفر ... ٧
- » الثاني — ما تشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر  
والإسلام وعقود الصلح الجارية بين زعماء  
المسلمين، وهي ضربان ... ٩
- الضرب الأول — الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق  
عليها بين الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم ... ٩
- الضرب الثاني — مما يلزم الكاتب في كتابة الهدن تحرير  
أوضاعها، وترتيب شروطها، وحكم معاقبتها ... ٩
- الفصل الثاني — في صورة ما يكتب في الهدن والسجلات ،  
ومناهب الكتاب في الهدن ... ١٦
- الطرف الأول — فيما يستبد ملوك الإسلام بملوك الكفر ،  
وتخلف منه نسخ إلى أبواب السلطانية، وتدفع  
منه نسخ إلى ملوك الكفر، وذلك على عطين ... ١٦

صفحة

النمط الأول — ما يكتب في طرزة الهدنة من أعلى الدرج ... ١٦

» الثاني — ما يكتب في متن الهدنة، وهو على نوعين ... ١٧

النوع الأول — ما تكون الهدنة فيه من جانب واحد،

وفيه مذهبان ... ١٧

المذهب الأول — أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذا ما هادن طيه» الخ ١٧

» الثاني — أن تفتح المهادنة قبل لفظ: «هذا» ببعدية ... ٢٦

النوع الثاني — من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر —

أن تكون الهدنة من الجانبين جميعا، وفيها للكتاب

ثلاثة مذاهب ... ٢٩

المذهب الأول — أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذه هدنة»

ونحو ذلك ... ٢٩

الثاني — أن تفتح الهدنة بلفظ: «استقرت الهدنة بين

فلان وفلان» الخ ... ٣١

» الثالث — أن تفتح المهادنة بخطبة مبتدأة بـ «الحمد لله» ٧١

الطرف الثاني — فيما يشارك فيه ملوك الكفر ملوك الإسلام

في كتابة نسخ من دواوينهم ... ٧٢

الباب الخامس — من المقالة التاسعة في عقود الصلح الواقعة بين

ملكين مسلمين، وفيه فصلان ... ٧٩

الفصل الأول — في أصول تعتمد في ذلك ... ٧٩

» الثاني — فيما جرت العادة بكتابته بين الخلفاء وملوك

المسلمين على تماقب الدول، مما يكتب في الطرزة

والمتن، وفيه نوجان ... ٨٤

صفحة

- النوع الأول — ما يكون العقد فيه من الجانبين ... ٨٤  
 » الثاني — ما يكون العقد فيه من جانب واحد ،  
 وفيه مذهبان ... ٩٧  
 المذهب الأول — أن يفتح عقد الصلح بلفظ : « هذا » ... ٩٧  
 » الثاني — أن يفتح عقد الصلح بخطبة مفتوحة بـ « الحمد لله »  
 وربما كرر فيها التحميد ... ١٠٠  
 الباب السادس — من المقالة التاسعة في الفسوخ الواردة على العقود  
 السابقة ، وفيه فصلان ... ١٠٨  
 الفصل الأول — الفسخ ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون  
 الآخر ... ١٠٨  
 » الثاني — المفاخعة ، وهي ما تكون من الجانبين جميعا ... ١٠٩

## المقالة العاشرة

- في فنون من الكتابة يتداولها الكُتّاب وتنافس في عملها ليس لها تعلق  
 بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها ، وفيها بابان ... ١١٠  
 الباب الأول — في الجديّات ، وفيه خمسة فصول (الصواب : ستة  
 فصول) ... ١١٠  
 الفصل الأول — في المقامات ... ١١٠  
 » الثاني — في الرسائل ، وهي على أصناف ... ١٣٨  
 الصنف الأول — الرسائل الملوكية ، وهي على ضربين ... ١٣٩  
 الضرب الأول — رسائل التزوّ ، وهي أعظمها وأجلّها ... ١٣٩  
 » الثاني — « الصيّد » ... ١٦٥  
 الصنف الثاني — من الرسائل — ما يرد منها مورد المفتح والتعريض ... ١٧٢

صفحة	
٢٠٤ ... ..	الصنف الثالث - من الرائل - المقائرات
٢٤٠ ... ..	» الرابع - » » الأمثلة والأجوبة
٢٥١ ... ..	» الخامس - » » ما تكتب به الحواث والمجريات
	الفصل الثالث - من الباب الأول من المقالة العاشرة ،
٢٨٢ ... ..	في قدمات البندق ... ..
	» الرابع - من الباب الأول من المقالة العاشرة ،
٣٠٠ ... ..	في الصدقات ، وفيه طرفان ... ..
٣٠٠ ... ..	الطرف الأول - في الصدقات الملوكة وما في معناها ... ..
٣١١ ... ..	» الثاني - في صدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم ... ..
	الفصل الخامس - من الباب الأول من المقالة العاشرة فيما يكتب
	عن العلماء وأهل الأدب ، مما جرت العادة
	بمراعاة النثر المسجوع فيه ، ومحاولة الفصاحة
٣٢٢ ... ..	وباللافة ، وفيه طرفان ... ..
	الطرف الأول - فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ،
٣٢٢ .. ...	وهو على صنفين ... ..
	الصنف الأول - الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات
٣٢٢ ... ..	الكتب ، ونحوها ... ..
	» الثاني - التقریضات التي تكتب على المصنفات المصنفة
٣٣٥ ... ..	والقصائد المنظومة ... ..
	الطرف الثاني - فيما يكتب عن القضاء ، وهو على أربعة
٣٤٠ ... ..	أصناف ... ..
٣٤٠ ... ..	الصنف الأول - التقاليد الحكيمة ... ..
٣٤٦ ... ..	» الثاني - إحصاءات العدالة ... ..

صفحة

- الصفحة الثالث - الكتب إلى التواب وما في معناها ... ٣٥٠  
 » الرابع - ما يكتب في افتتاحات الكتب ... ٣٥٣  
 الفصل السادس - في العمرات التي تكتب للحاج ... ٣٥٥  
 الباب الثاني - من المقالة العاشرة في الهزليات ... ٣٦٠

## الخاتمة

- في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة، وفيها أربعة أبواب ... ٣٦٦  
 الباب الأول - في الكلام على البريد، وفيه فصلان ... ٣٦٦  
 الفصل الأول - في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها، ويتعلق  
 الغرض من ذلك بثلاثة أمور ... ٣٦٦  
 الأمر الأول - معرفة معنى لفظ البريد لغة وأصطلاحاً ... ٣٦٦  
 » الثاني - أول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن ... ٣٦٧  
 » الثالث - بيان معالم البريد ... ٣٧١  
 الفصل الثاني - من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مراكز  
 البريد، ويشتمل على ستة مقاصد ... ٣٧٢  
 المقصد الأول - في مركز قلعة الجبل المحروسة بالديار المصرية التي  
 هي قاعدة الملك، وما يتفرع عنه من المراكز،  
 وما يقرب إلى مراكز كل جهة ... ٣٧٣  
 » الثاني - في مراكز غزة، وما يتفرع عنها من البلاد الشامية ... ٣٧٩  
 » الثالث - في ذكر مركز دمشق وما يتفرع عنه من المراكز ... ٣٨١  
 » الرابع - في مركز حلب، وما يتفرع عنه من المراكز ... ٣٨٣  
 » الخامس - في مركز طرابلس، وما يتفرع عنه من المراكز ... ٣٨٥  
 » السادس - في معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة  
 المشرفة والمدينة المنورة ... ٣٨٥

صفحة

الباب الثاني — من الخاتمة في مطارات الحمام الرسائلى، وذكر أبراجها المقترزة بطرق الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان ... .. ٣٨٩
الفصل الأول — في مطاراته ... .. ٣٨٩
» الثاني — في أبراج الحمام المقترزة لاطارتها بالديار المصرية، والبلاد الشامية ... .. ٣٩٢
الباب الثالث — من الخاتمة في ذكر هجن التلج، والمراكب المعنة لحمل التلج الذى يحمل من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية، وفيه ثلاثة فصول ٣٩٥
الفصل الأول — في نقل التلج ... .. ٣٩٥
» الثاني — في المراكب المعنة لنقل التلج من الشام ... ٣٩٦
» الثالث — في الهجن المعنة لنقل ذلك ... .. ٣٩٦
الباب الرابع — من الخاتمة في المناور والمحرقات، وفيه فصلان ٣٩٨
الفصل الأول — في المناور ... .. ٣٩٨
» الثاني — في المحرقات ... .. ٤٠١

(تم فهرس الجزء الرابع عشر من كتاب صبيح الأعشى)



كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى  
وترجمة مؤلفه

---

بقلم

حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الرسول  
رئيس التصحيح العربي بالقسم الأدبي  
بالمطبعة الأميرية

---

## كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمته مؤلفه

بسم الله الرحمن الرحيم

تَحْمَدُ اللهَ تعالى على ما مَنَحَ من الإِعَانَةِ وَوَهَبَ من التَّيسِيرِ، وَتَشْكُرُهُ على ما أَوْفَى من التَّوْفِيقِ فَهُوَ نِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النُّصِيرُ، وَنُصِّلَى على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صُبْحَ الهِدَايَةِ وَشَهَائِمِ السَّاطِعِ، وَعلى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ النُّجُومِ الثَّوَابِتِ وَالدُّنُورِ الطَّوَالِغِ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الأَئِمَّ بآثَارِهَا ، وَالشُّعُوبَ بِسَيَرِهَا وَأَخْبَارِهَا ؛ وَمِنَ أعْظَمِ الآثَارِ قِيَمَتَهُ ، وَأَخْزَرِهَا دِيَمَتَهُ ؛ مَا تُعْرِفُ بِوَاسِطَتِهِ نَتَائِجَ أَفْكَارِ القَادَةِ العُلَمَاءِ ، وَتَبَيَّنَ بِهِ قِرَائِحُ الجَهَانِيَّةِ الحُكْمَاءِ .

وَلَمْ تَزَلِ الأَئِمُّ الرَّأْفَةُ فِي سَالِفِ السُّهُورِ وَإلى وَقْتِنَا الحَاضِرِ تُعْنِي بِشَأْنِ عُلَمَائِهَا : على أَخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ ، وَتَبَايُنِ مَشَارِبِهِمْ ؛ وَتَحِلُّهُمْ من الكَرَامَةِ والإِجْلَالِ أَعْلَى الدَّرَجَاتِ ، وَتَرِجُّهُ فِي أَمْرِ مَعَايِشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَى آرَائِهِم السَّيِّدَةِ ، وَأَفْكَارِهِم الرِّشِيدَةِ ؛ وَتَعْمَلُ بِكُلِّ جُهِدِهَا فِي إِنْشَاءِ دُورِ الكُتُبِ وَتَشْيِيدِهَا ، وَالمُبَالَغَةِ فِي تَنْسِيقِهَا وَتَرْتِيبِهَا : لِتَحْفَظَ فِيهَا دِفَاتِرَهُمْ وَطَوَائِرَهُمْ الَّتِي أودَعُوهَا ثَمَرَةَ أَفْكَارِهِمْ ، وَنَتِيجَةَ بَحْوثِهِمْ .

وَلَقَدْ أَخَذَتْ مِصْرُنَا العَزِيزَةَ فِي صَدْرِ الإِسْلَامِ مُسَابِقُ «البَصْرَةِ وَالكُوفَةِ» فِي هَذَا المِيدَانِ العَظِيمِ ، مِيدَانِ التَّقْدِيمِ وَالْإِكْرَامِ .

وسارت من بعدهما شاطئ « بغداد » دار السلام ، ومركز الحضارة العلمية وكعبة العلم ، وقبلة الآداب - مع ما كان يبذله الخلفاء لعلمائها من أنواع التحف ، وقُرْعُونِه عليهم من بذر الأموال : حُبًّا في نشر العلم وبُلُوغِه إلى درجة الكمال .

ولم تكن في ذلك أقل حظًا من الأندلس : جنة العالم وزينة الدنيا ، حتى في أعظم حصوها الذهنية المملوءة بالمعالي والمفاتيح ، يوم كانت تنشر على العالم ألوية الحضارة ، وتسلو عليه آيات ينابيع من الهدى والفرقان .



وفتحت مضر ذراعيها : مَرْجَبَةً بكلِّ وافد عليها من أهل العلم والآداب ، خصوصًا بعد أن طوّحت يد الرديء بمذنب العراق وحواضر الأندلس ، ودأرت عليها الدوائر ، وذَهَبَ كُلُّ ما كان لها من آثار العلم وأعمال المجتهد والحضارة . فوفد علمائها على هذا البلد الأمين وجعلوا فيه ضالّتهم المبتسدة وأمينتهم الكبرى .

فأصبحت ميدانًا واسعًا يتماهى فيه طلاب العلوم والمعارف ، وموردًا غنيًا يزدهم عليه عشاق الآداب ومحبو الحكمة ، وجنة زاخرة بأكابر العلماء ونوابغ الحكماء .

وأصبح مَلُوكُهَا وأمرأؤها ينظرون إلى العلم والمساء بعين ملوِّها الإعظام والإجلال ، وأخذوا يساعدونهم ، ويُمِلُّون في إكرامهم وإعزازهم عليهم ، ويُسَجِّعونهم على الإكثار من التأليف والتصنيف في العلوم المختلفة . وصاروا لا يُؤَسِّسون مسجدًا للصلاة ، ولا يبنون مدرسة أو معهدًا من معاهد العلم إلا ويسيلون في داخله خزانة غنيبة جامعة ، يُودِعُونها الكثير من نقائس الأسفار والمصنّعات في كل فن ومطلب : ميلًا منهم إلى نشر المعارف ، ورغبة في تحصيل الذكر وجميل الأثر .

وقد كان لحقائها الفاطميين خزائن كُتُب كُبرى ، كانت من أجل الخزانين  
وأعظمها شأنًا عندهم ، وأكثرها جمعًا للكتب النفيسة من جميع العلوم والفنون .  
يقال : لأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة  
في قصر الخلفاء الفاطميين .



ولم تزل الأمة المصرية الكريمة سائرة على هذا المنهج القويم : ترد مناهل العلم  
العذبة ، وتتعدى إلى آلبانها الطيبة - حتى أصابها ما أصاب غيرها من الأيم الإسلامية ،  
فتفرقت شيئا وحرابًا ، وانصرفت عن الشؤون العامة ، وصار كل واحد لاهيا  
بذاته لا يشمر إلا بنفسه التي بين جنبيه .

قلل الاحتفال بالعلم وأهله ، وأهملت العناية بدور الكتب وخزائنها الأسفار  
على كثرتها ، وأمتدت إليها يد الخيانة تعبت بنفائسها أنى شامت بدون محاسن  
أو قبيح . واستول المغيرة على الديار المصرية على أنفيس ما كان مودعًا فيها من  
الكتب والآثار ، رقلوا منه إلى بلادهم وممالكهم ماشاء الله أن ينقلوا .

وهاهي الي م تئدي أهل مصر من وراء البحار ، وتناجيهم بما كان لسلفهم  
الناهض من آثار العمل ودلائل التبوغ .

وسبق في تلك الدور والخزائن ، مما زهدت فيه نفوس الطامعين - صار وهنًا عليها ،  
لا تقع عليه الأبصار ، ولا يبرق فكر : كأنه كثر منقون لم يمتد إليه بعد ، أو يحين حكم  
عليه السن الأبدى لا يجيد لنفسه خلاصا .



تلك كانت حالة مصر حيناً من الدهر كانت تنحجب بكل ما يجي أهلها في الزمن  
السابق من تحجيد وأسسوا من قوة - لولا أن الله تعالى أراد بها خيراً ،  
بجلس على أريكته ذلك المصلح الكبير، والعصايب الشهير، مؤسس «مصر الحديثة»  
ساكن الحنان "مجد على باشا" رأس العائلة العلوية الكريمة .

فإنه - نور الله ضريحه - أعاد لهذه الأمة سالف مجدها، وبه الأفكار بعد  
طول رقادها ، ونشر العلوم والمعارف بين أبنائها، وأرسل البعثات العلمية إلى  
أشهر الجامعات بأوروبا : ليتعلموا أساليب التعليم الحديثة، ويهودوا إلى مصر  
بفنون من التربية والتدريب تدعو إليها منة التقدم والارتقاء .

وقرب إليه العلماء والأدباء ، وشجعهم على التأليف والتصنيف . ووصل  
الليل بالنهار في سبيل إنقاذها وإسعادها، وأسّس المدارس، وشاد دور الصناعات  
والمعامل في حواضر هذا القطر السعيد .

وأنشأ "المطبعة الأميرية الكبرى" ، وجيهاً بكل ما يلزم لها من  
الآلات والعدد، حتى صارت من أرقى دور الطباعة في الشرق ، واختار  
لها نوابغ العلماء وأساطين الكُتاب : ليقوموا بتصحيح ما يطبع فيها . ولها يرجع  
الفضل الأكبر في تقوية النهضة العلمية في مصر وغيرها من البلاد ، ونشر العلوم  
والآداب العربية في جميع أنحاء العالم .



وجاء من بعده حفيده أبو الأشبال، المتفوره "إسماعيل باشا" خديو مصر، فأنشأ "دار الكتب" بالقاهرة، وجمع فيها ما بقي من الكتب في خزائنها المتفرقة في الدور والمساجد . وأخذ الأمراء وغيرهم من كبار الأمة يتبرعون لها بما في دور كتبهم وخزائنها من نفائس المصنفات .

وأهمها بعده ولده طيب الذكر "محمد توفيق باشا" خديو مصر فوقف عليها ألفاً وثمانمائة فدان من أجود أراضي القطر الزراعية ، وجعلها إدارة مستقلة بعد أن كانت طالة على إدارة المكاتب، يتفق عليها من الأوقاف المحبسة عليها .

وأتمت خزائنها بنفائس الأسفار وطلايل المؤلفات، من مصر وغيرها من سائر الممالك، بما كان يتفق عن سعة وكرم نفيس في سبيل الحصول عليها .

وبها معرض كبير حوى كثيراً من المصاحف الشريفة والآثار النفيسة، والمؤلفات القديمة، والمخطوطات العربية والثقود القديمة في كل دولة من الدول الإسلامية . وهي على أهل هذا القطر السعيد حسنة من أعظم الحسنات، وأثر خالدها من الآثار الباقيات، ولها على العلم وأهله الأيدى التي لا تشكر، والمفاخر التي تذكركم فتشركم، فقد آتت للتردين إليها قاعة كبرى للمطالعة، وجهزتها بكل ما يلزم لراحتهم وتسهيل أعمالهم . فاقبل عليها الطلاب والعلماء، والكتّاب والشعراء، والمجمعون والحكام وغيرهم : يردون نبيها، ويولون وجوههم شطرها : على اختلاف لغاتهم، وتباين أجناسهم وطبقاتهم .

ولما أشرف عليها حضرة صاحب السعادة "أحمد حشمت باشا" وزير المعارف الأسبق وجهه - حفظه الله - عيأته إلى تنظيمها تنظيمًا يكفل لها التقدم في طريق الإصلاح اللائق بمكاتها : لتأتي بالثمرة المطلوبة منها ، وتقوم بالخدمة الواجبة عليها : وذلك بنشر العلوم والمعارف بين طبقات الأمة ، وطبع الآداب العربية وإذاعتها بين أبنائها .

فاختار طائفة مما فيها من نفائس الأسفار ونوادر المؤلفات ، وخصوصًا المؤلفات المصرية ؛ وأمر بأن تُطبع في «المنشأة الأدبية» بالمطبعة الأميرية ، فتشرى أنوارها على طلاب العلم والحكمة ، ويتم النفع بها من قريب ومن بعد ؛ ضئلاً بما أن تبقى مقصورة على قاعات المطالعة وعُرفها ، لا ينفع بها غير فريق من المقيمين في مدينة القاهرة .

فكان أجل كتاب ظهر من هذه الكتب في سماء الآداب العربية ، كتاب :

"صبح الأعشى في كتابة الإنشا"

( للعلّيشندي )

## التعريف بهذا الكتاب

تمهما أطالَ الكَتِّابُ في وَصْفِ هذا الكتاب ، وَجَوَّدَ فِكْرَهُ ، وَأَجْهَدَ قَلَمَهُ  
في التَّعْرِيفِ بِهِ وَبِقِيَمَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ - فَانْه لايَبْلُغُ تَعْدَادَ مَا أُودِعَ فِيهِ مِنْ  
الْفَوَائِدِ ، وَأَنْطَوَى تَحْتَهُ مِنَ الدَّقَائِقِ .

فهو كِتَابٌ جَلِيلٌ الْقَدْرُ ، عَظِيمُ النِّفَعِ ، كَثِيرُ الْفَائِدَةِ ، لَمْ يُنْسَجْ عَلَى مِثَالِهِ فِي طَالَمِ  
التَّأْلِيفِ فِي فُنُونِ الْأَدَبِ وَالْكِتَابَةِ . وَلَا نَعُدُّ مُبَالِغِينَ إِذَا قُلْنَا : إِنَّهُ أَنْفُسُ كِتَابٍ  
أُلِّفَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَارِيخِ آدَابِهَا .

كَتَبُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ الْفَلَقَشَنْدِيُّ مُؤَلَّفَهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حَالَةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ،  
وَكَيْفَ كَانَتْ فِي الْعُصُورِ الْأُولَى قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، إِلَى أَنْ وَصَلَتْ إِلَى مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ  
مِنَ الْإِنْتِشَارِ بَعْدَ أَنْ صَارَتْ لُغَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، لُغَةُ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ السَّمْعَةِ  
وَالذِّينِ الْحَنِيفِ ، تَبَعًا لِإِنْتِشَارِهَا فِي أَكْثَرِ أَنْحَاءِ الْكُرَّةِ الْأَرَضِيَّةِ : فِي بِلَادِ فَارِسَ  
وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، فِي بِلَادِ الرُّومِ ، فِي الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ ( وَقَاهَا اللَّهُ ) فِي بِلَادِ أَفْرِيْقِيَةِ  
وَالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى ، فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، فِي بِلَادِ الْهِنْدِ ، فِي بِلَادِ الصِّينِ ، فِي بِلَادِ  
كَثِيرَةٍ مِنْ أَوْرُوبَا .

كَتَبُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفَهُ كَيْفَ زَهَتْ هَذِهِ اللُّغَةُ الشَّرِيفَةُ فِي عُصُورِ الْخُلَفَاءِ : مِنْ  
بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ ، وَغَزَرَتْ مَادْنَهَا ، وَأَتَّسَعَ نِطَاقُهَا ، وَدَنَا قِطَافُهَا : فَصَارَتْ  
لُغَةُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، لُغَةُ الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ ، لُغَةُ الْقَضَاءِ وَالْأَحْكَامِ ، لُغَةُ الْجَدَلِ وَالْمُنَاطَرَةِ .  
كَمَا صَارَتْ لُغَةُ التَّأْلِيفِ وَالتَّصْنِيفِ : فِي أَحْكَامِ الدِّينِ ، وَتَهْذِيبِ النُّفُوسِ ، وَتَثْبِيقِ  
الْعُقُوفِ ، وَنِظَامِ الْمُلْكِ وَالْمَمَالِكِ ، وَسِيَاسَةِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ . وَطُورِ الْفَلَسَفَةِ ،  
وَالرِّيَاضَةِ ، وَالنَّجُومِ ، وَالطَّبِّ ، وَالْكِيمْيَاءِ ، وَمَا أَشْبَهَهَا .



كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْكِتَابَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْبِلَادِ وَالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَمَا بَلَغَتْهُ  
مِنْ دَرَجَاتِ الرَّفْعَةِ وَالْأَرْقَاءِ ، ثُمَّ مَا آلَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ ، تَبَعًا  
لِضَعْفِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ : بِاسْتِثْلَاءِ الْمُخَيَّرِينَ عَلَى بِلَادِ انْخِلَافِهِمْ وَعَمَالِكِهِمْ ، مِمَّنْ لَيْسُوا  
مِنْ أَهْلِهَا فِي اللُّغَةِ ، أَوْ فِي اللُّغَةِ وَالِدِينَ . كَمَا بَيْنَ لَنَا طَبَقَاتِ الْكُتُبِ وَأَهْلُ الْأَدَبِ ،  
وَمَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَ الْمُلُوكِ مِنَ الرَّايَةِ وَعَظِيمِ الْأَحْتِرَامِ .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَشُرُوطُهَا وَرُسُومُهَا ، وَمَنْ وَلِيَهَا :  
مِنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَمَرَاكِرِ وَلَايَتِهِمْ ، وَخُلَفَاءِ نَبِيِّ أُمِّيَّةِ الشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ ، وَخُلَفَاءِ  
بَنِي الْعَبَّاسِ بَيْتِغَدَادَ وَمِصْرَ ، وَخُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ بِالْأَمَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَمُدْعَى الْخِلَافَةِ  
مِنْ بَقَايَا الْمُوَحِّدِينَ بِأَفْرِيقِيَّةِ .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَمَا بَلَغَتْهُ مِنْ  
دَرَجَاتِ التَّجَدُّدِ وَالْحَضَارَةِ ، وَحُدُودِهَا ، وَأَنْظِمَتِهَا ، وَرُسُومُهَا ، وَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ  
مِنْ الْقَضَائِلِ وَالْحَاسِنِ ، وَالْخَوَاصِّ وَالسَّجَائِبِ ، وَمَا بَيْنَهَا مِنَ الْأَنْثَارِ الْقَدِيمَةِ ، وَمَنْ وَلِيَهَا  
مِنْ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ جَاهِلِيَّةً وَإِسْلَامًا .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ - وَهُوَ هُوَ ذَلِكَ الْمِصْرِيُّ الصَّيِّمُ ، الَّذِي أَقْلَتْهُ أَرْضُ  
مِصْرَ ، وَأُظْلَمَتْ مِمَّا أَوْهَا ، وَشَرِبَ حَتَّى رَوَى مِنْ نِيْلِهَا - الْبِلَادَ الْمِصْرِيَّةِ ، وَقَضَائِلَهَا  
وَحَاسِنَهَا ، وَخَوَاصِّهَا وَعَجَائِبَهَا ، وَمَا بَيْنَهَا مِنَ الْأَنْثَارِ الْقَدِيمَةِ . وَبَيْنَ نَهْرِ النَّيْلِ وَمَنْبَعِهِ  
وَمَصْبِهِ ، وَزِيَادَتِهِ وَنَقْصِهِ ، وَمَقَابِلَتِهِ ، وَمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ فِي الزِّيَادَةِ ، وَمَا يَصِلُ إِلَيْهِ  
فِي النُّقْصَانِ ، وَخُلُجَانِهِ الْمُتَفَرِّعَةِ عَنْهُ ، وَجُسُورِهِ الْحَاسَةِ لِمَائِهِ . وَبَيْنَ مَجَارِيهَا ،  
وَجِبَالِهَا ، وَزُرُوعِهَا ، وَدِيَارِ حِينَهَا ، وَقَوَاعِ كَهْنَهَا ، وَمَوَاشِيَهَا ، وَوُحُوشِهَا ، وَطُيُورِهَا .  
وَبَيْنَ حُدُودِهَا ، وَأَبْتَدَاءِ عِمَارَتِهَا ، وَسَبَبِ تَسْمِيَّتِهَا بِمِصْرَ ، وَتَفْرَعِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي حَوَّلَهَا

عَنا . وَبَيْنَ أَعْمَالِها وَقَوَاعِدِها الْقَدِيمَةِ ، وَمَبَانِيها الْعَظِيمَةِ الْباقِيَةِ عَلَى مُرُورِ الْأَزمانِ .  
وَبَيْنَ قَوَاعِدِها الْحَدِيثَةِ وما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَحاسِنِ الْأَبْنِيَةِ . وَبَيْنَ مَنْ وَلِيها مِنْ  
الْمُلُوكِ وَالسُّلاطِينِ قَبْلَ الْإِسْلامِ وَبَعْدِهِ . وَبَيْنَ تَرْتِيبِ أَحْوالِها ، وَمُعَامَلاتِها ،  
وَهُودِها ، وَتَرْتِيبِ مَمْلَكَتِها ، وَوُضائِفِ دُولِها الْقَدِيمَةِ وَالْحَدِيثَةِ .

كِتابٌ دُونَ فِيهِ مَؤَلَّفُهُ عِدَّةٌ كُتِبَ أَدَبِيَّةً نَقِيصَةً بِتَمَامِها ، وَجَمَعَ فِيهِ كَثِيرًا مِمَّا تَهَرَّقُ  
فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَؤَلَّفَاتِ .

وَرَتَّبَهُ عَلَى مُقَدِّمَةِ وَعَشْرٍ مَقالاتٍ وَخاتِمَةٍ ، بناها بِالِإِجْمالِ عَلَى التَّعْرِيفِ بِحَقِيقَةِ  
دِيوانِ الْإِنْشاءِ وَأَصْلِ وَضْعِهِ فِي الْإِسْلامِ ، وَتَفَرُّقِهِ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمَمالِكِ ، وَبَيانِ كُتَابَةِ  
الْإِنْشاءِ وَتَفْضِيلِها عَلَى سائِرِ أَنْواعِ الْكُتَابَةِ ، وَصِفَاتِ الْكُتَّابِ وَأَدابِهِمْ ، وَمَنْحَجِ  
فُضْلائِهِمْ وَذَمِّ حَقائِمِهِمْ .

وَمَعْرِفَةِ كُلِّ ما يَحْتَاجُ إِلَيْهِ كُتِيبُ الْإِنْشاءِ فِي الْأُمُورِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ : كَمَعْرِفَةِ الْمَوادِّ  
الْلازِمَةِ لِلنَّشْئِ : مِنَ الْخَطِّ وَتَوَابِعِهِ وَلَوَاحِظِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَمَعْرِفَةِ الْمَسالِكِ وَالْمَسالكِ (عِلْمُ تَقْوِيمِ الْبُلدانِ) : كَمَعْرِفَةِ شَكْلِ الْأَرْضِ وَإِحاطَةِ  
الْبَحْرِ بِها ، وَبَيانِ جِهاتِها الْأَرْبعِ وما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَقالِيمِ السَّبْعَةِ الطَّبِيعِيَّةِ ،  
وَبَيانِ مَوَاقِعِ الْأَقالِيمِ الْعُرْفِيَّةِ مِنْها ، وَذِكْرَ حُدُودِها الْجَامِعَةِ لَها ، وما فِيها مِنَ الْجِبالِ  
وَالْبَحارِ وَالأنْهارِ ، وَالْأَقالِيمِ وَالْمَمالِكِ وَالْبُلدانِ ، وَمُلُوكِها فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ  
وما يَتَّبِعُ ذَلِكَ .

وَمَعْرِفَةِ الْأُمُورِ الَّتِي تَشْتَرِكُ فِيها أَنْواعُ الْمَكْتاباتِ وَالْوِلايَاتِ وَغَيْرِها : مِنْ ذِكْرِ  
الْأَسْماءِ وَالْكُنَى وَمَوَاضِعِ ذِكْرِها فِي الْمَكْتاباتِ ، وَذِكْرِ الْأَقْتابِ وَأَصْلِ وَضْعِها ،  
وما كانَ يُلقَّبُ بِهِ أَهْلُ كُلِّ دَوْلَةٍ إِلَى زَمَنِها ، وَتَقْيِيقَةِ تَوْزِيعِ الْأَعْمالِ عَلَى كُتَّابِ

الإنشاء ، ومقادير قطع الورق وما يناسبها من الأقلام ، وغير ذلك من قوانين الكتابة وأنظمتها .

ومعرفة المكتبات العامة وأصولها ومقاصدها ، في القديم والحديث ، ومصطلح المكتبات الدائرة بين كتاب الإسلام ، وكتب النبي ( صلى الله عليه وسلم ) إلى أهل الإسلام وغيرهم ، والكتب الصادرة عن الصحابة والخلفاء والملوك ومن في معانهم ، وبيان مذاهب الكتاب فيما تفتتح به المكتبات ، وما يحاطب به أهل الإسلام وغيرهم فيها ، وغير ذلك .

ومعرفة الولايات وطبقاتها ، وما يتبعها من البيعات والمهود ، ومعناها ، والولايات الصادرة لأرباب المناصب : من أصحاب السيوف والأقلام وغيرهم .

ومعرفة الوصايا الدينية وما يكتب فيها في القديم والحديث ، والمسامحات والإطلاقات وما يكتب فيهما ، والطرائيات وتحويل السنين ، والتوفيق بين السنين القمرية والشمسية ، وما يكتب في التذكار التي يرجع إليها .

ومعرفة الإقطاعات وأصل وضعها في الشرع ، وما يكتب فيها في القديم والحديث ، وأول من وضع ديوان الجُمُش في الإسلام .

ومعرفة الأيمان وما يقع به القسم ، والأيمان التي أقسم الله تعالى بها ، وما كان يتخلف بها العرب في الجاهلية ، وما يُقسم به أهل كل ملة ونحلة .

ومعرفة عقود الأمانات والصُّلح ، والمُدين الواقعة بين ملوك الإسلام وغيرهم .

وذكر فيه فُتُونًا كثيرة يتداولها الكتاب والأدباء ويتنافسون في عملها ، لا تعلق لها بديوان الإنشاء : كعمل المقامات ، والرسائل الملوكية المشتملة على الغزو

والصِّبْد ، ورسائل المَدْح والذَّم ، ورسائل المُفَاتِحَاتِ بين الأشياء ، والرسائل  
المُشْتَمِلَة على الأسئلة والأجوبة ، والرسائل المكتتَبَة بالحوادث والمآثرات  
وغيرها ، وكتيبات البُنْدُق ، والصُّلُفات المُلَوِّكَة وغيرها ، والعُمَرَات التي تُكْتَب  
للسَّج ، وذاكَ نُسخ من ذلك كُلِّه . وما يُكْتَب عن العُلَمَاء وأهل الأدب : من  
الإجازة بالفتوى والتدريس والمرويات ، وما يُكْتَب على الكُتُب المصنفة والقصائد  
من التقریظات ، وما يُكْتَب عن القضاة : من التقاليد الحُكْمِيَّة وإسجالات الصِّدَالَة  
وغير ذلك .

وتكلم فيه على البرید وأول من وَضَعه في الجاهلية والإسلام ، وبيان معالیه  
ومرآكِزه ، ومطارات الحسام الرسائل وأبراجه بالديار المصرية والبلاد الشامیة ،  
ومرآكِب التلج والمُحْجِن المَعْتَدَة لنقله ، والمتاویر والمُحْرِقات .

وذكر فيه كثيراً من الآيات القرآنية الشريفة والأحاديث النبوية الكريمة ،  
والأمثال والحكم العربيَّة ، وأقوال الكثيرين من أئمة اللغة والتفسير والحديث والفقه  
وطولم العربية .

وأثنى فيه على كثير من أسماء الكُتُب والفنون ، وكثير من أسماء مشاهير المؤلفين  
والعلماء والأدباء والكتّاب والشُعراء .

وأورد فيه من أصول الصَّنعة في الكتابة ما يعني قارئه عن تصفُّح كثير من  
المؤلفات الأدبية وغيرها .

وصمَّه شيئاً كثيراً يفوق الحصر من الرسائل البليغة لمشاهير الكتّاب وأهل الأدب  
في الشرق والغرب والتقديم والحديث .

ولم يترك باباً من أبوابه ولا فصلاً من فصوله دون أن يُحليّه من غرر منشأته  
لنفسه بالمعجب والمُطرب .

ولم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها، ولم يُنادِر شاردة ولا واردة إلا أحصاها .  
فصار كتابه لذلك - كتاب تاريخ وسير، ولغة وأدب، وفقه وتفسير للقرآن  
والحديث، وشرح للأمثال والحكم العربية، وبسط لنظام الحكومات عامة والحكومة  
المصرية خاصة .

وعلى الجملة فهو كتابٌ مُمتنع، ودائرةٌ معارف أدبيةٌ كبرى، يشهد لأثره بالفطنة  
والذكاء، وطوبى الباع في هذا الفنّ الجليل فنّ كتابة الإنشاء، وقوة التمكن في اللغة  
العربية وآدابها، وينطق بماله من كثرة الأطلاع على دقيقتها وجليلها .

وإنّ حسن نيّة مؤلّفه، وأعماده على فضل الله تعالى في النفع به - ساعداً على  
حفظه إلى هذا الزمن من أيدي العوادي، وانتشاره هذا الانتشار العظيم .

فقد قال في خاتمة تأليفه لهذا الكتاب - تحدّثاً بِنعمة الله عليه - بعد أن ذكر أن  
المُصنّفات تتفاوت في الخطوط إقبالاً وإدباراً: فن مرغوب فيه، ومرغوب عنه،  
ومتوسط بين ذلك، وأنه قلّ أن يتفق تأليف في حياة مؤلّفه، أو يروج تصنيف على  
القرب من زمان مُصنّفه، وبعد أن استشهد على ذلك بما رواه المسعودي في كتابه  
"التنبيه والإشراف" عن الجاحظ . قال :

لكنّي أحمد الله تعالى على رواج سوق تألّفي ونفاق سلّته، والمُسارعة إلى  
استيغاثه قبل آخضائه تأليفه، حتّى إنّ قلبي التّأليف والنسخ يتسايقان في ميدان  
الطرس إلى اكتيابه، ومرّتهب تجارته للأمتين ساخ يساهمهما في ارتقابه، فضلاً من  
الله ونعمة : ( ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ) .

## ترجمة مؤلفه

أما مؤلفه "أبو العباس أحمد القلقشندي" رحمه الله تعالى، فقد ترجمه السيخاوي في الجزء الأول من كتابه: "الضوء اللامع"، في أعيان القرون التاسع "فقال:

«هو أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، الشهاب بن الجبال بن أبي اليمن القلقشندي، ثم الفاهري الشافعي».

ولد سنة ست وخمسين وسبعمائة، واشتغل بالفقہ وغيره، وسمع على ابن الشيخة. وكان أحد الفضلاء، ممن برع في الفقه والأدب وغيرهما. وكتب في الإنشاء، ونبأ في الحكم، وشرح قطعاً من "جامع المختصرات" بل شرع في نظمه.

وعمل "صبح الأضنى في قوانين الإنشاء" في أربع مجلدات، جمع فاعى. وكان يستحضر أكثر ذلك مع "جامع المختصرات" و"الحاوي". وألف كتاباً في أنساب العرب. وكان فيه تواضع ومروءة وخير.

مات يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، وله خمس وستون سنة. ذكره المقرئ في "عقوده" والسيقي وآخرون. وسمى المقرئ والدة عبد الله وهو وعمه.



وترجمه صاحب "منازل الذهب في أخبار من ذهب" فقال:

« شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي الشافعي ، تَزِيلُ القاهرة .  
تَفَقَّهَ ومَهَّرَ ، وتَعَالَى الأدب ، وَكَتَبَ فِي الإنشاءِ ، وَتَابَ فِي الْحُكْمِ . وَكَانَ يُسْتَحْضَرُ  
" الحَاوِي " ، وَكَتَبَ شَيْئًا عَلَى " جَامِعِ الْمُخْتَصَرَاتِ " . وَصَنَّفَ كِتَابًا حَافِلًا بِسَمَاءِ  
" صَبِيحِ الْأَعَشَى " فِي معرفةِ الإنشاءِ وَكَانَ مُسْتَحْضَرًا لِأَكْثَرِ ذَلِكَ ، وَصَنَّفَ غَيْرَ ذَلِكَ .  
وَكَانَ مِقْضَالًا وَقُورًا فِي النُّوَلَةِ إِلَى أَنْ تُوُقِّ لَيْلَةُ السَّبْتِ عَاشِرُ جُمَادَى الْآخِرَةِ ، عَنْ  
تَمَسِّ وَتِسْتَيْنِ سَنَةِ <sup>(١)</sup> .



وقد وَقَفْنَا عَلَى شَيْءٍ مِنْ تَرْجُمَتِهِ وَقَدْ تَصَحَّحْتُمْ لِكِتَابِهِ " صَبِيحِ الْأَعَشَى " نُورِدُهُ  
هَنَا ، إِثْمًا لِلْفَائِدَةِ ، فَنَقُولُ :

### مِلَادُهُ وَنَسَبُهُ

وُلِدَ الْمُؤَلِّفُ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَمِئْبَعَاةٍ كَمَا ذَكَرَهُ السَّخَاوِيُّ فِي " الضُّوءِ  
الْلَامِعِ " بِلَدَةٍ يُقَالُ لَهَا " قَلْقَشَنْدَةُ " مِنْ أَعْمَالِ مُدِيرِيَةِ الْقَلْيُوبِيَةِ بِالْبُيَّارِ  
الْمِصْرِيَةِ : مِنْ أَصْلٍ عَرَبِيٍّ صَمِيمٍ ، مِنْ بَنِي بَدْرٍ بْنِ فَرْزَانَ مِنْ قَبَيْسِ عِيْلَانَ .  
وَكَانَ بَنُو فَرْزَانَ وَرَدُّوْا مِصْرَ مِنْ وَرَدَهَا مِنَ الْعَرَبِ ، أَيَّامَ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ وَبَعْدَهُ ،

(١) سَمَاءُ صَاحِبِ " كَشَفِ الظُّلُومِ " مَرَّةً بِأَحَدِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَمَرَّةً أُخْرَى بِأَحَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وَثَلَاثَةً  
بِأَحَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ .

وَذَكَرَ فِي عُرْوَانِ " نَهَايَةِ الْأَرْبِ " قَوْلَهُ ، الْمَطْبُوعُ يَفْقَدُ أَنَّهُ : أَحَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ  
ابْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ إِسْمَاعِيلِ الْقَلْقَشَنْدِيِّ ، النَّشِيرُ بِأَبْنِ أَبِي خَلَّةٍ .

وَرَجَدَ مَكْتُوبًا عَلَى بَعْضِ أَجْزَاءِ " صَبِيحِ الْأَعَشَى " الْخَطِيئَةُ الْمَحْفُوظَةُ بِدَارِ الْكُتُبِ أَنَّهُ أَحَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ  
ابْنِ أَحَدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ إِسْمَاعِيلٍ .

وَنَزَلُوا بِالْقَلْبِ الْقَلْبِيَّةِ ، وَأَسْتَوْلَى بَنُو بَدْرٍ مِنْهُمْ عَلَى أَجَلٍ يَلَاذِهِ . وَكَانَتْ لَهَا الرِّاسَةُ  
وَالْعَلْبَةُ عَلَى حَبْرَانِهِمْ مِنْ بَنِي عَمِّهِمْ بَنِي مَازِنَ بْنِ فَرَّازَةَ . وَكَانَ بِقَلْقَشَنْدَةَ فِرْقَتَانِ :  
فِرْقَةٌ مِنْ بَنِي بَدْرٍ وَفِرْقَةٌ مِنْ بَنِي مَازِنَ <sup>(١)</sup> .

### نَشَأُهُ وَتَرْبِيَّتُهُ

وَنَشَأَ نَشَأٌ حَسَنَةً ، وَتَرْبِيًّا تَرْبِيَّةً عِلْمِيَّةً صَحِيحَةً ، وَتَوَجَّهَ إِلَى تَقَرُّقِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ  
وَأَقَامَ بِهِ مَدَّةً مِنْ عُمْرِهِ ، وَطَلَّبَ الدُّلُومَ الشَّرْعِيَّةَ عَلَى مَشْهُورَى الْعُلَمَاءِ فِي عَصْرِهِ ،  
وَاشْتَغَلَ بِقُنُونِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَدَبِ حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ مِقْدَارٌ وَافِرٌ مِنْهَا : وَأَطْلَعَ عَلَى كَثِيرٍ  
مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَسْفَارِ فِي مُخْتَلَفِ الدُّلُومِ وَالْفُنُونِ .

### إِجَازَتُهُ بِالْفُتْيَا وَالتَّدْرِيسِ

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعًا مِائَةً حِينَ كَانَ مُقِيمًا بِشَرْقِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ أَجَازَهُ الشَّيْخُ  
سِرَاجُ الدِّينِ أَبُو حَفِصٍ عُمَرُ بْنُ أَبِي الْحُسَيْنِ الشَّهِيدُ بَابَنَ الْمَلَقَيْنِ - بِالْفُتْيَا وَالتَّدْرِيسِ -  
عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَلَمْ تَعُكُنْ سَنَةٌ إِذْ ذَاكَ تَتَعَدَّى إِحْدَى  
وَعِشْرِينَ سَنَةً ، كَمَا أَجَازَهُ أَنْ يَرَوِيَ عَنْهُ كُلُّ مَالِهِ مِنَ التَّأْلِيفِ فِي الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ  
وغيرهما ، وَأَنْ يَرَوِيَ كُلَّ مَا جَازَتْ لَهُ رِوَايَتُهُ بِشَرْطِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ ، كَالْكُتُبِ الصَّحَاحِ  
السَّنَةِ ، وَمُسْنَدِ الشَّافِعِيِّ وَمُسْنَدِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَكُنْتُ هَذِهِ الْإِجَازَةَ بِحِطِّ الْقَاضِي تَاجِ الدِّينِ بْنِ عَنُومٍ مُوقِّعِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ  
بِمَدِينَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ .

(١) انظر "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب" مؤلف (ص ١٥٠) .



## تَصَدُّرُهُ لِلْإِفَادَةِ

وجلس بعد ذلك للإفادة، فانتفع الكثيرون من فقهه وورعه وأمانته .  
وعرض عليه كثير من تلاميذه ما حفظوه من الكتب وغيرها في الفقه والأصول  
وعلوم العربية، فأجازهم بما حفظوه منها .

## التَّحَاقُّهُ بِدِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ

وفي شهر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة التحق بدِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْأَبْوَابِ  
السلطانية بالديار المصرية، وأنشأ مقامةً في تَقْرِيطِ الْقَاضِي بَرِّ الدِّينِ ، بن القاضي  
علاء الدين، بن القاضي عُمَيِّ الدِّينِ، بن فَضْلِ اللَّهِ : رئيس دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ وَقَتِيدِ،  
سمّاها "الْكُتُبُ الدَّرِّيَّةُ" في الْمَنَاقِبِ الْبَدْرِيَّةِ<sup>(١)</sup> بناها على التعريف بكتابة الإنشاء  
وعلو قدرها، وعظم خطرها، وأنها الحرفة التي لا يلقى بطالِبُ الْعِلْمِ غيرها، والصَّنَاعَةُ  
التي لا يحوز له العدول عنها إلى ما سواها، وضمّنها كثيراً من أصوب الصنعة في الكتابة  
وفروعها . إلا أنها لإيجازها، مع ما اشتملت عليه من كثير المعاني - احتاجت إلى  
شرح وإيف يكشف إشاراتها، ويوضح عباراتها، فألف كتابه "صبيح الأعشى"  
وجعله كالشرح لها .

وفرح من تأليفه في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شوال سنة أربع  
عشرة وثمانمائة .

---

(١) ذكرت في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى (ص ١١٢) .

## قيمتُهُ في الكتابة والإنشاء

كانت كتابته وإنشاؤه كأنشاء أهل عصره وكتابتهم ، مبناها على التخيّل والأتّام  
المحسنات البديعية : من السجع والجناس والتورية وغيرها ، والغلوّ فيها ، على نحو  
ما كان من كتابة « القاضي الفاضل » و « ابن نباتة » والقاضي « شهاب الدين  
ابن فضل الله العمري » وأضرابهم . غير أنها كانت تبلى أخف رُوحاً وأعظم  
وضوحاً من كتابة أمثاله .

وإنّ من قرأ مقامته التي أنشأها عند ألتجّاته بديوان الإنشاء ، عرّف ما كانت  
عليه : من غزارة المادة ، وسلامة الذوق ، وقوّة الذّاكرة .

## مؤلفاته

وله آليف كثيرة ، منها :

كتاب «صبح الأعشى» في كتابة الإنشاء وهو هذا الكتاب .

وكتاب « ضوء الصبح المُسفر وجنى الدّوح المُثير » وهو مختصر كتاب  
« صبح الأعشى » . طبع الجزء الأول منه في مطبعة الواعظ بالقاهرة  
في سنة ١٣٢٤ هـ .

وكتاب « الثبوت الموابع ، في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع »  
في علم الفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه .

وكتاب "نهاية الأرب"، في معرفة قبائل العرب، في الأنساب، ألفه للقو الجمالي  
يوسف الأموي، وطبع في مطبعة الرياض بمدينة بغداد (دار السلام).  
وكتاب "فلاحة الجمان"، في قبائل العرب، في أنساب العرب أيضا.<sup>(٢١)</sup>  
وله غير ذلك رسائل كثيرة تزيد على المائة أودعها كتابه "صبح الأعشى".



هذا : وقد أسند إلينا تصحيح كتابه "صبح الأعشى" المطبوع على نفقة  
دار الكتب، بالقسم الأدبي بالمطبعة الأميرية. فقمنا نحوه بما يجب بإزاء مؤلف  
جليل مثله، وأجهدنا في تهذيبه وتنقيحه بقدر الطاقة.

وأمستعنا على ما وجدناه بأصله من التحريف الكثير والتصحيح الغريب - زيادة  
على ما فيه من الطميس والسقم في مواضع من بعض أجزائه - بمراجعة كثير من المؤلفات  
في الفنون المختلفة، ونسخ شئ من رسائل الكتب ودواوين الشعراء وأهل الأدب،  
باحثين فيها عن كل موضوع تكلم عنه المؤلف أو أشار إليه في كتابه. ومضى توقفتنا  
في شئ من مسائله أثناء التصحيح : لعدم وضوحه، أو لأن يد النسخ مسختة،  
أو لغير ذلك - رجعنا إلى تلك الكتب والرسائل فصحصحناه منها، مع المحافظة التامة  
على عبارة الأصل مهما بلغت من السقم. وما لم نقف عليه فيها، أبقيناه على حاله،

(١) كما ذكر ذلك المؤلف في خطبه، وذكر صاحب "كشف الظنون" أنه ألفه لأبي الجود «هز بن راشد»  
أمير العربان في البلاد الشوقية والفرنية.

(٢) نسبة صاحب "كشف الظنون" لواله المؤلف، وذكر أنه نبه على ذلك في كتابه "نهاية الأرب".  
[وقد تصفحناه فلم نشر على ذلك].

وَوَضَعْنَا بِجَانِبِهِ جَلَامَةً تَدُلُّ عَلَى التَّوَقُّفِ ، وَوَكَّلْنَاهُ إِلَى فَهْمِ الْقَارِئِ الْكَرِيمِ وَعَبْقَرِيَّتِهِ ،  
نَاسِبِينَ كُلِّ إِصْلَاحٍ أَدْخَلْنَاهُ عَلَيْهِ إِلَى مَوْضِعِهِ مِنْ كُتُبِ الْمُرَاجَعَةِ .

وَقَبَّلْنَا أَكْثَرَ كَلِمَاتِهِ بِالشَّكْلِ ، مُتَّعِدِينَ فِي ضَبْطِهَا عَلَى مَعَاجِمِ اللُّغَةِ الْمَشْهُورَةِ ،  
وَبَدَّلْنَا الْجُهْدَ فِي تَقْرِيبِهِ إِلَى فَهْمِ الْقَارِئِ ، بَوَضِّحَ عِلَامَاتِ التَّرْقِيمِ بَيْنَ جُمْلِهِ وَأَجْزَائِهِ  
عِبَارَاتِهِ .

وَمَيَّزْنَا مَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَمْثَالِ  
الْعَرَبِ وَحِكْمِهَا - بِعِلَامَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ تُمَيِّزُهَا عَنْ سِوَاهَا .

وَوَشَّيْنَا أَكْثَرَ صَفَحَاتِهِ بِمَحَاشِ شَرْحَاتِنَا فِي بَعْضِهَا مَا يُوجَدُ فِي مَتْنِهِ مِنْ غَرِيبِ  
اللُّغَةِ ، وَأَثْبَتْنَا فِيهَا أَسْمَاءَ كُلِّ الْكُتُبِ الَّتِي اعْتَمَدْنَا عَلَيْهَا عِنْدَ التَّصْحِيحِ .

وَهَا هُوَ ذَا قَسَمْنَاهُ لِحَضَرَاتِ قُرَّائِهِ الْكَرَامِ - مِنْ أَكْبَرِ الْكُتَّابِ وَأَسَاطِينِ اللُّغَةِ  
وَالْأَدَبِ - فِي تَوْحِيدِهِ الْجَلِيدِ الَّذِي يَمُرُّ النَّاسُ بِوَسْطِهِ وَيُشْرَحُ الْخَاطِرُ ، مُتَّعِدِينَ إِلَى  
حَضَرَاتِهِمْ فِيمَا يَقْفُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَطِّهِ مُطْبَعٍ وَقَعَ فِيهِ أَنْشَاءُ الطَّبْعِ وَلَمْ تَنْلُبْهُ لَهُ ،  
وَالْكَالُ لَهُ وَحْدَهُ .

وَقَفَّيْنَا اللَّهَ تَعَالَى إِلَى مَا يُحِبُّهُ وَبِرِضَاهُ ، وَأَطَانْنَا عَلَى مَشَاقِّ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَوَهَبْنَا  
مِنْ لَدُنْهِ الصَّبْرَ وَحُسْنَ التَّيَّابِ ، فَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

القاهرة في ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ (٢٧ يناير سنة ١٩٢٠)

محمد عبد الرسول  
إبراهيم

دَارُ الْكِتَابِ السَّلْطَانِيَّةِ

كِتَابُ

صَبِيحُ الْأَسْبَحِ

تَالِيفُ

الْشَيْخِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ الْقَلْقَشَنْدِي

الجزء الرابع عشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية.

طبع  
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

سنة ١٣٣٨ هـ  
١٩١٩ م

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمد وآله وصحبه

## الباب الرابع

من المقالة التاسعة

(في الهدنة الواقعة بين ملوك الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان)

## الفصل الأول

في أصول تتعين على الكاتب معرفتها، وفيه ثلاثة أطراف

### الطرف الأول

(في بيان رتبها ومعناها، وذكر ما يرادفها من الألفاظ)

أما رتبها فإنها متاخرة - عند قوة السلطان - عن عقد الجزية : لأن في الجزية ما يدل على ضعف الموقود له ، وفي الهدنة ما يدل على قوته .

وأما معناها فالمهادنة في اللغة المصالحة ، يقال : هادته يهادنه مهادنة إذا صالحه والاسم المهدنة . وهي إما من هدن بفتح الدال يهدن بضمها هذونا إذا سكن ، ومنه قولهم : « هذنة على دخن » ، أى مكون على غل ، أو تكون قد سميت بذلك لما يوجد من تأخير الحرب بسببها .

---

(١) أى من باب مثل كاف في الصباح وبه ضبط بالقلم في نسخة خطية من الصحاح ولكن ضبطه في الزاموس واللسان وكذا المحكم بالقلم فييد أنه من باب ضرب ، قلل فيه لتين .

(٢) هذا هو أحد شق التفصيل . أى الهدنة إما من الهدن بمعنى السكون أو من الهدون بمعنى التريث والتأخير .

ويرادفها ألفاظ أخرى :

أحدها — المَوَادعة، ومعناها المصالحة أيضا، أخذنا من قولهم : عليك بالمودع يريدون بالسكينة والوقار، فتكون راجعة إلى معنى السكون . وإما أخذنا من توديع الثوب ونحوه : وهو جعله في صوان يصونه ، لأنه بها تحصل الصيانة عن القتال . وإما أخذنا من الدمة : وهى الخفص والهاء ، لأن بسببها تحصل الراحة من تعب الحرب وكلفه .

الثانى — المسألة ومعناها ظاهرٌ : لأن وقوعها يسلم كل من أهل الجانبين من الآخر .

الثالث — المقاضاة، ومعناها [الحكمة مفاعلة من القضاء بمعنى الفصل والحكم] .

الرابع — الموصافة ، سميت بذلك لأن الكاتب يصف ما وقع عليه الصلح من الجانبين . على أن اللّكَّاب يحضون لفظ الموصافة بما إذا كانت المهادنة من الجانبين ، ولا شك أن ذلك جارٍ في لفظ المَوَادعة والمسألة والمقاضاة أيضا : لأن المفاعلة لا تكون إلا بين اثنين إلا فى ألفاظ قليلة محفوظة ، على ما هو معتز فى علم العربية .

أما لفظ الهدنة فإنه يصلح أن يكون من جانب واحد ، بأن يحدد الأعلى الهدنة لمن هو دونه . على أنها عند التحقيق ترجع إلى معنى المفاعلة ، إذ لا تصور إلا من اثنين .

وأما فى الشرع فعبارة عن صلح يقع بين زعيمين فى زمن معلوم بشروط مخصوصة ، على ما سياتى بيانه فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

والأصل فيها أن تكون بين ملكين مسلم وكافر ، أو بين اثنين ، أو بين أحدهما ونائب الآخر . وعلى ذلك رتب الفقهاء رحمهم الله باب الهدنة فى كتبهم . قال صاحب

«موادّ البيان». وقد يتعاقد عظماء أهل الإسلام على التّوَادُّع والتّسالم وأعتقاد المودّة والتّصافي، والتّوازر والتّعاون، والتّعاوُذ والتّناصر؛ ويشترط الأضعف منهم للأقوى تسلّم بعض ما في يده والتّفادى عنه بمعاطفته والأقباد إلى أتباعه، والطاعة والاحترام في المخاطبة، والمجاملة في المعاملة، أو الإمداد بمجيش، أو أمتثال الأوامر والنواهي وغيرها مما لا يحصى.

قلت: وقد يكون المالكان متساويين في الرتبة أو متقاربين، فيقع التّعاوُذ بينهما على المسألة والمصافاة، والموازرة والمعاونة، وكفّ الأذية والإضرار وما في معنى ذلك، دون أن يلترّم أحدهما للآخر شيئاً يقوم به أو إتاوة يحملها إليه؛ ولكلّ مقام مقال، والكتّاب الماهر يوفّي كلّ مقام حقه، ويُعطى كلّ فصل من الفصول مستحقّه.

## الطرف الثاني

(في أصل وضعها)

أما مُهادنَةُ أهل الكُفْرِ فالأصل فيها قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةً أَشْهُرًا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾.

وما ثبت في صحيح البخاريّ من حديث عُرْوَةَ بن الزُّبَيْرِ رضى الله عنه: «أَنَّ قُرَيْشًا وَجَّهَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَّو بِالْحُدَيْبِيَّةِ حِينَ صَلَّاهُ قُرَيْشٌ عَنِ الْبَيْتِ - مُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو، فَقَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَاتِ [أَكْتُبْ] بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْتُبْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ



«الرحيم». فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن أكتب: «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كما كُنتَ تكتب». فقال المسلمون: والله لا نكتب إلا: «بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أكتب: «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ - ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله - فقال سهيل: «والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدّدناك عن البيت ولا نأتيناك؛ «ولكن أكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: والله «إني لرسول الله وإن كذبتوني، أكتب محمد بن عبد الله، ثم قال النبي «صلى الله عليه وسلم: على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف به - فقال «سهيل: والله لا نتحدّث العرب أنا قد أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من «العام المقبل، فكتب - قال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك من رجل «وإن كان على دينك إلا ردّدته إلينا - قال المسلمون: سبحان الله! «كيف يردّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً! فيينا هم كذلك، إذ جاء «أبو جندل يرسف في قيوده، وقد خرج من مكة حتى رعى نفسه بين «أظهر المسلمين - فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن «تردّه إلى - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنا لم نقض الكتاب بعد - «قال: فوالله [إذا] لا أصالحك على شيء أبدا - قال النبي صلى الله «عليه وسلم: فآخزّه لي - قال: ما أنا بآخزّيه لك - قال بلى فافعل - !

« قال : ما أنا بفاعِلٍ . قال مِكرَزُ بْنُ حَفْصٍ : بل قد أُجْزَاهُ لك . قال »  
 « أَبُو جَنْدَلٍ : أَى مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ : أُرِدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا ؟ »  
 « أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ ؟ وَكَانَ قَدْ عَذَّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللَّهِ تَعَالَى . »  
 « قال عمرُ بْنُ الْخَطَّابِ : فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْتُ : «  
 « أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا ؟ قال بلى ! قلتُ : أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُونَا عَلَى  
 « الْبَاطِلِ ؟ قال بلى ! قلتُ : فلم تُعْطِ الدِّينَةَ فِي دِينِنَا إِذَا ؟ قال : إني  
 « رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَغْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي » .

قلت : هذا ما أورده البخاريُّ في حديث طَوِيلٍ<sup>(١)</sup> . والذي أورده أصحابُ  
 السِّيرِ أن البَكَّابَ كان على بَنِ أَبِي طَالِبٍ ، وأن تُسْفَعَةَ الْكَتَّابِ :

« هذا ما قاضاهُ عليه مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مُهَيْلَ بْنَ عَمْرِو بْنِ وَضْعِ الْحَرْبِ »  
 « عَنْ النَّاسِ عَشْرَ مِائَتِينَ ، وَأَنَّهُ مِنْ أَحَبِّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ »  
 « وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ ، وَمِنْ أَحَبِّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ »  
 « دَخَلَ فِيهِ » .

وأشهد في الْكَتَّابِ عَلَى الصَّائِحِ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ .

(١) ذكر هذا الحديث بتمامه في كتاب الصلح وهو في ج ٤ من " إرشاد الساري " لتسلاطاني رحمه الله

## الطرف الثالث

( فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن )

قال في "مواد البيان" : وهذا الفن من المكتبات له من التولية محل خطير ، ومن الملكية موضع كبير ، ويتعين على الكاتب أن يحل له فكره ، ويعمل فيه نظره ، ويتوفر عليه توفراً يحكم مبادئه ، ويهدب معانيه .  
والذى يلزم الكاتب في ذلك نوايا :

## النوع الأول

( ما يخص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام وأهل الكفر )

وهي الشروط الشرعية المعتبرة في صحة العقد ، بحيث لا يصح عقد الهدنة مع إهمال شيء منها . وهي أربعة شروط :

الأول — في العاقد . ويختلف الحال فيه باختلاف العقود عليه : فإن كان المقود عليه إقليماً : كالهند والروم ونحوهما ، أو مهادنة الكفار مطلقاً ، فلا يصح العقد فيه إلا من الإمام الأعظم أو من نائبيه العام المفوض إليه التحدث في جميع أمور المملكة . وإن كان على بعض القرى والأطراف ، فلا حاجة للولاية الجاورية لهم عقد الصلح معهم .  
الثاني — أن يكون في ذلك مصلحة للمسلمين : بأن يكون في المسلمين ضعف أو في المال قلة ، أو توقع إسلامهم بسبب اختلاطهم بالمسلمين ، أو طمع في قبولهم الجزية من غير قتال وإغناك مال . فإن لم تكن مصلحة فلا يهادنون بل يقتلون حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية إن كانوا من أهلها .

الثالث — أن لا يكون في العقد شرط يأباه الإسلام : كما لو شرط أن يترك بأيديهم مالٌ مسلم ، أو أن يرده عليهم أسيرٌ مسلم أفلت منهم ، أو شرط لهم على المسلمين

مأل من غير خوفٍ على المسلمين، أو شُرِطَ رَدُّ مُسَايَةِ إِيَّاهُمْ، فلا يصحُّ التَّقَدُّمُ مَعَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بخلاف ما لو شُرِطَ رَدُّ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ أَوْ الْمَرْأَةِ الْكَافِرَةِ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغُ الصَّحَّةُ. قال الغزالي : وقد جرت العادةُ أَنْ يَقُولَ : <sup>(١)</sup> عَلَى أَنْ مَنْ جَاءَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

رَدَدْتُمُوهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مُسَالِّمًا رَدَدْنَاهُ . فَإِنْ كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَخِيفٌ عَلَيْهِمْ، جَازَ الْكِرَامُ الْمَالَ لَهُمْ دَفْعًا لِلشَّرِّ، كَمَا يَجُوزُ فَكُّ الْأَسِيرِ الْمُسْلِمِ إِذَا عَجَزْنَا عَنْ أَنْتَرَاعِهِ .

الرابع - أَنْ لَا تَبِيدَ مِثَّةُ الْهُدْنَةِ عَنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ عِنْدَ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْنِهِمْ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَبْلُغَ مِثَّةُ بَحَالٍ، وَفِيَا دُونَ سَنَةٍ وَفَوْقَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ قَوْلَانِ لِلشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَحَدُهُمَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ. أَمَّا إِذَا كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَهَنًا خَوْفٌ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ الْمَهَادَنَةُ إِلَى عَشْرِ سِنِينَ ؛ فَقَدْ هَدَانَتْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ مَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ كَمَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ . وَلَا يَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَيْهَا عَلَى الصَّحِيحِ، وَفِي وَجْهِ تَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَى ذَلِكَ لِلصَّالِحَةِ . فَلَوْ أُطْلِقَ الْمِثَّةُ فَالصَّحِيحُ مِنْ مَلْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهَا فَاسِدَةٌ، وَقِيلَ : إِنْ كَانَتْ فِي حَالِ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ حُمِلَتْ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ، وَإِنْ كَانَتْ فِي حَالِ الْقُدْرَةِ : فَقَدْ قِيلَ تَحْمِلُ عَلَى الْأَقْلِ : وَهُوَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، وَقِيلَ عَلَى الْأَكْثَرِ : وَهُوَ مَا يَقَارِبُ السَّنَةَ . وَلَوْ صَرَّحَ بِالزِّيَادَةِ عَلَى مَا يَجُوزُ عَقْدُ الْهُدْنَةِ عَلَيْهِ : فَإِنْ زَادَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فِي حَالِ الْقُوَّةِ أَوْ عَلَى عَشْرِ سِنِينَ فِي حَالِ الضَّعْفِ صَحَّ فِي الْمِثَّةِ الْمُعْتَبَرَةِ وَبَطَلَ فِي الزَّائِدِ . فَإِنْ أَحْتَجَّ إِلَى الزِّيَادَةِ عَلَى الْعَشْرِ، عَقِدَ عَلَى عَشْرِ ثُمَّ عَشْرٍ ثُمَّ عَشْرٍ قَبْلَ تَقْصِي الْأَوَّلَى، قَالَهُ الْفُورَانِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِنَا الشَّافِعِيَّةِ . وَذَهَبَ أَصْحَابُ مَالِكٍ رَحِمَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَنَّ مِثَّتَهَا غَيْرُ مُعْدُودَةٍ، بَلْ يَكُونُ مُوَكَّلًا إِلَى اجْتِهَادِ الْإِمَامِ وَرَأْيِهِ .

(١) يَبَاضُ فِي الْأَصْلِ بِقَدْرِ كَلِمَةِ وَلَهُ « نَهَادْتُمْ عَلَى الْخِ » .

## النوع الثاني

(ماشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر والإسلام، وعقود الصلح  
الجارية بين زعماء المسلمين، وهي ضربان)

## الضرب الأول

(الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق عليها بين

الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم)

وليس لها حدٌ يحصرها، ولا ضابطٌ يضبطها، بل بحسب ما تدعو الضرورة إليه  
في تلك الهدنة بحسب الحال الواقع .

فمن ذلك — أن يشترط عليه أن يكون لوكه موالياً، ولعدوه مُعادياً، ولساليه  
مُسالمياً، ولجاره مُحارباً، ولا يُواطىء عليه عدواً، ولا يوقع عليه صلحاً، ولا يُوافق  
على ما يقدح في أمره، ولا يقبل سؤال سائل، ولا يذلّ بذل، ولا رسالة مُراسل  
مما يخالف الاتفاق الجاري، والأخذ على يد من سعى في تقويض الصلح ونكث  
العهد إن كان من أهل طاعته، والمقاتلة إن كان من المخالفين له، وأنه إذا جنى  
من أهل مملكتهم جاني كان عليه إحضاره أو الأخذ منه بالجنابة .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أن يكف عن بلاده وأعماله، ومطرف ثغوره،  
وشاسع نواحيه — أيدي الداخلين في جماعته، والمُضمين إلى حوزته، ولا يجهز لها  
جيشاً، ولا يحول لها غزواً، ولا يبدأ أهلها بمنازعة، ولا يشرع لهم في مُقارعة،  
ولا يتناوبهم بمكيّة ظاهرة ولا باطنة، ولا يُعاملهم بأذية جليّة ولا خفيّة،  
ولا يطلق لأحد من ينوب عنه في إمارة جيشه، ومن يُنسب إلى جليلته، ويتصرف

على إرادته - عتانا إلى شيء من ذلك بوجه من الوجوه، ولا سبب من الأسباب، وأن لا يجاوز حدود مملكته إلى المملكة الأخرى بنفسه ولا بعسكر من عساكره .

ومن ذلك - أن يشترط عليه أن يُفْرَجَ عمن هو في حوزته ممن أحاطت به رِيقَةُ الأَمِير، ويُمَكِّنهم من المسير إلى بلادهم: بأنفسهم وخدمهم وعبادهم وأتباعهم، وأصناف أموالهم، في أتم حراسة، وأكمل خفارة، دون كلفة ولا مشونة تلحقهم على إطلاعهم، ونحو ذلك .

ومن ذلك - أن يشترط عليه ما لا يحمله إليه في كل سنة، أو أن يُسَلَّم إليه ما يختاره: من حصون وقلاع وأطراف وسواحل مما وقع الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين، أو أحب أقرانه أو أضافته من بلاد من يهادنه من ملوك الكفرة؛ وأن يُنَيِّقَ من بها من أهلها، ويُقرِّدهم فيها بحرهم وأولادهم ومواشيهم وأزوادهم وسلاحهم وآلاتهم، دون أن يلتبس عن ذلك أو عن شيء منه مالا، أو يطلب عنه بدلا، وما يفترط في هذا السلوك .

ومن ذلك - أن يشترط عليه عدم التعرض لتجارت مملكته، والمسافرين من رعيته، برا وبحرا بنوع من أنواع الأذية والإضرار، في أنفسهم ولا في أموالهم، وللعجائرين للبحر عدم ركوب المراكب الحربية التي لا يتأد التجار ركوب مثلها .

ومن ذلك - أن يشترط عليه إمضاء ما وقعت عليه المعاقدة، وأن لا يرجع عن ذلك ولا عن شيء منه، ولا يؤثر شيئا عن الوقت الذي (١) ... ..

ومن ذلك - أن يشترط عليه أنه إذا بقي من مدة الهدنة مدة قريبة مما يحتاج إلى التعمية فيه، أن يعلمه بما يُريد من مهادنة أو غيرها .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أنه إذا انقضى أمد الهدنة على أحد من الطائفتين وهو في بلاد الآخرين، أن يكون له الأمن حتى يلحق مأمته .

ومن ذلك — أن يشترط ما لا يحمله إليه في الحال أو في كل سنة، أو حصوئاً، أو بلاداً يسلمها من بلاده، أو مما يطلب عليه من بلاد مهادنه، إلى غير ذلك من الأمور التي يجري عليها الاتفاقات مما لا تحصى كثرة .

### الضرب الثاني

(بما يلزم الكاتب في كتابة الهدنة — تحرير أوضاعها، وترتيب

قوانينها، وإحكام معاقبتها)

وذلك باعتبار أمور :

منها — أن يكتب الهدنة فيما يناسب الملك الذي تجرى الهدنة بينه وبين ملكه، ولم أر من تعرض في الهدن لمقدار قطع الورق وإن كثرت كتابتها في الزمن المتقدم بين ملوك الديار المصرية وبين ملوك الفرنج، كما سيأتى ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .  
والذي ينبغي أن يراعى في ذلك مقدار قطع الورق الذي يكتب فيه الملك الذي تقع الهدنة معه : من قطع العادة أو الثلث أو النصف .

ومنها — أن يأتى في افتتاحها ببراعة الاستهلال : إما يذكر تحسين موقع الصلح والتدب إليه ويمن عاقبته، أو يذكر السلطان الذي تصدر عنه الهدنة، أو السلاطين المتهادين، أو الأمر الذي ترتب عليه الصلح، وما يجرى هذا الجرى مما يقتضيه الحال ويستوجبه المقام .

ومنها — أن يأتى بعد التصدير بمقدمة يذكر فيها السبب الذي أوجب الهدنة ودعا إلى قبول المودعة .

فإن كانت الهدنة مع أهل الكفر، احتج للإجابة إليها بالآتيار بأمر القرآن والأقياد إليه، حيث أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمطوعة على الصلح والإجابة إلى السلم بقوله : ( وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَنِحْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ) . وما وردت به السنة من مصالحته صلى الله عليه وسلم قريشاً عام الحديبية، وذكر ما سنح له من آيات الصلح وأحاديثه، وما جرى عليه الخلفاء الراشدون من بعده، وكفهم عن القتال وقوفاً عند ما حدث لهم . وأنه لولا ذلك لشرعوا الأيسنة إلى مخالفتهم في الدين، وركضوا الحيات إلى جهاد من يلهم من الملحدين :

وإن كان الصلح بين مسلمين احتج بنحو قوله تعالى : ( وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ) . وبأحاديث التحذير من قتال المسلمين كقوله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا آتَى الْمُسْلِمَانِ بَسِيفَتَيْهِمَا فَقَتِلْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ » وما يجرى هذا الخبر .

ومنها - أن يراعى المقام في تجهيل المتهاذين أو أحدهما بحسب ما يقتضيه الحال، ووصف كل واحد منهما بما يليق به : من التعظيم، أو التوسيط، أو انحطاط الرتبة بحسب المقام، ويمر على حسب ذلك في الشدة واللين .

فإن كانت الهدنة بين متكافئين سويي بينهما في التعظيم، وجرى بهما في الشدة واللين على حد واحد، إلا أن يكون أحدهما أسن من الآخر، فيراعى للأسن ما يجب له على الحديث من التأديب معه، ويراعى للخصم ما يجب له على الكبير من الحنو والشفقة .

وإن كانت الهدنة من قوى لضعيف، أخذ في الاستعداد، آتياً بما يدل على علو الكلمة، وأنيساط الفكرة، وحصول النصرة، واستكمال العدد، وظهور الأيد،



ووفور الجُنْدِ، وقُصُور الملوك عن المطاوعة، وعجزهم عن المحاولة، ونحو ذلك مما يخرط في هذا السلوك، لا سيما إذا كان القوى مسلماً والضعيف كافراً، فإنه يجب .  
الازدياد من ذلك، وذكُرنا للإسلام من العِزَّة، وما توالى له من النُصرة، وذكُر  
الوقائع التي كانت فيها نُصرة المسلمين على الكُفار في المواطن المشهورة، والأماكن  
المعروفة، وما في معنى ذلك .

وإن كانت المَدَنَة من ضَعِيفٍ لِقَوِيٍّ، أَخَذَ فِي الْمَلَانَةِ بِحَسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ،  
مَعَ إِظْهَارِ الْجَلَادَةِ، وَمَسَاكِ الْقُوَّةِ، خُصُوصاً إِذَا كَانَ الْقَوِيُّ الْمَعْقُودُ مَعَ الْمَدَنَةِ  
كَافِراً . وَإِنْ شَرَطَ لَهُ مَالاً عِنْدَ ضَعْفِ الْمُسْلِمِينَ لِلضَّرُورَةِ أُنِيَ فِي كَلَامِهِ بِمَا يَقْبَضِي  
أَنَّ ذَلِكَ رَغْبَةٌ فِي الصَّلَاحِ الْمَأْمُورِ بِهِ، لَا عَنْ خَوَرٍ طِبَاجٍ وَضَعْفِ قُوَّةٍ، إِذَ اللَّهُ تَعَالَى  
يَقُولُ : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ .

ومنها - أَنْ يَتَحَفَّظَ مِنْ سَقِطٍ يُدْخِلُ عَلَى الشَّرِيعَةِ قَبِيصَةً، إِنْ كَانَتْ الْمَهَادَنَةُ  
مَعَ أَهْلِ الْكُفْرِ، أَوْ يَجْرُ إِلَى سُلْطَانِهِ وَهَيْبَتِهِ، إِنْ كَانَتْ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ؛ وَيَتَحَدَّرُ كُلُّ  
إِلْحَادٍ مِنْ خَلَلٍ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ مِنْ أَهْمَالِ شَيْءٍ مِنَ الشُّرُوطِ، أَوْ ذِكْرِ شَرْطٍ فِيهِ خَلَلٌ  
عَلَى الْإِسْلَامِ أَوْ ضَرْرٌ عَلَى السُّلْطَانِ، أَوْ ذِكْرِ لَفْظٍ مُشْتَرَكٍ أَوْ مَعْنًى مُتَشَبِّهٍ يُوقِعُ  
شُبْهَةً تُوجِبُ السَّبِيلَ إِلَى التَّأْوِيلِ؛ وَإِنْ يَأْخُذُ الْمَأْخُذَ الْوَاضِعَ الَّذِي لَا تَوَجُّهَ طَيْبِهِ  
مُعَارَضَةً، وَلَا تَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ مُتَقَضَّةً، وَلَا يَدْخُلُهُ تَأْوِيلٌ .

ومنها - أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ الْمَدَنَةَ وَقَعَتْ بَعْدَ أَسْتِخَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَرْوِيَةِ النَّظَرِ فِي ذَلِكَ  
وظُهُورِ الْخَيْرِ فِيهِ، وَمُشَاوَرَةِ قَوِيِّ الرَّأْيِ وَأَهْلِ الْجِيْهِ، وَمُوَافَقَتِهِمْ عَلَى ذَلِكَ .

ومنها - أَنْ يُبَيِّنَ مَتَى الْمَدَنَةُ . فَقَدْ تَهْتَمُّ أَنْ الصَّحِيحُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ  
إِذَا لَمْ تُبَيِّنِ الْمَتَى فِي مَهَادَنَةِ أَهْلِ الْكُفْرِ فَسَلَتْ الْمَدَنَةُ .

قال في " التعريف " : وقد جرت العادة أن يحسبوا مدة سنين شمسية فيحسروا حسابها بالقمرية . ويدكر سنين وأشهر وأياماً وساعات حتى يستوفي السنين الشمسية المهادنة عليها . أما في عقد الصلح بين مسلمين فإنه لا يشترط ذلك ، بل ربما قالوا : إن ذلك صار لازماً للأبد ، حتى في الولد وولد الولد .

ومنها - أن يبين أن الهدنة وقعت بين المملكين أنفسهم ، أو بين نائبيهما ، أو بين أحدهما ونائب الآخر ، ويستوفي ما يجب لكل قسم منها .

فإن كانت بين المملكين أنفسهم بغير واسطة بين ذلك ، ذكر ما أخذ طليهما من العهود والمواثيق ، والأيمان الصادرة من كل منهما ، وذكر ما وقع من الإشهاد بذلك طليهما ، وما جرى من ثبوت حكمه إن جرى فيه ثبوت ونحو ذلك .

وإن كانت بين المكتوب عنه ونائب الآخر ، بين ذلك ، وتعرض إلى المستند في ذلك : من حضور كاتب من الملك الغائب بتفويض الأمر في ذلك إلى نائبيه ، وأنه وصل على يده أو يد غيره ، والإشارة إلى أنه معنون بعنوانه ، مختم بختمه المتعارف عنه أو وكالة عنه . ويتعرض إلى قيام البينة بها وثبوتها بجائز الحكم ونحو ذلك من المستندات .

وإن كانت بين نائبين ، بين ذلك وذكر مستند كل نائب منهما على ما قسم ذكره . ويتعرض إلى أن النائب في ذلك قام فيه بأختياره وطواعيته ، لا عن إكراه ولا إجبار ، ولا قهر ولا جلبة ، بل لما رأى لنفسه والمستند في ذلك من المصلحة والخط . وأن كاتب الهدنة قرئ عليه وبين له فضلاً فصلاً ، وترجم له بموافق به ، إن كان لا يعرف العربية ونحو ذلك .

ومنها - أن يتعرض إلى ما يجري من التحليف في آخرها : على الوفاء ، وعدم النكث والإخلال بشيء من الشروط ، أو الخروج عن شيء من الالتزامات ،

أَوْ مُحَاوَلَةِ التَّوْبِيلِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، أَوِ السَّعْيِ فِي تَقْضِيهِ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ،  
وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ :

فَإِنْ كَانَتْ بَيْنَ مَلَكََيْنِ ، تَعَرَّضَ إِلَى تَحْلِيلِ كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى التَّوْفِيقِ بِذَلِكَ .  
وَإِنْ كَانَتْ بَيْنَ أَحَدِهِمَا وَنَائِبِ الْآخَرِ ، حُلْفَ الْمَلِكِ كَمَا تَقْدَمُ ، وَسَتَاتِي صُورَةَ  
الْحَلْفِ الَّذِي يَقَعُ فِي الْهَدَنِ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْإِيمَانِ فِيَا بَعْدُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنها - أَنْ يُحَرَّرَ أَمْرُ التَّارِيخِ بِالرَّبِّ وَمَا يُؤَزَّخُ بِهِ فِي مَمْلَكَةِ الْمَلِكِ الْمُهَادِنِ : مِنْ  
السَّهْرِيَّاتِ وَالرُّوْمِيِّ وَغَيْرِهِمَا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَلَمْ عَادَةً أَنْ يَحْسُبُوهَا مَدَّةَ  
سِنِينَ شَمْسِيَّةٍ فَيُحَرَّرَ حَسَابُهَا بِالْقَمَرِيَّةِ ، وَيَذْكُرُ سِنِينَ وَأَشْهُرًا وَأَيَّامًا وَمَسَاعِدَ حَتَّى  
يَسْتَكْمِلَ السِّنِينَ الشَّمْسِيَّةِ الْمُهَادِنَ عَلَيْهَا . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى التَّارِيخِ مِنْ  
الْمَقَالَةِ الثَّلَاثَةِ كَيْفِيَّةَ مَعْرِفَةِ التَّوَارِيخِ وَاسْتِخْرَاجِهَا .

ومنها - أَنْ يَقَعَ الْإِمْتِهَادُ عَلَى كُلِّ مِنَ الْمُتَعَاذِينَ بِذَلِكَ ، وَلَا يَأْسُ بِإثْبَاتِ ذَلِكَ .  
وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّهُ يَشْهَدُ عَلَى كُلِّ مَلِكٍ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِ لِيُقْضَى عَلَى مَلِكِهِمْ  
بِقَوْلِهِمْ وَإِنْ كَانَ مُحَالِفًا فِي الدِّينِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ «أَشْهَدُ عَلَى مُصَالِحَتِهِ مَعَ قُرَيْشٍ رِجَالًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرِجَالًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» .  
وَرَبَّمَا طَلَبَ النَّائِبُ عَنِ الْمَلِكِ الْغَائِبِ إِحْضَارَ نُسْخَةِ مُهَادَنَةٍ مِنْ جِهَةِ مُسْتَتَبِعِهِ  
عَلَى مَا وَقَعَ بِهِ الْعَقْدُ ، مَشْمُولَةً بِخَطِّ الْكُتَّابِ ، مَشْهُودًا عَلَيْهِ فِيهَا بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ،  
أَوْ يُجْهَزُ إِلَيْهِ نُسْخَةٌ يَكْتُبُ عَلَيْهَا خَطَّهُ ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهِ فِيهَا أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ . وَالْغَائِبُ  
الْأَكْثَفَاءُ بِالرُّسُلِ فِي ذَلِكَ .

## الفصل الثاني

في صورة ما يكتب في المهادنات والسجلات، ومذاهب  
الكتاب في ذلك، وفيه طرفان

### الطرف الأول

( فيما يستنبط ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم - وتُخلد منه نسخٌ بالأبواب  
السلطانية ، وتُدفع منه نسخٌ إلى ملوك الكُفَر )  
ثم ما يكتب في ذلك على تَمَطين :

### النمط الأول

( ما يكتب في طُورِ الهُدنة من أعلى الدَرَج )

وقد جرت العادة أن يشتح بلفظ « هذا » أو لفظ « هذه » وما في معنى ذلك ،  
مثل أن يكتب : « هذا عَقْدٌ صُلِحَ » أو « هنا كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « هذه مُوَادعة »  
أو « هذه مُوَاصَفَةٌ » وما أشبه ذلك . وربما حُنف المبتدأ وهو « هذا » وأكتفى  
بالخبر عنه ، مثل أن يقال : « كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « كِتَابُ مُوَادعةٍ » أو « عَقْدٌ مُصَالِحَةٍ »  
وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة بعقدِ صُلِحَ أنشأها لِيُنسَجَ على مِنوَالِها ، وهي :

هذا عَقْدٌ صُلِحَ انتظم به عُقُودُ المَصَالِح ، وأنسقت بواسطته سُبُلُ المَنَاجِح ؛  
وتَحَلَّتْ بِحُسْنِ مُقَدِّمَتِهِ النَادَى وَتَرَنَّمَ بِحُسْنِ نَتِيجَتِهِ الرَّائِح . عاقَدَ عليه السلطانُ فلانُ  
فلاناً القائمَ في عَقْدِ هذا الصُّلحِ عن مَرِيسِلِهِ فلان ، حَسَبَ مَا قَوَّضَ إِلَيْهِ الْأَمْرَ في ذلك  
في كِتَابِهِ الوَاصِلِ على يَدِهِ ، المُوَرَّخِ بكذا وكذا ، المُعْتَوَّنُ بِعنوانه ، المُخْتَوِّمُ بِطابَعِهِ

الْمُتَعَارِفَ عَنْهُ - عَلَى أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا . وَيُشْرَحُ مُلَخَّصَ مَا يَقَعُ مِنَ الشُّرُوطِ الَّتِي يَقَعُ عَلَيْهَا الْإِتِّفَاقُ بَيْنَهُمَا فِي الصُّلْحِ إِلَى آخِرِهَا ؛ ثُمَّ يُقَالُ : عَلَى مَا شَرَحَ فِيهِ .

## الْمَقْطُ الثَّانِي

( مَا يُكْتَبُ فِي مَتْنِ الْمُحْدَنَةِ ، وَهُوَ عَلَى نَوْعَيْنِ )

### النَّوْعُ الْأَوَّلُ

( مَا تَكُونُ الْمُحْدَنَةُ فِيهِ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ )

بأن يكون المملكان متكافئين ، [ فَيَتِمُّاقْدَانِ إِمَّا عَلَى حِصْنٍ <sup>(١)</sup> ] وَإِمَّا عَلَى مَالٍ يُعْطِيهِ الْمَلِكُ الْمَعْقُودُ لَهُ الْمُحْدَنَةُ لِمَا قَدْ لَهَا ، كَمَا كَانَ يُكْتَبُ عَنْ صَاحِبِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ .  
وَاللَّكَّابُ فِيهِ مَذْهَبَانِ :

### المذهب الأول

( أَنْ تُفْتَحَ الْمُحْدَنَةُ بِقِطْعَةٍ : « هَذَا مَا هَادَنَ عَلَيْهِ » )

أَوْ « هَذِهِ مُحْدَنَةٌ أَوْ مُوَادَعَةٌ أَوْ مُوَاصَفَةٌ أَوْ سِلْمٌ أَوْ صُلْحٌ » أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الطَّرِيقَةِ

وعلى ذلك كُتِبَ كِتَابُ الْقَضِيَّةِ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ طَامِ الْخُدَيْبِيَّةِ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى أَصْلٍ مُشْرُوعِيَّتِهِ .

وهذه نسخة مُحْدَنَةٍ كُتِبَ بِهَا عَنْ سُلْطَانٍ قَوِيٍّ ، لِلْمَلِكِ مَضْعُوفٍ ، بِاشْتِرَاطِ مَا لِي يَقُومَ بِهِ الْمَضْعُوفُ لِلْقَوِيِّ فِي كُلِّ سَنَةٍ أَوْ حُصُونٍ بِسَائِمِهَا لَهُ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، وَهِيَ :

هَذَا مَا هَادَنَ عَلَيْهِ ، وَأَجَلَ إِلَيْهِ ، مَوْلَانَا السُّلْطَانُ فَلَانٌ - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ وَشَرَّفَ بِهِ زَمَانَهُ - الْمَلِكُ فَلَانَا الْفَلَانِي . هَادَنَهُ حِينَ تَرَدَّدَتْ إِلَيْهِ رُسُلُهُ ، وَتَوَالَتْ عَلَيْهِ

(١) الزيادة من المقام لاستغناء الكلام .

كُتِبَ ؛ وَأَمَلَهُ ، لِيُؤَمِّلَهُ ؛ وَسَأَلَهُ ، لِيَكُفَّ عَنْهُ أَسْلَهُ ؛ حِينَ أَبَتْ صِفَاحُهُ أَنْ تَصْفَحَ ،  
وَسَمَاءُ عَجَاجِهِ بِاللَّهِمَّ إِلَّا أَنْ تَسْفَحَ ؛ فَرَأَى - سَدَّ اللَّهُ أَرَاهُ - أَنْ الصُّلْحَ أَصْلَحَ ،  
وَأَنْ مُعَامَلَةَ اللَّهِ أَرْبَحَ ؛ وَهَادَنَ هَذَا الْمَلِكَ (وَيَسْمِيهِ) عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ، وَوَلَدِهِ  
وَنَسْلِهِ ؛ وَبِجَمِيعِ بِلَادِهِ ، وَكُلِّ طَائِفَةٍ وَتَلَادَةٍ ؛ وَمالَهُ مِنْ مَلِكٍ وَمَالٍ ، وَجِهَاتٍ  
وَأَعْمَالٍ ، وَعَسَاكِرٍ وَجُنُودٍ ، وَجُجُوعٍ وَخُشُودٍ ؛ وَرَعَايَا فِي مَمْلَكَتِهِ مِنَ الْمُقِيمِ وَالطَّائِرِ ،  
وَالسَّائِرِ بِهَا وَالسَّارِي - هَذِهِ مُدَّتْهَا أَوَّلُ تَارِيخِ هَذِهِ السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ وَمَا يَتْلُوهَا ، مَدَّةٌ  
كَذَا وَكَذَا مِنْ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ وَسَاعَاتٍ ، يَحْمِلُ فِيهَا هَذَا الْمَلِكُ فَلَانٌ إِلَى يَتِّ مَالِ  
الْمُسْلِمِينَ ، وَإِلَى تَحْتِ يَدِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فَلَانٍ قَاسِمٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ  
كَذَا وَكَذَا - يَقُومُ بِهِ هَذَا الْمَلِكُ مِنْ مَالِهِ ، وَمَا يَتَكَفَّلُ بِجَبَائِثِهِ مِنْ حِزْبِيَّةِ أَهْلِ بِلَادِهِ  
وَنَحَائِجِ أَعْمَالِهِ ؛ عَلَى أَصْطَافِ كَذَا وَكَذَا - قِيَامًا لَا يُجُوجُ مَعَهُ إِلَى تَكْلِيفِ مُطَالَبَةٍ ،  
وَلَا إِلَى تَنَاوُلِهِ بِيَدِ مُغَالِبَةٍ .

عَلَى أَنْ يَكُفَّ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ عَنْهُ بِأَسْأَتِهِ ، وَخِيَلَةِ الْمُطَلَّةِ عَلَيْهِ فِي صَبَاحِهِ  
وَمَسَائِهِ ؛ وَيَضُمَّ عَنْ بِلَادِهِ أَطْرَافَ جُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَيُؤَمِّنُهُ مِنْ بَطَانَتِهِمْ  
وَسِرَاعِهِمْ ، وَيَمْنَعُ عَنْ بِلَادِ هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَنَائِمَةِ لِبِلَادِهِ ، وَالْمُزَاجِمَةَ لِلنَّوَافِقِ أَمْلَادِهِ ،  
وَيَرْدُّ عَنْهَا وَعَمَّنْ جَاوَرَهَا مِنْ بَقِيَّةِ مَا فِي مَمْلَكَتِهِ ، وَهِيَ كَذَا وَكَذَا أَيْدِي النَّهْبِ ،  
وَيَكُفُّ الْفَارَاتِ وَيَمْنَعُ الْأَدْنَى ، وَيُرَدُّ مِنْ تَرْجٍ مِنْ رَعَايَا هَذَا الْمَلِكِ إِلَيْهِ ،  
مَا لَمْ يَدْخُلْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَيَشْهَدُ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَهُرَّ بِالْكَلِمَتَيْنِ الْمُعْتَادَتَيْنِ ؛  
وَيُؤَمِّنَ جَلَابَةَ هَذَا الْمَلِكِ وَتُجَّارَهُ الْمُتَرَدِّدِينَ مِنْ بِلَادِهِ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ فِي عَوَارِضِ  
الْأَشْغَالِ ، وَلَا يَحْصِلَ طَائِفَتُهُمْ ضَرَرٌ فِي قَعْمٍ وَلَا مَالٍ ؛ وَإِنْ أَخَذَتِ الْمُتَجَرِّمَةُ مِنْهُمْ  
مَالًا أَوْ قَتَلَتْ أَحَدًا ، أَمَرَ بِأَنْصَافِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْمُتَجَرِّمِ ، وَأَنْ يُؤْخَذَ بِحَقِّهِمْ مِنْ ذَلِكَ  
الْمُجْرِمِ . وَطَائِفَةُ ذَلِكَ فِيمَنْ يَدْخُلُ إِلَيْهِ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ لَا يَفْسَحَ لِنَفْسِهِ

ولا لأحد من جميع أهل بلاده في إيواء مُسَلِّمٍ مُتَنَصِّرٍ، ولا يرخصَ لذي عَمَى منهم ولا مُتَبَصِّرٍ .

وأنه كتب ورِدَتْ إليه كُتِبَ مولانا السلطان فلان أو كُتِبَ نَزَاهُ، أو أحد [من المتعلقين<sup>(١)</sup>] بأسبابه؛ يسارعُ إلى امتثاله والعمل به في وقته الحاضر ولا يؤخره ولا يمهله، ولا يطرحه ولا يمهله .

وعليه أن لا يكونَ عَيْنًا للكُفَّار، على بلاد الإسلام وإن دَتَتْ به أو بُدِئَتْ الدَّار، ولا يواطى على مولانا السلطان فلان أعداءه [وأولمُ التَّار<sup>(٢)</sup>] وأن يقرمَ ما يلزمه من المُسَكَّة بالمُسَكَّة، ويفعل ما تسكت عنه به الأُسَّة وما أشبهها من الألسنة . وعليه أن يُنهي ما يتجددُ عنده من أخبار الأعداء ولو كانوا أهلَ ملته، ويُنبه على سوء مقاصدهم، ويعرف ما يهيمُ سماعه من أحوال ما هم عليه .

هذه هدته ثم عليها الصُّلح إلى منتهى الأجل المعين فيه ما أَسْمَسَكَ بِشروطها، وقامَ بِمُحَقَّقها، ووقف عند [حدِّها المقرم به<sup>(٣)</sup>]، وصرف إليها عَنانَ أَجْتِهَادِهِ وَجَى عليها قواعدَ وقائِهِ، وصان من التَّكْدِيرِ فيها مَرَائِرَ صَفَائِهِ؛ سأل هر في هذه الهدنة المقررة، وأجابهُ مولانا السلطانُ إليها على شروطها المحزرة، وشهد به الحضورُ بالملكيتين وتَضَمَّنَتْ هذه الهدنة المُسَطَّرة؛ وبالله التوفيق .

قلتُ: الظاهر أنه كان يُكتب بهذه النسخة عن صاحب الديار المصرية والملك الشامية، لِمَتَلَكَّ سَيِّسٌ، فإنَّ في خِلَالِ كلام المقرَّ الشَّهابيِّ بعد قوله : ولا يواطى على مولانا السلطان فلان أعداءه : «وأولمُ التَّار»، وقد تقدَّم في الكلام على الملك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٦٨) .

(٢) > > (ص ١٦٩) وما يأتي قريباً .

(٣) يعض له في الأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٦٩) .

أن تمتلك سِيس كان يائى التَّارَ وَيَمِيلُ إِلَيْهِمْ ، ويساعدهم في حربِ المسلمين ويكثرُ في سِوَاهِهِمْ .



وعلى مثل ذلك يُكتبُ لكلِّ مَلِكٍ مضعوفٍ في مُهادنةِ المَلِكِ القَوِيِّ له .

وهذه نُسخةٌ هُدى من هذا النُسخِ ، كتب بها أبو إسحق الصَّاهِي ، عن مُصْصام الدولة ، بن عَضِيدِ الدولة ، بن رُكنِ الدولة ، بن بُوَيْهِ الدَّيْلَمِيّ ، بأمرِ أميرِ المؤمنين الطَّائِعِ لله ، الخليفةِ العَبَّاسِيّ بِيغْدَادَ يَوْمَيْذ ، لوردس المعروف بسفلاروس مَلِكِ الرُّومِ ، حينَ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ بِلَادِهِ ، وَأَتَمَّسَ أَنْ يُفْرَجَ لَهُ طَرِيقُهُ إِلَى بِلَادِهِ ، على شُرُوطِ أَتَمِّهَا ، وَحُصُونِ يُسَامِهَا ، على ما سيأتى ذكره ، وهى :

هذا يَكْتُبُ من مُصْصامِ الدولة ، وَتَمِيسِ المِلَّةِ ، أبى كَالِيَجَارَ ، بنِ عَضِيدِ الدولة وَتَاجِ المِلَّةِ أبى شُجَاعٍ ، بنِ رُكنِ الدولة أبى عَلِيٍّ ، مَوْلَى أميرِ المؤمنين ؛ كتبهُ لوردس أبْنِ بَنِيَرِ المعروف بسفلاروس مَلِكِ الرُّومِ .

إِنَّكَ سَأَلْتَ بِسِفَارَةِ أَخِينَا وَعُدَّتِنَا ، وَصَاحِبِ جَيْشِنَا (أبى حَرَبٍ رِبَارِ بنِ شَهْرٍ أَكُوِيَه) تَأْمَلُ حَالِكَ فِي تَطَاوُلِ حَيْسِكَ ، وَأَعْتِيَاكَ عَنْ مُرَاجَعَةِ بَلَدِكَ ؛ وَبَدَّلْتَ - مَتَى أَفْرَجَ عَنْكَ ، وَخَلَّ طَرِيقَكَ ، وَأَذِنَ لَكَ فِي الْخُرُوجِ إِلَى وَطَنِكَ ، وَالْعَوْدِ إِلَى مَقَرِّ سُلْطَانِكَ - أَنْ تَكُونَ لَوَلِيَّتِنَا وَلِيًّا ، وَلَعُدُّونَا عُدُوًّا ، وَلِسَانِنَا سُلَامًا ، وَلِحَرْبِنَا حَرْبًا : من جميعِ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، على اخْتِلَافِ أَحْوَالِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ ، وَأَجْناسِهِمْ وَأَجْيَالِهِمْ ، وَمَقَارِهِمْ وَأَوْطَانِهِمْ ؛ فَلَا تُصَالِحْ لَنَا ضِدًّا مُبَايِنًا ، وَلَا تُوَاطِئُ عَلَيْنَا عَدُوًّا عَاقِلًا ؛ وَأَنْ تَكُفَّ عَنْ تَطَرُّقِ الْغُفُورِ وَالْأَعْمَالِ الَّتِي فِي أَيْدِينَا وَأَيْدَى الدَّاخِلِينَ فِي طَاعَتِنَا : فَلَا تُجَبِّزْ إِلَيْهَا جَيْشًا ، وَلَا تُحَاوِلْ لَهَا غَرْوًا ؛ وَلَا تَبْدَأْ أَهْلَهَا بِمُتَارَعَةٍ ، وَلَا تَشْرَعْ لَهُمْ فِي مُقَارَعَةٍ ، وَلَا تَتَنَاوَلَهُمْ بِمَكِيدَةٍ ظَاهِرَةٍ وَلَا بَاطِنَةٍ ، وَلَا تُهَابِلَهُمْ بِأَذْيَةٍ جَلِيلَةٍ وَلَا خَفِيَةٍ ؛ وَلَا تُطَاقِ لِأَحَدٍ مِنْ



ينوبُ عنك في قيادة جيوشك ، ومن يُنسبُ إلى جملتك ، ويتصرفُ على إرادتك .  
الاجترأ على شيءٍ من ذلك على الوجوه والأسباب كلها ؛ وأن تفرجَ عن جميع  
المسلمين وأهل ذمتهم الحاصلين في عكايس الروم ، ممن أحاطت بعهده ربةُ الأشر ،  
وأشملت عليه قبضةُ الحصر والقصر ، في قديم الأيام وحديثها ، وبعيد الأوقات  
وقربها ، المقيمين على أديانهم ، والمختارين للعود إلى أوطانهم ؛ وتبعضهم بما  
يُنهضُ به أمثالهم ، وممكنهم من البروز والمسير بنفوسهم وحرهم وأولادهم وعيالاتهم  
وأثباعهم ، وأصناف أموالهم ، مؤفوريين مضمونين ، متبدقين محروسين ، غير  
ممنوعين ، ولا معوقين ، ولا مطالين بثوثة ولا كلفةٍ صغيرة ولا كبيرة .

وأن تُسلمَ تيممةً سبعة من الحصون ، وهي : حصن أرحكاه المعروف بحصن  
الهندرس ، وحصن السنانة ، وحصن حبيب ، وحصن اكل ، وحصن انديب ،  
وحصن حالي ، وحصن تل حرم ، برساتيقها ومزارعها إلى من تُحكيتك بتسليمها إليه ،  
مع من بها من طبقات أهلها أجمعين ، المختارين لسكناها والاستقرار فيها ، بحومهم  
وأولادهم وأشباههم ومواسيهم وأصناف أموالهم وغللتهم وأزوادهم وسلاحهم وآلاتهم ،  
ليكونَ جميعها حاصلاً في أيدينا وأيدي المسلمين ، على غابر الأيام والسنين ؛ من غير  
أن تلمسَ عنها أو عن شيء منها مالا ، ولا بدلاً ، ولا عوضاً من الأعواض كلها .

وعلَى أنكَ تُضي ما عقدته على نفسك من ذلك كله باباً باباً ، وتقي به أولاً أولاً ،  
منذ وقت وصولك إلى أوائل أعمالك ، وإلى غاية استيلائك عليها ، وتقاذ أهلك  
فيها ؛ ولا ترجعَ عن ذلك ولا عن بعضه ، ولا تؤخر شيئاً منه عن الوقت الذي تهدر  
فيه عليه ، ولا تُرخصَ لنفسك في تجاوز له ولا عدول عنه . ومتى سمعت طائفةً من  
الطوائف التي تُنسبُ إلى الروم والأرمن وغيرهم في أمرٍ يخالف شرائط هذا الكتاب ،

كان عليك منهم من ذلك إن كانوا من أهل الطاعة والقبول منك ، أو مجاهدتهم  
وَمَا نَعْتَمُهم إن كانوا من أهل العُتود عنك ، والخلاف طيهم حتى تصريفهم عما يرومونه ،  
وتحول بينهم وبين ما يحاولونه ، بمشيئة الله وإذنه ، وتوقيفه وعونه .

وأشترطت علينا بعد الذي شرطته لنا من ذلك التخليّة عن طريقك وطريق من  
تَصَمَّته جُمُلتك ، واشتملت عليه رُفقتك : من طبقات الأصحاب والأتباع ، في جميع  
أعمالنا حتى تنفد عنها إلى ما وراعاها ، غير معوق ، ولا معتقل ، ولا مؤدّى ،  
ولا معارض ، ولا مطالب بمشوّنة ولا كلفة ، ولا تمنّوج من أتباع زائد ولا آله ،  
ولا نُؤثرُ عليك أحدًا نأوك في أعمالك ، ونازلك سلطان بلادك ، ودافعك عنه  
وناصبك العداوة فيه : ممن ينسب إلى الروم والأرمن والخرزية وسائر الأمم المضادة  
لك ، ولا نوقع معه صلحا عليك ، ولا موافقة على ما يهود بئلك أو قدح في أمرك ،  
ولا نقبل سؤال سائل ، ولا بلل باذل ، ولا رسالة مُراسل فيما خالف شرائط هذا  
الكتاب أو عاد بإعلاله ، أو إعلال وثيقته من وثاقه .

ومتى وفد إلينا رسول من جهة أحد من أصدادك ، راغبًا إلينا في شيء يخالف  
ما أنقده بيننا وبينك - أمتنعنا من إجابته إلى مُتمسه ، ورددناه خائبًا خاليًا من  
طليته . وإذا سلمت الحصون المقلّم ذكرها إلى من نكثبك بالتسليم إليه ، كان لك  
علينا أن نُقر من فيها وفي رمايتها على نعمهم ومنازيلهم وضيايحهم وأملأكمهم ،  
وأن لا يُزِيلهم عنها ولا عن شيء منها ، ولا تحول بينهم وبين ما تحويه أيلهم من جميع  
أموالهم ، وأن نُجزيهم في المعاملات والجبايات على رؤسهم الجارية الماضية التي  
عوّلوا عليها ، على مرّ السنين ، وإلى الوقت الذي يقع فيه التسليم ، من غير فسخ  
ولا تغيير ولا تقص ولا تبديل .

فأنهينا إلى مولانا أمير المؤمنين الطائِعِ لله مَسَالَتْ وَاتَّحَسَتْ، وَصَحْنَتْ وَشَرَطَتْ  
وَأَشْرَطَتْ من ذلك كله؛ وَأَسْتَذْنَاهُ في قَبُولِهِ مِنْكَ، وَإِخْلَاجِ الْمُعَاهَدَةِ عَلَيْهِ مَعَكَ؛  
فَإِذَنْ - أَدَامَ اللهُ تَمَكُّنَهُ - لَنَا فِيهِ، وَأَعَزَّنَا بِأَنْ تُحَكِّمَهُ وَتُخَيِّضَهُ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ أَنْتِظَامِ  
الْأُمُورِ، وَحَيَاةِ الثُّغُورِ؛ وَصَلَاحِ الْمَسَامِينِ، وَالتَّنْفِيسِ عَنِ الْمَأْسُورِينَ .

فَأَمَضِينَاهُ عَلَى شَرَائِطِهِ، وَتَرَضِينَاهُ جَمِيعًا بِهِ، وَطَاقَدْنَاكَ طَلِبَهُ، وَحَلَفْنَا لَنَا بِالْإِيمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ  
الَّتِي يَجْلِفُ أَهْلُ شَرِيعَتِكَ بِهَا، وَيَتَحَرَّجُونَ مِنَ الْحَنْثِ فِيهَا عَلَى الْوَفَاءِ بِهِ؛ وَأَشْهَدُنَا عَلَى  
نَفْسِنَا، وَأَشْهَدْتَ عَلَى نَفْسِكَ اللهُ جَلَّ شَأْؤُهُ، وَمَلَائِكَتُهُ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَنْبِيََاءَهُ الْمُرْسَلِينَ،  
وَأَخَانَا وَوَدَّعْنَا أَبَا حَرِيبٍ رِبَارِ بْنِ شَهْرَاكَوِيَهَ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ حَضَرَ الْمَجْلِسَ  
الَّذِي جَرَى فِيهِ ذَلِكَ، بِاسْتِقْرَارِ جَمِيعِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، وَلِزُومِهِ لَنَا وَلَكَ .

ثم حضر بعد تمام هذه المواقفة واستمرارها، وثبوتها واستقرارها، قُسْطَنْطِينُ  
ابْنُ يَنْبِرِ أَخُو وَرْدَسِ بْنِ يَنْبِرِ، وَأَرْمَاتُوسُ بْنُ وَرْدَسِ بْنِ يَنْبِرِ، فَوْقًا عَلَى هَذَا  
الْكِتَابِ، وَأَحَاطَا بِهِ عِلْمًا، وَأَسْتَوْعَبَاهُ مَعْرِفَةً، وَشَهِدَا عَلَى وَرْدَسِ بْنِ يَنْبِرِ مَلِكِ الرُّومِ  
بِإِقْرَارِهِ بِهِ، وَالْإِتْرَامَةِ لَهُ . ثُمَّ تَبَرَّعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِأَنْ أُوجِبَ عَلَى نَفْسِهِ اتِّمَسُّكَ  
بِهِ وَالْمُقَامَ عَلَيْهِ مَتَى قَامَ وَرْدَسُ بْنُ يَنْبِرِ فِيهَا هُوَ مُوسَمٌ بِهِ مِنْ مَلِكِ الرُّومِ، وَجَعَلَ  
بِجَمِيعِ الشَّرَاطِطِ الثَّابِتَةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْمَقْذُودِ بَعْضُهَا بَبَعْضِ أَمَانَةٍ فِي ذِمَّتِهِ، وَطَوَقًا  
فِي عُنُقِهِ، وَعَهْدًا يُسَالَّلُ عَنْهُ، وَحَقًّا يُطَالَبُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِهِ؛ وَصَارَ هَذَا الْقَدْرُ  
جَامِعًا لِمَ وَلَنَا، وَلِأَوْلَادِنَا وَأَوْلَادِهِمْ، وَحَقِيقَتِنَا وَحَقِيقَتِهِمْ؛ مَا عِشْنَا وَطَاشُوا، يَلْزِمُنَا  
وَلِيَاؤُهُمُ الْوَفَاءُ بِمَا فِيهِ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ، وَلَنَا وَلَهُمْ، عَلَى مُرُورِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَاخْتِلَافِ  
الْأَوْدَارِ وَالْأَعْوَامِ .

أَمَضَى وَأَنْفَذَ صَمْعَامُ الدَّوْلَةِ وَشَمْسُ الْمِلَّةِ أَبُو كَالِيَجَارِ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى شَرَائِطِهِ  
وَحُدُودِهِ، وَالْإِتْرَامَةَ وَرْدَسِ بْنِ يَنْبِرِ الْمَعْرُوفِ بِسَفْلَارُوسَ مَلِكِ الرُّومِ، وَأَخُوهُ

قُسْطَنْطِينُ ، وابنه أَرْمَاتُوسُ بن وردس بن بِنِير ، وَصَحَبُوا الْوَقَّاءَ بِهِ ، وَأَشْهَدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِمْ بِالرَّضَا بِهِ ، طَائِعِينَ غَيْرِ مُكْرِهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ، لِأَعْلَى بِهِمْ مِنْ مَرَضٍ وَلَا غَيْرِهِ ، بَعْدَ أَنْ قَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ، وَقَسَرَهُ لَهُمْ وَخَاطَبَهُمْ بِاللُّغَةِ الرُّومِيَّةِ مِنْ وَثْقٍ بِهِ ، وَفَهَّمُوا عَنْهُ ، وَقَفَّهُوا مَعْنَى لَفْظِهِ ، وَأَحَاطُوا عَلَيْهِمْ وَمَعْرِفَةً بِهِ ، بَعْدَ أَنْ مَلَكَوا نَفْسَهُمْ ، وَتَصَرَّفُوا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ إِثَارِهِمْ ، وَرَأَوْا أَنْ فِي ذَلِكَ حَظًّا لَهُمْ ، وَصَلَاحًا لَشَأْنِهِمْ ، وَذَلِكَ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثَةَ .

وَقَدْ كُتِبَ هَذَا الْكِتَابُ عَلَى ثَلَاثِ نُسخٍ مُتَسَاوِيَاتٍ ، خُلِّدَتْ أَثْنَتَانِ مِنْهَا بِدَوَاوِينَ مَدِينَةِ السَّلَامِ ، وَسَلِمَتْ الثَّلَاثَةُ إِلَى وَرْدَسِ بْنِ بِنِيرٍ مَلِكِ الرُّومِ وَأَخِيهِ وَأَبْنِهِ الْمَذْكُورِينَ مَعَهُ فِيهِ .



وهذه نُسخةٌ هُدِنَتْ مِنْ مَلِكٍ مُضْعُوفٍ لِمَلِكٍ قَوِيٍّ ، كُتِبَ بِهَا الْفَقِيهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ أَحَدِ كُتَّابِ الْأَنْدَلُسِ ، عَنْ بَعْضِ مُلُوكِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، مِنْ أَتْبَاعِ « الْمَهْدِيِّ بْنِ تُوْمَرَتِ » الْقَائِمِ بِدَعْوَةِ الْمُوحِدِينَ ، مَعَ « دُونِ فَرَانْدَةِ » صَاحِبِ قَشْتَالَةَ مِنْ مُلُوكِ الْفَرَنْجِ بِعَقْدِ الصُّلْحِ عَلَى مُرْسِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، وَهِيَ :

هَذَا عَقْدُنَا بَعْدَ اسْتِخَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِشَارَةِ ، وَاسْتِعَانَةِ وَأَسْتِجَادَةِ ؛ نِيَابَةً عَنْ الْإِمَارَةِ الْعَلِيَّةِ بِحُكْمِ اسْتِنَادَانَا إِلَى أَوَامِرِهَا الْعَالِيَةِ ، وَآرَائِهَا الْهَادِيَةِ . عَقْدْنَاهُ - وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ - لِقَشْتَالَةَ مَعَ فُلَّانِ النَّائِبِ فِي عَقْدِهِ مَعَنَا عَنْ مُرْسَلِهِ إِلَيْنَا ، الْمَلِكِ الْأَجَلِّ الْأَسْنَى الْمُبْجَلِ « دُونِ فَرَانْدَةِ » مَلِكِ قَشْتَالَةَ ، وَطَلَيْطَلَةَ ، وَفَرْطَبَةَ ، وَلِيُونِ ، وَبَلَنْسِيَّةِ - أَدَامَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ وَمِيزَتَهُ بِتَقْوَاهُ - حِينَ وَصَلْنَا مِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مَحْتَوٍ بِطَائِعِهِ الْمَعْلُومِ لَهُ الْمُتَعَارِفِ عَنْهُ ، تَقْوِيًّا يَضَاهِيهِ إِلَيْهِ ، فِي كُلِّ مَا يُعْقَدُ لَهُ وَعَلَيْهِ . وَعَقْدُنَا عَلَى أَنْ يَكُونَ

السلم بيننا وبين مُرسِلِهِ المذكورَ لِأَمِينِ أَتَيْنِ ، أولها شهر المحرم الذى هو أول سنة تاريخ هذا الكتاب ، الموافق من الأشهر العجيبه شهر كذا ، على جميع ما تحت نظرنا الآن من البلاد الراجعه إلى الدعوة المهدية - أسماها الله تعالى - حواضرها وثُغُورِها ، وأَسَاطِطِها وأَطرافِها ، من جزيرة شمر إلى يَبْرَة والمنصوره وما يليها - حرس الله جميعها - سَلَامًا عَاقِلًا عليها من الجهتين ، محفوظًا عَهِدُها عند أهل المِثَقين ؛ لا غَدرَ فيها ، ولا إخلالَ في مَعْنَى من معانيها ؛ ولا تُسَنُّ في مُلْكِها ظَاره ، ولا تُدْخَرُ سَيَّارَها ، ومَهمَّا وقع اغوار ، أو حَلَّتْ أَقْدَارُ ؛ على جَهة المَجاهره ، إذا اتَّصَلَتْ والمُستَارَ ؛ فإن كان من جَهة النصارى ، فعلى ملك قشتالة تُسَرِّجُ الأَسارى ، وردَّ الغنائم والثَّهب ، والإِنْصَافُ من الغنيمه إن عُدِمَت العين ، وأَعُوذُ الطَّلَب . وعَليْنَا مِثْلُ ذلك سِوَا ، لِيَقَابِلَ بِالوَفَاءِ ؛ هذا بعد أن يُتَبَّعَ الأَمْرُ ويُعْلَمَ من أين كان .

ومن هذه المهادنة أن لا يُتَسَبَّبَ إلى الحُصُونِ بالنَّارِ ولا بالشر ، ولا يُجَاوَزَ النصارى حُدُودَ بلادهم وأَرْضَهم بِشَيْءٍ من البِنَاءِ ، ولا يَصِلَ من بِلَدِ قِشْتَالَة مَدَدٌ مُخَالِفِنا ، ولا مَعُونَةٌ لِمُفَاتِنِنا . وكل ما يرجعُ إلى هذه الدَّعوة ، ويدخلُ في الطَّاعَةِ من البلاد بعد هذا العَقْدِ فداخِلُ في السلم ، بِزِيَادَةِ نِسْبَتِهِ من المال الذى هو شَرَطُ في صِحَّةِ هذا الحُكْمِ . وإِذَا بَقِيَ من مُدَّةِ هذه المُسَالَمَةِ شَهْرَانِ أَتَيْنِ ، فعلى ملك قِشْتَالَة أن يُعْلِمَنا بِغَرَضِهِ في المهادنة أَوْ سِوَاها ، إعلَامًا من مذاهب الوَفَاءِ أَوْ نَاقِها .

وقد أَلْتَمَسَ رسولُ المذكورِ لنا هذه الشُّرُوطَ ، وأَحْكَمَ معنا - نِيَابَةً عَنْهُ - فِيهَا - العُقُودَ والرُّبُوطَ ؛ على كُلِّ ما ذَكَرناه . وأَلْتَمَسْنَا في هذا السلمِ لِمَلِكِ قِشْتَالَة المذكورة - مَكافَأَةً عن وِفَاءِ عَهِدِهِ ، وَصِحَّةِ حَقِّهِ - مائَة ألفِ دِينَارٍ وَاحِدَةٍ ، وأَرْبَعِينَ ألفَ دِينَارٍ في كُلِّ عَامٍ من عَامِي هذا الصُّلْحِ المُقَدَّمِ الوَصْفِ ، مَقَمًّا ذلك على ثَلَاثَةِ أَجْزَامٍ

في العالم، ليتقاضاها ثَمَانَتُهُ، ويوفِّقَ عَيْنَهَا على التمام والكمال، قَبَضَ مِنْهَا كَذَا لِيَوْصِلَهَا إِلَى مُرْسَلِهِ، وَالتَّرِيمَ لَهُ تَحْلِيصُ بَاقِي كَذَا عِنْدَ أَهْضَاءِ كَذَا عَلَى أَوْفَى وَجْهِهِ وَأَحْكَمِهِ؛ فَإِنْ وَفَّقَ لَهُ بِذَلِكَ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ يَوْمًا الْمُؤَقَّتَةَ، فَالسَّلَامُ بَاقِيَةً وَحُكْمُهَا ثَابِتٌ، وَإِلَّا فَالسَّلَامُ مَفْسُوخَةٌ وَلَا حُكْمَ لَهَا إِنْ عُجِزَ عَنِ الْوَفَاءِ لَهُ، بِمَحْصُولِ مَا بَقِيَ مِنَ الشَّرْطِ فِي أَصْنِصَحَابِ الْحِكْمِ وَأَتَصَالِ الْعَمَلِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وعلى مَا تَضَمَّنَتْ هَذَا الْكِتَابُ أَمَضَى فُلَانٌ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - بِحُكْمِ النِّيَابَةِ، عَنِ الْأَمْرِ الْعَالِيِّ - أَسْمَاءُ اللَّهِ - هَذَا الْعَقْدَ الصُّلْحِيَّ، وَأَشْهَدُ بِمَا فِيهِ عَلَى نَفْسِهِ وَحَضْرَةِ الْمَعْلُومِ طُورِ (٩) الْمَذْكُورِ، فَتَرْجِمَ لَهُ الْكِتَابُ وَبَيَّنَتْ لَهُ مَعَانِيَهُ، وَقَرَّرَ عَلَى مَضَامِينِهِ، فَالْتَزَمَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَنِ مُرْسَلِهِ مَلِكٍ قَسْتَالَةَ حَسَبَ مَا قُوضَ إِلَيْهِ فِيهِ؛ وَأَشْهَدُ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ، فِي صِحِّهِ وَجَوَازِ أَمْرِهِ فِي كَذَا، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِمَا يَرْضَاهُ، وَمُقَدِّمُ الْخَيْرِ وَالْخَيْرَةِ فِيمَا قَضَاهُ، بِمَنَّةٍ وَالسَّلَامُ .

## المذهب الثاني

(أَنْ تُفْتَسَحَ الْمُهَادَنَةُ قَبْلَ لَفْظِ «هَذَا» بِبَعْدِيَّةٍ)

وهذه نُسْخَةُ هُدْنَةٍ بَيْنَ مَلِكَيْنِ مُتَكَافئَيْنِ دُونَ تَقَرُّرِ رِشْيَةٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ، كَتَبَ بِهَا الْفَقِيهُ الْمُحَدِّثُ أَبُو الرَّبِيعِ بْنِ سَالِمٍ مِنْ كُتَّابِ الْأَنْدَلُسِ، فِي عَقْدٍ صُلِحَ عَلَى بَلَنْسِيَّةٍ وَغَيْرِهَا مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ، وَهِيَ :

وَيَعُدُّ، فَهَذَا كِتَابُ مُوَادَمَةٍ أَمَضَى عَقْدَهَا وَالتَّرَمَهُ، وَأَبْرَمَ عَهْدَهَا وَتَمَعَهُ؛ فُلَانٌ الْمَلِكُ أَرْغُونُ، وَقَوْمُ بَرْسَلُونَةَ، وَيَرْسَبُ مَقْتِ بَسْلَى، حَافِظَةُ (٩) بِنُ بَطْرَةَ، بِنُ أَدْفُونَشَ، ابْنُ رَيْمُونَدَ، أَدَامَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ بِتَقْوَاهُ لَهُ خَاتِمًا وَضَوَانًا، الْمَعْهُودُ صِدُورُهُ فِي أَمْتَالِهَا مِنَ الْمَرَاوِضَاتِ الصُّلْحِيَّةِ تَضَرُّعًا وَإِعْلَانًا؛ مُتَضَمِّنًا مِنَ الْإِحَالَةِ فِي عَقْدِ الْمُسَالَمَةِ

عليه، والتفويض في إبرام أسبائها والقرام فصولها وأبوابها إليه، ما أوجب صحیح النظر، وصريح الرأي المعتبر؛ مقاربه فيه، وواقعة منه على ما يحفظ حق المسلمين ويؤفيه، جنوحاً منه إلى ما جتح إليه من ذلك متقاضيه، وتجرباً للعمل على شاكلة الصواب والإيثار لما يقتضيه، بعد محاولات بلغ منها النظر غاية من الاجتهاد، وإراعات قرن بها من استخارة الله تعالى واستنجاده ما رضى فيه من فضله العميم معهود التسديد والإيجاد؛ فأجلى ذلك عن إمضاء عهد السلم للملك أرغون على بلنسية وكافة جهاتها أطرافاً ومواسط، وتوفراً وبساط، وكذلك شاطبة ودانيه، وما ينظم معهما من أخوازها ويرجع إلى حكم بلنسية وحاصلها من الجهة النائية والدانية؛ لمدة عامين اثنين، فمستين متصلين، وأيام متصلة بهما كذلك. وهذا يحصر أمره، ويحقق عدده؛ أن يفتحه بيوم الأحد الرابع والعشرين لشهر نوبر، الموافق لعاشير ذي القعدة المؤرخ به هذا الكتاب، الذى هو من عام أحد وعشرين وستمائة بتاريخ الهجرة - مسألة تضع بها الحرب بين الجانبين أوزارها، وتمهد للهدنة بين الطائفتين آثارها، وترفع اللبنة (?) عن ذكر من الملتين أذيتها وأضرارها؛ البر والبحر في ذلك سيان، والمسايرة فيها بالأدنى والمجاهرة ممنوان، وحقيقة اللازم من ذلك غنى بياته وضوحه عن الإيضاح والتبيان؛ لا التباس ولا إشكال، ولا غائلة ولا أختيال؛ ليس إلا الأمن الكافل لكافة من تستمل عليه كافة المواضع المذكورة من المسلمين، ومن تحويه بلاد ملك أرغون من الطوائف أجمعين. وكل منتم إلى خدمة هذه المملكة الأرغونية بما كان من وجوه الائتماء، أو ناظر في جزء منها كائناً ما كان من الأجزاء؛ فهو في هذا الحكم داخل، وتحتم هذا الرّبط الصلحي وأصل؛ ولا حجة لمن كان له منهم حصن يفرد به عن هذه المملكة، على ما لم في ذلك من العوائد المتعارفة. فإن نقص جزء منه وذهب إلى أن يكون في حصنه منفرداً فهو

وما اختار، إذا تنكَّب الإضرار، فإن رام التطرُّق بشيء إلى أحد الجانبين كان على المسلمين وعلى أهل أَرْغُون التظاهر على استنزاله، والتظاهر على قتاله، حتى يكفوا ضرره، ويعقوا أثره.

والحدود الفاصلة بين الجزأين هي أوساط المسافات، على ما عُرِف من مُتَقَدِّم المسالمات؛ ويد كلِّ فريق منهم مُطلقةً فيما وراءَ حده بما شاء، من إنشاء برسم الإصلاح والانشاء؛ وكل من قصد المسلمين من رجال المملكة الأَرغُونِيَّة بريئاً من تَبِعَةِ الفساد فقبولُ قصده مُباح، وليس في استخدامه والإحسان إليه جناح؛ والطريق للتجار المهود ووصولهم من بلاد أَرْغُون إلى بَلَنْسِيَّة في البرِّ والبحر مباحة الإتياب، محفوفة بالأمانة التامة في الحيثة والذهب؛ وعلى تجار البحر منهم أن يتجنبوا ركوب الأجناف الحريَّة التي يمكن بها الإضرار، ويستغنى عن التجار؛ والاسترهاب مرفوع عن هؤلاء الواصلين برسم التجارة على اختلافهم، وتبائن أصنافهم؛ فيما لم تجتهد أيديهم، ولا كان منسوباً إلى تعلبهم؛ وكلُّ مُعتَقِل من الطائفتين بأذى شيء يطرق إلى حكم هذه السِّلْم خلافاً، أو يلحقُ بهديها أخلاقاً؛ فعلى أهل موضعه الإنصاف من جناته، وصرف ماسلبته يداها، وإحضاره مع ذلك يُعاقب بما أتاها. وليس لأحد من الطائفتين أن يتسبَّب باسترسال، إلى الإنصاف من جنسية حال؛ بل يقوم برفع ذلك حيث يجب، ويطلبه في الموضع الذي ينبغي فيه الطلب؛ حتى يخطب الناظر على المملكة التي تُسببت إليها هذه الإذابة، وصدرت عن أهلها [تلك] الجنابة؛ يطلب الإنصاف من عدوانها، وتصاد عليه الأعذار في شأنها؛ وعليه - ولا بد - التخليص منها عملاً بالوفاء الذي يجب العمل به، وقياماً بحق العهد الذي أكد الاعتلاق بسببه؛ ومتى غادر مغادر من أحد الملتين حصناً من حصون



الأُخْرَى فَلَهُ الْأَمْنُ عَلَى الْكَالِ، وَالرَّغَى الْخَافِظُ لِلنَّفْسِ وَالْمَالِ؛ حَتَّى يُلْحَقَ بِأَمْنِهِ، وَيَعُودَ سَالِمًا إِلَى وَطَنِهِ .

فَعَلَى هَذِهِ الشَّرُوطِ الْمَحَقَّةِ، وَالرُّبُوطِ الْمَوْثِقَةِ، أَنْعَقِدَ هَذَا السَّلْمُ، وَعَلَى مَنْ ذَكَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ أَرْغُونِ الْحُكْمِ؛ وَهَذَا الْكِتَابُ يَنْطَلِقُ فِي ذَلِكَ بِالْحَقِّ الْإِلَازِمِ لِلطَّائِفَتَيْنِ، وَيُعْرَبُ عَنْ حَقِيقَةِ مَا أَنْعَقَدَ بَيْنَ مَنْ سُمِّيَ مِنْ أَهْلِ الْمَلِكَيْنِ؛ وَأَلْتَزَمَ كُلَّهُ عَنْ مَلِكِ أَرْغُونِ النَّائِبُ عَنْهُ بِتَقْوِيضِهِ إِلَيْهِ، وَأَسْتِثْنَاهُ إِجَاهَ عَلَيْهِ؛ الزَّعِيمُ بِطَرَفِهِ ابْنُ فِدَانٍ بِكَدَرِشٍ (٢) عَلَى أَمِّ وَجْهِهِ الْإِكْتِرَامِ، وَأَبْرَمَ ذَلِكَ مَلِكُ أَرْغُونِ بِأَوْثَقِ عِلَاقِ الْإِبْرَامِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّتْ لَهُ الْفُصُولُ الْمُتَقَدِّمَةُ غَايَةَ التَّبَيُّنِ وَأَفْهَمَهَا حَقَّ الْإِفْهَامِ؛ وَأَلْزَمَ نَفْسَهُ مَعَ ذَلِكَ وَصُولَ كِتَابِ هَذَا الْمَلِكِ الَّذِي تَوَلَّى النِّيَابَةَ عَنْهُ فِي هَذَا الْعَقْدِ، مُصَرِّحًا بِإِكْتِرَامِهِ وَإِمضائه فِيهِ عَمَلِهِ، وَفَقَى مَا تَضَمَّنَهُ كِتَابُهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ، وَأَشْهَدُ مَعَ ذَلِكَ زَعَمَاءَ دَوْلَتِهِ وَكِبَرَاءَ الْقَائِمِينَ عَلَيْهِ، تَحْقِيقًا لِمَعَانِهِ، وَتَوْثِيقًا لِمَبْنَاهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

## النوع الثاني

( من الهدن الواقعة بين ملكٍ مُسْلِمٍ وملكٍ كَافِرٍ - أن تكون الهدنة

من الجانبين جميعاً )

وفيهما للكتاب ثلاثة مذاهب :

## المذهب الأول

( أن تفتتح الهدنة بلفظ : « هذه هدنة » ونحو ذلك )

قال في " التعريف " : وسبيل الكتابة فيها أن يكتب بعد التسمية : هذه هدنة استقرت بين السلطان فلان والسلطان فلان، هادن كل واحد منهما الآخر على الوفاء عليه، وأجل له أجل ينتهي إليه؛ لما اقتضته المصلحة الجامعة، وحُصِمت به مواد

الآمال الطامعة ؛ تأكدت بينهما أسبابها ، وفتحتهما أبوابها ؛ وعليهما عهد الله على الوفاء بشرطها ، والاكتماء إلى أمدها ، ومدّ جبل المودعة إلى آخر مددها ؛ ضربا لها أجلا أوله ساعة تاريخه وإلى نهاية المدة ، وهى مدة كذا وكذا ؛ على أن كل واحد منهما يُعتمد بيته وبين صاحبه سيف الحرب ، ويكف ما بينهما من السهام الراشقة ، وتُعقل الرماح الخطارة ، وتُقر على مرابطها الخيل المنيعة . وبلاد السلطان فلان كذا وكذا ، وبلاد السلطان فلان كذا وكذا ، وما فى بلاد كل منهما من الثغور والأطراف والموانئ والرساتيق والجهات والأعمال : برا وبحرا ، وسهلا وجبلا ، ونائبا ودائبا ، ومن فيها : من ملكها المسمى وبينه ، وأهله وأمواله ، وجنده وعساكره ، وخاص من يتعلّق به وسائرهم ؛ ورداياه على اختلاف أنواعهم ، وعلى أفرادهم واجتماعهم ؛ البادية والحاضر ، والمقيم والسائر ، والتجار والسفارة ، وجميع المترددين من [سائر] الناس أجمعين . على أن يكون على فلان كذا و[على فلان] كذا [يعين ما يعين] :<sup>(١)</sup>  
من مال ، أو بلاد ، أو مساعدة فى حرب ، أو غير ذلك ، يقوم بذلك لصاحبه ، وينهض من حقّه المقرر بواجبه ؛ وعليهما الوفاء المؤكّد الموثيق ، والمحافظة على العهد والتمسك بسبيله الوثيق - هدنة صحيحة جريئة ، نطقا بها ، وتصادقا عليها ، وعلى ما تضمنته المواصفة [المستوعبة بينهما فيها ، وأشهدا الله عليهما بمضمونها ، وتوثقا على ديونها ، وشهد من حضر مقام كل منهما على هذه الهدنة وما تضمنته من المواصفة] ،<sup>(١)</sup> وجرئت بينهما على حكم المناصفة ، رأيا فيها سكون الجماح ، ونقض طرف الطامح .

وعلى أن على كل منهما رعاية ما جاوره من البلاد والرعية ، وحملهم فى قضاياهم على الوجوه الشرعية ؛ ومن نزح من إحدى المملكتين إلى الأخرى أعيد ، وما أخذ منها بالبد العاصبة استعيد ؛ وبهذا تم الإشهاد ، وقرئ على المسامع على رؤوس الأئمه .

## المذهب الثاني

( أن تُفْتَحَ المُدَنَةُ : بلفظ : « أَسْقَرَتِ المُدَنَةُ بَيْنَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ » )

وَيُقَدَّمُ فِيهِ ذِكْرُ الْمَلِكِ الْمُسْلِمِ )

وملأ ذلك كانت المُدَنُ تُكْتُبُ بَيْنَ مُلُوكِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَبَيْنَ مُلُوكِ الْقُرْمُجِ ،  
الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَى بَعْضِ الْبِلَادِ الشَّامِيَةِ .

وهذه مُسَخَّصَةٌ مُدَنِيَّةٌ عَلَى هَذَا النَّمَطِ : دُونَ تَقْرِيرٍ مِنَ الْجَانِبِينَ ؛ كُتِبَتْ بَيْنَ الْمَلِكِ  
الظَّاهِرِ « بَيْرِسِ الْبَنْدُقْدَارِيِّ » صَاحِبِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَبَيْنَ الْأَسْبِتَارِ<sup>(١)</sup> بِحَضْنِ  
الْأَكْرَادِ وَالْمَرْقَبِ ، فِي رَابِعِ شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ ثَمْنِينَ وَسِمْنَةٍ ، وَهِيَ :

أَسْقَرَتِ المُدَنَةُ الْمُبَارَكَةُ الْيَمُونَةُ بَيْنَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ رُكْنِ الدِّينِ  
أَبِي الْفَتْحِ « بَيْرِسِ » الصَّالِحِ النَّجِيِّ ، وَبَيْنَ الْمُقَدَّمِ الْكَبِيرِ الْهَامِ فُلَانٍ مُقَدَّمِ بَيْتِ  
الْأَسْبِتَارِ الْفُلَانِيِّ بَحَاً ، وَالْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ ، وَبَيْنَ فُلَانٍ مُقَدَّمِ حَضْنِ الْأَكْرَادِ ، وَبَيْنَ  
فُلَانٍ مُقَدَّمِ حَضْنِ الْمَرْقَبِ ، وَبِجَمِيعِ الْإِخْوَةِ الْأَسْبِتَارِ ، لِمَلَّةٍ عَشْرٍ سِتِينَ مُتَوَالِيَةٍ  
وَعَشْرَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةِ أَيَّامٍ وَعَشْرٍ سَاعَاتٍ : أَوَّلَهَا يَوْمُ الْاِثْنَيْنِ رَابِعُ رَمَضَانَ سَنَةِ  
ثَمْنِينَ وَسِمْنَةٍ مِنْ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ،  
سَنَةِ أَلْفٍ وَثَمْنِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَسَبْعِينَ سَنَةٍ<sup>(٢)</sup>

الْمُوَافِقِ لِلْيَوْمِ الثَّلَاثِينَ مِنْ أَيَّامِ  
لِلْاِسْكَنْدَرِ بْنِ فِيلَهسِ الْيُونَانِيِّ - عَلَى أَنْ جَمِيعَ الْمَمْلَكَةِ الْخَصِيَّةِ وَالشَّيْزِرِيَّةِ وَالْحَمَوِيَّةِ  
وَبِلَادِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَاقَعَ عَلَيْهَا الْاِخْتِفَاقُ الْمُبَارَكُ ، وَتُسْتَقَرَّةُهَا هَذِهِ المُدَنَةُ الْيَمُونَةُ  
بِجَمِيعِ حُلُودِ هَذِهِ الْمَالِكِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَبِلَادِهَا الْمَوْصُوفَةِ ؛ وَقُرَاهَا وَضِياعِهَا ، وَسَبَلِهَا  
وَجَبَلِهَا ؛ وَطَائِرِهَا وَظَامِرِهَا ، وَمَرْزُوعِهَا وَمُعْطَلِهَا ، وَطُرُقَاتِهَا وَمِيَاهِهَا ، وَقِلَاعِهَا

(١) الْأَسْبِتَارُ بِتَقْدِيمِ الْمَوْحِدَةِ عَلَى التَّاءِ هُوَ رَئِيسُ السَّامَةِ الدِّينِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ فِي الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْاِسْبِتَارِيَّةِ .

(٢) يَبَاضُ بِالْأَصُولِ .

وحصونها - على ما يَفَصِّلُ في كُلِّ مملكة، ويُشَرِّح في هذه المُدْنَةِ المباركة لِلدَّهِّ المَعِينَةِ إلى آخرها .

وعلى أن المستقرَّ بِمَلَكَةٍ حَصَّ المحروسة أن جميع المواضع والقرى والأراضي التي من نهر العاصي، وتقرَّب إلى الحدِّ المعروف من الغرب لبلد المناصفات : عامراً ودائراً، وبما فيها من الثَّلاث صَيفِيَا وَشَتَوِيَا، والعداد وغيرها من الفوائد جميعها - تقرر أن يكون النصف من ذلك للسلطان الملك الظاهر رُكْنِي الدُّنْيَا والدِّين أبي الفتح «بيروس»، والنصف لبيت الاسيتار .

وعلى أن كلًّا من الجهتين يَحْتَدُّ ويَحْرُصُ في عمارة بلد المناصفات المذكورة بِجُهْدِهِ وطَاقَتِهِ، ومن دخل إليها من الفلاحين بدواب، أو من التركمان، أو من العرب، أو من الأكراد، أو من غيرهم، أو القُتَاة - كان عليهم العِدَادُ بِكَارِي العَادَةِ . ويكون النصف للسلطان، والنصف لبيت الاسيتار .

وعلى أن الملك الظاهر يُجْبِي بلد المناصفات المَقْدَمَ ذِكْرُهَا من جميع عَسْكَرِهِ وأتباعه، ومن هو في حُكْمِهِ وطَاعَتِهِ، ومن جميع المسلمين الدَّاخِلِينَ في طَاعَتِهِ كَافَّةً . وكذلك مَقْدَمَ بَيْتِ الاسيتار وأصحابه يَحْمُونَ بِإِلَادِ مولانا السلطان الدَّاخِلَةِ في هذه المُدْنَةِ .

وعلى أن جميع من يتعدَّى نهر العاصي مُغْرَباً لِرِغْيِ دَوَابِّهِ : سواءً أَقام أو لم يَقُمْ، كان عليه العِدَادُ سِوَى قُتَاةِ البلد ودَوَابِّهِ، ومن يخرج من مَدِينَةٍ حَصَّ ويعودُ إليها، ومن غَرَبَ منهم ومات كان عليه العِدَادُ .

وعلى أن يكون أمرُ فَلَاحِي بِلَدِ المناصفات في الحَبْسِ والإِطْلَاقِ والحِجَابَةِ راجعاً إلى نائِبِ مولانا السلطان، بِاتِّفَاقٍ من نائِبِ بَيْتِ الاسيتار، على أن يحْكَمَ فيه بِشَرِيعَةِ الإِسْلَامِ إن كان مُسْلِماً، وإن كان نَصْرَانِيّاً يحْكَمَ فيه بِمُقْتَضَى دَوْلَةِ حَصْنِ الأكراد .

وأن يكونَ الفلاحونُ الساكنون في بلاد المناصِفات جميعها مُطلقين من السُّخْرِ من الجانيين .

وعلى أن المَلِك الظاهر لا يأخذ في بَلَدِ المناصِفات المذكورة : من تُركانٍ ولا عَرَبٍ ولا أَكرَادٍ ولا غَيْرِهِمْ عِدَادًا ولا حقًّا من حقوق بَلَدِ المناصِفات ، إلا ويكونُ النِّصْفُ منه لِلْمَلِكِ الظاهر ، والنِّصْفُ الآخرُ لِبَيْتِ الأَسْطَر .

وعلى أن المَلِك الظاهر لا يتقَسَّمُ بِنِعْ أَحَدٍ من الفلاحين المعروفين بِسُكْنَى بلاد المناصِفات من الرجوع إليها ، والسَّكَنِ فيها إذا اختاروا العود . وكذلك بَيْتُ الأَسْطَر لا يمنعون أحدًا من الفلاحين المعروفين بِسُكْنَى بلاد المناصِفات من الرجوع إليها والسَّكَنِ فيها إذا اختاروا العود .

وعلى أن المَلِك الظاهر لا يمنعُ أحدًا من التُّركانِ والتُّركِ وضيهم : مَنْ يُؤدِّي العِثَادَ ، من الدُّخُولِ إلى بَلَدِ المناصِفات ، إلا أن يكونَ مُحَارِبًا لِبَعْضِ الفَرَجِ الداخلين في هذه المَدِينَةِ ، فله المَنعُ من ذلك . وأن تكونَ خُشَارَاتُ المَلِكِ الظاهر وخُشَارَاتُ عسَاكِرِهِ وَغِلْمَانِهِمْ وَأَهْلِ بَلَدِهِ تَرعى في بلاد المناصِفات آمِنَةً من الفَرَجِ والنُّصَارَى كَافَّةً . وكذلك خُشَارَاتُ بَيْتِ الأَسْطَر وخُشَارَاتُ عَسَاكِرِهِمْ وَغِلْمَانِهِمْ وَأَهْلِ بَلَدِهِمْ تَرعى آمِنَةً من المسلمين كَافَّةً في بَلَدِ المناصِفات ، وعند خروج الخُشَارَاتِ من المَرَايِ وتَسْلِيمِهَا لِأَحْصَاهَا ، لا يُؤْخَذُ فيها حقٌّ ولا عِدَادٌ ولا تُعَارَضُ من الجهتين .

وعلى أن تكونَ مِصْبِيَّةُ السَّمِكِ الرُّومِيَّةُ مَهْمَا تَحْصَلُ مِنْهَا ، يكونُ النِّصْفُ منه لِلْمَلِكِ الظاهر والنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسْطَر . وكذلك المِصْبَايِدُ الَّتِي فِي الشَّطِّ القَرْبِيِّ من العاصِي يكونُ النِّصْفُ منه لِلْمَلِكِ الظاهر والنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسْطَر . ويكونُ لِبَيْتِ الأَسْطَر في كُلِّ سَنَةٍ خَمْسُونَ دِينَارًا صُورِيَّةً عَنِ القَشِّ ، ويكونُ القَشُّ جَمِيعُهُ لِلْمَلِكِ الظاهر بِتَصَرُّفٍ تَوَابُهُ فِيهِ عَلَى حَسَبِ اخْتِيَارِهِمْ . ويكونُ اللَّيْتُورُ مَنَاصِفَةً : النِّصْفُ

منه لِّلِكَ الظاهر والنَّصْفُ لِيَتِ الاسْتِئْزَارُ . وَتَهْزَرُ أَنَّ الطَّاحُونَ الْمُسْتَعِجَّ الْمَعْرُوفَ  
بِإِنْشَاءِ بَيْتِ الْإِسْتِئْزَارِ، الَّذِي كَانَ حَصَلَ الْحَرْبُ فِيهِ، وَالْبُسْتَانُ الَّذِي هُنَاكَ الْمَعْرُوفُ  
بِإِنْشَاءِ بَيْتِ الْإِسْتِئْزَارِ أَيْضًا يَكُونُ مُنَاصِفَةً . وَأَنْ يَكُونَ مُتَوَلَّى أَمْرِهِمَا نَائِبٌ مِنْ جِهَةِ  
تَوَابِ السُّلْطَانِ وَنَائِبٌ مِنْ جِهَةِ بَيْتِ الْإِسْتِئْزَارِ ، يَتَوَلَّى أَمْرَهُمَا وَالتَّصَرُّفَ فِيهِمَا  
وَقَبْضُ مُحْصَلَيْهِمَا . وَتَهْزَرُ أَنَّ مَهْمَا يَجِدُّهُ بَيْتُ الْإِسْتِئْزَارِ عَلَى الْمَاءِ الَّذِي تَكُونُ بِهِ  
الطَّاحُونَ وَيَسْقِي الْبُسْتَانَ مِنَ الطَّوَاخِينِ وَالْأَبْنَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، يَكُونُ مُنَاصِفَةً بَيْنَ الْمَلِكِ  
الظَّاهِرِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْإِسْتِئْزَارِ .

وَأَمَّا الْمُسْتَقَرُّ بِمَمْلَكَةِ شَيْزَرِ الْمَحْرُوسَةِ ، فَهِيَ شَيْزَرُ ، وَأَبُو قَيْسٍ وَأَعْمَالُهُ ، وَغَيْثَانُ  
وَأَعْمَالُهَا ، وَنِصْفُ زَاوِيَةِ بَقْرَاسِ الْمَعْرُوفَةِ بِحِمَايَةِ بَيْتِ الْإِسْتِئْزَارِ وَأَعْمَالُهَا ، وَجَمِيعُ  
أَعْمَالِ الْمَمْلَكَةِ الْكُشُرِيَّةِ وَالْبِلَادِ الْمَذْكُورَةِ بِحُدُودِهَا الْمَعْرُوفَةِ بِهَا ، وَقُرَاهَا الْمُسْتَقَرَّةُ  
بِهَا ، وَسَهْلُهَا وَجَبَلُهَا وَعَاصِرُهَا وَغَايِرُهَا .

وَمَا اسْتَقَرَّ بِمَمْلَكَةِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ ، نَاصِرِ الدِّينِ «مُحَمَّدُ بْنُ الْمَلِكِ الْمُظْفَرِ أَبِي الْفَتْحِ  
«مُحَمَّدُ بْنُ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ» «مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِ بْنِ شَاهِنْشَاهِ بْنِ أَيُوبَ فَهِيَ : حِمَاةُ  
الْمَحْرُوسَةِ وَقِلَاعُهَا وَمُدُنُهَا ، وَالْمَعْرَةُ وَقُرَاهَا وَسَهْلُهَا وَجَبَلُهَا وَأَنْهَارُهَا ، وَمَنَافِعُهَا وَبِمَارِهَا  
وَعَاصِرُهَا وَغَايِرُهَا ، وَبِلَادُ رُقْيِيَّةِ وَبِلَادُ بَارِينَ بِحُدُودِهَا وَتُجُومِهَا وَعَاصِرُهَا وَدَائِرُهَا  
وَجَمِيعُ مَنْ فِيهَا وَمَا فِيهَا - عَلَى أَنَّ الْمَلِكَ الْمَنْصُورَ لَا يَرْخُصُ لِلتَّرِكَاكِ وَلَا لِلْعَرَبِ أَنْ  
يَتَرَلُّوا بِلَادَ رُقْيِيَّةِ وَبَارِينَ مِوَى ثَلَاثِينَ يَوْمًا يَحْمِلُونَ الْقَلْعَةَ لِقَلْعَةِ بَارِينَ ، وَإِنْ أَرَادُوا  
الزِّيَادَةَ يَكُونُ بِمَرَاجَعَةِ الْإِخْوَةِ الْإِسْتِئْزَارِيَّةِ وَالْإِتْمَاقِ مَعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ .

وَعَلَى أَنَّهُ إِنْ تَعَدَّى أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِأَذْيَةٍ ، أَوْ تَعَدَّى أَحَدٌ مِنَ الْقَرَنَجَةِ فِي بِلَادِهِ  
بِأَذْيَةٍ ، كَانَتْ الْمُهْلَةُ فِي ذَلِكَ تَحْمَسَةً عَشْرِيَوْمًا ، فَإِنْ أَنْكَشَفَتِ الْأَخْبَذَةُ ،

أعادت . وإلا نُحْلَفُ الْجَهَّةُ المدعى عليها أنها ما حلفت وما أحست ، وكما لهم ، كذلك عليهم .

والمستقر مملكة الصالحين : نجيم الدين وجمال الدين ، والأمير صارم الدين نايجي الدعوة المباركة ، وولد الصالح رضى الدين ، وهى : مضياف والرصافة وجميع قلاع الدعوة وحصونها وسبلها وغيرها وطايرها ودارها ، ومندنها وبلادها ، وضيايعها وطرقاتها ، ومياهها ومنايها ، وجميع بلاد الإسماعيلية بجبل هرا واللكم ، وكل ما تشتمل عليه حدود بلاد الدعوة وتحتوها . أن يكون الجميع آمنين من على الرصيف الذى يستدير إلى نهاية الأرضى اتى بحصون الدعوة وبلادها . وحماية القرية المعروفة بعرطار (٩) يكون له أسوة الإسماعيلية . وإن علم الأصحاب أن أحدا من الإسماعيلية قد صبر إلى بيت الاستتار لأذية ، أعلموا بيت الاستتار قبل أن تجرى أذية ، وما لم يعلموا به عليهم الإيمان أنهم ما علموا به ، وإن لم يحلفوا برؤا الأذية التى تجرى .

وتقرر أن يكون فلاحو بيت الاستتار راجحين وظادين ومتصرفين في بينهم وشرائهم ، مطمئنين لا يتعدى أحد عليهم . وكذلك جميع فلاحى بلاد الإسماعيلية لا يتعدى أحد عليهم ، وأن يكونوا آمنين مطمئنين في جميع بلاد الاستتارية ، وإن تعدى أحد من الجهتين في سوق أو طريق ، في ليل أو نهار ، تكون المدة خمسة عشر يوما ، فإن ردت الشكوى كلها فلا يكون إلا الخير بينهم ، ومن توجهت عليه الإيمان حلف ، ومن لم يفعل يحلف وإلا يرد الأذية . وتكون الضيعة التى رهنها عبد المسيح رئيس المرقب الاستتار ، وهى المشرفة تكون آمنة إن كان الحال آسستقر عليها إلى آخر وقت عند كتابة هذه الهدنة المباركة بين الأصحاب وأصحابهم . ويحمل الأمر في الحفرق .

ويُطلُّ ما هو على بلاد الدَّعوة المباركة من جميع مآلِيت الاستتار على حماية مضايقات والرُصافة، وهو في كلِّ سنة ألف ومائتا دينار قومصية، ونحسبون مدًا حنطة، ونحسون مدًا شعيرا، ولا تبقى قِطِعة على بلاد الدَّعوة جميعها، ولا يتعرَّض بيت الاستتار ولا توأهم ولا غلمانهم إلى طلب قديم من ذلك ولا جديد، ولا منكسر ولا ماض، ولا حاضِر ولا مُستقبل على اختلافه .

وتقرر أن تكون جميع المباحات من الجهتين مُطلقة مما يختص بالملكة الحِمْصية، يستزقُّ بها الصَّعاليك . وأن تواب الملك الظاهر يحوِّتهم من أذية المسلمين من بلاده المذكورة، وأن تواب بيت الاستتار يصوِّفونهم ويحرِّسونهم ويحوِّتهم من النصارى والقرَّج من جميع هذه البلاد الداخلة في هذه المُدنة . ولا يتعرَّض أحد من المسلمين كافة من هذه البلاد الداخلة في [هذه] المُدنة [إلى بلاد الاستتارية] بأذية ولا إغارة، ولا يتعرَّض أحد من جميع القرَّجة من هذه البلاد الداخلة في هذه المُدنة بمُؤدوها الجارية في يد تواب الاستتار وفي أيديهم، إلى بلاد الملك الظاهر بأذية ولا إغارة .

وعلَى أنه متى دخل في بلاد المناصِفات أحدٌ ممن يجب عليه العِدادُ وأُمنع من ذلك، وكان عِداد إحدى الجهتين حاضرا : إما عِداد ديوان الملك الظاهر، وإما عِداد بيت الاستتار، فلنائب العِداد الحاضِر من إحدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشَّخص المُنْعى عن العِداد أو الخارج من بلد المناصِفات رهنا يقدِّر ما يجب عليه من العِداد، بحضور رئيس من رؤساء بلد المناصِفات، ويترك الرهن عند الرئيس ودِعة إلى أن يحضُر النائب الآخر من الجهة الأخرى، ويوصل إلى كلِّ من الجهتين حقَّه من العِداد .

وإن خرج أحدٌ ممن يجب عليه العِداد، وعجز النائب الحاضِر عن أخذ رهنه : فإن دخل بلدا من بلاد الملك الظاهر، كان على التواب لإصْصال بيت الاستتار إلى حقِّهم .



مما يجب على الخارج من العباد . وكذلك إن دخل الخارج المذكور إلى بيت الاستتار، كان عليهم أن يوصلوا إلى ثواب الملك الظاهر حقهم مما يجب على الخارج من العباد . وكذلك يمتد ذلك في المملكة الجوية وبلاد الدعوة المحروسة .

وعلى أن التجار والسفّار والمتردّين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمينين من الجهتين : الجهة الإسلامية ، والجهة الفرنجية والنصرانية ، في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها - على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم ، يحميم السلطان وثوابه ، ويتماهون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصقات - من جميع المسلمين . ويحميم بيت الاستتار في بلادهم الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصقات - من الفرنج والتصارى كافة .

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المتردّين على أى طريق اختاروه من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر ، وبلاد مهادية ، وبلاد المناصقات ، وخاص بيت الاستتار والمناصقات ، يكونوا الساكنون والمتردّون في الجهتين آمينين مطمئنين على النفوس والأموال ، يحمي كل جهة الجهة الأخرى .

وعلى أن ما يختص بكل جهة من هذه الجهات : الإسلامية ، والفرنجية الاستتارية . لا يكون عداداً على ما لها في المناصقات : من الدواب والنعم والبقر والجبال وغيرها ، على العادة المقررة في ذلك .

وعلى أن إطلاق الرؤساء يكون باتفاق من الجهتين : الإسلامية ، والفرنجية الاستتارية . ومتى وقعت دعوى على الجهة الأخرى ، وقف أمرها في الكشف عنها أربعين يوماً ، فإن ظهرت أعيدت على صاحبها ، وإن لم تظهر حلف ثلاثة

فَرَّ مَنْ يَخْتَارُهُمْ صَاحِبُ الدَّعْوَى عَلَى مَا يَعْلَمُونَهُ فِي تِلْكَ الدَّعْوَى، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْيَمِينِ أَعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَعَوَّضَ عَنْهَا أُعِيدَ الْعَوَضُ .

وَعَلَى أَنْ يَكْشِفُوا عَنِ الْأَخِيلَةِ بِجُهِلِهِمْ وَطَائِفِهِمْ . وَمَتَى تَحَقَّقَتْ أَعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا ؛ فَإِنْ حَلَقُوا يَرِءُونَ مِنَ الدَّعْوَى ، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْيَمِينِ أَعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا ، وَإِنْ آمَنَعَ الْمَدْعَى عَلَيْهِ مِنَ الْيَمِينِ حَلَفَ الْمَدْعَى ، وَلَا يَسْتَحَقُّ عَوَضُ مَا عَدِمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُهُ . وَكَذَلِكَ يَجْرَى الْأَمْرُ فِي الْقَتْلِ : عَوَضُ الْفَارِسِ فَارِسٌ ، وَعَوَضُ الرَّاجِلِ رَاجِلٌ ، وَعَوَضُ الْبَرَكِلِ بَرَكِلٌ ، وَعَوَضُ التَّسَاحِرِ تَاسِحٌ ، وَعَوَضُ الْفَلَاحِ فَلَاحٌ . وَإِذَا أَتَقَضَتِ الْأَرْبَعُونَ يَوْمًا الْمَذْكُورَةُ لَكَشِفِ الدَّعْوَى وَلَمْ يَحْلِفِ الْمَدْعَى عَلَيْهِ لِلدَّعَى وَجِبَ عَلَيْهِ الْعَوَضُ حَتَّى يَرُدَّ، وَإِنْ رَدَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمَدْعَى وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، وَلَمْ يَحْلِفِ صَاحِبُ الدَّعْوَى بَطَلَتْ دَعْوَاهُ وَجُكِّهْهَا ، وَإِنْ حَلَفَ أَخَذَ الْعَوَضُ .

وَمَتَى هَرَبَ مِنْ أَحَدَى الْجَهَتَيْنِ إِلَى الْأُخْرَى أَحَدٌ ، وَمَعَهُ مَالٌ لغيره أُعِيدَ جَمِيعُ مَالِهِ ، وَكَانَ الْمَهَارِبُ خَيْرًا بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْعُودِ . وَإِنْ هَرَبَ عَبْدٌ وَخَرَجَ عَنْ دِينِهِ ، أُعِيدَ ثَمَنُهُ ، وَإِنْ كَانَ بَاقِيًا عَلَى دِينِهِ أُعِيدَ .

وَعَلَى أَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنَ الْقَهَاطِينِ فِي بِلَدِ الْمُنَاصِفَاتِ : مِنَ الْفَلَاحِينَ وَالْعَرَبِ وَالتَّرِكَاكِنِ وَغَيْرِهِمْ ، إِلَى بِلَادِ الْقَرْجِ وَالنَّصَارَى كَافَّةً لِإِغَارَةِ وَلَا أَذِيَّةٍ بِعِلْمِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَبِلَادِ مُعَاهِدِيهِ ، [ وَلَا يَدْخُلُ أَحَدٌ ] بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ لِإِغَارَةٍ وَلَا أَذِيَّةٍ بِعِلْمِ بَيْتِ الْإِسْتِثَارِ وَلَا رِضَاهُمْ وَلَا إِتْمَنِ .

وَعَلَى أَنْ الدَّعَاوَى الْمُتَقَدِّمَةُ عَلَى هَذَا الصُّلْحِ يَحُلُّ أَمْرُهَا عَلَى شَرْطِ الْمَوَاصِفَةِ الَّتِي بَيْنَ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ وَبَيْنَ مُعَاهِدِيهِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْإِسْتِثَارِ .

وعلى أن هذه المدينة تكون ثابتة مستقرة، لا تنقض بموت أحد من الجهتين، ولا وفاة ملك ولا مُقدِّم، إلى آخر المدة المذكورة، وهى : عَشْرَتَيْنِ وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، أولها يوم تاريخه .

وعلى أن ثواب الملك الظاهر ومعاهديه لا يترك أحدًا من التركمان، ولا من العربان، ولا من الأكراد، يدخل بلاد المناصفات بغير اتفاق من بيت الاستبار أو رضاه، إلا أن يكفلوه على نفوسهم فى هذه الطوائف المذكورة، ويعاموا حاله، لئلا يتبدد منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصفات وبلد النصارى . ولتواب مولانا السلطان أن تركهم على شرط أنهم يعلم بهم بيت الاستبار فى قد نزولهم المكان، إن كان المكان قريبا . وإن ظهر منهم فساد كان التواب يجاوبون بيت الاستبار . وعلى أن المهادنة بمجودها يكون الحكم فيها كما فى المناصفات، والجلود فى هذه البلاد جميعها تكون على ما تشهد به نسخ المدين، وما استقر الحال عليه إلى آخر وقت .

وعلى أن نخل أمور المملكة الحنسية على ما كان مستقرًا فى الأيام الأشرفية، على ما قرره الأمير علم الدين «سنجر» .

هذا ما وقع الاتفاق والترضى عليه من الجهتين . وبذلك جرى القلم الشريف السلطانى الملكى الظاهرى : حجة بمقتضاه، وتأكيدا لما شيرح أعله . كُتب فى تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هذه من هذا النمط، عُدت بين السلطان الملك الظاهر «بيبرس» أيضا، وبين ملكة بيروت من البلاد الشامية، فى شهر سنة سبع وستين وستمائة حين كانت بينها، وهى :

استقرت المَدَنَةُ المباركة بين السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ رُكْنِ الدِّينِ «بَيْرِس» وبين  
 الْمَلِكَةِ الْجَلِيلَةِ الْمُصُونَةِ الْقَاهِرَةِ، فَلَانَةُ أَسْنَةِ فَلَان، مَالِكَةِ يَرُوتَ وَجَمِيعِ جِبَالِهَا  
 وَبِلَادِهَا الصَّحِيَّةِ مَدَّةَ عَشْرَ سِتِينَ مَتَوَالِيَةً، أَوَّلَهَا يَوْمُ الْخَمِيسِ سَادِسُ رَمَضَانَ سَنَةِ  
 سَبْعٍ وَسِتِينَ وَمِئَاةٍ الْمَوَافِقِ لِتِسْعِ إِدَارِ سَنَةِ أَلْفٍ وَنَحْمِئَاةٍ وَثَمَانِينَ يُونَانِيَّةٍ -  
 عَلَى يَرُوتَ وَأَعْمَالِهَا الْمَضَافَةِ إِلَيْهَا، الْجَارِي عَادَتُهُمْ فِي التَّصَرُّفِ فِيهَا فِي أَيَّامِ الْمَلِكِ  
 الْعَادِلِ، أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَيُّوبَ، وَأَيَّامِ وَلَدِهِ الْمَلِكِ الْمُعْظَمِ عَمْسَى، وَأَيَّامِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ  
 صَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ. وَالْقَاعِدَةُ الْمُسْتَقَرَّةُ فِي زَمَنِهِمْ إِلَى آخِرِ الْأَيَّامِ  
 الظَّاهِرِيَّةِ، بِمَقْتَضَى الْمَدَنَةِ الظَّاهِرِيَّةِ. وَذَلِكَ مَدِينَةُ يَرُوتَ وَأَمَّا كُنْهَا الْمَضَافَةُ إِلَيْهَا:  
 مِنْ عَدَدِ جُبَيْلٍ إِلَى حَدِّ صَيْدَا، وَهِيَ الْمَوَاضِعُ الْآتِي ذِكْرُهَا: جُونِيَّةٌ بِحُدُودِهَا، وَالْعَذَبُ  
 بِحُدُودِهَا، وَالْمَصْفُورِيَّةُ بِحُدُودِهَا، وَالرَّأُوقُ بِحُدُودِهَا، وَمِسْنُ الْفَيْلِ بِحُدُودِهَا، وَالرَّحُ  
 وَالشُّوْفُ بِحُدُودِهَا، وَأَنْطَلِيسُ بِحُدُودِهَا، وَالْحَدِيدَةُ بِحُدُودِهَا، وَحَسُوسُ بِحُدُودِهَا،  
 وَالْبُشْرِيَّةُ بِحُدُودِهَا، وَالذِّكْوَانَةُ وَبِرْجُ قَرَايَرُ بِحُدُودِهَا، وَقَرِينَةُ بِحُدُودِهَا، وَالنَّصْرَانِيَّةُ  
 بِحُدُودِهَا، وَجَلْدَا بِحُدُودِهَا، وَالنَّاعِمَةُ بِحُدُودِهَا، وَرَأْسُ الْفَيْقَةِ، وَالْوَطَاءُ الْمَعْرُوفُ  
 بِمَدِينَةِ يَرُوتَ، وَجَمِيعُ مَا فِي هَذِهِ الْأَمَاكِينِ مِنَ الرِّطَايَا وَالتُّجَارِ، وَمَنْ سَاطِرُ أَصْنَافِ  
 النَّاسِ أَجْمَعِينَ، وَالصَّادِرِينَ مِنْهَا وَالوَارِدِينَ إِلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ أَجْنَاسِ النَّاسِ، وَالْمُتَرَدِّدِينَ  
 إِلَى بِلَادِ السُّلْطَانِ فَلَانٍ، وَهِيَ: الْحَمِيرَةُ وَأَعْمَالُهَا وَقِلَاعُهَا وَبِلَادُهَا وَكُلُّ مَا هُوَ مَخْتَصٌّ بِهَا،  
 وَالْمَمْلَكَةُ الْأَنْطَاكِيَّةُ وَقِلَاعُهَا وَبِلَادُهَا، وَجَبَلَةُ وَالْأَلَذِّيَّةُ وَقِلَاعُهَا وَبِلَادُهَا، وَخِمُصُ  
 الْحُرُوسَةِ وَقِلَاعُهَا وَبِلَادُهَا وَمَا هُوَ مَخْتَصٌّ بِهَا، وَمَمْلَكَةُ حِصْنِ عَكَّا وَمَا هُوَ مَتَسُوبٌ  
 إِلَيْهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الْحَمِيرِيَّةُ وَقِلَاعُهَا وَبِلَادُهَا وَمَا هُوَ مَخْتَصٌّ بِهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الرَّحْبِيَّةُ وَمَا هُوَ  
 مَخْتَصٌّ بِهَا: مِنْ قِلَاعِهَا وَبِلَادِهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الْبَلْبَكِيَّةُ وَمَا هُوَ مَخْتَصٌّ بِهَا: مِنْ قِلَاعِهَا  
 وَبِلَادِهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الدَّمَشَقِيَّةُ وَمَا هُوَ مَخْتَصٌّ بِهَا: مِنْ قِلَاعِهَا وَبِلَادِهَا وَرَطَايَاها

وَمَمَالِكُهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الشَّقِيقِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنْ قِلَاعِهَا وَبِلَادِهَا وَرَعَايَاهَا، وَالْمَمْلَكَةُ  
 الْقُدْسِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الْحَلِيَّةُ وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالْمَمْلَكَةُ الْكَرْبَكِيَّةُ وَالشَّوْبَكِيَّةُ  
 وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا مِنْ الْقِلَاعِ وَالْبِلَادِ وَالرَّمَايَا، وَالْمَمْلَكَةُ النَّابُلُسِيَّةُ، وَالْمَمْلَكَةُ الصَّرْحَدِيَّةُ،  
 وَمَمْلَكَةُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ جَمِيعُهَا : بَشُورُهَا، وَحُصُونُهَا، وَمَمَالِكُهَا، وَبِلَادِهَا،  
 وَسَوَاحِلُهَا، وَبَرِّهَا، وَبَحْرِهَا، وَرَعَايَاهَا، وَمَا يَخْتَصُّ بِهَا، وَالسَّاكِنِينَ فِي جَمِيعِ هَذِهِ  
 الْمَمَالِكِ : الْمَذْكُورَةِ وَمَا لَمْ يَذْكُرْ مِنْ مَمَالِكِ السُّلْطَانِ وَبِلَادِهِ، وَمَا سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى  
 عَلَى يَدِهِ وَيَدِ تَوَائِهِ وَغُلَامَانِهِ يَكُونُ دَاخِلًا فِي هَذِهِ الْهَدَنَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَمُسْتَظَلًّا فِي جُمْلَةِ  
 شُرُوطِهَا، وَيَكُونُ جَمِيعُ الْمُرْتَدِّينَ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ وَإِلَيْهَا آتِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى قُفُوسِهِمْ  
 وَأَمْوَالِهِمْ وَبِضَائِعِهِمْ، مِنَ الْمَمْلَكَةِ فَلَانَةَ وَغُلَامَانِهَا، وَجَمِيعَ مَنْ هُوَ فِي حُكْمِهَا وَطَاعَتِهَا :  
 بَرًّا وَبَحْرًا، لَيْلًا وَنَهَارًا، وَمَنْ مَرَاكِبِهَا وَشَوَانِيهَا . وَكَذَلِكَ رِعْيَةُ الْمَمْلَكَةِ فَلَانَةَ وَغُلَامَانِهَا  
 يَكُونُونَ آمِنِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَبِضَائِعِهِمْ مِنَ السُّلْطَانِ وَمِنْ جَمِيعِ تَوَائِهِ وَغُلَامَانِهِ  
 وَمَنْ هُوَ تَحْتَ حُكْمِهِ وَطَاعَتِهِ : بَرًّا وَبَحْرًا، لَيْلًا وَنَهَارًا : فِي جَبَلَةٍ، وَاللَّادِقِيَّةِ،  
 وَجَمِيعِ بِلَادِ السُّلْطَانِ، وَمَنْ مَرَاكِبِهِ وَشَوَانِيهِ .

وَعَلَى أَنْ لَا يُحْدَدَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ التُّجَّارِ الْمُرْتَدِّينَ رِسْمٌ لَمْ يَجْرِبْهُ عَادَةٌ، بَلْ يُجْبَرُونَ  
 عَلَى الْعَوَائِدِ الْمُسْتَمَرَّةِ، وَالْقَوَاعِدِ الْمُسْتَقَرَّةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ . وَإِنْ عُدِمَ لِأَحَدٍ مِنَ الْجَانِبَيْنِ  
 مَالٌ، أَوْ اخْتَلَتْ أَيْحَدُهُ، وَصَحَّتْ فِي الْجِهَةِ الْأُخْرَى رُدَّتْ إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً،  
 أَوْ قَبِيضَتُهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً . وَإِنْ خَفِيَ أَمْرُهَا كَانَتْ الْمَدَّةُ لِلْكَشْفِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا،  
 فَإِنْ وَجِدَتْ رُدَّتْ، وَإِنْ لَمْ تَوْجَدْ حُلْفٌ وَإِلَى تِلْكَ الْوَلَايَةِ الْمَدْعَى عَلَيْهِ، وَحُلْفٌ  
 ثَلَاثَةٌ قَرِيبُونَ يَخْتَارُهُمُ الْمَدْعَى، وَبَرَّتْ جِهَتُهُ مِنْ تِلْكَ الدَّعْوَى . فَإِنْ أَبَى الْمَدْعَى  
 عَلَيْهِ عَنِ الْإِيمَنِ حُلْفَ الْوَالِي الْمَدْعَى، وَأَخَذَ مَا يَدَّعِيهِ . وَإِنْ قُتِلَ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ  
 خَطَأً كَانَ أَوْ عَمْدًا، كَانَ عَلَى الْقَاتِلِ فِي جِهَتِهِ الْمَوْضُوعِ غَنَّةٌ تَطْلِيهِ : فَارِسٌ بِفَارِسَ،

وَبَرِيكِلْ يِيرِكِلْ ، وَرَايَلْ بَرَايِلْ ، وَقَلَّاحْ بَقَلَّاحْ . وَإِنْ هَرَبَ أَحَدٌ مِنَ الْجَانَيْنِ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ بِمَالٍ لَغِيرِهِ ، رَدَّ مِنَ الْجَهْتَيْنِ هُوَ وَالْمَالُ ، وَلَا يُتَذَرُ بَعْدُ .

وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلًا في هذه الهدنة ، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلًا في هذه الهدنة .

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحدًا من الفرنج على اختلافهم من قصيد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ؛ وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء ، وتكون البلاد من الجهتين محفظة من المتجربين المفسدين .

وبذلك أتممت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بمهودها والوفاء بها إلى آخر مئتيها من الجهتين : لا ينقضها مرور زمان ، ولا يغير شروطها حين ولا أوان ؛ ولا تنقض بموت أحد من الجانبين . وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يومًا ، ولا يمنع أحد منهم من العودة إلى مسقطه ، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشرف حجة فيها ، والله الموفق ، في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هدنة عقدت بين السلطان الملك الظاهر «بيبرس» وولده الملك السعيد ، وبين الفرنج الاسبتارية ، على قلعة لُد بالشام ، في سنة تسع وستين وستمائة ، وهي :

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين «بيبرس الصالح» قسيم أمير المؤمنين وولده الملك السعيد ناصر الدين «محمد بركة خاقان» خليل أمير المؤمنين ؛ وبين الباشير المتقدم الجليل افرز أولد كمال مقدم جميع بيت اسبتار سرجوان بالبلاد الساحلية ، وبين جميع الإخوة الاسبتارية ، لمدة عشر سنين

كوايل متواليات متتابعات، وعشرة أشهر، أولها مُستهل رمضان سنة تسع وستين  
وسمائية للهجرة النبوية المحمدية، الموافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وخمسمائة  
وأثنين وثمانين للإسكندر بن فيلبس اليوناني - على أن تكون قلعة لذب بكالها  
وريفها وأعمالها، وما هو منسوب إليها ومحسوب منها، بمحودها المعروفة بها من  
تقدم الزمان، وما استقر لها الآن، وما يتعلق بذلك : من المواضع، والمصايد،  
والملاحة، واليساتين، والمعاصر، والطواحين، والجزائر : سهلها وجبلها،  
وعاصرها، ودائرها، وما يحير بها من أنهار، ويبيع بها من عيون، وما هو متبني بها  
من عمار، وما استجد بها من القراج وغير ذلك؛ وكل ما عثر في أراضى المناصيفات  
على ثورها وأنهارها، وما يحدود ذلك من نهر بكرة إلى جهة الشمال، وما استقر  
لبلدة من هذه الجهات إلى آخر الأيام الناصرية من الحدود المعروفة بها والمستقرة  
لها، وحسن برضين وما ينسب إلى ذلك من البلاد والضبياع والقرى التي كانت  
مناصفة - تكون جميع بلدة وهذه الجهات خاصا إلى آخر الزائد للآل الظاهر،  
ولا يكون لبنت الاستار ولا للرقب فيها حق ولا طلب بوجه ولا سبب إلى حين  
أنقضاء مدة الهدنة وما بعدها إلى آخر الزائد، ولا لأحد من جميع الفرنجة فيها تعلق  
ولا طلب بوجه ولا سبب .

وكذلك مهما كان مناصفة، كقلعة المليسة في بلادها لبنت الاستار، يكون  
ذلك جميعه للديوان المعمور والخاص الشريف، ولا يكون للرقب فيها شيء  
ولا لبنت الاستار .

وكذلك كل ما هو في بلاد الدعوة المباركة جميعها وقلاعها من القرى - لا تكون  
فيها مناصفة لبنت الاستار ولا للرقب، ولا حق، ولا رسم، ولا شرط، ولا طلب

في جميع بلاد الدعوة : مضيايف المحروسة ، والكهف ، والمنيقة ، والقلموس ،  
والجواني ، والرصاص ، والبطيخة ، وكل ما هو في هذه القلاع وفي بلادها من مناصبة ،  
يكون ذلك خاصا للملك الظاهر ، وليس ليت الاستبار ولا الفرنجة فيه حديث  
ولا طلب .

وعلى أن تكون بلاد المرقب وحدودها من نهر لد ومقبلا ومغربا إلى حدود بلاد  
مرقبة المعروفة بها ، الداخِل جميعها في الفتوح الشريف ، وأستقارها بحكم ذلك  
في الخالص المبارك الشريف ، وعدّ البيوت المحاذية لسور الرّض ، تستقر جميعها  
مناصفة بين السلطان وبين بيت الاستبار نصفين بالسوية ، وما في جميع هذه البلاد :  
من بساتين ، وطواحين ، وعمائر ، ومصايد ، وملاحات ، وجوهر العين ، والمستغلات  
العبيقة والثثوية ، والقطاني ، والحقوق المستخرجة ، وما هو مزروع من الفدن  
لأهل الرّض ويأدوها : يكون ذلك مناصفة بين السلطان وبين بيت الاستبار  
سرجوان بالسوية نصفين .

وما هو داخل الرّض وداخل المرقب ، فإنه مطلق من الملك الظاهر للقدم  
الكبير افرز أولد كال مقدم بيت الاستبار سرجوان وخيائته ، ورجاله وحمّالته  
ورجالته ورجعته ، برسم إقامتهم وسكنهم من داخل الأسوار ، وعن سور الرّض  
المحاذية للسور تكون مناصفة جميعها ، بما فيه من حقوق طرقات وأحكار ،  
ومراعى المواشي على اختلاف أصوافها وأوبارها ، وجميع السخريات ، وكل أرض  
مزروعة أو غير مزروعة مهما أخذ منه من حق أو عدايد يكون مناصفة .

وكل ما هو من المواني والمراعى البحرية المعروفة جميعها يخصن المرقب : من  
لينا بلدة إلى ميناء القطرة المجاورة لحدود مرقبة - تكون هي وما يتحصّل منها من



الحقوق المُستخرجة من الصادرين والواردين والتجار، وما ينعقد عليه ارتقاعها،  
وتشهد به الحسابات - جميعه مُناصفة - وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع  
على اختلافها يؤخذ الحق [منه] مُناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من  
حين أخذ بيت الاستتار المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مُناصفة على العادة  
الجارية، بل تجرى التجار في الحقوق على عادتهم في البضائع التي يُحضرونها والمتجر  
كأنما من كان .

يعتمد ذلك في كل ما يصل للترديدن والمقيمين بالقلة والريص : من عامة وغير  
عامة، وخيالة وغير خيالة، على اختلاف أجناسهم، خلا ما يصل للإخوة ولعلمائهم  
المعروفين بالإخوة الاستتارية من الحبوب والمثونة والكسوة والخيل التي هي برسم  
رؤسهم خاصة، لا يكون عليها حق، بشرط أنه لا يكون فيها للتجار شيء من ذلك،  
وما خلا ذلك جميعه يؤخذ الحق منه مُناصفة على ما شرعناه .

وعلى أنه لا يتجى أحد من الإخوة الخيالة، والوزراء، والكتّاب، والنواب،  
والمستخدمين شيئا على اسم بيت الاستتار، ليستطلق الحق ويمنع من استبداده، ولو  
أنه أقرب أئج إلى المقدم أو والد المقدم . إذا ظهر منه خلاف ما وقع عليه الشرط،  
أخذ جميع ماله مُستهلكا للجهتين : للديوان السلطاني المعمور، وليت الاستتار،  
إن كان خارجا من البحر أو نازلا إلى البحر، صادرا وواردا، وكذلك في البر صادرا  
وواردا بعد المحاقة على ذلك وصحته .

وعلى أن ثواب المباشر المقدم الكبير لبيت الاستتار، وولائه وكُتّابه ومُستخدميه  
وغلبانه، يكونون آيين مطمئن على نفوسهم وأموالهم وجميع ما يتعلق بهم .  
وكذلك غلبائنا وولائنا وثوابنا ومُستخدمونا وكُتّابنا ورعايا بلادنا يكونون آيين

مُطَمِّتَيْنِ عَلَى نَفُوسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، مُتَّفِقِينَ عَلَى مَصَالِحِ الْبِلَادِ وَأَخْذِ الْحُقُوقِ ، وَسَائِرِ  
الْمُقَاسِمَاتِ وَالطَّرَاقَاتِ وَالْبَسَائِتِ وَالطُّوَاجِينِ ، وَالْحُقُوقِ الْمَقْرَّرةِ عَلَى الْفَدَنِ عَلَى اخْتِلَافِ  
أَجْنَاسِهِمْ . وَكَذَلِكَ الرَّأْسَةُ وَاسْتِخْرَاجُ وُجُوهِ الْعَيْنِ ، وَالْحُبُوبِ ، وَالتَّصَارِيفُ الْجَارِي  
بِهَا الْعَادَةُ الْمَقْرَّرةِ عَلَى الْفَدَنِ ، مِنْ جَمِيعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا .

وعلى أن جميع الضمانات يكونُ ثَوَابُ السُّلْطَانِ وَثَوَابُ بَيْتِ الْاِسْتِثَارِ مُتَّفِقِينَ جُمْلَةً  
عَلَى ذَلِكَ ، لَا يَنْفَرِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ وَتَنْزِيلٍ فِي دِفَاتِرِ الدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ  
وَدِيَوَانِ بَيْتِ الْاِسْتِثَارِ ، وَلَا يُطْلَقُ وَلَا يُحْبَسُ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، وَلَا يَنْفَرِدُ  
وَاحِدٌ دُونَ آخَرٍ .

وعلى أن أَى مُسْلِمٍ تصدَّرَ مِنْهُ أَذِيَّةٌ يُحْكَمُ فِيهِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ  
فِي تَأْذِيهِ ، يَعْتَمِدُ ذَلِكَ فِيهِ تَأْيِيدًا : مِنْ شَيْئٍ يَحِبُّ عَلَيْهِ ، أَوْ قَطْعٍ . أَوْ أَدَبٍ يُحْكَمُ  
الشَّرْعُ الشَّرِيفُ : مِنْ شَيْئٍ ، وَقَطْعٍ ، وَكُلِّ أَعْيُنٍ ، بِمَحْتِ لَا يُعْمَلُ ذَلِكَ إِلَّا بِمَحْضُورِ  
نَائِبٍ مِنْ جِهَةِ بَيْتِ الْاِسْتِثَارِ ، حَاضِرٍ يُعَايِنُ ذَلِكَ بَعِيْنَهُ ، وَيَكُونُ قَدْ عَرَفَ الذَّنْبَ  
وَتَحَقَّقَهُ . وَإِنْ كَانَ ذَنْبُهُ يَسْتَوْجِبُ جُنَايَةً أَوْ غَرَامَةً دِرَاهِمٍ أَوْ ذَهَبٍ أَوْ مَوَاشٍ  
أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، يَكُونُ مَا يُسْتَادَى مُنَاصَفَةً لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ  
وَلِبَيْتِ الْاِسْتِثَارِ وَصَاحِبِ الرِّقَبِ . فَإِنْ كَانَ فِيهَا قِشَاشٌ <sup>(١)</sup> وَبَضَائِعُ عَلَى اخْتِلَافِ  
أَجْنَاسِهِ ، وَصَاحِبُهُ مُسْلِمٌ ، يَأْخُذُ بِضَاعَتَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ بَعْدَ آدَاءِ الْحَقِّ  
لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْاِسْتِثَارِ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ وَكَانَتْ لِمُسْلِمٍ ،  
أَعِيدَتْ لِفِرَازَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَلَا يَكُونُ لِبَيْتِ الْاِسْتِثَارِ فِيهَا تَعَلُّقٌ . وَإِنْ كَانَ صَاحِبُ  
الْبِضَاعَةِ نَصْرَانِيًّا عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ النَّصْرَانِيِّ ، تَوْخِذُ بِضَاعَتَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ  
مِنْ جِهَتَيْنَا ، بَعْدَ آدَاءِ الْحَقِّ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ ، وَكَانَتْ لِنَصْرَانِيٍّ ،

(١) لعله سقط هنا شيء ، يعود عليه الضمير .

تَبَقَى تَحْتَ يَدِ بَيْتِ الْإِسْتَبَارِ ، خِلا مِنْ كَانَ مِنْ بِلَادِ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ عَلَى اخْتِلَافِ دِينِهِ : إِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ ذِمِّيًّا ، عَلَى اخْتِلَافِ جِنْسِ دِينِهِ ، لَيْسَ لِبَيْتِ الْإِسْتَبَارِ عَلَيْهِمْ أَتْرَافٌ ، وَيَحْمِلُ ذَلِكَ جَمِيعُهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ الْبُضَائِعِ لِلدِّيَّانِ الْمَعْمُورِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَنِ انْتَكَسَرَ مَرَكَبٌ ، وَظَهَرَ إِلَى بَرِّ الْمَوَانِ بِضَاعَةٌ ، وَقَصَدَ صَاحِبُهُ شَيْلَهُ إِلَى جِهَةِ يَخْتَارُهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَلَا يَتَّبِعُ ، فَيُؤْخَذُ الْحَقُّ مِنْهُ : إِنْ بَاعَ يُؤْخَذُ الْحَقُّ ، وَإِنْ حَمَلَ يُؤْخَذُ الْحَقُّ ، وَيَكُونُ الْحَقُّ لِلْجِهَتَيْنِ : وَهُوَ الْحَقُّ الْمَعْرُوفُ الْجَارِي بِهِ الْعَادَةُ .

وَعَلَى أَنَّ التُّجَّارَ السَّافِرَةَ وَالْمُتَرَدِّدِينَ بِالْبُضَائِعِ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصْرَانِيَّاتِ مَا خَرَجُوا مِنَ الْمَوَانِ الْمَحْدُودَةِ أَعْلَاهُ يَتَوَجَّهُونَ بِخِفَارَةٍ الْجِهَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ : لَا يَتَنَاوَلُ مِنَ الْخِفَارَةِ شَيْءٌ مَسْئُوبٌ إِلَى نَفْسِهِمْ إِلَى أَنْ يُخْرِجَهُمْ وَيُخَيِّرَهُمْ إِلَى بَرِّ حُدُودِ الْمَرْقَبِ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ تَحْتَ حِفْظِ الْجِهَتَيْنِ . وَمَنْ وَصَلَ التُّجَّارُ مِنْ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ إِلَى بِلَادِ الْمَرْقَبِ وَمَوَانِيهَا ، فَالترتيبُ عَلَى الْخِفَارَةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، مَعَ تَدْرُكِ الرُّؤَسَاءِ الْحِفْظَ لِلطَّرِيقَاتِ صَادِرًا وَوَارِدًا ، بِحِثِّ إِنْهُمْ يَحْضُرُونَ إِلَى بِلَادِ الْمَرْقَبِ ، وَإِلَى الْمَوَانِ بِالْمَرْقَبِ الْمَحْدُودَةِ أَعْلَاهُ ، طَبِيبِينَ آمِنِينَ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِالْخِفَارَةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، عَلَى مَا شَرَحْنَاهُ .

وَعَلَى أَنَّ غُلَامَانَ الْمُبَاشِيرِ الْمُقَدَّمِ لِبَيْتِ الْإِسْتَبَارِ وَالْإِخْوَةَ وَالْخِيَالَةَ وَالرَّجِيَّةَ الْمُقِيمِينَ بِقَلْعَةِ الْمَرْقَبِ وَالرَّيْضِ ، يَكُونُونَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَمَنْ يَلُودُ بِهِمْ وَيَتَعَلَّقُ ، فِي حَالِ سُكُودِهِمْ وَوُجُودِهِمْ إِلَى بِلَادِنَا الْجَارِيَةِ فِي مَمْلَكَتِنَا فِي الْبَرِّ مِنْهَا وَمِنْ تَوَانِيْنَا بِالْمَمْلَكَةِ وَالْبِلَادِ الْجَارِيَةِ فِي حَكْمِنَا ، وَمِنْ وَلَدِنَا الْمَلِكِ السَّعِيدِ ، وَمِنْ أُمَرَائِنَا وَهَسَاكِرِنَا الْمَنْصُورَةِ . وَإِنْ قُتِلَ قَتِيلٌ أَوْ أُخِذَتْ أَخِيذَةٌ فِي حُدُودِ الْمَنَاصِفِ بِبِلَادِ

المرقب ، فيَقَعُ الكَشْفُ عن ذلك عشرين يوماً : فإن وُجِدَ فاعِلُ ذلك ، يُؤْخَذُ الفاعِلُ بِذَنبِهِ . وإن لم يَظْهَرْ فاعِلُ ذلك مئةَ عشرين يوماً فيُمَسِّكُ رُؤَسَاءُ مَكَانِ قَطْعِ الطَّرِيقِ وأَخَذِ الأَخِيذَةِ ، وَقَتْلِ القَتِيلِ ، إن كَانَ أَخْذٌ وَقَتْلٌ - مَكَانَ مَن قَتَلَ القَتِيلَ أو أَخَذَ الأَخِيذَةَ - أَقْرَبَ القُرْبَاءِ إِلَى الذِي قَطَعَ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ أو قَتَلَ قَتِيلًا . فإن حَفِيَ الفاعِلُ لذلك ، وَعُجِزَ عن إحضاره بعد عشرين يوماً ، يُزِمُّ أَهْلُ نَوَابِ الجِهَتَيْنِ مِنَ القُرْبَاءِ الأَقْرَبَ لذلك المَكَلَفَ بِأَلْفِ دِينَارٍ صُورِيَّةٍ : لِلدِّيَّانِ السُّلْطَانِيِّ النُّصَفُ ، وَلِقَبِيْبِ الأَسْبَاطِ النُّصَفُ ، وَلَا تُكْاسِلُ الْوَلَاةُ فِي طَلَبِ ذَلِكَ ، وَيَكُونُ طَلَبُهُ يَدًا وَاحِدَةً ، وَلَا يَخْتَصُ الْوَاحِدُ دُونَ الْآخَرِ . وَلَا يَحَابِي أَحَدُ مِنْهُمْ لِأَخْذِ الْفَلَّاحِ فِي هَذَا أَوْ غَيْرِهِ فِي مُصْلَحَةِ عِمَارَةِ الْبِلَادِ ، وَاسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ ، وَمُقَاسِمَةِ الْغِلَالِ ، وَطَلَبِ الْمُتَفْسِدِينَ لَيْلًا وَنَهَارًا .

وعلى أن لا تَتَغَيَّرَ الْمُهْدَنَةُ الْمُبَارَكَةُ بِأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ ، لِأَمْنِ جِهَتَيْنَا وَلَا مِنْ جِهَةٍ وَلَدِنَا الْمَلِكِ السَّعِيدِ ، إِلَى انْقِضَاءِ مُدَّتِهَا الْمَعِيْنَةِ أَغْلَاهُ وَفَرُوعِهَا . وَلَا تُتَغَيَّرُ بِتَغْيَرِ الْمُقَدِّمِ الْمُبَاشِرِ لَبَيْتِ الْأَسْبَاطِ الْحَاكِمِ عَلَى الْمَرْقَبِ وَغَيْرِهِ . وَإِذَا جَرَتْ قِضْبَةٌ فِي أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ يَعْرِفُهُمْ نَوَابُنَا ، وَيَحَقُّ الْكَشْفُ إِلَى مَدَّةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، فَمَنْ يَكُونُ لِلْبِدَايَةِ يَخْرُجُ مِنْهَا عَلَى مَنْ سَبَّ (٩) وَيَكُونُ قَدْ عَرَفَ دَيْنَهُ الَّذِي بَدَأَ مِنْ جِهَةٍ كُلِّ وَاحِدٍ . وَإِذَا تَغَيَّرَ النَّوَابُ بِالْمَرْقَبِ وَحَضَرَ نَائِبُ مُسْتَجِدٍّ يَعْتَمِدُ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْمُهْدَنَةُ ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ . وَإِذَا تَسَحَّبَ مِنَ الْمَسَامِينِ أَحَدٌ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَابِهِ ، إِنْ كَانَ مَمْلُوكًا أَوْ غَيْرَ مَمْلُوكٍ ، أَوْ مَعْتُوقًا أَوْ غَيْرَ مَعْتُوقٍ ، أَوْ كَاتِبًا مِنْ كَانَ مِنَ الْمَسَامِينِ عَلَى اخْتِلَافِ مَنَازِلِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ غُلَامًا أَوْ غَيْرَ غُلَامٍ - يَرُدُّ بِجَمِيعِ مَا يُوجَدُ مَعَهُ ، إِنْ كَانَ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا يَرُدُّ . وَلَوْ أَنَّ الْمَتَسَحِّبَ دَخَلَ الْكَنِيسَةَ وَجَلَسَ فِيهَا يُمَسِّكُ بِيَدِهِ وَيَخْرُجُ وَيَسْلُمُ لِنَوَابِنَا بِجَمِيعِ مَا مَعَهُ ، وَإِنْ كَانَ خَيْلًا أَوْ قَاشًا أَوْ دَرَاهِمَ أَوْ ذَهَبًا

وما يتعامل الناس به، يسلم بما معه إلى ثوابنا على ما شرعناه . وكذلك إذا تسحب أحد من جهتهم من الفرنج أو النصارى إلى أبوابنا الشريفة ، أو وصل إلى جهة ثوابنا بمسك ويسلم بما يحضر معه : من الخيل والأقشعة والعلة وجميع ما يصل إن كان قليلاً أو كثيراً، يسلكه ثوابنا ويسلمون ذلك بما معه لثواب المقدم الماستر المقيم بالمرقب، وأخذوا الخطوط بذلك بتسليمه بما حضر معه .

وعلى أنهم لا يكون لهم حديث مع قلعة العليقة ، ولا الرعية الذين فيها ، ولا مع ثواب ابن الرديني المقيمين فيها : لا يكتب ، ولا بمشاهدة ، ولا برسالة ، ولا بقول ، ولا يطلع أحد من جهتهم إليهم ؛ ولا يمكن أحد من الحضور إليهم ، [والوصول] إلى جهتهم من القلعة المذكورة ؛ ولا تسير إليهم مشونة ولا تجارة ولا جلب على اختلاف أجناسه ، ولا تكون بينهم معاملة . وإن حضر أحد من جهة قلعة العليقة إليهم يسكنون ويسلمون لثوابنا يأخذوا بذلك خطوطهم .

وعلى أنهم لا يحددون عمارة قلعة ، ولا في القلعة عمارة ، ولا في البنية ولا في أبراجها ، ولا يعتمدون [إصلاح شيء منها] إلا إذا طابته ثوابنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضرورة في ترميم يرمونه بعد أن يطابته ثوابنا من هذا التاريخ ؛ ولا يحددون عمارة في ربضها ، ولا في سورها ، ولا في أبراجها ، ولا يحددون حفر خندق ، وعمارة خندق ، أو تجدد بناء خندق أو قطع جبل ، أو تحصن عمارة ، أو تحصن بقطع جبل ، منسوباً لتحصين يمنع أو يدفع . ولم نأذن لهم بسوى البناية [على] أثر الدور التي أحرقت عند دخول الساسانيين حجة الملك السعيد . وقد أذننا لهم في عمارة باطن الربض على أثر الأساس القديم .

وعلى أن صهيون وأعمالها، ورومه (٩) وأعمالها، والقلعة وأعمالها، وعينوب وأعمالها، الجارية تحت نظير الأمير سيف الدين محمد بن عثمان صاحب صهيون -

يجرى حكم هذه البلاد المختصة به حكم بلادنا في المهادنة، بحكم أن بلاده المذكورة جارية في ممالكنا الشريفة .

وعلى أنه لا يمكن بيت الاستار من دخول رجل غريبة في البر ولا في البحر إلى بلادنا، بأذية ولا ضرر يعود على الدولة ، وعلى بلادنا وحصوننا ورعيتنا ، إلا أن يكونوا يدا غالية ، محبة ملك متوج .

وعلى أن البرج الداخل في المناصفة ، وهو برج معاوية الذي عند المحاصة الداخلة في مناصب المرقب الآن ، يحرب ما يحصن منه ، وهو النصف من البرج المذكور أعلاه . وأن الحسر المعروف بحمير بلدة لم يكن لبيت الاستار فيه شيء من البرن ، وأنه خالص للديوان المعمور دون بيت الاستار . وأن الدار المستجلة عمارتها بقلعة المرقب برسم الماستر المقدم الكبير ، الذي هو طيز تكيل عمارة سقف القبو بالحجارة والكليس ، لا تتجمل عمارتها ، ويبقى على حاله ، وهو في وسط القلعة الظاهر منه قليل إلى البر الشرقي وهو المذكور أعلاه .

وعلى أن ثواب الاستار بالمرقب لا يُخفون شيئاً من مقاسمات البلاد ولا شيئاً من حقوقها الجارية بها العادة أن بيت الاستار يستخرجونه ولا يُخفون منه شيئاً ؛ وكل ما كان يستأدى من البلاد في أيدي الاستار قبل هذه الهدنة يُعلمون ثواباً عليه ولا يُخفون منه شيئاً قليلاً ولا كثيراً من ذلك .

وعلى أن السلطان يأمر ثوابه بحفظ مناصفات بلاد المرقب الداخلة في هذه الهدنة ، من المُفسدين والمتلصّصين والحرامية ممن هو في حكمه وطاعته . وكذلك الماستر المقدم افريز أولد كمال يلزم ذلك من الجهة الأخرى . ومتى وقع - والعياد بالله - فسحّ بسبب من الأسباب ، كان التجار والسفّار آتين من الجهتين إلى

أن يعودوا بأموالهم ، ولا يُمنعون من السفر إلى أماكنهم من الجهتين ، وتكون النهاية لهم أربعين يوماً . وتكون هذه الهدنة منعقدة بشروطها المذكورة ، مُستقرة بقواصيدها المسطورة للدة المعينة ، وهى : عشرين وعشرة أشهر كواميل ، أو ثلثا مُستهل رمضان سنة تسع وستين وستمائة إلى آخرها ، متتابعة متواليّة ، لا تفسخ بموت أحد من الجهتين ، ولا بعزل وإل وقيام غيره موضعه ، ولا زوال رجل غريبية ، ولا حضور يد قالية ؛ بل يلزم كلا من الجهتين حفظها إلى آخرها ؛ ومن تولى بعد الآخر حفظها إلى آخرها ، بالشروط المشروطة فيها أولاً وآخرها . وانلخط أعلاه ، حجة بمقتضاه ، إن شاء الله تعالى . فى تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هُدنة عُقدت بين السلطان الملك المنصور « قلاوون » الصالحى صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية وولده الملك الصالح « على » ولّى عهده ، وبين حُكام الفرنج بعكا وما معها من بلاد سواحل الشام ، فى شهور سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، وهى يومئذ بأبليسهم . وصورتها :

استقرت الهدنة بين مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدين أبى الفتح « قلاوون » الملكى الصالحى وولده السلطان الملك الصالح علاء الدين « على » - خلد الله تعالى سلطنتهما - وبين الحُكام بمملكة عكا ، وصيدا ، وعثليت ، وبلادها التى انعقدت عليها هذه الهدنة ، وهم : الشيخان أودهيل المملكة بعكا ، وحضرة المقدم الجليل افرىز كاسام دسا حول (؟) مقدم بيت الديوية ؛ وحضرة المقدم الجليل افرىز سكفل لاورن (؟) مقدم بيت الاستارية ، والمرشان الأجل افرىز كورات نائب مقدم بيت الاستار الآمن - لمدة عشرين سنين كواميل ، وعشرة أشهر ، وعشرة أيام ،

وعِشْرَ سَاعَاتٍ : أَوَّلُهَا يَوْمُ الْخَمِيسِ خَامِسُ ربيعِ الْأَوَّلِ سنةِ اثْنَتَيْنِ وَثمانِينَ وَسَمِئَةَ  
لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى صَاحِبِهَا وَسَلَامُهُ ، الْمُوَافِقُ لِلثَّلَاثِ مِنْ حَزِرْيَانَ  
سنةِ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ وَأَرْبَعٍ وَتَسْعِينَ لَعَلَّةِ الْإِسْكَندَرِيَّينِ فِيلِيسِ الْيُونَانِيِّ - عَلَى جَمِيعِ  
بِلَادِ السُّلْطَانِ وَلَدِهِ ، وَهِيَ الَّتِي فِي تَمَلُكْتِهَا وَتَحْتَ حُكْمِهَا وَطَاعَتِهَا وَمَا تَحْتَوِيهِ  
أَيْدِيهَا يَوْمَئِذٍ : مِنْ جَمِيعِ الْأَقَالِمِ وَالْمَمَالِكِ ، وَالْقِلَاعِ ، وَالْحِصُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَتَغْرِ  
دِمِشْقَ ، وَتَغْرِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ الْمُحْرُوسَتَيْنِ ، وَتَسْتَرُ ، وَسَنْتَرِيَّةَ وَمَا يَنْسَبُ إِلَيْهَا مِنْ  
الْمَوَاتَى وَالسَّوَاوِلِ ، وَتَغْرِ قُوَّةَ ، وَتَغْرِ رَمِيْدَ ، وَالْبِلَادِ الْحِجَازِيَّةِ ، وَتَغْرِ غَزَّةَ الْمُحْرُوسِ ،  
وَمَا مَعَهَا مِنَ الْمَوَاتَى وَالْبِلَادِ ، وَالْمَمْلَكَةِ الْكَرْكِيَّةِ ، وَالشُّوْبِكِيَّةِ وَأَعْمَالِهَا ، وَالصَّلَاتِ  
وَأَعْمَالِهَا ، وَبُصْرَى وَأَعْمَالِهَا ، وَمَمْلَكَةِ بِلَادِ الْخَلِيلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ ،  
وَمَمْلَكَةِ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ وَأَعْمَالِهَا ، وَبَيْتِ لَحْمٍ وَأَعْمَالِهِ وَبِلَادِهِ ، وَجَمِيعِ مَا هُوَ  
دَاخِلٌ فِيهَا وَمَحْسُوبٌ مِنْهَا ، وَبَيْتِ جَبْرِيلَ ، وَمَمْلَكَةِ نَابُلُسَ وَأَعْمَالِهَا ، وَمَمْلَكَةِ  
الْأَطْرُونِ وَأَعْمَالِهَا ، وَصَقْلَانَ وَأَعْمَالِهَا وَمَوَانِيهَا وَسَوَاحِلِهَا ، وَمَمْلَكَةِ يَاقَا وَالْمَلَّةِ  
وَمِيْنَتَاها ، وَقِيْسَارِيَّةَ وَمِيْنَتَاها وَسَوَاحِلِهَا وَأَعْمَالِهَا ، وَأَرْسُوفَ وَأَعْمَالِهَا ، وَقَلْعَةَ قَاعُونَ  
وَأَعْمَالِهَا وَبِلَادِهَا ، وَأَعْمَالَ الْعَوْجَاءِ وَمَا مَعَهَا مِنَ الْمَلَاةِ ، وَالْفَتْوُجِ السَّعِيدِ وَأَعْمَالِهَا  
وَمَزَارِعِهَا ، وَبَيْسَانَ وَأَعْمَالِهَا وَبِلَادِهَا ، وَالطُّوَرِ وَأَعْمَالِهِ ، وَالْقَبُورِ وَأَعْمَالِهِ ، وَجَبِينِ  
وَأَعْمَالِهَا ، وَصَيْرِ جَالُوتَ وَأَعْمَالِهَا ، وَالْقَيْمُونِ وَأَعْمَالِهِ وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ ، وَطَبْرِيَّةَ  
وَبُجْبَيْرِيَّتِهَا وَأَعْمَالِهَا وَمَا مَعَهَا ، وَالْمَمْلَكَةِ الصَّفَدِيَّةِ وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهَا ، وَتَيْنِينَ وَهَوْنِينَ  
وَمَا مَعَهُمَا مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَعْمَالِ ، وَالشَّقِيفِ الْمُحْرُوسِ الْمَعْرُوفِ بِسَقِيفِ أَرْزُونِ  
وَمَا مَعَهُ مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَعْمَالِ وَمَا هُوَ مَحْسُوبٌ إِلَيْهِ ، وَبِلَادِ الْفَرَنْ وَمَا مَعَهُ خَارِجًا  
عَمَّا عَيْنٌ فِي هَذِهِ الْمُدُنَةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَنُصِيفِ مَدِينَةِ إِسْكَندَرُونَةَ ، وَنُصِيفِ ضَبْعَةِ مَارِبَ  
بُطْنِيْنِهَا وَكُرُومِيْنِهَا وَبَسَاتِيْنِهَا وَحُقُوقِهَا ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ حُقُوقِ إِسْكَندَرُونَةَ



المذكورة ، يكون جميعه مجلّوده وبلاده للسلطان الملك المنصور ولولده النصف ،  
والنصف الآخر لملكه عكا . والباق العزى وأعماله ، وشقرا وأعمالها ، وشقيف  
تيرون وأعماله ، والعامر جميعها ولا ما غيرها (١) ، وبانياس وأعمالها ، وقلعة الصبيبة  
وأعمالها وما معها من البصيرات والأعمال ، وكوكب وأعمالها وما معها ، وقلعة تجلّون  
وأعمالها ، ودمشق والملكة الدمشقية - حرّما الله تعالى - وما لها من القلاع والبلاد  
والمالك والأعمال ، وقلعة بلبك المحروسة وما معها وأعمالها ، وملكة حصّ وما لها  
من الأعمال والحدود ، وملكة حماة المحروسة ومدّيتها وقلعتها وبلادها وحلّودها ،  
وبلاطس وأعمالها ، وصهيون وأعمالها ، وبرّزية وأعمالها ، وقوّحات حصّ  
الأكراد المحروس وأعماله ، وصافيتا وأعمالها ، و (٢) أعمالها ، والعريمة  
وأعمالها ، وقنّيا وأعمالها ، وحلبا وأعمالها ، والقلعة وأعمالها ، وحصن عكار  
وأعماله وبلاده ، وقلعة شيزر وأعمالها ، وأقامية وأعمالها ، وجبلة وأعمالها ،  
وأبو قيس وأعماله ، والملكة الحلبية وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد  
والحصون ، وأنطاكية وأعمالها وما دخل في الفتوح المبارك ، وقراس وأعمالها ،  
والدربسك وأعمالها ، والركوندان وأعمالها ، وعيتاب وأعمالها ، وحارم وأعمالها ،  
ويبرن وأعمالها ، ومسح الحديد وأعماله ، وقلعة نجم وأعمالها ، وشقيف دركوش  
وأعماله ، والشغير وأعماله ، وبكاس وأعماله ، والسويداء وأعمالها ، والباب وزيّنا  
وأعمالها ، والبيدة وأعمالها ، والرحبة وأعمالها ، وسامية وأعمالها ، وشمّيم  
وأعمالها ، ودمّر وأعمالها وما هو منسوب إليها ، وجميع ما هو منسوب لمولانا  
السلطان ولولده من البلاد التي حُيّنَتْ في هذه الهدنة المباركة ، والتي لم تُعين .

(١) أوردتها ياقوت في معجم البلدان هكذا : برّزية ، وذكر أن العامة تقول : برّزة كما هنا .

(٢) بياض بالأصل .

وعلى جميع العساكر، وعلى جميع الرعايا من سائر الناس أجمعين : على اختلافهم ،  
وتغير أنفادهم وأجناسهم وأديانهم ، للقاطنين فيها ، والمترددِينَ في البر والبحر ،  
والسهل والجبل ، في الليل والنهار ، يكونون أميين مطمئنين في حالتي صدورهم  
وورودهم - على أنفسهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، وحريمهم ، وبضائعهم ، وعملانهم ،  
وأتباعهم ، ومواشيهم ، ودوابهم ، وعلى جميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تحوى أيديهم  
من سائر الأشياء على اختلافها ، من الحكماء بمملكة عكا : وهم كفيلُ الملكة بها ،  
والمُقدَّمُ أفرز كليم دسا حول (٩) مُقدَّمُ بيت الديوية ، والمُقدَّمُ أفرز بيكوك  
للورن (٩) ، وأفرز اهداب نائب مُقدَّم بيت الاستار الآين ، ومن جميع الفرنج  
والإخوة ، والفرسان الداخلين في طاعتهم وتحتويهم تملكهم الساحلية ، ومن جميع  
الفرنج على اختلافهم ، الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه المُنطقة  
من كل وإصيل إليها في بر أو بحر على اختلاف أجناسهم وأنفادهم ، لا ينال بلاد  
السُّلطان وولده ، ولا حصونهما ، ولا قلاعهما ، ولا بلادهما ، ولا ضياعهما ،  
ولا عساكرهما ، ولا جيوشهما ، ولا عرصتهما ، ولا تركبتهما ، ولا أكرادتهما ،  
ولا رعاياهما ، على اختلاف الأجناس والأنفار ، ولا ما تحويه أيديهم من المواشي  
والأموال والغلال وسائر الأشياء منهم قدر ولا سوء ، ولا يتخشون من جميعهم أمرا  
مكروها ولا إظارة ، ولا تعرضا ولا آذية .

وكذلك ما يستفتحهُ ويضيفهُ السُّلطان وولده على يديهما ، وعلى يد توابعهما  
وعساكرهما : من بلاد ، وحصون ، وقلاع ، ومليك ، وأعمال ، وولايات ، برأ  
وبحرا ، سهلا ووعرا .

وكذلك جميع بلاد الفرنج التي استقرت الآن عليها هذه المُنطقة : وهي مدينة  
عكا وبساتينها ، وأراضيها وطواحينها ؛ وما يختص بها من كرومها ، وما لها من

حَقُوقٍ حَوْطًا ، وما تَهْتَزُّ لَهَا مِنْ بِلَادٍ فِي هَذِهِ الْمُدُنَةِ وَهِيَ : البَصَّةُ وَمَزْرَعَتُهَا ،  
 مجدل ، حصين ، رأس عبده ، المتوات وَمَزْرَعَتُهَا ، الكابرة وَمَزْرَعَتُهَا ، نصف وده  
 جبعون ، كَفَر بَرْدَى وَمَزْرَعَتُهَا ، كَوَكَبُ عَمَقَا وَمَزْرَعَتُهَا ، المونيه ، كَفَر يَاسِيف  
 وَمَزْرَعَتُهَا ، تُوسِيان ، مَكْر حَرَسِين وَمَزْرَعَتُهَا ، الحديدة ، الفياضة ، العطوانية ، مَرْتَوْقَا  
 الحارثية ، ثَمَرَا الطَرَه ، الرَب ، السَّوْحَه وَمَزْرَعَتُهَا ، العَرَج وَمَزْرَعَتُهَا ، المَزْرَعَة  
 السَّمِيرِيَّة الْيَبُضاء ، دَعُوق وَالطَّاحُون ، كَرْدَاه وَالطَّاحُون ، حَدْرُول ، تَل النَّحْل ،  
 الغَار ، الرِّخ وَالْمَجْدَل ، تَلْ كَيْسَان ، الْبُرْه ، الرَّامُون ، سَاسَا السِّيَاسِيَّة ، الشَّبِيكَة ،  
 الْمَشِيرَقَة ، الْعَطْرَانِيَّة ، الْمَنِير ، الْكَلِيل ، هَرِيَا سَيْف الْعَرَبِيَّة ، هَوْشَه ، الزَّرَاعَة  
 الْجَدِيدَة الشَّالِيَّة ، الرَّحَاحِيَّة ، قَسَطَه ، كَفَر نَجَل ، النُّوِيرَات ، مَاصُوب ، مَتَّاس  
 الْعَبَّاسِيَّة ، سَبْعَاه ، عَيْن الْمَلِك ، الْمَنْصُورَة ، الرَّصِيفَة ، حَامَا ، سَرَطَا ، كَفَر تَا ،  
 أَرْضُ الزَّرَاعَة ، رُولَس ، صَفْد عَدَى ، سَفَرَم . هَذِهِ الْبِلَادُ الْمَذْكُورَةُ [ تَكُون ]  
 خَاصَا لِلْفَرَنْجِ . حَيْفَا وَالْكُورُمُ وَالْبَسَاتِينُ الَّتِي لَهَا جَمِيعُهَا ، وَالْقَصْرُ وَهُوَ الْحَوْشُ  
 وَكَفَر تُوْتَا ، وَهِيَ : الْكَتَيْسَة ، وَالطَّيْرَة ، وَالسَّعِيَّة ، وَالسَّعَادَة ، وَالْمَعْر ، وَالْجَاجُور ،  
 وَسُومَرَا . تَكُونُ حَيْفَا وَهَذِهِ الْبِلَادُ الْمَذْكُورَةُ بِمَجْلُودِيهَا وَأَرَاضِيهَا خَاصَّةً لِلْفَرَنْجِ .  
 وَكَذَلِكَ قَرْيَة مَارَسَا مَارَه بِهَا ، الْمَعْرُوفَة بِهَا وَكُورُمُهَا وَغَرُومُهَا يَكُونُ خَاصَا لِلْفَرَنْجِ .  
 وَدِيرُ السِّيَاح ، وَدِيرُ مَارِلَبَاسُ بِأَرَاضِيهِمَا الْمَعْرُوفَة بِمَا وَكُورُمُهَا وَبَسَاتِينُهَا يَكُونُ  
 خَاصَا لِلْفَرَنْجِ .

وَعَلَى أَنْ يَكُونَ لِلسُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ وَلَوْلَاهُ الصَّالِحُ : مِنْ بِلَادِ الْكِرْمَلِ ، وَهِيَ :  
 الدَّالِيَّة ، وَدُونَه ، وَضَرْيَة الرِّج ، وَالكَرْك ، وَمَعْلِيَا ، وَالرَّامُون ، وَلُوسَه ، وَسُور ،

(١) لم تقف على أكثر هذه البلاد بعد للبحث عنها في معجم ياقوت وتقوم البلدان . لذلك تبعا الأصول  
 في الاممال والقط .

ونخبة يونس، ونخبة نحيس، ورشما، ودوانه، يكون خاصا للفرنج في بلاد أخرى ذكرها . وما عدا ذلك من البلاد الجلية جميعها للسلطان ولولده بكملها .

وتكون جميع هذه البلاد المكاوية وما عيّن في هذه الهدنة المباركة من البلاد الساحلية آمنة من السلطان الملك المنصور ولده الملك الصالح ، وآمنة من عساكرهما وجنودهما ومن خديهما ، وتكون هذه البلاد المشروحة أعلاه ، الداخلة في هذه الهدنة المباركة : الخاص بها ، وما هو مناصفة - مطمئنة هي ورعاياها ، وسائر أجناس الناس فيها ، والقاطنين بها ، والمتقدين إليها على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، والمتقدين إليها من جميع بلاد الفرنجة والسفار ، والمتقدين منها وإليها في بر وبحر ، في ليل أو نهار ، سهل وجبل ، آمن على النفوس والأموال والأولاد ، والمراكب والدواب ، وجميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تجوّه أيديهم من الأشياء على اختلافها ، من السلطان ولده ، وجميع من هومت طاعتها : لا ينالهم ولا ينال هذه البلاد المذكورة التي آمنت عليها الهدنة سوء ولا ضرر ولا إغارة ، ولا ينال إحدى الجهتين المذكورتين : الإسلامية والفرنجية من الأخرى ضرر ولا أذية ، ويكون ما تمترز أنه يكون خاصا للفرنج حسب ما عيّن أعلاه لهم ، وما تقرر أن يكون للسلطان ولولده خاصا لها ، والمناصفات تكون كما شريح . ولا يكون للفرنج من البلاد والمناصفات إلا ما شريح في هذه الهدنة وعيّن فيها من البلاد .

وعلى أن الفرنج لا يعمدون في خير عكا وعثليت وصيدا : مما هو خارج عن أسوار هذه الجهات الثلاث المذكورات ، لا قلعة ، ولا برجا ، ولا حصنا ، ولا مستجنا .

وعلى أنه متى هرب أحد - كائنا من كان - من بلاد السلطان ولده إلى عكا والبلاد الساحلية المعينة في هذه الهدنة ، وقصد النخول في دين النصرانية وتصر

بإرادته، يردُّ جميع ما يروحُ معه ويبقى عُربانا . وإن كان ما يقصدُ الدُخُولُ في دين النصرانية ولا يتنصر، ردَّ إلى أبوابهما العاليية بجميع ما يروحُ معه، بشفاعَةِ نَفَةٍ بعد أن يُعطى الأمان . وكذلك إذا حضر أحدٌ من عَمَّا والبلادِ السَّاحِلِيَّةِ الداخِلَةِ في هذه المُدَنَةِ، وقصدَ الدُخُولَ في دينِ الإسلامِ وأسلمَ بإرادته، يردُّ جميع ما معه ويبقى عُربانا . وإن كان ما يقصدُ الدُخُولَ في دينِ الإسلامِ ولا يُسلمُ، يردُّ إلى الحُكَّامِ بَعَكَا، والمُقلَّمينَ بجميع ما يروحُ معه بشفاعَةِ بعد أن يُعطى له الأمان .

وعلى أنَّ الممنوعاتِ المعروفَ مَنعُها قَدِيمًا تَسْتَقَرُّ على قاصِدَةِ المَنعِ من الجهتين . ومتى وُجِدَ مع أحدٍ من ثُجَّارِ بلادِ السُّلطانِ وولَّيه من المسلمين وغيرهم على اختلاف أديانهم وأجناسهم شيءٌ من الممنوعاتِ بَعَكَا والبلادِ السَّاحِلِيَّةِ الداخِلَةِ في هذه المُدَنَةِ، مثلَ مَدَنَةِ السَّلاحِ وغيره، يُعادُ على صاحِبِهِ الذي اشتراه منه، ويعادُ إليه ثَمَنُهُ، ويردُّ ولا يُؤخَذُ ماله استهلاكًا، ولا يُؤدَّى . والسُّلطانُ وولَّيه أن يفتصلا في من يخرجُ من بلادِهِما من رعيَّتِهِما، على اختلاف أديانهم وأجناسهم، بشيءٍ من الممنوعاتِ . وكذلك كَيْفِيْلُ المَلَكَةِ بَعَكَا والمُقلَّمُونَ لهم أن يفتصلوا في رعيَّتِهِم الذين يخرجونَ بالممنوعاتِ من بلادِهِم الداخِلَةِ في هذه المُدَنَةِ .

ومنى 'أَحْدَثَتْ أَخِيذَةً مِنَ الْجَانِيَيْنِ، أَوْ قُتِلَ قَتِيلٌ مِنَ الْجَانِيَيْنِ، عَلَى أَى وَجْهِ كَانَ - وَالْعِبَادُ بَالِقَ - رُدَّتِ الْأَخِيذَةُ بَيْنَهَا إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً، أَوْ قِيمَتُهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً . وَالْقَتِيلُ يَكُونُ الْيَوْضُ عَنْهُ بِنَظِيرِهِ مِنْ جَنْسِهِ : فَارِسٌ فَارِسٌ، وَبَرْيَكٌ بَرْيَكٌ، وَتَاجِرٌ تَاجِرٌ، وَرَاجِلٌ رَاجِلٌ، وَفَلَّاحٌ فَلَّاحٌ . فَإِنْ خَفِيَ أَمْرُ الْقَتِيلِ وَالْأَخِيذَةُ، كَانَتْ الْمَهْلَةُ فِي الْكَشْفِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَإِنْ ظَهَرَتْ الْأَخِيذَةُ أَوْ تَعَيَّنَ أَمْرُ الْمَقْتُولِ، رُدَّتِ الْأَخِيذَةُ بَيْنَهَا وَيَكُونُ الْيَوْضُ عَنِ الْقَتِيلِ بِنَظِيرِهِ، وَإِنْ لَمْ تَظْهَرِ

كانت اليمين على وإلى المكان المدعى عليه، وثلاثة نفر يرفع اختيار المدعى عليهم، من تلك الولاية . وإن امتنع الوالي عن اليمين حلف من الجهة المدعية ثلاثة نفر مختارهم الجهة الأخرى وأخذ قيمتها . وإن لم ينصف الوالي ولا رد المال، أنهى المدعى أمره إلى الحكام من الجهتين ، وتكون المهلة بعد الإنهاء أربعين يوماً ، ويلزم الولاة من الجهتين بالوفاء بهذا الشرط .

ومنى أخفوا قتيلاً أو أسيذة ، أو قنروا على أخذ حق ولم يأخذ كل واحد في ولايته، يتعين على الذى يولى من ملوك الجهتين إقامة السياسة فيه : من أخذ الروح والمال والشق، والإنكار التام على من يتعين عليه الإنكار إذا فعل ذلك في ولايته وأرضه .

وإن هرب أحد بمال وأترف ببعضه وأنكر بعض ما يدعى به عليه، لزمه أن يحلف أنه لم يأخذ سوى ماردته . فإن لم يفتح المدعى يمين المأرب، حلف وإلى تلك الولاية أنه لم يطلع على أنه وصل معه غير ماردته . وإن أنكر أنه لم يصل معه شيء أصلاً، استعطف المأرب أنه لم يصل معه للذى شيء .

وعلى أنه إذا أنكر مراكب من مراكب تجار السلطان وولده التى أعتقت عليها المذنة ، ورعيتهما من المسلمين وغيرهم : على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، فى ميتاً صكاً وسواجلها ، والبلاد الساحلية التى أعتقت عليها المذنة ، كان كل من فيها آمناً على الأتقيس والأموال والأشباع والمتاجر . فإن وجد أصحاب هذه المراكب التى تكسر أسلم مراكبهم وأموالهم [إليهم] . وإن عُدِمُوا بموت أو غرق أو غيبة ، فيحفظ بموجودهم ويسلم لتواب السلطان وولده . وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البلاد الساحلية المنعقدة عليها المذنة للفرنج ، يجرى لها مثل ذلك فى بلاد

السُّلْطَانُ وَلَدَهُ، وَيَحْفَظُ بِمُجُودِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهَا حَاضِرًا إِلَى أَنْ يُسَلَّمَ لِكِفِيلِ  
الْمَمْلُوكَةِ بَعْكَاءَ أَوْ الْمُقَدِّمِ .

وَمَتَى تُوفِّيَ أَحَدٌ مِنَ التُّجَّارِ الصَّادِرِينَ وَالوَارِدِينَ: عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَابِهِمْ وَأَذْيَانِهِمْ،  
مِنْ بِلَادِ السُّلْطَانِ وَلَدَهُ، فِي عَمَّا وَصِيدًا وَعَثَلِيَّتَ، وَالْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ  
الْمُدُنَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَابِهِمْ وَأَذْيَانِهِمْ [فِيحْفَظُ عَلَى مَالِهِ حَتَّى يَسَلَّمَ لِنَوَابِ السُّلْطَانِ  
وَوَلَدِهِ] ، وَإِذَا تُوفِّيَ أَحَدٌ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْمُدُنَةِ، يَحْفَظُ عَلَى  
مَالِهِ إِلَى حِينَ يَسَلَّمَ إِلَى كِفِيلِ الْمَمْلُوكَةِ بَعْكَاءَ وَالْمُقَدِّمِينَ .

وَعَلَى أَنَّ سُوَايَ السُّلْطَانِ وَلَدَهُ إِذَا عَمِرَتْ وَخَرِبَتْ لَا تَعْرِضُ بِأَذْيَةٍ إِلَى الْبِلَادِ  
السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْمُدُنَةُ . وَمَتَى قَصَبَتْ السُّوَايَ الْمَذْكُورَةُ جِهَةً  
غَيْرَ هَذِهِ الْجِهَاتِ، وَكَانَ صَاحِبُ تِلْكَ الْجِهَةِ مُعَاهِدًا لِلْحُكَّامِ بِمَمْلَكَةِ عَمَّا؛ فَلَا تَدْخُلُ  
إِلَى الْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْمُدُنَةُ وَلَا تَتَرَوَّدُ مِنْهَا . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ  
تِلْكَ الْجِهَةِ الَّتِي قَصَبَهَا السُّوَايَ الْمَنْصُورَةُ مُعَاهِدًا لِلْحُكَّامِ بِمَمْلَكَةِ عَمَّا وَالْبِلَادِ الَّتِي  
أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا الْمُدُنَةُ، فَلَهَا أَنْ تَدْخُلَ إِلَى بِلَادِهَا وَتَتَرَوَّدَ مِنْهَا . وَإِنْ أَنْكَسَرَتْ شَيْءٌ مِنْ  
هَذِهِ السُّوَايَ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فِي مِينَا مِنْ مَوَاقِي الْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا الْمُدُنَةُ  
وَسَوَاحِلُهَا : فَإِنْ كَانَتْ قَاصِدَةً مِنْ لَهْ مَعَ مَمْلَكَةِ عَمَّا وَمُقَدِّمِي بَيْوتِهَا عَهْدٌ، فَيَلْزِمُ  
كِفِيلَ الْمَمْلُوكَةِ بَعْكَاءَ وَمُقَدِّمِي الْبُيُوتِ بِحِفْظِهَا، وَتَمْكِينِ رِجَالِهَا مِنَ الزَّوَادَةِ وَاصْلَاحِ  
مَا أَنْكَسَرَ مِنْهَا، وَالْعَوْدَ إِلَى الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَ[لَا] يَبْطُلُ حَرَكَةُ مَا تَسْكُرُ مِنْهَا  
- وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - أَوْ يَمِيحُ الْبَحْرُ . هَذَا إِذَا كَانَتْ قَاصِدَةً مِنْ لَهْ مَعَ مَمْلَكَةِ عَمَّا  
وَمُقَدِّمِيهَا عَهْدٌ . فَإِنْ [قَصَبَتْ مِنْ] لَمْ يَكُنْ لَهَا مَعَهُمْ عَهْدٌ، فَلَهَا أَنْ تَتَرَوَّدَ وَتُعَمَّرَ  
رِجَالُهَا مِنَ الْبِلَادِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَيْهَا هَذِهِ الْمُدُنَةُ، وَتَتَوَجَّهَ إِلَى الْبِلَادِ الْمَرْسُومِ لَهَا بِقَصْبِهَا،  
وَيَعْتَمِدُ هَذَا الْقَبْلُ مِنَ الْجِهَتَيْنِ .

وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجة وغيرهم من جوار البحر لقصده الحضور  
لمضرة السلطان وولده في بلادها المتفق عليها هذه الهدنة ؛ فليزِم نائب المملكة  
والمقدمين بعبء أن يعرفوا السلطان وولده بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية  
الداخلية في هذه الهدنة بمدة شهرين . وإن وصلوا بعد آتضاء مدة شهرين ،  
فيكون كفيل المملكة بعبء ، والمقدمون برعين من عهدتهم في هذا الفصل .  
ومتى تحرك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم ، فأى من سبق الخبر إليه من الجهتين  
يعرف الجهة الأخرى بما سبق الخبر إليه من أخرى .

وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية - والبيضاء بالله - عدو من التتار وغيرهم في البر ،  
وأنحازت العساكر الإسلامية من قدام العدو ، ووصل العدو إلى القرب من البلاد  
الساحلية الداخلية في هذه الهدنة وقصدوها بمضرة ، فيكتب إلى [ كفيل ] المملكة  
بعبء ، والمقدمين بها أن يندفعوا عن بيوتهم ورضيتهم وبلادهم بما تبصل قدرتهم إليه .  
وإن حصل - والبيضاء بالله - جغل من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلية  
في هذه الهدنة ، فليزِم كفيل المملكة بعبء ، والمقدمين بها حفظهم والدفع عنهم ومنع  
من يقصدهم بضرب ، ويكونون آمينين مطمئنين بما معهم .

وعلى أن النائب بمملكة عباء ، والمقدمين بها يؤصون في سائر البلاد الساحلية التي  
وقعت الهدنة عليها ، أنهم لا يمتكئون حرامية البحر من الزوادة من عندهم ولا من  
حمل ماء . وإن ظفروا بأحد منهم يمسكونه ، وإن كانوا يدعون عندهم بضائع  
فيمسكها كفيل المملكة بعبء والمقدمون حتى يظهر صاحبها وتسلم إليه . وكذلك  
يستمند السلطان وولده .

وعلى أن الرهائن بعباء والبلاد الساحلية الداخلية في هذه الهدنة ، كل من عليه منهم  
مبلغ أو غلة ، فيحلف وإلى ذلك المكان الذي منه الرهينة ، ويحلف المباشر والكايب



في وقت أخذ هذا الشخص رهينة أنه عليه كذا وكذا : من دراهم أو غلة أو بقر أو غيره . فإذا حلف الوالي والمباشر والكتّاب قدام نائب السلطان وولده على ذلك يقوم أهل الرهينة عنه بما للفرج عليه ويطلقونه . وأما الرهائن الذين أخذوا منسوبين إلى الجفل والاختشاء أنهم لا يهربون إلى بلاد الإسلام ويمتنع الولاة والمباشرون من إيمان عليهم ، فأولئك يطلقون .

وعلى أن لا يحدّد على التجّار المسافرين : الصادقين والواردين من الجهتين حق لم تجر به عادة ، ويجرّوا على عوائدهم المستمرة إلى آخر وقت ، وتؤخذ منهم الحقوق على العادة المستمرة ، ولا يحدّد عليهم رسم ولا حق لم تجر به عادة . وكل مكان عرّف باستخراج الحق فيه يستخرج بذلك المكان من غير زيادة من الجهتين . في حالتي سفرهم وإقامتهم ؛ ويكون التجّار والسفّار والمتردّدون آمنين مطمئنين محفّزين من الجهتين في حالتي سفرهم وإقامتهم ، وصُدورهم وورودهم بما أحببتهم من الأصناف والبضائع التي هي غير ممنوعة .

وعلى أنه ينادى في البلاد الإسلامية والبلاد الفرنجية النّاخلة في هذه الهدنة : أنه من كان من قلاحي بلاد المسلمين يعود إلى بلاد المسلمين مسلماً كان أو نصرانياً . وكذلك من كان من قلاحي بلاد الفرنج مسلماً كان أو نصرانياً ، معروفاً قرارياً من الجهتين ، ومن لم يمدّ بعد المتأداة يطرد من الجهتين . ولا يمكن قلاحو بلاد المسلمين من المقام في بلاد الفرنج المتعبد عليها هذه الهدنة ، ولا قلاحو بلاد الفرنج من المقام في بلاد المسلمين التي أتعقدت عليها هذه الهدنة ؛ ويكون عود القلاح من الجهة إلى الجهة الأخرى بأمان .

وعلى أن تكون كنيسة النّاصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت إليها لزيارة الحجّاج وغيرهم من دين الصليب : كبيرهم وصغيرهم على اختلاف أجناسهم وأقاربهم :

من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، ويصلى بالكنيسة الاقساء<sup>(١)</sup> والرهبان ، وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة ، ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم الى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة . وإذا قُبِلَت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى برا ، ولا يُحطُّ بحجر منها على حجر لأجل بنايته ، ولا يتعرض الى الأقساء<sup>(٢)</sup> والرهبان ، وذلك على وجه الهبة لأجل زواريدين الصليب بغير حق .

ويلزم السلطان وولده حفظ هذه البلاد المشروحة التي آمنت عليها الهدنة من قسبها وعساكرها وجنودها ، ومن جميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمها وطاعتها . ويلزم كفيل الملكة بعا وكفيل المؤمنين بها حفظ هذه البلاد الإسلامية المشروحة التي آمنت عليها الهدنة ، من قسبهم وعساكرهم وجنودهم ، وجميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهم وطاعتهم بالملكة الساحلية الداخلة في هذه الهدنة . ويلزم كفيل الملكة بعا ، ومقدي البيوت بها الحكم بعا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة - القيام بما تضمنته هذه الهدنة من الشروط جميعها ، شرطا شرطا ، وقصلا قصلا ، والعمل بأحكامها ، والوقوف مع شروطها الى انقضاء مدتها . وبقي كل منهم بما حلف به من الأيمان المؤكدة : من أنه بقي بجميع ما في هذه الهدنة على ما حلفوا به . تستمر هذه الهدنة المباركة بين السلطان وولده وأولادها وأولاد أولادهم ، وبين الحكم بعا بملكة عكا ، وصيدا ، وعثليت ، وهم الشبخان أودرا<sup>(٣)</sup> المقدمون المذكورون فلان وفلان الى آخرها . لا تتغير بموت ملوك أحد الجهتين ، ولا بتغير مقدم وتولية غيره ، بل تستمر على حالها الى آخرها وانقضائها ، بشروطها المحدودة ،

(١) لل الصواب القسوس ، أو القسيسون .

وقواعدها المقررة ، كاملة تامة . ومضى آقضت هذه الهدنة المباركة ، أوقع  
- والياد بالله - فسح ، كانت المهلة في ذلك أربعين يوماً من الجهتين . ويُنَادى  
برجوع كل أحد إلى وطنه بعد الإشهاد ، ليعود الناس إلى مواطنهم آمين مطمئنين ،  
ولا يمتنعون من السفر من الجهتين ، ولا تبطل بعزل أحد من الجهتين ، وتُسَيِّدُ  
أحكامها متتابعة متوالية ، بالسنين والشهور والأيام إلى آقضاها ، ويلزم التولى  
حفظها والعمل بشروطها وقصودها ، وفروعها وأصولها ، ويحجر الحال فيها على  
أجل الحالات إلى آخرها . وعلى جميع ذلك وقع الرضا والصفح والاتفاق ، وحلف  
عليها من الجهتين ، والله الموفق .



وهذه نسخة هدية ، عُقدت بين الملك الأشرف ، صلاح الدين « خليل » ابن  
الملك المنصور سيف الدين « قلاوون » صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية ؛  
وبين دون حاكم الريد أرغون ، صاحب برشلونة من بلاد الأندلس ، على يد رُسُلِهِ :  
أخويه وصهره الآتي ذكرهم ، في صفر سنة اثنتين وتسعين وستمائة ، وهى :

استقرت المودة والمصادقة بين الملك الأشرف ، وبين حضرة الملك الحليل ،  
المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ، الضرام ، المفتح ، المجبل « دون » حاكم  
الريد أرغون ، وأخويه دون ولديك ، ودون بيدرو ، وبين صهره اللذين طلب  
الرسولان الواصلان إلى الأبواب الشريفة عن مرسلهما الملك دون حاكم أن يكونا  
داخلين في الهدنة والمصادقة ، وأن يلتزم الملك دون حاكم عنهما بكل ما التزم به عن  
نفسه ، ويتدرك أمرهما . وهما الملك الحليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ،  
الضرام ، دون شانجه ، ملك قشتالة ، وطليطلة ، وليون ، وبلنسية ، وأشبيلية ،  
وقرطبة ، ومرسية ، وجيان ، والفرب ، الكفيل بملكة أرغون وبرغال - والملك

الجليسْلُ دون أتفونش ملك بُرتغال، من تاريخ يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة  
 اثنتين وتسعين وستمائة، الموافق لثلاث بَقِين من جِبر سنة ألف ومائتين وأمتين  
 وتسعين لمولانا السَّيِّد المَسِيح عليه السلام . وذلك بحضور رُسُولِي الملك دون حاكم،  
 وهما : المَحْتَشِمُ الكَبِيرُ روصوديمار موند الحَاكِمُ، عن الملك دون حاكم في بَلَنَسِيَّة،  
 ورفيقه المَحْتَشِمُ العُمْدَةُ ديمون المان قراري برجلونة، الواصِلين بكتاب الملك دون  
 حاكم، المحتوم بِحَقِّهِ الملك المذكور، المقتضى معناه أَنَّهُ حَمَلَهُمَا جَمِيعاً أَحْوَاسَهُمْ  
 ومَطْلُوبَهُمْ، وسأل أَن يَؤْمَرَا فِيمَا يَقُولَانِي عَنْهُ، فكان مَضْمُونُ مُشَافَهَتِهِمَا وَسُؤَالِهِمَا تَقَرِيرَ  
 قَوَائِدِ الصُّلْحِ والمَوَدَّةِ والصَّدَاقَةِ . والشُّرُوطُ الَّتِي يَشْتَرِطُهَا الملك الأشرف على الملك  
 دون حاكم، وَأَنَّهُ يَلْتَزِمُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الشُّرُوطِ الَّتِي ذَكَرَهَا، وَيَحْلِفُ الملك المذكور  
 عليها هو وأَخَوَاهُ وصِهْرَاهُ المذكُورُونَ، وَوَضَعَ الرِّسُولَانِ المذكُورَانِ خُطُوطَهُمَا بِجَمِيعِ  
 الفُصُولِ الَّتِي ذَكَرَهَا، بِأَمْرِهِ وَمَرْضُومِهِ . وَأَنَّ الملك دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوَيْهِ وصِهْرِيهِ  
 يَلْتَمِزُونَ بِهَا، وَهِيَ : أَسْتَقْرَارُ المَوَدَّةِ والمُصَادَقَةِ مِنَ التَّارِيخِ المَقْدَمِ ذِكْرُهُ، عَلَى مَسَرٍّ  
 السِّنِينَ والأَعْوَامِ، وَتَعَاقِبِ اللَّيَالِي والأَيَّامِ: بَرّاً وَبَحْراً، سَهْلاً وَوَعْرًا، قُرْباً وَبُعدًا .

وعلى أَن تكونَ يَلَادُ السلطانِ الملكِ الأشرف، وقِلاعهُ، وحُصُونُهُ، ومَغْرُورُهُ،  
 وَمَنَازِلُهُ، وَمَوَانِي يَلَادِهِ وَسَوَاحِلُهَا، وَبُرُورُهَا، وَجَمِيعُ أَقَالِيمِهَا وَمُنْطَهَا، وَكُلُّ مَا هُوَ  
 دَاخِلٌ فِي مَمْلَكَتِهِ، وَمَحْصُوبٌ مِنْهَا، وَمَنْسُوبٌ إِلَيْهَا : مِنْ سَائِرِ الأَقَالِيمِ الرُّومِيَّةِ،  
 وَالرِّاقِيَّةِ، وَالْمَشْرِقِيَّةِ، وَالشَّامِيَّةِ، وَالْحَلَبِيَّةِ، وَالْفَرَاتِيَّةِ، وَالْيَمِينِيَّةِ، وَالْجَزَائِرِيَّةِ، وَالذِّبَارِ  
 الْمَصْرِيَّةِ، وَالْقُرْبِ .

وحَدُّ هَذِهِ البلادِ والأَقَالِيمِ وَمَوَانِيهَا وَسَوَاحِلُهَا مِنَ الْبَرِّ الشَّامِيِّ مِنَ القُسْطَنْطِينِيَّةِ  
 وَالْبِلَادِ الرُّومِيَّةِ السَّاحِلِيَّةِ، وَهِيَ : مِنْ طَرَابُلُسَ الْقُرْبِ، وَسَوَاحِلِ بَرْقَةِ،  
 وَالْإِسْكَندَرِيَّةِ، وَدِمِشْقَ، وَالطَّنِينَةِ، وَقَطِينَا، وَغَزَّةَ، وَعَسْقَلَانَ، وَيَافَا،

وَأَرْسُوفَ ، وَقِيسَارِيَّةَ ، وَحَثْلَيْثَ ، وَحِقَّا ، وَعَكَّا ، وَصُورَ ، وَصَيْدَا ، وَيَرْوَتَ ،  
وَجُبَيْلَ ، وَالْبَيْرُونَ ، وَأَنْفَسَةَ طَرَابُلسَ الشَّامِ ، وَأَنْطَرُسُوسَ ، وَمَرْقِيَّةَ ، وَالْمَرْقَبَ ،  
وَسَاحِلَ الْمَرْقَبِ : بَابِيَّاسَ وَضَرْهَاءَ ، وَجَبَلَةَ ، وَاللَّاذِقِيَّةَ ، وَالسُّوَيْدِيَّةَ وَجَمِيعَ الْمَوَاتِنِ  
وَالْبُرُورِ إِلَى قَنْدِشِيَّاطَ وَبُحَيْرَةِ تَيْسَ .

وَجَبَلُهَا مِنَ الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ : مِنْ ثُوَيْسَ وَإَقْلِيمِ إِفْرِيقِيَّةَ وَبِلَادِهَا وَمَوَاتِنِهَا ، وَطَرَابُلسَ  
الْغَرْبِ وَثُنُورَهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَاتِنِهَا ، وَبَرْقَةَ وَثُنُورَهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَاتِنِهَا ، إِلَى نَقْصَرِ  
الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَرَمْشِيدَ وَبُحَيْرَةِ تَيْسَ وَسَوَاحِلِهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَاتِنِهَا .

وَمَا تَحْتَوِيهِ هَذِهِ الْبِلَادُ وَالْمَمَالِكُ الْمَذْكُورَةُ وَآلِي لَمْ تُذَكَّرْ ، وَالْمَسَلَتَيْنِ وَالثَّنُورِ  
وَالسَّوَابِلِ وَالْمَوَاتِنِ وَالطَّرِيقَاتِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَالصُّنُورِ وَالْوُرُودِ ، وَالْمَقَامِ وَالسَّفَرِ ،  
مِنْ عَسَاكِرَ وَجُنُودَ ، وَتُرُكَّانَ ، وَأَكْرَادَ ، وَعُرَبِيَّانَ ، وَرَطَابِيَا ، وَتُجَّارَ ، وَشَوَاتِيَا ،  
وَمَرَاكِبَ ، وَسُفُنَ ، وَأَمْوَالَ ، وَمَوَاشِيَ ، عَلَى اخْتِلَافِ الْأَدْيَانِ وَالْأَنْفَارِ وَالْأَجْنَاسِ ،  
وَمَا تَحْتَوِيهِ الْيَدِيُّ مِنْ سَائِرِ أَصْنَافِ الْأَمْوَالِ وَالْأَسْلِحَةِ وَالْأَمْنِيَّةِ وَالْبِضَائِعِ وَالْمَتَاعِ ،  
قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا ، قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا ، بَرًّا كَانَ أَوْ بَحْرًا - أَمِنَةً عَلَى الْأَنْفُسِ ،  
وَالْأَرْوَاحِ ، وَالْأَمْوَالِ ، وَالْحَرِيمِ ، وَالْأَوْلَادِ مِنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَمِنْ أَخَوَيْهِ وَصَهْرِيهِ  
الْمَذْكُورِينَ ، وَمِنْ أَوْلَادِهِمْ ، وَفُرْسَانِهِمْ ، وَخِيَالَتِهِمْ ، وَمُعَاهِلَتِهِمْ ، وَعَمَلَتِهِمْ ،  
وَرِجَالِهِمْ ، وَكُلِّ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ الْمَلِكِ  
الْأَشْرَفِ ، وَعَلَى يَدِ أَوْلَادِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَجُيُوشِهِ ، مِنَ الْقِلَاجِ وَالْحُصُونِ ، وَالْبِلَادِ  
وَالْأَقَالِمِ ، فَإِنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِ هَذَا الْحُكْمُ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ بِلَادُ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ بِلَادِ أَخَوَيْهِ وَصَهْرِيهِ وَمَمَالِكُهُ الْمَذْكُورَةُ  
فِي هَذِهِ الْمُدُنَةِ ، وَهِيَ : أَرْغُونُ وَأَعْمَالُهَا وَبِلَادُهَا : صَسَقْلِيَّةُ وَبَحْرِيَّتُهَا وَبِلَادُهَا

(١) خبر قوله : أن تكون بلاد السلطان الواردة في المصنف قبل .

وأعمالها، برُيُولِيَّةَ وأعمالها وإِلادها، جَزِيرَةُ مَالَقَةَ، وَقَوْصَرَةَ وِبلادها وأعمالها،  
مَيُورَقَةَ وَيَابَسَةَ وِبلادها، وأرسويار (٤) وأعمالها، وما سِيَفَتْحَهُ الْمَلِكُ دُونِ حَاكِمِ  
مِنَ بِلَادِ أَعْدَائِهِ الْقَرَنَجِ الْمَجَاوِرِينَ لَهُ بِتِلْكَ الْأَقَالِمِ - آمِنِينَ مِنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ  
وَأَوْلَادِهِ، وَعَسَاكِرِهِ وَجُيُوشِهِ، وَشَوَانِيهِ وَعَمَائِرِهِ، هِيَ وَمَنْ فِيهَا مِنْ قُرْسَانٍ وَخِيَالَةٍ  
وَرُغَابَا . وَأَهْلُ بِلَادِهِ آمِنِينَ مَطْمَئِنِينَ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ، وَالْحَرَمِ وَالْأَوْلَادِ،  
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَالصُّدُورِ وَالْوُدُودِ .

وعلى أَنَّ الْمَلِكَ دُونِ حَاكِمِ هُوَ وَأَخَوَاهُ وَصِهْرَاهُ أَصْدِقَاءُ مِنْ يُصَادِقُ الْمَلِكَ الْأَشْرَفَ  
وَأَوْلَادَهُ، وَأَعْدَاءُ مِنْ يُعَادِيهِمْ مِنْ سَائِرِ الْمُلُوكِ الْقَرَنَجِيَّةِ وَغَيْرِ الْمُلُوكِ الْقَرَنَجِيَّةِ . وَإِنْ  
قَصَدَ الْبَابَ رُومِيَّةً، أَوْ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الْقَرَنَجِ : مُتَوَجًّا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُتَوَجِّجٍ، كَبِيرًا كَانَ  
أَوْ صَغِيرًا، أَوْ مِنَ الْجَنُوبِيَّةِ، أَوْ مِنَ الْبَتَادِقَةِ، أَوْ مِنْ سَائِرِ الْأَجْناسِ عَلَى اخْتِلَافِ  
الْقَرَنَجِ وَالرُّومِ، وَالْيَبُوتِ : بَيْتِ الْإِخْوَةِ الدِّيَوِيَّةِ، وَالْإِسْبَتَارِيَّةِ، وَالرُّومِ، وَسَائِرِ  
أَجْناسِ النَّصَارَى - مَضْرَّةً بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ، بِمُحَارَبَةٍ أَوْ أَدِيَّةٍ، يَمْنَعُهُمُ الْمَلِكُ دُونِ  
حَاكِمِ هُوَ وَأَخَوَاهُ وَصِهْرَاهُ وَيَرُدُّونَهُمْ، وَيَعْمُرُونَ شَوَانِيَهُمْ وَمَرَائِكِبَهُمْ، وَيَقْصِدُونَ  
بِلَادَهُمْ، وَيَسْتَعْلُونَهُمْ بِقُوْمِهِمْ عَنْ قَصْدِ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ وَمَوَانِيهِ وَسَوَاحِلِهِ  
وَمَغَوْرِهِ الْمَذْكُورَةِ، وَغَيْرِ الْمَذْكُورَةِ، وَيَقَاتِلُونَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِشَوَانِيهِمْ وَعَمَائِرِهِمْ،  
وَقُرْسَانِيهِمْ وَخِيَالَتِهِمْ وَرَجَالَتِهِمْ .

وعلى أَنَّهُ مَتَى خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ مُعَاهِدِي الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ مِنَ الْقَرَنَجِ عَنْ شُرُوطِ  
الْمُحْدَنَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَوَقَعَ مَا يُوجِبُ فُسْخَ الْمُحْدَنَةِ، لَا يُبَيِّنُهُمُ الْمَلِكُ دُونِ  
حَاكِمِ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَخَوَيْهِ وَلَا صِهْرِيهِ، وَلَا خِيَالَتِهِمْ، وَلَا قُرْسَانَتِهِمْ، وَلَا أَهْلَ  
بِلَادِهِمْ، بِجَيْلٍ وَلَا خِيَالَةٍ، وَلَا سِلَاحٍ وَلَا رَجَالَةٍ، وَلَا مَالٍ وَلَا نَجْدَةٍ، وَلَا مِيرَةٍ،  
وَلَا مَرَائِبَ وَلَا شَوَانٍ وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ .

وعلى أنه متى طلب البابُ روميةً، ومُلوكُ الفرنج، والرُّوم، والتتار، وغيرهم من الملك دون حاكم أو من أخويه أو من صهره أو من بلادهم، لإنجاداً، أو معاونةً : بخيالة، أو رجالة، أو مآل، أو مراكب، أو شوان، أو سلاح - لا يؤاقيهم على شيء من ذلك، لا في مير ولا جهر؛ ولا يُعين أحداً منهم ولا يوافقهم على ذلك . ومتى أطلعو على أن أحداً منهم يقصد بلاد الملك الأشرف لمُحاربه أو لمُصرتِه بشيء، يعرف الملك الأشرف بخبرهم، وبالجهة التي اتفقوا على قصديها في أقرب وقت، قبل حوطتهم من بلادهم، ولا يُخفيه شيئاً من ذلك .

وعلى أنه متى أنكسر مركب من المراكب الإسلامية في بلاد الملك دون حاكم، أو بلاد أخويه أو بلاد صهره، [عليهم] أن يتفروهم، ويحفظوا مراكبهم وأموالهم، ويُساعِدوهم على عِمارة مراكبهم، ويُجهِزوهم وأموالهم وبضائعهم إلى بلاد الملك الأشرف . وكذلك إذا انكسرت مركب من بلاد دون حاكم، وبلاد أخويه وصهره، ومُعاهديه في بلاد الملك الأشرف، يكون لهم هذا الحكم المذكور أعلاه .

( وعلى أنه متى مات أحد من تجار المسلمين ومن نصارى بلاد الملك الأشرف، أو ذمة أهل بلاده، في بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره وأولاده ومُعاهديه، لا يارضوهم في أموالهم ولا في بضائعهم، ويُحمل ما لهم وموجودهم إلى بلاد الملك الأشرف : ليفعل فيه ما يختار . وكذلك من يموت في بلاد الملك الأشرف من أهل مملكة الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره ومُعاهديهم، فلهم هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أنه متى عبر على بلاد الملك دون حاكم أو بلاد أخويه أو صهره أو مُعاهديه رُسل من بلاد الملك الأشرف قاصدين جهة من الجهات القريبة أو البعيدة،

صَادِرِينَ أَوْ وَارِدِينَ ، أَوْ رَمَاهُم الرِّيحُ فِي بِلَادِهِمْ ، تَكُونُ الرُّسُلُ وَعِلْمَانُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ ،  
وَمَنْ يَصِلُ مَعَهُمْ مِنْ رُسُلِ الْمُلُوكِ أَوْ غَيْرِهِمْ - آمِنِينَ مَحْفُوظِينَ فِي الْأَقْبُسِ وَالْأَمْوَالِ ،  
وَيُجْهَظُّهُمْ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ مَتَى جَرَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِهِمْ قَضِيَّةٌ  
تَوْجِبُ فُسْخَ الْمَهَادَنَةِ ، كَانَ عَلَى كُلِّ مِنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ طَلَبُ  
مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَيَفْعَلُ الْوَاجِبَ فِيهِ .

وَعَلَى أَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ يَفْسَحُ كُلُّ مِنْهُمْ لِأَهْلِ بِلَادِهِ وَغَيْرِهِمْ  
مِنَ الْفَرَنْجِ ، أَنَّهُمْ يَحْبِسُونَ إِلَى الثَّغُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ : الْحَدِيدَ وَالْيَاسَ وَالْخَشَبَ وَغَيْرَ ذَلِكَ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى أُسِرَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَرِّ أَوِ الْبَحْرِ ، مِنْ مَبْدَأِ تَارِيخِ هَذِهِ الْمَهَادَنَةِ  
مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ : شَرْقِيَّهَا وَغَرْبِيَّهَا ، أَقْصَاهَا وَأَذْنَاهَا ، وَوَصَلُوا بِهِ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ  
حَاكِمٍ وَبِلَادِ أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ لِيَبْعُوهُ بِهَا ، فَيَلْزِمُ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ  
فَكَ أَسِيرِهِ وَحَمْلَهُ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى كَانَ بَيْنَ تِجَّارِ الْمُسْلِمِينَ ، وَبَيْنَ تِجَّارِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوَيْهِ  
وَصِهْرِيهِ مُعَامَلَةٌ فِي بَضَائِعِهِمْ ، وَهُمْ فِي بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، كَانَ أَمْرُهُمْ مَحْمُولًا عَلَى  
مُوجِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى رَكِبَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَرَاكِبِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ  
وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ ، وَحَمَلَ بَضَاعَتَهُ مَعَهُمْ وَعَلِمَتْ الْبِضَاعَةُ ، كَانَ عَلَى الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ  
وَعَلَى أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ رَدُّهَا إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً ، أَوْ قِيَمَتُهَا إِنْ كَانَتْ مَقْضُودَةً .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى هَرَبَ أَحَدٌ مِنْ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ الْدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْمَهَادَنَةِ إِلَى  
بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَأَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ ، أَوْ تَوَجَّهَ بِبِضَاعَةٍ لغيره وَأَقَامَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ ،



كان على الملك دون حاكم وعلى أخويه وصهره ردّ الهارب أو المقيم ببضاعة غيره ،  
والمالك معه إلى بلاد الملك الأشرف ما دام مسلماً . وإن تضرّ ، ردّ المسأل الذي  
معه خاصّة . وللملك الملك دون حاكم وأخويه وصهره فيمن يهرب من بلادهم  
إلى بلاد الملك الأشرف هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أنه إذا وصل من بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره ومعهديه  
من الفرنج من يقصد زيارة القدس الشريف ، وعلى يده يكتب الملك دون حاكم  
وختمه إلى نائب الملك الأشرف بالقدس الشريف ، يُسحّ له في الزيارة مسموحاً  
بالحقّ ليقضى زيارته ويعود إلى بلاده آمناً مطمئناً في نفسه وماله ، رجلاً كان  
أو امرأة ؛ بحيث إن الملك دون حاكم لا يكتب لأحد من أعدائه ولا من أعداء  
الملك الأشرف في أمر الزيارة بشيء .

وعلى أن الملك دون حاكم يحرم جميع بلاد الملك الأشرف هو وأخواه وصهره  
من كل مضرة ، ويمنع كل منهم في أن أحداً من أعداء الملك الأشرف لا يصل  
إلى بلاد الملك الأشرف ، ولا يُجلبهم على مضرة بلاد الملك الأشرف ولا رعاياه ،  
وأنه يساعد الملك الأشرف في البر والبحر بكل ما يشتهي ويختاره .

وعلى أن الحقوق الواجبة على من يصنّر ويردّ ويرتدّ من بلاد الملك دون حاكم  
وأخويه وصهره ، إلى تغري الإسكندرية ودمياط ، والثغور الإسلامية ، والممالك  
السلطانية ، بسائر أصناف البضائع والتأجير على اختلافها ، تستمر على حكم الضرائب  
المستقرة في الديوان المعمور إلى آخر وقت ، ولا يُحدث عليهم فيها حديث . وكذلك  
يخبري الحكم على من يرتدّ من البلاد السلطانية إلى بلاد الملك دون حاكم وأخويه  
وصهره .

تَسْتَمِرُّ هَذِهِ الْمَوَدَّةُ وَالْمُصَادَقَةُ عَلَى حُكْمِ هَذِهِ الشَّرْوَطِ الْمَشْرُوحَةِ أَعْلَاهُ مِنْ  
الْجِهَاتِ عَلَى النَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ، وَتَجْرِي أَحْكَامُهَا وَقَوَائِدُهَا عَلَى أَجَلِ الْاسْتِمْرَارِ،  
فَإِنَّ الْمَالِكَ بِهَا قَدْ صَارَتْ مَمْلَكَةً وَاحِدَةً وَشَيْئًا وَاحِدًا ؛ لَا تَنْقُضُ بَمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ  
الْجَانِبَيْنِ ، وَلَا بِعَزْلِ وَائِلٍ وَتَوَلِيٍّ غَيْرِهِ ، بَلْ تُؤَيِّدُ أَحْكَامُهَا، وَتُدْعِمُ أَيَّامُهَا، وَشُهُورُهَا  
وَأَعْوَامُهَا . وَعَلَى ذَلِكَ أَنْتَظِمَتْ وَأَسْتَقَرَّتْ فِي التَّارِيخِ الْمَذْكُورِ أَعْلَاهُ، وَهِيَ كَذَا  
وَكَذَا، وَاللهُ الْمَوْفِقُ بِكَرَمِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

قُلْتُ : وَهَذِهِ النُّسخُ الْخَمْسُ الْمُتَقَدِّمَةُ الذِّكْرُ هَلَّتْهَا مِنْ تَذَكُّرَةِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُكْرَمِ ،  
أَحَدِ كُتَّابِ الْإِنشَاءِ بِالْبُيُوتَةِ الْمَنْصُورِيَةِ «قَلَاوُونَ» الْمَحْمَاةِ : «تَذَكُّرَةُ الْكَلْبِ» وَزُهْرَةُ  
الْأَدِيبِ » مِنْ نُسخَةٍ بِحُطَّةٍ ، ذَكَرَ فِيهَا أَنَّ النُّسخَةَ الْأُولَى مِنْهَا كَتَبَهَا بِحُطَّةٍ عَلَى مَدِينَةِ  
صَفَدٍ . وَلَيْسَ مِنْهَا مَا هُوَ حَسَنُ التَّرْتِيبِ ، رَاقٍ الْأَلْفَاظِ ، بَهِجُ الْمَعَانِي ، بَلِغُ الْمَقَاصِدِ ،  
غَيْرِ النُّسخَةِ الْآخِرَةِ الْمَعْقُودَةِ بَيْنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ دُونِ حَاكِمٍ . أَمَّا سَائِرُ  
النُّسخِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَإِنَّهَا مُبْتَلَلَةٌ الْأَلْفَاظِ ، غَيْرُ رَاقِيَةِ التَّرْتِيبِ ، لَا يَصْدُرُ مِنْهَا مِنْ كَاتِبٍ  
عِنْدَهُ أَدْنَى مُعَارَسَةٍ لِصِنَاعَةِ الْكَلَامِ . وَالْعَجَبُ مِنْ صُدُورِ ذَلِكَ فِي زَمَنِ «الظَّاهِرِ  
بَيْبُوسَ» وَ«الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ» وَهُمَا مِنْهُمَا مِنْ عُظَمَاءِ الْمُلُوكِ !! وَكَاتِبَةُ الْإِنشَاءِ يَوْمَئِذٍ  
بَيْسِدُ بْنُ عَبْدِ الظَّاهِرِ الَّذِينَ هُمْ يَبْتِغِي الْفَصَاحَةَ وَرُغُوسُ أَرْيَابِ الْبَلَاغَةِ !! وَلَعَلَّ  
ذَلِكَ إِنَّمَا وَقَعَ ، لِأَنَّ الْقَرْنَجِ كَانُوا مُجَاوِرِينَ لِلسُّلَيمِيْنَ يَوْمَئِذٍ بِلَادِ الشَّامِ ، فَيَقَعُ الْأَفْئَاقُ  
وَالْتِرَاضَى بَيْنَ الْجِهَتَيْنِ عَلَى فَصْلِ فَصْلٍ ، فَيَكْتُبُهُ كَاتِبٌ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِنْ جِهَتِي  
السُّلَيمِيْنَ وَالْقَرْنَجِ بِالْفَافِ مُبْتَلَلَةٌ غَيْرُ رَاقِيَةٍ ، طَلَبَ السَّرْعَةَ ، إِلَى أَنْ يَتَمَتَّى بِهِمُ الْجُلَّ  
فِي الْأَفْئَاقِ وَالتِّرَاضَى ، إِلَى أَنْتَرِ قُصُولِ الْهَدَنَةِ ، فَيَكْتُبُهَا كَاتِبُ الْمَلِكِ الْمُسْلِمِ عَلَى صُورَةِ  
مَا جَرَى فِي الْمُسَوَّدَةِ ، لِيُطَاقَ مَا كَتَبَ بِهِ كَاتِبُ الْقَرْنَجِ . إِذْ لَوْ عَدَلَ فِيهَا كَاتِبُ

السلطان إلى الترتيب ، وتحسين الألفاظ وبلاغة التركيب ، لأختل الحال فيها عما وافق عليه كاتبُ الفَرْنَجِ أولاً ، فينكرونه حينئذ ، ويرون أنه غير ما وقع عليه الاتفاق ، لقصورهم في اللغة العربية ، فيحتاج الكاتب إلى إبقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان في المَسودَّة . وبالجملة فإنما ذكرتُ النسخ المذكورة - على سخافة لفظها ، وصدح أنسجام ترتيبها - لاشتمالها على الفصول التي جرى فيها الاتفاق فيما تقدم من الزمان ، ليستمد منها الكاتب ما لعله لا يحضربئالة من مقاصد المهادنات ، أغنانا الله تعالى عن الحاجة إليها .

وأعلم أنه قد جرت العادة ، أنه إذا كتبت المُدَنَةُ ، كتب قريتها يميناً يخلّف بها السلطان أو نائبه القائم بمقدِّ المُدَنَةِ ، على التورية بقصولها وشروطها ؛ ويمين يخلّف عليها القائم عن الملك الكافر بمقدِّ المُدَنَةِ ، ممّن يأنذله في عقدها عنه ، بكتاب يصدر عنه بذلك ، أو يُجهز نسختها إلى الملك الكافر ليخلّف عليها ، ويكتب خطه بذلك ، وتعاد إلى الأبواب السلطانية .

### المذهب الثالث

( أن تفتتح المهادنة بخطبة مبتدأة بـ « الحمد لله » )

وعلى هذا بنى صاحبُ "موادِّ البيان" أمره في كتابة المُدَنَةِ ، حيث قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على الهداية إلى دين الإسلام الذي أدلَّ كل دين وأعزّه ، وحذلَّ كل شرع ونصره ، وأخفى كل منتهى وأظهره ؛ والتوغل في توحّده ، وتقديسه وتمجّده ؛ والثناء عليه بالآله ، والصلاة على خير أنبيائه ؛ محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : ولم يأت بصورة هُدنية مُتَظَمَةٍ على هذا الترتيب ، بل أشار إلى كَيْفِيَّةِ عملها . ثم قال : والليخُ يَكْتَبِي بِقَرِيحَتِهِ في ترتيب هذه المعاني إذا دُفِعَ إلى الإنشاء فيها ، إن شاء الله تعالى . ولم أَقِفْ لغيره على صورة هُدنية مفتحة بالتحديد ، ولا يَخْفَى أن الابتداء به في كُلِّ مُهِمٍّ من العهودِ وجلال الولايات ونحو ذلك هو المعمولُ عليه في زَمَانِنَا .

### الطرف الثاني

(فيما يُشارِكُ فيه مُلُوكُ الكُفَرِ مُلُوكَ الإسلام في كتابة نُسخٍ من دواوينهم)  
إِعلم أَنَّ الغَالِبَ في المُدُنِ الواقِعةِ بين مُلُوكِ الديار المصرية وبين مُلُوكِ الكُفَرِ أن تُكْتَبَ نسخةٌ مُخَلَّدٌ بديوان الإنشاء بالديار المصرية ، ونُسخةٌ تُجَهَّزُ إلى المَلِكِ المُهَادِنِ . وربما كُتِبَتْ نسخةٌ من ديوانِهِ مُفْتَحَةٌ بِمِيزَانٍ .

وهذه نسخة هُدنية وَرَدَتْ من جِهَةِ الأَشْكَرَى ، صَاحِبِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ في شَهْرِ رَمَضَانَ سنة ثمانين وستمائة ، مَوْزَعَةٌ بتاريخ موافقٍ لِأَوَاخِرِ المُحَرَّمِ من السَّنَةِ المذكورة ، فُتِرَتْ فَكَانَتْ تُسَخَّطُ على ما ذكره ابن مُكْرَمٍ في "وَتَدْرِيته" :

إذ قد أَرَادَ السُلْطَانُ العَظِيمُ ، النَّسِيبُ ، العَالِي ، العَزِيزُ ، الكَبِيرُ الجَلِيلُ ، المَلِكُ ، المَنْصُورُ ، سَيِّفُ الدِّينِ « قَلاوُونَ » صَاحِبُ الدِّيَارِ المصرية وَدِمَشْقَ وَحَلَبَ ، أن يَكُونَ بينه وبين مَمْلَكَتِي مَحَبَّةً - فَمَلَكْتِي تَوَثُّرُ ذَلِكَ ، وَتَخْتَارُ أن يَكُونَ بينها وبين عِزِّ سُلْطَانِهِ مَحَبَّةً . وَلِهَذَا وَجِبَ أن يَتَوَسَّطَ هَذَا الأَمْرَ بيني وَأَتَهَاقُ : لِتُدُومَ المَحَبَّةُ الَّتِي بَيْنَهُمَا الصُّورَةُ فيما بين مَمْلَكَتِي وَعِزِّ سُلْطَانِهِ ثَابِتَةً بِلَا تَشْوِيشٍ . فَمَلَكْتِي هَذَا اليَوْمَ ، وَهُوَ يَوْمُ الخَمِيسِ التَّامِنُ من شَهْرِ رَجَبٍ من التَّارِيخِ [الرَّوْحِيُّ] التَّابِعِ لِسَنَةِ سِتَّةِ آلاف

وسبعائة وتسع وثمانين لآدم - تحلف بأناجيل الله المقدسة، والصليب المكرم المحيي،  
 أن مملكتي تكون حافظة للسلطان العظيم، النسيب، العالي، العزيز، الكبير الجنبس،  
 سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب، ولولده ولوارث  
 ملكه عن سلطانه: حجة مستقيمة، وصداقة كاملة هبة، ولا يحرك ملكي أبدا على  
 عن سلطانه حربا، ولا على بلاده ولا على قلاعه، ولا على عساكره، ولا يتحرك  
 ملكي أبدا على حربه، بحيث إن هذا السلطان العظيم، النسيب، العالي، العزيز،  
 الكبير الجنبس، الملك المنصور سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية  
 ودمشق وحلب، يحفظ مثل ذلك لملكتي ولولده لملكتي الحبيب الكينوس،  
 الانجالوس، النوقس، البالاولوغس، الملك ايرلك، ولا يحرك عن سلطانه على  
 مملكتنا حربا قط، ولا على بلادنا، ولا على قلاعنا، ولا على عساكرنا، ولا يحرك  
 أحدا آخر أيضا على حرب مملكتنا، وأن تكون الرسل المترددون عن عن سلطانه أيضا  
 مطلقا [آمين، لهم] أن يعبروا في بلاد مملكتي بلا مانع ولا عائق، ويتوجهوا إلى حيث  
 يسيرون من عن سلطانه، وكذلك يعوثون إلى عن سلطانه. وأن لا يحصل للتجار  
 الواردين من بلاد عن سلطانه [ضرر] من بلاد مملكتي، لا يحدرون من أحد جورا  
 ولا ظلما، بل يكون لهم مباحا أن يعملوا متاجرهم. ونظير هذا - التجار الواردون إلى بلاد  
 عن سلطانه من أهل بلاد ملكي، يقومون بالحق الواجب على بضائعهم، وليقيم كذلك  
 التجار الواردون من بلاد عن سلطانه إلى بلاد ملكي بالحق الواجب على بضائعهم.  
 وإن حضر من بلاد سوداق تجار وأرادوا السفر إلى بلاد عن سلطانه، فلا ينال  
 هؤلاء تعويق في بلاد ملكي، بل في عبورهم وعودهم يكونون بلا مانع ولا عائق بعد  
 القيام بالحق الواجب. وهؤلاء التجار الذين من بلاد عن سلطانه والذين من أهل  
 سوداق إن حضر صحتهم ممالك وتجار، فليعدوا بهم إلى بلاد عن سلطانه بلا عائق

ولا مانع ، ما خلا إن كانوا نصاري ، لأنَّ شرعنا وترتيب منهي لا يسمح لنا في أمر النصاري بهذا .

وأما إن كان في بلاد عِرَّ سلطانه ممالك نصاري : روم وغيرهم من أجناس النصاري ، متمسكون بدين النصاري ، ويحصل لقوم منهم العتق ، فيكن للذين معهم عتائق مباح ومطلق من عِرَّ سلطانه ، أن يفدوا في البحر إلى بلاد مملكتي . وكذلك إن أراد أحد من أهل بلاد عِرَّ سلطانه أن يبيع مملوكا نصرايا هذه صورته لأحد من رؤس مملكتي ، أو تجار وأناس بلاد مملكتي ، أن لا يحد في هذا تعويضا ، بل يشتروا المذكور ويفدوا به في البحر إلى بلاد مملكتي بلا عائق . وأيضا إن أراد هذا السلطان العظيم السيب ، أن يرسل إلى بلاد ملكي بضائع متجرا ، وأرادت مملكتي أن ترسل إلى بلاد عِرَّ سلطانه بضائع متجرا ، فيكن هكذا : وهو إن أراد عِرَّ سلطانه أن تكون بضائع متاجره في بلاد ملكي متجاة من القيام بكل الحقوق ، فتكن أيضا بضائع متاجر مملكتي في بلاد عِرَّ سلطانه متجاة مثل ذلك من كل الحقوق ، وإن أراد أن تقوم متاجر ملكي في بلاده بالحقوق الواجبة [بقوم] بمثل ذلك . وأيضا أن يطلق عِرَّ سلطانه لملك أن يرسل أناسا من بلاد مملكتي إلى بلاد عِرَّ سلطانه ، فيشترون لى خيلا جيادا ويحملونها إلى بلاد ملكي . وكذلك إن أراد عِرَّ سلطانه شيئا من خيرات بلاد ملكي ، فمملكتي أيضا تطلق لعِرَّ سلطانه أن يرسل أناسه ليشتروه ويحملوه إلى عِرَّ سلطانه .

ولما كان في البحر كرساليه من بلاد غربية ، وقد يتفق في بعض الأوقات أن يعملوا خسارة في بلاد ملكي ، وكذلك يحدث هؤلاء الكرسالية قوما من بلاد عِرَّ سلطانه فيعملون لهم خسارة ، ثم إن هؤلاء الكرسالية يفعلون هذا في الاتفاق في تخوم بلاد ملكي . لأجل هذا صار : إذا حضر قوم من بلاد مملكتي إلى بلاد عِرَّ

سُلْطَانَهُ يَتَجَرَّعُ يُسَبِّحُونَ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ وَيَقْرَمُونَ ، وَلِهَذَا قَلِيصَرُ مَرْسُومٌ  
 مِنْ عِزِّ سُلْطَانِهِ فِي كُلِّ بِلَادِهِ أَنْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بِلَادٍ مَمْلُوكَتِي لَا يَقْرَمَ بِهَذَا السَّبَبِ  
 وَلَا يَمْسُكُ ، وَإِنْ عَرَضَ أَنْ يَقُولَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ : إِنَّهُ غُرِّمَ أَوْ ظَلِمَ  
 مِنْ أَهْلِ بِلَادٍ مُلْكِي فَلْيَعْرِفْ مُلْكِي بِذَلِكَ . وَإِذَا كَانَ الَّذِي وَضَعَ الْفَرَامَةَ مِنْ أَهْلِ  
 بِلَادٍ مُلْكِي ، فَمُلْكِي يَأْمُرُ ، وَتَعَادُ تِلْكَ الْخَسَارَةُ إِلَى بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ . وَكَذَلِكَ إِنْ  
 قَالَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادٍ مَمْلُوكَتِي : إِنَّهُ ظَلِمَ أَوْ غُرِّمَ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ،  
 يَأْمُرُ عِزُّ سُلْطَانِهِ ، وَتَعَادُ الْفَرَامَةُ إِلَى بِلَادٍ مُلْكِي . وَأَيْضًا إِذَا قَدْ أَزْمَعَتِ الْحَبَّةُ أَنْ  
 تُصِيرَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ، وَتَكُونَ الصَّدَاقَةُ بَيْنَ مَمْلُوكَتِي وَعِزِّ سُلْطَانِهِ خَالِصَةً ، حَتَّى إِذَا  
 أُرْسِلَ يَقُولُ لِمُلْكِي عَلَى مَعُونَةٍ وَتَجِدَةٍ مُلْكِي فِي الْبَحْرِ لِمَضَرَّةِ الْعَدُوِّ الْمُشْتَرِكِ ، فَمَمْلُوكَتِي  
 تَفُوضُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى اخْتِيَارِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ، أَنْ يَرْتَبِ فِي نَسْخَةِ الْيَمِينِ مَعَ بَقِيَّةِ  
 الْفُصُولِ الْمَعْنِيَةِ فِيهِ ، وَتَأْتِي الصُّورَةُ كَيْفَ تَعَيَّنَ وَتَجِدَ مَمْلُوكَتِي فِي الْبَحْرِ . وَإِنْ كَانَ  
 لَا يُرِيدُ تَجِدَةً وَمَعُونَةً مَمْلُوكَتِي ، فَمَمْلُوكَتِي تَسْمَحُ بِهَذَا الْفَضْلِ أَنْ لَا يَضَعَهُ عِزُّ سُلْطَانِهِ  
 فِي نُسْخَةِ يَمِينِهِ ، وَهَذِهِ الْيَمِينُ مَا يَحْفَظُ مُلْكِي لِعِزِّ سُلْطَانِهِ ثَابِتَةً غَيْرَ مُتَعَرِّضَةٍ إِنْ كَانَ  
 هَذَا السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ يَحْلِفُ لِي يَمِينًا بِمِثْلِهَا ، وَأَنَّهُ يَحْفَظُ الْحَبَّةَ لِمَمْلُوكَتِنَا ، ثَابِتَةً غَيْرَ  
 مُتَعَرِّضَةٍ ، وَالسَّلَامُ .



وهذه نُسْخَةُ أَتْفَاقٍ ، كَتَبْتُ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ عَنِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ «فَلَاوُون»  
 عَنْ نَظِيرِ الْمُنْدَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، الْوَارِدَةِ مِنْ قِبَلِ صَاحِبِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، مُفْتِيحَةً يَمِينِ  
 مُوَافَقَةٍ لَهَا ، وَهِيَ :

أَقُولُ وَأَنَا فَلَانُ : إِنَّهُ لَمَّا رَضِيَ حَضْرَةُ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ ، كَرِيمِيَاثِيلُ ، الدُّوْقُسُ ،  
 الْأَنْجَالُوسُ ، الْكِينِيُوسُ ، الْبَالَاوُلُوسُ ، ضَاطِعُ مَمْلَكَةِ الرُّومِ وَالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ الْعَظِيمِ ،

أكبر ملوك المسيحية، أبقاه الله - أن يكون بين مملكته وبين عز سلطانى، حجة وصداقة ومودة لا تتغير بتغير الأيام، ولا تزول بزوال السنين والأعوام؛ وأكد ذلك بيمين حلف عليها، تاريخها يوم الخميس ثامن شهر إيار سنة ستة آلاف وسبع مائة وتسع وثمانين لآدم، صلوات الله عليه، بحضور رسول عز سلطانى، الأمير ناصر الدين ابن الجزرى، والبطرك الجليل انبا سيوس بطرك الاسكندرية، وحضر رسوله فلان وفلان إلى عز سلطانى بنسخة اليمين، ملتصقين أن يتوسط هذا الأمر أيضا بين وأخائى من عز سلطانى، لتدوم المحبة فيما بين مملكته وعز سلطانى، وتكون ثابتة مستمرة على الدوام والاستمرار.

فيم سلطانى من هذا اليوم، وهو يوم الاثنين مستهل رمضان للعظيم، سنة ثمانين وسنة للهجرة النبوية المحمدية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، يحلف بالله العظيم، الرحمن الرحيم، عالم الغيب والشهادة، والسر والعلانية وما تحفى الصدور، والقرعان العظيم، وبمن أنزله، وبمن أنزل عليه، وهو الله الكريم، عهد صلى الله عليه وسلم - على استمرار الصداقة، واستقرار المودة القوية، للملك الجليل كريمائيل، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى، ولولد مملكته الحبيب الكينوس الانجالوس، الدوقس، البالاولوغس، الملك إيراندروبنوس، ولوارثي مملكة ملكه. ولا يحرك عز سلطانى أبدا على مملكته حربا، ولا على بلاده، ولا على قلاعه، ولا على عساكره : فى بر ولا بحر. ولا يحرك عز سلطانى أحدا آخر على حرب، بحيث إن الملك الجليل كريمائيل يحفظ مثل ذلك لعز سلطانى، وللكي، ولبلادى، ولقلاعى، ولعساكرى، ولولد السطان الملك الصالح علاء الدين «على» ولوارثي ملكى من أولادى، ويستمر على هذه الصداقة والمودة القوية، ولا يحرك ملكه على عز سلطانى حربا قط، ولا على



بلادى ، ولا على قلاعى ، ولا على عساكرى ، ولا على مملكتى ، ولا يحرك أحدًا آخر على حرب مملكة عز سلطانى فى البر ولا فى البحر ، ولا يساعد أحدًا من أضداد عز سلطانى ، ولا أعدائى من سائر الأديان والأجناس ، ولا يوافقه على ذلك ، ولا يفسح لهم فى العبور إلى مملكة عز سلطانى لمضرة شئ فيها يُجهده وطاقته .

وأن الرسل المسيرين من مملكة عز سلطانى إلى بر بركة وأولاده وبلادهم وتلك الجهات ، وبحر سوداق وبره ، يكونون آمنين مطمئنين مطلقاً : لهم أن يعبروا فى بلاد مملكة الملك الجليل ، كريمخايل من أولها إلى آخرها ، بلا مانع ولا عائق : أرسلوا فى بر أو بحر ، على ما تقتضيه مصلحة ذلك الوقت لمملكة عز سلطانى ، آمنين مطمئنين ، غير ممنوعين بجميع من يصل معهم من رسل تلك الجهات وغيرها ، وكل من معهم من ممالك وجوار وغير ذلك . وأن لا يحصل للتجار الواردين من مملكة الملك الجليل كريمخايل إلى بلاد عز سلطانى جور ولا ظلم ، ويتدون آمنين مطمئنين يعملون متاجرهم ، ولهم الرقابة فى الصدور والورود ، والمقام والسفر : بحيث يكون تجار مملكة عز سلطانى فى بلاد مملكة الملك الجليل كريمخايل مثل ذلك ، ويكونون مرسخين ، لا يحدون من أحد فى بلاد مملكة الملك الجليل كريمخايل جوراً ولا ظلماً . ومن عليه حق واجب فى الجهتين على ما استقر عليه الحال ، يقوم به من غير حيف ولا ظلم .

وأن من حضر من التجار : من سوداق وغيرها بممالك وجوار مملكتهم مملكة الملك الجليل كريمخايل من الحضور بهم إلى مملكة عز سلطانى ولا تمنعهم . وأن الكرسالية متى تعرضوا إلى أخذ أحد من التجار المسلمين فى البحر ، وشيئت الكرسالية إلى رعية مملكة الملك الجليل كريمخايل ، يسير عز سلطانى إليه فى طلبهم ،

ولا يتعرض أحدٌ من نواب مملكة عزَّ سلطاني إلى هذا الجفء بسببهم، إلا أن يتحقق أنهم آخئون، أو تظهر عين المال معهم، على ما تضمنته نسخة يمين الملك الجليل كرميخايل، ولملكة الملك الجليل كرميخايل من بلاد عزَّ سلطاني مثل ذلك ..

وعلى أن الرسل المترددين من الجهتين : من مملكة عزَّ سلطاني ، ومن مملكة الملك الجليل كرميخايل ، يكونون آمينين مطمئنين في سفرهم ومقامهم : براً وبحراً، وتكون رعية بلاد عزَّ سلطاني ، ورعية بلاد الملك الجليل كرميخايل، في الجهتين من المسلمين وضيهم آمينين مطمئنين ، صادرين وارين، محترمين مريعين . وهذه اليمين لا تزال محفوظة ملحوظة ، مستمرة مستقرة ، على الدوام والاستمرار .

قلت : وهذه النسخة والنسخة الواردة من صاحب القسطنطينية المتقدمة عليها، وإن عبر عنها في خلاصها بلفظ اليمين ، فإنها بقدر الصلح أشبه ، واليمين جزء من أجزاء ذلك، ولذلك أوردتها في عقود الصلح دون الإيمان .

## الباب الخامس من المقالة التاسعة

( في عقود الصلح الواقعة بين ملكين مسلمين ، وفيه فصلان )

### الفصل الأول

في أصول تعتمد في ذلك

اعلم أن الأصل في ذلك ما ذكره أصحاب السير وأهل التاريخ ، أنه لما وقع الحرب بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، في صيفين ، في سنة سبع وثلاثين من الهجرة - توافقا على أن يهيا حكمين بينهما ، ويعملا بما يتفقان عليه . فأقام أمير المؤمنين علي أبا موسى الأشعري حاكما عنه ، وأقام معاوية عمرو بن العاص حاكما عنه . فاتفق الحكمان على أن يكتب بينهما كتاب بعقد الصلح ، واجتمعا عند علي رضي الله عنه ، وكتب كتاب القضية بينهما بحضوره ، فكتب فيه بعد البسملة :

هذا ما تقاضى أمير المؤمنين علي ، فقال عمرو : هو أميركم ، أما أميرنا فلا . فقال [ الأحنف : لا تسمع أعم أمير المؤمنين فإني أخلف إن محوتها أن لا ترجع إليك أبدا . لا تمحوها وإن قتل الناس بعضهم بعضا ، فأبى ذلك علي مليا من النهار . ثم إن الأشعث <sup>(١)</sup> ابن قيس قال : أعم أعم أمير المؤمنين ؟ فأجاب علي وبجاء . ثم قال علي : الله أكبر ! سنة بسنة . والله إنى لكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ، فكتبت : عهد رسول الله ، فقالوا : لست برسول الله ، ولكن أكتب أئمتك وأمم أئمتك .

(١) يابض في الأصل والصحيح من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٢٨ .

فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَوِّهِ ، قُلْتُ : لَا أَسْتَطِيعُ أَفْعَلُ ! فَقَالَ  
إِذْنُ أَرْنِيهِ فَأَرَيْتُهُ فَمَحَاهُ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : « إِنَّكَ مَتَدَعَيْ إِلَى مِثْلِهَا فَتُجِيبُ » .



وهذه نُسخَةُ كِتَابِ الْقَضِيَّةِ بَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ ، فيما رواه  
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنُ بْنُ نَصْرِ بْنِ مُزَارِمٍ الْمُنْقَرِي ، فِي « كِتَابِ صِبْغَيْنِ وَالْحَكَمَيْنِ »  
بِسَنَدِهِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الشَّعْبِيِّ ، وَهُوَ :

هَذَا مَا تَقاضَى عَلَيْهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَشِبَعُهُمَا ،  
فِيمَا تَرَاضَيَا مِنَ الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَضِيَّةٌ عَلِيٌّ عَلَى  
أَهْلِ الْعِرَاقِ وَمَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ شَاهِدٍ أَوْ غَائِبٍ ، وَقَضِيَّةٌ مُعَاوِيَةُ عَلَى أَهْلِ  
الشَّامِ وَمَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ شَاهِدٍ أَوْ غَائِبٍ ، أَنَا رَضِينَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَ حُكْمِ  
كِتَابِ اللَّهِ بَيْنَنَا حُكْمًا فِيمَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ قَاتِلَيْهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ ، نُحْيِي مَا أَحْيَا ، وَنُمِيتُ  
مَا أَمَاتَ . عَلَى ذَلِكَ تَهَاضَيْنَا ، وَبِهِ تَرَاضَيْنَا . وَأَنْ عَلَيْنَا وَشِيعَتُهُ رَضُوا أَنْ يَعْثُوا  
عَبْدَ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ نَاطِرًا وَمُحَاجًّا ، وَرَضَى مُعَاوِيَةُ وَشِيعَتُهُ أَنْ يَعْثُوا عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ  
نَاطِرًا وَمُحَاجًّا ، عَلَى أَنَّهُمْ أَخَذُوا عَلَيْهِمَا عَهْدَ اللَّهِ وَبَيْتَاقَهُ ، وَأَعْظَمَ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى  
أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، لِيَتَّخِذَ الْكِتَابَ إِمَامًا فِيمَا بَيْنَنَا لَهُ ، لَا يَتَّبِعُونَهُ إِلَى غَيْرِهِ فِي الْحُكْمِ  
بِمَا وَجَدْنَا فِيهِ مَسْطُورًا ، وَمَا لَمْ يَجِدْهُ مُسَمًّى فِي الْكِتَابِ رَدَّاهُ إِلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ  
الْجَامِعَةِ ، لَا يَتَّبِعْدَانِ لَهَا خِلَافًا ، وَلَا يَتَّبِعَانِ فِي ذَلِكَ لَهَا هَوًى ، وَلَا يَدْخُلَانِ  
فِي شُبُهَةٍ .

وَأَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ ، وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ عَهْدَ اللَّهِ وَبَيْتَاقَهُ  
بِالرَّضَا بِمَا حَكَمَ بِهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، لَيْسَ لَهَا أَنْ يَنْقُضَا ذَلِكَ تَخَالُفًا إِلَى

فَيُؤْتِيهِ ، وَأَنْهَاهُ آمِنَانِ فِي حُكُومَتِهِمَا عَلَى دِمَائِهِمَا وَأَمْوَالِهِمَا وَأَهْلِيهِمَا ، مَا لَمْ يَبْعُثُوا الْحَقَّ ، رَضِيَ بِذَلِكَ رَاضٍ أَوْ أَنْكَرَ مُنْكَرٌ . وَأَنَّ الْأُمَّةَ أَنْصَارُهَا عَلَى مَا قَضَاهُ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ .

فَإِنْ تَوَقَّى أَحَدُ الْحَاكِمِينَ قَبْلَ أَقْضَاءِ الْحُكُومَةِ ، فَأَمِيرُ شَيْعَتِهِ وَأَصْحَابُهُ يَخْتَارُونَ رَجُلًا ، لَا يَأْلُوَانِ عَنْ أَهْلِ الْمَعْدِنَةِ وَالْإِقْسَاطِ ، عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ وَالْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَلَهُ مِثْلُ شَرْطِ صَاحِبِهِ .

وَإِنْ مَاتَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَمِيرَيْنِ قَبْلَ الْقَضَاءِ ، فَلِشَيْعَتِهِ أَنْ يُؤَلُّوا مَكَانَهُ رَجُلًا يَرْضَوْنَ عَدْلَهُ .

وَقَدْ وَقَعَتِ الْقَضِيَّةُ بَيْنَنَا وَالْأُتْمُنَ وَالْتِفَاوُضَ ، وَوُضِعَ السَّلَاحُ . وَعَلَى الْحَاكِمِينَ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ : لِيَحْكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، لَا يَدْخُلَانِ فِي شُبْهَةٍ وَلَا يَأْلُوَانِ أَجْتِهَادًا ، وَلَا يَتَعَمَّدَانِ جَوْرًا ، وَلَا يَتَّبِعَانِ هَوًى ، وَلَا يَبْعُثُوْنَ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ . فَإِنْ لَمْ يَفْعَلَا بَرَأَتِ الْأُمَّةُ مِنْ حُكْمِهِمَا ، وَلَا عَهْدُهَا وَلَا ذِمَّةُ .

وَقَدْ وَجِبَتِ الْقَضِيَّةُ عَلَى مَا سَمِعْنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ مَوْفِعِ الشَّرْطِ عَلَى الْأَمِيرَيْنِ وَالْحَاكِمِينَ وَالْفَرِيقَيْنِ ، وَاللَّهُ أَقْرَبُ شَهِيدًا وَأَدْنَى حَفِيطًا ، وَالنَّاسُ آمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ إِلَى أَقْضَاءِ مُدَّةِ الْأَجَلِ ، وَالسَّلَاحُ مَوْضُوعٌ ، وَالسَّبِيلُ مُخْلًى ، وَالشَّاهِدُ وَالْغَائِبُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ سَوَاءٌ فِي الْأَمْرِ . وَالْحَاكِمِينَ أَنْ يَتَزَلَّأَ مِثْرًا وَلَا عَدْلًا بَيْنَ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الشَّامِ ، وَلَا يَحْضُرُهُمَا فِيهِ إِلَّا مَنْ أَجَبَا عَنْ مَلَأٍ مِنْهُمَا وَتَرَاضَا .

وَأَجَلُ الْقَاضِيَيْنِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى رَمَضَانَ : فَإِنْ رَأَى الْحَاكِمَانِ تَحْجِيلَ الْحُكُومَةِ فِيمَا وَجَّهَالَهُ ، عَجَلًا ، وَإِنْ أَرَادَا تَأْخِيرَهُ بَعْدَ رَمَضَانَ إِلَى أَقْضَاءِ الْمَوْسِمِ ، فَإِنْ ذَلِكَ إِلَيْهِمَا . فَإِنْ هُمَا لَمْ يَجْعَلَا بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ إِلَى أَقْضَاءِ الْمَوْسِمِ ، فَالْمُسْلِمُونَ عَلَى

أمرهم الأول في الحرب، ولا شرط بين واحد من الفريقين . وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التماس على ما في هذا الكتاب . وهم يدعى على من أراد في هذا الكتاب الحسادا أو غلما ، أو أراد له نقضا .

شهد على ما في هذا الكتاب من أصحاب علي : الأشعث بن قيس ، وعبد الله بن عباس ، والأشعث بن الحرث ، وسعيد بن قيس الهمداني ، والحسين والطفيل أبنا الحرث بن المطلب ، وأبو أسيد بن ربيعة الأنصاري ، وخباب بن الأرت ، وسهل بن حنيف الأنصاري ، وأبو اليمر بن عمرو الأنصاري ، ورقاعة بن رافع ابن مالك الأنصاري ، وصوف بن الحرث بن المطلب القرشي ، وبريدة الأسلمي ، وعقبة بن عامر الجهني ، ورافع بن خديج الأنصاري ، وعمرو بن الحقي الخزاعي ، والحسن والحسين أبنا علي ، وعبد الله بن جعفر الهاشمي ، واليعمر بن عجلان الأنصاري ، ومجرب بن عدي الكندي ، ورقاء بن سمي البجلي ، وعبد الله بن الطفيل الأنصاري ، ويزيد بن حجة الدكري<sup>(١)</sup> ، ومالك بن كعب الهمداني ، وربيعة بن شريحيل ، وأبو صفرة ، والحارث بن مالك ، ومجرب بن يزيد ، وعقبة بن حجة .

ومن أصحاب معاوية : حبيب بن مسلمة الفهمي ، و[أبو] الأخور السلمي ، وبشر ابن أرطاة القرشي ، ومعاوية بن حديج الكندي ، والحارث بن الحارث الحميري ، وزميل بن عمرو السكسكي ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي ، ومرة بن مالك الهمداني ، وسبع بن زيد الحميري ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وطعمة بن مرثد<sup>(٢)</sup>

(١) في الكامل لابن الأثير "ابن حجة الدكري" .

(٢) في خلاصة أسماء الرجال : الفهري .

(٣) في الكامل : "سبع بن يزيد الأنصاري" .

الكلبي، وخالد بن الحصين السكسكي، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، ويزيد بن الحز  
العيسى، ومسروق بن حملة العكي، ومخير بن يزيد الحميري، وعبد الله بن عامر  
القرشي، ومروان بن الحكم، والوليد بن عقبة القرشي، وعقبة بن أبي سفيان،  
ومحمد بن أبي سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، ويزيد بن عمرو الجذامي، وعمار  
ابن الأخوص الكلبي، ومسعدة بن عمر القتي، وعاصم بن المستنير الجذامي،  
وعبد الرحمن بن ذي كلاج الحميري، والصبح بن جلهمة الحميري، وثمامة بن  
حوشب، وعلقمة بن حكيم، وحزمة بن مالك .

وإنّ بيننا على ما في هذه الصّحيفة عهد الله وميثاقه . وكتب عمير يوم الأربعاء  
لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين .

وأخرج أيضا بسنده إلى أبي إسحق الشيباني أن عقدة الصلح كان عند سعيد  
ابن أبي بردة في صحيفة صفراء عليها خاتمان : خاتم في أسفلها، وخاتم في أعلاها .  
في خاتم ملي «عهد رسول الله» وفي خاتم معاوية «عهد رسول الله» .

قلت : وذكر روايات أخرى فيها زيادة ونقص أضربنا عن ذكرها خوفاً  
الإطالة، إذ فيها ذكرنا مفتح . على أن المؤرخين لم يذكروا من ذلك إلا طرّاً يسيراً .

## الفصل الثاني

من الباب الخامس من المقالة التاسعة

( فيما جرت العادة بكتابه بين الخلفاء وملوك المسلمين على تماقيب الدول،

تما يكتب في الطرة والمتن )

أما الطرة : فليعلم أن الذي ينبغي أن يكتب في الطرة هنا : « هذا عقد صلح »  
ويكمل على ما تقدم في الهدنة . ولا يكتب فيه : « هذه هدنة » لما يسبق إلى  
الأذهان من أن المراد من الهدنة ما يجري بين المسلمين والكفار .

وأما المتن فعلى توصيف :

## النوع الأول

( ما يكون المقدم فيه من الجانبين )

ولم أر فيه للكتاب إلا الاستفتاح بلفظ : « هذا » . وعليه كتب كتاب القضية  
بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وبين معاوية بن أبي سفيان  
رضي الله عنه ، على ما تقدم ذكره .

وعلى ذلك استكتب هرون الرشيد ولديه : محمد الأمين ، وعبد الله المأمون :  
العهدين اللذين عهد فيهما بالخلافة بعده لابنه الأمين ، وولي نرسان ابنه المأمون ،  
ثم عهد بالخلافة من بعد الأمين للمأمون ، وأشهد فيهما ، وبعث بهما إلى مكة فلقا  
في بطن الكعبة ، في جملة المعلقات التي كانت تعلق فيها ، على عادة العرب السابقة :  
من تعليق القصائد ونحوها . وبذلك تسمى القصائد السبع المشهورة : بالمعلقات ،  
لتعليقهم إياها في جوف الكعبة .



أما عهد الأيمن، فنسخته بعد البسملة - على ما ذكره الأزرقي في أخبار مكة -  
ما صورته :

هذا كتاب لعبد الله هرون أمير المؤمنين، كتبه [له] محمد بن أمير المؤمنين في صحة  
من بدته وعقله، وجواز من أمره، طائفاً غير مكره .

إن أمير المؤمنين هرون ولأني العهد من بعده، وجعل لي البيعة في رقاب  
المسلمين جميعاً؛ وولي أئني عبد الله بن أمير المؤمنين هرون العهد والخلافة وجميع  
أموار المسلمين من بعدى، برضا منى وتسليم، طائفاً غير مكره . ولأني نراسان  
بشغورها، وكورها، وجنودها، ونراجها، وطرارها، وببوت أموالها،  
وصدقاتها، وعشيرها وعشورها، وجميع أعمالها، في حياته وبعد وفاته . فشرطت  
لعبد الله ابن أمير المؤمنين على الوفاء بما جعله له أمير المؤمنين هرون : من البيعة  
والعهد، ولولاية الخلافة وأموار المسلمين بعدى، وتسليم ذلك له ، وما جعل له  
من ولاية نراسان وأعمالها ، وما أقطعه أمير المؤمنين هرون من قطيعة ، وجعل له  
من عقدة أو ضيعة من ضياعه وعقده، أو ابتاع له من الضياع والعقد . وما أعطاه  
في حياته وصحته : من مال، أو حلي، أو جواهر، أو متاع، أو كسوة، أو رقيق،  
أو متزل، أو دواب، قليلاً، أو كثيراً، فهو لعبد الله ابن أمير المؤمنين موقراً عليه،  
مسماً له . وقد عرفت ذلك كله شيئاً فشيئاً باسمه وأصنافه ومواضعه، أنا وعبد الله  
ابن هرون أمير المؤمنين . فإن اختلفنا في شيء منه فالفول فيه قول عبد الله بن هرون  
أمير المؤمنين ، لا أتبعه بشيء من ذلك ، ولا أخله منه ، ولا أنقصه، صغيراً  
ولا كبيراً [من ماله] ولا من ولاية نراسان ولا غيرها مما ولأني أمير المؤمنين من  
الأعمال، ولا أعزله عن شيء منها، ولا أخله، ولا أستبدل به غيره، ولا أقدم عليه

في العهد والإنحلاف أحدًا من الناس جميعًا، ولا أدخل عليه مكرها في نفسه ولادته، ولا شره ولا بشره، ولا خاص ولا عام من أموره وولايته، ولا أمواله، ولا قطائع، ولا عقده، ولا أغبر عليه شيئا لسبب من الأسباب، ولا أخذه ولا أحدًا من عماله وكتابه وولاء أسرته - ممن صحبه وأقام معه - بخاسية، ولا أتبع شيئا جرى على يديه وأبليسهم في ولاية خراسان وأعمالها وغيرها مما ولاه أمير المؤمنين في حياته وصحبته : من الجباية، والأموال، والطراز، والبريد، والصدقات، والعشر والعشور، وغير ذلك؛ ولا أمر بذلك أحدًا من الناس، ولا أرخص فيه لغيري، ولا أحدث نفسي فيه شيء مضيه عليه، ولا أتمس قطيعة له، ولا أقص شيئا مما جعله له هرون أمير المؤمنين وأعطاه في حياته وخلافته وسلطانه من جميع ما سميت في كتابي هذا . وأخذ له على وعلى جميع الناس البيعة، ولا أرخص لأحد - من جميع الناس كلهم في جميع ما ولاه - في خله ولا مخالفته، ولا أسمع من أحد من البرية في ذلك قولًا، ولا أرضى بذلك في سر ولا علانية، ولا أغصص عليه، ولا أتناقل عنه، ولا أقبل من برمن العباد ولا فارس، ولا صاديق ولا كاذب، ولا ناصع ولا غاش، ولا قريب ولا بعيد، ولا أحد من ولد آدم عليه السلام : من ذكر ولا أنثى - مشورة، ولا حيلة، ولا مكيده في شيء من الأمور : برها وعلانيتها، وحققها وباطلها، وظاهرها وباطنها، ولا سبب من الأسباب، أريد بذلك إفساد شيء مما أعطيت عبد الله بن هرون أمير المؤمنين من نقبي، وأوجبت له على، وشرطت وسميت في كتابي هذا .

وإن أراد به أحد من الناس أجمعين سوءًا أو مكرها، أو أراد خله أو محاربه، أو الوصول إلى نفسه ودمه، أو حرمة، أو ماله، أو سلطانه أو ولايته : جميعًا أو فردًا، مبرين أو مظهرين له - لئلا أنصره وأحوطه، وأدفع عنه، كما أدفع عن نفسي، ومهتجتي، وذمي، وشعري، وبشري، وحربي، وسلطاني، وأجهز الجنود

إليه ، وأُعيِنَتْهُ عَلَى كُلِّ مَنْ عَشَّهَ وَخَالَفَهُ ، وَلَا أُسْلِمَ لَهُ [ وَلَا أَخَذَ لَهُ ] وَلَا اتَّخَذَ لَهُ عَهْدًا ، وَيَكُونُ أَمْرِي وَأَمْرُهُ فِي ذَلِكَ وَاحِدًا [ أَبَدًا ] مَا كُنْتُ حَيًّا .

وإن حدثت بأمير المؤمنين هرون حَدَثُ الْمَوْتِ ، وَأَنَا وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَوْ أَحَدُنَا ، أَوْ كُنَّا ظَاهِرِينَ عَنْهُ جَمِيعًا : جَمْعَيْنِ كَمَا أَوْ مَفْرَقَيْنِ ، وَلَيْسَ عَبْدُ اللَّهِ بِنُ هُرُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي وِلَايَتِهِ بِخُرَاسَانَ [ فَسَلِّ لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ أُمِيزَ إِلَى خُرَاسَانَ ] وَأَنْ أُسْلِمَ لَهُ وَلَا يَتَنَا بِأَعْمَالِهَا كُلِّهَا وَجُنُودِهَا ، وَلَا أَعُوْقُهُ عَنْهَا ، وَلَا أَحْبِسُهُ قَبِيلًا ، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْبُلْدَانِ دُونَ خُرَاسَانَ ، وَأُعْجَلُ إِشْغَاصَهُ إِلَى خُرَاسَانَ وَإِلَّا عَلَيْهِ مُفْرَدًا بِهَا ، مُفَوَّضًا إِلَيْهِ جَمِيعَ أَعْمَالِهَا كُلِّهَا ، وَأُتَخَصَّصُ مَعَهُ مِنْ ضَمِّ إِلَيْهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ : مِنْ قُوَّادِهِ ، وَجُنُودِهِ ، وَأَمْصَاحِهِ ، وَكُتَّابِهِ ، وَعُمَّالِهِ ، وَمَوَالِيهِ ، وَخَلَمِهِ ، وَمِنْ تَبِعِهِ مِنْ صُنُوفِ النَّاسِ بِأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ؛ وَلَا أَحْبِسُ عَنْهُ أَحَدًا ، وَلَا أَشْرِكُ مَعَهُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا أَحَدًا ، وَلَا أُرْسِلُ أَمِينًا وَلَا كَاتِبًا وَلَا بُنْدَارًا ، وَلَا أَضْرِبُ عَلَى يَدِيهِ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ .

وَأَعْطَيْتُ هُرُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَعَبْدَ اللَّهِ ابْنَ هُرُونَ عَلَى مَا شَرَطْتُ لَهَا عَلَى نَفْسِي ، مِنْ جَمِيعِ مَا سَمِيتُ وَكَتَبْتُ فِي كِتَابِي هَذَا - عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ ، وَذِمَّةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَذِمَّتِي ، وَذِمَّةَ آبَائِي وَذِمَّةَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَشَدُّ مَا أَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَخَلَفِهِ أَجْمَعِينَ : مِنْ عُهُودِهِ وَمَوَاقِفِهِ ، وَالْإِيمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْوَفَاءِ بِهَا ، وَنَهَى عَنْ قَضَائِهَا وَتَبْدِيلِهَا .

فَإِنْ أَنَا تَقَضَّيْتُ شَيْئًا مِمَّا شَرَطْتُ لِهُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَبِمِيتٍ فِي كِتَابِي هَذَا ، أَوْ حَلَلْتُ نَفْسِي أَنْ أَهْضَ شَيْئًا مِمَّا أَنَا عَلَيْهِ ،

أَوْ فَبُرْتُ أَوْ بَدَلْتُ، أَوْ حُلْتُ أَوْ غَدَرْتُ، أَوْ قِلْتُ [ذلك] من أحد من الناس : صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا، بَرًّا أَوْ فَاحِشًا، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، وَجَمَاعَةً أَوْ فَرَادَى - فَبُرْتُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْ وَلَايَتِهِ، وَمِنْ دِينِهِ، وَمِنْ عَهْدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَقِيْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَافِرًا مُثِيرًا. وَكُلُّ أَمْرَاءِ هِيَ الْيَوْمَ لِي أَوْ أَتْرُوجُهَا إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً طَالِقٌ ثَلَاثًا، الْبَتَّةَ، طَلَاقَ الْحَرَجِ، وَصَلَّى الْمُنَى إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ثَلَاثِينَ حُجَّةً : نَذْرًا وَاجِبًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي عُنُقِي، حَافِيًا رَاجِلًا، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنِّي إِلَّا الْوَقَاءَ بِذَلِكَ . وَكُلُّ مَالٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ، أَوْ أَمْلِكُكَ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً حَتَّى بَالِغِ الْكِبَرَةِ الْحَرَامِ . وَكُلُّ مَمْلُوكٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ، أَوْ أَمْلِكُكَ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً أحرارًا لَوْجَهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَكُلُّ مَا جَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَكُتِبَتْهُ وَشَرَطْتُهُ لَهَا، وَحَلَفْتُ عَلَيْهِ، وَتَمَيَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لِإِزْمٍ لِي الْوَقَاءَ بِهِ، لَا أَضْمِرُ غَيْرَهُ، وَلَا أَتَوَى إِلَّا لِيَاءَهُ . فَإِنْ أَضْمَرْتُ أَوْ تَوَيْتُ غَيْرَهُ فَهَذِهِ الْعُقُودُ وَالْمَوَاقِيقُ وَالْأَيْمَانُ كُلُّهَا لِإِزْمَةٍ لِي، وَاجِبَةٌ عَلَيَّ . وَقُوَادُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجُنُودُهُ وَأَهْلُ الْأَقَاتِقِ وَالْأَمْصَارِ فِي حِلٍّ مِنْ خَلْيٍ وَإِنْجَاحٍ مِنْ وَلَايَتِي عَلَيْهِمْ، حَتَّى أَكُونَ مُسَوِّقَةً مِنَ السُّوقِ، وَكَرَّجِلٍ مِنْ عَرْضِ الْمُسْلِمِينَ، لِاحِقٍّ لِي عَلَيْهِمْ، وَلَا وَلَايَةٍ، وَلَا تَبِعَةٍ لِي قَبْلَهُمْ، وَلَا تَبِعَةٍ لِي فِي اعْتَاقِهِمْ، وَهُمْ فِي حِلٍّ مِنَ الْأَيْمَانِ الَّتِي أَعْطَوْنِي، بَرَاءً مِنْ تَبِعَتِهَا وَوَزِيرَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

شَهِدَ سُلَيْمَانُ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورِ، وَعِيسَى بْنُ جَعْفَرٍ، وَجَعْفَرُ بْنُ جَعْفَرٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُهْدِيِّ، وَجَعْفَرُ بْنُ مُوسَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَاسْمُحْتُ بْنُ مُوسَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَاسْمُحْتُ بْنُ عِيسَى بْنِ عَلِيٍّ، وَاجِدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَلِيٍّ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ

جعفر بن سليمان، وعيسى بن صالح بن علي، وداود بن عيسى بن موسى، ويحيى  
 ابن عيسى بن موسى، وداود بن سليمان بن جعفر، وخزيمة بن حازم، وهرثمة بن  
 أعين، ويحيى بن خالد، والفضل بن يحيى، وجعفر بن يحيى، والفضل بن الربيع  
 مولى أمير المؤمنين، والقاسم بن الربيع مولى أمير المؤمنين، ودمانة بن عبد العزيز  
 العنسي، وسليمان بن عبد الله بن الأصم، والربيع بن عبد الله الحارثي، وعبد الرحمن  
 ابن أبي الشمر النسائي، ومحمد بن عبد الرحمن قاضي مكة، وعبد الكريم بن شعيب  
 الحجبي، وإبراهيم بن عبد الله الحجبي، وعبد الله بن شعيب الحجبي، ومحمد بن عبد الله  
 ابن عثمان الحجبي، وإبراهيم بن عبد الرحمن بن نبيه الحجبي، وعبد الواحد بن عبد الله  
 الحجبي، وإسماعيل بن عبد الرحمن بن نبيه الحجبي، وأبان مولى أمير المؤمنين، ومحمد  
 ابن منصور، وإسماعيل بن صبح، والحارث مولى أمير المؤمنين، وخالد مولى  
 أمير المؤمنين .

وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة .



وأما ما كتبه المأمون، فنصه بعد البسملة :

هذا كتاب لعبد الله هرون أمير المؤمنين، كتبه له عبد الله بن هرون أمير المؤمنين،  
 في حجة من قبله، وجواز من أمره، وصديق نية فيما كتب من كتابه، ومعرفة  
 ما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته ولجماعة المسلمين .

إن أمير المؤمنين هرون ولاني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه  
 بعد أبي محمد بن هرون أمير المؤمنين، ولاني في حياته وبعده نرسان وكورها،  
 وجميع أعمالها : من الصدقات والعشير والبريد والطراز وغير ذلك . واشترط لي على

محمد بن أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لي من الخلافة والولاية للعباد والبلاد بعده ،  
 وولايي ثمرسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين ،  
 أو ابتاع لي من الضياع والعقد والدور والرباع ، أو ابتعت منه [لنفسى] من ذلك ،  
 وما أعطاني أمير المؤمنين هرون من الأموال والجواهر والكسا والمتاع والدواب  
 في سبب محاسنته [لأصحابي] ، ولا يتبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أثرا ، ولا يدخل  
 علي ولا علي أحد ممن كان معي ويمني ، ولا عمالي ولا مكابي ، ومن استعنت به من جميع  
 الناس - مكروها : في ديم ، ولا نفس ، ولا شعر ، ولا بشر ، ولا مال ، ولا صغير ،  
 ولا كبير .

فاجابه إلى ذلك وأقر به ، وكتب له به كتابا كتبه على نفسه ورضى به أمير المؤمنين  
 [هرون وقيله وعرف صدق نيته . فشرط لعبيد الله هرون أمير المؤمنين]  
 وجعل له على نفسي أن اسمع لحمد ابن أمير المؤمنين وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصحه  
 ولا أغشه ، وأوقى بيعته ولا يسه ، ولا أغدر ولا أنكث ، وأنفذ كتبه وأمره ،  
 وأحسن مؤازرته ومكافئته ، وأجاهد عدوه في ناحيتي بأحسن جهاد ما وفي لي بما  
 شرط لي ولعبد الله هرون أمير المؤمنين ، وسماء في الكتاب الذي كتبه لأمر المؤمنين  
 ورضى به أمير المؤمنين ، ولم ينقص شيئا من ذلك ، ولم ينقص أمرا من الأمور التي  
 اشترطها لي عليه هرون أمير المؤمنين .

وإن احتاج محمد بن هرون أمير المؤمنين إلى جند وكتب لي يأمرني  
 بأشخاصهم إليه ، أو إلى ناحية من النواحي ، أو إلى صلو من أعدائه خالفه أو أراد  
 نقض شيء من سلطانه وسلطاني الذي أسنده هرون أمير المؤمنين إلينا وولانا -  
 أن أهد أمره ولا أخالفه ، ولا أقصر في شيء كتب به إلي .

وإن أراد محمد بن أمير المؤمنين هرون أن يوثر رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعده، فذلك له ما وثق لي بما جعل لي أمير المؤمنين هرون، واشتد لي عليه، وشروطه على نفسه في أمري، وعلى إيفاد ذلك والوفاء له بذلك، ولا أنقص ذلك ولا غيره، ولا أبطله، ولا أقتم [قبله] أحداً من ولدي، ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين، إلا أن يوثر هرون أمير المؤمنين أحداً من ولده العهد من بعده، فيلزميني الوفاء بذلك.

وجعلت لأمر المؤمنين ومحمد بن أمير المؤمنين على الوفاء بما اشترطت وسميت في كتابي هذا، ما وثق لي محمد بن أمير المؤمنين هرون بجميع ما اشترط لي هرون أمير المؤمنين عليه في قمبي، وما أعطاني أمير المؤمنين هرون من جميع الأشياء المسماة في الكتاب الذي كتبه له. [وعلى] عهد الله تعالى وميثاقه، وذمة أمير المؤمنين، وذمتي، وذمة آبائي، وذمة المؤمنين، وأشد ما أخذ الله عز وجل على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين من عهوده وموائيقه، والأيمان المؤكدة التي أمر الله عز وجل بالوفاء بها.

فإن أنا تقضت شيئاً مما اشترطت وسميت في كتابي هذا له، أو غيرت، أو بطلت، أو نكثت، أو قدرت - فبرئت من الله عز وجل ومن ولايته ومن دينه، ومن عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيت الله سبحانه وتعالى يوم القيامة كافراً مشركاً. وكل امرأة لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق البتة [طلاق] الجرح، وكل مملوك لي اليوم أو أملاكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله تعالى. وعلى المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة، نذراً وإجباً علي وفي عني،

حَافِيًا رَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مَنِّي إِلَّا الْوَفَاءَ بِهِ ، وَكُلُّ مَا لِي هُوَ الْيَوْمَ أَوْ أَمْلِكُهُ  
إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَذِي بِالْبَيْعِ الْكُفْبَةِ . وَكُلَّ مَا جِئْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ  
أَوْ شَرِطْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لَا زِمَ لِي ، لَا أَضْمِرُ غَيْرَهُ وَلَا أَنْوِي سِوَاهُ .

شَهِدَ فَلَانٌ وَفَلَانٌ ، بِأَسْمَاءِ الشُّهُودِ الْمَقْدَمِ ذِكْرَهُمْ فِي كِتَابِ الْأَمِينِ الْمُبْتَدِ بِذِكْرِهِ .  
قَالَ الْأَزْرَقِيُّ : وَلَمْ يَزَلْ هَذَانِ الشَّرْطَانِ مَعْقُودَيْنِ فِي جَوْفِ الْكُفْبَةِ حَتَّى مَاتَ  
هُرُونُ الرَّشِيدِ ، وَبَعْدَ مَا مَاتَ بَسْتَيْنِ فِي خِلَافَةِ الْأَمِينِ . فَكَلَّمَ الْقَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ  
بِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْحُجْبِيِّ فِي إِثْنَانِهِ بِيَمَانِهِمَا ، فَتَزَعَّيَاهُمَا مِنَ الْكُفْبَةِ وَذَهَبَ بِهِمَا إِلَى بَغْدَادَ ،  
فَاخَذَهُمَا الْقَضْلُ نَفَرَهُمَا وَحَرَّقَهُمَا بِالنَّارِ .

قُلْتُ : وَعَلَى تَحْوِيلِ ذَلِكَ كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّبَّاحِيُّ مُوَافَقَةً بِالصُّلْحِ بَيْنَ  
شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ ، وَصَمَّامِ الدَّوْلَةِ وَتَمِيمِ الْمِلَّةِ أَبِي كَالِيجَارَ ،  
أَبْنَى عَضِدِ الدَّوْلَةِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهٍ ، فِي النِّصْفِ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ  
وثلثمائة .

وَنَصَّهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

هَذَا مَا اتَّفَقَ وَأَصْطَلَحَ وَتَعَاهَدَ وَتَعَاقَدَ عَلَيْهِ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ ،  
وَصَمَّامُ الدَّوْلَةِ أَبُو كَالِيجَارَ ابْنَا عَضِدِ الدَّوْلَةِ وَتَمِيمِ الْمِلَّةِ أَبِي تَمِيمِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ  
أَبْنَى عَلِيٍّ ، مَوْلَايَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ لِلَّهِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَأَدَامَ عِزَّهُ وَتَأْيِيدَهُ ،  
وَنَصَرَهُ وَطُؤَهُ وَإِذْنَهُ .

إِنَّمَا وَتَصَالَحَا ، وَتَعَاهَدَا وَتَعَاقَدَا ، عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِثَارِ طَاعَتِهِ ، وَالْإِعْتِصَامِ  
بِحَبْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَالْإِتِّجَاهِ إِلَى حَسَنِ تَوْفِيقِهِ وَمَعُونَتِهِ ، وَالْإِقْرَارِ بِأَنْفَرَادِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ،  
لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا مِثْلَ ، وَلَا ضِدَّ وَلَا نِدْبَ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



آله وسلم تسليماً ، والطاعة لأمر المؤمنين الطائعين لله ، والاكترام بوثائق بيعته ، وعلاقته  
دعوته ، والتوازر على موالاة وليه ، ومعاداة عدوه ؛ وعلى أن يمسكا [ ذات ] بينهما  
بالسير الحميدة ، والسنة الرشيدة ، التي سنها لها السلف الصالح من آباؤها وأجدادها  
في التألف والتوازر ، والتعاضد والتظافر ؛ وتعظيم الأصغر للأكبر ، وإشبال الأكبر  
على الأصغر ؛ والاشتراك في النعم ، والتفاوض في الحلووط والقيم ، والاتحاد بمخلص  
الطوايا ، وانخفايا ؛ وسلامة الخواطر ، وطهارة الضمائر ؛ ورفع ما خالف ذلك من  
أسباب المناقسة ، وجرائر المضاحنة ؛ وجواب النبوة ، ودواعي الفرقة ، والإفزان  
لأعداء النبوة ، والإرضاء لهم ؛ والاجتماع على دفع كل ناجم ، وقمع كل مفسوم ؛  
وازحام أنف كل ضار متجبر ، وإضراج خد كل متطاول مستكبر ؛ حتى يكون  
الموالي لأحدهم منصوباً من جماعتهم ، والمعادى له مقصوداً من سائر جوانبهم ؛  
فلا يجد المُنَادِ على أحدهم مفزعة عند أحد من الباقيين ولا اعتصاماً به ، ولا أفضاء  
إليه ؛ ليكن يكون مرمياً بجمع سباهم ، ومضروباً بأسياق قهمتهم ، ومأخوذاً بكلفة  
بأسهم وقوتهم ، ومقصوداً بغالب نجحتهم وشنتهم ؛ إذ كانت هذه الآداب القويمة ،  
والطرائق السليمة ؛ جارية للنبول مجرى الجن النافعة عنها ، والمعاقل المساعة لها ؛  
ومثلها تظمن النعم وتمسكن ، كما أن بأضدادها تفسد وتفسر .

ولما وفق الله تعالى شرف النبوة وزين الملة أبا القوارس ، وخصصه المنة النبوية  
وتنس الملة أبا كالجار أعقاد هذه الفضائل وإبتارها ، والتظاهر بها وأستشعارها ؛  
ودعاهما مولاها الطائعين لله أمير المؤمنين إلى مادحهما إليه من التعاطف والتألف ،  
والصباي والتخالص ؛ وأمر خصصه المنة النبوية أبا كالجار بمراسلة شرف النبوة

أبي الفوارس في إحتكام معاقِد الأُخوة ، وإبرام وتأييد الألفة - أمثلَ ذلك وأصغى إليه شرف الدولة وزينُ الملة أبو الفوارس : أصغى إليه شرف الدولة إصغاء المستوثق المستصيب ، وهبَّله تقبل العالم اللبيب ؛ وأخذ إلى باب أمير المؤمنين رسوله أبا نصر نرشيد بن ديار بن مافنة بالمعروف من كفايته ، والمشهور من أصطناع الملك السعيد عضد الدولة وتاج الملة رضوان الله عليه له ، وإلتاعه إياه وديعة الإحسان التي يحق عليه أن يساوي في حفظها بين الجهتين ، ويوازي في رعايتها بين كلا الفريقين .

بحرث بين مضمصام الدولة وشمس الملة أبي كالجار وبينه مخاطبات استغزت على أمور أتت المفاوضة عليها ، وأثبت منها في هذه الموصافة ما احتجج إلى إثباته منها [ أمر ] عالم للفريقين ، وقسمان يختص كل واحد منهما بواحد منهما .

فأما الأمر الذي يجمعهما عمومهُ ، ويكتنفهما ثمولهُ ، فهو : أن يتخالص شرف الدولة وزينُ الملة أبو الفوارس ، ومضمصام الدولة وشمس الملة أبو كالجار في ذات بينهما ، ويتصافيا في سرائر قلوبهما ، ويرفضا ما كان جزؤهُ عليهما سفهاء الأتباع : من ترك التواصل ، واستعمال التقاطع ؛ ويرجعا عن وحشة الفرقة ، إلى أنس الألفة ؛ وعن متقصية التنافر والتباخر ، إلى مقببة التبار والتلاطف ؛ فيكون كل واحد منهما مربدا لصاحبه من الصلاح مثل الذي يريده لنفسه ، ومعتقدا في الذب عن بلاده وحُدوده مثل الذي يعتقده في الذب عما يختص به ؛ ومُسرا مثل ما يظهر : من موالاة وليه ، ومُعاداة مدّوه ؛ والمراماة لمن راماه ، والمصافاة لمن صافاه ؛ فان نجم على أحدهما نأجم ، أو راعمه مرأجم ؛ أو هم به حاسد ، أو دلف إليه مُعاند ؛ اتفقا جميعا على مقارعتة قريبا كان أو بعيدا ، وترافنا على مدافعتة : دانيا كان أو قاصيا ؛ وسمح كل منهما لصاحبه عند الحاجة إلى المواساة في ذلك في سائر أحداث الزمان

وَنُوبِهِ ، وَتَصَارِيفِهِ وَغَيْرِهِ ؛ بِمَا يَتَّبِعُ وَيَشْتَمِلُ عَلَيْهِ طَوْفُهُ مِنْ مَالٍ وَعُدَّةٍ ، وَرِجَالٍ وَتَجَدُّدٍ ، وَأَجْنَهَادٍ وَقُدْرَةٍ ، لَا يَقْبَلُ أَحَدٌ مِنْهُمَا عَنْ أُخِيهِ ، وَلَا يُتَخَذَلُ وَلَا يُسَلِّمُهُ ، وَلَا يَتْرُكُ نُصْرَتَهُ ، وَلَا يَنْصَرِفُ عَنْ مُؤَاوَزَتِهِ وَمُظَاهَرَتِهِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تَسْتَحِيلُ بِهَا النَّيَاتُ : مِنْ لِرْغَابٍ مُرْغَبٍ ، وَحِيلَةٍ مُتَحَالٍ ، وَمُحَاوَلَةٍ مُحَاوِلٍ . وَلَا يَقْبَلُ أَحَدُهُمَا مُسْتَأْمِنًا إِلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ صَاحِبِهِ : مِنْ جُنْدِيٍّ ، وَلَا حَامِلٍ ، وَلَا كَاتِبٍ ، وَلَا صَاحِبٍ ، وَلَا مُنْصَرِّفٍ فِي وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ التَّصَرُّفَاتِ كُلِّهَا ، وَلَا يُبْعِدُ عَلَيْهِ هَارِبًا ، وَلَا يَعْصِمُ مِنْهُ مُوَارِبًا ، وَلَا يَتَطَرَفُ لَهُ حَصْدًا ، وَلَا يَتَحَقِّقُهُ حَقًّا ، وَلَا يَهْتِكُ لَهُ حَرِيمًا ، وَلَا يَتَنَاوَلُ مِنْهُ طَوْفًا ، وَلَا يُحَيِّفُ لَهُ سَبِيلًا ، وَلَا يَتَسَبَّبُ إِلَى ذَلِكَ بِسَبَبٍ بَاطِنٍ ، وَلَا بِأَحْشَالٍ ظَاهِرٍ ؛ وَلَا يَدْعُ مُوَأَفَّقَتَهُ ، وَمُلَامَسَتَهُ ، وَمُعَاوَنَتَهُ وَمُقَافَرَتَهُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ ، وَسِرٍّ وَجَهْرٍ ، عَلَى سَائِرِ الْجِهَاتِ ، وَتَصَرُّفِ الْحَالَاتِ ، وَوُجُوهِ التَّوَالِيَاتِ . يَلْتَزِمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ذَلِكَ لِصَاحِبِهِ التَّزَامًا عَلَى التَّمَاكُلِ وَالتَّعَاكُلِ ، وَالتَّوَازِيِ وَالتَّقَابُلِ .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الَّذِي يَخْتَصُّ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ الْمِلَّةِ بِهِ ، وَيَلْقِيهِ مَصْنَعُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ الْمِلَّةُ لَهُ ، فَهُوَ أَنْ يُقَلِّمَهُ مَصْنَعُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ الْمِلَّةُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيُعْطِيَهُ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ لَهُ مِنْ فَضْلِ سِنِّهِ ، وَيُطِيعَهُ فِي كُلِّ مَا أَقَادَ الدَّوْلَةَ ابِلَامَعَةَ لَهَا صَلَاحًا ، وَهَاضَ مِنْ حُدُودِهَا جَنَاحًا ، وَطَادَ عَلَى وَلِيِّهَا يَمْرَ ، وَعَلَى عَدُوِّهَا يَدْلَ ، وَأَنْ يُقِيمَ مَصْنَعُ الدَّوْلَةِ الدَّعْوَةَ عَلَى مَنَازِلِ مَا فِي يَدِهِ مِنْ مَدِينَةِ السَّلَامِ وَسَائِرِ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ ، الَّتِي أَحَاطَتْ بِهَا حُقُوقُهُ ، وَضَرَبَتْ عَلَيْهَا حُدُودُهُ ، لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ لَشَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَبِي الْقَوَارِسِ ، ثُمَّ لِنَفْسِهِ . وَيُجْرَى الْأَمْرُ فِي تَقْيِيسِ سِكَكِ دَوْرِ الضَّرْبِ الَّتِي يُطْبَعُ بِهَا اللَّيْنَارُ وَالذَّرْهَمُ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْبِلَادِ عَلَى الْمِثَالِ . وَيُوقَى مَصْنَعُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ الْمِلَّةُ أَبُو كَالِيَجَارَ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ الْمِلَّةِ أَبَا الْقَوَارِسِ فِي الْمَكَلَبَاتِ

والمخاطبات حقَّ العَظيم ، وشِعَارُ التَّعْظِيمِ ، على التَّقْرِيرِ بينه وبين خَريدِ بنِ ديار  
ابن مَافنة في ذلك .

وأما الأَمْرُ الَّذِي يَخْتَصُّ صَمْعَامُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ المِلَّةُ أَبُو كَالِيجَارَ بِهِ ، وَيَلْتَرِمُهُ  
شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ المِلَّةِ أَبُو الفَوَارِسِ لَهُ ، فَهُوَ تَرْكُ التَّعَرُّضِ لِسَائِرِ مَالِكِهِ ، وَمَا يَتَّصِلُ  
بِهَا مِنْ حُدُودِهَا الجَارِيَةِ مَعَهَا ، وَالْإِفْرَاجُ مِنْهَا عَمَّا يَوَدُّهُ وَيُسْرِعُ إِلَيْهِ أَصْحَابُ  
شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ المِلَّةِ ، وَتَجَنُّبُ التَّحْيِيفِ لَهَا أَوْ لَشَيْءٍ مِنَ الحَقُوقِ الوَاجِبَةِ فِيهَا ،  
وَمُرَاعَاتُهُ فِي الأُمُورِ الَّتِي يَخْتِجُ فِيهَا إِلَى نَظَرِهِ وَطَوْلِهِ ، وَإِجْمَالِهِ وَقُضَايِهِ ، وَمَا يَجِبُ  
عَلَى الأَخِ الأَكْبَرِ مِرَاعَاةَ أَخِيهِ وَتَالِيهِ فِيهِ ، مِمَّا تَبَيَّنَتْ فِي هَذِهِ المَوْاصِفَةِ جُمْلَتُهُ ،  
وَأَشْتَمَلَتْ المَفَاوِضَةُ مَعَ خُورَشِيدِ بْنِ دِيَارِ بْنِ مَافَنَةَ عَلَى تَحْصِيلِهِ .

أَتَّفَقَ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ المِلَّةِ أَبُو الفَوَارِسِ ، وَصَمْعَامُ الدَّوْلَةِ وَتَمَسُّ المِلَّةُ  
أَبُو كَالِيجَارَ ، بِأَمْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ لَهُ ، وَعَلَى الأَخْيَارِ مِنْهُمَا ، وَالْأَنْشِرَاجِ مِنْ  
صُدُورِهِمَا ، مِنْ غَيْرِ إِكْرَاهٍ وَلَا إِجْبَارٍ ، وَلَا أَصْطِيارٍ وَلَا أَصْطِرَارٍ - عَلَى الرِّضَا بِذَلِكَ  
كُلَّهُ ، وَالْإِكْتِرَاعِ لَهُ ، وَيَصِيرُ جَمِيعُهُ عَهْدًا مَرْجُوعًا إِلَيْهِ ، وَعَقْدًا مَعْمُولًا عَلَيْهِ ، وَحَقًّا  
كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى مَا يَلْتَرِمُهُ مِنْ ذَلِكَ يَمِينًا عَقْدَهَا بِأَنْ يَحْلِفَ صَاحِبُهَا بِمَثَلِهَا ، عَلَى مَا يَلْتَرِمُهُ  
مِنْهُ . فَقَالَ صَمْعَامُ الدَّوْلَةِ : وَاقِهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (وَيَسْتَمِ الْيَمِينُ) .

## النوع الثاني

( مما يجرى عقد الصلح فيه بين ملكين مسلمين -

ما يكون العقد فيه من جانب واحد )

والكتاب فيه مذهبان :

## المذهب الأول

( أن يفتح عقد الصلح بلفظ : « هذا » كما في النوع السابق )

وهذه نسخة عقد صلح من ذلك ، كتب بها أبو إسحق الصاهي ، بين الوزير أبي نصر سابور بن أزدشير ، والشريفيين : أبي أحمد الحسين بن موسى ، وأبي الحسن محمد ابنه الرضي ، بما انعقد من الصلح والصح بين الوزير المذكور ، وبين القبيص أبي أحمد الحسين وولده محمد ، حين تزوج ابنه محمد المذكور بنت سابور المذكور ، وجعله على نسختين ، لكل جانب نسخة ، بعد البسملة ماضورة :

هذا كتاب لسابور بن أزدشير ، كتبه له الحسين بن موسى الموسوي ، وولده محمد بن الحسين الموسوي .

إنا وإنا - عند ما وصله الله بيننا من الصهر والخلطة ، ونحبه من الحال والمودة - آثرنا أن ينقذ بيننا وبينك ميثاق مؤدد ، وعهد مجدد ، تسكن النفوس إليهما ، وتطمئن القلوب معهما ، وتزداد الألفة بهما على مر الأيام ، وتعاقب الأعوام ؛ ويكون ذلك أصلاً مستقراً نرجع جميعاً إليه ، ونعول ونعتمد عليه ، وتتوارثه أعتابنا ، ونبتغي فيه أخلاقنا .

فأعطيناك عهد الله وميثاقه ، وما أخذته على أنبيائه المرسلين ، وملائكته المقربين ، صلى الله عليهم أجمعين ؛ عن صندوق منشريحه ، وآمال في الصلاح منفسحه - أنا

تُخْلِصُ لَكَ جَمِيعًا وَكُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا إِخْلَاصًا صَحِيحًا يُسَاكِلُ ظَاهِرُهُ بَاطِنَهُ ، وَيُوَافِقُ خَافِيَهُ ظَالِمَهُ ؛ وَأَنَا تَوَالِي أَوْلِيَاكَ ، وَتُعَادِي أَعْدَاكَ ؛ وَتَصِلُ مِن وَصْلِكَ ، وَتَقْطَعُ مِن قَطْعِكَ ، وَتَكُونُ مَعَكَ فِي تَوَائِبِ الزَّمَانِ وَشِدَائِيهِ ، وَفِي فَوَائِيهِ وَعَوَائِيهِ ؛ وَصَمْنَا لَكَ صَمَانًا شَهِدَ اللَّهُ بِلُزُومِهِ لَنَا ، وَوَجُوبِهِ عَلَيْنَا . وَأَنَا نَصُوءُ الْكَرَمَةَ عَلَيْنَا ، الْأَمِيرَةَ عِنْدَنَا ، فَلَانَةَ بِنْتُ فَلَانٍ - أَحَدَامُ اللَّهِ عِزَّهَا - الْمُتَقَلَّةُ إِلَيْنَا ؛ كَمَا تَصَانُ الْعُيُونُ بِجُفُونِهَا ، وَالْقُلُوبُ بِسِغَا فِيهَا ؛ وَتُجْرِبُهَا تَجْرِي كَرَامِ حَرَمِنَا ، وَنَقَائِسُ بَنَاتِنَا ، وَمِنْ تَضَمُّهِ مَنَازِلُنَا وَأَوْطَانِنَا ؛ وَتَنْتَهِئُ فِي إِجْلَالِهَا وَإِعْظَامِهَا ، وَالتَّوَسُّعَةِ عَلَيْهَا فِي مَرَائِدِ عَيْشِهَا ، وَعَوَارِضِ أَوْطَارِهَا ، وَسَائِرِ مَوْثِقِهَا وَمُؤَنِ أَسْبَابِهَا ، وَالتَّهَوُّضِ وَالْوَقَاءِ بِالْحَقِّ الَّذِي أَوْجِبَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا لَهَا وَلِكِ فِيهَا ؛ فَلَا تُعَدِّمُ شَيْئًا أَلْفَتْهُ : مِنْ إِشْبَالِ عَلَيْهَا ، وَإِحْسَانِ إِلَيْهَا ، وَذَبِّ عَنْهَا ، وَغَمَامَةِ دُونِهَا ، وَتَعَهُّدِ أَسَارِهَا ، وَتَوَخُّعِ لَهَا بِهَا ؛ وَتَكُونُ جَمِيعًا وَكُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا مُقِيمِينَ لَكَ وَلَهَا عَلَى جَمِيعِ مَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ فِي حَيَاتِكَ - أَطَالَهَا اللَّهُ - وَبَعْدَ الْوَفَاةِ إِنْ تَقَدَّمَتْنَا ، وَخُوشِيَتَ مِنَ السُّوءِ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ، وَأَحْوَالِكَ أَجْمَعِهَا .

ثُمَّ إِنَا نَقُولُ - وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا ، طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ ، غَيْرِ مُكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ، بَعْدَ تِمَامِ هَذَا الْعَقْدِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، وَلِزُومِهِ لَنَا وَلَكَ - : وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الطَّالِبُ الْغَالِبُ ، الْمَذْكُورُ الْمُهْلِكُ ، الضَّارُّ النَّافِعُ ، الْمُطْلِعُ عَلَى السَّرَائِرِ ، الْمُحِيطُ بِمَا فِي الضَّمَائِرِ ، الَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ . وَحَقَّ عَهْدُ النَّبِيِّ ، وَطَى الرِّضَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ وَشَرَّفَ ذِكْرُهُمَا ، وَوَسَّادَتِنَا الْأُمَمِ الطَّيِّبِينَ ، الطَّاهِرِينَ ، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ . وَحَقَّ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ، وَمَا أُنْزِلَ فِيهِ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَحْرِيمٍ ؛ وَوَعْدُ وَوَعِيدٍ ، وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيْبٍ ؛ لَعْنَتَيْنِ لَكَ يَا سَابُورُ بْنُ أَرْذَشِيرَ ، وَالْكَرِيمَةِ الْأَمِيرَةِ أَبْنَتِكَ فَلَانَةَ - أَحْسَنُ اللَّهُ رِعَايَتَهَا - بِجَمِيعِ مَا تَضَمَّنَتْ هَذَا الْكِتَابُ ، وَفَاءً صَحِيحًا ، وَلَقْدَرَمَنَّا لَكَ وَلَهَا شَرَائِطُهُ وَوَتَائِقُهُ ، فَلَا تَنْسَخُهَا ، وَلَا تَنْقُضُهَا ،

ولا تتبعها، ولا تشعبها، ولا تأول فيها، ولا تزول عنها، ولا تغمس حرجاً ولا غلصاً  
 . منها، حتى يجمع الموقوف بين يدي الله، والمقدم على رحمة الله، ونحن يومئذ ثابتان  
 عليها، ومؤيدان للأمانة فيها، أداء يشهد الله تعالى به وملائكته يوم يقوم الأشهاد،  
 ويحاسب العباد. فإن نحن أخطأنا بذلك أو شئنا منه، أو تأولنا فيه أو في شيء منه،  
 أو أضمرنا خلاف ما نظهر، أو أمرنا ضد ما نعلن، أو ألتبسنا طريقاً إلى تقضيه،  
 أو سببلاً إلى فساده، أو ألتبنا بإخفائهم من ذمهم، أو أتهكك حرمة من حرمة،  
 أو حل عصية من عصية، أو إبطال شرط من شروطه، أو تجاوز حد من  
 حدوده - فالذي يفعل ذلك منا يوم يقوله أو يعتقده، وحين يدخل فيه ويستحييه -  
 يرى من الله جل ثناؤه، ومن نبوة رسوله محمد، ومن ولاية أمير المؤمنين علي بن  
 أبي طالب صلى الله عليهما وسلم، ومن القرآن الحكيم العظيم، ومن دين الله الصحيح  
 القيم، ولقي الله يوم العرض عليه، والوقوف بين يديه، وهو به - سبحانه -  
 مشرك، ولرسوله صلى الله عليه وسلم مخالف، ولأهل بيته معادي، ولأعدائهم مؤال؛  
 وعليه الحرج إلى بيت الله الحرام العتيق الذي بمكة: راجلاً، حافياً، حاسراً، وإماؤه  
 عواتق، وبساؤه طوائق، طلاق الحرج والسنة، لا رجعة فيه ولا مشنوية، وأمواله  
 - على اختلاف أصنافها - محرمة عليه، وخارجة عن يديه، وحبيسة في سبيل الله  
 وبراه الله من حوله وقوته، وأجلاه إلى حوله وقوته .

وهذه العين لازمة لنا، وقد أطلق كل واحد منا بها لسانه، وعقد عليها ضميره،  
 والنية في جميعها نية فلان بن فلان، لا يقبل الله من كل واحد منا إلا الوفاء بها،  
 والثبات عليها، والألتزام بشروطها، والوقوف على حدودها، وكفى بالله شديداً،  
 وجازياً لعباده ومثيباً. وذلك في يوم كذا، من شهر كذا، من سنة كذا .

## المذهب الثاني

( أن يُفْتَحَ عَقْدُ الصُّلْحِ بِمُحْطَبَةٍ مُفْتَتَحَةٍ بِ«الْحَمْدُ لِلَّهِ» وَرُبَّمَا كُرِّرَ فِيهَا  
التَّحْمِيدُ إِعْلَامًا بِعَظِيمِ مَوْجِعِ النِّعْمَةِ )

وهذه نُسخةُ عَقْدِ صُلْحِ كُتِبَ بِهَا أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ بَعْضِ الْأُمَرَاءِ  
(١) ... ..  
لمن كان ...

ونصّها على ما ذكره في "كتاب البلاغة" في الترميل، بعد البسملة :

الحمد لله الذي خلق العباد بقدرته ، وكَوَّنَ الْأُمُورَ بِحُكْمِهِ ، وصَرَّفَهَا عَلَى إِرَادَتِهِ .  
لم يَلْطَفْ عَنْهُ خَفِيَ ، ولا أَمْتَعَ عَنْهُ قَوِي ؛ أَسْتَدَعَ الْخَلَائِقَ عَلَى اخْتِلَافِ فِطْرِهَا ،  
وَتَبَيَّنَ صُورِهَا ، من غير مثَالٍ أَحْتَذَاهُ ، ولا رَمِيمٍ آفَتْهَاهُ ؛ وَأَيَّدَهُمُ بِنِعْمَتِهِ ، فيما رَكِبَهُ  
فيهم من الْأَدَوَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ ، النَّاظِقَةِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ؛ وَأَكْتَفَوْا بِالْمَعْرِفَةِ بِهِ  
- جَلَّ جَلَالُهُ - بِخَبَرِ الْعُقُولِ ، وشَهَادَةِ الْأَفْهَامِ . ثم أَسْتَظْهَرَهُمْ فِي التَّبَصُّرِ ، وَغُلِبَهُمُ  
فِي الْحُجَّةِ ؛ بِرُسُلٍ أَرْسَلَهَا ، وآيَاتٍ بَيَّنَّهَا ؛ وَمَعَالِمٍ أَوْصَحَّهَا ، وَمَنَارَاتٍ لِمَسَالِكِ الْحَقِّ  
رَفَعَهَا ؛ وَشَرَعَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا وَارْتِضَاهُ وَأَصْطِفَاهُ ، وَفَضَّلَهُ وَأَحْتَبَاهُ ، وَشَرَّفَهُ  
وَأَعْلَاهُ ؛ وَجَعَلَهُ مُهَيْمِنًا عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَقَدَّرَ الْعِزَّ لِحُزْبِهِ وَأَهْلِهِ ؛ فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ :  
(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)  
وَأَيَّدَهُ بِأَنْبِيَائِهِ الدَّاعِينَ إِلَيْهِ ، وَالنَّاهِيينَ لَطُرُقِهِ ، وَالْمَهَادِينَ لِبَفَرَائِضِهِ ، وَالْمُخْبِرِينَ عَنْ  
شَرَائِعِهِ ؛ قَرْنَا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَأُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ ، فِي قَرَّةٍ بَعْدَ قَرَّةٍ ، وَبَيْنَةٍ بَعْدَ بَيْنَةٍ ؛ حَتَّى  
أَتَمَّ بِتَقْدِيرِهِ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَنْ يَبْعَثَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ، الْفَاضِلَ الزَّكِيَّ ؛ الَّذِي قَبَّيْ بِهِ  
عَلَى الرُّسُلِ ، وَتَسَخَّرَ بِشَرِيعَتِهِ شَرَائِعَ الْمَلَلِ ، وَبَيَّنَّ بِهِ أَذْيَانَ الْأُمَمِ ؛ عَلَى حِينِ تَرَانِي



قَرَّه ، وَرَأَى حَبْرَهُ ، فَأَبَاحَ بِهِ نِيرَانَ الْفَتَنِ بَعْدَ اضْطِرَامِهَا ، وَأَضَاءَ بِهِ سُبُلَ الرَّشَادِ بَعْدَ إِظْلَامِهَا ، عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - بِمَا وَجَدَهُ عِنْدَهُ مِنَ الْتَوَهُُّصِ بِأَعْيَاءِ الرِّسَالَةِ ، وَالْقِيَامِ بِإِدَاءِ الْأَمَانَةِ ، فَأَزَاحَ بِذَلِكَ الْعِلَّةَ ، وَقَطَعَ الْمَعْذِرَةَ ؛ وَلَمْ يَبْقِ لِلشَّائِكِ مَوْضِعَ شُبْهَةٍ ، وَلَا لِلْعَانِدِ دَعْوَى مُمَوَّهَةٍ ؛ حَتَّى مَضَى حَيِّدًا تَشْهَدُ لَهُ آثَارُهُ ، وَتَهْوُمُ بِتَأْيِيدِ سُلَّتَنَةِ أَخْبَارِهِ ، قَدْ خَلَفَ فِي أَمْنِهِ ، مَا أَصَارَهُمْ بِهِ إِلَى عَطْفِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَالنَّجَاةِ مِنْ عِقَابِهِ وَمُخْطَطِهِ ، إِلَّا مَنْ شَقِيَ بِسُوءِ اخْتِيَارِهِ ، وَحُرِمَ الرَّشَادَ بِخِذْلَانِهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ أَفْضَلَ صَلَاةٍ وَأَتَمَّهَا ، وَأَوْفَاهَا وَأَعَمَّهَا .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَصَّ سَيِّدَنَا الْأَمِيرَ بِالتَّوْفِيقِ ، وَتَوَحَّدَهُ بِالْإِزْشَادِ وَالنَّسِيلِيدِ ؛ فِي جَمِيعِ أَنْحَائِهِ ، وَمَوَاقِعِ آرَائِهِ ، وَجَمَلِ هِمَّتِهِ (إِذْ كَانَتْ الْهِمْمُ مُنْصَرِفَةً إِلَى هَشِيمِ الدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا ، الَّتِي يَحْتَلُّ بِهَا الْأَبْنَاءُ وَتَدْعُوهُمَا إِلَى نَفْسِهَا ) ، مَقْصُورَةً عَلَى مَا يَجِبُ لَهُ رِضَا رَبِّهِ ، وَسَلَامَةً دِينِهِ ، وَأَسْتِقَامَةً أُمُورِ مَمْلَكَتِهِ ، وَصَلَاحَ أحوَالِ رِعِيَّتِهِ ، وَأَيْدَهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ الْمَعَارِضِ ، وَالشُّبْهَةِ الْوَاقِعَةِ ؛ الَّتِي تَحَارُّ فِي مِثْلِهَا الْآرَاءُ ، وَتَضْطَرِبُ الْأَهْوَاءُ ، وَتَنْتَازِعُ خَوَاطِرُ النُّفُوسِ ، وَتَفْتَلِحُ وَسَاوِسُ الصُّنْدُورِ ؛ وَيَخْفَى مَوْضِعُ الصُّوَابِ ، وَيُشْكَلُ مَنَهِجُ الصَّلَاحِ - بِمَا اخْتَارَ لَهُ مِنَ السَّلْمِ وَالْمُوَادَعَةِ ، وَالصُّلْحِ وَالْمُوَادَّةِ ، الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَلَى قَضَائِهِ ، وَالْخَيْرِ الَّذِي فِي ضَمْنِهِ ، بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ : ( وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ) وَقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : ( وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ) حَتَّى أَصْبَحَ السَّيْفُ مَغْمُودًا ، وَرِوَاقُ الْإِيمَنِ مَمْنُونًا ، وَالْأَهْوَاءُ مُتَّفَقَةً ، وَالْقُلُوبُ مُؤْتَفَقَةً ، وَالْكَلِمَةُ مُجْتَمِعَةً ؛ وَفِرَانُ الْفَتَنِ وَالضَّلَالَةِ خَامِتَةً ، وَظُنُونُ بَنَاتِهَا وَالسَّامِعِينَ لَهَا كَاذِبَةً ، وَطَبَقَاتُ الْأَوْلِيَاءِ وَالرَّعِيَّةِ - بِمَا أُعِيدَ إِلَيْهِمْ مِنْ

الْأَمَّةِ تُعَقِّبُ الْخَلِيفَةَ، وَالْأَنْسَاءَ مِنْ بَعْدِ الْوَحْشَةِ - مُسْتَشِيرَةً؛ وَإِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ -  
 فِي إِطَالَةِ بَقَاءِ الْأَمِيرِ وَإِدَامَةِ دَوْلَتِهِ، وَحِرَاسَةِ نِعْمَتِهِ وَتَلْقِيَةِ وَطْأَتِهِ - رَاضِينَ،  
 وَفِي مُسَالَمَتِهِ مُخْلِصِينَ. وَلَوْ لَمْ يَكُنِ السَّلَامُ فِي كِتَابِ اللَّهِ بَأَمْرًا بِهِ، وَالصُّلْحُ خَيْرًا عَنْ  
 الْخَيْرِ الَّذِي فِيهِ؛ لَكَانَ فِيمَا يَنْتَظِمُ بِهِ: مِنْ حَقِّ الدَّمَاءِ، وَسُكُونِ الدِّهْمَاءِ؛ وَيَجْمَعُ  
 مِنْ الْخِلَالِ الْمَحْمُودَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَمْدُودَةِ، الْمُقْسَمُ ذِكْرُهَا - مَحَدًا عَلَيْهِ، وَمِثْلُ  
 لِلْعُقُولِ السَّالِمَةِ وَالْأَرْوَاحِ الصَّحِيحَةِ مَوْضِعُ الْخَيْرِ فِيهِ، وَحُسْنُ الْعَائِدَةِ عَلَى الْخَاصِّ  
 وَالْعَامِّ بِهِ؛ فِيمَا يَحْتَمِلُ لِلْعِيُونِ، مِنْ مَشْتَبِهَاتِ الظُّنُونِ، إِذِ الدِّينُ وَاقِعٌ، وَالشُّكُّ جَانِحٌ  
 بَيْنَ الْحَقِّ وَالْمُبْطَلِ، وَالْجَائِزِ وَالْمُقْسِطِ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ شَأْؤُهُ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ  
 مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَغَوْهُمْ فِتْنَتِيكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَيْنِي وَهُمْ﴾ نَاطِلًا  
 لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ مَعَرَّةٍ أَوْ مَضَرَّةٍ تَلْحَقُ بِبَعْضِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ وَمُؤَثِّرًا تَطْهِيرِهِمْ مِنْ ظَنِّ  
 الْعُدُونِ، مَعَ رَفْعِهِ عَنْهُمْ قَرَّطَاتِ النَّسْيَانِ، وَكَفَّ أَيْدِيَ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْمَشْرُوكِينَ،  
 كَمَا كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ؛ تَحَنُّنًا عَلَى بَرِيَّتِهِ، وَإِقْبَاءً عَلَى أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ؛ إِلَى أَنْ  
 يَتِمَّ لَهُمُ الْمَبَقَاتُ الَّتِي أَدْنَاهَا، وَالْأَمْرُ الَّذِي أَمْضَاهَا، وَمَوْقِعُ الْحَدِّ فِي عَاقِبَتِهِ، وَالسَّلَامَةُ  
 فِي خَاتِمَتِهِ. وَبَلَّغَهُمْ مِنْ غَايَةِ الْبَقَاءِ أَمَدَهَا، وَمِنْ مَرَاتِقِ الْعَيْشِ أَرْغَدَهَا، مَقْصُورَةً  
 أَيْدِي النَّوَابِغِ عَمَّا حَوَّلَهُ، وَمَعْصُومَةً أَعْيُنُ الْحَوَادِثِ عَمَّا تَوَلَّاهُ؛ لِأَنَّهُ جَوَادٌ مَاجِدٌ.

قُلْتُ: وَعَلَى هَذَا الْمُنْهَبِ كُتِبَ عَقِبُ الصُّلْحِ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ  
 أَبِي السَّعَادَاتِ «فَرَج» بْنِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَرْقُوق»، وَبَيْنَ الْمَقَامِ النَّزِيفِ  
 النَّظْمِيِّ يَمُورُ كُورَكَانَ صَاحِبِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ، بَعْدَ طُرُوقِهِ الشَّامِ وَفَتْحِهِ دِمَشْقَ  
 وَتَحْرِيقِهَا وَتَحْرِيقِهَا، وَإِرْسَالِ كِتَابِهِ فِي مَعْنَى طَلِبِ الصُّلْحِ، وَإِرْسَالِ الْأَمِيرِ أَطْلَشَ  
 لِزِمِهِ، الْمَأْسُورِ فِي التَّوَلَّى الظَّاهِرِيَّةِ «بَرْقُوق» حُجْبَةِ الْخَوَاجَا نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ  
 الْكَجَجَانِي، جُهِّزَ ذَلِكَ إِلَيْهِ قَرْنٌ كِتَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ مُنْجَبَةً الْخَوَاجَا

مسعود المذكور، والأمير شهاب الدين بن أغلبك، والأمير قانيه، في جمادى الأولى سنة خمس وثمانمائة، بإشارة المقر الفتحى صاحب ديوان الإنشاء الشريف، من إنشاء الشيخ زين الدين طاهر، ابن الشيخ بدر الدين حبيب الحلبي، أحد كتّاب الدست الشريف بالأبواب السلطانية، وهو مكتوب في قطع<sup>(١)</sup> ... بقلم<sup>(١)</sup> ... وفى طرته ما صورته :

« مرقوم شريف جليل عظيم، مجلّ معكّم جليل نظيم، مشتمل على عقد ضريح آتنتحه المقام الشريف، العالى، القطبي، نصره الدين، تيمور كوركان، زيدت عظمته، يكون بينه وبين المقام الشريف، السلطان، المالك، الملك الناصر أبى السعادات « فرج » بن السلطان الشهيد، الملك الظاهر أبى سعيد « بروق » خادم الحرمين الشريفين، خلّد الله تعالى ملكه . أنقذ بمباشرة السفير عن المقام الشريف القطبي، المشار إليه ووكيله فى ذلك، الخواجا نظام الدين مسعود الكججاني، بشهادة من حضر شخصته من العلوى بالتوكيل المذكور، على حكم إشاره مرسله إليه ومضمون مكاتبتيه، وقصده تجهيز الأمير أطمش لزمه . وحلف المقام القطبي على الموافاة والمصافاة، واتحاد المملكيتين، وإجراء الأمور على السداد، وعمل مصالح العباد والبلاد . »

والياض ثلاثة أوصال بوصل الطرة، والبسملة فى أول الوصل الرابع بهامش عن يمينها، وتمت البسملة سطر، ثم يت العلامة، والسطر الثانى بعد يت العلامة . والعلامة بجيل التلث بالذهب ما صورته : « الله ألى » .

وَتُسَعَّدُ الْمَكْتُوبُ بِعَدِ الْيَسْمَلَةِ مَا صُوِّرَتْهُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الصُّلْحَ خَيْرَ مَا انْعَقَدَتْ عَلَيْهِ الْمَصَالِحُ ، وَالْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ  
أَوَّلَى مَا انْتَصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الْمَنَاجِحِ ، وَأَحَقُّ مَا نَطَقَتْ بِهِ أَلْسُنُ الْحَامِدِ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ  
أَفْوَاهُ الْمَدَائِحِ .

تَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَمَعَتْ أَشْتَاتَ الْقُلُوبِ الطَّوَائِحِ ، وَأَضَافَتْ إِلَى ضِيَاءِ الشَّمْسِ  
نُورَ الْقَمَرِ فَاهْتَدَىٰ بِهَا كُلُّ غَايٍ وَرَائِحٍ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ  
شَهَادَةً تَبْلُغُ قَائِلَهَا أَهْقَى الْمَنَاجِحِ ، وَتَنْعَطِرُ بِجَالِسِ الذِّكْرِ بِعَرَفِ رَوَائِحِهَا الرُّوَائِحِ ، وَنَشْهَدُ  
أَنَّ عَمَدًا جَبْدَهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ مِنْ آخَى بَيْنَ الْمُتَحَاكِينَ فَنُصَحَ اللَّهُ وَرَأَى الصُّلْحَ مِنْ  
أَعْظَمِ النَّصَائِحِ ، وَأَكْبَلَ رَسُولُ أَقْدَارَتِ لَأَخْلَافِهِ الرُّضِيَّةَ ، وَصِفَاتِهِ الْمُرِضِيَّةَ ، جَوَانِحِ  
النُّفُوسِ الْجَوَانِحِ ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوَّلَى مَا أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ آرَاءُ أَوْلَى الْأَثْبَابِ ، وَرَكَعَتْ إِلَيْهِ قُلُوبُ ذَوِي  
الْمَعْرِفَةِ مِنْ أَهْلِ الْمَوَدَّةِ وَالْأَحْبَابِ - ائْتِلَافُ الْقُلُوبِ بَعْدَ اخْتِلَافِهَا ، وَأَنْصَافُهَا  
بِالتَّائِيَسِ بِأَحْسَنِ أَوْصَافِهَا ، وَالْعَمَلُ عَلَى الصُّلْحِ الَّذِي هُوَ أَصْلَحُ لِلنَّاسِ ، وَأَزْجَرُ  
مَتَاجِرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَدْفَعُ لِلْيَأْسِ وَالْبَاسِ ؛ إِذْ هُوَ مُفْتَاخُ أَبْوَابِ الْخَيْرَاتِ الشَّامِلَةِ ،  
وَمُضْبِاحُ مَتَاجِرِ الْفِكَرِ الصَّحِيحَةِ الْكَامِلَةِ ؛ وَالِدَّاعِي إِلَى كُلِّ فِعْلٍ جَمِيلٍ ، وَالسَّاعِي  
بِكُلِّ قَوْلٍ هُوَ شِفَاءُ صَدَى الْغَلِيلِ وَنَجَاةٌ مِنْ دَاءِ الْعَلِيلِ .

وَلَمَّا كَانَ الْمَقَامُ الْفَرِيفُ ، الْعَالِي ، الْكَبِيرُ ، الْعَالِي ، الْعَالِي ، الْمُوَيْدِيُّ ،  
الْمُظْفَرِيُّ ، الْمُنَجِّئِيُّ ، الْمَلَاذِي ، الْوَالِدِيُّ ، الْقُطْبِيُّ ؛ نُصْرَةُ الدِّينِ ، مَلْجَأُ الْفَاصِدِينَ ،  
مِلَادُ الْعَايِدِينَ ، قُطْبُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، يَتِمُّوْرُ كَوْرُكَانٍ ، زِيدَتْ عَظَمَتُهُ -  
هُوَ الْبَادِي بِأَحْيَاءِ هَذِهِ السَّنَةِ الْحَسَنَةِ ، وَالْحَادِي إِلَى الْعَمَلِ بِمَقَاصِدِهِ الشَّرِيفَةِ

التي هي لذلك مُتَضَمِّنَةٌ ، الْوَارِدَةَ إِلَى حَضْرَةِ عَبْدِ اللَّهِ وَوَلِيِّهِ ، السُّلْطَانِ الْمَالِكِ ،  
الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، زَيْنِ الدُّنْيَا وَالِدَيْنِ ، أَبِي السَّعَادَاتِ « فَرَج » بْنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ  
الْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، أَبِي سَعِيدٍ « بَرْقُوق » خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى  
مُلْكَهُ - عَلَى يَدِ سَفِيرِ حَضْرَتِهِ ، الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ ، الشَّيْخِي ، النَّظَائِي ، مَسْعُودِ  
الْكَبْجَانِي ، الْمَوْرُخَةِ بِمُسْتَهْلِ شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ سَنَةِ تَارِيخِهِ .

وَجُلٌّ مَضْمُونُهَا ، وَسُرٌّ مَكْنُونُهَا - قَصْدُ إِقْبَاعِ الصُّلْحِ الشَّرِيفِ بَيْنَ الْمَشَارِ  
الِهِمَا ، وَتَسْخُجِ الْمَوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْمُصَادَقَةِ بَيْنَهُمَا ، وَإِسْبَالِ رِذَاءِ تَحَامُّسِنِهَا عَلَيْهِمَا ؛  
بِمَقْضَى تَقْوِيضِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ الْأَمْرِ فِي الصُّلْحِ الْمَذْكُورِ إِلَى  
الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ الْمَذْكُورِ ، وَتَوْكِيلِهِ إِيَّاهُ فِيهِ ، وَإِقَامَتِهِ مَقَامَ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ ،  
وَجَمَلِ قَوْلِهِ مِنْ قَوْلِهِ ، وَأَنَّهُ - عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى شَأْنَهُ - أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ الْعَظِيمَ عَلَيْهِ ذَلِكَ ،  
وَأَشْهَدُ عَلَيْهِ مِنْ يَضَعُ خَطْلَهُ مِنْ جَمَاعَتِهِ الْمُجَهِّزِينَ صُحْبَةَ الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ  
الْمَذْكُورِ ، وَهُمَا : الشَّيْخُ بَدْرُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ شَيْخِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ  
الْجَزَيْرِيِّ الشَّافِعِيِّ ، وَالصَّبْرُ الْأَجَلُ كَالِ الدِّينِ كَالِ أَغَا ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ صَدَرَ عَنِ الْمَقَامِ  
الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، لِمُؤَاقَفَتِهِ عَلَى الصُّلْحِ الشَّرِيفِ ، وَإِجَابَةِ الْقَصْدِ فِيهِ  
بِإِطْلَاقِ الْأَمِيرِ أُلْمُوشِ لِمِ الْمَقَامِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَتَجْهِيزِهِ إِلَى حَضْرَتِهِ الْعَالِيَةِ ؛  
وَأَنَّهُ عَاهَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِحُضُورِ جَمِّ غَفِيرٍ مِنْ أَمْرَاءِ دَوْلَتِهِ وَأَكْبَرِيهَا ، وَمِنْ حَضَرَ  
بِمَجْلِسِهِ ، بِالْمَعِينِ الشَّرْعِيَةِ الْجَامِعَةِ لِأَسْتِنَاتِ الْحَلْفِ : بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْبَرِيَّةِ  
وَبَارِئُ النَّسَمِ ، عَلَى ذَلِكَ جَمِيعِهِ ، وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ إِلَى الْبِلَادِ الدَّاخِلَةِ فِي مَمْلَكَتِهِ  
مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ مَهْمَا عَاهَدَ وَصَالَحَ وَعَاقَدَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ  
نِظَامُ الدِّينِ مَسْعُودُ الْوَيْكِلِ الْمَذْكُورُ يَقْضَى بِهِ الْمَقَامُ الْقُطْبِيُّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَيُخْضِعُ  
وَيَرْقُضِيهِ . وَأَنْفَصَلَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ .

فعند ما وقف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - على المكتبة الشريفة المشار إليها، وفهم مضمونها، ورأى أن المصلحة في الصلح: بركاتها بما ورد في كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - استخار الله عز وجل، وأمر بتجهيز الأمير أطمش المذكور، وتسليمه للشيخ نظام الدين مسعود المذكور، وأذن لها في التوجه إلى حضرة المقام الشريف القطبي المشار إليه: بموافقة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله - أدام الله تعالى أيامه - على ذلك، وحضور الشيخ الإمام الفرد الأوحى، شيخ الإسلام، سراج الدين، عمر البلقيني - أعاد الله تعالى على المسلمين من بركاته - وقضاة القضاة الحكام - أعز الله تعالى أحكامهم - ومشايخ العلم الشريف والصلاح، وأركان الدولة الشريفة، ومن يضع خطه في هذا الصلح الشريف بالشهادة بمضمونه .

وعقد الصلح الشريف بين مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - وبين الشيخ نظام الدين مسعود الوكيل المذكور عن المقام الشريف القطبي المشار إليه - زينت عظمته - على حكم مضمون مفاوضته الشريفة المقدم ذكرها، وما قامت به الهيئة الشرعية، بشهادة العدلين المذكورين الواصلين محبة الوكيل المذكور بالتوكيل المشروع فيه . فكان صلحا صحيحا شرعيا، تاما كاملا معتبرا مرضيا، على أحسن الأمور وأجملها، وأفضل الأحوال وأكملها .

وحلف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - وعاهد الله عز وجل نظيره ما حلف وعاهد عليه المقام الشريف القطبي المشار إليه من القول والعمل؛ واستقرت بمشيئة الله تعالى الأحوال، وسرت القلوب وقرت النواظر، بما في ذلك من حفظ دماء المهود الشريفه، وإقامة منار الشريفة وأمتداد

ظلالِ أعلامِهِ الْوَرْدِيهِ ؛ وإِجْرَاءِ كَلِمَةِ الصَّدِّيقِ ، عَلَى لِسَانِ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَصَوْنِ  
أَمَانَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَشِعَارِ دِينِهِ بَيْنَ الْخَلْقِ ؛ فَلَا يَتَغَيَّرُ عَقْدُ هَذَا الصُّلْحِ الشَّرِيفِ  
عَلَى مَدَى اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، وَلَا يَنْقُضِي حُكْمُهُ وَلَا يَتَحَلَّلُ إِبْرَامُهُ عَلَى تَوَالِي السَّنِينَ  
وَالْأَعْوَامِ .

هنا : على أن لا يدخل أحد من عساكرهما وجندهما ومماليكهما إلى حدود  
مملكة الآخر ، ولا يتعرض إلى ما يتعلق به من ممالك وقلاع ، وحصون  
وسواحل وموان وغير ذلك من سائر الأنواع ؛ ورباطهما من جميع الطوائف  
والأجناس ، وما هو مختص ببلاد كل منهما ومعروف به بين الناس : حاضرها  
وباديتها ، وقاصبها ودانها ، وطامرها وغازيها ، وباطنها وظاهرها ، ولا إلى من  
فيها من الرعية والتجار والمسافرين ، وسائر القادين والرّاحين في السبل والطرق :  
متفرقين ومجتمعين .

هذا على أن يكون كل من المقيمين الثريين المشار إليهما مع الآخر على أكمل  
ما يكون في السرّاء والضراء : من حسن الوفاء ، وبجميل المودة والصفا ، ويكونا  
في الاتحاد كالوالد والولد ، وعلى المبالغة في الأمتزاج والاختلاط كزوجين في جسد ؛  
مع ما يضاف إلى ذلك من مصادقة الأصدقاء ، ومعاونة الأعداء ، ومسللة المسالين ،  
ومحاربة المخربين ؛ في السر والإعلان ، والظهور والكتان ؛ وبالله التوفيق ، وهو  
العالم بما تبدي الأضين وما تخفي الصدور ، وعليه التكلان في كل الأمور ،  
في النية والحضور ، والورود والصدور .

## الباب السادس من المقالة التاسعة

(في الفسوخ الواردة على العقود السابقة، وفيه فصلان)

### الفصل الأول

الْفَسْخُ، وهو ما وقع من أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ دُونَ الْآخَرِ

قال في "التعريف" : وَقُلَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ إِلَّا مَا يَبْعَثُ بِهِ عَلَى الْبَيْتَةِ الرَّسُلُ .  
قال : وقد كتب عَمَّى الصَّاحِبُ شَرْفُ الدِّينِ [أَبُو مُحَمَّدٍ] <sup>(١)</sup> عَبْدُ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ ،  
سنة دخول النِّسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَلْطِيَّةً ، سنة أربع عشرة وَسَبْعِمِائَةٍ فَسَخَّ عَلَى التَّكْفُورِ  
مَمْلُوكَ سَيْسَ ، كَانَ سَبِيًّا لِأَنْ زَادَ قَطِيعَتَهُ . ولم يذكر صورة ما كتبه في ذلك .

وقد جرتِ الْعَادَةُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْفَسْخُ مِنَ الْجَانِبِ الْوَاحِدِ أَنْ يَذْكُرَ الْكَاتِبُ فِيهِ  
مُوجِبَ الْفَسْخِ الصَّادِرِ عَنِ الْمَفْسُوخِ عَلَيْهِ : مِنْ ظُهُورِ مَا يَوْجِبُ تَقْضِ الْعَهْدِ ،  
وَنَكْثَ الْعَقْدِ ، وَإِقَامَةَ الْحُجَّةِ عَلَى الْمَفْسُوخِ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ .

قال في "التعريف" : وَالَّذِي أَقُولُ فِيهِ : إِنَّهُ إِنْ كُتِبَ فِيهِ ، كُتِبَ بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ :

هَذَا مَا اسْتَخَارَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ فَلَانٌ ، اسْتِخَارَةً تَبَيَّنَ لَهُ فِيهَا غَدْرُ الْغَادِرِ ، وَأُظْهِرَ لَهُ بِهَا  
سِرُّ الْبَاطِنِ مَا حَقَّقَهُ الظَّاهِرُ ؛ فَسَخَ فِيهَا عَلَى فَلَانٍ مَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مِنَ الْمُهَادَنَةِ  
الَّتِي كَانَ آخِرَ الْوَقْتِ الْفُلَانِي آخِرَ مَكْتَبَتِهَا ، وَطَهَّرَ السُّيُوفَ الذُّكُورَ فِيهَا مِنَ الدِّمَاءِ إِلَى  
أَنْقِضَاءِ عَهْدِهَا ؛ وَذَلِكَ حِينَ بَدَأَ مِنْهُ مِنْ مُوجِبَاتِ النُّقْضِ ، وَحَلَّ الْمُعَاقَدَةِ الَّتِي كَانَتْ  
يُسَدُّ بِمَعْضَاهَا بَعْضُ (وَهِيَ كَذَا وَكَذَا ، وَتَذَكَّرْ وَتَعَدَّ) مِمَّا يَوْجِبُ كُلَّ ذَلِكَ إِخْفَارَ



الذمة ، وقض العهود المرعية الحرمه ؛ وهذ قواعِد الهدنه ، وتَحْلِيَة ما كان قد  
أُمِسِك من الأعنه ؛ كتب إنذارا ، وقدم حذارا ؛ ومن يشهد بوجود هذا الفسخ ،  
ودخول مِلَّة تلك الهدنة في حُكْم هذا النسخ ؛ ما تشهد به الأيام ، ويحكم به عليه  
النَّصْر المكتتب للإسلام ؛ وكُتِب هذا الفسخ عن فلان لفلان وقد نبذ إليه عهدہ ،  
وأُنجِز وعده ؛ وأخذ إليه سهمه بعد أن صبر مليا على مُمالآته ، وأقام مئة يدارى  
مرَض وفائه ولا ينحج فيه شيء من مُداواته ؛ ولينصُر الله من ينصره ، ويختار من  
يأمن مكره من يحدّره ؛ وأمر فلان بأن يقرأ هذا الكتاب على رؤوس الأشهاد ،  
ليقل مضمونه إلى البلاد ؛ أفقه من أمر لا يتأدّى به الإعلان ، وينصب به لهذا  
القادر لواء لا يقال إذا يقال : هذا اللواء لفدرة فلان بن فلان .

## الفصل الثاني

المُفاسَّخَة وهي ما يكون من الخائنين جميعا

قال في " التعريف " : وصورة ما يكتب فيها : هذا ما اختاره فلان وفلان من  
فسخ ما كان بينهما من المُهادنة التي هي إلى آخر مئة كذا . اختارا فسَخَ بناها ،  
ونسَخَ أنباها ؛ وقض ما أبرم من عقودها ، وأكّد من عهودها ؛ جرت بينهما على  
رضا من كلّ منهما بإيجاد نار الحرب التي كانت أطفئت ، وإثارة تلك التواتر التي  
كانت كُفيت ؛ نبذاه على سواء بينهما ، واعتقاد من كلّ منهما ؛ أن المصلحة في هذا  
لجته ، وأمبسط ما كان يميله للآخر من رِقته ؛ ورَضى فيه بقضاء السيوف ،  
وامضاء أمر القدير والقضاء في مساقات الخوف ؛ وقد أشهدا عليهما بذلك الله  
وخلقه ومن حضر ، ومن سمع ونظر ؛ وكان ذلك في تاريخ كذا وكذا .

## المقالة العاشرة

فِي فُنُونٍ مِنَ الْكِتَابَةِ يَتَدَاوِلُهَا الْكُتَّابُ وَتَتَنَافَسُ فِي عَمَلِهَا ، لَيْسَ لَهَا  
تَعَلُّقٌ بِكِتَابَةِ الدَّوَاوِينَ السُّلْطَانِيَّةِ وَلَا غَيْرِهَا ، وَفِيهَا بَابَانُ

## الباب الأول

فِي الْحَدِيثَاتِ ، وَفِيهِ خَمْسَةُ فصول

## الفصل الأول

فِي الْمَقَامَاتِ

وهي جمع مَقَامَةٍ بفتح الميم ، وهي فِي أَصْلِ اللُّغَةِ أَسْمٌ لِلْجَالِسِ وَالْجَمَاعَةِ مِنَ النَّاسِ .  
وُسِّمَتْ الْأَحْدُوثَةُ مِنَ الْكَلَامِ مَقَامَةً ، كَأَنَّهَا تُذَكَّرُ فِي مَجْلَسٍ وَاحِدٍ يَجْتَمِعُ فِيهِ الْجَمَاعَةُ  
مِنَ النَّاسِ لِمَعَامِعِهَا . أَمَا الْمَقَامَةُ بِالضَّمِّ ، فَبِمَعْنَى الْإِقَامَةِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةُ  
عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ : ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَ بَابَ عَمَلِ الْمَقَامَاتِ ، عَلَّامَةُ النَّهْرِ ، وَإِمَامُ الْأَدَبِ ،  
الْبَيْدُوعُ الْهَمْدَانِيُّ : فَعَمِلَ مَقَامَاتِهِ الْمَشْهُورَةَ الْمُنْسُوبَةَ إِلَيْهِ ، وَهِيَ فِي غَايَةِ مِنَ الْبَلَاغَةِ ،  
وَصُلُوِّ الرُّبُوعَةِ فِي الصَّنِيعَةِ . ثُمَّ تَلَاهُ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْقَاسِمُ الْحَرِيرِيُّ ، فَعَمِلَ مَقَامَاتِهِ  
الْمُخَسَّنِينَ الْمَشْهُورَةَ ، بِخِصَاصِ نِهَائِيَّةٍ فِي الْحُسْنِ ، وَأَتَتْ عَلَى الْجُزْءِ الْوَافِرِ مِنَ الْحِظِّ ،  
وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا الْخِصَاصُ وَالْبَاتِمُ ، حَتَّى أَتَمَّتْ مَقَامَاتِ الْبَيْدُوعِ وَصَبَّرَتْهَا كُلُّهَا قُرُوضَةً .  
عَلَى أَنَّ الْوَزِيرَ رِضِيَّاءَ الدِّينِ بْنِ الْأَثِيرِ فِي " الْمَثَلِ السَّائِرِ " لَمْ يُؤَفِّهِ حَقَّهُ ، وَلَا عَامَلَهُ  
بِالْإِنْصَافِ ، وَلَا أَجَمَلَ مَعَهُ الْقَوْلَ . فَإِنَّهُ قَدْ ذَكَرَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ يَدٌ فِي غَيْرِ الْمَقَامَاتِ ،

حَتَّى ذَكَرَ عَنِ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ بْنِ الْخَشَّابِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : إِنَّ الْحَرِيرِيَّ رَجُلٌ مَقَامَاتٍ . أَيْ إِنَّهُ لَمْ يُحَسِّنْ مِنَ الْكَلَامِ الْمَثُورِ سِوَاهَا ، فَإِنْ أَتَى بِنِهَا فَلَا يَقُولُ شَيْئًا . وَذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَ بَقْدَادَ ، وَوَقِفَ عَلَى مَقَامَاتِهِ ، قِيلَ : هَذَا يُسْتَصْلَحُ لِكِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ فِي دِيْوَانِ الْخِلَافَةِ ، وَيَحَسِّنُ أَثَرَهُ فِيهِ ، فَأَحْضِرْ وَكُتِفَ كِتَابَةُ كِتَابٍ فَلَقِمَ ، وَلَمْ يَحِرْ لِسَانُهُ فِي طَوِيلِهِ وَلَا قِصَرِهِ ، حَتَّى قَالَ فِيهِ بَعْضُهُمْ :

شَيْخُنَا مِنْ رَبِيعَةِ الْفَرَسِ \* يَتِفُ عِشْوَتَهُ مِنَ الْمَوَسِ ،

أَنْطَقَهُ اللَّهُ بِالْمَشَانِ فِي \* بَدَادٍ أَصْحَى الْمَلُجُومَ بِالْخَرَسِ !

وَأَعْتَدَ عَنَهُ أَنَّ الْمَقَامَاتِ مَدَارَهَا جَمِيعُهَا عَلَى حِكَايَةِ تَخْرُجُ إِلَى مَخْلُصٍ ، بِخِلَافِ الْمَكَاتِبَاتِ فَهِيَ بِحَرِّهَا سَاحِلٌ لَهُ : مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْمَعَانِي تَتَجَدَّدُ فِيهَا بِتَجَدُّدِ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ ، وَهِيَ مُتَجَدِّدَةٌ عَلَى عَدَدِ الْأَفْئَاسِ .

وهذه المقامة التي قَلَمْتُ الْإِشَارَةَ إِلَيْهَا فِي خُطْبَةِ هَذَا الْكِتَابِ ، إِلَى أَنِّي كُنْتُ أَنْشَأْتُهَا فِي حُدُودِ سَنَةِ إِحْدَى وَتَسْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، عِنْدَ اسْتِقْرَارِي فِي دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَنهَا أَشْتَمَلَتْ - مَعَ الْأَخْتِصَارِ - عَلَى بَعْضِ جَمْعٍ مِنْ صِنَاعَةِ الْإِنْشَاءِ ، وَوَسَمَّيْتُهَا بِـ " الْكَوَاكِبِ الدَّرِّيَّةِ " ، فِي الْمَنَاقِبِ الْبَدْرِيَّةِ " وَوَجَّهْتُ الْقَوْلَ فِيهَا لِقَرِيفِ الْمَقَرِّ الْبَدْرِيِّ ، بِنِ الْمَقَرِّ الثَّلَاثِي ، بِنِ الْمَقَرِّ الْحَيَوِيِّ ، بِنِ فَضْلِ اللَّهِ ، صَاحِبِ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ بِالْبَادِيَةِ الْمِصْرِيَّةِ يَوْمَئِذٍ . جَعَلْتُ مَبْنَاهَا عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حِرْفَةٍ يَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَمَعِيشَةٍ يَتَمَسَّكُ بِسَبْجِهَا ، وَأَنَّ الْكِتَابَةَ هِيَ الْحِرْفَةُ الَّتِي لَا يَلِيقُ بِطَالِبِ الْعِلْمِ سِوَاهَا ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ الْعُدُولُ عَنْهَا إِلَى مَا عَدَاهَا ، مَعَ الْجُتُوحِ فِيهَا إِلَى تَفْضِيلِ كِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ وَتَرْجِيحِهَا ، وَتَهْدِيهَا عَلَى كِتَابَةِ الدِّيْوَانَةِ وَتَرْشِيحِهَا .

وقد اشغلت على بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما ينبغي أن يسلكه من الجواهر ، مع التنبيه على جملة من المصطلح بينت مقاصده ، ومهدت قواعده ، على ما ستقف عليه في خلال مطاوعها إن شاء الله تعالى ، وهي :

حكى الناثر ابن نظام ، قال : لم أزل من قبل أن يبلغ برید عمري مررًا التكليف ، ويتفرق بجمع خاطري بالكلف بعد التأليف ، أنصب لأفنياس السلم أشرارًا التحصيل ، وأثره توحيد الاستغفال عن إشرار التعطيل ، مشرًا عن ساق الحسد ذيل الاجتهاد ، مستميرًا على الوحدة وملازمة الأفراد ، أتهز فرصة الشباب قبل توليها ، وأغنم حالة الصبغة قبل تجافها ، قد حالف جفني السهاد ، وخالف طيب الرقاد ، أمرن النفس على الاشتغال كي لا تمل فتفرعن الطالب وتجمع ، بميلًا جانب قصدها عن ركوب الأهواء والمبيل إليها ، صارفًا وجه غايتها عن المطالب الدنيوية والركون إليها ، متخيرًا أبقى الأماكن وأوفق الأوقات ، قانعًا بأذن العيش راضيًا بآيسر الأقوات ، أونس من شوارد العقول وحشيشها ، وأشرد عن روائض المنقول حوشيشها ، وألقط ضالة الحكمة حيث وجدت ، وأقيد نادرة العلم حيث أصبتها ، مقلدًا من العلوم أشرقها ، ومؤثرًا من الفنون أطفها ، معتمدًا من ذلك ما تألفه النفس وبقيله الطابع ، مقلدًا منه على ما يستجلي حسنه النظر ويستجلي ذكره السمع ، متخيرًا من الكتب أمتها تصنيفها ، وأتمها تحريرها وأحسنها تأليفها ، متخيرًا من أشیخ الإفادة أوسعهم علمًا وأكثرهم تحقيقًا ، ومن أقران المذاكرة أروضهم بحثًا وألطفهم تدقيقًا ، عارفا لكل عالم حقه ، وموفقًا لكل علم مستحقه ، قد استغنيت بكتابي عن خلّ ورفيقي ، وآثرت بيت خلقي على شفيقي وشقيقي ، أجوب فيافي الفنون لتظهر لي طلائع الفوائد فاشبهها عيانا ، وأجول في ميدان الأفكار لتلوح لي كائن المعاني فلا أنفي عنها عيانا ، وأشن غارات المطالعة على كتائب الكتب فأرجع

بالغنية، وأهمهم على حصون الدفائر ثم لا أولى عن هزيمه، بل كلما لاحت لى فئة من البحث تحيرت إليها، أو ظهرت لى كتيبة من المعاني حملت عليها؛ إلى أن أتبع لى من الفتح ما أفاضته النعمة، وحصلت من الغنية على ما أقتضته القسمة .

فبينما أنا أرتع فى رياض ما نفلت، وأجتنى ثمار ما خولت، إذ طلع على جيش التكليف فحصرنى، ونرج على كين التكليف فأمرنى؛ فانسيت فى أضيق خناق، وأشد وثاق؛ قد عاقني قيد الأكتساب عن الاشتغال، وصددني كل الكد عن الأهتمام بالطلب والاحتفال؛ ففتشتني من القبض ما عشتني، وأخذني من الوحشة ما أخذني؛ وتعارض في حكم العقل بين الكسب وطلب العلم، وتساوى في الترجيح فلم يجمع واحدة منهما إلى السلم؛ فصرت منهوشت لا أحسن صنعا، وقيت متحصرا لا أدري أى الأمرين أقرب إلى نفع؛ : إن طلبت العلم للكسب فقد أخفشت رجوها، وإن تركت الكسب للعلم هلكت ضيعة ومث جوبا .

فلما علمت أن كلا منهما لا يقوم إلا بصاحبه، ولا يتم الواجب فى أحدهما ما لم يتم فى الآخر بواجبه؛ أتمست كسبا يكون للعلم موافقا، وبمحله لا نقا؛ ليكون ذلك الكسب للعلم موضوعا والعلم عليه محولا، والجمع ولو بوجه أولى؛ فجعلت أسير المعاش سير متقصدا، وأسير فى قلوب الصنائع سير متعهد؛ لكن أبعد حرفة تطابق أرى، أو صنعة تجانس طلي .

فبينما أنا أسير فى معاهدها، وأردد طرفى فى مشاهدها؛ إذ رُفع لى صوت قرع سمعى برنته، وأخذ قلبى بحجته؛ فقفوت أثره متبعا، ومِلْتُ إليه مُستَمِعا؛ فإذا رجل من أحسن الناس شكلا، وأزجهم عقلا؛ وهو يرتزم ويُنشد :

إن كنت تقصدنى بظالم عايدا، \* فخرمت نفع صداقة الكذاب؛

السَّامِعِينَ إِلَى الصَّدِيقِ تَرَى النِّعَةَ \* وَالنَّاعِثِينَ لَعَنَةَ الْإِخْحَابِ ،  
وَالنَّاهِضِينَ بِكُلِّ عَيْبٍ مُثْقِلٍ \* وَالنَّاطِقِينَ بِفَضْلِ كُلِّ خِطَابٍ ،  
وَالنَّاطِقِينَ عَلَى الصَّدِيقِ بِفَضْلِهِمْ \* وَالطَّيِّبِينَ رَوَائِحِ الْأَنْوَابِ .  
وَلَمَّا تَحَمَّسَتْهُمُ الثَّنَاءُ فَطَالَمَا \* بِحَمْدِ الْعَبِيدِ تَفَضَّلَ الْأَرْبَابُ !

فلما سمعتُ منه ذلك ، وأعجبني من الوصفِ ما هنالك ؛ دَنَوْتُ مِنْهُ دُنُو الْوَاجِلِ ،  
وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ جُلُوسَ السَّائِلِ ؛ وَقُلْتُ : هَذِهِ وَأَيْبُكَ صِفَاتُ الْمُلُوكِ بَلْ مُلُوكُ  
الْصِّفَاتِ ، وَأَكْرَمُ الْفَضَائِلِ بَلْ أَنْفَضِلُ الْمَكْرَمَاتِ ؛ وَلَمْ أَكْ أَنْظُرْ أَنَّ لِلْكَاتِبَةِ هَذَا  
الْخَطَرَ الْجَسِيمَ ، وَلِلْمُكَاتِبِ هَذَا الْخَطَّ الْعَظِيمَ ؛ فَأَعْرَضْتُ مُنْضَبًا ، ثُمَّ فَوَّقَ بَصَرَهُ إِلَى  
مُتَّجِبًا ، وَقَالَ : هِيَئَاتِ فَاتَكَ الْحَزْمُ ، وَأَخْطَاكَ الْعَزْمُ ؛ إِنَّمَا لِمَنْ أَعْظَمَ الصَّبَاحُ قُدْرًا ،  
وَأَرْقَعَهَا ذِكْرًا ؛ نَطَقَ الْقِرَاءُ الْكَرِيمُ بِفَضْلِهَا ، وَجَاءَتِ السُّنَّةُ الْقِرَاءُ بِتَقْدِيمِ أَهْلِهَا ؛  
فَقَالَ تَعَالَى جَلَّ شَأْؤُهُ ، وَتَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ  
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، حَيْثُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْكَرَمِ ؛ إِشَارَةً  
إِلَى أَنَّ تَعْلِيمَهَا مِنْ جَرِيلِ رَحْمَةٍ ، وَإِنْدَانًا بِأَنَّ مَنَحَهَا مِنْ فَائِضِ دِيَمِهِ ؛ وَقَالَ جَلَّتْ  
قُدْرَتُهُ : ﴿ نَبِّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ فَأَقْسَمَ بِالْقَلَمِ  
وَمَا يَسْطُرُهُ الْأَقْلَامُ ، وَأَتَى بِذَلِكَ فِي أَكْثَرِ قَسَمٍ فَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَقْسَامِ . وَقَالَ  
تَقَدَّسَتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ لِجَعْلِ الْكَاتِبَةِ مِنْ وَصْفِ  
الْكَرَامِ ، كَمَا قَدْ جَاءَ فَحْطُهَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ وَإِنَّمَا مُنْعَهَا النَّبِيَّ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْجَزَةً قَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى سَبَبَهَا ؛ حَيْثُ ذَكَرَ الْحَادِثَ بِقَوْلِهِ :  
﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ .

هذا : وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في كثرة الكُتُب رَاعِيًا ، فقد رُوِيَ أَنَّهُ كان له عليه أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ نَيْفٌ وَثَلَاثُونَ كَلِمَةً ؛ هُمْ مُنْجِبَةُ أَصْحَابِهِ ، وَخُلَاصَةُ أَثَرِيهِ ؛ مَنْ آمَنَ بِهِمْ عَلَى أَسْرَارِ الْوَحْيِ وَالْتَزِيلِ ، وَخَاطَبَ بِالسَّنَةِ أَقْلَامِهِمْ مُلُوكُ الْأَرْضِ فَأَجَابُوا بِالْإِذْعَانِ عَلَى الْبُعْدِ وَالْمَدَى الطَّوِيلِ ؛ وَكَتَبَ الْمُلُوكُ أَيْضًا إِلَيْهِ ابْتِدَاءً وَجَوَابًا ، وَكَاتَبَ أَصْحَابَهُ وَكَاتَبُوهُ فَاحْسَنَ اسْمَاعًا وَأَفْخَمَ خَطَابًا ؛ وَبِذَلِكَ جَرَتْ مُسْنَةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ فَن تَلَاهُمْ ، وَعَلَى نَهْيِهِ مَشَتْ مُلُوكُ الْإِسْلَامِ وَمِنْ ضَاهَاهُمْ .

فَالْكَاتِبَةُ قَانُونُ السِّيَاسَةِ ، وَرُفَّتُهَا غَايَةُ رُتَبِ الرِّيَاسَةِ ؛ عِنْدَهَا تَحْفُفُ الْإِنْفَاقَةِ ، وَإِلَيْهَا تَنْتَهِي مَنَاصِبُ الدُّنْيَا بَعْدَ الْخِلَافَةِ ؛ وَالْكَاتِبُ عِيُونُ الْمُلُوكِ الْمُبْصِرَةِ وَأَدَانُهُمُ الْوَاغِبَةِ ، وَالْأَسْتِثْمُ النَّاطِقَةُ وَعُقُولُهُمُ الْحَاوِيَةُ ؛ بَلْ مَحْضُ الْحَقِّ الَّذِي لَا تَدْخُلُهُ الشُّكُوكُ ، وَإِنَّ الْمُلُوكَ إِلَى الْكَاتِبِ أَحْوَجُ مِنَ الْكَاتِبِ إِلَى الْمُلُوكِ ؛ وَنَاهِيكَ بِالْكَاتِبَةِ شَرَفًا ، وَأَعْلَ بِلَاكٍ رُبْنَةً وَكَفَى ؛ أَنَّ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ يُزَاحِمُ الْكَاتِبَ فِي قَلْبِهِ ، وَلَا يُزَاحِمُ الْكَاتِبُ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ فِي سَيْفِهِ وَعَاقِلِهِ .

وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَهُمْ الْحَاوُونَ لِكُلِّ وَصِفٍ جَمِيلٍ ، وَشَائِنٍ نَزِيلٍ ؛ الذِّكْرُ شِعَارُهُمْ ، وَالْحِلْمُ دِيَارُهُمْ ؛ وَالْجُودُ جَانِبُهُمْ ، وَالْخَيْرُ مَادَتُهُمْ ؛ وَالْأَدَبُ مَرَكَبُهُمْ ، وَاللُّطْفُ مَذْهَبُهُمْ ؛ وَهَذَا الْقَائِلُ :

وَسَيُؤْمَلُ كَأَنَّمَا أَتَصَرَّوْهَا \* مِنْ مَعَانِي تَمَائِيلِ الْكَاتِبِ !

فَلَمَّا أَتَقَضَى قِيْلُهُ ، وَبَانَ سَيْلُهُ ؛ قُلْتُ : لَقَدْ ذَكَرْتُ قَوْمًا رَاقِيًا وَصَفُهُمْ ، وَشَاقِيًا لُطْفُهُمْ ؛ وَدَعَانِي طَيْبُ حَيْدِيهِمْ ، وَحُسْنُ أَوْصَافِهِمْ ، وَجَمِيلُ نُصُوتِهِمْ ؛ إِلَى أَنْ أَحُلَّ بِنَادِيهِمْ ، وَأُنْزِلَ بِوَادِيهِمْ ؛ فَاجْعَلْ حِرْقَتَهُمْ كَسِيًّا ، وَصَنَعَتَهُمْ دَائِيًّا ؛ لِيَجْتَمَعَ بِالْعِلْمِ تَمَلُّي ، وَيَتَّصِلَ بِالْإِسْتِفْهَالِ حَبْلِي ؛ فَأَكُونَ قَدْ ظَفِرْتُ بِمَنْتَنِي ، وَفُزْتُ بِبَيْعَتِي .

فأَيُّ قَيْلٍ مِنَ الْكُتَابِ أَرَدْتَ ؟ وَلِمَا أَيْ نَوْعٍ مِنَ الْكِتَابَةِ أَشْرْتَ ؟ أَكِتَابَةَ الْأَمْوَالِ ؟ أَمْ كِتَابَةَ الْإِنْشَاءِ وَالْحِطَابَةِ ؟ ، أَمْ غَيْرَهُمَا مِنْ أَنْوَاعِ الْكِتَابَةِ ؟ ؛ فَنَظَرُ إِلَى مُسْتَهْسِمًا ، وَأَنْشُدُ مُرْتَمًا :

قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوا الْأَقْلَامَ مِنْ غَضَبٍ \* ثُمَّ اسْتَمَدُوا بِهَا مَاءَ الْمَنِيَّاتِ ،  
نَالُوا بِهَا مِنْ أَعَادِيهِمْ وَإِنْ بَعُدُوا \* مَا لَمْ يَسْأَلُوا بِحَدِّ الْمَشْرِفِيَّاتِ !

فَقُلْتُ : كَأَنَّكَ تُرِيدُ كِتَابَةَ الْإِنْشَاءِ دُونَ سَائِرِ الْكِتَابَاتِ ، وَهِيَ الَّتِي تَقْصِدُهَا بِالتَّصْرِيحِ وَتُسَيِّرُ إِلَيْهَا بِالْكِتَابَاتِ ؛ فَقَالَ : وَهَلْ فِي أَنْوَاعِ الْكِتَابَةِ جُمْلَةٌ تَوْعُّ إِسَاوِيَهَا ، أَوْ فِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ عَلَى الْإِطْلَاقِ صَنَعَةٌ تُضَاهِيهَا ؟ ؛ إِنَّ لَهَا لَلْقِدْحَ الْمَعْلَى ، وَالْحَيْدَ الْمَحْلَى ، وَالذَّرْوَةَ الْمُنِيْفَةَ ، وَالرُّتَبَةَ الشَّرِيفَةَ ؛ كُتُبُهَا أَسُّ الْمُلْكِ وَعِمَادُهُ ، وَارْكَانُ الْمُلْكِ وَأَعْوَادُهُ ، وَلِسَانُ الْمَلَكَةِ النَّاطِقِ ، وَمِمْهَمُ الْمَفُوقِ الرَّاشِقِ ؛ وَهوَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ الطَّائِيَّ حَيْثُ يَقُولُ :

وَلَضْرِبَةٌ مِّنْ كَاتِبٍ بَنَانِهِ \* أَمْضَى وَأَقْطَعُ مِنْ رَقِيقٍ حُسَامِ !

قَوْمٌ إِذَا عَزَمُوا عَدَاوَةَ حَاسِدٍ \* سَفَكُوا الدَّمَاءَ بِأَسِنَّةِ الْأَقْلَامِ !

قَلْبُهَا يَبْلُغُ الْأَمَلَ ، وَيُنْفِي عَنِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلَ ؛ بِهِ تُصَانُ الْمَعَاقِلُ ، وَتُشْرَقُ الْجَحَافِلُ :

فَلَمَّ يَقُلْ الْحَبِيشَ وَهُوَ عَرَمَرَمٌ \* وَالْبَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَغْمَادِ !

فَقُلْتُ : إِنْ كُتِبَ الْأَمْوَالُ يَزْعُمُونَ أَنْ لَمْ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الْأَعْلَى ، وَالطَّرِيقَةَ الْمُثْنَى ؛ وَيَسْتَشْهِدُونَ لِقَضَائِهَا ، وَتَهْدُمُ أَهْلِهَا ؛ بِقَوْلِ الْإِمَامِ أَبِي عَمْرِو الْقَاسِمِ الْحَرِيرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ ، فِي مَقَامَاتِهِ :

« إِنَّ صِنَاعَةَ الْحِسَابِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّحْقِيقِ ، وَصِنَاعَةُ الْإِنْشَاءِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّفْطِيقِ ؛ وَقَلَمُ الْحَاسِبِ ضَايِعٌ ، وَقَلَمُ الْمُنْشِئِ خَاطِبٌ ؛ وَبَيْنَ إِتَاوَةِ تَوْطِيفِ الْمَعَامَلَاتِ ، وَتِلَاوَةِ



طَوَامِيرُ السَّجَلَاتِ ؛ بَوْنٌ لَا يُدْرِكُهُ قِيَاسٌ ، وَلَا يَتَوَدُّهُ أَلْيَاسٌ ؛ إِذِ الْإِيمَانُ تَمَلَّأَ  
الْأَنْجَاسَ ، وَالسَّلَاةُ تُفْرِغُ الرَّاسَ ؛ وَخَرَجُ الْأَوَارِجِ ، يُعْنِي النَّاسِطِرَ ، وَاسْتِخْرَاجُ  
الْمَدَارِجِ ، يُعْنِي انْحِاطِطِرَ ؛ وَالْحَسَبَةُ حَفْظَةُ الْأَمْوَالِ ، وَحِمْلَةُ الْأَهْثَالِ ؛ وَالنَّقْلَةُ  
الْأَثْبَاتُ ، وَالسَّفَرَةُ الثَّقَاتُ ؛ وَأَعْلَامُ الْإِنْصَافِ وَالْإِتِّصَافِ ، وَالشُّهُودُ الْمَقَانِعُ  
فِي الْأَخْتِلَافِ ؛ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَوْفَى الَّذِي هُوَ يَدُ السُّلْطَانِ ، وَقُطْبُ الدِّيَّانِ ؛ وَقِسْطَاسُ  
الْأَعْمَالِ ، وَالْمُهَيِّمُنُ عَلَى الْعَمَلِ ؛ وَإِلَيْهِ الْمَكَابُ فِي السَّلَمِ وَالْمَرْجِ ، وَعَلَيْهِ الْمَدَارُ  
فِي الدَّخْلِ وَالخُرْجِ ؛ وَبِهِ مَنَاطُ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ ، وَفِي يَدِهِ رِبَاطُ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ ؛ وَلَوْلَا  
قَلَمُ الْحُسَابِ ، لَأَوْدَتْ تَمَرَةُ الْاِكْتِسَابِ ، وَلَأَتَّصَلَ التَّقَابُ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ ؛ وَلَكِنَّ  
نِظَامَ الْعَامَلَاتِ مَحْذُولًا ، وَبُحْرُجُ الظَّالِمَاتِ مَطْلُولًا ، [ وَجِدُّ التَّنَاصُيفِ مَغْلُولًا <sup>(١)</sup> ] ،  
وَسَيِّفُ التَّنْظَامِ مَسْئُولًا ؛ عَلَى أَنَّ بَرَّاعَ الْإِنْشَاءِ مُتَقَوِّلٌ ، وَبَرَّاعَ الْحِسَابِ مُتَأَوِّلٌ ؛  
وَالْحَاسِبُ مُنَاقِشٌ ، وَالْمُنْشِئُ أَبُو بَرَّاقِشٍ .

فوصف كِتابَةَ الْأَمْوَالِ بِأَتَمِّ الصِّفَاتِ ، وَنَبَّهَ مِنْ شِيمِ أَهْلِهَا وَشِيَتِهِمْ عَلَى الْأَكْرَمِ  
الشِّيمِ وَأَحْسَنِ الشِّيَاتِ .

فقال : هذه الحجة مُعَارَضَةٌ بِمَثَلِهَا ، بَلْ بَاطِلَةٌ مِنْ أَصْلِهَا ؛ وَأَيْنَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ  
فِي صَدْرِ كَلَامِهِ ؟ :

«اعلموا أن صِنَاعَةَ الْإِنْشَاءِ أَرْفَعُ ، وَصِنَاعَةُ الْحِسَابِ أُنْفَعُ ؛ وَقَلَمُ الْمَكَاتِبَةِ خَاطِبٌ ،  
وَقَلَمُ الْحَاسِبَةِ حَاطِبٌ ؛ وَأَسَاطِيرُ الْبَلَاغَاتِ تُنْسَخُ لِتُدْرَسَ ، وَدَسَائِيرُ الْحُسَابَاتِ تُنْسَخُ  
وَتُدْرَسُ ؛ وَالْمُنْشِئُ جِهَتُهُ الْأَخْبَارُ ، وَحَقِيقَةُ الْأَسْرَارِ ؛ وَنَجْمُ الْعُظَمَاءِ ، وَكَبِيرُ النُّعْمَاءِ ؛  
وَقَلْبُهُ لِسَانُ أَسْرَارِ الْعَوَالِمِ ، وَفَارِسُ الْجَوْلِ ؛ وَلَقَدْ أُنْجَلِكُهُ ، وَتَرَجَّمَانُ الْهِمَةِ ؛ وَهُوَ

البشير والذير، والسفيح والسفير؛ به تُسَخَّلَصُ المصايف، وتُكَلِّفُ التواصي؛ ويُقْتَادُ الماصي، ويُسْتَدَقَّى القاصي؛ وصاحبه يرى من التبعات، آمن كيد السعات؛ مُقَرَّطٌ بين الجماعات، غير معرض لنظم الجماعات.

فهذه أرفع المراتب، وأشرف المناقب؛ التي لا يعتورها شين، ولا يشوبها مين، وصدر الكلام يقتضي الترجيح، ويُؤَنِّدُ بالترشيح؛ والرفع، أبلغ في الوصف من النقص؛ فقد يُنْتَفَعُ بالترزيسير، ولا يُرْتَفَعُ إلا بالأمر الكبير؛ على أنه لو اعتبر نفع كناية الإنشاء لكان أبلغ، وإقامة الدليل عليه أسوغ؛ وأنى لكاتب الأموال، من التأثير في فل الجيوش من غير قتال، وتفتح الحصون من غير زلزال؛ فهذه هي الخِصَصَى التي لا تُساوَى، والمنقبة التي لا تُتَاوَى :

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعَبَانٍ مِنْ لَيْنٍ \* شَيْئاً بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاً !

قلت: الآن قد أقطعت المجبة، وبانت المحبة، لما الذي يحتاج كاتب الإنشاء إلى ممارسته؟ فقال: إذا قد تعلقت من الصنعة بأسبابها، وأثبت البيوت من أبوابها.

اعلم أن كاتب الإنشاء لا تظهر فصاحته، وتبين بلاغته؛ وتقوى براعته، وتجل براعته؛ إلا بعد تحصيل جملة من العلوم، ومعرفة الاصطلاح والإحاطة بالرُسُوم؛ ثم أهم ما يتبادر بخصيله، ويعتمد عليه في جملة الأمور وتفصيله؛ حفظ كتاب الله العزيز الذي هو معدن الفصاحة، وعنصر البلاغة؛ وإدامة قرأته وتكرير مآثبه، مع العلم بتفسيره وتدبر مآثبه؛ حتى لا يزال دائراً على لسانه حاضراً في ذكره، ولا يرح معناه مُتَمَلِّلاً في قلبه مصوراً في فكره؛ ليكون مستحضراً له في الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويضطر إلى إقامة الأدلة القاطعة عليها؛ فله المجد البالغ، ولآبائه الأجوبة الدائمة؛ خصوصاً السير والأحكام، وما يتعلق بذلك من مهمات

الدِّينِ وَقَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ؛ وما أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ كَلَامُ الثُّبُوتِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي أَبْكَتِ  
الْفَصَحَاءُ، وَالْمَعَانِي الدَّقِيقَةُ الَّتِي أَعْيَتِ الْبُلَغَاءُ؛ مع النَّظَرِ فِي مَعَانِيهَا وَمَعْرِفَةِ غَرِيبِهَا،  
وَالْإِطْلَاجِ عَلَى مَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ بَيِّنِهَا وَقَرِيبِهَا؛ لَتَكُونَ أَبَدًا مُجْتَمَعَةً  
ظَاهِرَةً، وَأَدِلَّتُهُ قُوَّةُ مُتَظَاهِرَةِ؛ فَإِنَّ الدَّلِيلَ إِذَا اسْتَدَّ إِلَى النَّصِّ أَقْطَعَ التَّرَاغُ  
وَمُسَلَّمِ الْمَدْعَى وَلَزِمَ، وَالْفَصَاحَةُ وَالْبَلَاغَةُ غَايَتُهُمَا - بعدَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى - فِي كَلَامِ  
مَنْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ؛ وَالْعِلْمُ بِالْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ وَفُرُوعِهَا، وَخُصُوصِهَا وَشُيُوعِهَا؛  
وَالتَّوَقُّلُ فِي أَسْمَاءِ الْعَرَبِ وَالْمَوْلَدِينَ، وَأَهْلِ الصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ؛ وما وَرَدَ عَنْ كُلِّ  
فِرْقٍ مِنْهُمْ مِنَ الْأَمْثَالِ تَرًّا وَنَظْمًا، وما جَرَى بَيْنَهُمْ مِنَ الْمُحَاوَرَاتِ وَالْمُنَاقَظَاتِ حَرًّا  
وَسَلَامًا؛ وَالتَّعْوِيلُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْأَشْعَارِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا الْعُلَمَاءُ بِهَا، فَتَمَسَّكُوا  
بِأَوَائِدِهَا وَتَعَلَّقُوا بِسَبَبِهَا؛ وَالْأَمْثَالُ الْغَرِيبَةُ الَّتِي اتَّقَوْهَا، وَدَوَّنُوهَا وَرَوَّعُوهَا؛ وَأَسْتَبْضِاحُ  
الْقِسْمَيْنِ وَأَسْتَكْشَافُ غَوَامِضِهِمَا، وَأَسْتَظْهَارُ التَّوْحِينِ وَاسْتِهْطَارُ عَوَارِضِهِمَا؛  
وَالْإِطْلَاجُ عَلَى خُطَبِ الْبُلَغَاءِ، وَرَسَائِلِ الْفَصَحَاءِ؛ وما وَقَعَ لَهُمْ فِي مُحَاطَاتِهِمْ،  
وَمُكَاتَبَتِهِمْ؛ وَالْعِلْمُ بِأَيَّامِ الْعَرَبِ وَحُرُوبِهِمْ، وَمَا كَانَ مِنَ الْوَقَائِعِ بَيْنَ قَبَائِلِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ؛  
وَالنَّظَرُ فِي التَّوَارِيخِ وَأَخْبَارِ الثُّوَلِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، وَسِيرِ الْمُلُوكِ وَأَحْوَالِ  
الْمَمَالِكِ، وَمَعْرِفَةُ مَكَائِلِهِمْ فِي الْحَرْبِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنَ الْمَهَاوِي وَالْمُخْجِجَةِ مِنَ الْمَهَالِكِ .

مع سَعَةِ الْبَاعِ فِي اللُّغَةِ الَّتِي هِيَ رَأْسُ مَالِهِ، وَأُسْ مَقَالِهِ؛ وَكَثْرَةُ الْمَعْدِّ لِلِإِثْمَاقِ،  
وَمُعِينُهُ بَلْ مُعِينُهُ وَقَتِ الضَّرُورَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ وَالتَّحْوِيلُ الَّذِي هُوَ مِلْحُ كَلَامِهِ، وَمِسْكُ  
خِتَامِهِ؛ وَالتَّصَرُّفُ الَّذِي تُعْرَفُ بِهِ أَصُولُ أَثْنَةِ الْكَلِمَةِ وَأَحْوَالُهَا، وَكَيْفِيَّةُ التَّصَرُّفِ  
فِي أَسْمَائِهَا وَأَفْعَالِهَا؛ وَمُطْلَعُ الْمَعَانِي وَالْيَقِينِ وَالْبَدِيعِ الَّتِي هِيَ حِلَّةُ لِسَانِهِ، وَآيَةُ بَيَانِهِ؛  
وَمُسَرِّفَةُ أَوَائِدِهَا وَفُصُولِهَا، وَتَحْقِيقُ فُرُوعِهَا وَأَصُولِهَا :: مِنَ الْفَصَاحَةِ وَطَرِيقِهَا،  
وَالْبَلَاغَةِ وَدَقَائِقِهَا؛ وَاخْتِيَارُ الْمَعَانِي وَتَرْبِيهَا، وَنَظْمُ الْأَلْفَاظِ وَتَرْكِيبُهَا، وَالْفَصْلُ

والوصل ومواضعهما، والتقديم والتأخير ومواضعهما؛ ومواطن الحذف والإضمار، وحكم الروابط والأخبار؛ وفي ذلك من الحقيقة والمنجّاز، والبسط والإيجاز؛ والحل والعقد، وتمييز الكلام جيّد من رديّه بصحة النقد؛ مع معرفة أنواع البديع وطرائقها، والأطالع على غوامض أسرارها وفرائد دقائقها .

على أن أكد شيء يجب تحصيله قبل كل حاصل، ويستوى في الاحتياج إلى معرفته المفضول من الكتاب والفاضل؛ العلم بالخط وقوانينه : من الهجاء والنقط والشكل، والفرق بين الضاد والطاء المتخالفين في الصورة والشكل؛ مع المعرفة بالآلات الكتابية وسماتها، وتباين أنواعها واختلاف صفاتها .

هذه أصوله التي ينبغي عليها، وقواعده التي يرجع إليها؛ فإذا أحاط بهذه الفنون علماً، وأتقنها فهماً؛ غررت عنده المواد، وأفضحت له الجواهر؛ فأخذ في الاستعداد، وسهل عليه الاستشهاد؛ فقال عن علم وتصرف عن معرفة واستحسن بدهان، وانتقد بحجة وتغير بدليل وصاغ بترتيب ونجى على أركان؛ وأتسع في العبارة مجاله، وفتح له من باب الأوصاف أقواله؛ وتلقى كل واقعة بما يلائمها، وقابل كل قضية بما يشاكلها؛ وعلم المحيد ففسح على منواله، وظهر له القاصر فأعرض عن أقواله؛ وحصل له القوة على فهم الخطاب، وأنشأ الجواب بحسب الوقائع والأعراض، على طبق المقاصد والأغراض؛ ومتى أحلّ بشيء من ذلك فأنشأ الفضائل، وعلقت به الرذائل؛ وقلت بضاعته، ونقصت صناعته؛ وساعت آثاره، وقبعت أخباره؛ وخطت الغرر بالغرر، ولم يميز بين الصدف والدور؛ فانخرج الصنعة عن أمانيتها، وطمس من الكتابة وجوه محاسنها؛ فجرح اللوم إلى نفسه، وأمتى مهزلة لأبناء جنسه .

وَوَرَاءَ ذَلِكَ عُلُومٌ هِيَ كَالسَّافَةِ لِلْكَاتِبِ ، وَالزَّيَادَةُ لِلرَّائِبِ :

منها ما تَكُنُّ بِهِ صِنَاعَتُهُ ، وَتَعَظُمُ بِهِ مَكَاتَتُهُ : كِعِلْمِ الْكَلَامِ ، وَأَصُولِ الْفَقْهِ وَسَائِرِ الْأَحْكَامِ ؛ وَالْمَنْطِقِ وَالْجَدَلِ ، وَأَحْوَالِ الْفِرَقِ وَالتَّحْلِ وَالْمَالِ ؛ وَعِلْمِ الْعُرُوضِ وَالْمِيزَانِ الْمُحْكَمِ ، وَعِلْمِ الْقَوَافِي وَحَلِّ الْمُتَرَجِّمِ ؛ وَالْحِسَابِ الْمَفْتُوحِ وَمَا يَتَرَقَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمُعَامَلَةِ ، وَمَا تُسْتَخْرَجُ بِهِ الْمَجْهُولاتُ : مِنْ حِسَابِ الْخَطَّائِنِ وَالذَّرْهِمِ وَالذِّينَارِ وَالْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ ؛ وَحِسَابِ الدُّورِ وَالْوَصَايَا ، وَالتَّنْخِثِ وَالْمِثِيلِ وَمَا لِأَعْمَالِهِ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الزَّيَاةِ ، وَالْعِلْمِ بِالْفَلَاحَةِ ، وَأَحْوَالِ الْمَسَاحَةِ ؛ وَعِلْمُ عُقُودِ الْأَيْنَةِ وَالْمَتَانِظِرِ الْمُحَقِّقَةِ ، وَمَرَآةِ الْأَنْفَالِ وَالْمَرَاةِ الْمُحْرِقَةِ ؛ وَعِلْمُ جَرِّ الْأَنْفَالِ الْأَيْبَةِ ، وَالْعِلْمُ بِالْآلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ ؛ وَعِلْمُ الْمَوَاقِفِ وَالْبِنَكَامَاتِ ، وَالتَّقَاوِيمِ وَالزَّيْعَاتِ ؛ وَعِلْمُ تَسْطِيجِ الْكُرَّةِ وَالتَّوَصُّلِ بِهَا إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْمَطَالِبِ الْفَلَكِيَّةِ ، وَكَيْفِيَةِ الْأَرْصَادِ وَأَحْكَامِ التَّجْوِيمِ وَالْآلَاتِ الظَّلْمِيَّةِ ؛ وَعِلْمُ الطَّبِّ وَالْيَطْطَرَةِ ، وَأَحْوَالِ سَائِرِ الْحَيَوَانِ وَعِلْمُ الْبَيْزَرَةِ .

ومنها ما تَكُنُّ بِهِ ذَاتُهُ ، وَيَتِمُّ بِهِ أَدْوَانُهُ ؛ كِعِلْمِ التَّعْيِيرِ وَعِلْمِ الْأَخْلَاقِ وَعِلْمِ السِّيَاسَةِ ، وَعِلْمِ تَنْدِيرِ الْمَنْزِلِ وَعِلْمِ الْفِرَاسَةِ . وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي أَضْرَبْنَا عَنْ ذِكْرِهَا خَشْيَةَ الْإِطْلَالِ ، وَأَعْرَضْنَا عَنْ إِبْرَادِهَا خَوْفَ الْمَلَالَةِ ؛ فَهَذِهِ عُلُومٌ فَضْلَةٌ يُعَظَّمُ بِهَا أَمْرُهُ ، وَفَضِيلَةٌ يَرْفَعُ بِهَا مَحْصِلُهَا ذِكْرُهُ ؛ بَلْ لَا يَسْتَفْنِي عَنِ الْعِلْمِ بَرُوسُ سَائِلِهَا ، وَإِشَارَاتُ أَرْبَابِهَا الْآخِذَةِ مِنْ بِحَارِهَا بِأَطْرَافِ سَوَاحِلِهَا ؛ عَلَيَّ أَنَّهُ قَدْ تَرَدَّدَ عَلَيْهِ أَوْقَاتٌ لَا يَسَعُهُ جَهْلُ ذَلِكَ فِيهَا ، وَتَمَرَّدَ عَلَيْهِ أَزْمَانٌ يَوْدُ لَوْ تُسْتَرَى فَيَسْتَرِيهَا .

قُلْتُ : قَدْ بَانَ لِي عُلُومُهَا ، فَمَا رُسُومُهَا ؟ قَالَ : إِنْ أَعْبَايَا لِبَاهِظَةٍ حَمَلَا ، وَإِنَّمَا لَكَيْفَةُ إِلَّا ؛ وَلَكِنْ سَأَحْدُثُ لَكَ مِمَّا سَأَلْتَ ذِكْرًا ، وَأَنْبِئُكَ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا .

فمن ذلك : المعرفة بالولايات ولواحيها ، على اختلاف مقاصدها وتباين طرائقها ؛  
من النيات وأحكامها ، واليهود وأقسامها ، والتقاليد وصيغاتها ، والتفويض  
ومضاهاتها ؛ والمزايم وأوضاعها ، والتواقيع وأنواعها ؛ والخطب ومناسباتها ،  
والوصايا ومطابقتها ؛ ثم العلم بالمتنشير ومراتبها ، والمرعات الجيشتية ومعانيها ؛  
ومعرفة رتب المكاتب وطبقاتها ، ومن يستحق من الرتب أذناها أو يستوجب  
الرفع إلى أعلى درجتها : من المكاتب الصادرة عن الأبواب الشريفة الخليفةية ،  
والمكاتب الواردة عليها وعلى أرباب المناصب من سائر الآل والعنزة النبوية ؛  
وملوك المسلمين والقائات ، وملوك الكفر وأرباب الديانات ؛ وأهل الملكية من  
النواب والكشاف والولاة ، والأمراء والوزراء والعربان والقضاة ؛ وسائر حنلة  
الأقلام ، وأهل الصلاح وجمية الأعلام ؛ ونساء الملوك والحنودات ، ومكاتب  
التجار وما عساه يطرأ من المكاتب المستعجلات ؛ وكتب البشرى بالجلوس على  
التخت والفتح والظفر ، والبشرى بوفاء النيل والقُدوم من الغزو والسفر ، واستهداف  
العزائم ، والبطائق المحمولة على أجنحة الحمام ؛ والملطفات التي يضطر إليها ، ويعمل  
في الأمور الباطنة عليها ؛ وأوراق الجواز في الطرقات ، والإطلاقات في التسفير  
والمثالات المطلقات ؛ ومعرفة الأوصاف التي يكثر في المكاتب تكرارها ، ويسقى  
في جريد المراسلات إيرادها وإصدارها : كوصف الأنواء والكواكب ، والأفلاك  
العيية المبرآت ؛ والآلات الملوكية الخليفة المفسد ، والسلاح وآلات الحصار ؛  
والتبيل المسومة ، والجوارح المعلمة ؛ وجليل الوحش وسبابه ، وطير الواجب  
وأنبائه ؛ والأمكنة والرياض ، والمياه والفيض ، وغير ذلك مما يمز ويملو ، ويرفع  
ويملو ؛ وإخوانيات المكاتب وطبقاتها ، وتميز كل طبقة منها عن أخواتها ؛  
وما تشتمل عليه من الابتداء والجواب ، والتشوق والعتاب ؛ والترقى والاعتذار ،

والشفاعة وطلب الصّنع والمقو عند الاقتدار، والتّهاني والتّعازي، وما يكتب مع الهدية ويحاطب عنها من المجازي وغير المجازي .

وغير ذلك من مقاصد المكتبات التي يتعدّد حصّرها، ويمتنع على المستقصي ذكرها، ومعرفة الطفرة والطرة والمُتَوَانِ والتعريف، والعلامة في الكتب على أماكنها الفارقة بين انحطاط القدر والتشريف، وتثريب الكتاب وطية وختمه، وتعمية ما في الكتب بضرب من الحيلة وإخفاء ذلك وكتمه، ونسخ الأيمان التي يُستحلف بها، ويُتمسك للوفاء بسببها، كيمن البيعة العامة للوافي والمخالف، وما يختص من ذلك بالثواب وأرباب الوطائف، وأيمان أصحاب البديع والأهواء، وأهل المال والحكماء، وكتابة الهدن والمواصفات، والأمانات والدفن والمفاحصات، ومعرفة الأسماء والكنى والألقاب، وبيان المستندات وعملها المصطلح عليه بين الكتب، وكتابة التاريخ وما أخذت به كل طائفة ونابت إليه تمسكا، وما يفتتح به في الكتابة تيمنا ويختتم به تبركا، ومعرفة قطع الورق : من كامل البغدادى والشامى والثنين والنصف والثلث والمنصوري والمآده، ومن يستحق من هذه المقادير أعلاها أو يوقف به مع أدنى رتبها من غير زياده، والأقلام المناسبة لهذه الأقدار، من الرقاع والتواقيع والثلث ومختصر الطومار، والعلم بالأوضاع وكيفية الترتيب، ومقادير البياض ومباعدة ما بين السطور والتقريب، ومعرفة الرزايقي وقطانها، والنواحي والبلدان وسكانها، والأهم وممالكها، وطرق الأقاليم ومسالكها، ومراكز البريد ومسافاتهما، وأبراج الحمام ومطاراتها، ونجني النجج والسفن المُنَدَّة لنقله، والمحركات المؤدية إلى اجتياح العدو وتغريق ثملته، والمتاور وأماكنها، والقصد ومكائنها .

هذه رؤسومها على سبيل الإجمال، والإشارة إلى مصطلحاتها بأخصر الأقوال .

وأعلم أن حُسْنَ الخَطِّ من الكتابة واسطة عقيدتها، وقوة الملكة على السَّجْع والأزدواج مَلَائِك حَلَّتْها وعقيدتها؛ على أن خير الخط ما قرئ، وأحسن السَّجْع ما سلم من الكُفِّ وبرئ؛ والكُفُّ في بحر الكتابة سَجْعٌ طَوِيل، وتفنن يُسْفِر عن كُلِّ وجه جميل .

قلت: فهل لهذه الرتبة الرئيسة، والمتنقية النفس، منطقتان، أو سلك يضمها؟  
 فقال : سبحانه الله : إن بيتها لأشهر من قفانك، وأظهر للبيان من شامحات جبال النبك؛ أي تحفى من البذر ضوءه الباهر، ونوره الزاهر؛ ؟ إن ذلك لقاصر على «آل فضل الله» حقاً، ومُنْحَصِرٌ في المقرَّ البدرى صديقاً؛ فهو قُطْبُهَا الذى تدور عليه، وأبْنٌ يجتنبها التى ترجع فى طُومها ورُسُومها وسائر أمورها إليه؛ فلورآه «الفاضل عبد الرحيم» لم يرتفعه فضلاً ولا رضى لفيه مَقَالاً، أو عَيْنَةً «عبد الحميد الكاتب» لقال : هكذا هكذا وإلا فلا؛ أو طاصره «قُدَّامَةُ» بلَّس قُدَّامَهُ، أو أدركه «ابن قتيبة» لا تحذره فى «أدب الكاتب» شيخه وإمامه؛ أو بصر به «الصَّابِى» لصبا إليه ومال، أو قارنَ زمانه «الحسن بن سهل» بل «الفضل» أخوه لأقام بياحه وما زال؛ أو جنح «ابن العديم» إلى مناوئته لأدركه القدم، أو جرى «الصاحب بن عباد» فى مضمار فضله لكبا وزلت به القدم؛ أو أطلع «ابن مقالة» على حُسْنِ خَطِّه لقال : هذا هو الجوهر الثمين، أو نظر «ابن هلال» إلى بهيمة روثقه لقال : إنَّ هذا هو الفضل المبين؛ إن تكلمتَ بحراً، أو كَتَبَ خِلْتَ زهراً أو تحيَّلتَ دُزاً :

يُؤَلِّفُ الْأَشْوَالُ الْمَشُورَ مَطِيقَهُ ، \* وَيَنْظِمُ النَّزَّ بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ !



قد علا نسباً، وفاق حسبا، وورث الفضل لا عن كلاله، وأستحق الرتبة بنفسه وإن كانت له بالأصله :

تَحِيَّاتُ بِالْمَكْرَمَاتِ وَالْعُلَى ، \* وَحَبْلًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدِ الْحَضِ !  
فلما سمعتُ ذلك زال عني الإلباس ، وقلتُ : ذلك من فضل الله علينا وعلى  
الناس . ثم قلتُ : أقسمتُ عليك بالذي تُسِيرُ إليه ، إلا تُلْثِي عليه ؛ فقال : إنه  
صَفِيُّ الْمَلِكِ وَنَجِيه ؛ وَكَاتِبُ سِرِّهِ وَوَلِيه ؛ وَالْقَرِيبُ مِنْهُ إِذَا بَدَلُوا ، وَالْمَخْصُوصُ بِالْمَقَامِ  
إِذَا طُرِدُوا ؛ وَالْمَوْجَّهُ إِلَيْهِ الْخُطَابُ إِذَا حَضَرُوا ، وَالْمُسْتَأْثَرُ بِالْوُرُودِ إِذَا صَدَرُوا ؛  
وَالْمُتَكَلِّمُ لِسَانِ الْمَلِكِ إِذَا سَكَتُوا ، وَالنَّاطِقُ بِفَضْلِ الْخُطَابِ إِذَا بَيَّتُوا ؛ وَالصَّائِلُ  
بِحَسَامِ لِسَانِهِ وَخَطَى قَلْبِهِ ، وَالْحَامِي الْمَالِكِ بِمُجُوشِ سَطُورِهِ وَجُنْدِ كَلِمِهِ ؛ وَالْمُسْتَشْتِ  
تَحْتِ الْعَدُوِّ بِدِيحِ أَفْظَاظِهِ وَدَقِيقِ حِكْمِهِ ؛ وَالْحَاثِرُ قَصَبِ السَّبْقِ بِكَرَمِ فَضْلِهِ وَقَفْضِ  
كَرَمِهِ ، وَالْمُرَوِّى ظَمًا الْوَافِدِينَ إِلَيْهِ بِوَاكِفِ وَبَلِّهِ وَفَائِضِ دِيَمِهِ ، وَالْمُجَلِّي غِيَابِ  
الظُّلَمِ بِنِيرِ بَدْرِهِ وَمُضَى أَنْجِهِ :

فَمَا زَالَ بَدْرًا فِي سَمَاءِ سَيَادَةِ \* يُسَارُّ إِلَيْهِ فِي الْوَرَى بِالْأَنَامِلِ :  
بَسِيطِ مَسَاعِي الْجِدِّ يَرْكَبُ نَجْدَةَ \* مِنْ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَبَدَلِ الْفَوَاضِلِ ؛  
إِذَا سَأَلَ أَعْيُنُ السَّامِعِينَ جَوَابَهُ \* وَإِنْ قَالَ لَمْ يَبْرُكْ مَقَالًا لِقَائِلِهِ !  
قلتُ : حَسْبُكَ ! قد دلّني عليه عَرَفُهُ ، وَأَرْشَدَنِي إِلَيْهِ وَصْفُهُ ؛ وَإِنْ لِي مَحْتَدُهُ  
الْقَانِرُ وَخَسْبُهُ الصَّمِيمُ ، وَعَرَفْتُ أَصْلَهُ الْإِزَاكِي وَقَرَعَهُ الْكَرِيمُ ، ( ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ  
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ) .

ثم عَرَجْتُ إِلَى حِمَاهُ ، وَمَلْتُ إِلَى حَيِّ كَيْ أَرَاهُ ؛ فَلِذَا بِهِ قَدْ بَرَزَ تَلَلًا أَنْوَارُهُ ،  
وُشْرِقَ بِالْجَلَالَةِ أَقْسَارُهُ ؛ قَدْ عَاتَهُ الْمَيْمَةُ وَعَشِيَتْهُ السَّكِينَةُ وَحَفَّتَهُ الرِّيَاسَةُ وَجَلَّلَتْهُ  
السَّعَادَةُ ، وَحَكَمَتْ بِرِزْمَالِ قُدْرِهِ الْأَفْعَالُ بِمَا أَقْتَضَتْهُ الْإِرَادَةُ .

فلما رأيته استصغرت الرتبة مع شرفها الباذخ في جانبهِ ، وعلمتُ أن ما تهتمُّ  
من المذبح لم يُوفِّ حقَّه ولم يَمَّ بعض واجبه ؛ فطلبتُ هيئة إقداى ، وحالتُ حرمته  
بني وبين سراى ؛ فقلتُ : إنا لله ! قد فأنقني مآربي ، ورجعتُ من قورى إلى  
صاحبي ؛ فأظهرتُ له الأسف ، وقصصتُ عليه القصة قال : لا تحف ؛ إنها لمقبة  
عمرية ، وأثرة عديويه ؛ فالقاروق جده ، وبنو عدي قيسله وجنده .

هذا وإنه لألطف وأرق من النسيم السارى ، والماء الجارى ؛ وأخى من العذراء  
في خنبرها ، وأشفق من الوالدة إذا صمت ولدها إلى صدرها ؛ وأحلم من « معن بن  
زائده » ، وإن كان أفصح من « قس بن ساعدة » :

يُبْضِي حَيَاءً وَيُبْغِضِي مِنْ مَهَابَتِهِ \* فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَنْتِمِ !

بالزائم القاروقية فُتحت الأمصار ، وبالتمية العمرية أقر المهاجرون والأنصار ؛  
ويشهد لذلك قصة « ابن عباس » في العول وسكوته في خلافة عمر وصمته ، وجوابه  
بعد ذلك للقاتل له : هلا قلت ذلك في زمن عمر ؟ بقوله : إنه كان مهيباً فیهته ؛  
كيف ؟ وما سلك بك إلا وسلك الشيطان بك غير بكه وضافت عليه الفجاج ،  
ولم تُماثل هيئة بهية غيره وإن عظمت سطوته حتى قال الشعبي : إن درة عمر  
لأهيب من سيف المججاج ؛ وهو مع ذلك يلطف بالأرايل والمساكين ، ويعين  
الفقراء والمحتاجين ؛ فقد اتضح لك القضية ، وتحققت أنها سمات إرثية .

فبعد ذلك ذهب روى ، وقوى روى ؛ وقلت : فهل له أتباع من الكُلاب  
فأتلق ببيالميم ، وأتسمى بهم في أقوالهم وأفعالهم ؟ ؛ لكى أتم بسمه الكُلاب ، وأثبت  
في جملة غلمان الباب ؛ قال : أجل ! رأس النمس الشريف صنوه الكريم ،  
وقيسمي في حسبه الضميم ؛ به شد عضده ، وقوى كعبه ؛ فأجتمع الفضل له

ولأخيه ، وورثا مير أبيهما « والولد مير أبيه » ؛ ثم كتّاب ديوان الإنشاء جُنْدُه  
وأثبانه ، وأوليائه وأشياؤه ؛ وكتّاب الدست منهم أرفع في المقام ، وكتّاب الدرج  
أجدر بالكتابة وصنعة الكلام .

قلت : القسم الثاني ألقى بمقداري ، وأقرب إلى أوطاري ؛ ثم ودعت صاحبي  
شاكرا له على صنيعة وحامدا له على أدبه ، وتركته ومضيت وكان ذلك آخر العهد  
به ؛ ثم عدت إليه هو فرقت إليه قصتي ، وسأله الإسعاف بإجابة دعوتي ؛  
فقابلها بالقبول ، وأنعم بالسؤال ؛ وقررتني في كتابة الدرج الشريف ، وأكفني  
بالعرف عن التعريف ؛ وطاب لي الخبر والخبر ، واستغيت العيان عن الآخر ؛ ثم فُت  
عجلا ، وأنشئت مرعجلا :

إذا ما بنو الفاروق في المجد أعرقوا ، \* ونالوا بفضل الله مالا كثره ،  
وجلت دجى الظلمات أنوار بدرهم ، \* وعمت قاع الأرض أنواء فضله ،  
تعال تدري العلاء فيهم وأنشئت : \* أبي الفضل إلا أن يكون لمنه !

ثم تشرفت بتقيل يده ، ومضيت إلى ما أنا بصده ؛ قد منعتني هيتي من اللباز  
به والقرب إليه ، وصبرت طاطر مدني وخالص أدبتي وقفا عليه ؛ وصرت إلى  
الديوان ، فوجدت قوما قد حَفَّهم الحُسْنُ وزانهم الإحسان ؛ فقلت : الحمد لله !  
هؤلاء فتية ذاك الكهف بلا أمراء ، وأشباه ذاك الأسد من غير أقرناء ؛ فجلست  
جلوس الغريب ، وأطرقت أطراق الكئيب ؛ إذ كنت في هذه الصنعة عصاميا  
لاعظاميا ، ومثما لانياميا ؛ غير أني تعلقت منها بجبال القمر ، واستوقفت نازها  
من أصغر الشرر ؛ فلتقوني بالرحب ، وأحلووني من ديوانهم بالمكان الرحب ؛ وقابلوني  
بالجبل قبل المعرفه ، وعاملوني بالإحسان والنصفه .

فلما رأيتُ ذلك منهم حَدِثْتُ مَمْرَأَى ، وشكرتُ مَسْعَاىَ ؛ ودَعَوْتُ لِمَصَاحِبِي أَوَّلًا  
إِذْ حَبَّبَ صَنَعَتَهُمْ إِلَيَّ وَشَاقَقَنِي ، ودَلَّنِي عَلَيْهِمْ وَسَاقَقَنِي .

ولما تَحَقَّقْتُ أَنِّي قَدْ أَتَيْتُ فِي دِيْوَانِهِ ، وَكُنَيْتُ مِنْ جُمْلَةِ غُلَامَانِهِ ؛ رَجَعْتُ  
الْقَهْقَرَى عَنْ طَلَبِ الْكَسْبِ ، وَأَسْتَوَيْتُ عِنْدِي الْمَحَلَّ وَالْخَصْبَ ؛ وَأَكْتَفَيْتُ  
بِنَظَرِي إِلَيْهِ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَتَيَقَّنْتُ أَنَّ نَظْرَةً مِنْهُ إِلَيَّ تُرَقِّقُنِي إِلَى السَّحَابِ ؛  
وَتَلَوْتُ بِلِسَانِ الصَّدِّيقِ عَلَى الْمَلَأِ وَهُمْ يَسْمَعُونَ : ﴿ قُلْ يَفْضِلُ اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ فَبِذَلِكَ  
فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وفيا تَضَمُّنَتِهِ هَذِهِ الْمَقَامَةَ مِنْ فَضْلِ الْكِتَابَةِ وَشَرَفِ الْكُتَّابِ مَقْنَعٌ مِنْ غَيْرِهَا ،  
وَنُفَى عَنْ سِوَاهَا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالْمِنَّةُ .



وهذه تُسَمَّنَةُ مَقَامَةٍ أَنْشَأَهَا أَبُو الْقَاسِمِ الْخُوارِزْمِيُّ فِي لِقَائِهِ لِأَدِيبٍ بِعَرَفٍ بِالْهَيْئَةِ ،  
وَأَنْقَطَاعِهِ فِي الْبَحْثِ ، وَغَلَبَةِ الْخُوارِزْمِيِّ لَهُ . أوردَهَا أَبُو حَمْدُونٌ فِي "تَذَكُّرَتِهِ" وَهِيَ :  
وَصِيَّةٌ لِكُلِّ لَيْبٍ ، مُتَقَيِّظٌ أَرِيبٌ ، عَالِمٌ أَدِيبٌ ؛ يَكْرَهُ مَوَاقِفَ السَّقَطَاتِ ، وَيَحْفَظُ  
مِنْ مَصَادِفِ الْغَلَطَاتِ ، وَيَتَلَطَّفُ مِنْ مُخْزِيَاتِ الْفَرَطَاتِ ؛ أَنْ يَدْعَى دُونَ مَقَامِهِ ،  
وَيَقْتَصِرَ مِنْ مَمَامِهِ ، وَيَنْصُزَ مِنْ مِمَامِهِ ؛ وَيُظْهِرَ بَعْضَ شِكِمَتِهِ ، وَيُسَاوِمَ بِأَيْسَرِ  
قِيمَتِهِ ، وَيَسْتَرْ كَثِيرًا مِنْ بَضَائِعِهِ ، وَيَكْتُمُ دَقِيقَ صِنَاعَتِهِ ، وَلَا يَبْلُغُ دَقِيقَ غَايَةِ  
أَسْطَاعَتِهِ ؛ وَأَنْ يُبَايِسَ النَّاسَ بِصَدَقِ الْمُنَاسَحَةِ ، وَجَمِيلِ الْمُسَاحَدَةِ ؛ وَأَنْ لَا يَجْهَلَ  
الِإِعْجَابَ بِمَا يُحْسِنُهُ ، عَلَى الْأَزْدَرَاءِ بِنِيسَتَقَرُّهُ ، وَالْأَقْرَاءَ عَلَى مَنْ يَتَوَرَّضُهُ وَيُسْنِنُهُ ؛  
لِيَكُونَ خُبْرُهُ أَكْثَرَ مِنْ خَبَرِهِ ، وَنَظَرُهُ أَرْوَعَ مِنْ مَنَظَرِهِ ؛ وَيَكُونَ أَقْرَبَ مِنَ الْإِعْتِزَالِ ،  
وَأَبْعَدَ مِنَ التَّجَلُّلِ وَالْإِنْكَسَارِ .

فليس القتي من قال: إني أنا القتي، \* ولكنه من قيل: أنت كذلك.

وكم مدح ملكا بغير شهادة \* له بحجة إن قيل: أن لست مالا!

واقعد نصرت بالانقضاء، على ذي نباهة وأرتفاع؛ وذلك أني أضعت في بعض الأعوام، مع جماعة من العوام؛ بين تاجر وزائر، إلى العزل والحارث؛ حتى آتينا إلى قرية شاريه، أهلية زارعه؛ وبما لنا إلا من أمته السمرية فأعرضته، وأسقمته وأمرضته، وقترته فقبضته؛ وكثر منا الخوار، وأستولى علينا الثوار؛ فخرجنا منها نروج المسجون، وقد هوسنا هوس المرجون؛ فاسترحنا بالعمود، من طول القعود:

كأنتا الطير من الأفاص \* ناجية من أحبل القاص،

طية الأئس بالخلاص \* منفضات الريش والنواصي!

فما استتمت الراحة، ولا استقرت بنا الراحة؛ حتى وقف علينا واقف، وهتف بنا هاتف؛ أيكم الخوارزين؟ فقالوا له: ذلك الغلام المنفرد، والشاب المستند؛ فاقبل إلى، وسلم على؛ وقال: إن الناظر يستريك، فليجبل إليه مصيرك؛ فقمث معه، يتقاسمني وأتبعه؛ حتى انتهى بي إلى جلة من الرجال، ذوي بهاء وجلال، وزينة وجمال؛ من أشراف الأمصار، وأعيان ذوي الأخطار؛ من أهل واسط وبغداد، والبصرة والسواد.

ترى كل مرهوب الهامة لا يما \* على وجه بدر تحته قلب ضيق!

فقام إلى ذو المعرفة لإكرامه، وساعده الباقون على قيامه، وأطال في سؤاله وسلامه؛ وجذبوني إلى صدر المجلس فأبيت، ولزمت ذنابه وأحيت؛ وأخذوا

يَسْتَحْزِنُونِي عَنِ الْحَالِ، وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَالِ؛ وَدَاعِيَةَ الْارْتِحَالِ؛ وَعَنِ النَّيَةِ وَالْمَقْصِدِ،  
وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَالْحَيْرَانَ وَالْبَلَدِ .

وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا حَفِيَّ مُسَائِلٍ، \* وَوَاصِفُ أَشْوَاقٍ وَمُثْنٍ بِصَالِحٍ،  
وَمُسْتَشْفِعٌ فِي أَنْفِ أَقِيمَ لَيَالِيَا \* أَرْوَحُ وَأَغْدُو عِنْدَهُ فَيَرْجِحُ !

ثم قال قائلهم : هل لقيتَ عَيْنَ الزَّيْمَانِ وَقَلْبَهُ، وَمَالِكَ الْفَضْلِ وَرَبَّهُ، وَقَلْبَ الْأَدِيبِ  
وَعُزْبَتِهِ، إِمَامَ الْعِرَاقِ، وَتَمَسَّ الْأَفَاقَ؟ فَقُلْتُ : وَمَنْ صَاحِبُ هَذِهِ الصَّنْفَةِ الْمَهْوَلَةِ،  
وَالْخِلَاةِ الْمَجْهُولَةِ، فَقَالُوا : أَوْ مَا سَمِعْتَ بِكَامِلِ هَيْتِ، ذِي الصَّوْتِ وَالصَّيْتِ ؟ :

ذَاكَ الَّذِي لَوْعَاشَ [دَهْرًا] إِلَى \* زَمَانِهِ ذَا وَأَبْنُ صُوحَانَ،  
وَأَبْنُ دُرَيْدٍ وَأَبُو حَاتِمٍ \* وَسَيِّوِيَّةٍ وَأَبْنُ سَعْدَانَ،  
وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ وَأَبْنُ الْعَلَا \* وَأَبْنُ كُرَيْزٍ وَأَبْنُ صَفْوَانَ،  
قَالُوا مَجَابٌ كُلُّهُمْ : إِنَّهُ \* سَيِّدُنَا، أَوْ قَالَ : غُلَامَانِي .

فَقُلْتُ لَهُمْ : قَدْ قَلَّدْتُمُ الْمَنَّةَ، وَهَيَّجْتُمُ الْحَنَّةَ؛ إِلَى لِقَاءِ هَذَا الْعَالِمِ الْمَذْكُورِ، وَالسَّيِّدِ  
الْمَشْهُورِ؛ وَقَدْ كَانَتْ الرِّيحُ تَأْتِنِي بِنَفَسَاتِ هَذَا الطَّيِّبِ، وَهَدِيرِ هَذَا الْخَطِيبِ؛  
فَالآنَ لَا أَتَرُّ بَعْدَ عَيْنٍ، سَأَصْبِحُ لِأَجَلِهِ عَنْ سُرَى الْقَيْنِ؛ أَخْتِنَامًا لِلْفَائِدَةِ، وَالنَّعَمِ  
الْبَارِدَةِ، وَوُجْدَانًا لِلضَّالَّةِ الشَّارِدَةِ .

أَيْنَ أَمْضَى وَمَا الَّذِي أَنَا ابْنِي \* بَعْدَ إِدْرَاكِ الْمُنَى وَالطَّلَابِ؟  
فَإِنَّمَا وَجَدْتُ عِنْدَكُمْ الْعِلْمَ قَرِيبًا فَبِأُرِيدُ الثَّوَابَ .  
إِذْهَبُوا أَتَمُّ فُزُورُوا عَلَيَّا : \* لَا زُورَ الْهَيْتِي وَالْآدَابَا :  
لَنْ أَبَالِيَ إِنْ قَبِلَ الْجَوَارِزُ \* عَنِّي أَسْطَافُهُ أَوْ أَصَابَا !

فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ : بَلْ أَصَبْتَ ، وَوَجَدْتَ مَا طَلَبْتَ ؛ وَقَدِيمًا كَمَا تُنْشَرُ أَعْلَاقُكَ ،  
وَتَنَمَّى أَغْصَانُكَ ؛ وَتَسْدُلُ أَوْصَافُكَ ، وَتُحِبُّ مِصَافُكَ ؛ وَتُكْرِ لَدَيْهِ ذِكْرُكَ ، وَتُعْظَمُ  
لَدَيْهِ قُدْرُكَ ؛ فَيَحْزَنُكَ مِنْكَ سَاكِنُهُ ، وَتَتَقَلُّلُ بِكَ أَمَّاكِنُهُ ؛ وَنَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ  
يَجْمَعَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ بِمَحْضَرِنَا ، وَتُلاَمِحَ عَيْنُكَ عَيْنَهُ بِمَنْظَرِنَا ؛ وَيُلْتَفَّ غُبَارُكَ بِغُبَارِهِ ،  
وَيَمْتَرِجُ تِبَارُكَ بِتِبَارِهِ ، وَيَخْتَلِطُ مِصْهَارُكَ بِمِصْهَارِهِ ؛ فَيَعْرِفُ مِنْكَ السَّابِقُ وَالسَّكِينُ ،  
وَالسُّودَانِيُّ وَالْكُمَيْتُ ؛ وَيَتَبَيَّنُ مِنَ الذِّى يَتَوَى الْقَصَبُ ، فَانْكَحَا قَالَ الشَّامِرُ :

هَمَّا رُحْمَانِ خَطِيَّانِ كَانَا \* مِنْ السُّمْرِ الْمُتَقَفِّهِ الصَّعَادِ

تَهَالِ الْأَرْضُ أَنْ يَهَلَّا عَلَيْهَا \* بِمِثْلِهِمَا تُسَالِمُ أَوْ تَسَايِ !

فَقَالَ [بَعْضُ الْجَمَاعَةِ] لَقَدْ تَنَكَّبْتُمْ الْإِنْصَافَ ، وَأَخْطَأْتُمُ الْاِعْتِرَافَ ؛ وَأَبْجَدْتُمُ  
الْقِيَاسَ ، وَأَوْقَعْتُمُ الْاَلْبَاسَ ؛ أَيْنَ ابْنُ ثَلَاثِينَ ، إِلَى ابْنِ ثَمَانِينَ ؟ ؛ وَأَبْنُ اللَّبُونِ ،  
مِنَ الْبَازِلِ الْأُمُونِ ؟ ؛ وَالرَّيْحُ الرَّازِحُ ، مِنَ الْحَوَادِ الْقَارِحِ ؟ ؛ وَالْكُودُنُ الْمَبْرُوضُ ،  
مِنَ الْكُحْرِبِ الْمَرُوضِ .

وَأَبْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لَزَّ فِي قَرْنٍ \* لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبَزْلِ الْقِتَاعِيْسِ !

كَمْ لَدَيْهِمْ بَطَالِخٌ وَسَبَاحٌ ، وَسَاكِنٌ صَرَائِفٌ وَأَكْوَاخٌ ، مِنْ يَدِيهِ سَوَادِيَةُ أَنْبَاطٍ ،  
وَصُلُوحٌ أَشْرَاطٍ ، وَرِطَاعٌ أَخْلَاطٍ ، وَسُفْلٌ سُقَاطٌ ؛ فِي بِلْدَةٍ إِنْ رَأَيْتُ سُورَهَا ،  
وَعَبَرْتُ جُسُورَهَا ، حِجَّتْ : وَاعْرَبْتَاهُ ، وَإِنْ رَأَيْتُ وَجْهًا فَرِيًّا نَادَيْتُ : وَابْتَاهُ ؛  
لَا أَعْرِفُ غَيْرَ النَّبِطِيَّةِ كَلَامًا ، وَلَا أَلْفَى سِوَى وَالِدِي إِمَامًا ؛ فِي مَعْشَرٍ مَا عَرَفُوا  
التَّرْحَالَ ، وَلَا رَكِبُوا السُّرُوجَ وَالرَّحَالَ ، وَلَا فَارَقُوا الْحِدَارَ وَالطَّلَالَ .

أُولَئِكَ مَعْشَرُ كَبَنَاتِ نَعِشٍ \* خَوَالِفَ لَا تَتَوَرَّعُ مَعَ النُّجُومِ !

[فأثني له] بمصاوله رَجُلٌ جَوَّالٌ، رَحَالٌ حَلَّالٌ، بَيْتٌ وَضِعٌ، وَبِالْكُوفَةِ أَرْضُوعٌ؛ وَبِغَدَادٍ أَثَرٌ، وَبِوَاسِطٍ أَحْفَرٌ؛ وَبِالْحِجَازِ وَتِهَامَةَ فِطَامُهُ، وَبِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ كَانَ أَحْتِلَامُهُ؛ وَبِتَحِيدِ الشَّامِ بَقْلٌ عَارِضُهُ، وَبِالْيَمَنِ وَعَمَانَ قَوِيَّتٌ نَوَاضُهُ، وَبِجُرَّاسَانَ بَلِغٌ أَشَدُّهُ، وَبِخِزَارًا وَبِمَرْقَنْدَ تَهَامِيٍّ جِلْدُهُ، وَبِغَزَنَةَ وَالْهِنْدِ شَابٌ وَأَكْثَلُ، وَمِنْ سِيحُونَ وَجِيحُونَ عَلٌّ وَنَهْلٌ؛ وَبِمِيسَانَ وَالبَصْرَةَ عَوْدٌ وَفَرِحٌ، وَبِالْجِبَالِ جَلِيلَةٌ وَجَلِجٌ، فَهُوَ يَمْدُ «الْمَازِنِي» لِإِمَامِهِ، وَأَبْنُ «جَنِّي» ذَلَامَةٌ؛ وَ«الْمُتَنَبِّيُّ» مِنْ رُؤَايِهِ، وَ«الْمَعْرِي» حَامِلٌ دَوَائِهِ، وَ«الصَّابِي» بَارِي قَلْبِهِ، وَ«الصَّاحِبُ» رَافِعٌ عَلَيْهِ؛ وَ«أَبْنُ مُقْلَةٍ» مِنْ نَاقِلِ غَاشِيَتِهِ، وَ«بَنِي أَبِي حَفْصَةَ» بَعْضُ حَاشِيَتِهِ؛ وَقَدْ قَرَأَ الْكُتُبَ وَتَلَّاهَا، وَحَفِظَ الْعُلُومَ وَرَوَاهَا، وَدَرَسَ الْأَدَابَ وَوَعَاهَا؛ وَدَوَّنَ الدَّوَاوِينَ وَالْفَهَاءَ، وَأَنْشَأَ الْحِكْمَ وَصَنَّفَهَا، وَفَصَّلَ الْمَشْكَلَاتِ وَشَرَحَهَا، وَأَرْتَجَلَ الْخُلُطَبَ وَقَسَّحَهَا، فَهُوَ الْبَحْرُ الْمُرُودُ، وَالْإِمَامُ الْمَقْصُودُ، وَالْعِلْمُ الْمَقْصُودُ، هَذَا بَوْنٌ وَمَرْتَقَى شَدِيدٌ.

أَتَقُونُ بِالْأَعْزَلِ الرَّاحِمَا، \* وَبِالْأَكْثَفِ الْحَاسِرِ النَّارِطَا،

وَبِالْكُودِنِ السَّابِقِ السَّامِعَا، \* وَبِالْمُنَجِّلِ الصَّابِرِ الْقَاطِعَا؟

فَمَا أَسْتَمُ كَلَامَهُ حَتَّى أَقْبِلَ : فَإِذَا نَحْنُ بِهِ قَدْ طَلَعَ مُهْرُولا، وَأَقْبَلَ مُسْتَعْبِلَا؛ فَرَأَيْتُ رَجُلًا أَجْلَعَ، أَهَمُّ أَفْلَحَ، أَفْطَحَ أَزْدَحَ؛ طَوِيلًا عَنطَلَطَ، يَحْكِي ذَنْبًا أَمْعَطَ، أَجْمَعُ أَحْبَطَ؛ قَلَقَوْهُ مُعْظَمِينَ، وَلَهُ مُفْخِمِينَ؛ فَقَصِدَ فِي الْخَيْلِ صَدْرَهُ، وَأَسْنَدَ إِلَى الْخِدَّةِ ظَهْرَهُ؛ فَمَا أَبْهَقَ بِهِ الْمَكَانَ، حَتَّى قِيلَ لَهُ : هَذَا فَلَانٌ؛ فَقَبِضَ مِنْ أَفْهِهِ، وَنَظَرَ إِلَى بَشِيرٍ مِنْ طَرَفِهِ؛ وَقَالَ يَبْعُضُ فِيهِ، هَلُمُّوا مَا كُنْتُمْ فِيهِ؛ تَمَسَّا لِلشَّوَاهِ وَجَالِييَهَا، وَالْقَرَاءِ وَحَالِيهَا :

جَاءَ زَيْدٌ مُجَرَّرًا رَسَنَةً \* فَحُلَّ لَا يَمْنَعُهُ سَفَنَةً (؟)

أَحَبَّهُ قَوْمُهُ عَلَى شَوْوٍ \* إِنَّ الْقَرْنِيَّ فِي مَعِينِ أَمَّهَا حَسَنَةً !



كان لنا شيخ بالأنبار، كثير الأخبار؛ قد بلغ من العمر أملاء، ومن السن أعلاه؛  
قرأت عليه جميع الكتاب، وعلم الأنساب؛ و”مسائل ابن السراج“، و”ديوان“  
ابن الجليج“، و”كتاب الإصلاح“، و”متمشروح الإيضاح“؛ وشعر الطرماح،  
و”العين“ للفهرودي، و”الجمهرة“ للأزدى؛ وأكثر من المصنفات، المجهولات  
والمعروفات؛ ينفع في شفايقه، ويزيد في بآيقه، ويتعاطف في مخارقه؛ وجعل  
القوم يقسمون بيننا الألفاظ؛ ويحسبون الألفاظ؛ وما منهم إلا من اغتاط لسكوتي  
وكلامه، وتأثري وإقدامه .

ثم هذى الشيخ إذ وُصف له رجل على الغيب ثم رآه، فاحتجّره وأزدرأه؛  
وأشدّ ممثلاً :

لعمريك تسمع بالمعيدي \* بعيد الدار خير أن تراه

فقال : هذا المعيدى هو صمرة، بن صمرة، بن جابر، بن قطن، بن نهمش، بن  
دارم، بن مالك، بن حنظلة، بن مالك، بن زيدمئة، بن تميم، بن مرة، بن أد،  
ابن طابخة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان . والمعيدى تصغير  
معدى، وهو الذى قالت فيه تاديتة :

أنى الكريم التهمش المصطفى \* أكرم من خامر أو تخنفا!

فقلت : ما بعد هذا المقال، وجه للاحتال؛ وما يجب لى بعد هذه المواقفة،  
غير المكافئة؛ ولم يبق لى بعد المبالغه، من مراقبه :

ما علتى وأنا جلد نابيل<sup>(١)</sup> \* والقوم فيه وتر حائل

\* ترل عن صفحه المعال !

(١) كذا فى اللسان فى مادة - عل - وفى مادة حائل ”خب خائل“ .

ما ملئني وأنا [رجل] جلد \* والقوس فيه وتر عرود  
\* مثل ذراع البكر أو أشد \*

فَعَطَفْتُ عَلَيْهِ عَطْفَ النَّائِرِ الْعَاسِفِ ، وَأَلْقَيْتُ إِلَيْهِ أَلْفَاتِ الطَّائِرِ الْخَاطِفِ ؛  
قُلْتُ لَهُ : يَا أَخَاهَيْتِ ، قَدْ قُلْتَ مَا شِئْتَ ، فَاجِبِ الْآنَ إِذَا دُعِيتَ ؛ وَأَكْزِمِ مَكَانَكَ ،  
وَعُضْضَ مَنَازِكَ ، وَقَصِّرْ لِسَانَكَ ؛ إِنَّ نَادِيَةَ ضَمْرَةٍ خَنَدَتْهُ ، لَمَّا وَصَفْتَهُ ؛ وَمَا مِمْتُ  
فِي نَيْسَبِكَ إِيمَاءَ خَنْدِيفٍ ذِكْرًا ، فَأَبْنِ عَنْ ذَلِكَ حُدْرًا ؛ فَقَالَ : إِنْ خَنَدِيفٌ هِيَ أَمْرَأَةٌ  
أَلْيَاسُ بْنُ مُضَرَ ، غَلَبَتْ عَلَى بَنِيهَا فَلْيَسُبُّوا إِلَيْهَا ، كُطَهْمَةَ وَمُزَيْنَةَ ، وَلَعْدُونِيَّةَ وَمُزَيْنَةَ ،  
وَالسَّلَكَةَ وَجُهَيْنَةَ ، وَنُدْبَةَ وَأَذِينَةَ ؛ وَكَشَيْبَ بْنِ الْبَرْصَاءِ وَابْنَ الدَّقْنَمَاءِ . قُلْتُ لَهُ :  
سُئِلْتُ ، فَاجِبْتَ وَأَصْبَحْتَ ؛ فَأَخْبِرْنِي عَنْ خَنْدِيفٍ هَلْ هُوَ أَسْمٌ مَوْضُوعٌ ، أَوْ لَقَبٌ  
مَصْنُوعٌ ؟ فَوَقَّفَ عِنْدَ ذَلِكَ حِمَارَهُ ، وَتَمَلَّتْ نَارُهُ ، وَرَكَدَ جَرِيَانُهُ ، وَسَكَنَ هَدْيَانُهُ ،  
وَقَرَّ ظِلَانُهُ ، وَظَهَرَ حِرَانُهُ ؛ وَذَلَّ وَأَقْتَمَعَ ، وَأَطْطَوَى وَأَجْتَمَعَ ؛ فَاضْطَرَّهُ الْحَيَاءُ ، وَالْجَاهُ  
الِاسْتِجْلَاءُ ؛ إِلَى أَنْ قَالَ وَهُوَ يُخْفِي لَفْظَهُ ، وَيُطْرِقُ لَحْظَهُ : أَظُنُّهُ لَقَبًا . قُلْتُ : هُوَ  
كَمَا ظَنَنْتَ فَمَا مَعْنَاهُ وَمَا سَبَبُهُ ؟ وَكَيْفَ كَانَ مُوجِبُهُ ؟ فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يَقُولَ :  
لَا أَدْرِي ، فَقَالَ وَقَدْ أَذَقْتَهُ مَرَّ الْإِمَامَةِ ، وَأَحْسَسَ مِنَ الْقَوْمِ بَتِّظَامِيرِ الشَّمَاهَةِ :

وَوَدَّ يَجِدُجَ الْأَنْفِ لَوْ أَنَّ صَحْبَهُ \* تَنَادَا وَقَالُوا فِي الْمَنَاجِ لَهُ : نَمَ !

ثُمَّ أَقْبَلُوا إِلَيَّ ، وَعَكَفُوا عَلَيَّ ؛ بِأَوْجِهٍ مُتَهَلِّلَةٍ ، وَالسِّنَةِ مُتَوَسِّلَةٍ ؛ فِي شَرْحِ الْحَالِ ،  
وَالْقِيَامِ بِجَوَابِ السُّؤَالِ ؛ قُلْتُ : هَذَا بَدِيعٌ عَجِيبٌ ، أَنَا أَسْأَلُ وَأَنَا أُجِيبُ ؛ إِنْ أَلْيَاسُ  
أَبْنُ مُضَرَ تَرْجِيحُ بَلَى بَلَّتْ تَعْلِبَةُ <sup>(١)</sup> ، بِنِ سُلْوَانَ ، بِنِ الْخَلَّافِ ، بِنِ قُضَامَةَ ، بِنِ مَعْدَدِ ،  
(فِي بَعْضِ النَّسَبِ) ، فَوَلَدَ لَهُ مِنْهَا : عَمْرُو وَطَامِرٌ وَعُمَيْرٌ . فَقَدَّسَتْهُمُ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَالْحَيُّ

(١) صحابه بنت سلوان بن عمران .

على ليل باللوم، قال: أخرجني في أثرهم، وأتيني بخبرهم؛ ففعلت في طلبهم، وعادت بهم؛ فقالت: ما زلت أحنف في أتباعهم، حتى ظفرت بلغاتهم؛ فقال لها الياقوت: أنت خنيفة. واختلفة في الكبايع، تقارب الخطوف إسرار؛ وقال عمرو: يا أباي أنا أدركت الصبيد قلوبته، فقال له: أنت مبركة إذ حوتته. وقال عامر: أنا طبخته وشويته. فقال له: أنت طائخة إذ شويته. فقال عمير: أنا أقمعت في الخلاء، فقال له: أنت قسعة للاختباء؛ فلصقت بها وبهم هذه الأقاب، وجررت بها إليهم الأساب.

فقال حينئذ: هذا علم أستفدته، وفضل استردته؛ وقد قال الحكيم: مذكرة ذوي الأبواب، نساء في الآداب. فقلت له متملا:

أقول له والرخ ياطر منته \* كامل خفانا: إني أنا ذللك!

ثم لم يمتدح إلا قليلا، ولم يمسك طويلا؛ حتى ماد إلى هديره، وأخذ في تهديره؛ طعما بأن يأخذ بالتار، ويسود الفيض له في القمار؛ فعلى عن العلوم النسيه، وجال في ميدان العريه؛ ولم يحس أن بامه فيها أقصر، وطرفه دون حقائقها أحسر؛ فقال: حضرت يوما حلبة من حبات العلوم، وموسما من مواسم المشور والمنظوم؛ وقد غص بكل خطيب مضجع، وحكم مقنع، وعلم مصدع؛ ولم يبق من كل عتيق صهل، وعتيق صسوال، ومنطيق جوال؛ فاحذوا في فنون المعارضات، وصنوف المناقضات؛ وسلخوا في معاني القريض، كل طويل عريض؛ حتى أخذ السائل منهم بالحق، بيت [الفرزدق] (١):

وعص زمان يا ابن مروان لم يدع \* من المال إلا مسحاة أو جلف!

فَكَثُرَ فِيهِ الْجَدَلُ ، وَطَالَ الْمَقَالُ ؛ وَبِمَنْهُمْ إِلَّا مِنْ أَجَادِ الْقِيَاسِ ، وَأَصَابَ الْقِرَاطُاسُ ؛ وَوَقَعَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَأَتَى بِالْحَقِيقِ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ سَاهُونَ ، وَفِي ضَلَالَتِهِمْ يَمْتَهُونَ ؛ فَتَادَيْتُهُمْ : إِلَى فَسَارِعُوا ، وَمِنِّي فَاسْتَمِعُوا ؛ فَإِنِّي أَنَا ابْنُ بَيْتِيهَا ، وَهَالِكُ مَا تَحْتِ جِلَّتِيهَا ؛ ثُمَّ إِنِّي أَبَدْتُ لَهْمَ سِرَّارِهِ ، وَأَبْقَيْتُ نَارَهُ ؛ وَحَلَلْتُ حَقْدَهُ ، وَخَصَصْتُ زُبْدَهُ ، وَأَطْرَقْتُ لَيْدَهُ ؛ وَبَحَّصْتُ سَجَرَهُ ، وَأَبْتَلْتُهُمْ بِحُجَرِهِ ؛ وَيُجَرِّهْ ، فَقَالُوا : اللَّهُ أَبُوكَ ! فَإِنَّكَ أَسْبَقْنَا إِلَى غَايِهِ ، وَأَكْشَفْنَا لَفْيَايَهُ ؛ وَأَجَلَّاتْنَا لَشَبَّهُهُ ، وَأَضْرَأْنَا فِي بَدْهِهِ ؛ وَمَا أَعْلَمُ الْيَوْمَ عَلَى ظَهَرِهَا مَنْ يَقُومُ بِعِلْمِ مَا فِيهِ ، وَيُطْلِعُ عَلَى خَافِيهِ .

فَادْرِكْنِي الْإِمْتِنَاضَ ، وَأَخَذَنِي الْإِقْتِاضَ ؛ فَاثْنَدْتُهُ :

مَنْ ظَنَّ أَنَّ قَوْلَ النَّاسِ نَاقِصَةٌ \* وَعَقْلُهُ زَائِدٌ أَرَزَى بِهِ الطَّمَعُ !

وَقُلْتُ لَهُ : أَكْذَبْتَ ، فَوْقَ مَا وَعَيْتَ ؛ فَأَخْبَرَنِي عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْبَيْتِ ، يَا مُجَرِّي الْكَيْتِ ؛ وَكَيْفَ تُنْشِئُهُ ؛ وَعَضُّ بِالْفَتْحِ أَوْ وَعَضُّ بِالضَّمِّ ؟ فَقَالَ : كِلَاهُمَا مَرْوِيٌّ ، قُلْتُ : تَبْتَدِئُ بِالْفِعْلِ ثُمَّ تَعُودُ إِلَى الْأَسْمِ يَا ذَا الْإِعْجَابِ ، تَهْنِئُ لِلسَّائِلِ فِي الْجَوَابِ ؛ وَأَخْبَرَنِي لَمْ تَقْصَحْ آخِرَ الْمَاضِي ؟ فَاسْرِعْ مِنْ خَيْرِ التَّنَاضِي ، وَقَالَ : لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ ، لَا يُضَافُ سِوَاهُ إِلَيْهِ . قُلْتُ : هَذَا جَوَابُ تَعْلَمُهُ ، وَمِنْ صِيغِ الْمَكْتَبِ لَا تَعْلَمُهُ ؛ وَإِنَّمَا الْيَمْسُ مِنْكَ الْفَائِدَةُ فِيهَا ، وَأَطْلُبُ كَشْفَ خَافِيهَا . قَالَ : مَا جَاءَ عَنْ أُمِّهِ النَّحَّاسِ ، وَسَائِرِ الرُّوَاهِ ؛ فِي هَذَا غَيْرُ مَا شَرَحْتُهُ ، وَلَا زَادَ عَلَيَّ مَا أَوْصَحْتُهُ . قُلْتُ : دَعِ عَنْكَ هَذَا وَأَخْبِرْنِي عَنْ هَذَا الْبَيْتِ ، أَلَيْلَةٍ أَمْ لَغَيَرِهَا ؟ فَأَقْبَلَ يَتَرَدَّدُ وَيَتَرَحَّرُ ، وَيَتَنَاقَبُ تَارَةً وَيَتَنَحَّحُ . فَلَمَّا سَأَلْتُهُ عَلَيْهِ مِنْ طَرَفِهِ ، وَحَصَلَ فِي مَضِيغِهِ ، وَغَضَّ بِرِيقِهِ ؛ قَالَ : لَا أَعْلَمُ ! . فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ : أَعْلَزَ إِلَيْكَ مِنْ أَلْقَى سِلَاحَهُ ، وَغَضَّ رِمَاحَهُ ؛ وَمَنْ أَدْبَرَ بَعْدَ إِقْبَالِهِ ، حُدِّلَ عَنْ قِتَالِهِ :

والحق أبلغ لا يُحْدِ سَبِيلُهُ \* والحق يعرفه ذوو الألباب !

والآن فقد فازت قِداحُك ، وبانت غُرُركَ وأَوْصاحُك ؛ وأجبتَ النِّضالَ ،  
وأدرَكَتَ الخِصَالَ ؛ فأَوْضِغْ لنا عَمَّا سَأَلْتَ ، وأرشدنا إلى ما دَلَّكَ ؛ لئلا يقال : هذا  
بَهْتٌ ، ومُحالٌ بَحْتٌ ؛ قلتُ حُبًّا وكرامَةً ، اِسْمَعِ أَنْتَ بِاطْفَافِهِ ؛ إِنَّ الفِعْلَ من  
فَاعِلِهِ ، كَالوَلَدِ من نَاجِلِهِ ؛ لا يَخْلُو الفِعْلُ من عَلَامَةِ الفَاعِلِ ، في لَفْظِ كُلِّ نَائِلٍ ؛  
وهي الفَتْحَةُ من مَاضِيهِ ووَاقِعِهِ ، والزَّوَانِدُ في مُسْتَقْبَلِهِ ومُضَارِعِهِ . وبيانُ ذلك :  
أَنَّ الفَتْحَةَ لا تكونُ مع الناء والنون ... فتنبهت الفَتْحَةُ ، ثم تحولتُ : أُنْجِرْتُ  
وأُخْرِجْتُ ، فَسَقَطَ ما ذكرنا ؛ وعلامتان لمعني محال ، لا يوجبهما الحال . فإن كانتِ  
النونُ التي مع الألفِ ضَمِيرَ المَفْعُولِ مَدَّتْ الفَتْحَةُ ، فتقول : أُنْجِرْنَا الأَمِيرُ ، فهذا  
يُن . فَصَبَقْتَ الجماعةُ وصمحت ، وحسنت وبجحت ؛ وجعلَ الأديبُ يضطربُ  
أَضْطَرَابَ المَعْشُورِ ، ويتقلبُ تَقَلُّبَ المَعْشُورِ ؛ مُتَقَبِّلاً أَنَّ أَسَدَهُ صارَ جُرْدًا ،  
وبَازِيَهُ عادَ صُرْدًا ؛ ودوره اَهْلَبُ غُشْلِبًا (؟) ، وزَيْتُونُهُ تحولَ عِرْبًا ، وقناه تَغَيَّرَ  
قَصْبًا ؛ وَأَنَّ مُسْتَقْبَلَهُ تَوَجَّجٌ ، وَجَيْدُهُ تَهَرَّجٌ ، وَحَيِّجُهُ تَدَحَّرَجٌ ، وَجَيْدُهُ تَكَّرَجٌ ؛  
فقال مُشْدِمُهُم :

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ تَرْدَرِيهِ \* وَتَحْتَ يَمَانِهِ أَسَدٌ مَزِيرُ  
وَيُجِيبُكَ الطَّرِيرُ فَتَبْتَلِيهِ \* فَيُخَلِّفُ ظَنَّاكَ الرَّجُلُ الطَّرِيرُ  
فَا عِظْهُمُ الرِّجَالُ لَمْ يَفْخَرِ \* وَلَكِنْ نَحَرُهمُ كَرَّمَ وَخَيْرُ

فَاخَذَهُ الأَبْلَاسُ ، وَضَاقَتْ بِهِ الأَنْفَاسُ ، وَسَكَنَتْ مِنْهُ الحَوَاسُ ، وَرَفَضَهُ  
النَّاسُ ؛ وَجَعَلَ يَتَكَلَّمُ الأَرْضُ ، وَيُؤَاصِلُ بِكَفِّهِ البَعْضُ ؛ وَيَتَشَامَمُ بَيْنُومِهِ ،

ويعود على نفسه بولمه ؛ يَسْحُ جَيْنَه ، وَيُكْثِرُ أَيْنَه . فقامت معي الجماعة  
وَرَكَنَه ، وَأَسْتَهَاتَ به وفَرَكَتَه ؛ فَلَمَّا بَقِيَ وَحْدَه ، تَمَّتْ لِحْدَه ؛ وَأَسْبَلَ دَمْعَتَه ،  
وَوَدَّ أَنْ الْأَرْضَ بَلَعَتْه :

وكان كمثل البومَيْنِ رُومٍ \* تَلُوذُ بِمَقْوِيَه السَّرَاةِ الْأَكْبَرِ ،  
فَأَصْبَحَ مِثْلَ الْأَجْرِبِ الْحَلِدِ مُفْرَدًا \* طَرِيدًا فَاتَدَنُو إِلَيْهِ الْأَبَاغِرُ !

فقام قُبْنِي ، وَوَقَفَ وَوَدَّعَنِي ؛ وَأَطَالَ الْأَحْزَانُ ، وَأَظْهَرَ التَّوْبَةَ وَالْإِسْتِغْفَارَ ؛  
وَقَالَ : مِثْلُكَ مِنْ سَرَّاءِ اللَّحْلِ ، وَأَقَالَ الْمَتْرَةَ وَالزَّلْزَلَةَ ؛ فَقَدْ أَضْرَرْتُ مِنْ سِنِّكَ بِالْحَدَاثَةِ ،  
وَمِنْ أَخْلَاقِكَ بِالسَّمَاةِ . قُلْتُ : كُلُّ ذَلِكَ مَفْهُومٌ مَعْلُومٌ ، وَأَنْتَ فِيهِ مَعْدُورٌ  
لَا مَلُومٌ ؛ وَمَا جَرَى بَيْنَنَا فَهُوَ مَلْنِيْ ضَيْرٌ مَذْكُورٌ ، وَمَطْوِيٌّ ضَيْرٌ مَشْشُورٌ ، وَغَنِيٌّ  
ضَيْرٌ مَشْهُورٌ :

و[جِدَالٌ] أَهْلُ الْعِلْمِ لَيْسَ بِقَالِيحٍ \* مَا يَنْ ظَالِمِهِمْ إِلَى الْمَغْلُوبِ !

ثُمَّ سَكَتَ فَبِأَمَدٍ ، وَتَزَلَّتْ وَعَادَ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ عَهْدٍ بِهِ وَآخِرِهِ ، وَبِاطْنِ  
لِقَاءِ وَظَاهِرِهِ ، وَكُلِّ أَجْتِمَاعٍ وَمَسَائِرِهِ .

## الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة العاشرة

( في الرسائل )

وهي جمیع رسالة ، والمراد فيها أمور يرتبها الكاتب : من حكاية حالٍ من صدو  
أو صديق ، أو مدح وقريض ، أو مفارقة بين شيئين ، أو غير ذلك مما يجري هذا  
المجرى . ومثبت رسائل من حيث إن الأديب المُنشئ لها ربما كتب بها إلى غيره

مُجَرَّداً فيها بصورة الحال، مُفْتَحَةٌ بِمَا تُفْتَحُ بِهِ المَكْتَبَاتُ، ثُمَّ تُوسَّعُ فِيهَا فَاتْفَحَتْ  
بِالنَّطْبِ وَغَيْرِهَا .

ثم الرِّسَالُ عَلَى أَصْنَافٍ :

### الصَّنَفُ الْأَوَّلُ

(مِنْهَا الرِّسَالُ الْمُلُوكِيَّةُ ، وَهِيَ عَلَى ضَرِيْنِ)

### الضَرْبُ الْأَوَّلُ

(رِسَالُ الْغَزْوِ ، وَهِيَ أَعْظَمُهَا وَأَجَلُّهَا)

وهذه نُسخةُ رسالةِ أنشأها القاضي عُمَيُّ الدِّينُ بْنُ عَبْدِ الظَّاهِرِ رَحِمَهُ اللهُ ، فَتَحَ  
[الْمَلِكِ الظَّاهِرَ] لِقَيْسَارِيَّةَ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ ، وَأَقْبَلَهَا مِنْ أَيْدِي التُّتَارِ ، وَأَسْتَبْلَاثِهِ عَلَى  
مُلْكُهَا ، وَجُلُوسِهِ عَلَى تَحْتِ بَنِي سُلْجُوقَ ، ثُمَّ الْعَوْدِ مِنْهَا إِلَى مَمْلَكَةِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ .  
كَتَبَ بِهَا إِلَى الصَّاحِبِ بِهَاءِ الدِّينِ بْنِ حَنَّا ، وَزَيْرِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، وَمَعْرِفَةَ  
مَا كَانَ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ ، وَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ حَالُ تِلْكَ السَّفَرَةِ ، وَهِيَ :

يُقْبَلُ الْأَرْضُ بِسَاحَاتِ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ السَّيِّدِيَّةِ ، الصَّاحِبِيَّةِ الْبَهَائِيَّةِ ؛ لَا زَالَتْ  
رُكَّابُ السَّيْرِ تَحْتَ إِلَى أَرْجَائِهَا السَّيْرِ ، وَصُرُوفُ الزَّمَنِ تُسَالِمُ خُدَّامَهَا وَتُجِلُّ الْغَيْرَ بِالْغَيْرِ ،  
وَلَا بَرَحَتْ مَوْطِنَ الْبَرِّ وَمَعْدِنَ الْجُودِ وَبَحْرَ الْكَرَمِ وَعُكَاظُ الْخَيْرِ ؛ وَيُنْهَى بِعَدِّ رَفْعِ  
أَذْعِيَّتِهِ الَّتِي لَا تَزَالُ مِنَ الْإِجَابَةِ مَحْطَلُهُ ، وَلَا تَبْرَحُ يَدَاهُ بِهَا مَبْسُوطَةً ؛ أَنَّ الْعَيْدَ مِنْ  
شَانِهِمْ إِخْفَافَ مَوَالِيهِمْ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي سَفَرَاتِهِمْ مِنْ عَجَائِبَ ، وَإِطْلَاعِهِمْ عَلَى مَا يَرَوْنَهُ  
فِي غَزَوَاتِهِمْ مِنْ غَرَائِبَ ؛ لِيَقْضُوا بِذَلِكَ حُقُوقَ الْأَسْتِرْقَاقِ ، وَتَكُونَ نِعْمَ سَادَاتِهِمْ قَدْ  
أَحْسَنَتْ لِأَقْوَامِهِمُ الْاِسْتِنْطَاقَ ؛ وَيَتَعَرَّضُوا لِمَا عَصَاهُ يَمُنُّ مِنْ مَرَاكِهِهِمُ الَّتِي  
مَاعَنْتَهُمْ غَيْرُهَا يَتَّقِدُ وَمَا عِنْدَهَا بَاقٍ .

ولما كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد، وأصبح كم له قصيد في مدح هذا البيت الشريف كل بيت منها بقصيد بيت القصيد؛ وأن في ما يره الرسائل التي قد شاعت، وضاعت نقائنها في الوجود وكم رسالة غيرها في غيره ضاعت - رأى أن يخفف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة بلح يختار منها من يؤلف، ويسند إليها من يؤرخ أو يصنف؛ ولما قصد أن يخفف بها أبواب مولانا مع بسط القول وأنساع كتابته، لأن الله قد شرف المملوك بعبودية مولانا : والله أعلم حيث يعمل رسالته؛ فإن كان المملوك قد طوّل في المطارحة، فولانا يتطوّل في المسامحة؛ وإن قال أحد : هذا هذى، فما زال شرح الوقائع مطولا كذا؛ والله ما وُرخ مثلها في التواريخ الأول، ولعمري إن خيرا من سيرة ذلك البطال سيرة هذا البطال؛ والأمر أعلى في قرائتها واستيعابها، والتأمل في تجليها حتى تُسفر حسن نقابها وترفع مسئولى قناعها، ... ..

قد أحاطت العلوم الشريفة بالعزائم الشريفة السلطانية، وأنها استصعبت ذلك، حتى تصبغت المهالك؛ وسرنا لا نستقر بنا في شيء منها قرار، ولا يقتدح من غير سناك الخيل نادر، ولا نتمر على مدينة إلا مرور الرياح على الخمايل في الأصايل والإبتكار؛ ولا نقيم إلا بمقدار ما يقرئ الزائر من الأهبة، أو يترود الطائر من الثقبه؛ تسبق وقد الرّيح من حيث تتجى، وتكاد مواطئ خيلنا بما تسجبه أذيل الصوافين تمتجى؛ تعمل همتا الخيل العتاق، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا الحاق، وكل يقول لسلطاننا نصره الله :

أين أزمعت أي هذا الهام؟ \* نحن نبت الرأ وأنت الغمام!



وَمَرَّ لَا يَضِلُّ السَّيْفُ أَفْعَالَهُ ، وَلَا يَسِيرُ فِي مَهْمَةٍ إِلَّا أَعْمَهُ وَلَا جَبَلٍ إِلَّا طَالَهُ ؛  
تُسَارِهِ السَّوَارِي وَالْقَوَادِي ، وَلَا يَنْفُكُ الْغَيْثُ مِنْ أَنْسِكَابٍ فِي كُلِّ نَادٍ وَوَادِي :  
فَبَاشَرَ وَجْهًا طَالَمَا بَاشَرَ الْقَتَا ، \* وَبَلَّ شَيْبَا طَالَمَا بَلَّهَا الدَّمُ !

وكان مولانا السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بأذراع لامت حريمهم ،  
ونجّل آلات طعنهم وضربهم :

فَجَازَ لَهُ حَتَّى عَلَى الشَّمْسِ حُكْمَهُ ، \* وَبَانَ لَهُ حَتَّى عَلَى الْبَدْرِ مِيعَهُ .  
بِمُدِّ يَدَيْهِ فِي الْمُقَاضَاةِ ضَعِيفٌ \* وَعَيْنُهُ مِنْ تَحْتِ الثَّرِيكَةِ أَرْقَمُ !

ورحلوا من حلب في يوم الخميس ثاني ذي القعدة جرائد على الأمر المعهود ،  
قد خففوا كل شيء حتى البُود والعمود ؛ فسيرنا في جبال نشتهى فيها سلوك الأرض ،  
وأودية تهلك الأشواط فيها إذا ملئت الفروج من الركنض ؛ تزور دياراً ما يُحِبُّ  
مُتْنَاهَا ، ولا تعرف أقصاها من أذناها ، واستقبلنا الدرب فكان كما قال المتنبي :

رَمَى الدَّرْبَ بِالْخَيْلِ الْمَتَانِ إِلَى الْعِدَا <sup>(١)</sup> \* وَمَا عَلِمُوا أَنَّ السَّهَامَ خِيُولُ ،  
شَوَائِلَ تَسْوَالُ الْمُقَارِبَ بِالْقَنَا \* لَهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِ وَصَبِيلُ .

[ وما هي إلا خطيرة عرّضت له \* بخوات لبّتها فنا ونُصُولُ  
هُسَامٌ إِذَا مَا هَمَّ أَنْضَى هُمُومَهُ \* بِأَرْعَنَ وَطَهُ الْمَوْتَ فِيهِ تَقِيلُ  
وَخَيْلٌ بِرَأَا الرُّكْنَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ \* إِذَا عَرَّسَتْ فِيهَا فَلَيْسَ قَبِيلُ <sup>(٢)</sup>  
فَلَمَّا تَجَمَّلُ مِنْ دُلُوكَ وَصَنَعِيَةٍ \* عَلَتْ كُلُّ طَوْدٍ رَأْيَهُ وَرَعِيلُ ]

(١) القى في ديوان المتنبي : بالمرء الجياد .

(٢) الزيادة من ديوان المتنبي .

عَلَى طَرَفٍ فِيهَا عَلَى الطَّرِيقِ رَقْعَةٌ \* وَفِي ذِكْرِهَا عِنْدَ الْإِنْسِ نُحُولٌ !

وَمَرَرْنَا عَلَى مَدِينَةٍ دَلَّوْكَ وَهِيَ رُسُومٌ مَسْكُنُهَا ، ضَاحِكَةٌ عَنْ تَعَبٍ أَزْهَارِهَا  
وَفَقْهَةٌ غُدْرَانُهَا ؛ ذَاتُ بَرْوَجٍ مُشَبَّهَةٍ ، وَأَرْكَانٍ مَوْطَلَةٍ ، وَبِرَارٍ تَرَاوِقٍ مُوقَدَةٍ ،  
فِي عَمِدٍ مِنْ كَالِئِهَا مُتَمَدَّةٍ ؛ وَبِرْنَا مِنْهَا إِلَى مَرْجٍ التَّبْيَاجِ تَتَعَادَى ، وَذَلِكَ فِي لَيْلَةٍ  
ذَاتِ أُنْدِيَةٍ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ جُمَادَى ؛ ظُلُمَاتُهَا مُنْطَمَّةٌ ، وَطُرُقَاتُهَا قَدْ أَصْبَحَ أَضْرُهَا  
عَلَيْنَا عَمَّةٌ ، لَا يَنْبُتُ تَرْبُهَا تَحْتَ قَدَمِ الْمَارِّ ، وَكَأَنَّمَا سَالِكُهَا يَمْشِي عَلَى شَفَا جُرْفٍ  
هَارٍ ؛ فَبُنَا هُنَاكَ لَيْلَةً تَسْتَحْضِرُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى شِدَّتِهَا لَيْلَةَ الْمَلْسُوعِ ، وَتَمْتَلِئُ الْعَيْنُ بِهَا  
هَجْمَةً جُجُوعٍ ؛ وَأَخَذْنَا فِي اخْتِرَاقِ غَابَاتِ أَشْجَارٍ تُخْفِي الرِّفِيقَ عَنِ رَفِيقِهِ ، وَتَسْغَلُهُ عَنِ  
أَقْفَاءِ طَرِيقِهِ ؛ يَنْبَرِي مِنْهَا كُلُّ غَضَبٍ يُرْسِلُهُ الْمُتَقَدِّمُ إِلَى وَجْهِ رَفِيقِهِ ، كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ  
بِقُوَّةٍ مِنْ مَتَجَنِّقِهِ ؛ حَوْلَمَا مَعَارِزُ أَشْجَارٍ كَانَتْ قُبُورٌ مَعْتَرَتْ ، أَوْ جِبَالٌ تَقَطَّرَتْ ؛ بِبَيْنِهَا  
مَخَاضٌ ، لَا بَلَّ مَنَاضٍ ، كَانَتْ بِحَارٍ بَهْرَتْ ؛ مَا تَرَحُّنًا مِنْهَا إِلَّا إِلَى جِبَالٍ قَدْ تَمَنَّقَتْ  
بِالْجَدَاوِلِ وَتَعَمَّتْ بِالْأَلْوَجِ ، وَتَحْمِيَّتُ مَسَالِكُهَا فَلَا أَحَدٌ إِلَّا وَهوَ قَائِلٌ : فَهَلْ إِلَى  
خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ أَوْ إِلَى سَبِيلٍ مِنْ خُرُوجٍ ؛ تَفْضِيقُ مَنَاجِئُهَا بِمَشْيِ الْوَاحِدِ ، وَتَقْلُفُ  
شَجَرَاتِهَا أَلْتَفَافُ الْأَكَامِ عَلَى السَّامِدِ ؛ ذَاتُ أَوْعَارٍ زَلَقَةٍ ، وَصُورٍ شَرِيقَةٍ ، وَأَوْدِيَةٍ  
بِالْمُزْدَحَمِينَ مَحْتَقَةٍ ؛ بَيْنَا يَقُولُ مُتَحَبِّبًا : قَدْ نَلْتُ السَّمَاءَ بِسُلَيْمٍ مِنْ هَذِهِ الشَّوَاهِقِ ،  
إِذَا هُوَ مُتَضَائِلٌ قَدْ هَبَطَ فِي مَازِقٍ مُتَضَائِقٍ ؛ لَمْ تَرَلْ هَذِهِ الْجِبَالَ تَأْخُذْنَا وَتَرْمِينَا ،  
وَتِلْكَ الْمَسَارِبُ تَقْصِمُنَا وَتِلْكَ الْمَشَارِبُ تُظْلِمُنَا :

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مَنَابِضَ أَوْجِهِنَا ، \* وَ[لَا] تَسْوَدُّ بَيْضَ الْعُدْرِ وَالْأَلَمِ ،  
(١)

[وَكَانَ عَالَمًا فِي الْحُكْمِ وَاحِدَةً \* لَوْ أَحْكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكَمٍ]

وَتَرَكُ الْمَاءَ لَا يَنْفَكُ مِنْ سَفَرٍ ، \* مَا سَارَ فِي النِّعَمِ مِنْهُ سَارَ فِي الْأَدَمِ !

حتى وصلنا الحَدَثَ الجَمْرَاءَ الْمُعْمَاءَ الْآنَ بِكِتُوكَ وَمَعْنَاهَا الْمُحَرَّمَةُ ، كَانَ الْمَلِكُ  
فُسْطَاطِينُ وَالِدُ صَاحِبِ سِيسٍ قَدْ أَخَذَهَا مِنْ أَصْحَابِ الرُّومِ وَأَحْرَقَهَا ، وَعَمَلَكُمَا  
وَعَمَرَهَا ، بِقَصْدِ الضَّرَرِ لِبِلَادِ الْإِسْلَامِ وَالتَّجَارِ . فَلَمَّا كَانَ فِي سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ  
وَسَبْعِمِائَةَ سَبْعِ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ إِلَيْهَا صَكْرَ حَلَبَ فَأَفْتَحَهَا بِالسَّيْفِ وَقَتَلَ مِنْ كَانَ بِهَا  
مِنَ الرِّجَالِ وَسَبَى الْحَرِيمَ وَالْأُثْرِيَّةَ ، وَنَحَرِيثَ مِنْ ذَلِكَ الْحَيْنِ ، وَمَا بَقِيَ بِهَا مِنْ يَكَادُ  
يُيْنِ ، فَشَاهَدْنَا مَا بَنَى سَيْفُ الدَّوْلَةِ بَنَ حَمْدَانِ مِنْهَا وَالْقَتَا تَهْرُجُ الْقَتَا وَمَوْجُ الْمُنَايَا  
حَوْلَهَا مُتَلَاطِمٌ ، وَقِيلَ حَقِيقَةً هُنَاكَ : عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزَمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ ؛ وَهِيَ الَّتِي  
عَنَاهَا أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

غَضِبَ النَّهْرُ وَالْمُلُوكُ طَلِبَا \* فَبَنَاهَا فِي وَجَنَةِ الدَّهْرِ خَلَا

فَهِيَ تَمْشِي مَشْيَ الْعُرُوسِ أَخْبَالَا \* وَتَتَنَّى عَلَى الزَّمَانِ دَلَالَا !

فَبَنَاهَا وَأَبْنَيْنَا وَخَلَيْنَا مَبْنُوءَةً فَوْقَ الْأَحْيَادِ كَمَا تَبَرَّتِ الدَّرَاهِمُ فَوْقَ الْعُرُوسِ ،  
وَجِيَادُنَا عَلَى الرُّكُوبِ فِي أَعْلَى الْعَيْنِ تَتَوَسَّسُ ، إِذَا زَلَّ قَتَمَشَتْ كَالْأَرَاقِمِ عَلَى الْبُطُونِ ،  
وَإِنْ تَكَاسَلَتْ جَرَّ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ بِالصَّبِيلِ : « وَالْحَدِيثُ شُجُونٌ » ، وَخُضْنَا فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ  
غَائِضَ سَوَاخِجٍ ، كَانَتْهَا لِأَجْلِ عَوَمِ الْحَيْلِ بِهَا تَمَّتْ كُلُّ مِنْهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ سَاحِجٌ ، كُلَّمَا  
قُلْنَا : هَذَا بِحَرِّ قَدْ قَطَعْنَاهُ أَقْرَضَ لَنَا جَبَلٌ ، وَكُلَّمَا قُلْنَا : هَذَا جَبَلٌ طَلَعْنَاهُ بَانَ لَنَا وَادٍ  
يُسْتَهَانُ دُونَ الْهُدَى فِيهِ نَفَادُ الْأَجَلِ ؛ لَمْ تَزَلْ كُنَّا حَتَّى وَصَلْنَا كَوْكَبُوا (؟) وَهُوَ النَّهْرُ  
الْأَزْرَقُ ، وَهُوَ الَّذِي رَدَّ الْمَلِكَ الْكَامِلَ مِنْهُ سَنَةَ الدَّرَبِنْدَاتِ لِمَا قَصَدَ التَّوَجُّعَ إِلَى  
الرُّومِ . وَهَذَا النَّهْرُ بَيْنَ الْجِبَالِ مَهْوًى رِجَالُهَا ، وَمَتَوًى عِمَامُهَا ، وَمَلَوًى زِينَاتُهَا ، وَمَاوًى  
قَادِمُهَا ، فَلَقَوْتُ صَبْرَتَهُ رَكُضًا ، وَأَعْجَلْتُ الْحَيْلَ فَمَا دَرَّتْ هَلْ خَاضَتْ لِحَّةً أَمْ قَطَعَتْ

أَرْضًا، وبَاتَ النَّاسُ مِنْ بَرِّ هَذَا النَّهْرِ الْآخَرِ وَأَصْبَحُوا مُتَسَلِّينَ فِي تِلْكَ الشَّمِّ، وَوَقَعَ  
السَّيَّانِكُ يُسْمَعُ مِنْ تِلْكَ الْجِبَالِ الصُّمِّ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى أَبْجَادِرْبَنْدَ فَاثْبَتَ يَدُ فَرَسٍ  
لِمَصَافَةِ صَفَاها، وَلَا تَسْلُهُ لِمَكَاخَةِ رَحَاها، وَلَا رِجْلُهُ لِمَطَارَحَةِ قُوَاهَا، وَتَمَوَّزَتْ  
الْحَيْلُ عَلَى الْأَفْصَحَامِ وَالْأَزْدِحَامِ فِي التَّطَرُّقِ، وَتَمَوَّدَتْ مَا تَمَوَّدَتْهُ الْأَوْعَالُ مِنَ التَّشْرِبِ  
وَالسَّاقِ، فَصَارَتْ تَحْطُّ أَتْمِطَاطَ الْمَيْدَبِ، وَتَرْتَفِعُ أَرْتَفَاعَ الْكُوكَبِ، وَتَسِيرُ  
سَرِيانَ الْحَيَالِ، وَتُمْكِنُ حَوَافِرُهَا الْحَيَاةَ قَرَوُلَ مِنْهَا الْجِبَالِ، حَتَّى حَصَلَ الْخُرُوجُ مِنْ  
مُنْتَهَى أَبْجَادِرْبَنْدَ وَهُوَ خِتَاقُ ذَلِكَ الْمَازِقِ الَّذِي كَمَّ أَمْسَكَ عَلَى طَارِقِ، وَقَمَّ ذَلِكَ  
الدَّرْبَ الَّذِي كَمَّ عَصَتْ أَنْيَابُهُ عَلَى مُسَاوِقِ وَمُسَابِقِ، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ ثَامِنِ  
ذِي الْقَعْدَةِ، وَبَاتَ السُّلْطَانُ وَالنَّاسُ فِي وَطَاةٍ هُنَاكَ، وَصَحَّتِ السُّحُبُ بِمَا شَاءَتْ  
مِنْ بَرْدٍ وَبَرْدٍ، وَجَاءَتْ الرِّيحُ بِمَا أَلَمَّتِ الْجِلْدَ وَأَسْتَفْقَدَتِ الْجِلْدَ، وَأَنْتَشَرَتْ الْعَسَاكِرُ  
فِي وَطَاةٍ هُنَاكَ حَتَّى مَلَأَتِ الْمَقَاوِزَ، وَمَلَكَتْ الطَّرِيقَ عَلَى الْمَارِّ وَأَخَذَتْهَا عَلَى الْجَائِزِ،  
وَقَدَّمَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَمِيرَ شَمْسُ الدِّينِ سُقْرَا الْأَشْقَرُ فِي الْجَالِيشِ فِي جِهَادَةٍ مِنَ الْعَسَاكِرِ،  
فَوَقَعَ عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافٍ فَارِسٍ مِنَ التَّارِ مُقَدِّمُهُمْ كَرَايَ، فَأَنْهَزُمُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَأَخَذَ  
مِنْهُمْ مَنْ قَدَّمَ لِلسَّيْفِ السُّلْطَانِي فَكُلَّ نَهْمَتَهُ وَأَسَارَ، وَاسْتَمَرَّتْ تِلْكَ سُنَّةٌ فِيمَنْ  
يُؤْخَذُ مِنَ التَّارِ وَيُؤْمَرُ، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ تَاسِعِ ذِي الْقَعْدَةِ .

وَبَاتَ التَّارُ عَلَى أَجَلٍ تَرْتِيبَ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَجَلٍ مَنَظَرٍ، وَبَاتَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَيْمٍ  
تَقِظُ وَأَعْظَمَ حَذَرٍ، وَلَمْ يَتَحَقَّقُوا قُلُوبُ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فِي جُيُوشِ الْإِسْلَامِ، وَلَا أَنَّهُ  
حَضَرَ بِنَفْسِهِ الْغَيْبَةِ لِيَقُومَ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ هَذَا الْمَقَامَ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ  
حَاشَرَهُ ذِي الْقَعْدَةِ تَتَابَعَ الْخَبَرُ بِدَ الْخَبَرِ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ قَرَّبُوا، وَأَنَّهُمْ تَأَبَّوْا وَوَشَّوْا :

وَقَدْ تَمَنَّوْا غَدَاةَ الدَّرْبِ فِي لَحَبٍ \* أَنْ يُنْصِرُوهُ فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ عَمُوا !

وشرع مولانا السلطان فوصى جنوده بالثبوت عند المصلحة ، والاجتماع عند المصاحمة ، ورب جيش الإسلام الحبيب ، على ما يجب ، وأرأهم من نور رأيه ، ألا على بصير ولا بصيرة يحتاج ، فطلعت المساكر مشرفة على صحرات هوني من بلد أبلستين ، وكان العدو ليلته تلك باتاً على نهر زمان ، وهو أصل نهر جهان ، وهو نهر جيحان المذكور في الحديث النبوي ، وإنما الأرض لا تنطق بالماء .

فلما أقبل الناس من علو الجبل شاهدوا المنل قد ترتبوا أحد عشر طلباً كل طلب يزيد على ألف فارس حقيقة ، وعزلوا عسكر الروم عنهم خيفة منهم ، وجعلوا عسكر الكرج طلباً واحداً بمفرده . ولما شاهدوا نتائج مولانا السلطان المنصورة ومن حولها من الممالك الظاهرية ، وعليهم الخوذ الصفر المقترحة ، وكأنها في شعاع الشمس نيراناً مقتدحه ، رجّوا إلى ما كانوا عقّلوها من العزائم لحقوا ، وسقط في أيديهم وراوا أنهم قد ضلّوا ، وأقبل بعضهم على بعض يسألون ، وعلى الموت يترأسون ، فانصهبت الخيل إليهم من أعلى الجبل أنصباب السيل ، وطلعت الخيلة منهم ونفى الخيل ، فشمروا عن السواعد ، ووقفوا وقفة رجل واحد ، وهؤلاء المنل كان طاغية التار آينا - أهلكه الله - قد أختارهم من كل ألف مائة ، ومن كل مائة عشرة ، ومن كل عشرة واحداً لأجل هذا اليوم ، وعرفهم بسيا الشجاعة وعرضهم لهذا السوم ، وكان فيهم من المتقدمين الكار تدلون ، ومعنى هذا الأكم التغاذ ، يعني أنه ما كان في عسكر قط إلا نغذه ، والمقدم الآخر هوا (؟) وإليه أمر بلاد الروم وعساكر المنل بها ، وأرختوا أخو تدلون ، وبهادر بجشي . ومن مقدمي الألو ف دزك ، وصهر آينا ، وقرالقي وخوآسه :

بيض العوارض طعانون من لحقوا \* من القوارس شلالون للنعم !  
قد بلنوا بقتام فوق طاقية \* وليس يبلغ ما فيهم من الهمم .

فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا أَنْ أَنْفُسَهُمْ \* مِنْ طَيْبِينَ بِهِ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ !  
 فَعِنْدَ مَا شَاحَلُوا تَجِدُ الْمَلَائِكَةَ ، وَتَحَقُّقُوا أَنَّ نُفُوسَهُمْ هَالِكَةٌ ، أَخْلَدَتْ فِرْقَةً مِنْهُمْ  
 إِلَى الْأَرْضِ قَعَاظَتْ ، وَطَلَجَتِ الْمَنَايَا عَلَى نُفُوسِهِمْ وَطَاجَلَتْ ؛ وَبَاعَتْ نُفُوسُ الْمُسْلِمِينَ  
 لَهَا وَتَاجَرَتْ ، وَكَثُرَتْ وَمَا كَاسَرَتْ ؛ وَجَاءَ الْمَوْتُ لِلْعَدُوِّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَأَصْبَحَ  
 مَا هُنَاكَ مِنْهُمْ وَقَدْ هَانَ ؛ وَلِلْوَقْتِ خُذْلُوا وَجُدُّوا ، وَلِبُطُونِ السَّبَاجِ وَحَوَاصِلِ  
 الطُّيُورِ حُصِّلُوا ؛ وَصَارُوا مَعَ عَدَمِ ذِكْرِ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ ، يَقَاتِلُونَ قِيَامًا وَقُعُودًا  
 وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ؛ فَكَمْ مِنْ فُجَاعٍ أَلْصَقَ ظَهْرُهُ إِلَى ظَهْرِ صَاحِبِهِ وَحَامِي ، وَنَاضَلَ وَدَامِي ؛  
 وَكَمْ فِيهِمْ مِنْ شَهْمٍ ، مَاسَلَمَ قَوْسَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي كِنَانَتِهِ سَهْمٌ ؛ وَذِي مِزَانٍ طَارَحَ بِهِ فَا  
 طَرَحَهُ حَتَّى تَشَلَّمَ ، وَذِي سَيْفٍ حَادِثَهُ بِالْعِقَالِ فَا جَلَّى مُحَادَثَتُهُ حَتَّى تَكَلَّمَ ، وَأَبَانُوا  
 عَنْ نُفُوسٍ فِي الْحَرْبِ أَيْبَهُ ، وَقُلُوبٍ كَافِرَةٍ وَتَحَوُّرَةٍ عَرَبِيَّةٍ ؛ وَأَشْتَلَّتْ فِرْقَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ  
 مِنْ جِهَةِ الْمُمَيَّرَةِ مُعَرِّجِينَ عَلَى السَّجَاقِ الشَّرِيفَةِ مِنْ خَلْفِهَا ، مُتَقَلِّينَ بِصُفُوفِهِمْ  
 عَلَى صَفِّهَا :

فَلَزِمَ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالٍ \* أَحَدٌ سِلَاحِهِمْ فِيهِ الْفِرَارُ !

فَتَابَ مَوْلَانَا إِلَيْهِمْ ، وَوَثَبَ عَلَيْهِمْ ، فَضَحَّى كُلُّ مِنْهُمْ بِكُلِّ أَشْطَطٍ ، وَأَفْرَى الْأَجْسَادِ  
 فَافْرَطَ ؛ وَلَحِقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ مِنْهُمْ مَنْ قَصَدَ التَّحْصِينَ بِالْجِبَالِ فَاخْذَمَ الْأَخَذَةَ  
 الرَّأْيَةَ ، وَقَتَلَهُمْ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ؟ :

وَمَا الْفِرَارُ إِلَى الْأَجْبَالِ مِنْ أَسَدٍ \* تَمْشِي النَّعَامُ بِهِ فِي مَعْقِلِ الْوَيْلِ ؟  
 وَأَنْهَزِمَتْ جَمَاعَةُ يَسِيرَةٍ طَمِعَ فِيهَا مِنَ الْعَوَامِ مَنْ كَانَ لَا يَنْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَأَخْذَلَتْهُمْ  
 الْمَهَالِيُّ فَمَا نَجَا مِنْهُمْ إِلَّا آيِسٌ مِنْ حَيَاةٍ عَلَيْهِ فِي أَمْسِهِ .

مَضَوْا مُتَسَابِقِينَ الْأَعْضَاءِ فِيهِ \* لِأَرْؤُسِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ عِثَارُ

إِذَا قَاتُوا الرِّيحَ تَأَوَّلْتُهُمْ \* بِأَرْجَاحٍ مِنَ الْعَطَشِ الْفَقَارُ!

وقصصت ميمنة عسكرنا جماعة من المغل ذؤوبأس شديد، قعاتهم المسلمون حتى  
صَجَرَ الحَيْدُ من الحَيْدِ ، وكان مولانا الصاحب زين الدين - حرس الله جلالة -  
لما دُعِيَتْ نَزَالِ أَوَّلُ مُسَاقٍ ، وأُتْرِعَ رَاشِقٍ ، وَأَقْرَبَ مُطْلَعٍ ، وَأَعْظَمَ مُعَاوِنٍ ؛  
فَدَرَ مَنْ شَاهَدَهُ أَنَّهُ أَحْسَنُ فِي مَعْرَكَتِهِ ، وَأَجْمَلُ فِي كَرَمِهِ ، وَأَجَادُ فِي مَلْعَتِهِ ، وَزَارَ  
زَيْبِرَ اللَّيْلِ ، وَسَاقٍ حَتَّى لَمْ يَبْقَ حَيْثُ ؛ وَوَقَفَ دَرِيَّةً لِلرِّيحِ مِنْ عَنِّ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ،  
وَحَضَبَ بِمَا تَحَدَّرَ مِنْ دَمِ صَدْوِهِ أَخَافَ سَرَجِهِ وَعَيْنَ لِحَامِهِ ، وَكَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ  
بَاقِيَةٌ وَإِقِيَّةٌ فِي هَدْمِهِ وَأَقْدَامِهِ ؛ وَشَاهَدَنَاهُ وَقَدْ تَخَرَّجَ مِنْ وَسْطِ الْمَعْرَكَةِ وَهُوَ شَاكِي  
السَّلَاحِ ، وَقَدْ أَخَذَ نَصِيْبَهُ وَنَصِيْبَ قَرِيْبِهِ مِنْ سَالِمِ الْجِرَاحِ ؛ وَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ لَا يُجْلِيَهُ مِنْ  
إِسَالَةِ دَمٍ يُعْظَمُ اللَّهُ الْأَجْرَ بِسَائِلِهِ ، فَعَمَلَهُ - وَالْمِنَّةُ لَهُ - مِنْ بَعْضِ أَطْرَافِ أَمَلِهِ .

ولقد ذكر الأمير عز الدين أيدمر التوادار الظاهري ، قال : لَقِيْتَنِي وَقَدْ تَكَسَّرَ  
رُجْحِي ، وَعَادَ - لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ - إِلَى الْخَسَارَةِ رِجْحِي ؛ فَأَعْطَانِي الْمَوْلَى الصَّاحِبُ  
زَيْنَ الدِّينِ رُجْحَهُ فَإِذَا فِيهِ نُصُولٌ ، وَبَسْنَةٌ مِنْ قِرَاجِ الدَّارِيِّينَ قُلُولٌ ؛ وَرَأَيْتُ دَبُوسَ  
الْمَوْلَى الصَّاحِبِ زَيْنَ الدِّينِ وَقَدْ تَسَلَّمَ ، وَكَانَ الْخَوْفُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ شَدِيدًا  
وَلَكِنْ اللَّهُ مَسَلَّمَ ؛ وَلَقَدْ بَلَغَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ خَبْرَهُ فَسَالَهُ فَمَا أَجَابَهُ بِغَيْرِ أَنْ قَالَ :  
سَيِّفٌ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ هُوَ الَّذِي سَفَكَ ، وَعَزَمُهُ هُوَ الَّذِي فَتَكَ .

وَمَنْ يَكُ مُحْفُوظًا مِنَ اللَّهِ فَلْتَكُنْ \* سَلَامَتُهُ مِمَّنْ يُجَاذِرُهُ هَكَذَا ،

وَيَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّفُوفِ مُسَلِّمًا \* وَلَا مَنْ يَبْدِيهِ وَلَا تَالَهُ أَدَى !!

وأما العدو فتقسمت الأيدي ما يمتطونه من الصَّوَاهِلِ وَالصَّوَافِنِ ، وَمَا يَصُولُونَ بِهِ  
مِنْ سُيُوفٍ وَفَيْسٍ وَكَائِنٍ ، وَمَا يَلْبَسُونَهُ مِنْ خُودٍ وَدُرُوجٍ وَجَوَاشِينِ ، وَمَا يَتَوَلَّوْنَهُ

من جميع أصناف المَعَادِن ؛ فَنُفِثَ مَا هُنَاكَ ، وَتَسَلَّمَ من اسْتَشْهَد من المُسْلِمِينَ رِضْوَانُ  
وَتَسَلَّمَ من قُتِلَ من التَّكْفَارِ مَالِك .

وكان الذين اسْتَشْهَدُوا في هذه الوَقْعَةِ من المُقَدَّمِينَ : شَرَفُ الدِّينِ قَبْرَانُ السَّلَاطِي ،  
وعِزُّ الدِّينِ أَخُو الأَمِيرِ جَمَالِ الدِّينِ مُحَمَّدِي . ومن المَالِكِ السُلْطَانِيَّةِ : شَرَفُ الدِّينِ  
فَلْحَقُ (؟) الْجَابَشْتِكِرِ الظَّاهِرِي ، وَأَبِيكَ الشَّقِيقِيُّ الَّذِي كَانَ وَزِيرَ الشَّقِيفِ . وكان  
المَجْرُوحُونَ عِدَّةً لَطِيفَةً لم يُعْلَمْ عَدَدُهَا لِقَتْلِهَا ، بَلْ خَلَفَتْهَا ؛ وَأَوْرَثَ اللَّهُ المُسْلِمِينَ مَنَازِلَهُمْ  
فَقَزَلُوهَا ، وَوِطَاقَتَهُمْ وَخَرَكَوَاتِهِمْ قَتَمَوْلُوهَا ؛ وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَكَانَ أَعْدَاؤُهُ كَمَا قِيلَ :  
فَسَاَهُمْ وَبُسْطُهُمْ حَرِيرٌ ، \* وَصَبَّحَهُمْ وَبُسْطُهُمْ تُرَابٌ !!

وَأَصْبَحَ الأَعْدَاءُ لَا تُرَى إِلَّا أَشْلَاقُهُمْ ، وَلَا تُبْصَرُ إِلَّا أَعْيَاقُهُمْ ؛ كَأَنَّمَا جَزِدَ  
أَجْسَادُهُمْ بِجَرَائِرِ تَخَلُّلِهَا مِنَ الدَّمَاءِ السَّبِيلِ ، كَأَنَّمَا رُمُوهُمْ المَجْمُوعَةُ لَدَى الدَّهْلِيزِ  
الْمَنْصُورِ أَكْرَمَ تَلْعُبَ بِهَا صَوَاحِلُهُ مِنَ الأَيْدِي والأَرْجُلِ مِنَ الخَيْلِ :

أَلْقَتْ إِلَيْنَا دِمَاءُ الْمُفِيلِ طَاعَتَهَا \* فَلَوْ دَعَوْنَا بِهَا حَرْبٍ أَجَابَ دَمٌ !

فَكَمْ شَاهَدَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ مِنْهُمْ مَهِيبَ المَآءِ ، حَسَنَ الوَسَامَةِ ، تُتَفَرَّشُ فِي جِهَامَةِ  
وَجْهِهِ الفَخَامَةِ ، قَدْ فَضَّ الرُّمْحُ فَاهُ فَقَرَعَ السِّنَّ عَلَى الحَقِيقَةِ نَدَامَهُ :

وَوُجُوهُهَا أَخَافَهَا مِنْكَ وَجْهٌ \* تَرَكْتَ حُسْنَهَا لَهُ وَالْجَمَالَ !

أَوْ كَمَا قِيلَ :

(١) لَا رَحِمَ اللَّهُ أَرُومًا لَهُمْ \* أَطْرَنَ عَنْ هَامِيْنِ أَخَانَا !

وَأَقْبَلَ بَعْضُ الأَحْيَاءِ مِنَ الأَمْسَارِيِّ عَلَى الأَمْوَاتِ يَتَعَارَفُونَ ، وَلَا خَبَارَ قُبْلَاعَتِهِمْ  
يَتَوَاصَفُونَ ؛ فَكَمْ مِنْ قَاتِلٍ : هَذَا فَلَانٌ وَهَذَا فَلَانٌ ، وَهَذَا كَانَ وَهَذَا كَانَ ؛ وَهَذَا



كَانَ يُحِبُّ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يَهْزِمُ الْأُلُوفَ، وَهَذَا يُقَرَّرُ فِي ذِيهِ أَنَّهُ لَا تَهْفُ بَيْنَ يَدَيْهِ  
الصُّفُوفُ، وَكَثُرَتِ الْأَسَارِيُّ مِنَ الْمَغْلِ فَاخْتَارَ السُّلْطَانُ مِنْ كِبَرَائِهِمُ الْبَعْضَ، وَعَلَى  
فِيهِمْ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (مَا كَانَ لِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُغْنِيَ فِي الْأَرْضِ).  
فَجَعَلَهُمْ لِلْسُّيُوفِ طَعْمَهُ، وَأَحْضَرَتِ الْأَسَارِيُّ مِنَ الرُّومِ قَرَبَ مَوْلَا السُّلْطَانِ  
فِيهِمُ الْإِلَّ وَالنَّمَمَةُ :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْمَقْوِي عَنْهُمْ، \* وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَحْفَظُ الْيَدَا!

وَكَانَ فِي جَمَلَةِ الْأَسَارِيِّ الرُّومِيِّينَ مُهَلَّبُ الدِّينِ بَكْلَارَنْكِي، يَعْنِي أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ  
وَلَدَهُ الْبُرْوَانَاهُ، وَنُورُ الدِّينِ جَاوَا أَكْبَرُ الْأَمْرَاءِ، وَجَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَمْرَاءِ الرُّومِ  
وَمُقَدِّمِي عَسَاكِرِهِ، فَكَانَ الْبُرْوَانَاهُ أَحَقُّ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

تَجَوَّزَ بِإِحْدَى مُقْتَلَيْكَ جَرِيحَةً \* وَخَلَفَتْ إِحْدَى مُهْجَتِكَ تَسِيلًا!

أَسْلِمَ لِلخَطِيئَةِ أَنْبَكَ هَارِبًا \* وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلًا؟

لِأَنَّهُ ثَمَرُ الذَّلِيلِ، وَأَمْتَعَى - هَرَبًا - أَشْهَبَ الصُّبْحِ وَأَحْمَرَ الشَّفَقِ وَأَصْفَرَ الْأَصِيلِ  
وَأَذْهَمَ اللَّيْلِ، وَتَمَّ يُخَيَّرُ مِنْ خَلْفِهِ بِمَا تَمَّ، وَهَمَّ قَلْبُهُ رَفِيقَهُ حِينَ هَمَّ :

فَتَحَنَّنَ فِي جَدَلٍ، وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ، \* وَالْبَرْقُ فِي شُغْلٍ، وَالْبَحْرُ فِي تَجَلٍّ !!

وَدَخَلَ الْبُرْوَانَاهُ مَدِينَةَ قَيْصَرِيَّةَ فِي تَارِيخِ يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ،  
فَأَفْهَمَ غِيَاثَ الدِّينِ سُلْطَانَهَا، وَالصَّاحِبَ نَغْرَ الدِّينِ بْنِ عَلِيٍّ (٢) وَالْأَمَانِيَّ جَمَالَ الدِّينِ،  
وَالْأَمِيرَ جَلَالَ الدِّينِ الْمُسْتَوْفَى، وَالْأَمِيرَ بَدْرَ الدِّينِ مِيكَائِيلَ النَّابِ، وَالْأَمِيرَ قُلَانِ  
الدِّينِ الطُّغْرَايَ، وَهُوَ وَلَدُ عَزَّ الدِّينِ أَخِي الْبُرْوَانَاهُ، وَهُوَ الَّذِي يَكْتُبُ طُرُقَ الْمُنَاشِيرِ -  
أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَثُرُوا بِمِصْرَ الْمَغْلِ وَقَبِيضَتِهِمْ مُنْهَزِمُونَ، وَيُخْشَى مِنْهُمْ دُخُولُ قَيْصَرِيَّةَ  
وَاتِّلَافُ مَا يَكُونُ بِهَا فِي طَرَأَتِهِمْ حَقًّا عَلَى الْإِسْلَامِ - فَأَخَذَهُمْ جَرَأَتُهُ، وَأَخَذَ

زَوْجَتَهُ كُرْحَى خَاتُون بَنَتْ غِيَاثِ الدِّينِ صَاحِبِ أَرْزَنَ الرُّومِ ، فَاسْتَصَحَبَتْ مَعَهَا أَرْبَعَةَ جَارِيَةٍ لَهَا ، وَكَانَ لَهَا مَالًا كَانَ لِصَاحِبِ الرُّومِ مِنَ الْبَحَائِقِ وَالْخِيَامِ وَالْآلَاتِ ، وَتَوَجَّهُوا كُلُّهُمْ إِلَى جَرَمِ تَوَقَاتِ (٩) وَهُوَ مَكَانٌ حَصِينٌ مَسِيرَةُ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ مِنْ قَيْصَرِيَّةَ . وَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ قَيْصَرِيَّةَ حَلَّاهُمْ عَلَى مُرْعَةِ الْحَرْبِ ، وَأَنْذَرَهُمْ عَذَابًا قَدْ اقْتَرَبَ ، وَهَوَّلَ عَلَى بَقِيَّةِ أَمْرَاءِ الرُّومِ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَأَخْفَى الْبُرْوَانَةَ أَمْرَهُ وَأَمَرَ مِنْ مَعَهُ حَتَّى لَا تُخْبِرَ بِخَبَرِهِمْ .

وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ قَدْ جَرَّدَ الْأَمِيرَ تَمَسَّ الدِّينِ سُنْقَرًا الْأَشْقَرِيَّ عِنْدَ مُسْتَظْهَرًا بِهِ لِإِدْرَاكِكَ مِنْ فَاتٍ مِنَ الْمَغْلُ ، فَرَوَا فِي طَرِيقِهِمْ فِرْقَةً مَعَهَا بِيُوتُهُمْ فَأَخَذَ مِنْهَا جَانِبًا ، وَدَخَلَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ فَمَرَكَلُ فِي سِرِّيهِ ذَاهِلًا ذَاهِبًا . وَرَجَلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ فِي بُكَرَةِ السَّبْتِ حَادِي شَرْذِي الْقَعْدَةِ مِنْ مَكَانِ الْمَعْرَكَةِ ، فَتَزَلَّ قَرِيبَ الْقَرْيَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِرَيَّانَ ، وَهَذِهِ الْقَرْيَةُ قَرِيبُ الْكَهْفِ وَالزُّقْمِ حَقِيقَةً ، لَا مَا يُقَالُ : إِنَّهُ قَرِيبُ حُسْبَانٍ مِنْ بِلَادِ الْبَلْقَاءِ ، وَقَرِيبًا مِنْهُ صَلْدُ مِنَ الصَّفَا عَلَيْهِ كِتَابَةٌ بِالرُّومِيَّةِ أَوْ ضَرْبًا مِنْهَا مِنْ أَنْطَلِ الْقَدِيمِ . وَأَمَّا الْقَرْيَةُ الْمَذْكُورَةُ الْمَمْنَاءُ بِرَيَّانَ فَإِنَّ بِيُوتَهَا بُنِيَتْ حَوْلَ سِنِّ جَبَلٍ قَائِمٍ كَالْحَرَمِ إِلَّا أَنَّهُ مَلُومٌ ، وَخُمِرَتْ الْبُيُوتُ فِي سَفْحِهِ حَوْلَهُ يَتَأَنَّ فَوْقَ بَيْتٍ فَبَلَدَتْ كَأَنَّهَا جَبَّةُ النُّجُومِ ؛ وَمِنْ بَيْتٍ مِنْهَا إِلَّا وَبِهِ مَقَاعِدُ نَوَاتٍ دَرَابِزِينَاتٍ مُتَجَوِّزَةٍ ، وَرَوَاشِنُ قَدْ بَلَدَتْ فِي أَكْثَلِ صُورِهِ ؛ يَخْتُمُهَا مِنْ أَعْلَاهَا أَحْسَنُ بُيُوتَانِ ، وَيَطْلُوها مِنْ رَأْسِهَا مَقَرُّ لُحْمٍ الرَّايسِ كَمَا يَطْلُو الصَّعْنَةُ السَّنَانُ ؛ وَتَطْلُوفُ بِهِذِهِ الْقَرْيَةُ جِبَالًا كَأَنَّهَا أَسْوَارُ بِلِ سَوَارٍ ، وَكَأَنَّهَا فِي وَسْطِهَا إِثْنًا فِيهِ جَنُودُ نَارٍ ؛ وَيَتَفَرَّغُ مِنْهَا أَنْهَارٌ ، هِيَ فِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ كَأَنَّهَا يَهْوِطُهَا كَثِيبٌ قَدْ أَنْهَارَ ؛ ذَوَاتُ قَنَاطِرٍ لَا تَسْعُ غَيْرَ رَاكِبٍ ، وَمَصَابِقُ لَا يَلْقَى عَصَبًا لَنَاكِبٍ ؛ قَدَّرَ اللَّهُ أَنْ الْعَسَاكِرَ خَلَصَتْ مِنْهَا وَلَكِنْ بَعْدَ مَقَاسَةِ الْجُهْدِ ، وَخَرَجَتْ وَقَدْ رَقَّ لَهَا قَلْبُ كُلِّ وَهْدٍ ؛ وَتَزَلْنَا قَرِيبًا مِنْهَا حَتَّى

تَحْصَنُ من تَحْصَنُ ، وَحَضَرَ من كَانَ في الْمَضَائِقِ قَدْ تَرَّصَ ، وَقَالَ : كُلُّ الْأَرْضِ حَصَصَ .

وَرَحَلْنَا من هُنَاكَ في يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ شَهْرَ ذِي الْقَعْدَةِ وَكَانَتِ السَّمَاءُ قَدْ حَبَّتِ الْأَرْضَ بَيَّجَانِ أَمْطَارِهَا ، وَأَغْرَقَتِ الْمَوَاقِمَ فِي إِجْحَارِهَا ، وَالْفَتْخُ فِي أَوْكَارِهَا ؛ وَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ لَا تَمَسُّكَ حَتَّى لَا لَمُرُورِ الْأَرَاغِمِ ، وَابْجَالُ لَا تَمَسُّكَ أَنْ تَكُونَ لِلْعَصَمِ عَوَاصِمَ ؛ تَضَعُ بِهَا مِنَ الدُّوَابِّ كُلِّ [ذَاتِ] حَمَلٍ ، وَتَلْقَى فِي صَقِيلِهَا أَرْجُلُ الثَّمَلِ ؛ وَسِرْنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ نَهَارًا كُلَّهُ إِلَى قَرِيبِ الْفُرُوبِ ، وَقَطَعْنَاهُ بِسَلْسِلَتِنَا أَيْدَى الدُّرُوبِ مِنْ أَيْدَى الثُّرُوبِ ؛ وَزَلْنَا عِشَاءً فِي مُنْتَعِجِ أَرْضٍ تَطُوفُ بِهَا جِبَالٌ شَاهِقَةٌ ، وَمِيَاهٌ ذَائِقَةٌ ؛ تُعْرِفُ قَاعَهُ تِلْكَ الْأَرْضُ بِوِطَاءِ قِشْلَا وَسَارِ (٩) مِنْ أَعْمَالِ أَصَارُوسِ الْعَيْتِقِ . وَتَقْرُبُ مِنْ تِلْكَ الْجَهَةِ مَعْدِنُ الْفِضَّةِ .

وَبَيْنَا نَحْنُ قَدْ شَرَعْنَا فِي أَهْبَةِ الْمَيْتِ ، وَلَمْ تَقْضِ الشَّمْلُ الشَّيْثِ ؛ وَإِذَا بِالصَّاحِبِ قَدْ صَدَحَ ، وَالنَّذِيرِ قَدْ مَسَحَ ؛ رَافِعًا عَقِيرَتَهُ بِأَنْ قَوْجًا مِنَ التَّسَارِ فِي بَحْوَةِ هُنَاكَ قَدْ اسْتَرَوْا ، وَفِي تَجْوَةِ لَيْلَةٍ قَدْ اسْتَنْظَرُوا ؛ فَرَكِبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَرَكِبَ النَّاسُ فِي السَّلَاحِ ، وَعَزَمُوا عَلَى الْمَطَارِ فَمَاقَهُمْ تَتَابَعُ الْغَيْثِ وَكَيْفَ يَطِيرُ مَبْلُولُ الْجَنَاحِ ؟ ثُمَّ لَطَفَ اللَّهُ وَهَادَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَهُوَ يَقُولُ لِلنَّاسِ : لَا بَاسَ ؛ فَمِنْنَا نَوْمَةُ السَّلِيمِ ، وَصَدَرَتْ أَفْكَارُنَا شَاغِرَةً فِي كُلِّ وَادٍ نَحْمُ ؛ وَأَصْبَحْنَا فَسَلَكْنَا جِبَالًا لَا يَحِيطُ بِهَا الْوَصْفُ ، وَتَبَسَّطَ صَدْرَاءُ الطُّرُوفِ فِيهَا حِينَ يَكْبُو فِيهَا الطُّرُوفُ ؛ تَحُطُّ مِنْهَا إِلَى جَنَادِلَ ، يَضْمَعُ عَنْ الْمَوِيِّ إِلَيْهَا قَوِيُّ الْأَجَادِلِ ؛ بَيْنَا قَوْلُ : قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهَا نَفَاقًا وَمِنْهَا نَفَاقًا ، وَإِذَا بَعْدَ الْأَوْدِيَةِ أَوْدِيَةٌ وَبَعْدَ الْجِبَالِ جِبَالٌ نَشْكُرُ عِنْدَ ذَلِكَ هَذِهِ وَذَلِكَ عِنْدَ هَذَا ؛ وَمَرَرْنَا عَلَى قَرْيَةِ أَوْتَاكْ ، وَتَحْتَهَا قَنَاطِرٌ وَخَانٌ مِنْ حَجَرٍ مَتَّحُونَ ، ثُمَّ خَانَ آخَرُ

السَّيْلَ عَلَى رَأْسِ رَابِئَةٍ هُنَاكَ تَعْرِفُ بِأَشِيدِي ، قَرِيبٌ مِنْ حِصْنِ سَمْنَدُو ، الَّتِي  
عَرَّضَ بِهَا أَبُو الطَّيِّبِ فِي قَوْلِهِ :

فَإِنْ يُقِيمُ فَقَدْ زُرْنَا سَمْنَدُو \* وَإِنْ يُجِمْ فَوَعْدُهُ الْخَلِيجُ !

وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ قَدْ سَبَّرَ إِلَيْهَا خَوَاصَّهُ بِكَتَابٍ إِلَى نَائِبِهَا فَقَبِلَهُ وَقَبِلَهُ ، وَأَذْعَنَ  
لِتَسْلِيمِ حَضْنِهَا الْمَنِيْعِ وَالْأَتْرُولِ لِأَمْرِ السُّلْطَانِ عَنْهَا إِنْ أَسْتَزَلَّه ، فَشَكَرَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ  
لَهُ تِلْكَ الْإِجَابَةَ ، وَوَقَّاهُ مِنَ الشُّكْرِ حَسَابَهُ . وَكَذَلِكَ إِلَى قَلْعَةِ دُونْدَا وَإِلَى دَوَالِوَا ،  
فَنَكَلَهُمْ أَجَابُوا وَأَطَاعُوا وَلِكَلِمَةِ الْإِذْعَانِ قَالُوا ، وَزَلْنَا فِي وَطْأَةٍ قَرِيبَ قَرْيَةٍ تَعْرِفُ  
بِجَهْرَهَا ، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ فَرَعَتْ حُلُوفَاتُ خَيْلِهِمْ أَوْ كَلَدَتْ ، وَالْخَيْلُ قَدْ بَاتَتْ لَيْلَى  
بِلَا مَلِيْقٍ فَمَا أَسْتَقْدَدَتْ ، وَشَارَكَتْهَا خِيُولُ الْكُسُوبِ (٤) فِي عَلَيْهَا ، وَمَا سَاعَدَتْهَا  
فِي طَرُوقِهَا وَلَا فِي طَرِيقِهَا ، فَضَعُفَتْ عَنْ حِمْلِ ثِقْوَمِهَا فَمَا ظَنَنْتُ بِرَاكِبِهَا ، وَكَادَ  
الْفَارِطُ - لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَفْرِطَ فِيهَا ، فَصَادَقْنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ بَعْضَ  
أَتْبَانِ أَمْسَكْتَ أَرْفَاقَهَا ، وَأَحْسَنْتَ لِرَفَادَتِهَا وَإِرْفَاقَهَا .

وَأَصْبَحْنَا فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ رَابِعَ عَشَرَ ذِي الْقَعْدَةِ رَاغِبِينَ فِي جِبَالِ كَأَنَّمَا تِلْكَ الْأَوَّلُ ،  
وَهَاطِطِينَ فِي أَوْدِيَةٍ يَتَمَنَّى سَبَالُكُهَا مِنْ شِلَّةٍ مَضَاهِيهَا أَنْ لَوْ عَادَ إِلَى تَرَقَّى أَعْلَى  
جَبَلٍ ، وَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى خَانٍ هُنَاكَ يَعْرِفُ بِقَرْطَايَ يَدُلُّ عَلَى شَرَفٍ  
هَمَّةٍ بَانِيَةٍ ، وَطَلَبَ ثَوَابَ اللَّهِ فِيهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ الْأَبْنَاءِ سَعَةً وَأَرْفَعًا ،  
وَأَحْسَنَهَا شِكْلًا وَأَوْضَعًا ، كُلُّهُ مَنِيٌّ بِالْجَمْرِ الْمُنْحَوْتِ الْمَصْقُولِ الْأَحْمَرِ الَّذِي كَانَتْ  
رِخَامٌ ، وَمِنْ ظَاهِرِ أَسْوَارِهِ وَأَرْكَانِهِ قُوُشٌ لَا يَتِمَكَّنُ أَنْ يَرْمِيَ مِثْلَهَا بِالْأَفْعَالِمِ ، وَلَهُ  
خَارِجٌ بَابُهُ مِثْلُ الرِّبْضِ بِسَائِيٍّ بِأَسْوَارِ حَصِينَةٍ ، مُبْلَطُ الْأَرْضِ ، فِيهِ حَوَائِيتُ .  
وَأَبْوَابُ الْخَلِجِ حَلِيدٌ مِنْ أَحْسَنِ مَا يُمْكِنُ اسْتِعْمَالُهُ . وَدَاخِلُهُ أَوَارِيضُ صَيْفِيَّةٍ ، وَأَمْكِنَةٌ

شَتِيَّة ، واضطبلت على هذه الصورة لا يُحْسِنُ الإنسان أن يُعَبِّرَ عنها بِكَيْفٍ ،  
وما منها إلا ما يَجِدُهُ الإنسان رَحْلَةً لِلشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ؛ وفيه الحُجَامُ وَالْبِيَارِسْتَانُ  
وَالْأَدْوِيَّةُ وَالْقَرْمُشُ وَالْأَوَانِي وَالضِّيَافَةُ لِكُلِّ طَارِقٍ عَلَى قَدَرِهِ ، حِمْلٌ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ  
مِنْ ضِيَاقَتِهِ لِمَا مَرَّ عَلَيْهِ ، وَكَثَرِ النَّاسِ فَمَا وَصَلَ أَحَدٌ إِلَيْهَا وَلَا إِلَيْهِ ؛ وَعَلَيْهِ أَوْقَافٌ  
عَظِيمَةٌ ، وَضِيَاعٌ كَثِيرَةٌ حَوْلَهُ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَلَهُ دَوَاوِينُ وَكُتُبٌ وَبَاشَرُونَ  
يَتَوَلَّوْنَ اسْتِخْرَاجَ أَمْوَالِهِ وَالْإِنْفَاقَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضِ النَّارُ إِلَى إِبْطَالِ شَيْءٍ مِنْ  
رُسُومِهِ ، وَأَقْبَاهُ عَلَى عَوَائِدِ تَكَرُّمِهِ ، وَأَهْلُ الرُّومِ يَبَالِغُونَ فِي تَجْهِيلِ بَاقِيهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -  
وَتَعْظِيمِهِ ، وَتَزَلْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَرِيبَ قَرْيَةٍ قَرِيبُ مَنْ قَبْصَرِيَّةٍ مِنْ حَقُوقِ وَادِي  
صَلُومَةِ شَرْقِ الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِسَيْبٍ ، وَفِيهِ تَبَرَّأَ أَمْرِي الْقَيْسِ الشَّاعِرِ ... ..

أَجَارَتْنَا إِنْ اِخْطُوبَ شُوبُ ، \* وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَيْبُ ،

أَجَارَتْنَا إِنَّا غَيْرِيَانِ هَاهُنَا \* وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ ! !

وهذا الجبل يعلوه جبل أرجاس ، وهو الذي يضرب الرُّومُ الأمثالَ بِتَسَامِيهِ ،  
وَتَنْضَاءُ الْجِبَالُ فِي جَمِيعِ الدُّنْيَا لِمَالِهِ ؛ لَا تُسْحَبُ ذُبُولُ السَّحَابِ إِلَّا دُونَ  
سَفْعِهِ ، وَلَا يُعْرَفُ مِنْ ثُلُوجِهِ شَتَاءٌ وَضِيْفًا وَمِنْ مِثَالِ الْأَجْزَةِ الْمُتَصَعِّدَةِ مِنْهُ عِشَائُهُ  
مِنْ صُبْحِهِ .

ولما كان يومُ الأربعاءِ بِتَصَفِّ ذِي الْقَعْدَةِ ، وهو يومُ شَرَفِ الزُّمَرَةِ رَكِبَتْ  
السَّائِرُ الْمَنْصُورَةُ مُتَرَبِّبَةً ، وَمَلَائِةُ الْقَضَاءِ مُتَسَرِّبَةً ؛ وَرَكِبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ  
فِي زُمْرَتِهِ ، وَذَوَى أَمْرِهِ وَأَمْرَتِهِ ؛ بِخِتَالِ جَوَادِهِ فِي أَمْسَحِ مَيْدَانٍ ، وَيَصْبِحُ بِهِ فَرَحًا  
وَمَرَحًا كَأَنَّهُ تَسْوَانُ دَرَى أَنَّهُ سُلْطَانُ :

تَقْلُ مَلُوكُ الْأَرْضِ خَاشِعَةً لَهُ \* تُفَارِقُهُ هَلِكِي وَتَلْقَاهُ سُجْدًا !

ونخرج أهل قيصريّة وأكاربها، وطماؤها وزهاؤها وتجارها، ورباياها ونسائها  
وصنارها؛ فاحرم مولانا السلطان ممسأهم، وشكر مسعاهم، وتلقى قضائهم وعلماهم  
زكنا، وحادثهم إنسانا فأنسانا؛ وحصلت لجماعة من الفقراء والناس حالات وجيد  
مطريبه، وصدحت ذكري معجبه . وكان دهليز السلطان غياث الدين صاحب الروم  
وخيأه وشعار سلطنة الروم قد بنى جميع ذلك فى وطاة قريب الجوسق والبستان  
المعروف بكبحسرو، وترجل الناس على اختلاف طبقاتهم فى الركاب الشريف من  
ملك وأمة ومأمور وأمير، وأرذعت الأصوات بالتهليل والتكبير :

ربا الروم من ترحى التوافل كلها \* لديه ولا ترحى لديه الطوايل !

وتزل مولانا السلطان فى تلك المضارب المعدّة لكرم الوفاة ، وضربت نوبة  
سلجوق على باب دهليزه على العادة ؛ وأذن مولانا السلطان للناس فى التقرّب الى  
شريف قسطنطينه، وتبلمهم بنظره وأحباطه ؛ وحضر اصحاب الملاهي، فساظفروا  
بغير التواهي ؛ وقيل لهم : أريجوا وراءكم فاقبسوا ، وأذهبوا الى وادخير هذا  
الوادى فاقبسوا ؛ فهذه الهتاء لا تنفق هنا ، وما هذا موضع النباء بل هذا موضع  
الغنى ؛ وشرع مولانا السلطان فى إنفاق اللهوى، وعين لكل جهة شخصا وقال : أنت  
له ؛ وحكم وحكم، وعلم وعلم ؛ وأعتد على الأمير سيف الدين جاليش فى النباة،  
وأعطى كلا يمينه كتابه ؛ وأقام الحجة على من أترج بالاستعطاف، وتأمين من خاف ؛  
فأخرج كثيرهم عن الخاتلة ، ولا زعيمهم عن المطاولة ؛ فلما علم مولانا السلطان  
أنهم لا يفلحون، ولغير التتار لا يصلحون ؛ وأنهم إن أصبحوا على الطاعة لا يمسون  
وإن أمسوا لا يصحون ؛ عاد عن تلك الوعود، وأختار أن مابداً إليه يعود، وأن  
يبحث نفسه إلى ما بعثه الله إليه من المقام المحمود ؛ فركب يوم الجمعة سابع عشر

ذی القعدة مستقبلاً من الله كل الخير، ونصب جتر بنی سلجوق على رأسه فشهد  
الناس منه صاحب القبة والسبع وصاحب القبة والطير؛ ودخل قيصرية في بكرة  
هذا اليوم وكانت دار السلطنة قد فرشت لزواله، وتحت بنی سلجوق وقد هي  
لحلولة؛ وهي دار ترهوه، ومنازل من يتعد أو مئازه من يلهو؛ أيقنة المبتغي، تحف  
بها بساين عذبة الجنى؛ جذرائها بأحسن أصناف القاشاني مصفحة، وأجمل  
نقوشه مصرحة؛ بغلس مولانا السلطان في مرتبة الملك في أسعد وقت، وبال  
التحت بحلولة أسعد البخت :

وما كان هذا التخت من حين نصيه \* لغير الملك الظاهر الندب يصلح .  
مليكك على اسم الله ما قحت له \* صوارمه البيض المواضي وتفتح .  
أنته وفود الروم والكُل قائل : \* رأيناك تفقو عن كثير وتصفع .  
فأوسعهم حِلماً وجاد لهم ندى \* وأمسوا على من وأمن وأصبحوا .  
ولوا أنهم لم يحسوا المتكيب \* من الحق والنهج القويم لأفلحوا ،  
ولكنهم أخطوا بداً فوقها يد \* تصافح كفا زلها النار قدح !!

وأقبل الناس على مولانا السلطان يستأذنه، وعلى كفه الشريف يقبلونه؛ وبعد  
ذلك حضرت القضاة والفقهاء والعلماء والصوفية وذوو المراتب من أصحاب العايم  
على عادة بنی سلجوق في كل جمعة، ووقف أمير الحفل وهو كبير المقادير عندهم، له  
وسامة ونخامة، وله أنكر ثم وأوسع عمامة؛ وأخذ في ترتيب الحفل على قدر الإقدار،  
والتصيب قائماً بين يدي مولانا السلطان منظرًا ماله به يسار؛ وشرع القراء يقرعون  
بجيمًا وفردائى بأحسن تلحين، وأجمل تحسين؛ فأتت أصواتهم بكل عجب، وعدلوا  
عن الترنيل إلى الترتيب . ولم فرغوا شرع أمير الحفل صارخا، وبكوار فيه نالفا؛

فَأَتَشَدُّ وَأُورَدُ بِالْقَارِيسِيَّةِ مَا يُجِيبُ مَثْلُوهُ ، وَهَوَّلُ مَقُولِهِ ؛ وَأَطَالَ وَمَا أَطَابَ ،  
وَأَسْتَصَوَّبُ مَنْ يَعْرِفُ مَقَالَهُ قَوْلَهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

وَلَمَّا أَتَقَضَى ذَلِكَ مَدَّ سِمَاطُ لَيْسَ يُنَاسِبُ هِمَمَ الْمُلُوكِ ، فَأَكَلَ النَّاسُ مِنْهُ  
لِلشَّرَفِ لَا لِلشَّرَفِ ، ثُمَّ عَادَ كُلُّ مِنْهُمْ إِلَى مَقَامِهِ فَوَقَفَ ؛ وَقَامَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ إِلَى  
مَكَانِ الْإِسْتِرَاحَةِ فَأَقَامَ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى تَحِيْمِهِ قَرِيرَ الْعَيْنِ ؛ وَكَانَ بِنَارِ  
الْمَلِكِ حَرَمُ السَّلْجُوقِيَّةِ قَدْ أَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسْكَنَتَهُمْ وَمَسَاكِنَهُمْ ، قَدْ نَبَتْ بِهِمْ  
مَوَاطِنُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ ؛ عَلَى أَبْوَابِهِمْ أَشْمَالُ سُتُورٍ مِنْ حَرِيرٍ ، وَمَشَاجِئُ خُدَّامٍ يَسْتَحِقُّ كُلُّ  
مِنْهُمْ - لِكِبَرِ سِنِّهِ - أَنْ يُدْعَى بِالْكِبَرِ ؛ طِهِمُ ذِلَّةُ الْإِنْكَسَارِ ، وَأَمَارُ الْإِفْتِقَارِ ؛  
بِحَبْرِهِمْ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَأَتَسَّهُمْ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ ؛ وَتَوَجَّهَ مِنْ تَوَجُّهِهِ إِلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ  
فِي قَبْصَرِيَّةٍ وَبِهَا سَبْعُ جُمُعٍ تُقَامُ ، وَبِهَا خُطْبَاءُ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ؛ فَصَلَّيْنَا فِي جَامِعِ  
السُّلْطَانِ وَهُوَ جَامِعٌ عَلَى يَدَيْهِ عَلَى أَحْفَالٍ مُلَوَّكِيهَا بَيْوتُ عِبَادَاتِهِمْ ؛ وَرَأَيْنَا فِيهِ مِنْ  
دَلَائِلِ الْخَيْرِ مَا يَفْضِي بِحَسَنِ إِرَادَاتِهِمْ ؛ فَعَضُرَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَأَكَاثِرُهَا ، وَجَلَسُوا حِلَقًا  
لَا صُفُوفًا ، وَأَخْرَجُوا مِنَ الْبَحْثِ بِالْعَجْمَةِ صُفُوفًا ؛ وَاجْتَمَعَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ حَفَظَةِ  
الِكِتَابِ الْعَزِيزِ فَتَخَارَجُوا الْقِرَاءَةَ آيَةً آيَةً ، وَهِيَ قِرَاءَةُ بَعِيدَةٍ عَنِ الذِّكْرِيَّةِ ؛ بَلْ لَمَّا  
تَبَرَّزُوا أَصْوَاتُ مَتَرَتِهِ ، وَالْحَنَانُ لَتَفَرِّقَ الْكَلِمَاتِ مُقَسِّمُهُ ؛ يَنْطَقُونَ بِالْحُرُوفِ  
كَيْفَ أَتَقَفَتْ ، وَلَا يَتَوَقَّفُونَ عَلَى غَرَارِ الْحُرُوفِ أَنَّهُمَا نَظَفَتْ أَوْ لَا نَظَفَتْ .

فَلَمَّا آنَ وَقْتُ الْأَذَانِ قَامَ صَبِيٌّ عَلَيْهِ قَبَاءٌ مِنْ وَسَطِ جَمَاعَةِ طِهِمِ أَقْبِيَّةٌ قَعُودٌ عَلَى  
دِكَّةِ الْمُؤَذِّنِينَ ، فَاثْبَدَا بِالتَّكْبِيرِ أَوَّلًا وَثَانِيًا بِمُفْرَدِهِ مِنْ غَيْرِ إِعَانَةٍ وَلَا إِهَانَةٍ . وَلَمَّا تَشَهَّدَ  
سَاعَدُوهُ جَمِيعُهُمْ بِأَصْوَاتٍ مُجْتَمِعَةٍ مُتَلِغَةٍ ، وَنَهَاتٍ مُتَبَوِّعَةٍ ؛ يُحْسِنُونَ لَهُ النِّعَمَ بِأَحْسَنِ  
تَلْمِيزٍ ، وَيَتَرَتَّبُونَ بِالأَصْوَاتِ إِلَى آخِرِ التَّأْذِينِ ؛ وَفَرَعَ الْأَذَانُ وَكُلُّهُمْ قَعُودٌ مَا مِنْهُمْ



أحد غير الصبي وقف ، وما منّا أحدٌ لكلمة من الأذان عَرَفَ ؛ ولما فرغ الأذان طلع شيخٌ كبير السن يعرف بأمر تحفيل المنبر، فصعد إلى ذروة المنبر، وشرع في دُعاء لا تعرفه ، وأدعاء لا نألفه ؛ كأنه مُحاسِم ، أو وِكلٌ شرع أحضره لمشادة خصمه مُحاسِّم بين يدي حاكم ؛ وطلع الخطيب بعد ذلك فخطب ودعا مولانا السلطان بغير مُشاركه ، ودعا الناس بما تلقته من الأقوال الملائكة ؛ وأتقضت الجمعة على هذه الصورة ، المستطوره ؛ وضربت السكّة باسم مولانا السلطان ، وأحضرت الدراهم إليه في هذا اليوم ، فشاهدنا فرأى أوجهها باسمه الميمون ، وأقرت الألسنة بهذه النعمة وقوت العيون ؛ وشاهدتُ بقمسارية مدرّس وخوانق ورُبطاً تدلّ على اهتمام بانها ، ورغبتهم في العلوم الشرعية والدينية ، مُشيدة بأحسن الجمار الحجر المصقولة المشوشة ، وأراضيها بأجل تلك مفروشه ، وأواوينها وصفقها مؤزرة بالقاشاني الأجل صورة ، وجميعها مفروشة بالبسط الكرّجية والعالية ، وفيها المياه الحارّة ، ولها الشبابيك على البساتين الحسنة ، وسوقٌ قصيرة طائف بها من حولها ، وليس داخل المدينة دكان ولا سوق .

والوزير في بلاد الروم جميعها يُعرف بالصاحب «نقر الدين خواجا علي» ولا يُحسن الكتابة ولا الخط ، وخلعته من ممالكه خاصة ماتنا مملوك ، ودخله في كل يوم - غير دخل أولاده وغير الإقطاعات التي له ولأولاده وخواصه - سبعة آلاف درهم سلطانية . ولقد شاهدتُ في مدرسته من خيامه ونركاواته شيئاً لا يكون لأكبر الملوك ، وله بر ومعرفة ، وهو بالخير موصوف :

وَالْمَسْمُونُ بِالْوَزِيرِ كَثِيرٌ \* وَالْوَزِيرُ الَّذِي لَنَا الْمَأْمُولُ !

وَعَلَى هَذَا وَذَلِكَ عَلَيَّ \* وَعَلَى هَذَا لَهُ التَّقْضِيلُ !

الذى زُلْتُ عنه شَرْقًا وَغَرْبًا \* وَنَدَاهُ مُقَابِلِي لَا يَزُولُ!

وَمَعِيَ إِنَّمَا سَاكَتْ كَأَنِّي \* كُلُّ وَجْهِهِ لَهُ بَوَّجِيهِ كَفِيلُ!

وَأَمَّا مُعِينُ الدِّينِ سُلَيْمَانُ الْبُرْوَانَاهُ وَزَوْجَتُهُ كُرْسَى خَاتُونُ ، فَظَهَرَ لَهَا مِنَ الْمَوْجُودِ  
الْبَادِي لِلْعَيْنِ كُلِّ نَفِيسٍ ، وَبِحَمْدِ اللَّهِ اسْتَوَى مَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَمَمَالِكُهُ مِنْ مَوْجُودِهِ  
وَدَارِ زَوْجَتِهِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَصَرَحَ بِقَيْسٍ .

وَلَمَّا أَقَامَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ بِقَيْصَرِيَّةِ هَذِهِ الْمَلَّةِ ، فَكَّرَ فِي أَمْرِ عَسَاكِرِهِ وَمَصَالِحِهِ  
بِمَا لَا يَعْرِفُهُ سِوَاهُ ، وَنَظَرَ فِي حَالِهِمْ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَقْوَاتَ قَلَّتْ ،  
وَالسُّيُوفَ مِنَ الْمَصَارِعَةِ مَلَّتْ ، وَالسَّوَادَ مِنَ الْمَصَادِمَةِ كَلَّتْ ، وَأَنَّهُ مَا بَقِيَ فِي الرُّومِ  
مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ يُعَزَّى ، وَلَا يَجْزَاءُ السُّوءِ يُعْزَى ، وَلَا يَبْقَى فِي الْبِلَادِ غَيْرِ رَعَايَا كَالسَّوَامِ  
الْمَالِمَةِ ، وَلَا دِيَّةٍ - لِلْكُفْرِ مِنْهُمْ - عَلَى عَاقِلٍ وَعَاقِلَةٍ ، وَأَنَّهُ إِنْ أَقَامَ فَالْبِلَادُ لَا تَحْمِلُهُ ،  
وَمَوَادُّ بِلَادِهِ لَا تَصْلُهُ ، وَأَعْشَابُ الرُّومِ بِالْدُّوسِ قَدْ أَضْمَحَلَّتْ ، وَطُغُفَاتُهَا قَدْ قَلَّتْ ،  
وَذُرُوعُهَا لَا تُرْتَجَى لِكِفَايَةِ ، وَلَا تَرْضَى خِيُولُ السَّائِرِ الْمَنْصُورَةِ بِمَا تَرْضَى بِهِ خِيُولُ  
الرُّومِ مِنَ الرَّعْيِ وَالرَّيْطَةِ ، وَأَنَّ الْحُسَامَ الصَّبِيلَ الَّذِي قُتِلَ التَّنَّارُ بِهِ فِي يَدِ الْفَاتِلِ ،  
وَأَنَّهُمْ إِنْ كَانَ عَجَبُهُمْ حَامَهُمْ فَيَعُودُونَ إِلَى الرُّومِ فِي قَابِلٍ .

وَرَحَلَ فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ عِشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ بَعْدَ أَنْ أُعْطِيَ أَمْرَاهُ وَخَوَاصُّهُ  
كُلُّ مَا أُحْضِرَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَعْنَةِ وَالْأَزْمَةِ ، وَكُلُّ مَا يُطَاقُ عَلَى تَوْلِيهِ أَمْرُ النِّعْمَةِ ، فَتَزَلَّ  
بِمَنْزِلَةٍ تَعْرِفُ بِعَتْلُوها فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ وَرَدَّ إِلَى السُّلْطَانِ رَسُولٌ مِنْ جِهَةِ غِيَاثِ الدِّينِ  
سُلْطَانِ الرُّومِ ، وَمِنْ جِهَةِ الْبُرْوَانَاهُ وَالْكَبْرَاءِ الَّذِينَ مَعَهُ ، يُسَمُّى ظَهِيرُ الدِّينِ التَّرْتِمَانُ ،  
وَفِي الْحَقِيقَةِ هُوَ مِنْ عِنْدِ الْبُرْوَانَاهُ ، يَسْتَوْقِفُ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ عَنِ الْحَرَكَةِ وَمَا عَلَيْهِمْ  
إِلَى أَيْنَ ، بَلْ كَانَ الْأَمْرُ شَائِعًا بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الْحَرَكَةَ إِلَى جِهَةِ سِيَوَاسٍ . فَعَدَّدَ مَوْلَانَا  
السُّلْطَانُ عَلَيْهِ حُسْنَ وَقَائِهِ بِهِمْ ، وَأَنَّهُ أَجَابَ دُعَاءَهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ مِنْ أَفْصَى

مُلْكُهُ مَعَ بَيْدِهِ؛ وَأَنَّهُمْ مَا وَقَفُوا عِنْدَ الشَّرْطِ الْمُقَرَّرِ، وَلَا وَفَّاءَ بِمَضْمُونِ الرِّسَالِ  
 الْمُسَيَّرِ، وَأَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ طَلَبُوا نَظْرَةً إِلَى مَيْسَرَةٍ؛ وَأَن أَعْتَبَهُمُ  
 لِلْكَفْرِ مُسَامَةً، وَأَنَّهُمْ مِنْذُ اسْتِيلَاءِ التَّارِ هُمُ أَصْحَابُ الْمَشَامَةِ؛ وَطَمِعَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ  
 أَنَّ يِلَادَ الرُّومِ مَا بِهَا عَسْكَرٌ يَسْتَغْلِضُهُ لِنَفْسِهِ، وَلَا مَنْ يُقَابِلُ الْمُثْلَ فِي غَدِهِ خَوْفًا  
 مِمَّا شَاهَدَهُ كُلُّ مَنْهُمْ فِي أَمْسِهِ؛ وَأَنَّهُمْ أَهْلُ الْإِنْدَازِ، لَا أَهْلُ نَفَازٍ؛ وَأَهْلُ طَرْبٍ،  
 لَا أَهْلُ حَرْبٍ [وَقَلَبَ]؛ وَأَهْلُ طَيْبَةِ عَيْشٍ، لَا قَوَادِدَ جَيْشٍ؛ فَردَّ السُّلْطَانُ إِلَى مُلَيَّانِ  
 الْبِرَوَانَةِ مَدَّ يَدَهُ، وَقَالَ: قُلْ لَهُ: إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ الرُّومَ وَطُرُقَاتِهَا، وَأَخَذْتُ أَمَّهُ  
 أَسِيرَةً وَأَبْنَ يَتِيمَةً وَوَلَدَةً، وَيَكْفِينَا مَا جَرَى مِنَ النَّصْرِ الْوَجِيزِ، (وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ  
 إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) وَمَا كُلُّ مَنْ قَضَى فَرِيضَةَ الْحَجِّ نَجِبٌ عَلَيْهِ الْمُجَاوَرَةَ، وَلَا بَعْدَ  
 هَذِهِ الْمُنَاصَرَةِ مُنَاصَرَهُ، وَلَا بَعْدَ هَذِهِ الْمُجَاوَرَةِ مُجَاوَرَهُ، وَنَحْنُ قَدْ ابْتَغَيْنَا فِيمَا آتَانَا اللَّهُ:  
 مِنْ حَقْنِ دِمَاءِ أَهْلِ الرُّومِ وَصَدَمِ تَهَبِ أَمْوَالِهِمُ الدَّارَ الْآخِرَةَ؛ وَتَقَرُّعِنَا عَنْ أَمْوَالِ كُنْتُمْ  
 لِلتَّارِ تَسْتَعْبِقُونَهَا، وَمَغَارِمَ كَثِيرَةٍ هِيَ لِمَنْ مِنَ الْخَنَائِطِ مَغَائِمٌ يَأْخُذُونَهَا حِينَ يَأْخُذُونَهَا؛  
 وَمَا كَانَتْ جُلُوسُنَا فِي تَحْتِ سُلْطَانَتِكُمْ لَزِيَادَةِ تَحْتِ آلِ سَلْجُوقٍ، إِلَّا لِنُعَلِّمَكُمُ أَنَّهُ  
 لَا عَائِقَ لَنَا عَنْ أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ يُقَوِّى؛ وَأَنْ أَحَدًا لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْمَنَ لَنَا سَطْوَهُ،  
 وَلِيَتَحَقَّقَ كُلُّ أَنْ كُلِّ مَسَافَةٍ جُمُعَةٍ لَنَا خَطْوُهُ؛ وَمُرُوجُنَا - بِحَمْدِ اللَّهِ - أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ  
 التَّخَفِ جَلَالًا، وَأَرْفَعُ مَنَالًا؛ وَكَمْ فِي مَمَالِكِ كَرَامِيٍّ مُلْكٍ نَحْنُ آيَةُ ذَلِكَ الْكَرَمِيِّ،  
 وَكَمْ لَنَا فَتْحُ كُلِّهِ - وَالْحَمْدُ لَهُ - فِي الْإِنْفَاقَةِ الْفَتْحِ الْقُدْسِيِّ .

مَنْ كَانَ فَوْقَ عَمَلِ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ \* فَلَيْسَ بِرَفْعِهِ شَيْءٌ وَلَا بِضَعِّهِ!

وَأَسْتَفْصَحَ السُّلْطَانُ مَعَهُ تَحْتَ الرِّضَا وَالْعَفْوِ مِنْ أَكْبَارِ الرُّومِيِّينَ - الْأَمِيرِ  
 سَيْفِ الدِّينِ جَالِيشِ النَّائِبِ بِالرُّومِ، وَهُوَ رَجُلٌ شَيْخٌ نَبِيَّهُ لَهُ اشْتِغَالٌ بِعِلْمٍ، وَكَانَ لَهُ

في الروم صورة، وهو أمير دار يعني أمير المظالم . واستصحب ظهير الدين موح (؟) مشرف الممالك، ومرتبته دون الوزارة وفيه فضل، ونسخ كثيرا من العلوم بخطه، مثل الصّحاح في مجلد واحد، وغير ذلك . واستصحب الأمير نظام الدين أوحّد ابن شرف الدين بن الخطير، وإخوته وجماعته وجماعة والده، وأولاد عمه ضياء الدين بن الخطير المستشهد رحمه الله .

واستصحب من الأمراء : الأمير مظفر الدين عاف (؟) والأمير سيف الدين بكيجا الجاشنكير، والأمير نور الدين المنجيني، وأصحاب ماطية أولاد رشيد الدين أمير عارض، وهم : كمال الدين وإخوته، وأمير علي صاحب كركر .

واستصحب قاضي القضاة بعلقية، وهو القاضي حسام الدين ابن قاضي العسكر، ووالده الذي كان يرسل عن السلطان علاء الدين إلى الملوك، وهو رجل عالم فاضل . وأكثر هؤلاء حضروا بيوتهم ونسائهم وغلمانهم وحفدهم .

والذين حضروا تحت الغضب - ولّد البرواناه المذكور، وولّد خواجا يونس، وهو ابن بنت البرواناه، ووالدة البرواناه . والأمير نور الدين جاجا، وهو أكبر أمراء الروم أصحاب النعمة والتعم، والأمير قطب الدين أحمد أخو الإنابك، والأمير سيف الدين سنقر حاه الروانسي، والأمير سراج الدين إسماعيل بن جاجا، والأمير نصرة الدين صاحب سيواس، والأمير كمال الدين عارض الجيش، والأمير حسام الدين ركاك قريب البرواناه، والأمير سيف الدين الجلاويش، والأمير سراج الدين أخو حسام الدين، والأمير شهاب الدين غازي بن علي شير التركاني .

ومن المغل : مقدى الألوفا والمات - زيرك وسرطلق، وحنوكه، وسركده وتماديه (؟) .

ثُمَّ رَحَلَ السُّلْطَانُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَزَلَّ بِمَثَلَةٍ قَرِيبِ خَانَ السُّلْطَانِ عَلَاءِ الدِّينِ كَيْقَبَازَ، وَيَعْرِفُ بِكَوْاَنِي صَرَائِ . وَهَذَا الْخَلَانُ بَنِيَّةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ نَسَبَةِ خَانَ قَرْطَايَ، وَلَهُ أَوْقَافٌ عَظِيمَةٌ . وَمِنْ جُمْلَةِ مَا وَجِدَ قَرِيبًا مِنْهُ أَفْئَادٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْأَغْنَامِ عَبَثَتْ فِيهَا الْعَسَاكِرُ الْمَنْصُورَةُ، سَأَلَتْ عَنْهَا قَبِيلٌ : إِنَّمَا وَقَفَ عَلَى هَذَا الْخَلَانِ يُدَبِّجُ نَتَاجُهَا لِلْوَارِدِينَ عَلَى هَذَا الْخَلَانِ، وَهَذِهِ الْأَغْنَامُ لَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْوُقُوفِ، قَدَّرَ اللَّهُ اسْتِيفَادَهَا جُمْلَةً لِمَا كَثُرَتْ عَلَى هَذَا الْخَلَانِ مِنَ الْحَيُوشِ الْمَنْصُورَةِ الضُّبُوفِ .

وَرَحَلْنَا فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ وَهُوَ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ ثَانِي عَشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ، وَزَلْنَا فِي وَطَاءَةٍ عَادَةً التَّيَّارِ يَنْزِلُونَ بِهَا تَسْمَى رُورَانِ كُودُلُوا، وَكُودُلُوا أَسْمَ جِبَالِ تِلْكَ الْوَطَاءَةِ .

وَرَحَلْنَا فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ ثَالِثَ عَشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ، فَارَضْنَا بِهَا - فِي وَطَاءَةٍ خَلْفَ حِصْنٍ تَمْتَدُّ مِنْ طَرِيقِ غَيْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي كُنَّا تَوَجَّهْنَا مِنْهَا - نَهْرٌ يَعْرِفُ بِنَهْرِ قَزَلِ صُوبٍ، قَرِيبِ كُودُلُوا الصَّغِيرِ . وَمَعْنَى قَزَلِ صُوبِ النَّهْرِ الْأَخْمَرِ، وَهَذَا النَّهْرُ صَعْبُ الْخَفَاضِ، وَاسِعُ الْإِعْزَاضِ؛ عَالِي الْمَهَبِطِ، زَلِقُ الْمَسْقَطِ، مُرْهَقُ الْمُرْتَقِ، بَعِيدُ الْمُسْتَقِ، لَا يَجِدُ السَّالِكُ مِنْ أَوْحَالِ حَافَتَيْهِ إِلَّا صَعِيدًا زَلَقًا؛ فَوْقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ بِنَفْسِهِ، وَجَرَدَ مَنِيْفُهُ بَيْدِهِ، وَبَاشَرَ الْعَمَلَ بِنَفْسِهِ هُوَ وَجَمِيعُ خَوَاصِهِ، حَتَّى أَتَيَا الْمَكَانَ جَمِيعَهُ، وَوَقَفَ رَاجِلًا يُعْبَرُ النَّاسُ أَوَّلًا فَأَوَّلًا : مِنْ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَغُلَامٍ، وَهُوَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَكْرُ عَلَى مَنْ يَزْدَحِمُ، وَيُكْرِّرُ التَّأْدِيبَ لِمَنْ يَطْلُبُ بِأَذْنِهِ رَيْفَهُ وَيَقْتَحِمُ؛ وَمَا زَالَ مِنْ رَابِعَةِ هَذَا النَّهَارِ إِلَى السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ حَتَّى عَبَرَتِ النَّاسُ سَالِمِينَ . وَلَمْ خَفَّتِ الْهُرُورُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْمُرُورُ؛ رَكَبَ فَرَسَهُ وَصَبْرَ الْمَاءِ وَالْأَلْسِنَةَ لَهُ دَاعِيَهُ، وَعَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَاقِفَةٌ بَاقِيَهُ؛ فَتَزَلُّ فِي وَادٍ هُنَاكَ بِهِ مَرَّتِي وَلَا كَالسَّغْدَانِ، وَمَرَّأَى وَلَا كَشَعْبِ بَوَّانٍ .

ثم رحل في يوم الجمعة فقتل عند صحرات قراجار حصار، وهي قرية كانت حاميةً فيما مضى، قريةً من هدر رجال (٤) قبالةً بازار بلو، وهذا البازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويأع فيه كل شيء يجلب من الأقاليم، ويقرب من كودلوا الكبير.

ومرنا في يوم السبت سواقاً طول النهار، حتى نزلنا في وطة الأبلستين، وفي هذا النهار عبر مولانا السلطان - نصره الله - على مكان المعركة لمشاهدة أمم النار، وكيف تماقت عليهم من العقبان كوايرها، وكف بأسهم من الدسور مناسرها، وكيف أصبحوا لا ينسبهم إلا اليوم، وتحققوا أن آلى أهلكتهم زرق الأسته لا زرق الروم، فرأهم لن بقي غيره، وعرضوا على ربهم صفًا وجاؤوه كما خلقوا أول مره، وأبهر الرياح لأشلائهم متخطفه، والهوام في أجسادهم متصرفه، وشاهدتهم وقد هدأهم كل شيء حتى الوحوش والرياح: فهذه من صديدهم متكرعة وهذه عليهم متقصفة.

قد سؤدت شجر الجبال شعورهم \* فكان فيه مسفة الغربان!

ولما عاينهم مولانا السلطان وعاينهم الناس، أكثروا شكر الله على هذه النعم التي أمست لكافة الكفر كافة وشالة ودارزه، وأثوا على منته التي سنت إليهم خيار العساكر المنصورة حتى أصبحت تلك الأرض بهم بارزه، وحضرت من أهل الأبلستين هنالك جماعة من أهل التقى والدين، واستخبرهم مولانا السلطان عن عدة قتلى المغل فقالوا: (فأسأل العادين)؛ فاستفهم من كبيرهم عن عدة المغل كم من قتيل، فقال: (قل الله أعلم بسلتهم ما يعلمهم إلا قليل) وقال بعضهم ممن علمهم ومن عنده علم من الكتاب: أنا عدت ستة آلاف وسبعائة وسبعين قترا وضاع

(١) مأخوذ من قولهم سن الإبل سافها سوافها .

الحِساب ؛ هذا : غير من آوى إلى جَبَلٍ يَحِصُّهُ من ماءِ السُّيوفِ فما عَصَمَهُ ،  
وغير من أعقَد أن قَوسَهُ تُسَلِّمُهُ فأسلمَهُ ؛ فتركهم مولانا السلطان ومضى والفلواتُ  
مَزرَعَةٌ بِلُجُومِهِمْ ، والدُّودُ - لأنَّها مُؤَمِّنَةٌ وهم كُفَّارٌ - قد أثَّرتْ كالنواصرِ في لُجُومِهِمْ ؛  
فرسم مولانا السلطانُ بِنَقْصِ الأَهْمالِ والحُرَّاسِ والنَّهْلِيزِ المنصورِ مِجَنَّةَ الأميرِ  
بَدْرُ الدِّينِ الخَزَنْدَارِ ، والدُّخُولِ في أبلِجِهِ دَرَبِنْدَ ، وأقام مولانا السلطانُ في ساقَةِ العسْكَرِ  
الْمَنْصُورِ يَاقَةَ يومِ السَّبْتِ ويومِ الأَحَدِ :

فهو يومَ الطَّارِدِ أَوَّلُ سَاقِي \* وهو يومَ القُفُولِ آخِرُ سَاقِي !

وَأَتَنظَرُ في هَذَيْنِ اليَومَيْنِ صَبِيحًا مِنَ العُدُوِّ يَمِينٌ ، وما من دِمَاعِهِم إلى السَّيْفِ يَمِينٌ ؛  
فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ أَحَدًا رَحَلَ في يَومِ الاثْنَيْنِ فَنَزَلَ قَرِيبًا مِنَ الخَلَّانِ الَّذِي في الدَّرَبِنْدِ ، وَرَكَبَ  
يَومَ الاثْنَيْنِ مِنْ طَرِيقٍ غَيْرِ الَّذِي حَضَرَ مِنْهَا ، فَسَلَكَ طَرِيقًا مِنَ الأَوَطَارِ بَيْسًا ، وَسَلَكَ  
مِنْ قُلَلِ الجِبَالِ في هِضَابٍ كَأَنَّ كُلًّا مِنْهَا أَلْفٌ حَمَلَتْ مِنَ الأَثْمَنِ قَبَسًا ؛ فَقامَ العالَمُ  
في هَذَا اليَومِ مِنَ الشَّلَّةِ ما لا يَدْخُلُ في قِيَاسِ ، وَكَادُوا يَهْلِكُونَ لَوْلَا أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ  
تَذَارَكَ النَّاسَ ؛ فَتَسَابَهُوا وَلَكِنْ عَلَى مِثْلِ حَدِّ السَّيْفِ ، وَتَسَلَّلُوا وَلَكِنْ سَلَّ حَوَافِرِ  
الْخَيْلِ كَيْفَ ؟ ، وَهَبَطُوا مِنْ جِبَالٍ يَسْتَصْعِبُهَا كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى طَارِقُ الطَّيْفِ ؛  
يَسْتَصْعِبُ الجَبَرُ المُخَلِّقُ مِنْ شَاهِقِ وَقُوعِهِ في عَقَابِهَا ، وَيَسْتَهْوِلُ النَّجْمُ النَّاقِبُ تَرَفُّعَ  
شِعَابِهَا ؛ بِالْقُرْبِ مِنْهَا جَبَلٌ شَلَقٌ يُعْرِفُ بَسَقَرًا وَما أدراك ما سَقَرٌ ، لَا يَنْبَغِي عَلَى شَيْءٍ  
مِنَ الدُّوَابِّ وَلَا يَذَرُ لَهُ عَقَبَةٌ لَوَاحَةٌ لِلْيَمْرِ ؛ أَطَانِ اللهُ عَلَى المُهْوَطِ مِنْهَا ، وَقَارَ بِمِشِيَةِ  
اللهِ وَبِسُغَادَةِ مولانا السُّلْطَانِ مِنْ زُحْرَحَ عَنْهَا ؛ وَعَدَيْنَا كَوَكُصُوا وَهَوَالِ النَّهْرِ الْأَزْرَقِ ،  
وَبَاتَ مولانا السُّلْطَانُ هُنَاكَ ، وَكَانَ قَضِيمُ الْبَغَالِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَرَقَّ البَلُوطُ ، إِلَّا مِنْ  
أَمْسَتْ عَنَايَةُ اللهُ أَنْ يُيَسِّرَ في شِعِيرٍ بِخَمْسَةِ عَشَرَ دِرْهَمًا كُلِّ مَدَّةٍ يُحَوِّطُ .

ورحل مولانا السلطان في يوم الأربعاء تاسع عشرين من ذى القعدة فقتل قريب  
كسول (٩) المقتل ذكراً، وعُدل إلى طريق مَرَعَش فزال بجد الله الداعي، وقالوا  
للشعير: ما فينا لك مُحاطِبٌ ولا مِنّا فيك بماله مُحاطِرٌ، وللخيل قد حصل لك  
في مِصرَ الرِّبيعِ الأوّل في شُعبان وفي الشَّام في ذى الحِجَّةِ الرِّبيع الآخر، نَأْرِتَعْتَ  
لا يروعا أصحابُ الموازين في تلك المساجد، وأُشْمِرَتْ في مُروِج يتأسف عليها  
أبن المساجد (٩)؛ وقسم مولانا السلطان تلك الأغشاب كما تَقَسَّمَتْ في آفاق السماء  
النَّجوم، وأوقَفَ كُلَّ أَحَدٍ في مقامٍ حتّى قال: (وَمَا مِنّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ)؛ فَكَمْ  
هناك من مُروِجٍ أُعْشِيتْ، فَأَعْجِبْتَ، وَأُنْجَابَتِ السماءُ عنها فَالْجِبْتَ، وَأُرْبِتْ  
على زُهيرِ النّجومِ فَاهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ:

بَصْدُ الشَّمْسِ إِنِّي وَاجِهَتُنَا \* فَيَحْجُبُهَا وَيَأْذِنُ لِلنَّيْمِ!

يَخْلُطُهَا هُنَاكَ أَمْرُحُ الْحِيَاضِ، وَيَلْهُو بِهَا كُلُّ شَيْءٍ فَكَمْ قَصَفَ الْعَاصِي بِهَا  
في تلك الرِّياض.

هَذَا كُلُّهُ: وَخَيْرٌ مِنْ أَرْزَنْجَانٍ، حَارَّةٌ بَرْجَوَانٍ؛ وَخَيْرٌ مِنْ أَرْضِي تَوْرِيزٍ، قِطْعَةٌ  
مِنْ أَيْلِيزٍ؛ وَكَوْمٌ مِنْ كِيَانٍ سَفَطٌ مَيْدُومٍ، خَيْرٌ مِنْ قَصْرِ فِي قَيْصَرِيَّةِ الرُّومِ؛ وَنَظَرَةٌ  
إِلَى الْمُقْيَاسِ، خَيْرٌ مِنْ سِينَوَاسٍ؛ وَمَنَاطِرُ الْأَوْقِ، خَيْرٌ مِنْ كَيْقَبَازِ آلِ سَلْجُوقٍ؛ وَتَرْبَةٌ  
مِنْ تَرْبِ الْقَرَّاقَةِ، خَيْرٌ مِنْ مُرُوجِ الْعَرَّافَةِ؛ وَشِبْرٌ مِنْ شَبْرٍ، خَيْرٌ مِنْ سَطَا وَمِرَا (٩)  
وَجُلُوسٌ فِي بَابِ دَارِكَ خَيْرٌ \* مِنْ جُلُوسٍ فِي [بَابِ] إِيوَانِ كَسْرَى،

وَأَتِيَاخِي لِنُورِ وَجْهِكَ خَيْرٌ \* لِي مِنْ أَتِيَاخِي أَشَاهِدُ بَدْرًا!

يَاوَلِيَا يُبُولِي الْأَيَادِي سِرًّا \* وَوَذِيرًا قَلِيسَ يَحْكُسِبُ وَزْرًا:

مَا رَأَيْتَا وَاللَّهِ فِيمَنْ رَأَيْتَا \* لَكَ مِثْلًا مِنَ الْبَرِيَّةِ طَرَا.



كَمْ خَبَرْنَا الرِّجَالَ فِي كُلِّ أَرْضٍ \* فَإِذَا أَنْتَ أَعْظَمُ الْخَلْقِ قَدْرًا !  
 كَمْ فَلَانٍ قَالُوا وَقَالُوا فُلَانًا \* فَإِذَا النَّاسُ دُونَكَ حَسْرَى .  
 لَكَ مَدْحٌ قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ سُبْحًا \* نَ إِلَهِ بِهِ إِلَى النَّاسِ أَمْرَى !  
 مَا رَأَيْنَا مِصْرًا كِصْبَرٍ وَلَا مِثْلَ \* لَكَ فِينَا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا !

### الضرب الثاني

(من الرسائل المملوكية رسائل الصبيد)

وهذه نسخة رسالة في صبيد السلطان الشهيد الملك الناصر بن السلطان الشهيد  
 الملك المنصور «قلاوون» من إنشاء القاضي تاج الدين البارباري، وهي :  
 الحمد لله الذي نعم الثغورن الشريفة بإدراك الظفر، وأنعم على هذه الأمة بمحمدنا  
 الذي أثار كوكب نصيره وسفر، وشرع لما على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم النعمة  
 في السفر، وأضعف هذه الدولة الشريفة بدوام سلطانها الذي حفت أيامه بالعز  
 والتأييد والظفر .

نحمده على أن أقر العيون بفضلنا بما أقر، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك  
 له شهادة الآت قلب من قرر، وكرمت أسبابها فلا يتمسك بها إلا أعز فريق ونقر،  
 ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أعز من آمن وأذل من كفر، صلى الله عليه  
 وعلى آله وأصحابه الذين تجاوز الله عن ذنوبهم وغفر، وسلم تسليما .

وبعد، فإن في ابتغاء النصير ملاذا تذكركها كل ذات شرفت ، وتعلمكها السجيا  
 التي تعارف بالخيار وانتلفت ، وتعلمكها الثغورن التي مالت إلى العز وإلى تلقائه

صُرِفَتْ ؛ وَمَلَتْهُمَا مِنْ حَالَتَيْنِ : إِمَّا فِي مَوْقِفٍ عَزَّ عِنْدَ مَا تَلْمَعُ بُرُوقُ الصَّفَاحِ ،  
وَتَنَسِيْبُ مِنْ هَوْلِ الْحَرْبِ رُؤُوسَ الرِّمَاحِ ، وَتَسْرِحُ جَوَارِحُ النَّبَالِ لِتَحُلَّ فِي الْجَوَارِحِ  
وَتَصِيدَ فِي الْأَرْوَاحِ ؛ وَإِمَّا فِي مَوْطِنٍ سَلِمَ عِنْدَ مَا تَنْسِيْطُ النُّفُوسُ إِلَى أَمْتِطَاءِ صَهَوَاتِ  
الْجِلْدِ فِي الْأَمْنِ وَاللَّهْوَةِ ، وَتَتَشْرِحُ الصُّدُورُ إِلَى مَعَاطَاةِ الصُّبُودِ وَالْمَسَرَّاتِ مُجْتَمِعَةٍ ؛  
وَتُطْلَقُ الْبُرَاةُ قَنَصِيدَ ، وَتَتَصَرَّفُ بِأَمْرِ الْمُلُوكِ الصَّيْدِ ؛ وَتُرْسَلُ الْحَوَامِي الْمُسَكَّةُ ،  
وَتُلْقَى عَلَى مَا سَخَّ مِنَ الْوَحْشِ فَلَا تُرَى إِلَّا مُدْرِكُهُ ؛ وَتُقَاضُ حِينَئِذٍ النِّعَمُ السُّلْطَانِيَّةُ  
وَتُجْزَلُ مَوَاهِبُهَا ، وَتَلُوحُ الْعِصَابَةُ الشَّرِيفَةُ وَتَقْبَعُثُ مَوَازِيْهَا .

وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَمَعَ لِلْوَاقِفِ الشَّرِيفَةِ ، الْمُعْظَمَةِ ، السُّلْطَانِيَّةِ ، الْمَلَكِيَّةِ ،  
النَّاصِرِيَّةِ ، خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهَا - سَعَادَةَ الْخَالَتَيْنِ حَرْبًا وَسِلَاحًا ، وَأَتَاهُ فِيهِمَا النَّصْرُ الْأَرْفَعُ  
وَالْعِزُّ الْأَشْمَى ؛ وَوَسَّعَ بِصَدَقَاتِهِ وَعَزَمَاتِهِ الْأَمْرَيْنِ وَشَمَّا ، وَنَصَرَهُ نَعْتًا وَعَظَّمَهُ  
مُنْعَةً وَشَرَّفَهُ انْشِمًا ؛ فَأَيَّامُ حُرُوبِهِ كُلُّهَا رِفْعَةٌ وَأَنْتِصَارُ ، وَأَسْيَلَاءُ وَأَسْتِظْهَارُ ، وَقُوَّةُ  
تَحْيَا بِهَا الْمُؤْمِنُونَ وَتَفْنَى الْكُفَّارُ ؛ وَأَيَّامُ سَلَامِهِ كُلُّهَا عَدْلٌ وَهَيْبَةٌ ، وَصَدَقَاتُ مُنْجِيَّةُ  
مُنْجِيَّةُ ، وَرَفْعُ ظُلُمَاتٍ مُنْشَعِبَةٌ ؛ وَقَعَّ نَفُوسُ مُتَوَنِّبَةٍ وَحَسَمَ خُطُوبُ مُسْتَدَّةٍ ،  
وَيَحْفَظُ الْحُوزَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِنْ كُلِّ بَاسٍ وَيَقَايِنُهَا مِنْ كُلِّ شِدَّةٍ ؛ وَفِي خِلَالِ كُلِّ حَامٍ  
تُصَرَّفُ عِزَاتُهُ الشَّرِيفَةُ إِلَى آتِقَاءِ صَيْدِ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ : لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَمْرِينِ  
النُّفُوسِ عَلَى آكْتِسَابِ التَّائِيْدِ ، وَحُصُولِ الْمَسَرَّةِ بِكُلِّ ظَفِيرٍ جَدِيدٍ ؛ فَيَرْسُمُ - خَلَدَ  
اللَّهُ سُلْطَانَهُ - فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرْسُمُ بِهِ مِنْ مَشَقِّ كُلِّ حَامٍ بِإِخْرَاجِ الدَّهْلِيْزِ الْمَنْصُورِ  
فِيُنْصَبُ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ بِسَفْحِ الْحَرَمِ ، فِي مَاعِيَةِ مُبَارَكَةِ آخَنِيَّةٍ فِي إِقْبَالِ الْجُودِ وَالْكَرَمِ ؛  
فَتَعْمَدُ بِالتَّائِيْدِ أَطْنَابُهُ ، وَتَرْفَعُ عَلَى عَمَدِ النَّصْرِ قِيَادُهُ ، وَيُحَاطُ بِجِرَاسَةِ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ  
رِحَابُهُ ؛ وَتَضْرِبُ خِيَامُ الْأَمْرَاءِ حَوْلَهُ وَطَاقَا ، وَتَحْفُفُ بِهِ [مِثْلُ] النُّجُومِ بِالْبَدَنِ إِشْرَاقًا ؛  
وَيَسْتَقِلُّ الرِّكَابُ الشَّرِيفُ - شَرَفَهُ اللَّهُ - بَعْدَ ذَلِكَ بِقَصْدِ عُبُورِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ فَيُظْهِرُ

من القلعة المحروسة والسلامة تحجبه من الخفافه ، والحراسة تصحبه فيا قرب ونأى  
من المسافه ، ولسان السعد قد خاطبه بالتيجه وشافه ، وبماليكه الأمراء قد حفوا به  
أطلابا ، ومنى موكبه قد بست أمامه من الإضاءة نجابا ، ولم يزل حتى ياقى النيل  
المبارك ويستوى على الكرسي في الفلك المشحون ، محوطا بالنصر الميمون والجيش  
المأمون ، وقد استبشر بأعجلاته البحر والنون ، وأضحى لظهور الفلك من الفخار  
[بحضرته] المكرمه ، مالمهوات أجياده العناق المسومه ، فلهذا نشر أعلام بشرها ،  
وقال : ( أركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها ) ، فسارت به في اليم ، ونصر الله  
قد تم ، وصعد من فلكه ، على ما نشر نفوس المؤمنين في كمال سلطانه وعزرة ملكه ،  
وأستقر على جواد شرفت صهوته ، وقربت بالآثاة والسكون خطوته ، عربى النجار ،  
يختال في سيرة كائما أنتشى من العفار :

ويختال بك الطرف \* كأن الطرف تشوان.

ترى الطرف درى أوليس يدري أنك سلطان!

وسار في زروج محضره ، وثور نبات مفره ، وقد طلعت للظفر شوميه وبلوره ،  
وأصليت للصيد بزائه وصقوره ، من كل متوقد الخط من الشهامه ، محمول على  
الراحت من قوط الكرامه ، يؤتم فيه النجاج ، قبل خفي الجناح ، ويخرج من  
جوا المياه ولا حرج ولا جناح ، وبازها الأشهب ، يجيء بالظفر ويذهب بصدر  
مقضب وناطير مذهب ، له منمر أفتى ، طالبا أغنى ، كائما هو شبا السنان وقد  
جباه الحكه طعنا :

وصارم في يدك متصليت \* إن كان للسيف فى الوعى روح ،

متقيد الخط من شهامته \* فالجو من فاطره مجروح!

قد رآش النَّجَّحَ جَنَاحَهُ ، وَقَرَنَ اللَّهُ بِالْيَمِينِ ضُلُوءَهُ وَرَوَّاحَهُ ، وَنَصَرَهُ فِي حَرْبِهِ حَيْثُ  
 جَعَلَ مَنْسَرَهُ رُغْمَهُ وَحِجْلَهُ صِفَاقَهُ ؛ فِي قَوَادِمِهِ السَّعْدُ قَادِمٌ ، وَفِي خَوَافِهِ النَّصْرُ  
 ظَاهِرٌ الْمَعْلَمُ ؛ كَأَنَّمَا أَلْهِمَ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «بُورِكَ لَأَنَّمَنِي فِي بُكُورِهَا» ،  
 فَيَسْرُحُ وَالطَّيْرُ جَائِمَةً فِي وَكُورِهَا ؛ وَيَخْرُجُ فِي إِبْغَاشِ السَّحَرِ عَلَيْهِ سَوَادٌ ، فَيَهَابُهُ  
 الصَّادِحُ فِي الْجَوِّ وَالْبَاقِعُ فِي الْوَادِ ؛ وَيَأْمُرُ - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - أَمْرَاءَهُ فَيَضْرِبُونَ  
 عَلَى الطَّيْرِ حَلَقَةً وَهِيَ لَاهِيَةٌ فِي الْإِنْقَاطِ حَبَّهَا ، غَافِلَةٌ عَمَّا يَرَادُ بِهَا ، فَيَحْشَرُونَهَا بِمُحَقِّقِ  
 الطُّبُولِ وَضَرْبِهَا ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ - خَلَّدَ اللَّهُ مَلِكَهُ - لَنَا فِيهَا مُتَرَقِّبٌ ، وَلِطَائِرِهَا  
 بِالْجَارِحِ مُعَقِّبٌ ، فَمَا يَدْنُو الْكُرْكِيُّ مَقْرُورًا ، حَتَّى يَثُوبَ مَقْهُورًا ؛ سَاقِطًا مِنْ  
 سَمَائِهِ إِلَى أَرْضِهِ ، وَمَنْ سَعَتْهُ إِلَى قَبْضِهِ ، فَسُجْحَانٌ مَنْ خَلَقَ كُلَّ جَيْشٍ وَقَهَرَ بَعْضَهُ  
 وَبَعْضُهُ ؛ هَذَا : وَالْجَارِحُ قَدْ أَتَسَّبَ فِيهِ مَخَالِبُهُ ، وَسَدَّ عَلَيْهِ سُبُلُهُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ  
 وَمَذَاهِبِهِ ؛ وَلَمْ يَزَلْ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى سُلْطَانَهُ - عَامَّةً يَوْمُهُ مُتَوَفِّلاً فِي التَّيْمَنِ بِلَذَاتِ  
 صُبُودِهِ ، وَأَوَاقَاتِ سُعُودِهِ ؛ وَحُضُوبِ أَرَبِهِ وَمَقْصُودِهِ ، وَجُنُودِ الْمَلَائِكَةِ حَاقِقُونَ بِهِ  
 وَبِجُنُودِهِ ؛ حَتَّى يَنْسَخَ النَّهَارُ اللَّيْلَ بِظُلُمَاتِهِ ، وَيَلْمَحَ الطَّارِقُ بِأَضْوَائِهِ ؛ فَيَعُودُ عِنْدَ  
 ذَلِكَ الرُّكَّابُ الشَّرِيفُ إِلَى الْمُخَيَّمِ الْمَنْصُورِ وَالْجَوَارِحِ كَاسِبِهِ ، وَالْإِقْدَارُ وَاهِبِهِ ؛  
 وَالْجَوَارِحُ مَسْرُورَةٌ ، وَالطُّيُورُ مَأْسُورَةٌ ؛ وَالشُّغُوسُ مُنْتَمِعَةٌ ، وَالْمَوَاهِبُ مُنَوَّعَةٌ ، وَالْأَرْجَاءُ  
 مُضَوَّعَةٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَى مَعَ سُلْطَانِهِ بِكَلَامِهِ : «وَمَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ» ؛ فَيَرْفَعُ  
 أَمَامَهُ قَانُوسَانِ تَوَمَّانَ ، كَأَنَّهُمَا كَوْكَبَانِ بَيْنَهُمَا أَقْتِرَانُ ، أَوْ قَرَقَدَانِ رَفَّتَهُمَا يَدَانِ ؛ فَيَدْنُو  
 إِلَى خِيَمَةِ الْمَنْصُورِ فِي سُرَادِقِ الْمَرْحَلِ الْخَفِيلِ ، وَعِصَابَةِ النَّصْرِ الْأَخْيَلِ ، وَتَرَجُلِ الْإِنْصَارِ  
 قَبْلَ فُسْطَاطِهِ الْمَعْظَمِ عَلَى قَدَرٍ مِيلٍ ؛ وَيُسْعَى بِالشُّمُوعِ تَلَقِّيَهُ ، وَيُسَوَّى تَحْتُ الْمُلْكِ  
 لَتَرْقِيهِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَطُوفُ بِالْهَلِيزِ الْمَنْصُورِ أَمْرَاءُ الْحَرَسِ بِالشُّمُوعِ الْمَرْفُوعَةِ ،  
 وَالْمَرْزَاهِ الْمَسْمُوعَةِ ؛ فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ مُسْطَبِلًا ، وَجَاءَ الصَّبْحُ شَيْئًا قَلِيلًا ؛ غُرِضَتْ

عليه النعم فأعطاهما ، والمهمات الإسلامية قضاها ، وقدمت له الحياذ المسومة  
فامتنطاه ؛ ويسرح إلى الصيد والجوارح التي صادت بالأمس قد استأسدت ،  
وبسعادته إلى ظفرها قد أرشدت ؛ فإذا سار ركابه الشريف فرت على أثره عساكر  
الإسلام ، وقوضت تلك الخيام كأنها الأيام .

ولم يرح ذلك دأبه في كل يوم من أيام حركته حتى يأخذ حظه من صيد الطير ،  
فعند ذلك يثنى عنان السير ؛ إلى أقباص الوحش فيعد لإمساكها كل هيكل قيد  
الأوباد ، قد عقد الخير بناصيته فأصبح حسن المعاهد .

فن أشتب : كريم المغار ، ذي إهاب من النهار ، وأديم كأنه صحيفة الأبرار ،  
أبيض مثل المسدئ ، له في الصبح إثارة النصر وإغارة على العدا ؛ ملا قدرا  
وفلا قيمه ، وله إلى آل أعوج نسبة مستقيمة ؛ إذا استن في مضمار يسبق البروق  
الخاطفة ، ويختلف الرجح حمري وهي واقفه ؛ يحمده الفارس بمرا ، وله عند تجرى  
العوالى مع السوايق تجرى .

ومن أحمز : كأنما صبح بدم الأعداء أديمه ، وكأنما هو شقيق الشقيق وقسيمه ؛  
كزمت غرره ومجوله ، وحسنت أعرافه وذؤوله ، مكرم فرجهمود مخفر حطته من  
علي سؤله ؛ حكى لونه مجز الحيق ، وله كل يوم ظفر جديد مع أنه عتيق .

ومن أدهم : مدرك كالليل ، منصّب كالسيل ؛ كريم الناصيه ، جواب قاصيه ؛  
كأن غرته صبح تنفس في الدجى الحالك ، وكأنه من الليل باق بين عيئه كوكب  
يضيء المسالك ، وكأن مجوله بروق تفرقت في جوانب النسق فحسن منظرا لذلك ؛  
ستايكه يورى قلعها ، وغرته يبر صبحها ؛ وجوارحه مسود جحها ، وصوته  
كأن فيها العز فلا يزال ظاهرا مجحها .

وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْجِيَادِ الْمُخْتَبَرَةِ ، وَالصَّافِيَاتِ الْمُعْتَبَرَةِ :

إِذَا مَا صَرَفْتَ الْقَهْظَ تَحْوِشِيَاتِهَا \* وَأَلَوْنَهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغِيبٌ !

وَأَمَّا هِيَ بِصَبْرِهَا عَلَى الظَّلَامِ ، وَشِدَّةِ عَثْوِهَا فِي النُّورِ وَالظُّلُمَا ؛ وَسَبْقِهَا إِلَى ظَايَاتِ رَهَانِهَا ، وَثَبَاتِهَا تَحْتَ رَايَاتِ فُرْسَانِهَا .

وَتَلِيهَا الْقُهُودُ الْحَسَنَ مَنَظَرُهَا ، الْجَمِيلُ ظَفَرُهَا ، الْكَاسِبُ نَابُهَا وَظَفَرُهَا ؛ تَفَرَّقُ اللَّيْلُ فِي أَهْلِهَا الْمُجْتَمِعَةِ ، وَأَذْرَكَتِ الْوَأَصِمَ فِي هَضْبِهَا الْمُرْفُوعَةِ ؛ وَجُوهُهَا كَوْجُوهِ الْبُيُوتِ الْخَادِرَةِ ، وَوَثْبَاتُهَا عَلَى الطَّرِيذَةِ وَثَبَاتُ الْفِئَةِ الْمُؤْمِنَةِ عَلَى الْفِئَةِ الْكَافِرَةِ ؛ مُقْلَصَةُ الْخَوَاصِرِ ، عَزَمَاتُهَا عَلَى الْوَحْشِ حَوَاصِرِ ؛ مَا أَطْلَقَتْ عَلَى صَيْدٍ إِلَّا اقْتَصَصَتْ سَرِيرَهَا ، وَلَا بَصُرَتْ بَعَانَةً مِنْ حُمُرٍ إِلَّا اخْتَلَتْهَا بِجَمِيعَا .

ثُمَّ الْحَوَامِي الْمُبْلَغَةُ ، وَالضُّوَارِي الَّتِي أَحْمَحَتْ بِالْفُجْحِ مُتَوَسِّمَةً ؛ مَا مِنْهَا إِلَّا طَاوِي الْخَاصِرَةِ ، وَثَبَاتُهُ طَائِلَةٌ غَيْرَ قَاصِرَةٍ ؛ بَنُوبٌ كَالْأَسْنَةِ ، وَسَاعِدَيْنِ مَقْتُولَيْنِ تَسْبِقُ بِهِمَا ذَوَاتِ الْأَعْنَةِ ؛ لَوْ رَأَاهُ عَيْدِي بُنُ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَضَمَمَهُ إِلَى مَا لَدَيْهِ ، وَأَكَلَ بِمَا أُمْسَكَ عَلَيْهِ .

وَتَضْرِبُ الْعَسَاكِرُ حَلْقَةً مَا يَلْقَى طَرَفُهَا إِلَّا إِلَى اللَّيْلِ فِي آسَاسِهَا ، تَحْوِي سَائِرَ الْأَوَائِدِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا .

فَمِنْ نَعَايِمَ : خُضِبَ ظَلِيمُهَا لِمَا أَكَلَ رَبِيعَا ، وَأَحْمَرَّتْ أَطْرَافُ رِيشِهِ فَكَانَتْهَا سِهَامٌ أَصَابَتْ بِجَمِيعَا ؛ طَالَتْ أَعْنَاقُهَا النَّاحِلَةَ فَكَانَتْهَا خَطِيئَةٌ ، وَاشْتَدَّتْ قَوَائِمُهَا الْحَامِلَةَ فَكَانَتْهَا مِطْيَةٌ ؛ شَارَكَتِ الطَّيْرَ فِي وُجُودِ الْجَنَاحِ ، وَفَارَقَتْهَا فِي كَفَافَةِ الْأَشْبَاحِ ؛ وَأَشْبَهَتْ

(١) الْقِي فِي دِيَارِ الْمَتْنِ :

إِذَا لَمْ تَشَاهِدْ غَيْرَ حَسَنِ شَيْئَاتِهَا \* وَأَضْلَلْنَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغِيبٌ .

الْوَحْشُ فِي مَسْكَنِ الْقِفَارِ، وَشِدَّةِ النَّفَارِ؛ قَدْ اجْتَمَعَ فِي ظَاهِرِهَا الْقَوَانِ مِنَ الْوَحْشِ  
وَالطَّيْرِ وَأَنْتَلَفَ فِي بَاطِنِهَا الضَّدَّانُ مِنْ مَاءٍ وَنَارٍ .

وَمِنْ ظِلَابٍ : مُسَوَّدَةِ الْأَحْدَاقِ، حَكَّتِ الْحَبَائِبَ فِي كَحْلِ الْمُقِلِّ وَحُسْنِ سَوَالِفِ  
الْأَعْنَاقِ ؛ أَيْبَضَتْ بِطُفُونِهَا، وَأَحْمَرَّتْ مُتُونَهَا ؛ وَرَافَتْ أَوْرَاقَهَا، وَحَلَكَتْ أَمَاقَهَا ؛  
نَافِرَةٌ فِي مَحَرَّاتِهَا، طَيِّبٌ مَرَعَاهَا فَالْمِسْكُ مِنْ دِمَائِهَا .

وَمِنْ بَقَرٍ وَخَشِيَّةٍ : غُفْرِ الْإِهَابِ، مَسَاكِنَةِ الْهَضَابِ ؛ لَهَا فِي حِقَافِ الرَّهْلِ  
مَرَايِضُ ، حَذَرًا مِنْ قَانِيصٍ قَايِضٍ ؛ كَمْ فِي ... .. مِنْ لَوَى يَتَهَادَى ، كَأَنَّ إِبْرَةَ  
رَوْقِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مَدَاذًا .

وَمِنْ مُرْإَاهِبٍ أَمْرٌ مَنَسُوبَةٌ إِلَى أَحَدِ (؟) وَلَمْ تُرَكَّبْ مُتُونُهَا، وَقَدْ حَكَى الْجَزَعُ  
الَّذِي لَمْ يُتَّقَبْ فِي دُجَى اللَّيْلِ عِيُونُهَا .

وَعِنْدَ مَا تَلَقَى حَقِيقَةُ الْعَسَاكِرِ يَلْحَقُهَا - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - وَمَعَهُ الْجَوَارِحُ الصَّائِدَةُ،  
وَالْحَوَامِي الصَّائِلَةُ ؛ وَالْأَشْهُمُ النَّسَافَةُ ، وَالْمُهَوَّدُ الْإِخْلَةُ ؛ فَنُجُوجُ الْوَحْشِ دُعْرًا ،  
وَتَرَى مَسَالِكَهَا قَدْ سُلِّتَ عَلَيْهَا سَهْلًا وَوَعْرًا ؛ وَضُرِبَ دُونَ نَجَاتِهَا بِسُورٍ مِنَ الْجِيَادِ  
وَالْقُرْسَانِ، وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَلَاصِهَا بِنْيَالٍ وَخُرْصَانٍ ؛ فَيَنْتِزِعُ نَفْرَ النَّعَامِ عَنْ رِمَالِهَا،  
وَالظُّبَاءُ عَنْ ظِلَالِهَا ؛ وَالْبَقَرُ عَنْ جَادِرِهَا ، وَالْخُمْرُ عَنْ بُولِهَا ؛ وَيَقْبِضُ - خَلَّدَ اللَّهُ  
سُلْطَانَهُ - مِنْ جِنْسِ الْوَحْشِ كُلِّ نَوْعٍ ، وَلَوْ لَمْ يُمَسِّكْهَا بِجَارِحٍ لِأَمْسِكْهَا بِكَامُوسِكُ  
صُدَاةِ الْإِسْلَامِ بِالرُّوْعِ ؛ وَتُجَزَلُ مِنْهَا الْمَكَايِبُ ، وَتُمَلَأُ مِنْهَا الْحَقَائِبُ ؛ فَإِذَا أَخَذَ حَظَّهُ  
مِنَ الْقَبِيضِ وَلَدَّةَ أَكْتِسَابِهِ ، رَمَمَ لِأَمْرَانِهِ بِالصَّيْدِ عِنْدَ صُورِ رِكَابِهِ ؛ فَيَصِيدُونَ  
وَيَقْتَصُونَ، زَادَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ - فَإِنَّهُمْ فِي طَاعَتِهِ مُخْلِصُونَ ؛ فَيَكْثُرُ عِنْدَ ذَلِكَ كُلِّ

قِصَصَ دَسِيحٍ، وَيَأْتِي كُلُّ بَإٍ أَتَقَنَصَهُ لِيُظْهَرَ التَّرْجِيحُ؛ فَإِذَا اسْتَكْمَلَ أَوَاقَاتَ الصَّيْدِ مِنَ الطَّيْرِ وَالْوَحْشِ نَحْنُ رِكَابَهُ الشَّرِيفَ إِلَى جِهَةِ الْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ وَالْقِفَارِ قَدْ شُرِفَتْ بِمُرُورِ مَوَارِكِهِ، وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ قَدْ أَفْتَحَتْ بِكُونِهَا أَصْبَحَتْ مِنْ مَكَاسِيهِ .

هَذَا كُلُّهُ وَإِنْ كَانَتْ النَّمْسُ تَرَاهُ لَهَا، وَتَبْلُغُ بِهِ كُلَّ مَاتَهْوَى، فَهِيَ طَبِئَةً مِنْ تَحْمِيْنِ الْجُنُودِ عَلَى الْحَرْبِ مَا تُسَدُّ بِهِ الْعَزِمَاتُ وَتَقْوَى؛ فَيَوْمُ الرِّكَابِ الشَّرِيفِ عَائِدًا إِلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ بِالْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ، وَالسَّلَامَةُ قَدْ قَضَتْ مَا يَجِبُ طَلِبًا مِنْ حِرَاسَتِهِ، وَالْأَقْدَارُ قَدْ وَقَّتْ مَا يَنْبَغِي مِنْ كَلَالَتِهِ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا وَهُوَ صَاحِدًا إِلَى الْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ . وَأَلْسِنَةُ السَّعَادَةِ تُخَاطِبُهُ، وَمَعْرِيرُهُ قَدْ أَهْتَرَتْ فَرَحًا بِمَقْدَمِهِ جَوَانِبُهُ، وَالصَّيْدُ الْمُبَارَكُ قَدْ سَعِدَتْ مَبَادِيهِ وَحُمِدَتْ عَوَاقِبُهُ؛ فَيُلْقِي أَهْبَةَ السَّفَرِ، وَيَأْخُذُ فِيمَا بَطَنَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَظَهَرَ، وَتُنَشِّدُ أَلْسِنَةُ السَّلَامَةِ مَا أُمِّلَ عَلَيْهَا الْعِزُّ وَالتَّائِيْدُ وَالظَّفَرُ :

مَلِكُ الْبَيْسِطَةِ أَبَ مِنْ مَفَرِهِ \* وَالنَّصْرُ وَالتَّائِيْدُ فِي أَثَرِهِ،

فَكَأَنَّهُ فِي عِزٍّ مَوْكِينِهِ \* بِدَرْءٍ نَالِقٍ فِي سَنَا خَفَرِهِ .

مَا فِي الْبَرِّيَّةِ مِثْلُهُ مَلِكٌ \* أَوْ فِي الذِّى أُوتِيَهُ مِنْ ظَفَرِهِ !

يَتَبَرَّى إِلَى أَعْدَائِهِ رَهْبٌ \* مِمَّا يَلْتَمِسُ النَّاسُ مِنْ خَبَرِهِ .

فَاللَّهُ رَبُّ النَّاسِ قَاطِرُنَا \* يُؤْتِيهِ مَا يَرْضَى عَلَى وَطَرِهِ !

### الصفحة الثانية

(من الرسائل ما يردُّ منها مَوْرِدُ الْمُنْتَحِ وَالْتَقْرِيصِ)

إِمَّا أَنْ يَحْمِلَ الْمُنْتَحِ مَوْرِدَ الرِّسَالَةِ وَيُصَدِّرَ بِمَنْجِ ذَلِكَ الشَّخْصِ الْمُرَادِ، وَإِمَّا أَنْ يُصَدِّرَ بِعَاجِرِيَّةٍ يَحْكُمُهَا الْمُتَشَيُّ وَيَخْتَلِصُّ مِنْهَا إِلَى مُنْتَحِ مِنْ يَحْصِدُ مَدْحَهُ وَتَقْرِيبُهُ



وما يجرى مجرى ذلك . وللكتاب وأهل الصناعة في ذلك آفانين مختلفة المقاصد ، وطرق متباينة الموارد .

وهذه نسخة رسالة أنشأها أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ سماها "رسالة الشكر" قصد بها تقييض وزير المتوكل وشكر نعمه لديه ، مُصدراً لها بذكر حقيقة الشكر وبيان مقاصده ، وهي :

جُئْتُ فِدَاكَ ، أَيُّدِكَ اللهُ وَأَكْرَمَكَ وَأَعَزَّكَ ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعِندَكَ . ليس يكون الشكرت أبداك الله - تاتما ، ومن حدّ القُصبانِ خارجا ، حتى يستصحب أربع خلال ، ويستميل على أربع خصال :

أولها : العلم بموقع النعمة من المنعم عليه ، وبقدر انتفاعه بما يصل إليه من ذلك : من سدّ خلّة ، أو مبلغ لذة وطُوفى درّجة ، مع المعرفة بمقدار احتمال المنعم للشقّة ، والذي حاول من المعاناة والكلفة في بذلّ جاءه مَصُون ، أو مُفارقة عاني ثمين . وصيّف لا يكون كذلك ؟ وقد خول من نعمه بعض ما كان حيسا على حوادثِ ملة ، فزاد في نعم غيره بما انتقص من نعم نفسه وولده . فكلما تذكّر الشاكر ما أحتمل من مشوّة البذل ، سهل عليه احتمال ما نهض به من قهّل الشكر .

والخصلة الثانية : الحرّية الباعثة على حبّ المكافاة واستحسان المجازاة . والشكر من أكبر أبواب الأمانة ، وأبعد من أسباب الخيانة . ولن يبلغ أحد في ذلك غاية المجد إلا بمعونة الطمع ، وإلا الحرب يحال بينهما ، والظفر مقسوم عليهما . كذلك حكم الأشياء إذا تساوت في القوّة ، وتبارت في بلوغ المنة . وقد زعم ناس أن الشاكر والمنعم لا يستويان ، كما أن الباديّ بالظلم والمتصرّ لا يتبدّلان ، لأنّ الباديّ أخذ ما ليس له ، والمتصرّ لم يتجاوز حقه الذي هو له ، ولأنّ الباديّ لم يكن مهيبا على

الظلم بعلّة جناها الْمُتَصَرُّ، والمُتَصَرُّ مُهَيِّجٌ عَلَى الْمُكَافَأَةِ بِعلّة جناها الْبَادِيُّ، والمُتَوَرِّ  
لِلطَّبَاعِ الْمُغْضَبِ، وَالْمُسْتَحْيَفُ الْمُهَيِّجُ أَعْدَرُ مِنَ السَّائِكِ الْوَكَويعِ الْمُطْمَئِنِّ .  
فَذَلِكَ قَالُوا : إِنْ الْبَادِيَّ أَظْلَمَ، وَالْمُتَصَرُّ أَعْدَرُ . وَزَعَمُوا أَنَّ الْمُتَمِّمَ هُوَ الَّذِي أَوْدَعَ  
صَدْرَ الشَّاكِرِ الْحَبَّةَ بِإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ، وَهَيَّجَهُ بِذَلِكَ عَلَى مُكَافَأَتِهِ لِإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ، فَقَدْ صَارَ  
الْمُتَمِّمُ شَرِيكَ الشَّاكِرِ فِي إِحْسَانِهِ، وَتَهَرَّدَ بِفَضْلِ إِعْضَامِهِ دُونَ مُشَارَكَةِ غَيْرِهِ، وَالْمُتَمِّمُ  
هُوَ الَّذِي دَفَعَ لِلشَّاكِرِ آدَاءَ الشُّكْرِ، وَأَعَارَهُ آلَةَ الْوَفَاءِ، فَهُوَ مِنْ هُنَا أَحَقُّ بِالْتَّقْدِيمِ،  
وَأَوْلَى بِالْتَّفْضِيلِ .

هَذَا، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ وَالْأَدَبَاءِ وَالْعُلَمَاءِ : مَنْ تَمَّامَ كَرَمِ الْمُتَمِّمِ التَّفَاوُلُ عَنْ  
مُجْتَهِّهِ، وَالْإِفْرَارُ بِالْفَضِيلَةِ لِشَّاكِرِ نِعْمَتِهِ ؛ لِأَنَّ الْحَاجَةَ مُغَالِبَهُ، وَلَا تَمُّ مَوَدَّةُ الْإِمَامِ  
الْمُسَامَحَةِ . وَلِذَلِكَ قَالَ الرَّبِيعِيُّ لِنَاسٍ مِنَ الْعَرَبِ يَحْتَضِمُونَ : هَلْ لَكُمْ فِي الْحَقِّ أَوْ خَيْرٍ  
مِنْهُ ؟ قَالُوا : قَدْ صَرَفْنَا الْحَقَّ، فَمَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ ؟ قَالَ : التَّفَاوُلُ فَإِنَّ الْحَقَّ  
مُرٌّ . أَلَا تَرَى إِلَى بِنْتِ هَرِمٍ بِنِ سِتَانٍ لَمَّا قَالَتْ لِأَبْنَةِ زُهَيْرٍ بِنِ أَبِي سُلَيْمٍ فِي بَعْضِ  
الْمَنَاحَاتِ، أَوْ فِي بَعْضِ الْمَزَاوِرَاتِ : إِنَّهُ لَيَعْجِبُنِي مَا أَرَى مِنْ حُسْنِ شَارِكِكُمْ، وَقَاءِ  
تَفَحُّجِكُمْ . قَالَتْ أَبْنَةُ زُهَيْرٍ : أَمَّا وَاللَّهِ لَئِنْ قُلْتُ مَا قُلْتَ، فَمَا ذَلِكَ إِلَّا مِنْ قُضُولِ مَا وَهَبْتُمْ،  
وَمِنْ بَقَايَا مَا أَعْطَيْتُمْ . قَالَتْ بِنْتُ هَرِمٍ : لَا بَلْ لَكُمْ الْبَقْضُ، وَلَعَلَّ الشُّكْرَ أَعْطَيْنَاكُمْ  
مَا بَقِيَ، وَأَعْطَيْتُمُونَا مَا بَقِيَ . وَقِيلَ لَعَلَّ اللَّهَ بَنَ جَعْفَرٍ حِينَ أُجْزِلَ لِنُصِيبِ الشَّامِرِ  
فِي الْهَبَةِ، وَكَثَّرَ لَهُ فِي الْعَطِيَّةِ : أَتُنِيلُ هَذَا الْعَبْدَ الْأَسْوَدَ كُلَّ هَذَا النَّيْلِ، وَتَحْبُوهُ  
يُمْتَلِ هَذَا الْحَيَاءُ ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بَنَ جَعْفَرٍ : أَمَّا وَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ أَسْوَدَ الْجِلْدِ لَإِنَّهُ  
لَأَبْيَضُ الشَّعْرِ، أَعْطَيْنَاهُ دَرَاهِمَ تَفَتًى، وَثِيَابًا تَبَلًى، وَرَوَاحِلَ تُضَيُّ، وَأَعْطَانَا  
ثَنَاءً يَبْقَى، وَحَدِيثًا يَثْبُقُ، وَمَكَارِمَ لَا تُبْلَى . فَهَذِهِ الْخِصَالُ تَكَامَلَتْ خِصَالُ التَّجَدِّدِ  
فِيهِمْ، فَظَهَرَ عَنْوَانُ كَرَمِ الْخَيْرِ عَلَيْهِمْ، فَصَارُوا فِي زَمَانِهِمْ مَنَارًا، وَلَبِنَ بِسَلَمٍ

أعلاما . وليس تيم معاني كرم المنعم ، ومعاني وقاء الشاكر ، حتى تتوافق أحوالها ،  
وتتفق أحوالهما على تلافح الحجة ، والإقرار بالمعجزة ، فيزداد بذلك المنعم فضلا ،  
والشاكر نبلا .

هذا جملة القول في خصيتين من الأربع التي قلنا ذكرها ، وشهرا أمرها .

والخصلة الثالثة : الديانة بالشكر ، والإخلاص للنعم في تصفية الود ، فان الدين  
قائد المرءة ، كما أن المرءة خطام الحمية . وهذه الخصال وإن تشعبت في بعض  
الوجوه ، وافتقت في بعض الأماكن ، فإنها ترجع إلى نصيب يجمعها ، وإلى إزاء  
يحفظها ، منه نجت ، وعنه أنبثت ، وإليه رجعت . ولا اجتماع هذه الخصال على  
مخالفة الهوى ، ومجانبة الهوى ، وعلى اتهام كواحي الشهوة ، والامتناع من كلب  
الطبيعة . وفق الأولون بينها في جملة الأسم ، وقارئوا بينها في جمهرة الحكم . ولذلك  
قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : اعتز عزمه بحميته ، وحزمه بمناج يته .

ومدار جميع الأحوال المحمودة على الصبر ، ولن يتكلف مرارة الصبر من يميل  
عاقبة الصبر . وقالوا : لما صار ثقل الشكر لا يمتثل إلا بالصبر ، صار الشكر من  
نتائج الصبر . وكما أنه لا بد للعلم - مع كرم الحليم - من الصبر ، فكذلك لا بد للشكر  
- مع كرم الشكر - من الصبر . فالصبر يمرى مع جميع الأفعال المحمودة ، كما يمرى  
الهوى مع جميع الأفعال المنمومة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« خلق الله عز وجل النار وحفها بالشهوات ، وخلق الجنة وحفها بالكمارة » .

والخصلة الرابعة : وصف ذلك الإحسان باللسان البين ، وتعبيره بالبيان التبر ،  
وباللفظ العذب الشهي ، والمعنى الشريف النبى . فان الكلام إذا كان حسنا ،  
جملة الحكمة أدبا ، ووعد الرواة إلى نشره سببا ، حتى يصير حديثا مأثورا ، ويحدا

مَذْكُورًا، وداخِلًا في أَسْمَارِ الْمُلُوكِ، وَسُوقًا مِنْ أَسْوَاقِ الْمُتَادِينَ، وَوَصْلَةً فِي الْمَجَالِسِ، وَزِيَادَةً فِي الْعَقْلِ، وَتَحْنُنًا لِّلْسَانٍ، وَتَرْهِيْفًا لِّلْقَلْبِ، وَتَطْبِيقًا لِلْفِكْرِ، وَعِمَارَةً لِلصُّدْرِ، وَسُلْبًا إِلَى الْعِظَاءِ، وَسَبَبًا إِلَى الْحِلَّةِ الْكِبْرَاءِ . وَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْإِفْظُ رَأْيَهَا، وَالْمَعْنَى بَارِعًا؛ وَبِالتَّوَادِرِ مَوْثِقًا، وَبِالْمُلْحِجِ مَجْلُوزًا؛ لَمْ تَصْنَعْ لَهُ الْإِسْمَاعَ، وَلَمْ تَتَشَرَّحْ لَهُ الصُّدُورَ، وَلَمْ تَحْفَظْهُ الثُّغُوسَ، وَلَمْ تَسْطِقْ بِهِ الْأَفْوَاهَ، وَلَمْ يُحْدَثْ فِي الْكُتُبِ، وَلَمْ يَقْبَدْ بِالْدُّرُسِ، وَلَمْ يُحْدَلْ بِهِ قَائِلٌ، وَلَمْ يَنْتَدِ بِهِ سَامِعٌ . وَمَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ كَانَ كَلَامًا كَكَلَامِ الْفُتُو، وَمَعَانِي السُّمُورِ؛ وَكَالْمُخْرِجِ الَّذِي لَا يُفْهَمُ، وَالْمُسْتَغْنَى الَّذِي لَا يُعْلَمُ .

وليس - أبقاك الله - شَيْءٌ أَحْوَجُ إِلَى الْحِلَقِ، وَلَا أَقْرَبُ إِلَى الرَّفَقِ؛ مِنَ الشُّكْرِ النَّافِعِ، وَالْمَدِيحِ النَّاجِحِ، الَّذِي يَبْقَى بَقَاءَ الْوُثْمِ، وَيُلُوحُ كَمَا يُلُوحُ الْجَنَمُ . كَمَا أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَحْوَجُ إِلَى وَثْقِ الطَّاقَةِ، وَإِلَى الْفَضْلِ فِي الْقُوَّةِ، وَإِلَى الْبَسْطَةِ فِي الْعِلْمِ، وَإِلَى تَمَامِ الْعَزَمِ - مِنَ الْعَبْرِ . وَعَلَى أَنَّ الشُّكْرَ فِي طَبَقَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ، وَمَنَازِلِ مُتَبَايِنَةٍ؛ وَإِنْ جَمَعَهَا أَسْمٌ، فَلَيْسَ يَجْعَلُهَا حُكْمًا، فَرُبَّمَا كَانَ كَلَامًا يَجِيئُ بِهِ الصُّدُورُ، وَيُجْمَعُ الْأَفْوَاهُ، وَيُجَدِّفُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَيُسْتَعْمَلُ فِيهِ الرَّأْيُ الْمُفْتَضَّبُ، وَالْخَاطِرُ الْمُخْتَارُ، وَالْكَلَامُ الْمُرْتَجَلُ، فَيُرْمَى بِهِ عَلَى عَوَاهِنِهِ، وَتُثْنَى مَصَادِرُهُ عَلَى غَيْرِ مَوَارِدِهِ، لَا يَتَعَدَّرُ فِيهِ الشَّاكِرُونَ لِانْتِفَاعِ الْمُتَعَمِّينَ، كَمَا تَعَدَّرَ الْمُتَنِعِمُونَ لِانْتِفَاعِ الشَّاكِرِينَ . وَلَيْسَتْ غَايَةُ الْقَائِلِ إِلَّا أَنْ يُعَدَّ بَلِغًا مَقْوُومًا، أَوْ يُسْتَرِيدَ بِهِ إِلَى نِعْمَةِ السَّالِفَةِ نِعْمًا آتِيَةً، أَوْ لَيْسَ إِلَّا لِابْتِهَارِ كَرِيمًا، أَوْ يُجْتَدَعُ غَنِيًّا لَا يَتَقَدَّرُ سَاعَاتُ الْقَوْلِ، وَلَا يَتَرَفُّ أَعْدَادُ الْمُسْتَمِعِينَ؟ وَلَيْسَ غَايَتُهُ إِلَّا الْكَسْبُ وَالتَّرْغُصُ وَالْإِنْتِفَاعُ وَالتَّرْتُّعُ؛ وَعَلَى هَذَا يَدُورُ شُكْرُ الْأَسْتَكَانِ، وَإِحْمَادُ الْمُتَكَسِّبِينَ .

وهذا البابُ وإنْ جَعَلْتَهُ الْعَوَامُ شُكْرًا، فَهُوَ بَعِيدُ الشُّكْرِ أَشْبَهَ، وَبِذَلِكَ أَوَّلَى، وَرُبَّمَا كَانَ شُكْرُهُ عَنْ تَأْتِيٍّ وَتَذَكُّرٍ، وَعَنْ تَحْيِيرٍ وَتَحْيِيرٍ، وَعَنْ تَقَدُّرٍ لِلْحَالَاتِ،

وتخصييل للأموال في المقامات التي تُحيط بمُهجته ، وبحضرة علو لا يزال مُترصداً  
لنعمته ، فربما أتمس الزيادة في غيظه ، وربما أتمس شقاء ذاته وإصلاح  
قلبه ، وقصص المبرم من معاقب حقه ، على قدر الرد ، وعلى قدر تصرف الحالات  
في المصلحة ، لأن الشاكر كالرائد لأهله ، وكريم رهطه ، والمشار إليه عند مشورته ،  
فربما اختار أن يكون شكره شعراً : لأن ذلك أشهر ، وربما اختار أن يكون كلاماً  
مشهوراً : لأن ذلك أنبل ، وربما أظهر اليسر واتحل الثروة ، وجعل من الدليل  
على ذلك كثرة التفقه ، وحسن الشارة ، ويرى أن ذلك أصحق المدحين ، وأنبل  
الشكرين ، ويعمل قائمه إلى هذا المنحعب ، وساقه إلى هذا التدبير قول نصيب :

فاجروا فاثروا بالذي أنت أهله \* ولو سكتوا أثنت عليك الحقايب!

ومما يدخل في هذا الباب وليس به - قول العري :

يا بن العلاء ويا بن القريم مر داس : \* إني لأطريك في أهلي وجلاسي .

حتى إذا قيل : ما أعطاك من صيد ؟ \* طأطأت من سوء حال عندها راسي !

أنتي عليك ولي حال تُكديني \* بما أقول فاستحي من الناس !

وبين هذين الشكرين طبقات معروفة ، ومنازل معلومة . وموضع الشكر من  
قلب السامع في القبول والاستئمانه ، على قدر حسن النية ، والذي يعرف به الشاكر  
من صديق اللهجة ، ومن قلة السرف ، واعتدال المذاقب ، والاقتصاد في القول .  
وهذا باب سوى الباب الآخر من حسن الوصف ، وجودة الرصف . ولذلك لما  
أحسن بعض الواقظين في الموعظة ، وأبلغ في الاعتبار وفي ترفيق القلوب ، ولما لم ير  
أحدًا يجتمع ، ولا عينا تدع ، قال : ياهؤلاء إما أن يكون بي شر ، أو يكون بكم شر .

وقيل لجلساء الفضيل الرقاشي ، وعبد الصمد بن الفضيل الرقاشي : ما بال  
دموعكم عند الفضل أغزر ، وعند عبد الصمد أنزر ، وكلام عبد الصمد أغزر ،

وَكَلَامُ الْفَضْلِ أَثَرٌ؟ قَالُوا : لِأَن قَلْبَ الْفَضْلِ أَرَقَّ ، فَصَارَتْ قُلُوبُنَا أَرَقَّ ، وَالْقُلُوبُ تَتَجَارَى .

وقالوا : طُوبَى لِلْمُدَّوْحِ إِذَا كَانَ لِلدَّجِ مُسْتَحَقًّا ، وَلِلدَّاعِي إِذَا كَانَ لِلْأَسْتِجَابَةِ أَهْلًا ، وَلِلْمُنْعِمِ إِذَا حَظِيَ بِالشُّكْرِ ، وَلِلشَّاكِرِ إِذَا حَظِيَ بِالْقَبُولِ .

إِنِّي لَسْتُ أَحْسِنُ مِنْ مَدْحِكَ ، لِأَنِّي لَسْتُ أَزِيدُ فِي وَصْفِكَ ، وَلَسْتُ أَمْدُحُكَ مِنْ جِهَةٍ مَعْرُوفَةٍ عِنْدِي ، وَلَا أَصِفُكَ بِتَقْدِيمِ إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ؛ حَتَّى أَقْدِمَ الشُّكْرَ الَّذِي هُوَ أَوَّلُهَا بِالتَّقْدِيمِ ، وَأَفْضَلُ الصَّنَفِ الَّذِي هُوَ أَحَقُّ بِالتَّقْضِيلِ . وَفِي الْخَبَرِ الْمُسْتَفِيزِ ، وَالْحَدِيثِ الْمَأْتُورِ : « مَا قُلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مَّا كَثُرَ وَالْهَيْ . وَقَلِيلٌ بَاقِي خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فَإِنْ » .

تَذَكَّرَ النَّاسُ عِنْدَ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ طَلَبَاتِ السَّابِقِينَ فِي الْفَضْلِ ، وَتَفَرَّقَ حَالَاتُهُمْ فِي الْبَرِّ ، وَمِنْ كَانَتْ الْخَصْلَةُ الْمَحْمُودَةُ فِيهِ أَكْثَرَ ، وَالْخَصْلَةُ الثَّانِيَةُ فِيهِ أَوْفَرَ ، فَقَالَ ذَلِكَ الْحَكِيمُ : لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَسْبِقَ رَجُلٌ لِي الْإِسْلَامَ ، وَكُلُّ شَيْءٍ ، فَقَدْ سَبَقَ إِلَى تَهْدِيهِ نَاسٌ وَأَهْلًا آخَرُونَ ؛ وَلَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَهْوَى الرَّجُلُ أَتْرَابَهُ فِي الزُّهْدِ ، وَأَكْفَاهُ فِي الْفَقْهِ ، وَأَمَثَلَهُ فِي الدُّبِّ : وَهَذَا يُوجَدُ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَيُصَابُ فِي كُلِّ الْبُلْدَانِ . وَلَكِنَّ الْعَجَبَ الْعَجِيبَ ، وَالتَّادِرَ الْغَرِيبَ ، الَّذِي تَهَيَّأَ فِي عُمَرَيْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَأَسْقَى لَهُ . وَذَلِكَ أَنَّهُ غَبَرَ عَشْرَ حَجَجٍ : يَفْتَحُ الْقُنُوجَ ، وَيُدَوِّجُ الْبِلَادَ ، وَيُمَصِّرُ الْأَمْصَارَ ، وَيُدَوِّنُ الدُّوَاوِينَ ، وَيَفْرِضُ الْقُرُوضَ ، وَيَرْتَبُ الْخَاصَّةَ ، وَيُدَبِّرُ الْعَامَّةَ ، وَيَجِيئُ النَّفَى ، وَتَرْتَمِي إِلَيْهِ الْأَرْضُ بِأَفْلَاحِ كَيْدِهَا ، وَأَنْوَاعِ زُنْهَرِفِهَا ، وَأَصْنَافِ كُنُوزِهَا ، وَمَكُونِ جَوْهَرِهَا ، وَيَقْتُلُ مُلُوكَهَا ، وَيَلِي مَمَالِكَهَا ، وَيَحُلُّ وَيَعْقِدُ ، وَيُوَلِّي وَيَعْزِلُ ، وَيَضَعُ وَيَرْفَعُ ، وَبَلَنْتَ خَيْلَهُ لِإِفْرِيقَةٍ ، وَدَخَلَتْ خُرَاسَانَ : كُلُّ ذَلِكَ بِالتَّضَدِيرِ الصَّحِيحِ وَالضَّبْطِ ، وَالِإِقْتِنَانِ وَالْقُوَّةِ ، وَالِإِشْرَافِ ، وَالْبَصَرِ النَّافِذِ ، وَالْعَزَمِ

المُتَمَكِّن . ثم قال : لا يَتِمُّ مَصْلَحَةُ الْأُمَّةِ ، وَلَا يُحَوِّشُهُمْ عَلَى حَظِّهِمْ مِنَ الْأَلْفَةِ  
وَأَجْتِنَاعِ الْكَلِمَةِ ، وَإِقَامَتِهِمْ عَلَى الْحَبَّةِ ، مَعَ ضَبْطِ الْأَطْرَافِ ، وَأَمْنِ الْبَيْضَةِ - إِلَّا لَيْتَ  
فِي غَيْرِ ضَعِيفٍ ، وَشِدَّةٍ فِي غَيْرِ عُنْفٍ . ثم خبر بعد ذلك سِيْلَهُ كُلُّهَا عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ ،  
وَطَرِيقَةٍ مُطَرَّدَةٍ ، لَا يَخْرُفُ عَنْهَا ، وَلَا يَنْفِرُهَا ، وَلَا يَسَامُهَا ، وَلَا يَزُولُ عَنْهَا :  
مِنْ خُشُونَةِ الْمَأْكَلِ وَالْمَلْبَسِ ، وَغَلْظِ الْمَرْكَبِ ، وَظَلْفِ النَّفْسِ عَنْ صَفِيرِهَا وَكِبِيرِهَا ،  
وَدَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا ، وَكُلِّ مَا يَنْحَرُ النَّاسُ عَلَيْهِ ، لَمْ يَتَغَيَّرْ فِي لِقَاءٍ وَلَا فِي حِجَابٍ ،  
وَلَا فِي مُعَامَلَةٍ وَلَا فِي مُجَالَسَةٍ ، وَلَا فِي جَمْعٍ وَلَا فِي مَنْعٍ ، وَلَا قَبْضٍ وَلَا بَسْطٍ :  
وَالدُّنْيَا تَنْصَبُ عَلَيْهِ صَبًّا ، وَتَتَلَقَّى عَلَيْهِ تَلَقًّا ؛ وَالْخَصْلَةُ مِنْ خِصَالِهِ ، وَالْحَلَّةُ مِنْ  
خِلَالِهِ ؛ تَدْعُو إِلَى الرُّغْبَةِ ، وَتَفْتَحُ بَابَ الْأَلْفَةِ ، وَتَقْضِي الْمُبْدَمَ ، وَتُقَيِّدُ الْمُرُوءَةَ  
وَتَفْسِحُ الْمُنَّةَ ، وَتَحُلُّ الْعُقْدَةَ ، وَتُورِثُ الْأَقْتَرَارَ بِطَوْلِ السَّلَامَةِ ، وَالْأَتَكَالَ عَلَى دَوَامِ  
الظَّفَرِ ، وَمَوَاثِدِ الْأَيَّامِ ، وَمُتَابَعَةِ الزَّمَانِ . وَكَانَ نَبَأُهُ عَشْرَ حِجَجٍ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ  
أَعْجُوبَةً ، وَمِنَ الْبِدَائِعِ الْغَرِيبَةِ . وَبَاقِلٌ مِنْ هَذَا يَظْهَرُ الْعَجَبُ ، وَيُسْتَعْمَلُ الْكِبَرُ ،  
وَيَظْهَرُ الْجَهْدُ ، وَيَقُلُّ التَّوَاضُّعُ .

وَنَحْنُ وَإِنْ كُنَّا لَا نَسْتَعِيزُ أَنْ نُلْحِقَ أَحَدًا بِطَبَاجِ عُمْرٍ وَمَنْهَجِهِ ، وَفَضْلِ قُوَّتِهِ ،  
وَتِمَامِ عَزَمِهِ ، فَإِنَّا لَا نَجِدُ بَدَأَ مِنْ مَعْرِفَةِ فَضْلِ كُلِّ مَنْ اسْتَقَامَتْ طَرِيقَتُهُ ، وَدَامَتْ  
خَلِيقَتُهُ ، فَلَمْ يَتَغَيَّرْ عِنْدَ تَتَابُعِ التَّيَمِّ ، وَتَظَاهُرِ الصَّنْعِ ، وَإِنْ كَانَتْ التَّيَمُّ غُفْلَةً  
الْأَجْنَاسِ ، وَمُتَفَاوِتَةً فِي الطَّبَقَاتِ . وَكَيْفَ يُلْحِقُ بِهِ أَحَدٌ ؟ مَعَ قَوْلِهِ : «تَوَأَّنْ  
الصَّبْرَ وَالشُّكْرَ بَعْدَ إِنْ مَا بَالَيْتُ أَيْهَمَا رَكِبْتُ» وَلِكِنَّا عَلَى حَالٍ لَا نَدْعُ تَعْظِيمَ كُلِّ مَنْ  
بَانَ مِنْ نُظْرَانِهِ فِي الْمَرْتَبَةِ ، وَأَشْبَاهِهِ فِي الْمَثَرَةِ ، إِذْ كَانَ أَدْوَمُهُمْ طَرِيقَهُ ، وَأَشَدَّهُمْ  
مَرْبَرَهُ ، وَأَمْضَاهُمْ عَلَى الْجَمَادَةِ الْوُسْطَى ، وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى الْحَبَّةِ الْعُظْمَى .

ولا بدّ من أن يُعطى كلّ رئيسٍ قِسْطه، وكلّ زمانٍ حَقُّه؛ ولا يُعْجِزُنِي قولُ  
القائل: لم يَدَعْ الأوَّلُ لِلاَخِرِ شَيْئاً، بل لَعَمْرِي لقد تركَ له العَرِيضَ الطَّوِيلَ،  
والثَّيْنَ الخَطِيرَ، واللِّقْمَ الرَّجَحَ، والمنْهَجَ الرَّحْبَ . ولو أنَّ النَّاسَ مُدَّ بَحْرَتِ هَذِهِ الْكَلِمَةُ  
عَلَى أَفْوَاهِ الْعَوَامِ، وَأُعْجِبَ بِهَا الْأَعْمَارُ مِنَ الرِّجَالِ - قَلَدُوا هَذَا الْحُكْمَ، وَاسْتَسَلَمُوا  
لِهَذَا الْمَذْهَبِ، وَأَهْمَلُوا الرُّيَّةَ، وَيَتَسُوا مِنَ الْفَائِدَةِ، لَقَدْ كَانَ أَرْتَفَعَ مِنَ الدُّنْيَا نَفْعٌ  
كَثِيرٌ، وَصِلْمٌ غَزِيرٌ .

وَأَيُّ زَمَانٍ بَعْدَ زَمَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَحَقُّ بِالتَّفْضِيلِ، وَأَوَّلَى بِالتَّقْدِيمِ،  
مِنْ زَمَانٍ ظَهَرَتْ فِيهِ الدَّعْوَةُ الْهَادِثِيَّةُ، وَالِدَوْلَةُ الْبَاسِيَّةُ، ثُمَّ زَمَانِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ،  
وَالنَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ، وَالْإِمَامِ الَّذِي جَلَّ فَكْرُهُ، وَكَثُرَ شُغْلُهُ بِتَصْفِيَةِ الدِّينِ وَتَهْنِئَةِ  
وَتَخْيِصِهِ وَتَقْيِيمِهِ، وَإِعْزَازِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَاجْتِمَاعِ كَلِمَتِهِ، وَرُجُوعِ أَلْفِيهِ . وَقَدْ  
سَمِعْتُ مَنْ يَقُولُ - وَيَسْتَمِهُدُ الْعِيَانُ الْقَاهِرَ، وَالخَبَرُ الْمُتَظَاهِرُ - : مَا رَأَيْتُ فِي زَمَانِنَا  
مِنْ كِفَاةِ السُّلْطَانِ وَوَلَايَةِ، وَأَعْوَانِهِ وَحِمَاتِهِ، مِنْ كَانَ يُؤْمَلُ بِمَحَلِّكَ، وَيَتَقَدَّمُ  
فِي التَّأْهِبِ لَهُ، إِلَّا وَقَدْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْبَذْخِ وَالتَّنْفِخِ، وَمِنْ الصَّافِ وَالْعُجْبِ، وَمِنْ  
الْخِيَلَاءِ، وَمِنْ إِفْرَاطِ التَّنْزِيرِ لِلْأَوْلِيَاءِ، وَالتَّهَكُّمِ عَلَى الْخُلَطَاءِ، وَمِنْ سُوءِ الْقَاءِ،  
مَا لَا خَفَاءَ بِهِ عَلَى كَاتِبٍ وَلَا عَلَى حَامِلٍ، وَلَا عَلَى خَطِيبٍ وَلَا عَلَى أَدِيبٍ؛ وَلَا عَلَى  
خَاصِّي وَلَا عَلَى عَامِّي .

لَجَمَعْتُ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى النِّعْمَةِ فَيْكَ - بَيْنَ التَّوَاضُّعِ وَالتَّعَجُّبِ، وَبَيْنَ الْإِنْصَافِ  
وَقِلَّةِ التَّزَيُّدِ؛ فَلَا يَسْتَطِيعُ عَدُوُّ مُعَلِنٍ، وَلَا كَاثِبٌ مُسَرٍّ، وَلَا جَاهِلٌ غَيٍّ، وَلَا عَالِمٌ  
مُبَرِّزٌ، يَزْعُمُ أَنَّهُ رَأَى فِي سَمَائِكَ وَأَعْطَاكَ - عِنْدَ تَبَاجُجِ النَّفْسِ، وَتَظَاهِرِ الْمُنَى - تَغْيِراً  
فِي لِقَاءِ وَلَا فِي بَشَرٍ عِنْدَ الْمُسَاخَلَةِ، وَلَا فِي إِنْصَافٍ عِنْدَ الْمُعَامَلَةِ، وَأَحْتِمَالٍ عِنْدَ  
الْمُطَاوَلَةِ . الْأَمْرُ وَاحِدٌ، وَالخَلْقُ دَائِمٌ، وَالْبَشَرُ ظَاهِرٌ، وَالْمَجْجَجُ ثَاقِبٌ، وَالْأَعْمَالُ



رَاجِيهِ ، والنُّفوسَ رَاضِيَهُ ، والعُيُونَ نَاطِقَةً بِحُجَّتِهِ ، والصُّدُورُ مَاهُولَةٌ بِمُؤَدَّتِهِ ؛  
والدَّاعِي كَثِيرٌ ، والشَّاكِي قَلِيلٌ ؛ وَأَنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَزْدَادُ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِالتَّوَاضُّعِ نُبْلًا ،  
وَبِالْإِنْصَافِ قُضْلًا ؛ وَبِحَسَنِ اللَّقَاءِ حُبًّا ، وَبِقِلَّةِ الْحُجْبِ هَيْهَ .

وقال سهلُ بْنُ هُرُونٍ في دُعَائِهِ لِبَعْضِ مَنْ كَانَتْ يَعْتَنِي بِشَأْنِهِ : اللَّهُمَّ زِدْهُ مِنَ  
الْخَيْرَاتِ ، وَأَبْسُطْ لَهُ فِي الْبَرَكَاتِ ؛ حَتَّى يَكُونَ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِ مُوفِيًّا عَلَى أَمْسِيهِ ،  
مُقْصِرًا عَنْ فَضِيلَةِ غَدِهِ . وقال في هذا المعنى أَحْمَدُ بْنُ هَمْدَانَ ، وَهُوَ مِنَ الْمُخَضَّرِينَ :

رَأَيْتُكَ أَمْسَ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ \* وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرَ مَنْكَ أَمْسَ ،

وَبَعْدَ غَدٍ تَزِيدُ الْخَيْرَ ضِعْفًا \* كَذَلِكَ تَزِيدُ سَادَةَ عِبَادِ شَمْسِ !

قد والله أُنِمَّ إِلَيْكَ وَأُسْمِنَ ، فَاشْكُرْ اللَّهَ وَأَخْلِصْ ؛ حَتَّى تَكُونَ شَرِيفًا ، وَأَرْوَمَتَكَ  
كَرِيمًا ، وَالْعِرْقُ مُنْجِبٌ ، وَالْعَلَدُ دَثْرٌ ، وَالْأَمْرُ جَمِيلٌ ، وَالْوَجْهُ حَسَنٌ ، وَالْعُقُولُ  
رِزَانٌ ؛ وَالْعَفَافُ ظَاهِرٌ ، وَالذِّكْرُ طَيِّبٌ ، وَالنِّعْمَةُ قَدِيمَةٌ ، وَالصَّنِيعَةُ جَسِيمَةٌ ؛  
وَمَا مِثْلُكَ إِلَّا مَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِنَّ الْمَهَالِيَةَ الْكَرَامَ تَحْمِلُوا \* دَفْعَ الْمَكَارِهِ عَنْ ذَوِي الْمَكْرُوهِ ،

زَانُوا قَدِيمَهُمْ بِحُسْنِ حَدِيثِهِمْ \* وَكَرِيمَ أَخْلَاقٍ بِحُسْنِ وَجْهِهِ !

النِّعْمَةُ مَحْفُوظَةٌ بِالشُّكْرِ ، وَالْأَخْلَاقُ مُقَوَّمَةٌ بِالْأَدَبِ ، وَالْكَفَاةُ مَحْفُوفَةٌ بِالْحَقِّقِ ،  
وَالْحِلْفُ مَرْدُودٌ إِلَى التَّوَكُّلِ ، وَالصَّنْعُ مَنْ وَرَاءَ الْجَنِّحِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

هذا إِلَى مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ مِنَ الْقَبُولِ ، وَغَشَّاكَ مِنَ الْحُبَّةِ ، وَطَوَّلَكَ مِنَ الْعَمْرِ .  
فَبَقِيَ الْآنَ أَنْ تَسْتَهَيَّ مَا أَنْتَ فِيهِ شَهْوَةٌ فِي وَزْنِ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ ، وَفِي مَقْدَارِ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ؛  
فَإِنَّ الرِّغْبَةَ وَإِنْ قَوِيَتْ ، وَالرَّهْبَةَ وَإِنْ أَشْتَدَّتْ ؛ فَإِنَّهُمَا لَا يَتِمَّانِ مِنَ النِّشَاطِ ،

وَيُتَّجَانُ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْمُبَاشَرَةِ وَالْكَدِّ ، مَا يُثْمِرُهُ الشَّهْوَةُ وَإِنْ ضَعُفَتْ ، وَالْحَرَكَةُ مِنْ ذَاتِ النَّفْسِ وَإِنْ قَلَّتْ ، لِأَنَّ النَّفْسَ لَا تَسْمَحُ بِمَكُونِهَا كُلَّهُ ، وَتُجُودُ بِمُخْرُونَ قُوَّاهَا أَجْمَعُ ، إِلَّا بِالشَّهْوَةِ دُونَ كُلِّ عِلَّةٍ مُحَرَّكَةٍ ، وَكُلُّ سَبَبٍ مُهَيِّجٍ .

قال يحيى بن خالد الجعفر بن يحيى حين تقلد الوزارة ، وتكلف النهوض بأعباء الخِلافة : أَيْ بُنْيَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْعَجَزَ : لِعَظِيمِ مَا تَقَلَّدْتَ ، وَجَسِيمِ مَا تَحْمِلُ .  
إِنِّي لَسْتُ آمِنٌ أَنْ تَنْقَسَخَ تَحْتَ ثِقَلِهَا تَقْشَعُ الْجَلَلَ تَحْتَ الْجِلِّ الثَّقِيلِ .  
قال جعفر : لِكُنِّي أَرْجُو الْقُوَّةَ ، وَأَطْمَعُ أَنْ أَسْتَقِيلَ بِهَذَا الثَّقَلِ وَأَنَا مُبْتَهِلٌ غَيْرُ مَبْهُورٍ ، وَأُجِئُ قَبْلَ السُّوَائِقِ وَأَنَا ثَانِي . يقول : وَأَنَا ثَانِي عِنَايَ ، لِأَنِّي لَمْ أَجْهَدْ فَرَمِي رُكْضًا . قال يحيى : إِنْ لِكُلِّ رَجَاءٍ سَبَبًا ، فَمَا سَبَبُ رَجَائِكَ ؟ قال : شَهْوَتِي لِمَا أَنَا فِيهِ ، وَالْمُشْتَهَى لِلْعَمَلِ لَا يَحْدُ مِنْ أَلَمِ الْكَدِّ مَا يَحْدُ السَّيْفِ الْأَسِيفِ .  
قال يحيى : إِنْ نَهَضْتَ بِثِقَلِهَا فِيهِذَا ، وَالْأَفْلَا . وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَ شَهْوَتَكَ إِلَى حُبِّ ذَلِكَ ، وَهَوَاكَ إِلَى الْإِحْتِفَاطِ بِنِعْمَتِكَ : بِشُكْرِ الْمُضْلِحِينَ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وحق لمن كان من غرس التوكل على الله وأبتدأته ، ومن صنَّاعه وأختياره ؛ أَنْ يُخْرِجَ عَلَى أَدْبِهِ وَقِيلِمِهِ ، وَعَلَى تَثْقِيفِهِ وَتَقْوِيمِهِ ؛ وَأَنْ يُحَقِّقَ اللَّهُ فِيهِ الْأَمَلَ ، وَيُخَيِّزَ فِيهِ الطَّمَعَ ، وَأَنْ يَمُدَّ لَهُ فِي السَّلَامَةِ ، وَيُخَيِّلَ لَهُ مِنَ النِّعْمَةِ ؛ وَيُطِيبَ ذِكْرَهُ ، وَيُعْلِي كَعْبَهُ ؛ وَيُسِرَّ صِدْقَهُ ، وَيَكْتُمَ عُلُوَّهُ .



وهذه نسخة رسالة تسمى الإغريضية ، أرسلها أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المغربي التَّنُوخِي إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ، وهي :

(١) [بسم الله الرحمن الرحيم، وبه الإعانة].

السلام عليك أيها الحكمة المتعريية، والألفاظ العربية؛ أي هواء رفاقك، وأي  
غيت سقائك؛ برقه كالإحريض، وودقه مثل الإغريض؛ حلت الرّوه، وجلّت  
عن الهبوه؛ أقول لك ما قال أخو نمير، لفاتة بنى عمير:

زكا لك صالح وخلاك ذم \* وصبحك الأيمان والسعود!

لأنّا أسف على قريك من الغراب المحجّزى، على حسين الزيّ؛ لما أقفر، وركب  
السقر؛ فقدم جبال الروم في قو، أنزل البرس من الجوّ؛ فالتفت إلى عطفه وقد شبط  
فأبى، وترك النيب أونسى؛ وهبط إلى الأرض ففتى في قيد، وتمثل بيت ذريد:

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه، \* فلما علاه قال للباطل: أبعدي!

وأراد الإياب، في ذلك الحلباب؛ فكبره الثمات، فكبد حتى مات؛ وربّ وإلى  
أعمر في الإكرام، فوقع في الإبرام؛ إبرام السأم، لا إبرام السلم؛ فخرس الله سيدنا  
حتى تدغم الطاء في الماء، فتلك حراسة بغير انتهاء؛ وذلك أن هذين ضدّان، وعلى  
التضادّ متباعدان، رخو وشديد، وهادٍ وثو تصعيد؛ وهما في الجهر والهمس،  
بمتزلة قد وأمس؛ وجعل الله زينة التي كالفاعل والمبتدأ، نظير الفعل في أنها  
لا تخفّض أبداً؛ فقد جعلني: إن حضرت عرف شاني، وإن غبت لم يجهل  
مكاني؛ كما في النداء، والمخوف من الابتداء؛ إذا قلت: زيد أقبل، والإيل  
الإيل؛ بعد ما كنت كهاء الوقف إن أقيت فيواجب، وإن ذكرت فير لا زب.

(١) الزيادة من شرح الرسالة الإغريقية الموجودة بدار الكتب السلطانية تحت نمرة ١٢٧ أدب.

(٢) البرس لقطن، والمراد الطبع الشيعة.

أَتَى وَإِنْ فَنُوتُ [فِي زَمَانٍ] كَثِيرَ النَّدِّ ، كَهَاءِ الْعَدَدِ ؛ لَزِمَتِ الْمَذْكُورَ ، فَاتَتْ  
بِالْمُنْكَرِ ؛ مَعَ إِلْفٍ يَرَانِي فِي الْأَصْلِ ، كَالْفِ الْوَصْلِ ؛ يَذْكُرُنِي بِغَيْرِ الثَّنَاءِ ، وَيَطْرِخُنِي  
عِنْدَ الْأَسْتِغْنَاءِ ؛ وَحَالِ كَالْمَمْرُوءَةِ تُبْدِلُ الْعَيْنَ ، وَتُجْمَلُ بَيْنَ بَيْنَ ؛ وَتَكُونُ تَارَةً حَرْفَ لَيْنَ ،  
وَتَارَةً مِثْلَ الصَّامِتِ الرَّصِينِ ؛ فَهِيَ لَا تُثَبِّتُ عَلَى طَرِيقِهِ ، وَلَا تُتْرَكُ لَهَا صُورَةٌ  
فِي الْحَقِيقَةِ ؛ وَنَوَائِبُ الْحَقِيقَةِ الْكَبِيرِ بِالصَّغِيرِ ، كَأَنهَا تَرْخِيمُ التَّصْفِيرِ ؛ رَكَدَتِ الْمُسْتَحْلِسُ  
إِلَى حُلَيْسَ ، وَقَابُوسًا إِلَى قَيْسَ ؛ لِأَمْنِكَ صَوْتِي بِتِلْكَ الْآلَاءِ ، مَدَّ الْكُوفِيَّ صَوْتَهُ  
فِي هَؤُلَاءِ ؛ وَأَجْخَفَ عَنْ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا [الْوَزِيرِ] الرَّئِيسِ الْحَبْرَ ، تَخْفِيفَ الْمَدْنِيِّ مَا قَدَّرَ  
عَلَيْهِ مِنَ النَّهْرِ ؛ إِنْ كَاتَبْتُ فَلَسْتُ مُتَمِّسَ جَوَابَ ، وَإِنْ أَمْنَيْتُ فِي الشُّكْرِ فَلَسْتُ طَالِبَ  
قَوَابِ ؛ حَسْبِي مَا أَلَدَى مِنْ أَيَادِيهِ ، وَمَا غَمَّرَ مِنْ فَضْلِ السَّيِّدِ الْأَكْبَرِ أَبِيهِ ؛ أَدَامَ اللَّهُ  
لَهَا الْقُدْرَ مَا دَامَ الضَّرْبُ الْأَوَّلُ مِنَ الطُّوِيلِ صَحِيحًا ، وَالْمُنْدِرُحُ خَفِيفًا سَرِيحًا ؛  
وَقَبَضَ اللَّهُ يَمِينَ عَنُومَهَا عَنْ كُلِّ مَعْنٍ ، قَبَضَ الْعَرُوضِ مِنْ أَوَّلِ وَزْنٍ ؛ وَجَمَعَ لَهُ  
الْمَهَانَةَ إِلَى التَّقِيدِ ، كَمَا جَمَعَ فِي تَأْنِي الْمَلِيدِ ؛ وَقَلَمَ قَلَمَ الْفَسِيطِ ، وَخُبِلَ كَسْبَاعِي  
الْبَسِيطِ ؛ وَعَصَبَ [اللَّهُ] الشَّرْهَامَةَ شَاتِيهِمَا وَهُوَ مَحْزُورٌ ، عَصَبَ الْوَافِرِ الثَّالِثِ وَهُوَ  
مَحْزُورٌ ؛ بَلْ أَحْمَرْنَاهُ الْأَرْضَ لِإِخْمَارِ ثَالِثِ الْكَامِلِ ، وَعَدَاهُ أَمْلَ الْآمِلِ ؛ وَسَلِّمَ سَيِّدَانَا  
أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُمَا وَمِنْ أَحِبَّاهُ وَقَرَّاهُ سَلَامَةً مُتَوَسِّطِ الْمُجْمُوعَاتِ ، فَإِنَّهُ آمِنٌ مِنْ  
الْمُرُوعَاتِ ؛ فَقَدْ أَكْتَنَنْتُ فِي نِعْمِهِمَا الرَّائِعَةِ ، كَاثِنَانِ الدَّائِرَةِ الرَّابِعَةِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ أُمُّ سِتَّةٍ  
مَوْجُودِينَ ، وَثَلَاثَةٌ مَقْضُودِينَ .

وَأَنَا أَعِدُّ نَفْسِي مُرَابَعَةً حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ عِدَّةَ ثُرَيَّا اللَّيْلِ ، وَثُرَيَّا سُهَيْلَ ؛  
هَذِهِ الْقَمَرُ ، وَتِلْكَ غَمْرُ ؛ وَأَعْظَمُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، لِإِعْظَامِهَا فِي مِقَّةٍ وَبَعْضِ الْإِعْظَامِ

في مَقْت ؛ فقد نَصَبَ للأَدَابِ قُبَّةَ صَارَ الشَّامُ فيها كَشَامَةَ المَعِيبِ ، والعِرَاقُ كعِرَاقِ  
الشَّعِيبِ ؛ أَحَسَبَ ظِلَالُهَا مِنَ البَرْدَيْنِ ، وَأَغْنَتْ العَالَمَ عَنِ المِهْنَيْنِ ؛ هِنْدُ الطَّيْبِ ،  
وَهِنْدُ النِّسَبِ ؛ رَبَّةُ الخِمَارِ ، وَأَرْبَابُ قِصَارِ ؛ أَخْدَانِ النَّجَرِ ، وَخَدِينَةُ المَجَرِ .  
مَاحِلَةٌ طَوَّقِي مِنَ اللَّيْلِ ، وَبُرْدٌ مِنَ المُرْتَبِعِ مَكْنُوفِ الدَّلِيلِ ؛ أَوْفَتْ الأَشْيَاءُ ، فَقَالَتْ  
لِلْكَثِيبِ مَا شَاءَ ؛ تُسَمِّعُهُ غَيْرَ مَقْهُومٍ ، لَا بِالرَّمْلِ وَلَا بِالْمُزْمُومِ ؛ كَانَ يَجْعِمُهَا قَرِيبُضَ ،  
وَمُرَاسِلَهَا الغَرِيبُضَ ؛ فَقَدْ مَادَ لَشَجْوِهَا العُودَ ، وَقَفِدُهَا لَا يَمُودُ ؛ تَدْبُ هَدِيبًا فَنَاتَ ،  
وَأُتِيحَ لَهُ بَعْضُ الآفَاتِ - بِأَشْوَقَ إِلَى هَدِيبِهَا مِنْ عَبْدِهِ إِلَى مُنَاسِمَةِ أَنْبَائِهِ ، وَلَا أَوْجَدَ  
عَلَى إِفْقَهِا مِنْهُ عَلَى زِيَارَةِ فَنَائِهِ ؛ وَلَيْسَتْ الأَشْوَاقُ ، لَدُنَوَاتِ الأَطْوَاقِ ؛ وَلَا عِنْدَ  
السَّاجِحِ ، عِبْرَةٌ مُتَرَاجِحِهِ ؛ إِنَّمَا رَأَتْ الشَّرْطَيْنِ ، قَبْلَ البُطْنِ ؛ وَالرَّشَاءَ ، بَعْدَ  
العِشَاءِ ؛ فَكُنْتُ صَوْتُ المَاءِ فِي الخَرِيرِ ، وَأَنْتَ بَرَاءُ دَائِمَةِ التَّكْرِيرِ ؛ فَقَالَ جَاهِلٌ  
قَدَدْتُ حَيِّمَا ، وَنَكَلْتُ وَلَدَا كَرِيمَا : وَهَيَاتَ يَا بَاكِئَةً أَصْبَحْتَ ، فَصَلَحْتَ ؛  
وَأَمْسَيْتَ ، فَتَنَاسَيْتَ ؛ لَا هَمَامَ لَا هَمَامَ ، مَا رَأَيْتُ أَعْجَبَ مِنْ هَافِفِ الحَمَامِ ؛ سَلِمَ  
فَنَاحَ ، وَصَحَّتْ وَهُوَ مَكْشُورُ الجَنَاحِ ؛ إِنَّمَا الشَّوْقُ لِمَنْ يَدْرِكُنِي كُلَّ حِينٍ ، وَلَا يُلْعَلُهُ  
مُضِيُّ السَّنِينَ .

وسيدنا الوزير أطلال الله بقاءه القائل النظم في اندكائه مثل الزهر ، وفي النقاء مثل  
الجوهر ؛ تَحَسَّبُ بِأَدْرَتِهِ التَّاجَ ، أَرْتَضِعَ عَنِ الإِجْهَاجِ ؛ وَظَافَرَتْهُ المِجْلُ ، فِي الرَّجُلِ ؛ يَجْمَعُ  
بَيْنَ اللَّفِظِ القَلِيلِ ، وَالْمَعْنَى الجَلِيلِ ؛ جَمَعَ الأَنْشُورَانِ فِي لُعَابِهِ بَيْنَ القِلَّةِ ، وَقَدِّ الإِلَّةِ ؛  
خَشَنَ ، فَخَسَنَ ؛ وَلَانَ ، فَمَا هَانَ ؛ لَيْنُ الشَّكْرِ ، يَدُلُّ عَلَى عِنَتِي المُخْضِرِ ، وَحَرَشُ  
الدِّينَارِ ، آيَةُ كَرَمِ النَّجَارِ ؛ فَصُنُوفُ الأَشْعَارِ بَعْدَهُ كَأَلْفِ السَّلَامِ ، يُلْفِظُ بِهَا فِي الكَلَامِ ،  
وَلَا تَبُثُّ لَهَا هَيْئَةً بَعْدَ اللَّامِ ؛ خَلَصَ مِنْ سَبْكِ التَّقْدِ خُلُوصَ الذَّهَبِ ، مِنْ اللَّهَبِ ؛  
وَالْجِبْنِ ، مِنْ يَدِ القَيْنِ ؛ كَأَنَّهُ لَآلَ ، فِي أَغْنَاكِ حَوَالِ ؛ وَسِوَاهُ لَطَ ، فِي عُقْنِي قَطَ ؛

ما خَافَتْهُ قُوَّةُ الْخَاطِرِ الْأَمِينِ ، وَلَا عَيْبَ بَسْتَادٍ وَلَا تَضْمِينَ ؛ وَأَيْنَ الثَّغَرُ ، مِنْ الْعَثَرِ ؛ وَالْفَرْقَدُ ، مِنْ الْفَرْقَدِ ؟ ؛ فَالسَّامِيُّ فِي آثَرِهِ فَارِسٌ عَصَاً يَصِيرُ ، لَا فَارِسٌ عَصَاً قَصِيرٌ .

وَأَنَا نَائِيٌّ عَلَى هَذِهِ الطَّوِيلَةِ ثَبَاتَ حَرَكَةِ الْبِنَاءِ ، مُقِمٌّ تِلْكَ الْقَهَادَةَ بِغَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ ؛ غَنِيٌّ عَنِ الْإِيمَانِ فَلَا عَدَمَ ، مُقْسِمٌ عَلَى مَا قُلْتُ فَلَا حِثَّ وَلَا تَدَمَ ؛ وَإِنَّمَا تُخْبِئُ الدُّرَّةَ ، لِلْحُسْنَاءِ الْحُزْنَ ؛ وَتُجَادُّ بِالْيَمِينِ ، فِي الْعَلَقِ الثَّمِينِ ؛ مَا أَنْفَسَهُ خَاطِرًا أَمْتَرَى الْقَضِيَّةَ ، مِنْ الْقَضِيَّةِ ؛ وَالْوَصَاءَ ، مِنْ مِثْلِ الْحَصَاءِ ؛ وَرُبَّمَا تَزَعَّتِ الْأَشْيَاءُ ، وَلَمْ يُسْهِهِ الْمَرْءُ أَبَاهُ ؛ وَلَا غَرَّ وَلَنُكَ : الْخُضْرَةُ أَمْ اللَّهْيَبُ ، وَالنَّجْمَةُ يَنْتُ الْغَرِيبُ .

وَكَذَلِكَ سَيِّدُنَا وَلَدٌ مِنْ سَحَرِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، حِكْمَةٌ لِلْحَقَفَاءِ الْمُتَدَبِّرِينَ ؛ كَمْ لَهُ مِنْ قَافِيَةٍ تَبَيَّنَ السُّودَ ، وَتَبَيَّنَ الْحُسُودَ ؛ كَلِمَتٌ ، مِنْ شَرْبِ الْعَاقَةِ الْكُبَيْتِ ؛ تُسَوِّرُهُ قَرِيبٌ ، وَحِسَابُهُ تَحْرِيبٌ ؛ أَيْنَ مُشَبَّهِوُ النَّافَةِ بِالْقَدَنِ ، وَالصَّحْبِجِ بِرَدَاءِ الرَّدَنِ ؛ وَجَبَ الرَّحِيلُ ، عَنِ الرَّيْحِ الْمَحِيلِ ؛ نَسَأَ بَعْدَهُمْ وَأَصِيفُ ، غُودِرَ رَأْيَهُ كَلَّمَائِصِيفُ ؛ إِذَا سَمِعَ الْخَافِضُ صِفَتَهُ لِلشَّهْبِ الْقَسِيبِ ، وَالرَّهْبِ الطَّلِيحِ ، وَدَّ أَنْ حَشِيَّتَهُ بَيْنَ الْأَحْنَاءِ ، وَخَلُوقِهِ عَصِيمِ الْهِنَاءِ ؛ وَحَلَمَ بِالْقُودِ ، فِي الرُّقُودِ ؛ وَصَاغَ بُرَى ذَوَاتِ الْأَرْسَانِ ، مِنْ بُرَى الْبَيْضِ الْحَسَانِ ؛ شَتَفَا لُتْرَ الشُّحُورِ ، وَعُيُونَ الْحُورِ ؛ وَشَفَعَا بِدَرْبِكِي ، وَصَيْنَ مِثْلَ الرُّكْبَى ؛ وَأَعْرَاضًا عَنْ بُدُورِ ، مَسَكَنَ فِي الْخُلُورِ ؛ إِلَى مَحْوَلٍ ، كَأَهْلَةِ الْمَحْوَلِ ؛ فَهَنْ أَشْبَاهُ الْقَيْمَى ، وَنَعَامَ السَّيِّ ؛ وَإِنْ أَخَذَ فِي نَعْتِ [الْخَلِيلِ] <sup>(١)</sup> فَيَاخِيَةِ مِنْ سَبِّهِ الْأَوَايِدَ بِالْتَّقِيدِ ، وَشَبَّهَ الْخَافِرَ بِقَعْبِ الْوَلِيدِ ؛ نَعَا غَبَطَ بِهِ الْمَهْجِينَ الْمُدْسُوبَ ، وَالْبَازِيَّ

(١) الزيادة من شرح الرسالة .

(٢) أى أذهب حوائجها . وفى الأصل شَبَّهَ بِالثَّيْنِ .

الْيَتُسُوبُ؛ إِذْ رُزِقَ مِنَ الْخَيْرِ، مَا لَيْسَ لَكَثِيرٍ مِنْ مِيزَانِ الطَّيْرِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَى الصَّغَرِ، سَمِيَ بَعْضُ الثَّرَدِ؛ وَقَدْ مَضَى حَرَسٌ، وَخَفَتْ جَرَسٌ؛ وَلِلْقَالِحِ، أَتَمُّ طَالِحٍ؛ وَالْأَزْرَقُ، يُحَنِّكَ عَنْهُ الْفَرْقُ.

فَالآنَ سَلِمَتِ الْجَبْهَةُ مِنَ الْمَعْصِ، وَشَمِلَ بَعْضُهَا بَرَكَاتُ بَعْضٍ؛ فَأَيُّقِنِ الطَّيْحَ، أَنَّ رَبَّهُ لَا يَطِيحُ، وَالْمُهَقَّوعُ، تَجَاءُ رَأْيِهِ مِنَ الْوُقُوعِ؛ فَلَنْ يُحَرَّبَ، قَائِدُ الْمُقَرَّبِ؛ وَلَنْ يُرْجَلَ، سَائِسُ الْأَرْجَلِ؛ وَالْعَابُ، وَإِنْ لَحِقَ الْكِهَابُ؛ فَإِنَّهُ نَاكِبٌ، عَنْ نَاقِلَاتِ الْمَرَاكِبِ. وَقَالَتْ حَقِيقَاتُهُ آخِرُ الْقَيْسِ: الدُّبَابُ، لِرَأْيِ الْمَبَاهِ؛ وَالْأُفْقُ، لِلْقَدْرِ الْكَفِيِّ؛ تَقَاعُلِي جَاعِلَ غَدْرِهَا كَقُرُونِ الْعُرُوسِ، وَجَبَّهَتِهَا كُحْلُفُ الثُّرُوسِ؛ وَأَيُّ الْكِئِنْدَى، قَوَائِفُ كَهْجَةِ السَّعْدَى:

إِذَا أَصْطَكْتَ بِضِيْقِ حَجَرَتَاهَا \* تَلَقَّ السَّجْدِيَّةُ وَالْأُطِيمُ!

فَالْقَسِيبُ، فِي تَضَامِيْفِ النَّسِيبِ، وَالشَّبَابُ فِي ذَلِكَ التَّشْيِيبِ؛ لَيْسَ رُيُوبُهُ بِمَقْلُوبٍ، وَلَكِنَّهُ مِنْ إِرْوَاءِ الْقُلُوبِ؛ قَدْ جَمَعَ الْبَيْلَ مَاءَ الصَّبَا، وَصَلِيلَ ظَمَاءِ الْفُلْبَا؛ فَالْمِصْرَاعُ كَوْدِيلَةُ الْغَرِيْبَةِ، حَكَتِ الزَّيْنَةَ وَالرَّيْبَةَ؛ وَأَرَتِ الْحَسَنَاءُ سَنَاهَا، وَالسَّمْعَةَ مَا عَنَاهَا؛ فَأَمَّا الرَّجُلُ فَلَوْ ذَكَرَهَا لَشَفَّتْ مِنَ الْمَرَمِ، وَأَتَتْهُ مِنَ الْكَرَمِ إِلَى الْكَرَمِ؛ وَلَمْ تَرْضَ دَنَابُ الْعُقَارِ، بِلِبَاسِ الْقَارِ؛ وَنَشَجَ الْعَنَاقِبِ، عَلَى الْمَنَاقِبِ؛ وَلَكِنْ تُكْسَى مِنْ وَثْقِي نِيَابَا، وَيُعْمَلُ طِلَافُهَا زُرْيَابَا؛ وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ ذَكَرَ خِيْمَةً يَنْهِيهِ الْمِسْكُ جَارَهَا مِنَ الشَّيَامِ، وَبُوْدُ سَعْدِ الْأَخِيَّةِ أَنَّهُ سَعْدُ الْخِيَامِ.

وَوَقَفْتُ عَلَى «مُخْتَصَرِ إِصْلَاحِ الْمُنَاطِقِ» الَّذِي كَادَ يَسَاهُ الْأَبْوَابَ، يُثْنِي عَنْ سَائِرِ الْكِتَابِ؛ فَصَجْتُ كُلَّ الْعَجَبِ مِنْ تَقْيِيدِ الْأَجْمَالِ، بِطَلَاءِ الْأَحْمَالِ؛ وَقَلْبِ الْبَحْرِ،

إلى قَلْبِ النَّحْرِ؛ وإِجْرَاءِ الْفُرَاتِ، في مِثْلِ الْأَنْهَارِ؛ شَرْقًا لَهُ تَصْنِيفًا شَفَى الرَّبِّ،  
وَكَتَبَى مِنْ آبِنِ قُرْبٍ؛ وَدَلَّ عَلَى جَوَائِعِ اللُّقَّةِ بِالْإِيْمَاءِ، كَمَا دَلَّ الْمُضْمَرُّ عَلَى مَا طَالَ  
مِنْ الْأَسْمَاءِ.

أَقُولُ فِي الْإِخْبَارِ: أَمَرْتُ أَبَا عَبْدِ الْجَبَّارِ؛ فَإِذَا أَصْبَرْتُهُ، عُرِفَ مَتَى قُلْتُ:  
أَمَرْتُهُ؛ وَأَبْلَى مِنَ الْمَرَضِ وَالْمَرِيضِ، بِمَا أَسْقَطَ مِنْ شُهُودِ الْقَرِيضِ؛ كَأَنَّهُمْ  
فِي تِلْكَ الْحَالِ، شَهِدُوا بِالْحَالِ؛ عِنْدَ قَاضٍ، عَرَفَ أَمَانَتَهُمْ بِالْإِنْقِاضِ؛ عَلَى حَقِّ  
صَلِيهِ بِالْعِيَانِ، فَاسْتَفَى فِيهِ عَنْ كُلِّ بَيِّنٍ.

وقد تَأَمَّلْتُ شَوَاهِدَ "إِصْلَاحِ الْمُنَاطِقِ" فوجدتها عَشْرَةَ أَنْوَاعٍ فِي مَدَّةِ إِخْوَةِ  
الصَّدِيقِ، لَمَّا تَنَظَّاهِرُوا عَلَى غَيْرِ حَقِيقٍ؛ وَتَرِيدُ عَلَى الْعَشْرَةِ بَوَاحِدٍ، كَلَجَ يُوسُفُ  
لَمْ يَكُنْ بِالشَّاهِدِ. وَالشَّعْرُ الْأَوَّلُ وَإِنْ كَانَ سَبَبَ الْآثَرِ، وَصَحِيفَةُ الْمَأْتَرِ؛ فَإِنَّهُ كَدُوبُ  
الْقَالَةِ، نَحْمُومُ الْإِطَالَةَ؛ وَإِنَّ قَفَا نَبِكَ [عَلَى حُسْنِهَا]، وَقَدِمَ سِنِّهَا؛ لِتَقَرُّ بِمَا يُطِيلُ  
شَهَادَةَ السَّدَلِ الرَّضَا، فَكَيْفَ بِالْبَيْتِ الْأَثْنَى؛ فَاتْلَاهَا اللَّهُ عَجُوزًا لَوْ كَانَتْ بَشَرِيَّةً،  
كَانَتْ مِنْ أَغْوَى الْبَرِيَّةِ. وَقَدْ تَمَادَى بِأَبِي يُوسُفَ رَحِمَهُ اللَّهُ الْأَجْتِهَادُ، فِي إِقَامَةِ  
الْأَشْمَادِ؛ حَتَّى أَتَشَدَّ رَجَزُ الضَّبِّ، وَإِنْ مَعَلَّا مِنْ ذَلِكَ لِحْدُ مُغْضَبٍ؛ أَعْلَى فَصَاحَتِهِ  
يُسْتَعَانُ بِالْقَرَضِ، وَيُسْتَشْهَدُ بِأَحْثَاسِ الْأَرْضِ؟؛ مَا رُؤِبَتْ عَنْهُ نَفِيرٌ، فَمَا قَوْلُكَ  
فِي ضَبِّ دَائِمِي الْأَعْلَافِ؟؛ وَمَنْ نَظَرَ فِي كِتَابِ يَعْقُوبَ وَجَدَهُ كَالْمُهْمَلِ، إِلَّا بَابَ فَعِلٍ  
وَقِيلَ؛ فَإِنَّهُ مُؤَلَّفٌ عَلَى عَشْرِينَ حَرْفًا: سِتَّةَ مُدْلَقَةٍ، وَثَلَاثَةَ مُطَبَّقَةٍ؛ وَأَرْبَعَةً مِنْ  
الْحُرُوفِ الشَّدِيدَةِ، وَوَاحِدٌ مِنَ الْمَزِيدَةِ؛ وَفِيهِتَيْنِ: الثَّاءُ وَالذَّالُ، وَآخِرُ مُتَعَالٍ؛  
وَالْأَخْتَيْنِ الْعَيْنُ وَالْحَاءُ، وَالشَّيْنُ مُضَافَةٌ إِلَى حَيْرِ الرَّاءِ. فَرَحِمَ اللَّهُ أَبَا يُوسُفَ لَوْ عَاشَ  
لَقَاطَ كَدًّا، أَوْ أَحْفَظَ حَسَدًا، سَبَقَ أَبْنُ الْبَكِّيتِ ثُمَّ صَارَ الْبَكِّيتُ، وَتَمَقَّقَ ثُمَّ حَارَ  
وَيَتَدَلَّى لَيْتَ؛ كَانَ الْكَلْبُ يَرَى فِي تَرَابِ مَعِينٍ، بَيْنَ الْحُتِّ وَبَيْنَ الْمُتَدَلِّ؛ فَاسْتَخْرِجَهُ



سَيِّدَنَا وَاسْتَوْشَاهُ، وَصَقَلَهُ فِكْرُهُ وَوَشَّاهُ، فَغَبَطَهُ النَّيِّرَاتُ عَلَى التَّرْقِيشِ، وَالْأَلِ التَّقِيشِ؛  
فهو محبوبٌ ليس يهين، على أنه ذو وجهين؛ ما تمَّ قَطُّ ولا هم، ولا نطق ولا أرم؛  
فقد ناب في كلام العرب الصميم، مناب مرآة المنجم في علم التنجيم؛ شخصاً ضئيل  
مأموم، وفيها القمران والنجوم.

وأقول بعد في إعادة اللفظ : إن حكم التأليف في ذكر الكلمة مرتين، كالجمع  
في النكاح بين الأخنتين؛ الأولى حل يرأم، والثانية بسئل حرام؛ كيف يكون  
في المودج ليسان، وفي السبة نعيمسان؛ يا أم الفتيات حسيك من الهنود، ويا أبا  
الفتيان شرعك من السعود؛ عليك أنت بزئب ودعد، ومن أيها الرجل بسوى سعد؛  
ما قل أمير، والأسماء كثيرة.

مثل يعقوب مثل خود كثيرة الحلي ضاعفته على التراق، وعطلت الحصر والساق؛  
كان يدم قنوم تلك النسخة يوم ضرب حشر الوحش مع الإنس، وأضاف  
الجنس إلى غير الجنس؛ ولم يحكم على الظباء، بالسباء؛ ولا رمى الآجال، بالأوجال؛  
ولكن الأضداد تجتمع، فقتسمع؛ وتصيرف بلذات، من غير أداة؛ وإن عبده  
موسى لقيني قبا، فقال : هلم كتابا، يكون لك شرفاً، وبموالاتك في حضرة سيدنا  
- أطال الله بقاءه - معترفاً؛ فلوث عليه هاتين الآيتين : (إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا  
وَلَا تَمْرَى وَأَنْتَ لَا تَقْطَمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى). وأحسبه رأى نور السؤدد يقال لمخفيه،  
ما قاله موسى صلى الله عليه لأهليه : (إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْهَا بِقِسٍ  
أَوْ أَجْدَ عَلَى النَّارِ هُدًى). فليت شعري : ما يطلب؟ أقبس ذهب؟ أم قبس  
نهب؟ بل يتشرف بالأخلاق الباهرة، ويترك بالأحساب الطاهرة.

(١) السبة الزمن من القمر، ولعله يريد بها الأسبوع كما جاء في شرح رسائل المزي الوجودة  
بدار الكتب السلطانية.

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلٍ يَتَمَيَّنُ لَهَا \* جَزَلُ الْحَدَا غَيْرَ حَوَارٍ وَلَا دَمَرٍ !

وقد آب من سفرته الأولى ومعه جئوه من تاريخ قديمة : إن لمست فنار إبراهيم ، أو أوتست فنار الكليم ، واجتني بهارا حبت به المرازبه كسرى ، وحمل في فكاك الأسرى ، وأدرك نوحا مع القوم ، وبني غصبا إلى اليوم ، وما أتجع موسى إلا الروض العيم ، ولا أتبع إلا أصدق مقيم ، وورد عبده الزهيري من حضرته المطهرة وكأنه زهرة قيق ، أو وردة ربيع ، كثيرة الورق ، طيبة العرق ، وليس هو في نعمته كالريم ، في ظلال الصريم ، والحباب ، في السحاب المتحاب ، لأن الغلام يسفر ، والغمام يسفر ، ولكنه مثل النون في الجده ، والأفقر تحت جريه .

وقد كنت عرفت سيدنا في ما سلف أن الأدب كعهود في غيب عهود ، أروت التجاد فما ظنك بالوحد ؟ ، وأنى نزلت من ذلك الغيب بيلد طسم ، كأثر الوهم ، منه القراع ، من الإضرع ، بأبوس ، بني سدوس ، العدو حازب ، والكلأ طازب ، ياخضب بني عبد المدان ، ضأن في الحربث وإبل في السعدان ، فلما رأيت ذلك أتعبت الأطل ، فلم أجد إلا الحنظل ، فليس في الليد ، إلا الهيد ، جنته من شجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . لبن الإبل عن المرار مر ، وعن الأراك طيب حر .

هذا مثلي في الأدب . فاما في النشأ ، فلم تزل لي بحمد الله تعالى وبقاء سيدنا بلنتان : بلغة صبر ، وبلغة وقر ، أنا منهما بين الليلة المربعه ، واللقوج الرعيه ، هذه عام ، وتلك مأل وطعام ، والقليل ، سلم إلى الحليل ، كالمصل يرفع الشواء ، بإسباغ الرضوء ، والتكفير ، بإدامة التعفير ، وقاصد بيت الله يسئل الحوب ، بطول الشحوب .

وأنا في مكتبة حضرة سيدنا الجليلة، والميل عن حضرة سيدنا الأجل واليه  
- أعز الله نصره - كسبنا بن يعرب، لما أبتهل في التقرب؛ إلى خالق النور، ومصرف  
الأمر، نظر فلم ير أشرق من الشمس يداً، فسجد لها تسبداً . وغير ملوم سيدنا  
لو أعرض عن شقائق النعمان الربيعية، ومناجحه اليربوعية؛ ملأ من أهل هذه البلدة  
المضاف إلى هذا الأم، فغير معتبر، من أنقض لأجلهم بني المنذر؛ وهم إلى  
حضرتة السنية رجالان : سائل، وقائل؛ فأما السائل فالح، وأما القائل فنير  
مستملح؛ وقد سرتت نفى عنها سترانجيس، بالقميص؛ وأخي الهتر، بسجوف  
الستر؛ فظهر لي فضله الذي مثله مثل الصبح إذا لمع تصرف الحيوان في شؤونته  
وتخرج من بينه اليربوع، وبرز الملك من أجل الربوع، وقد يؤلم المجرس؛ بأن  
يجرس؛ في البلدة الجرد، قدام الأسد الورد . وإني خبرت أن تلك الرسالة الأولى  
عريضت بالمعريض الكريم : فوجب ذلك رحيل أختها، متعرضة لنيل بختها؛  
وكيف لا تنفع، وفي ألم تقع؛ وهي بمقصد سيدنا فخره، ولو نيت الأولى  
لأنتهت الآخره :

بكت الرسالة .



قلت : وهذه رسالة أنشأتها في تهريض المقر الكريم الفتحي، أبي العالي فتح الله،  
صاحب دواوين الانشاء الشريف بالديار المصرية والممالك الإسلامية، أدام الله  
تعالى معاليه، في شهر سنة أربع عشرة وثمانمائة، وهي :

الحمد لله الذي جعل الفتح محط رحل القرائح الجائلة، ومستقر نواها، ومحيط  
دائرة الأفكار الواردة، ومركز شعاع كواها، ومادة عناصر الأنعام الجائلة، وعناد  
شيكمة قواها .

تَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ خَصَّ الْمَلَكَهَ الْمِصْرِيَّةَ مِنْ إِبْدَاعِ سِرِّهَا الْمُصُونِ بِأَوْسَعِ صَدْرِ رَحِيبٍ، وَأَنْهَضَ بِتَتْيِيرِ مَصَالِحِهَا مَنْ إِذَا سَرَتْ كَاتِبُ كُتُبِهِ إِلَى عُلُوِّ أَشَدِّ مِنْ شِدَّةِ الْفَرْقِ : فَقَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ، وَأَقَامَ لِنَصْرَتِهَا بِأَسَلِ الْأَقْلَامِ وَصِفَاحِ الْمَهَارِقِ مَنْ إِذَا طَرَقَهَا عَلَى الْبُعْدِ طَارِقٌ تَلَا لِسَانُ يَرَاعَتِهِ : (نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ) . وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَسِيرُ بِهَا بَرْدُ الْهِدَايَةِ إِلَى آفَاقِ الْأَخْلَاقِ فَتُشِيدُ لَهْلَاجِ الْإِيمَانِ بِأَقْطَارِ الْقُلُوبِ أَرْكَانًا، وَتُرَقِّمُ أَسْرَارُ شَعَائِرِهَا بِنَقِيشِ الْقَبُولِ فِي مُحْضٍ الْإِقْبَالِ قُبُذْلُ دَاعِيهَا بِإِذَاعَةِ خَبَرِهَا مِنَ الْإِسْرَارِ إِعْلَانًا، وَتَدِينُ بِطَاعَتِهَا مُلُوكَ الْمَالِكِ النَّائِيَةِ خُضُوعًا فَتَتَّخِذُ كُتُبَ رَسَائِلِهَا عَلَى الْمَفَارِقِ بَعْدَ اللَّحْمِ تَيْجَانًا، وَأَشْهَدُ أَنْ عَمَّا عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ أَفْضَلُ نَبِيٍّ سَنَّ الْمَعْرُوفَ وَنَدَبَ إِلَيْهِ، وَأَكْرَمُ رَسُولٍ جَعَلَ خَيْرَ بَطَائِنِي الْمَلِكِ الَّتِي تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْتَمِلُهُ عَلَيْهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَوَحْيِهِ الَّذِينَ سَلَكَوا فِي السَّيْرِ سَبِيلَهُ وَاتَّبَعُوا فِي السَّيْرِ سُنَّتَهُ وَأَقْفَقُوا فِيهِ سَنَّتَهُ، وَاتَّبَعُوا فِي الْمَعْرُوفِ آثَارَهُ قَتَلَا عَلَيْهِمُ تَالِي الْإِخْلَاصِ : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) . صَلَاةُ تَنَاوُلٍ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ أَخْبَارُهَا، وَيَتَصَدَّقُ لِرِوَايَتِهَا مِنَ الْأُمَّةِ عَلَى تَمَادِي النَّهْرِ أَخْبَارُهَا، وَسَلَّمُ تَسْلِيمِهَا كَثِيرًا .

وبعد، فإن رياسة أهل الدول تفتاوت باعتبار قرب الرئيس من ملكه في مخاطبته ومناجاته، واعتاد تصرفه في أمور دولته وتنفيذ مهماته، والاستناد على رأيه في جليل خطبه وعظيم ملماته :

فَالْ تَمَادَتْ فِي الْعُلُوِّ كَأَمَّا \* مُحَاوِلُ تَارًا عِنْدَ بَعْضِ الْكَوَاكِبِ !

ولا خفاء أن صاحب ديوان الإنشاء من هذه الرتبة بالمحل الأرفع، والمترلة التي لا تُدْفَع ولا تُدْفَع، والمقام الذي تُفَرَّد بِصَلَاتِهِ فَكَانَ كَالْمَصْدِرِ لَا يَنْتَبِئُ وَلَا يُنْفَعُ ؛

إذ هو كَلِمَ الْمَلِكِ وَنَجَّيْهِ ، وَمُقَرَّبُ حَضْرَتِهِ وَحَظِيَّةٍ ؛ بَلْ عَمِيدُ الْمُلْكَةِ وَعِمَادُهَا ،  
وَرُكْنُهَا الْأَعْظَمُ وَسِتَادُهَا ، حَامِي حَوْمَتِهَا وَسِدَادُهَا ؛ وَعَقْدُهَا الْمَتِينُ وَنِظَامُهَا ، وَرَأْسُ  
ذُرْوَتِهَا الْعَلِيَّةِ وَسَنَامُهَا ؛ وَجَهَنَّةُ خَيْرِهَا ، وَحَقِيَّةُ وَرْدِهَا وَصَدْرِهَا ؛ وَمُبْلَغُ أَنْبَابِهَا  
وَسَفِيرُهَا ، وَزَيْدُ رَأْيِهَا الْمُرِي وَمُشِيرُهَا .

فَيَهْلًا بِالْكَرَامَاتِ وَالْعُلَى \* وَجِهْلًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدَةِ الْخَفِيَّةِ !

هذا . وهو الواسطة بين الْمَلِكِ وَرَعِيَّتِهِ ، وَالْمُتَكَفِّلِ لِقَضَائِهِمْ بِدَرْكِ قَضَائِهِ وَبُلُوغِ  
بُشَيْرَتِهِ ، وَالْمُسْعِدِ لِلظُّلُمِ مِنْ عِزَائِهِمْ تَوْقِيعَاتِهِ بِمَا يَقْضِي بِنُصْرَتِهِ ؛ وَجَبْتِذْ فَلَا يَصْلُحُ  
لَهَا إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَ كَرَمِ الْخَلِيمِ بَارِزًا لِحَيَاةِ الْأَمْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ ، وَمَعَ سُمُو الرِّبَةِ سَامِي  
الْهَيْمَةِ لِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ ؛ وَمَعَ عِزِّ الْجَنَابِ لَدَى مَلِكِهِ لَيْلَى الْجَنَابِ لَدَى الْمَسْأَلَةِ ، وَمَعَ  
قُرْبِهِ بِحُضْرَةِ سُلْطَانِهِ قَرِيبًا مِنَ الرَّعِيَةِ حَتَّى مِنَ الْمُسْكِينِ وَالْأَرْمَلَةِ .

وغيرُ خَافٍ أَنْ كُلَّ وَصْفٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْصَافِ مَعَ مُقَابَلِهِ كَالضَّادِّينَ اللَّذَيْنِ  
لَا يَجْتَمِعَانِ بِجَالٍ ، وَالْقَيْضَيْنِ اللَّذَيْنِ قَضَى الْعَقْلُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَهُمَا بِجَالٍ ؛ وَأَنَّى يَجْمَعُ  
الْعَالِي وَالْمَهَاطِطُ ، وَالْمُرْتَفِعُ وَالسَّاقِطُ ؟ أَمْ كَيْفَ تَتَّصِلُ الْأَرْضُ بِالسَّمَاءِ ، أَوْ يَمُوتُ  
أَمْتَرَاخُ عُنْصُرِ النَّارِ بِعُنْصُرِ الْمَاءِ ؟ وَمِنْ تَمَّ عِزُّ هَذَا الْمَطْلَبِ لِهَذِهِ الْوُطَيْقَةِ حَتَّى إِنَّهُ  
لَا عَزَّ مِنْ الْجَوْهَرِ الْقَرْدُ ، وَقَلَّ وُجُودُهُ حَتَّى لَمْ يُوجَدْ إِلَّا فِي الْوَاحِدِ الْقَدِّ فَلَا تَرَاهُ  
إِنْ تَرَاهُ إِلَّا فِي حِيزِ النَّادِرِ ، وَلَا تَنْظُرُهُ إِلَّا ظَفَرُكَ بِيضِ الْأَتُوقِ إِنْ كَانَ يَطْفُرُ بِهِ  
ظَافِرُ ، إِلَّا أَنَّهُ رُبَّمَا سَمِعَ النَّهْرُ فَأَنَّى بِالْقَدِّ مِنْ هَذَا النَّوعِ فِي الزَّمَنِ الْمُتَبَاعِدِ ، أَوْ أَسْعَدَ  
النَّهْرُ فَاسْعَفَ بِالْوَاحِدِ بَعْدَ أَلْفٍ وَاحِدٍ .

ثم قد مضتُ برهةً من الأيامِ وَجِدْتُ دِيْوَانَ الْإِنْشَاءِ مِنْ نَظَرٍ مِنْهُ هُوَ مُتَصِفٌ بِبَعْضِ  
هَذِهِ الْأَوْصَافِ عَاطِلٍ ، وَالنَّهْرُ يَبْدُو بِمَنْ يَقُومُ فِيهِ بِتَقْرِيجِ كُرْبَةِ الْمَلْهُوفِينَ وَلَكِنَّهُ  
يُمَاطِلُ :

يرقه ما يرفقه في التقاضى \* وليس لديه غير المطلب نقدا!

إلى أن طلع نير الزمان وتوضح شروقه، وظهرت تباشير صباحه وأفل بطلوع السعد عيوقه؛ فأقبلت الدولة الظاهرية بسعادتها، وتلقته الأيام الناصرية جارية منها على وفق عاداتها؛ ووفر للدولتين من انتخاب الأصفياء قسمتها، ونخصت لها الرأي الصائب حتى ظهرت في الوجود زبنتها؛ فكانت خلاصة أصطفائهما، وزبدة انتقائهما؛ المقر الأشرف، العالى، المولوى، القاضوى، الكبيرى، السيفرى، المشيرى، الفتى، نظام الممالك الإسلامية وزمام سياستها، ومقتد أمورها، وجامع رأيها؛ أبو المعالي فتح الله صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، زاد الله تعالى في أرزقائه على تماقب الدول، وأجراه من خفي اللطف على أجمل العوائد وقد فعل؛ فألقي إليه من أسرار المملكة مقاليدها، وأتفقت بحسن سفارته بأتمام الرواة أمانيدها؛ فنبذت بتنفيذ أمورها، وكلت بصحيح رأيه كسورها؛ فجرت الأمور بحسن تدبيره على السداد، ومشت الأحوال بلطف سفارته على أتم المراد؛ وأعترفت له الكافة بالسيادة فاطاعت، وعرفت له الرعية تقادمه في الرئاسة فرعت حرمة وراعت.

وإن أمور الملك أضحى متدارها \* عليه كادارت على قطبها الرحي!

قد استعبد الخطأ فأصبح له كالخديم، وأتى من المعروف بكل غريب فأنسى من أثر عنه ذلك في الزمن القديم؛ فلوراه «خالد بن برمك» لا تخيم عن ملاقاته عظام، أو تاواه «يحيى بن خالد» لمات من مناولته علما، أو سابقه «الفضل وجعفر» أبناء لسبقهما كرما:

مناف لو أنى تكلفت نسجها، \* لأفلس في أفلاها ومداها!

أَوْ سَمِعَ بِهِ "الْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ" لَقَطَعَ إِلَيْهِ الْحَزْنَ وَالسَّهْلَ، أَوْ بَصُرَهُ "الْفَضْلُ"  
أَخُوهُ، لَمَّا رَأَى أَنَّهُ لِلْفَضْلِ أَهْلٌ؛ أَوْ عَيْنَهُ "أَبُو عَلِيٍّ بْنُ مُقْلَةٍ" لَعَلَّمَ أَنَّهُ فَاقَهُ حَظًّا  
وخطأ، أَوْ نَظَرَ "أَبْنُ هِلَالٍ" إِلَى أَهْلِ نُؤَانِهِ لِتَحَقُّقِ أَنَّهُ سَبَقَهُ إِلَى تَحْرِيرِ هِنْدَسَةِ  
الْحُرُوفِ وَمَا أَخْطَأَ :

إِذَا اخَذَ الْقِرطَاسَ خَلَّتْ يَمِينُهُ \* مُنْتَحِ نَوْرًا أَوْ شَطَمَ جَوْهَرًا !

فَإِنْ تَكَلَّمَ أَتَى مِنْ بَيَانِهِ بِالسَّحْرِ الْخَلَالِ، أَوْ حَاوَرَ أَتَى مِنَ الْبَلَاغَةِ بِمَا يُقَصِّرُ عَنْ  
رَتْبِهِ "وَيْجِبَانُ" فِي الْمَقَالِ، أَوْ تَرَسَّلَ أُنْجِي "عَبْدُ الْحَمِيدِ" فِي رَسَائِلِهِ، أَوْ كَتَبَ رَقْعَتَ  
مِنْ رَوْضِ خَطِّهِ فِي زَهْرِ نَحَائِلِهِ :

يُؤَلِّفُ اللُّؤْلُؤَ الْمُشْتَوْرَ مُنْطَلِقُهُ \* وَيَنْظُمُ النُّزْ بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ !

فَرَأَاهُ السَّيْفُ لَا مَا صَنَعَ الْهِنْدُ، وَعَقَلَهُ الْمَبَارِمُ لَا مَا اسْتَوْدَعَ الْغِنْدُ :

فَقِيَ رَأْيَهُ مُنْجِحَ الْأُمُورِ وَلَمْ يَزَلْ \* كَفِيلًا بِإِرْشَادِ الْحَيَارَى مُوقِفًا !

أَقْلَامُهُ تُزَيِّرُ بِالصُّوَارِمِ وَتَهْزَأُ بِالْأَسَلِ، وَتَجْرَى بِصِلَةِ الْأَرْزَاقِ قَرِيدٌ عَلَى الْأَمَانِي  
وَتَرْبُو عَلَى الْأَمَلِ :

بِتْ جَارُهُ فَالْعَيْشُ نَحْتِ ظِلَالِهِ \* وَأَسْتَسْقِيهِ فَالْبَحْرُ مِنْ أَنْوَانِهِ !

فَحَاكِرُهُ تُفْنِي مِنَ الْإِمْلَاقِ، وَيَوَاكِرُهُ بِالْإِسْعَادِ تَبَادُرُ النُّدُورِ وَالْإِشْرَاقِ، وَعَطَانَاهُ

تَسِيرُ مَسِيرَ السَّحَابِ قُطْمِطِرَ النَّيْتِ عَلَى الْآفَاقِ :

كَرِيمٌ مَسَاعِي الْمَجْدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً \* مِنْ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَبَذَلِ الْفَوَاضِلِ !

قَدْ خَدَمْتَهُ الْخَطُوطُ وَأَسْعَدَتْهُ الْجُلُودُ، وَقُسِمَتِ الْمَنَازِلُ السَّنِيَّةُ فَكَانَ لَهُ مِنْهَا

سَعْدُ السُّعُودِ :

لَوْ عَدَّ النَّاسُ مَا فِيهِ لَمَا بَرِحَتْ \* ثَلَاثِي الْخَنَاصِرِ حَتَّى يَبْغَدَ الْعَدُو!

فلو غرَسَ الشُّوكُ أَشْمَرَ الْعَبَاءِ أُنَى أَرَادَهَا ، أَوْ حَاوَلَ الْعَتَاءَ فِي الْجَوْلِ لَصَادَهَا ؛  
أَوْ زَرَعَ فِي السَّيْبَانِ لَكَانَ ذَلِكَ الْعَامُ الْعَامَ وَالسَّنَةُ الْخَصْبَةَ ، وَلَضُوعِفَتْ مُضَاعَفَةً  
حَسَنَاتُهُ فَأَنْبَتَتْ كُلُّ حَبَّةٍ سَبْعَ سَنَائِلَ فِي كُلِّ سُبُلَّةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ :

وَإِذَا السَّعَادَةُ لَأَحْظَنَكَ عُيُونُهَا ، \* نَمَّ فَالْخَائِفُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ ،

وَأَصْطَلَّ بِهَا الْعَتَاءُ فَهِيَ حَبَائِلُ \* وَأَقْتَدَّهَا الْجَوْرَاءُ فَهِيَ عَنَانُ !

قد لَيْسَ شَرْقًا لَا تَطْمَعُ الْإِيَّامُ فِي خَلْفِهِ ، وَتَقْمَصُ مِنَ الْفَضْلِ جِلْبَابًا لَا تَنْطَلِعُ  
الْإِيَّامُ إِلَى تَرْعِهِ ؛ وَأَتَهَى إِلَيْهِ الْمَجْدُ فَوْقَ ، وَعَرَفَ الْكَرَمُ مَكَانَهُ فَانْحَازَ إِلَيْهِ وَعَظِفَ .

فَقَعُصْرَتْ عَنْهُ خُطْبًا مِنْ يُجَارِيهِ ، وَضَاقَ جَنَهُ بَاعُ مِنْ يُبَارِيهِ :

نَالَتْ يَدَاهُ أَقْصَى الْكَرَمِ الَّذِي \* مَدَّ الْحُسُودَ إِلَيْهِ بَاطًا ضَيْقًا !

فَتَنَاقَبَهُ تَسْبِيْقُ أَقْلَامِ الْكَاتِبِ ، وَتَسْتَعْرِقُ طَاقَةَ الْحَاسِبِ ؛ لَيْسَ لَأَرْفَاعِهَا غَايَةٌ ،  
وَلَا لَتَلَاوُلِهَا نِهَائَةٌ ؛ فَلَا تُؤْنِي جَامِعَةً بَشْرُطَهَا ، وَلَا تَقُومُ جَرِيدَةً بِسَطْطِهَا :

وَقَدْ وَجَدَتْ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَامِعَةً \* فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلْ !

قد هَتَفَ بِمَدْحِهِ خُطْبَاءُ الْأَقْلَامِ عَلَى بَنَائِرِ الطُّرُوسِ ، وَتَطَلَّعَتْ بِفَضْلِهِ أَرْوَاحُ الْمُخَابِرِ  
فَنُكِّسَتْ لِرَفْعَةِ قَدْرِهِ شَوَائِخُ الرُّبُوسِ ؛ وَطَلَعَتْ فِي أَفْنَى الْمَهَارِقِ سَعُودُ إِيَّالَتِهِ السَّعِيدَةِ .  
فَأَقْلَّتْ لَوْجُودِهِ النُّحُوسِ ؛ وَوَرُقَّتْ عَظَائِمُهُ بِقَيْسِ اللَّيْلِ عَلَى صَبَقَاتِ النَّهَارِ فَأَرْتَسَمَتْ ،  
وَحُمِلَتْ أَخْبَارُ مَعْرُوفِهِ فَتَرَاخَمَتْ الْأَفَاقُ عَلَى أَنْتِشَاقِ أَرْجَحِ رِيحِهِ الْعَبَقَةِ وَأَمْتَهَمَتْ :

لَقَدْ كَرَّمْتَ فِي الْمَكْرَمَاتِ صِفَاتَهُ \* فَمَا دَخَلَتْ لَاءُ عَلَيْهَا وَلَا إِلَّا !



اتَّفَقَتِ الْأَلْسِنَةُ عَلَى تَقْرِيبِهِ فُدِّحَ بِكُلِّ لِسَانٍ ، وَتَوَافَقَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّهِ فَكَانَ لَهُ بِكُلِّ قَلْبٍ مَكَانٌ ، وَاسْتَفْرَقَتْ مَمَادِحُهُ الْأَزِمَّةَ وَالْأَمَكِنَةَ فَاسْتَوْلَى شُكْرُهُ عَلَى الزَّمَانِ وَالْمَكَائِنِ :

وَلَمْ يَحُلْ مِنْ إِحْسَانِهِ لَقَطٌ مَحْمُورٌ \* وَلَمْ يَحُلْ مِنْ تَقْرِيبِهِ بَطْنٌ دَقِيرٌ !

عَلَى أَنِّي اسْتَفِيقُ عَثَرَتِي مِنَ التَّقْصِيرِ فِي إِطْرَافِهِ ، وَالْعَرَضُ مِنْ مَدْحِهِ لِمَا لَا أَنْهَضُ بِأَعْيَانِهِ ، فَلَوْ أَنَّ «الْجَاهِظَ» نَصِيرِي ، وَ«أَبْنَ الْمُقَفَّعِ» ظَهِيرِي ، وَ«قُسَّ بْنَ سَاعِدَةَ» سَعْدُنِي ، وَ«تُهَيْبَانَ وَائِلِلَ» يُعِذُّنِي ، وَ«عَمْرُو بْنَ الْأَهَمِّ» يَرْشِدُنِي ؛ لَكَانَ أَغْرَافِي بِالْجَزْرِ مِنْ مَدْحِهِ أَلْبَحَ مَا أَتَيْهِ ، وَإِقْرَارِي بِالتَّقْصِيرِ فِي شُكْرِهِ أَوْلَى مِمَّا أَصِفُهُ مِنْ تَوَالِي طَوْلِهِ وَأَيَادِيهِ :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَنِيَّةٍ شَعْرَةٌ \* لِسَانًا يُطِيلُ الشُّكْرَ فِيهِ لَقَصَّرَا !



وهذه نسخة رسالة الشيخ الإمام العالم معين الدين تاج العلماء ، خطيب الخطباء ، زَيْنِ الْأَمَةِ ، قُدْوَةِ الشَّرِيعَةِ ، الصِّدِّيقِ أَبِي الْفَضْلِ عِيَّاسِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَبْدِ الْمُحْصِنِ رَحِمَهُ اللَّهُ ، سَمَّاها : «عِتَابُ الْكُتَّابِ ، وَعِقَابُ الْأَقْلَابِ ، الْمُشْتَمَلَةُ عَلَى أَصُولِ الْقَرِيبِ وَالْإِغْرَابِ» وَفِي :

صَدِيرِي مِنْ وَرَرَاءِ النِّصْبَةِ وَكُتَّابِي ، وَكِبَرَاءِ الدُّسُوتِ وَأَرْبَابِي ، وَأَوَاخِي الدُّوَلِ وَأَطْنَابِي ، وَنَوَائِبِ الدُّوَالِينِ وَأَنْبِيَاءِي<sup>(١)</sup> ؛ وَجِبَاةُ بَيُوتِ الْأَمْوَالِ ، وَالسَّاعَةُ فِي زَمِّ نَشْرِ الْأَحْوَالِ ؛ وَسَامِعَةُ الْمَمَالِكِ ، وَصُحُفُ أَمْرَارِ الْمَمَالِكِ ؛ الشَّائِعِينَ بِأَنْوْفِ التَّيْبِ وَالْكِبَرِيَاءِ ، وَالْبَنَاحِينَ دُيُولِ الْحُبِّ وَالْخِيَلَاءِ الرَّاغِبِينَ فِي حُلِيِّ النَّهَاءِ ، وَالْمُطَالِئِينَ عَنْ قُرُوضِ الْعَلَاءِ الَّذِينَ تَبَوَّعُوا النُّؤُودَ مِنْ غَيْرِ سَدَادٍ ، وَتَسَنَّمُوا الرُّتَبَ بِلاَ إِسْلَادٍ ؛

(١) الأتباع جمع تاب وهو سيد القوم وكبيرهم .

فكانهم الحاسب ، وعدوا له المناصب ؛ شغلهم الأشر والفجور ، وكل على بسطته يحور ؛ مهمهم جميع الأخراس ، وثج الرياح بالماء القراح ، وأمتطاء المرد ، والعناق الجرد ؛ أملكهم تقييد الأفيث ، وتشييد الأيئيه ؛ والزيادة في الرقيق والكراع ، والحوول والإتباع ؛ وليس يقال ، كثرة خيل ورجال ؛ بما باعوه من الودع والديانة ، وأصاعوه من العفة والصيانة :

قَدْ مَلَكُوا الدُّنْيَا عَلَى غَرَّةٍ \* وَنَاقَسُوا فِيهَا السَّلَاطِينَا !  
تَوَزَّعُوا الدُّوَلَةَ وَالْمُلُوكَ وَالْحَضَرَةَ وَالْإِسْلَامَ وَالنَّبِيَّانَا ،  
شَادُوا بِأَعْمَالِهِمْ ثُورَهُمْ \* وَأَخْرَبُوا فِيهَا الدَّوَابِينَا ،  
عَفَّوْا وَمَا عَفَّوْا بِأَقْلَامِهِمْ \* مَسَاكِنَا تَحْوِي مَسَاكِينَا ،  
غَرَّبَتْهُمْ الدُّنْيَا بَانَ أَظْهَرَتْ \* عَنْ غِلْظَةِ تَضْمِيرُهَا لِينَا ،  
وَالْقَهْرُ كَمْ جَرَّعَ فِي مَرَّةٍ \* مُرًّا وَحِينًا سَاقَهُ حِينَا .  
يَا أَنْفُسَا ذَلَّتْ بِإِتْيَانِهِمْ \* وَبِكَ أَنْتَانِيْنَ الْأَتَانِينَا .  
لَا تَرْغَبِي فِي رِسَالِهِمْ إِنَّمَا \* تَمَرِّينَ فِي الْقَعْبِ الْأَمْرِينَا !  
وَكُلَّ يَحْدَى الْقَصْدُ لَوْ أَنَّهُمْ \* يَدْرُونَ شَيْئًا أَوْ يَدْرُونََا .  
مَوْتِي هُمُو فَلَئِكَ تَحْرِيطُهُمْ \* إِنْ كُنْتَ لَا تَأْتِينَ ، تَأْتِينَا ،  
لَا يَسْتَبِي الْقَضْلُ بِأَطْرَاءِ مَنْ \* يَكُونُ فِيهِ الْمَجْوُ مَقْبُونَا ،  
لَوْ رُمْتَ شَيْئًا تُدُونُ أَقْدَارِهِمْ \* لَمَجْجُوهُمْ لَمْ يَحْدِ الدُّوْنَا !!!

قد أخذوا إلى الوضاعة ، عن تحصيل البضاعة ، وكفاهم من البراعة ، برى البراعة ، وعنوا بأسوداد اللبقة ، عن سُؤْدِ الخليفة ؛ وأحاطوا على الزم ، عند قُصُورِ الهيم ؛ ومن أعظم الآفات ، نحرهم بالعظيم الرقات .

وَكَانَتْهُمْ لَصِيمِ هَاشِمٍ \* أَوْ مِنْ هَاشِمِ الْعَبَّاسِ ،  
عَشِمُوا فَا يَشَاهُمُ \* بِالطُّوْعِ إِلَّا كُلُّ غَاشِمٍ :

لَا يُعِينُ أَحَدُهُمْ عَلَى مُرُوقِهِ ، وَلَا يُنْعِشُ ذَا أَخْوِهِ ، وَلَا يَرْغَى وَارِثَ أَبَوِهِ ، وَلَوْ  
أَعْتَرَى إِلَى بَنُوهِ ؛ فَهُوَ غَيْرَ آسٍ يَجُودِهِ ، وَلَا مُوَاسٍ بِمُوجُودِهِ ، يَرْوُكُ كَيْسَهُ وَالْعَلَامَ ،  
وَتَرَوُكُ كُودِيَهُ وَالْأَقْلَامَ ؛ فَإِذَا اسْتَنْطَقَ قَلْبَهُ الصَّامِتُ ، أَجْدَلَ عَدُوَّهُ الشَّامِتَ ؛  
فَزَادَ أَدْرَاجَهُ نَاقِصًا ، وَطَادَ عَلَى أَدْرَاجِهِ نَاقِمًا .

فَهُوَ الَّذِي أَمَلَا لَمْ حِلْمُهُ \* مَعَ الْخَلَا وَالنَّكَدِ الْبَاهِضِ :  
لَوْ أَتَيْتُ وَلَيْتُ تَأْدِيبُهُمْ \* شَفَيْتُ صَدْرَ النَّقْصِ الْبَاهِضِ !  
مَنْ تَاطَرِ بِضَيْحِي بَلَا تَاطَرِ ، \* وَطَارِضُ يُمْنِي بَلَا طَارِضُ ،  
وَمُشْرِفُ لِلدِّينِ مَا قَصَصُهُ \* فِي الْوَطْبِ إِلَّا زُبْدَةُ الْمَاضِضِ ،  
وَحَازِنُ إِنْ لَفَّ مَرَضَاتُهُ \* مِنْ حُلُومِ عَقَبِ عَنِ الْحَاضِضِ ،  
وَمَنْ خَبِثَ جَانِبَا ذِكْرِهِ \* فِي الذِّكْرِ بَيْنَ الْبِكْرِ وَالْقَارِضِ ،  
وَكَاتِبٍ لَوْ أَنْصَفُوا مُهْرَهُ \* لَكَانَ أَوْلَى مِنْهُ بِالرَّائِضِ !!!

إِنْ وَقَعَ ، رَأَيْتَ اللَّفْظَ الْمُرْتَقِعَ ، وَإِنْ أَطَالَ وَأَمْتَهَبَ ، أَذْكَلَ عِرْضَهُ وَأَنْهَبَ ؛  
وَكَانَ أَحَقَّ بِتَقْلِيدِ الْفُهُودِ ، عِنْدَ تَقْلِيدِ الْفُهُودِ ؛ وَأَوْلَى بِسَطْرِ الْمَتَاشِيرِ ، عَنِ سَطْرِ  
الْمَتَاشِيرِ ؛ وَأَجْدَرُ بِقَبْضِ الرُّوحِ ، إِذَا أَنْبَسَ لِلشُّرُوحِ ، وَأَخَذَ فِي ذِكْرِ الْوَقَائِعِ وَالْفَتْوحِ ؛  
كَفَّهُ بِالْحِلْمِ ، أَوْلَى مِنْهَا بِالْقَلَمِ ؛ وَأَخْلَقَ بِالْمَسْحَةِ ، مِنَ السَّحَابِ ؛ وَأَثَقَ بِالْقُؤُوسِ ،  
مِنَ الطُّورِوسِ ؛ يَبْرِي وَيَقْطُ ، وَلَا يَدْرِي مَا يَخْطُ ؛ إِذْ لَيْسَ فِي السَّقَطِ ، غَيْرَ السَّقَطِ ؛  
إِنْ قَاتَحْتَهُ ، أَوْ طَارَحْتَهُ ؛ فَظَفِرَتْ بِنُصْبَةِ الْمَسَاحِ ؛ وَخَشَمَ الْمَفَاحِ ، إِنْ خَطَّ : فَنُوتُهُ  
كَلَامُهُ ، وَخَطَّ فَنُوتُهُ فِي كَلَامِهِ .

إِنْ وَقَعُوا وَقَعُوا فِي ذِمَّةِ كُلِّ قَوْمٍ ، \* أَوْ أَنْفَعُوا أَنْفَعْتُمْ أَنْفُسَهُمُ الْكَلِمَ ،  
أَوْ قَلَدُوا قَلَدُوا خَيْرًا يُحِلُّهُمْ ، \* أَوْ أَقْطَعُوا قَطَعُوا شَيْئًا يَجْهَلُهُمْ .  
أَرَأَيْتُمُ الْمَالَ وَالْأَعْمَالَ إِنْ رَقُوا \* جَاءُوا مِنَ الرِّقْمِ وَالْأَلْفَافِ بِالرِّقْمِ ،  
فَلَقَدْ يَأْخُذُ مِنْهُمْ الدَّوَاءُ وَالْأَقْنَسُ بِالْحَقِّ وَالْقِرَاطِ وَالْقَلَمُ !!

فَالْجَدِيدُ بِهِمْ سَمَلٌ ، وَالسَّوَامُ بَيْنَهُمْ هَمَلٌ ، وَلَا عِلْمَ عَنْهُمْ وَلَا عَمَلٌ ؛ لَهْفَى عَلَى  
الْفَضْلِ الْمَثَلِ ، بَرَفَةِ الْأَنْدَالِ ؛ وَضَيَاحِ الْحُقُوقِ ، وَأَنْضِياعِ الْيَصَصَةِ عَنِ الْعُقُوقِ .

ثم ما على سيدنا الوزير ، مع اضطحابه باليم والوزير ، وفاق سوقه ، وأنفاسه  
في فسوقه ، وأتصال صبوحة بقبوقه ، وتخلية في البهو ، للعب واللهو ؛ من ظهر غي  
بركب ، وذى يسار ينكب ؛ وساج يثى ، ورأج يرتبى ؛ ورؤسوم خيف تجتد ،  
وسوات تملد ؛ ما يضره من شكوى الجراح البغات ، وصريح لا بغاث ؛ ووأل  
يتسّف بأهل مصره ، وإن شركه فى إضره ؛ وقاض لا ينصف الرعية ، ولا يتبع  
القضايا الشرعية ؛ وقفيه يمسف إلى تمصيل عرض زائل ، وتعجيل عرض من  
سائل ؛ ماله وحفظ المال ، ومحاسبة المال ؟ :

أم ما على العامل نين البساج \* إن قصص الكرم وزاد الخراج ؟  
عليه أن يحصل فى كفه \* شئ وإن أخل بجميع الخراج .  
وهو نرجع عند ما يتيسر . \* يبط بالمبضع ما فى الخراج !!!

شغلهم بالشهد المشور ، لا بمشهد يوم الشور ، وقضهم الجمع والاكتساب ،  
ومتى الجمع والحساب ؛ إنما هو مال يمتقب ، لا مال يرتقب ؛ وقناد فى الأرض ،  
لا إمداد ليوم العرض :

وَأَنَّى لَأَوَّلِي السَّرَائِبِ تَحْتَوِي \* عَلَيْهَا قُرُودٌ فَوْقَهُنَّ بُرُودٌ،  
سِرَاعٌ إِلَى السَّوَاتِ فَمَا يَسِينُهُنَّ \* وَلَكِنَّهُنَّ عَمَّا يَزِينُ رُكُودٌ،  
يَحَاطُّ إِذَا مَا تَوَبَّ اللَّهُ دَاعِيَا \* وَعِنْدَ نَدَاءِ الْمَكْرَمَاتِ رُقُودٌ،  
وَمَا غَرَّبَنِي إِلَّا جَلَاوِزُ حَوْلِم \* وَلَا قِيَامٌ يَنْهَسُمُ وَقُودٌ،  
لَقَدْ حُسِدُوا ظُلْمًا عَلَى مَا أَنَا \* وَهَلْ لَأَخِي قَقِصٌ يَسُودُ حُسُودٌ؟  
وَالسَّيِّدُ الْمُحْسِنُودُ كَفَّ عَنِ الْعُلَى \* تَتَوَدُّ وَأَنْتَ عَنِ النَّوَالِ تَجُودُ،  
لَمَّا اللَّهُ دُنِيَانَا الَّتِي ضَلَّ سَعِيهَا \* وَفِيهَا عَلَيْنَا بِالضَّلَالِ شُهُودُ،  
إِذَا صَغُرَتْ كَأَسَمِ الْحُسَيْنِ مَحَلَّةٌ \* عَلَتْ وَعَلَا فِيهَا يَزِيدُ يَزِيدُ،

إِنَّمَا الصَّنَدُ مِنْ صَدْرِهِ كَالْهَلْهَلِ، وَحَسُنَتْ أَعْمَالُهُ؛ وَجَرَّدَ الْعَزَمَاتِ، فَشَرَّدَ  
الْأَزْمَاتِ، وَبَقِيَ بِذِيهِ الْكَرَامَاتِ، وَأَصْبَحَ لِرَبِّهِ الْقُرْبَاتِ، فَسَهَلَ الْفَتَى، وَأَقْبَلَ الْإِنَا،  
وَوَضَعَ مَوَاضِعَ النُّقَبِ أَلَيْنَا، فَهُوَ يَبْشُرُ النَّوَالِ، وَيَدِشُّ عِنْدَ السُّؤَالِ؛ لَا يَسْتَوِبُ  
وَرَدَهُ الْقَدَا، وَلَا يَسْطَلُّ مِنْهُ بَالَمَنْ وَالْأَدَى، يَبْشُرُ بَشْرَهُ بِحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، وَيَبْشُرُ بَشْرَهُ  
الطَّيِّبِ فِي الْأَفَاقِ، وَيَحْيِي بِدَوَانِهِ دَاءَ الْإِمْلَاقِ، وَيَحْزِرُ بِهَضْبَتِهِ قَصَبِ السِّبَاقِ :

يُحَرِّدُهُمْ مِنْ مِثْلِ وَفَضَّةِ نَائِلٍ \* أَجْنَحْنَا مِنْ نَائِلَاتِ الْمَعَالِ،  
وَفِي حَظِّهِ الْمُنْسُوبُ تَرَرَى شَبَابُهَا \* بِهَلْمِهِ مَنَسُوبٌ إِلَى الْخَطِّ ذَائِلٍ،  
وَأَنْ بَدُرَتْ عَنْ حَبَّةِ الْقَلْبِ أَنْبَتُ \* مِنَ الرِّقَابِ قَبْلَ الرُّسُوجِ سَنَائِلُ !!

دُؤُوبُهُ لِإِقَالَةِ الْعَائِرِ، وَغِمَارَةِ الدَّائِرِ، وَإِشَاعَةِ الْمَأْثَرِ؛ هُمٌّ فِي مُعْضِلَةِ تَرَاضٍ،  
وَمَعْدَلَةِ مُفَاضٍ، وَخَطْلٍ يُسَدُّ، وَجَلَلٍ يَصْدُّ، وَطَانٍ يَطْهَرُهُ يَعَانُ، وَطَائٍ يَقْهَرُهُ يَهَانُ؛  
بَابُهُ مُفْتَوِّحٌ، وَخَيْرُهُ مُمْنُوحٌ، وَمَا أَقْلُ الْأَلَمِ، لِمَنْ أَكْثَرَ الْوَلَامِ، وَأَغْلُ الْحَادِبِ،

لَمَنْ صَنَعَ الْمَدِيبَ ، وَأَخْلَصَ الْإِخَاءَ ، لَمَنْ آسْتَخْلَصَ السَّخَاءَ ؛ فَبَدَّلَ الرِّغْوَةَ وَالصَّرِيحَ ،  
وَالسَّنَامَ الْإِطْرِيحَ ؛ لَا كَنْ يَشُحُّ بِالْفَتَارِ ، لَقَطِرُ الْإِقْتَارِ ؛ وَيَضُنُّ بِالْوَضَرِ ، عَلَى  
الْمُحْتَضَرِ ؛ وَيَخْلُجُ بِالْعَرَّاقِ ، عَنْ رُوحِهِ فِي التَّرَّاقِ ؛ وَيُسِرُّ الْغَمِيرَةَ ، لَمَنْ يَتَنَبَّئُ الْمِيرَةَ ؛  
وَيُطِيقُنُ الدَّاءَ ؛ لَمَنْ يَنْتَظِرُ النَّدَاءَ ؛ وَيُسْعِرُ الْأَحْشَاءَ ؛ لَمَنْ تَرَقَّبُ السَّاءَ :

مسلط سيرته نعمة \* وجائر قسمته ضيرى ،

ليس بذى لب يملئ الثأرى \* ولا لباب يملأ الشئرى !

يَحْتَدُّ عَلَى الْإِخْوَانِ ، عِنْدَ ظَهْوَرِ الْخَوَانِ ؛ قَرَاهُ يُحَلِّقُ ، إِلَى مَنْ يُسَدِّقُ ؛ وَيَتَقَمُّ ،  
مَنْ يَلْتَقِمُ ؛ وَيُنْذِلُ الْإِكِلَ ، وَيُحِلُّ بِهِ التَّنْكِيلَ ؛ وَيُغْفِضُ الشَّرِيبَ ، وَإِنْ كَانَ الْخِلْدَنَ  
الْقَرِيبَ ؛ فَالْحَائِنَ مِنْ يَرْدَ ، فَيَزْدَرِدُ ؛ وَالْحَائِنَ مِنْ يَنْهَسِطُ ، فَيَسْتَرِطُ ؛ يَسْتَأْ مِنْ  
الْأَجْرَاسِ ، صَوْتِ الْأَضْرَاسِ ؛ وَحَشْرَجَةِ الْبِلَاعِمِ ، بِحَشْرَجَةِ الْمَطَامِ ؛ وَهَرْمَرَةَ  
الشُّلُوقِ ، وَجَرَحَةِ الْحُلُوقِ ؛ وَقَدْ صَدَّتْ حَوَاجِرُ بِلَوَاهِ ، أَفْوَاحًا تَصَلَّتْ لِحَوَاهِ ؛  
وَحَكَّتْ بِلَاهِمِ ، بِحَكَّةِ بِلَاهِمِهِ ؛ وَصَلَّتْ بِكِدَوَانِهِ ، لَمَّى وَصَلَّتْ بِالْوَانِهِ ؛ رَغِيفُهُ أَعْرَزُ<sup>(١)</sup>  
مَنْ الْغَرِيفِ ، وَأَغْرَبُ مِنَ الشَّيْءِ الْطَرِيفِ ؛ صَرِيفُ بَايِهِ ، دُونَ صَرِيفِ نَايِهِ ؛  
وَيُحْكِمُ صَكَّ بَايِهِ ، عَنْ كَبَايِهِ ؛ وَيُعِدُّ سَدِيفَ جِفَانِهِ ، مِنْ سَدِيفِ أَجْفَانِهِ ؛ يُمَانِعُ  
بَلَدِيَدِهِ ، عَنْ سَفْوَدِ قَدِيدِهِ ؛ وَيُصَافِحُ بِصَفْحَةِ وَرِيدِهِ ، عَنْ صَفْحَةِ فَرِيدِهِ ؛ حَمْلُهُ مِنْ  
تُجُومِ الْحَمَلِ ، وَتَمَكُّهُ فَوْقَ السَّمَاءِ الْأَعْرَلِ ؛ وَحَوْثُهُ بَيْنَ الْحَوِثِ وَالْأَسَدِ ، وَجَدِيهِ  
عِنْدَ جَدِّي الْقَرَقَدِ ؛ دُونَ تَحْتِجَةِ آرْتِفَاعِ الْعَبَاجَةِ ، وَتَحْتِ دَجَاجَتِهِ ذَنْبُ السَّجَاجَةِ :

يلدج في القدر دراجه \* ليَلْقَطُ الْحَبَّ وَطَمُونَهُ

ففى السَّمَوَاتِ سُمَانَاتُهُ \* وَعِنْدَ دِيكَ الْعَرْشِ فَرُوشُهُ

(١) مَنْ عَزَّزَهُ بِعَزِّهِ أَمْرُهُ أَمْرًا عَنِينًا وَالْغَرِيفُ الْغَلِيظُ .

يَحْرُسُ مَا بَيْنَهُ الدَّلُو وَالْمَقْرَب، وَهُمَا مَنَا أَدْنَى وَأَقْرَب؛ يُسَجِّهُ التَّشْبِيرُ وَالْأَحْتِجَانُ،  
وَيَلْذُّ لَهُ التَّوْفِيرُ وَالْإِحْتِرَانُ؛ وَقَصْرُ مُفَاجَأَةِ أَحْوَالٍ، تُصَرِّحُ عَنْ أَهْوَالٍ؛ وَكَأَنَّكَ  
بِالْأَيَّامِ بَعْدَ الْإِنْسَامِ، شَاهِرَةٌ لِلْهَامِ؛ قَدْ كَثُرَتْ عَنْ أَنْبِيَائِهَا الْعُصَلُ، فِي بَكْرِهَا  
وَالْأَصْلُ؛ وَأَجَلْتُ عَنْ سَلِيبٍ مَسْحُوبٍ، لَتَنْكُرَ مَصْحُوبٍ؛ وَأَنْتَ بِتَرْدُّ فِي الْبُؤْسِ،  
وَيُحْلَدُ فِي الْجُبُوسِ؛ قَدْ حَصَلَ عَلَى سَلَةِ الْحَلَوَى، مِنْ سَلَةِ الْحَلَاوَى؛ وَمَنْ طَعِمَ  
الْعَسَلُ، عَلَى طَعْنِ الْأَسَلِ؛ وَمَنْ السَّلْبُ الْبَارِدُ، عَلَى حَرِّ الْمَبَارِدِ :

تَهْبِضُ مِنْ خَطْوِهِ الْكُبُولُ \* فَهُوَ عَلَى قَيْلِهِ يَبُولُ،

خَلَا مِنَ الْخَيْرِ فَهُوَ طَبْلُ \* وَهَكَذَا تَضْرِبُ الطُّبُولُ،

يَسْكُو إِلَى اللَّهِ مُسْتَنْفِئًا \* وَمَا لَهُ عِنْدَهُ قَبُولُ،

ذَاكَ بِمَا كَانَ مُسْتَطِيلًا \* تَرْدِي دَوَاهِيهِ وَالْمَبُولُ !

فَهْمُ بَيْنَ حَصَى تَعَصَّرَ، وَقَفَا يَقْصُرُ، وَرَكَابٍ مَتَّقَوْهُ، وَأَنْوَاعٍ عُقُوبِهِ؛ أَوْ يُقَالُ  
فَلَانٌ أَنَارَتْهُ شُعُوبٌ، وَوَارَتْهُ الْجُبُوبُ، وَاسْتَفْتَى بِسُلْفَةِ الْمَمَاتِ، مِنَ الْمَقْدَمَاتِ؛  
وَمَا ظَنَنْكَ بِالنُّوْلِ الطَّرِيعِ، فِي ضَنْكِ الضَّرِيعِ؛ تَحْتَهُ الْبَرْزُخُ الْمَوْصُودُ، وَفَوْقَهُ الْجَبَلُ  
الْمَنْصُودُ، أَنْظَرَ كَيْفَ هَجْرَ بَابِهِ الْمَقْصُودَ، وَجَانِبَتْ جَنَابَهُ الْوُفُودُ؛ وَأَخْلَقْتَ رِبَاعَهُ،  
وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ؛ ثُمَّ تَسْوِيهِ الْحُوبُ، أَبْشَعُ مِنْ تَسْوِيهِ الشُّحُوبِ (؟)؛ وَوَيْلٌ لِلْقَوْمِ  
الْبُورِ، مِنْ بَسْرَةِ الْقُبُورِ :

وَيَا خَسَارَ الْأَنْفُسِ الْغَاوِيَةِ \* مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْحَفْرِ الْهَاطِيَةِ،

وَكُلُّ مَنْ نَخَتْ مَوَازِينُهُ \* فَأَمَّهُ فِي بَيْتِهِ هَاطِيَةِ،

وَلَيْسَ يَذَرِي وَجْهَهُ مَاهِيَةً \* نَارٌ عَلَى سُكَّانِهَا حَامِيَةِ !

أعاذنا الله من خِلَالٍ يقضى جهلها بالنَّارِ ، وأَقْبَالٍ تُقضى بأهلها إلى النَّارِ ، بَكْرِهِ  
فاحسانه ، وطُولِهِ وأَمْنَتَانِهِ .

### الصنف الثالث

( من الرسائل المفاترات ، وهي على أنواع )

منها : المفاخرة بين العلوم .

وهذه نسخة رسالة في المفاخرة بين العلوم ، أنشأتها في شهر سنة ثمان وتسعين  
وسبعائة ، لقاضي القضاة شيخ الإسلام ، علامة الزمان ، جلال الدين ، عبد الرحمن  
أبن شيخ الإسلام ، بَقِيَّةَ المجتهدين ، أبي حَقِصِ عمر البلقيني الكافى ، الشافعى ،  
أَمَتَعَهُ اللهُ تعالى المسلمين ببقائه ، ذكرتُ فيها نيقاً وسبعين علماً ، ابتدأتها بعلم اللغة ،  
وختمتها بفن التاريخ ، ذا كراً تُغرَّ كلُّ علمٍ على الذى قبله ، محتجاً عليه بفضائل موجودة  
فيه دون الآخر ، وجعلتُ مصبَّ القول فيها إلى اشتغاله على جميعها ، وإحاطته بكلِّها ،  
مع الإشارة إلى فضل والده ، شيخ الإسلام ، ومساهمته له فى الفضل ، على ما ستَقِفُ  
عليه إن شاء الله تعالى ، وهي :

الحمد لله الذى جعلَ للعلمِ جلالاً تودُّ جلائلُ الفضائل أن تكونَ له أنبأ ، وأطلق  
أُسْتِنَةَ الأَقلام من حيل ثنائه بما أنطق به أُنْسَتُهُ العالمَ ليكونَ الحكمُ بما ثبت من  
مأثور فضله إجماعاً ، وأجرى من قاموس فكره جداول أنهار العلوم الزكية فنمَّشَ  
قلوباً وترَّه أبصاراً وشبَّتْ أشتاماً .

أحمدُ على أن أفاض نتائج الأفكار على الأذهان السليمة لئلى النظر الصحيح ،  
وبتَّ جياذ الأُسْتَةِ فى ميدان الجدال فغاز قصبَ السبق منها كلِّ لسانٍ ذَلِيقٍ فصيح .



وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى قهرت بنبات دلائله المُلحد  
المعانِد، وبهرت قواطع براهينه الألد الخَصِمَ والجَلِيلَ المُكَايِدَ؛ وأشهد أن محمداً عبده  
ورسوله الذى أظهر من واضح المنججِ الجَلِيلَةِ ما مَقَطَ بِحُجَّتِهِ دَعْوَى المُعَارِضِ، وأتى  
من فَصْلِ الخِطَابِ بما أَلْهِمَ به الخِصُومَ فلم يَسْتَطِعْ أَشَدُّهُمْ فى البَلَاغَةِ شِكِيمَةً أَنْ  
يَأْتِيَ لَهُ بِمُنَاقِضٍ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ فَازُوا مِنْ جَلِيلِ النَّاقِبِ بِكُلِّ  
وَصِفٍ جَمِيلٍ، واشتهرت فى الوجود مَفَاخِرُهُمْ فلم يُنَجِّجْ فى إثباتها إلى إقامة دَلِيلٍ؛  
صَلَاةٌ يَمَسُّكَ فى دَعْوَى الشَّرَفِ بِمَيِّينِ حَبْلُهَا، وَتَتَقَفَّى أدْلَةُ الثَّقَلِ والنَّقْلِ عَلَى القَطْعِ  
بِعُلُوشَانِهَا وَتَوْفِيرِ فَضْلِهَا .

وبعد ، فلما كانت العلومُ مشتركةً فى أَصْلِ التَّفْضِيلِ ، مُتَّفَقَةً الفَضْلِ فى الجَمَلَةِ  
وإن تَفَاوُتَتْ فى التَّفْصِيلِ ؛ مُسَلِّماً أَصْلَ الشَّرَفِ فيها من غير مُتَنَازِعٍ ، مُجْمَعاً عَلَى أَنَّهُ  
لَا بَيْتٌ مِنَ الْعِلْمِ مِنْ حَيْثُ هُوَ عِلْمٌ بِضَرٍّ وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْجَهْلِ مِنْ حَيْثُ هُوَ جَهْلٌ  
بِنَافِعٍ ؛ مع أَخْتِلَافِهَا فى التَّفَاضُلِ بِاخْتِلَافِ مَوْضُوعَاتِهَا ، وَتَفَاوُتِهَا فى الشَّرَفِ بِحَسَبِ  
الْحَاجَةِ إِلَيْهَا أَوْ وَثَاقَةِ مُجْجِهَا أَوْ قَاسَةِ قَايَاتِهَا ؛ حَظَّسَ كُلُّ مِنْهَا بِإِنْفٍ شَاخٍ غَيْرِ مُسَلِّمٍ  
لِلْآخِرِ وَلَا مُسَالِمٍ ، وَمَدَّ إِلَى الْعَلِيَاءِ يَدَ الْمَطَاوِلَةِ تَتَنَاوَلُ الثَّرِيَاءَ فَاعِدَةً غَيْرَ قَائِمَةٍ ؛ وَأَدْعَى  
كُلُّ مِنْهَا أَنْ يَحْمَدَ الطَّامِسُ ، وَفَضْلُهُ النَّائِمُ ؛ وَجَوَادَةُ الطَّامِحِ ، وَمِيسَاكَةُ الرَّاحِغِ ؛ زَاعِماً  
أَنْ حُسَامَتَهُ الْقَاطِعِ وَخَضْبَتَهُ الْقَاطِضِ ، وَقِدْحَتَهُ الْمُعَلِّقِ وَمَسْمَهُ الصَّائِبِ ، وَبَجْمِهِ السَّازِى  
وَشِهَابِهِ النَّاقِبِ ؛ وَأَنْ تَنْشُرَ الثَّنَاءُ عَلَى تَجَاوِزِهِ مَوْقُوفٍ ، وَخَطِيبَتِ الْحَمَائِدِ بِمَجَاوِزِهِ  
مَعْرُوفٍ ؛ وَفَلَكَ الفَضْلُ عَلَى قُطْبِهِ دَائِرٌ ، وَكُلُّ شَرَفٍ عَلَيْهِ مُعْبَسٌ وَكُلُّ فَخْرٍ عَلَيْهِ قَاصِرٌ ؛  
فَاسَ يَبْطِفُهُ وَمَالَ ، وَبَسَطَ فى الكَلَامِ لِسَانَهُ فَقَالَ وَطَالَ .

هَذَا : وَإِنَّمَا أَجْتَمَعْتُ يَوْمَاجْتِمَاعٍ مَعْنَى لَا صُورَةَ ، وَقَامَتْ لَهَا سُوقٌ بِالْبَحْثِ  
مَعْرُوفَةٌ وَعَلَى الْحَدِّالِ مَقْصُورَةٌ ؛ وَتَفَاوُضَتْ بِلِسَانِ الْحَالِ وَتَحَاوَلَتْ ، وَتَفَاوُتَتْ

في دعوى الشرف ونجاوبت ؛ وألّمت بالمُناظرة فتناظرت ، وتسابقت في ميدان  
الافتخار ففتانرت ؛ وأخذ كل منها في نُصرة مدّعيه ، وتحقيق مَطْلِبِهِ ؛ بأنواع الحجج  
والاستدلالات ، وإقامة البراهين والأمارات ، وما يتوجّه على ذلك من الأسئلة  
والاعتراضات . فكان أوّل بادئٍ بدأ منها بالكلام ، وقَعَ باب الجدال والخِصام : -  
علمُ اللغة قال :

قد علّمت معشر العلوم أنّي أعمّكم تفهماً ، وأوسعكم مجالاً وأكثركم جمعاً ؛ على قُطْبِ  
فلكى تدور الدوائر ، وبواسطتي تُترك المقاصد ويستعلم ما في الضمائر ؛ وبدلائي تُعلم  
المعاني المفردات ، ويُختار ما يدلُّ على النوات مما يدلُّ على الأدوات ؛ وتبين دِلالات  
العالم والخاص ، ويتعرف ما يُرشد إلى الأنواع والأجناس وما يختص بالاشخاص ؛  
على أن كلّمكم كلّ على ، ومُحتاج في ترجمة مقصوده إلى ؛ فلفظي "الحكم" وأقوال  
"الصّحاح" ، وكلامي "الجامع" وسيف لساني "المجرد" ناهيك من سلاح ؛ وقُصْل  
"المُجمل" لا يحتاج إلى بيان . استأثر الله تعالى بتعليمي لأدم عليه السلام ، وآثره بي  
معرفة على الملائكة فكان خِصيصه له على الملائكة الكرام .<sup>(١)</sup>

فلبس آفضي قبّله ، وبانت للستير سبيله ؛ فآب إليه علم التّصريف مُبتدراً ،  
ولتيسره ولسائر العلوم مُتّصراً ؛ فقال : رُويك أنّها المُساجِل ، وعلى رسلك إذا  
المتاضل ؛ فقد ذلّ من ليس له ناصر ، وحطّ قدر من ترفع على أبناء جنسه ولو عَظمت  
عليه الجناصير ؛ وما يُجدي البازي بغير جناح ، لو يُفني السّاعي إلى الحرب بغير  
سلاح ؛ وأنّي يلعن رُحّ بغير سنان ، أو يقطع سيف لم يؤيّد بقائم ولم تقبض عليه  
ببَنان ؛ إنك وإن حويت فضلاً ، وأغرقت أصلاً ؛ وكنت للكلام نظاماً ، وإلى

(١) التي في كتب اللغة «خِصيصي» ويؤدّ .

بيان المقاصد إماماً ؛ فانت غير مُستقل بنفسك ، ولا قائم برأسك ؛ بل أنا المتكفل بتأسيس مبانيك ، والمثلّم بتحرير الفاظك وتقرير معانيك ؛ بي تُعرف أصول أُبنية الكلمة في جميع أحوالها ، وكيفية التصرف في أسمائها وأفعالها ؛ وما يتصل بذلك من أحوال الحروف البسيطة وترتيبها ، واختلاف مخارجها وبيان تركيبها ؛ والأصلي منها والمزید ، والمهموس والرخو والشديد ؛ و <sup>(١)</sup> تقديره ، والصحيح والممثل وتحريره ؛ وكيفية التننية والجمع ، والفصل والوصل والابتداء والقطع ؛ وأنواع الأبنية وتغيرها عند اللواحق ، وكيفية تصرف الفعل عند تجرده عن العوائق ؛ وأمثلة الالفاظ المفردة في الزنة والهيئة وما يختص من ذلك بالأسماء والأفعال ، وتمييز الجامد منها والمشتق وأصناف الاشتقاق ؛ وكيف هو على التفصيل والإجمال .

على أنك لو خليت ومجرد التعريف ، وبيان المقاصد بالاصطلاح أو التوقيف ؛ لكان علم الخط يقوم مقامك في الدلالة الحسالية لدى الملقى ؛ ويترجح عليك ببعد المسافة مع طول البقاء ؛ مع ما فيه من زيادة ترتيب الأحوال ، وضبط الأموال ؛ وحفظ العلوم في الأدوار ، واستمرارها على الأكوار ؛ وانتقال الأخبار من زمان إلى زمان ، وحملها مرة من مكان إلى مكان ؛ بل ربما أكتفى عنك بالإشارة والتلويح ، وقامت الكتابة منها مقام التصريح .

فمنسلها غضب علم النحو وأكفهر ، وزجروا شمره ؛ وقال : يا لله ! " استنيت الفصائل حتى القروا " ، و " استلمرت البناث " فكان أشد ثلماً وأعظم صدماء ؛ لقد أدعيت ما ليس لك ففألتك الجبور ، و " من تسع بما لم يتل فهو كلايس ثوبي زود " ؛ وهل أنت الا بضعة مني ؟ ، تُسند إلى وتقل عني ؛ لم يزل علمك باباً من أبوابي ،

وَجُمِّلَتْ دَاخِلَةً فِي حِسَابِي؛ جِئْتُ بِكَ "الْمَازِي" فَأَفْرَدَكَ بِالتَّصْنِيفِ، وَتَلَاهُ  
 "أَبْنُ جُنَيْ" فَنَبِهَهُ فِي التَّالِيفِ؛ وَأَقْتَصَرَ "أَبْنُ مَالِكٍ" مِنْكَ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَى الضَّرُورِيِّ  
 الْوَاجِبِ، وَأَحْسَنَ بِكَ "أَبْنُ الْحَاجِبِ" فِي شَافِيَتِهِ فَرَفَعَ عَنْكَ الْحَاجِبَ؛ وَأَنْتَ  
 مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَطْلُوبٌ خَيْرٌ كُنْتُ، نِسْبَتُكَ مُتَّصِلَةٌ بِنِسْبَتِي وَحَسَبَكَ لِأَحَقِّ بِحَسَبِي؛  
 أَنَا مُلِحُ الْكَلَامِ، وَمِنْكَ الْخِتَامُ؛ لَا يَسْتَفْنِي عَنِّْي مُتَكَلِّمٌ، وَلَا يُلِيقُ جَهْلِي بِعَالِمٍ  
 وَلَا مُتَعَلِّمٌ، بِي تَقْدِيرِ أَحْوَالِ الْأَلْفَاظِ لِلرُّكْبَةِ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى الْمَقَاصِدِ، وَيَرْتَفِعُ اللَّبْسُ  
 عَنْ سَامِعِهَا فَيَرْجِعُ مِنْ فَهْمِهَا بِالضَّلَّةِ وَالسَّائِدِ؛ فَلَوْ أَنَّي الْمُتَكَلِّمُ فِي لَفْظِهِ بِأَجَلٍ مَعْنَى  
 وَلَكِنْ لَذَهَبَتْ حَلَاوَتُهُ، وَزَالَتْ طَلَاوَتُهُ، وَعِيبَ عَلَى قَائِلِهِ وَتَغَيَّرَتْ دِلَالَتُهُ. وَقَدْ كَانَتْ  
 الْخُلُقَامُ تَحْتَ عَلَى التَّحْوِ وَتُرْشَدُ إِلَيْهِ، وَتَحْذَرُ الْخَلْقَ وَتُعَاقِبُ عَلَيْهِ :

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَهَا \* فَاجْلِثْهَا حِينَئِذٍ مُقِيمُ الْأَلْسُنِ !

فَيَبْنَى هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَرَزَتْ عُلُومُ الْمَعَانِي وَالْيَبَانَ وَالْبَدِيعِ بِجَمَلِهِ، وَحَلَّتْ عَلَيْهِ  
 بِصِنْتِ الْعَزَمِ فِي اللَّفَاءِ بِجَمَلِهِ؛ وَقَالَتْ : جَبَّجَةُ رَحًا مِنْ خَيْرِ طَعْنٍ، وَتَصْوِيثُ  
 رَعْدٍ مِنْ خَيْرِ مُزْنٍ؛ لَقَدْ آتَيْتَ بِخَيْرِ مُعَرَّبٍ، وَأَعْرَبْتَ عَنْ لَيْنٍ لَيْسَ بِمُطْرَبٍ؛  
 الْحَقُّ أَبْلَجُ، وَالْبَاطِلُ أَلَحُّجُ؛ إِنْ الْقَوَزُ لَقَسَحْنَا، وَالْوَرَى لَقَسَحْنَا؛ نَحْنُ نُبُ  
 الْعَرِيَّةِ وَخُلَاصَتِهَا، وَالْمُعْتَرِفُ لَنَا بِالْفَضْلِ عَامَّتُهَا وَخَاصَّتُهَا؛ وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا شَيْءٌ  
 بَرَأَ عَلَيْكَ الْأَصْطِلَاحُ، وَسَاعَدَكَ الْأَسْتِمْلَاقُ فَاْمِنْتَ الْأَطْرَاحُ؛ فَلَوْ أَصْطَلَحَ عَلَى  
 نَصَبِ الْفَاعِلِ وَرَفَعَ الْمَفْعُولِ لَمْ يَخْلُ بِالتَّفَاهُمِ فِي الْمَقَاصِدِ، وَهَذَا كَلَامُ الْعَامَّةِ لِذَلِكَ أَقْوَمُ  
 دَلِيلٌ وَأَعْظَمُ شَاهِدٌ .

فَقَالَ عِلْمُ الشَّعْرِ : أَرَأَيْتُمْ قَدْ تَسَيَّمَتْ فَضْلِي الَّذِي بِهِ فَضَّلْتُمْ، وَصَرَّمْتُمْ حَبْلِي الَّذِي  
 مِنْ أَجْلِهِ وَصَلَّمْتُمْ؛ أَنَا حُجَّةُ الْأَدَبِ، وَدِيْوَانُ الْعَرَبِ؛ عَلَى تَرَدُّونَ، وَعَنَى تَصُدُّونَ؛

والى تَتَسَبَّحُونَ، وبى تَشْتَهَرُونَ، مع ما اشتملت عليه من المدح الذى كم رفع وضعاً، وجلب نفعاً، ووصل قطعاً، وجبر صدماء، والمجوز الذى كم حظ قدراً، واتخذ ذكراً، وجعل بين الرفيع والوضيع فى حيططة القدر تسباً وصبراً؛ الى غير ذلك من أنواع الشعرية التى شاع ذكرها، وأضوائى العظيمة التى فاح نشرها؛ بل لا يكاد علم من العلوم الأدبية يستغنى عن شواهدى، ولا يخرج فى أصوله عن قوانينى وقواعدى؛ حتى علم النثر الذى هو شقيقى فى النسب، وعديلى فى لسان العرب؛ لم يزل أهله يتفلقون على فى بيت يحلونه، ويقفون من بديع عحاسى عند حد لا يتعلمونه .

فقال علم القافية : إناك وإن تألق برقى مباسمك، وطابت أيام مواسمك؛ فانت موقوف على مقاصدى، ومُعْتَرِف من روى مواردى؛ أنا حدة الشاعر، وعمدة الناثر؛ لا يستغنى عنى شِعْر ولا خطاب، ولا يستنكف عن الوقوف على أبوابى ذو ترسل ولا كتابه؛ طالما حتر الفحول فى ميدانى، وتسبعت عليهم طرقي فضلاً السبيل وأختلقت عليهم المباني؛ فلم يفرقوا بين التكاوس والتراكب فى التعارف، ولم يميزوا بين التدارك والتواتر والتألف .

فقال علم العروض : لقد أسمعتم القول فى الدعوى من غير توجيه فدخل عليكم الدخيل، وأوقعكم الوصل دون تأسيس فى هوة النقص : فهل إلى خروج من سبيل؟ أنا معيار التريض وميزانه، وعلى ثبتي قواعده وأركانه؛ لم يزل الشعر فى علو رتبته بفضل معتزلاً ولىقى متحققاً، ومن بحورى معتزلاً، وبأسبابي متعلقاً؛ فأبائه بميزاني محوره، وأجزائه بقسطاس شعاعلى مقلته؛ وقواصل متصلة، وبأوتادى مترتبة غير متفصلة .

فقال علم الموسيقى : لقد أسرفت فى الاختصار فضلت الطريق ونبت عنها، وورطت نفسك فيما لا فائدة فيه فلمت دائرة لا تنفك عنها؛ وأيت من طول

الكلام بما لا طائل تحته فتقل قولاً، وجئت من بسيط القول بما لو اقتضت منه على المقارب لكان بك أولى؛ فانت بين ذى طبع وزان لا يحتاج إلى معيارك في نظم قريضه، وآخرت طبعه عن الوزن فلم ينفع من عليك بضربه ولا عروضه؛ فإذا لا فائدة فيك ولا حاجة إليك، ولا عبرة بك ولا مؤول عليك؛ وكفى بك هضماً، ونقيصةً وذمّاً؛ واستدلالاً على دحس حججك، وضعف أدليك؛ قول ابن حجاج:

مُسْتَعْلَنٌ فَاطِلُنْ فَعُول \* مَسَائِلُ كُلِّهَا فُضُول،

قد كان شعر الورى صحيحاً \* من قبل أن يخلق الخليل!

على أنه إن ثبتت لك فائدة، وطاد منك على الشعر أو الشعراء طائفة؛ فأنما تقاعيلك مقدمة لألحاني، وأوزانك وسيلة إلى أوزاني؛ نعم أنا غذاء الأرواح، وقاعدة عمود الأفراح؛ والمتكفل ببسط النفوس وقبضها، والقائم من تعديلها وتقويتها بنقلها وقربها؛ أحرّك النفس عن مبدئها فيحدث لها السرور وتظهر عنها الشجاعة والكرم، وأبعثها إلى مبدئها فيحدث لها الفكر في المواقب وتزايد الحُموم والتدم؛ فتارة أستمعل في الأفراح وزوال الكرب، وتارة في علاج المرضى وأخرى في ميادين الحروب؛ وآونة في محلّ الأحران واجتماع المآثم، ومرة يستعملني قوم في بيوت العبادات فأبشعهم على طلب الطاعات واجتناب المحارم؛ وآتي من غريب الألحان، بما يشع به الجائع ويروى به الظمان، ويأنس به المستوحش وينشط به الكسلان؛ وقدنوا لسامع السباع، ويعتول به بعد الشدة الشجاع.

مع ما يفتزع عني من علم الآلات الروحانية التي تمشي الأرواح، وتجلب الأفراح؛ وتبني الأبراج، وتؤثر في الخيال المباح، وتعمل في الأبواب ما لا تفعل في اللبّات بيض الصفاح.

فقال علم القلب : لقد أضعت الزمان في اللهو، وملت مع الأريحية فاس بك  
 العجب وزاد بك الزهو؛ وداخلك الطيش قنعت بالإطراب؛ وعجبت بمعرفة الفن  
 ففألك الإغراب ؛ تذكر العشاق أحوال النوى فيسلمها الهوى إلى الهوان ، وتنقل  
 في نواحي الإيقاع تنقل المسام قمعى في حجاز وتضيع في أصهبان ؛ وأنت وإن  
 أدعيت أنك العلم الروحاني ، والمستوى ببحورك الطبائع الأربع على النوع الإنساني  
 وغير الإنساني ؛ فانت غير مستغن عنى ، ولا فناء في الحقيقة منك عن قى ؛ بل  
 قواعلك مرتبة على قواعدى ، وفوائلك مستفادة من فوائدى ، وأهل صناعتك  
 يتطفلون في معرفة الملائم والمثاني على ساقط لباب موافدى ؛ وأنى تهبط بك الروح  
 مع وجود السقم ، أو يستريح إليك القلب مع شدة مقاساة الألم ؟ ؛ بل أنا قوام  
 الأبدان ، وغاية ملاك الإنسان ؛ بى تحفظ صحة الأجسام ، وتمكن النفس من  
 استكمال قوتها النظرية والعملية بواسطة زوال الأسقام وانتفاء الآلام ، مع ما يتضح  
 بالنظر في التفرع الذى هو أحد أنواعى من سر قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا  
 تُبْصِرُونَ ﴾ . وما يظهر من حال الصبحة والمرضى ومرو الموت من أنه تعالى بدأ الخلق  
 أول مرة وإليه يحشرون .

مع ما يلتحق بى من علم خواص العقاقير الغريبة ، والأحجار التى تؤثر بتزيينها  
 الصناعاتى التأثير العجيب ، وتأتى من نوادر الأعمال بالأعمال الغريبة ؛ على أنى لست  
 مختص فى الحقيقة ببدن الإنسان ، ولا قاصر على نوع من أنواع الحيوان ، وإنما  
 أفردت بنوع البشر اهتماماً بشأنه ، وتبينها على جلالة قدره وطو مكانه .

ثم ألتحق بالإنسان فى الأعتناء به الحيول فأشقق لها منى علم البيطره ، وتلاها  
 فى الأعتناء جوارح الطيور لأهتمام الملوك بشأنها فاستلظ لها من أجزائى علم اليزره ؛  
 وأهمل ما سوى ذلك من جنس الحيوان ، فلم يعن بأمره ولم يهتم له بشأن .

قال علم القافة : لقد ارتقيت مرتقى صعبا ، وولجت مولى صلبا ، وأتيت من مشكلات القضايا بما صاقت مطالبه ، وعرضت نفسك لمغالبة الموت والموت لا شيء يُنال به ، واقتصرت في تثير بحك الأعضاء على ذكر منافعها وصفاتها ، وأضربت عما تدل عليه بصورها وكيفياتها ، أين أنت من الحلق الأبن بالأب بالصفات المتماثلة ، والحكم بثبوت النسب بدلائل الأعضاء كما يحكم بالبينّة العادلة ؟ فهذه هي الفضيلة التي لا تُساوى ، والمثقة التي لا تُعادل ولا تُتأوى ، وكفالك لذلك شاهدا ، وعلى ثبوته في الشريعة المطهرة مساعدا ، وأنه لا يتصور ذلك معارضة ولا تقض ، استنشد النبي صلى الله عليه وسلم بقول مديح المدلحي : « إِنَّ هَذِهِ الْأَقْدَامَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » .

قال علم قص الأثر : نعم إن شئت لغير ، وإن اجتهدك لمصيب ، غير أنني أنا أغرب منك شأنا ، وأدق في الإدراك معنى ، إذ أنت إنما تلحق المحقق بالمشاهدة بمنه ، وتيسر قرعا على أصل ثم تلحق الفرع بأصله ، وأنا فأدرك المؤثر من الأثر ، وأستدل على الغائب بما يظهر من اللوائح في الرمل والمدر ، وربما ميزت أثر البعير الشارد من المرائع ، وفرقت بالنظر فيه بين الصحيح والظالم ، فأدركت من الأمر انخفي ما تدركه أنت من الظاهر ، وقضيت على الغائب بما تقضي به على الحاضر .

قال علم غضون الكف والحبّة : ما الذي أتيت به من الغريب ، أو أظهرته بعينك من العجيب ؟ فلو أطلبت بأرض ضلّية لوقفت أمامك ، أو عمت الريح معالي الأثر بلطت أعمالك ، أو ولى من هفتي أثره الماء فأت حدسك الصائب ، أو جعل المائى مقدم عليه مؤخره لقلت : إِنَّ النَّاهِبَ قَادِمٌ وَالْقَادِمُ ذَاهِبٌ ؛ لكن أنا كاشف الأسرار الخفية ، والمستدل على لوازم الإنسان بما رُكّب فيه من الدلائل الخفية ؛



أَسْتَخْرِجُ مِنْ أَسَارِيرِ الْجَبْهَةِ وَغُضُونِ الْكَفِّ أُمُورًا قَدْ أُرْسِدَتْ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَيْهَا ، وَجُعِلَتْ تِلْكَ الْعَلَامَةُ فِي الْإِنْسَانِ دِلَالَةً عَلَيْهَا .

فَقَالَ عِلْمُ الْكِتَفِ : إِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَسْتِدْلَالِ عَلَى الشَّيْءِ بِإِلَازِمِهِ أَمْرٌ مُسْتَتَرِبٌ ، وَلَا مَا يُقَالُ فِيهِ : هَذَا مِنْ ذَلِكَ أَنْجَبٌ ؛ وَإِنَّمَا الشَّانُ أَنْ يَقَعَ الْأَسْتِدْلَالُ عَلَى الشَّيْءِ بِمَا هُوَ أَجْنَبِيٌّ مِنْهُ ، وَخَارِجٌ عَنْهُ ، كَمَا أَسْتَدِلُّ أَنَا بِالْخَطُوطِ الْمَوْجُودَةِ فِي كَيْفِ الدَّلِيلَةِ عَلَى الْحَوَادِثِ الْغَرِيبَةِ ، وَالْأَسْرَارِ الْعَجِيبَةِ ، مِمَّا أَجْرَى اللَّهُ بِهِ الْعَادَةَ فِي ذَلِكَ ، وَجَعَلَهُ عِلَامَةً دَالَّةً عَلَى مَا هُنَاكَ .

فَقَالَ عِلْمُ خَطِّ الرَّمْلِ : لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَسْتَ بِمُحَقِّقٍ لِمَا أَنْتَ لَهُ مُتَوَسِّمٌ ، وَلَا وَائِقٍ بِالْإِصَابَةِ فِيمَا أَنْتَ تَتَرَجِّمُ ، وَغَايَتُكَ الْوُقُوفُ مَعَ التَّجَارِبِ ، وَالرَّجُوعُ فِيمَا تُحَاوِلُهُ إِلَى التَّقَارُبِ ؛ مَعَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّفْضِ وَالْإِهْمَالِ ، وَمَا رُمِيتَ بِهِ مِنَ الْقَطِيعَةِ وَقِلَّةِ الْأَسْتِمْعَالِ ؛ أَمَا أَنَا فَفَارِسٌ هَذَا الْمَيْدَانِ ، وَمَالِكٌ زِمَامِ هَذَا الشَّانِ ؛ فَكَمْ مِنْ تَصْمِيرٍ أَبْرَزْتُهُ ، وَأَمْرٍ خَفِيَ أَظْهَرْتُهُ ، وَمَكَانٍ عَيَّنْتُهُ فَوَافَقَ ، وَأَمِدٍ قَدَّرْتُهُ فَطَابَقَ ؛ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ أَصْلٌ تَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَلَا دَلِيلٌ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ؛ فَأَنَا أَثْبَتُ مِنْكَ قَوَاعِدَ ، وَأَوْضَحُ عِنْدَ الْإِعْتِبَارِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقَاصِدِ ؛ فَإِنْ مَدَوْتَ طَوْرَكَ ، أَوْ جُرَزْتَ فِي الْإِحْتِجَاجِ خَصْمَكَ ؛ فَقَدْ دَاكَ ، أَنَّهُ كَانَ نَبِيٌّ يَخْطُ فَمِنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَنَاكَ .

فَقَالَ عِلْمُ تَعْيِيرِ الرُّؤْيَا : إِنَّكَ وَإِنْ أَظْهَرْتَ السَّرَائِرَ ، وَأَبْرَزْتَ الضَّمَائِرَ ، فَإِنَّ أَمْرَكَ مَوْقُوفٌ فِي حَنْسِكَ عَلَى الدَّلَالَةِ الْحَالِيَةِ ، وَمَقْصُورٌ فِي تَحْمِينِكَ عَلَى الْأُمُورِ الْإِحْتِمَالِيَةِ ؛ أَيْنَ أَنْتَ مَنِّي حِينَ أُعَيِّرُ عَمَّا شَاهَدْتَهُ النَّفْسُ فِي النَّوْمِ مِنْ طَائِفِ الْغَيْبِ ؟ وَكَيْفَ أُكْشِفُ عَنْهُ الْعُجْبَ بِالتَّأْوِيلِ فَيَقَعُ كَقَلَقِ الصُّبْحِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ ؛ فَأَخْبِرْ بِحَوَادِثِ تَقَعُ فِي الْعَالَمِ قَبْلَ وَجُودِهَا ، وَآتِي مِنْ حَقَائِقِ النَّفَّارَةِ وَالْبَشَارَةِ بِمَا يُبَيِّنُهُ عَلَى التَّحْذِيرِ مِنْ تَحْوِسِهَا وَالتَّرَقُّبِ لِمَوَافَاتِ سَعُودِهَا .

فقال علم أحكام النجوم : حقيق ما أولت ، وصحيح ما عنه عبّرت وعليه  
عولت ؛ إلا أنك قاصر على وقائع خصوصية تُرشد إليها ، وأموار محدودة تُنبّه عليها ؛  
على أنه ربما نشأت الرؤيا عن فكرة وقعت في البقطة فاتصلت بالنام ، أو حدثت  
عن سوء مزاج أو رداءة مطعم ونحو ذلك فكانت أضغاث أحلام ؛ أما أنا فإني أدل  
بما أجراه الله تعالى من العادة ، على الحوادث العاتقة مصاحبا لمقتضيات الإرادة ؛  
ليظهر ما في الحكمة الإلهية من قضايا التدبير ، ويتبين ما أشتملت عليه الأفلاك  
العلوية من تقدير الترتيب وترتيب التقدير ؛ مع ما يترتب على ذلك من الأعمال  
العيانية ، والأحوال الغريبة ؛ التي تهر العقول ، ويمتنع إليها من غير طريق  
الوصول :

من علم السحر على الإطلاق ، وعلم الطلسمات الغريبة وعلم الأوقاف ،  
وكذلك علم التبرنجيات وعلم السيميا الآخذ بالأحداق .

فقال علم الهيئة : مالك ولأباطيل شمعها ، وأكاذيب ترنحرفها وترزقها ؛  
وأماويل يستلذها المتمدن فضيب ، وأقاويل تارة تُخطئ وتارة تصيب ؛ ولقد وردت  
الشريعة المطهرة بالنهي عن اعتبارك ، وجاءت السنة الفراء بنحو أخبارك وإغفاء  
آثارك ؛ ونأهيك بفساد هذا الاعتقاد ورد هذا المذهب ، ما ثبت في الصحيح من  
أنه من قال : مُطرنا بنوء كذا فهو كافر بالله مؤمن بالكوكب ؛ على أنك في الحقيقة  
نوع من أنواع ، معدود من جندي ومحسوب من أتباعي ؛ نعم أنا القائم من دليل  
الاعتبار في القدرة بنام القرض ، والقائد بزمام العقل إلى التفكر في خلق السموات  
والأرض ؛ حتى يتفرع علم الزيجات والتقاويم الذي به يُعرف موضع كل واحد  
من الكواكب السائرة ومدة إقامتها ، وزمن تثيرتها وتغيرها ويقدر رجوعها

وَأَسْتَقَامَتَهَا؛ وحال ظهورها وأخفائها في كلِّ زمان، وما يَتَّصِلُ بذلك من الاتِّصَالِ  
والانْفِصَالِ والخُسُوفِ والكُسُوفِ واختصاص ذلك بمكانٍ دونَ مكانٍ .

فقال علم كَيْفِيَّةِ الْأَرْصَادِ : ما علمُ الزَّيْمَاتِ والتَّقاوِيمِ الذي تُقَدِّمُهُ في الدَّكْرِ على،  
وَتُؤَخِّرُهُ من الفضل بما لَدَى؛ إذ بي تُتَعَرَّفُ كَيْفِيَّةُ تحصيل مقادير الحركات الفلكية،  
والتَّوَصُّلُ إليها بالآلات الرِّصْدِيَّة؛ التي عليها يَرْتَبِ علمُ الزَّيْمَاتِ، ويَعْرِفُ في التَّقْوِيمِ  
الانْتِصَالَاتِ والانْفِصَالَاتِ والامْتِزَاجَاتِ .

مع ما يَلْتَحِقُ بي من علمِ الكُرَّةِ الذي منه تُعَرَّفُ كَيْفِيَّةُ اتِّخَاذِ الآلاتِ الشَّماعِيَّةِ،  
ويَتَوَصَّلُ به إلى استِخْراجِ المَطَالِبِ الفلكِيَّةِ .

فقال علم المَوَاقِيتِ : كيف وأنا مَبْدِ عُلُومِ الهَيْئَةِ وزَيْجِهَا، وشَرْفُهَا في الشَّرِيعَةِ  
وَكَرِيمُهَا؛ بي تُعَرَّفُ أَوْقَاتُ العِبَادَاتِ، وتُسْتَخْرَجُ جِهَةُ القِبْلَةِ بل سائر الجِهَاتِ؛  
وتُعَلَّمُ أحوالُ البُلْدَانِ ومَحَلُّهَا من المَعْمُورِ في الطُّولِ والعَرْضِ، ومَقَادِيرُ أبعادها  
وأَشْرَافُ بَعْضِهَا عن بَعْضٍ؛ مع ما يَتَخَرِّطُ في هَذَا السَّلَكِ من معرفة السَّمُوتِ  
وَأَرْتِفَاعِ الكَوَاكِبِ، ومطالعها من أَجْزَاءِ البُرُوجِ والطَّالِعِ منها والغَارِبِ؛ وغير ذلك  
من الشَّمَاعَاتِ المُخَرَّطَةِ، والظُّلالِ القَائِمَةِ والمَبْسُوطَةِ؛ إلى غير ذلك مما يَلْتَحِقُ بي،  
ويُنْسَبُ إلى ويتعلَّقُ بِسَبْبي :

من علم الآلاتِ الظِّلِّيَّةِ التي تُعَرَّفُ بها ساعاتُ النهار، ويَظْهَرُ منها الماضي  
والباقى بأقرب مُلْتَمِسٍ وألطفِ آخِيارٍ، من نحو الرُّخَامَاتِ القَائِمَاتِ، والمَبْسُوطَاتِ  
منها والمَسَائِلَاتِ .

فقال علم الهندَسَةِ : إن فَضْلَكَ لَمَشْهُورٌ، ومَقَامَكَ في الشَّرَفِ غيرُ مَنْكُورٍ، إلا أن  
الآتِيكَ بي مُقَدَّرُهُ، وأشْكَالَكَ بأَوْضَاعٍ مُحَرَّرُهُ؛ فانا إِمَامُكَ الذي به يَهْتَدَى، وتَجَلَّى

الذى به تهتدى ؛ بل جميع علوم الهيئة فى الحقيقة موقوفة على ، وزاجعة فى قواعدها إلى ؛ لولاى لم يعرف السطح والكوة ، ولم يميز بين الخطوط والقسي والوائز المقدره ؛ مع ما ينشأ عنى ، ويستعمل من صحاى وفتهس منى ؛ من أحوال المقادير ولواحقها ، ومعرفة ظواهرها الواضحة ودقائقها ؛ وأوضاع بعضها عند بعض ونسبها ، وخواص أشكالها والطرق إلى عمل ما سيبله أن يعمل لها ، واستخراج ما يحتاج إلى استخراجه بالبراهين البقية القاطعة ، وإظهارها إلى الحس بالأشكال البينة والحدود الجامعة المانعة .

فقال علم عقود الأبنية : نعم ، إلا أنى أنا أجل مقاصدك ، وأغلب مواردك ؛ وفور حيوتك ، وعروض فتوتك ؛ منى يستفاد بناء الحصون والأسوار ، ويتعرف شق الأبنية وحفر الأنهار ، وعمارة المدن وعقد القواصر ، وسد البثوق وبناء القناطر ، وتضييد المساكن ووضع المنازل ، ونصب الأتجار وترتيب الرياض ذوات الخائل .

فقال علم بحر الأثقال : صدقت ولكنى أنا أساس مبانيك وقاعدة سنادك ، وحامل أعمالك وعمود أعتلاك ؛ بى تعرف كيفية قل الثقل العظيم بالقوة اليسيرة ، حتى تنقل مائة ألف رطل بقوة خمسمائة وذلك من الأسرار النفيسة والأعمال الخفية .

فقال علم مراى الأثقال : إلا أنك محتاج إلى فى أعمالك ، ومتوقف على فى جميع أحوالك ؛ من حيث استخراج مراى الأجسام المعمولة ، وبيان معادلة الجسم العظيم بما هو دونه لتوسط المسافة بالآلات المعمولة .

فقال علم المساحة : أراك قد غفلت عن معرفة المقادير والمسافات التى هى مقدمة عليك فى وضع المباني ، ومتفرقة عنك بكثير من المعانى ؛ من آراء الخراج والزراعات ،

وتقدير الراسين والبياعات ، وكيفية نزع المثلثات ، والمزبقات ، والمُدورات ،  
والمُسْطيلات ، وغير ذلك من دقائق الأعمال ، وإدراك كليات المقادير على التفصيل  
والإجمال .

فقال علم الفلاحة : فلما قد أعرفت أنك من جملة لواحقي ، مندرج في حقوق  
وداخل تحت مراقي ، فانا في الحقيقة المقصود منك في الوضع بالقياس ، والمُتحد  
بك دون غيره من غير آلباس ؛ مع ما انا عليه من معرفة كيفية تدبير النبات من بدء  
كونه الى تمام تدبيره ، وتسمية الحبوب والثمار بإصلاح الأرض وما تحللها  
من المعفونات كالسماد وغيره وما أيديه من اللطائف في إيجاد بعض الفواكه في غير  
قصبه ، وتركيب بعض الاثمار على بعض واستخراج بعضها من غير أصله .

فقال علم انبساط المياه : الا اني انا بدائي عملي ، وغاية منتهى املي ؛ لا يتم لك  
امر يدوني ، ولا تثبت لك خضرأ ما لم تُسقى من ينارى وعيوني ؛ فانا الكفيل  
بإحياء الأرض الميتة وإفلاجها ، والقائم بتلطيف مزاجها وإصلاحها .

فقال علم المناظر : ما الذى تجدى أنت وطرقي عنك مررت ، وتظري إليك غير  
ممتد ؛ وانى تستطيع مياهك الترقى من الأغوار الى الصعود ، وتنتقل صيوتك وأنبارك  
بين المهبوط والصعود ؛ انا لم أكن لك ملاحظا ، وعلى الاعتناء بأمرك محافظا ؛  
مع ما أشتمل عليه غير ذلك من تحقيق المنصيرات في القرب والبعد على اختلاف معانيها ،  
وما يغلط فيه البصر كالاثجار القائمة على سُكوط المياه حيث ترى وأسافلها أعاليها .

فقال علم المرايا المحرقة : إنك وإن دقت النظر ، وحقت كل ما وقع عليه  
حاسة البصر ؛ فانا مقصودك الأعظم ، ومهمك المقدم ؛ طالما أحرقت الفلّاح

(١) ذكرني لسان العرب أن المرأة جمعها مرا ، كراخ وان العوام يقولون في جمعها : مراها .

بُشَمَاعِي، وَحَصَّنَتِ الْجِيُوشَ بِدِفَاعِي، وَقَتَّ بِمَا لَمْ يَهْمُ بِهِ الْجَيْشُ الْعَرَضَ وَمُتَعَرِّضَ الْعَسْكَرِ  
الْجُزْأَ، وَأَغْنَيْتُ مَعَ أَفْرَادِي عَنْ كَثْرَةِ الْأَعْوَانِ وَمُعَاوَضَةِ الْأَنْصَارِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْآلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ : وَإِنْ حَذَّكَ لَكَلِيلٌ، وَإِنْ جَدَّكَ لَقَلِيلٌ، وَإِنْ  
الْمُسْتَنْصِرُ بِكَ لِلذَّلِيلِ؛ وَمَاذَا عَسَى أَنْ يَصِلَ فِي الْإِحْرَاقِ إِلَيْهِ، أَوْ تُسَلِّطَ فِي الْحُرُوبِ عَلَيْهِ؟  
أَنَا بَاعُ الْحَرْبِ الْمَلِيدِ، وَالْمُحَصَّنُ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَالتَّائِي بِلسَانِ الصَّدْقِ عَلَى  
الْأَعْدَاءِ : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيهِ الْبَاطِلُ وَمَا يُبِيدُ ﴾ . فَاذَا تَقَسَّ الْمَقْصُودُ وَعَيْنُ  
الْمُرَادِ، وَعُمُودُ الْحَقِّ وَقَاعِدَةُ الْجِهَادِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْكِيمِيَا : مَا أَنْتَ وَالْقِتَالُ، وَمُوَاقَعَةُ الْحُرُوبِ وَقَوَارِعُ النَّزَالِ؛ وَهَلْ  
أَنْتَ إِلَّا آلَةٌ مِنَ الْآلَاتِ، لَا تَسْتَقِلُّ بِنَفْسِكَ فِي حَالَةٍ مِنَ الْحَالَاتِ؛ وَأَيُّ يَنْفِي  
السَّلَاحَ عَنْ آجِلَانٍ مَعَ خَوَرِ الطَّلَاعِ، أَوْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَطْلُ الصَّنِيدُ وَالْمُجَرَّبُ الشَّجَاعُ؛  
فَالْعَبْرَةُ بِالْمُقَاتِلِ، لَا بِاللَّوَايِلِ؛ وَالْعُمْدَةُ عَلَى الرَّحَالِ، لَا بِبُيُورِقِ السُّيُوفِ عِنْدَ النَّزَالِ؛  
وَبِكُلِّ حَالٍ فَالْعُمْدَةُ فِي الْحُرُوبِ وَجَمْعُ الْعَسَاكِرِ عَلَى التَّقْدِيرِ دُونَ مَامَعْدَاهَا،  
وَالْإِسْتِنَادُ إِلَى اللَّحَبِ وَالْفِطْصَةِ بِخِلَافِ مَاسَوَاهِمَا؛ وَإِلَى هَذَا الْحَدِيثِ يُسَاقُ وَعَلَى  
فِيهِ يُعْتَمَدُ، وَعَنَى يُؤْخَذُ وَإِلَى فِي مَثَلِهِ يُسْتَنْدُ، أَحَاوِلْ بِمُحْسِنِ التَّدْبِيرِ، مَا طَبَخَتْهُ  
الطَّبِيعَةُ عَلَى ثَمَرِ الدَّهْرِ؛ فَاتِي بِمَثَلِهِ فِي الزَّمَنِ الْقَرِيبِ، وَأُجَانِسُ بَيْنَ الْمَعَادِنِ فِي مُمَارَجَتِهَا  
فَيُظْهِرُ عَنْهَا كُلَّ مَعْنَى غَرِيبٍ؛ وَأَبْرَزُ مِنْ جِصَاصِ الْإِكْسِيرِ مَا يَقْلِبُ الْمَرِيخَ قَرَأَ  
مِنْ فِرْتَنَسٍ، وَيُجِيلُ الزُّهْرَةَ شَمْسًا وَأَهْلِكَ بِإِحَالَةِ الزُّهْرَةِ إِلَى الشَّمْسِ؛ فَصَاحِبِي  
أَبَدًا عَزِيزُ الْمَنَالِ، شَرِيفُ النَّفْسِ عَنِ الطَّلَبِ خَفِيفُ اللِّسَانِ عَنِ السُّؤَالِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْحِسَابِ الْمُفْتَوِّحِ : إِنَّكَ وَإِنْ دَقَقْتَ عَنَّا، وَجَلَّيْتَ غَنَى؛ فَاُمَّا لَكَ  
الْجَمَّةُ، وَحَوَاصِلُ الضَّمْحَةِ؛ عَمَّا جَاءَ إِلَى حُسَابِي، غَيْرَ غَنِيَّةٍ عَنِ كُنْهِي؛ أَنَا جَامِعُ

الأموال وضابط أصولها ، والمتكفل يحفظ بجلتها وتفصيلها ؛ مع احتياج كثير من العلوم إلى في الضرب والقسمة والإسقاط .

قد أخذت من علم الارتعاطيق الذي هو أصل علوم الحساب يحوانيه ، وتعلقت منه بأسهل طرقه وأقرب مذاهبه ؛ ونأهيك بشرف قدرى ، ورفعة ذكوى ؛ قول أبي محمد الحريري في بعض مقاماته ، منها على شرف قلبي وسني حالاته : « ولولا قلم الحساب لأودت ثمرة الأكساب ، ولأنفصل الثغاب إلى يوم الحساب » .

فقال علم حساب التخت والميل : مه ! ما أنت إلا علم العامة في الأسواق ، تدور بين الكافة على العموم وتتداول بينهم على الإطلاق ؛ تكاد أن تكون يديها حتى للأطفال ، وضروياً للنساء والعبيد في جميع الأحوال ؛ يتسع عليك مجال الضرب فقصر عنه همتك المقصرة ، وتقتضب عليك ممالك القسمة فتأق بها على التقريب غير محروبه ؛ أين أنت من سعة باعى ، وأمتداد ذراعى ، وتحرير أوضاعى ؟ لا يتمد أهل الميتة في مساحة الأفلاك والكواكب فيرحلقن أمورى ، ولا يمولون فيها - على سعة فضائها - إلا على محلى وكسورى .

فقال علم حساب الخطأين : مالي ولعلم لا يوصل إلى المقصود إلا بعد عمل طويل ؛ ويحتاج صاحبه مع زيادة المتأ إلى استصحاب تخت وميل ، وقد قيل : كل علم لا يدخل مع صاحبه الجمم جفناه قاصر وقعه قليل ؛ على أن غيرك يساركك فيها أنت فيه ، ويوصل إلى مقصودك بطرق لا يدخله القلق ولا يعتريه ؛ وإنما الشأن في استكشاف غامض أو إظهار غريب ، ولا أعجب من أن يصب إخراج الجهول من الأعداد بخطأين فيقال : أتى بخطأين وهو مضيب .

فقال علم الجبر والمقابلة : حسبك فإِنَّمَا أَنْتَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولَاتِ كَنُقْطَةٍ مِنْ قَطْرٍ ، أَوْ ثِقْبَةٍ مِنْ بَحْرٍ ؛ فَتَقْتَصِرُ مِنْهَا بِطَرُقِكَ الْقَاصِرَةِ وَأَعْمَالِكَ النَّازِكَةِ ، عَلَى مَا امْكُنْ صِدْقُورَتِهِ مِنَ الْعَدَدِ فِي أَرْبَعَةِ أَعْدَادٍ مُتَنَاسِبَةٍ ؛ نَعَمْ أَنَا أَبُو عُدْرَتِهَا ، وَأَبْنُ يَجْدَتِهَا ، وَأَخُو تَجْدَتِهَا ؛ اسْتَخْرِجْ جَمِيعَ الْمَجْهُولَاتِ ، مِنْ مَسَائِلِ الْمَعَامَلَاتِ ، وَالْوَصَايَا وَالتَّرِكَاتِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي هَذَا الْجَرَى ، وَيَنْحُو هَذَا النُّحُو وَيَسْرَى هَذَا الْمَسْرَى ؛ مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ الْأُمُوالِ وَالْخُنُورِ ، وَالْأَعْدَادِ الْمُطْلَقَةِ مِنَ الصَّحَاحِ وَالْكُسُورِ .

فقال علم حساب الدرهم والدينار : مَالِكَ وَلِإِنْعَاءِ التَّعْمِيمِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولَاتِ وَكَشْفِ الْغَوَامِضِ ؟ وَإِنَّمَا أَنْتَ قَاصِرٌ عَلَى اسْتِعْلَامِ الْمَجْهُولَاتِ الْعَدَدِيَّةِ الْمَعْلُومَةِ الْغَوَارِضِ ؛ دُونَ مَا تَزِيدُ عِدَّتُهُ عَلَى الْمَعَادِلَاتِ الْجَبْرِيَّةِ ، فَقَدْ فَاتَكَ حَيْثُ يَذِ الدَّعَاوِي الْخَصِيرَةِ ؛ لِكَيْنِي أَنَا كَاشِفٌ هَذِهِ الْحَقَائِقِ ، وَمُبَيِّنٌ سُبُلَهَا بِالْأَطْفِ الطَّرَاقِ ؛ فَمَنْ إِلَيْهَا يُتَوَصَّلُ ، وَعَلَى قَوَاعِدِي لَاسْتِخْرَاجِ مَقَاصِلِهَا يُجَلُّ وَيُقْصَلُ .

فقال علم حساب الدَّوَرِ وَالْوَصَايَا : إِنَّ اسْتِخْرَاجَ الْمَجْهُولَاتِ وَإِنْ عَظُمَ نَفْعُهَا ، وَحَسُنَ وَضْعُهَا ؛ فَإِنَّا أَعْظَمُ مِنْهُ فَائِدَةً ، وَأَجَلُّ مِنْهُ طَائِفَةً ؛ أَيْنَ مِقْدَارُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَدْوَرِ مِنَ الْوَصَايَا ، حَتَّى يَتَضَحَّ لِمَنْ يَتَأَمَّلُ ، وَأَقْطَعُ الدَّوَرُ قَعْمُودَ الْمَسْأَلَةِ مِنْ أَظْهَرِ الْقَضَايَا ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَدَارَ أَوْ تَسْلَسَلَ .

فقال علم الفقه : وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا نُبْدَةٌ مِنَ الْوَصَايَا الَّتِي هِيَ بَارِقَةٌ مِنْ بَوَارِقِ ، تَتَعَلَّقُ بِأَطْنَابِي وَتَدْخُلُ تَحْتَ مُرَادِقِي ؛ فِي تَحْمِيذِ مَعَالِمِ الْأَحْكَامِ ، وَبَيِّنِ الْوَأَجِبِ وَالْمُنْتَدِبِ وَالْمُبَاحِ وَالْمَكْرُوهِ وَالْحَرَامِ ؛ وَيُتَعَرَّفُ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ الْعِبَادَاتِ ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الضَّرَوْرَاتِ



وَتَجَرَّى بِهِ الْعَادَاتُ ؛ فَإِنَّا إِمَامُ الْعُلُومِ الَّذِي بِهِ يُقْتَدَى ، وَعَمِيدُهَا الَّذِي عَلَيْهِ يُعْتَمَدُ  
وَتَجَمُّعُهَا الَّذِي بِهِ يُهْتَدَى ؛ فَلَوْلَا إِرْشَادِي لَفَضَّلَ سَعَى الْمُكَلَّفِينَ ، وَلَافَسُوا فِي دِيْمَاءِ  
مُدْهِمَةٍ فَأَصْبَحُوا عَنْ رِكَائِبِ الْخَيْرِ مُحْتَفِينَ .

وَأَمَّا هَيْكَ أَنْ مِنْ جُمْلَةِ أَفْرَادِي ، وَآخِذِ اعْتِدَادِي : -

علم الفرائض الذي حَصَّ الشارع على تَعْلِيهِ وتَعْلِيمِهِ ، وأخبر بأنه نَصَفُ الْعِلْمِ  
مُنْبَهًا عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِهِ وَتَعْخِيمِهِ ؛ وَبِالْعَمَلِ فِي إِثْبَاتِ قَوَاعِيدِهِ وَإِحْكَامِ أَسْأَلِهِ ، قَالَ :  
« إِنَّا اللَّهُ لَمْ يَكُنْ قِسْمَةٌ مَوَارِيثُكُمْ لِي مَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ بَلْ تَوَلَّاهَا  
فَقَسَمَهَا بِنَفْسِهِ » .

فَقَالَ عِلْمُ أَصُولِ الْفِقْهِ : إِنَّ مَقَالَكَ لَعَالٍ ، وَإِنْ جِئَكَ لِحَالٍ ؛ غَيْرَ أَنِّي أَنَا  
الْمُتَكَفِّلُ بِتَقْرِيرِ أَصُولِكَ ، وَتَوْجِيهِ الْمَسَائِلِ الْوَاقِعَةِ فِي خِلَالِ أَبْوَابِكَ وَقُصُوبِكَ ؛  
بِي تُعْرَفُ مَطَالِبُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ وَطُرُقُ اسْتِنْبَاطِهَا ، وَمَوَادُّ مُجْجِجِهَا  
وَأَسْتِخْرَاجِهَا بِدَقِيقِ النَّظَرِ وَتَحْقِيقِ مَنَاطِلِهَا ؛ فَبِأَصُولِي قُرُوءُكَ مَقَرَّرَةٌ ، وَبِمَجَاسِينِ  
أَسْتِدْلَالِي مُجْجَبُكَ مُنْتَحَةٌ مُحَرَّرَةٌ ؛ قَدْ مَهَلَتْ طُرُقُكَ حَتَّى زَالَ عَنْهَا الْإِلْبَاسُ ، وَبَنِيَتْ  
عَلَى أَعْظَمِ الْأَصُولِ قُرُوءُكَ فَاسْتَنْدَتْهَا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْجَدَلِ : قَدْ حَلَمْتَ أَنَّ الدَّلِيلَ لَا يَقُومُ بِرَأْسِهِ ، وَلَا يَسْتَقِيلُ بِنَفْسِهِ ؛  
بَلْ لَا بُدَّ فِي تَقْرِيرِهِ مِنَ النَّظَرِ فِي مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ الْأَسْتِدْلَالِ ، وَالطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى  
الْمَطْلُوبِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ ؛ وَأَنَا الْمُتَكَفِّلُ بِذَلِكَ ، وَالْمَوْصِلُ بِكَشْفِ حَقَائِقِ  
الْبَحْثِ إِلَى هَذِهِ الْمَسَارِكِ ؛ بِي تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ تَقْرِيرِ الْمَجْمُوعِ الشَّرْعِيِّ ، وَقَوَاعِدُ  
الْأَدِلَّةِ وَتَرْتِيبُ التَّنَكُّتِ الْخِلَافِيِّهِ ؛ فَمَوْضُوعُكَ عَلَى تَحْوِيلِ ، وَنَظَرُكَ إِلَى نَظَرِي بِكُلِّ  
حَالٍ مُوَكَّلٍ .

فقال علم المتطوق : خَفَضَ عَلَيْكَ ! فَهَلْ أَنْتَ إِلَّا نَوْعٌ مِنْ قِيَاسَاتِي الْمُنَاطِقِيَّةِ  
أَفَرَدْتَ بِالْمُصَنِّفِ ، وَخَصِمَصْتَ بِالْمُبَاحِثِ الدِّينِيَّةِ فَخَالَطْتَ أَصُولَ الْفِقْهِ فِي التَّأْلِيفِ ؟  
فَأَنْتَ إِذَا فَرَدْتَ مِنْ أَفْرَادِي ، وَوَاحِدٌ مِنْ أَعْدَائِي ؛ مَعَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ سِوَاكَ مِنْ  
الْقِيَاسَاتِ الْبُرْهَانِيَّةِ الْقَاطِعَةِ فِي الْمُنَاطِرَاتِ ، وَالْقِيَاسَاتِ الْخَطَّابِيَّةِ وَالْبَلَاغَاتِ النَّافِعَةِ  
فِي غَضَابَاتِ الْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ الْمُخَاصَمَاتِ وَالْمَسَاوِرَاتِ ؛ وَكَذَلِكَ حَالُ الْقِيَاسَاتِ  
الشَّعْرِيَّةِ ، وَكَيْفَ يُسْتَعْمَلُ التَّشْبِيهِ الْمُقِيدُ لِلتَّخْيِيلِ الْمُوجِبِ لِلأَفْعَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ ؛  
كَالْإِغْرَاءِ وَالتَّحْذِيرِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّوْهِيبِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّخْفِيرِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ  
الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي الْمَقْرَدَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ عَامَّةٌ كُلُّهَا ، وَتَرْكِيبِ الْمَعَانِي الْمَقْرَدَةِ بِالنِّسْبَةِ  
إِلَى الْإِيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ ؛ تَعْيِيمُ مَرَامَاتِي الْفِكْرِ عَنْ الْخَطَا فَمَا يَزِلُّ ، وَتَهْدِيهِ سِوَا السَّبِيلِ  
فَمَا يَجِدُّ عَنْ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَلَا يَضِلُّ ، وَأَسِيرِي فِي جَمِيعِ الْمَقُولَاتِ فَأَتَصَرَّفُ فِيهَا  
يَتَّقُ مِنْهَا وَيَجِلُّ .

فقال علم دَارِيَةِ الْحَدِيثِ : قَدْ عَلِمْتَ بِمَا تَبَيَّنَتْ بِهِ الْأَدِلَّةُ بِالتَّلْوِيحِ وَالنَّصْرِ بَحْجِ ،  
أَنَّهُ لَا جَهْلَ لِلْعَقْلِ فِي تَحْسِينِ وَلَا تَقْبِيحِ ؛ وَحَيْثُكَذَا فَلَا بُدَّ مِنْ نَصِّ شَرْعِيٍّ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ،  
وَتُسْتَنْدُ فِي مُقَدِّمَاتِكَ إِلَيْهِ ؛ وَلَا أَقْوَى حُجَّةً ، وَأَوْضَحَ حُجَّةً ؛ مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، الَّذِي لَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَى إِذَا تَكَلَّمَ ؛ فَإِذَا اسْتَنْدَتَ إِلَى نُصُوصِهِ ،  
وَأَعْتَمَدْتَ عَلَيْهِ فِي عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ ؛ قَدْ حَسَنَ مِنْكَ الْمُقَدِّمُ وَالتَّالِي ، وَكَانَتْ  
مُقَدِّمَاتُكَ فِي الْبَحْثِ أَمْضَى مِنَ الْمُرْهَفَاتِ وَتَبَاطُجِكَ أَنْفَعُ مِنَ الْعَوَالِي ؛ وَقَدْ تَحَقَّقَتْ  
أَنْتَ إِمَامُ هَذَا الْمَقَامِ ، وَمَالِكُ قِيَادِ هَذَا الزَّمَانِ .

فقال علم رِوَايَةِ الْحَدِيثِ : لَقَدْ ذَكَرْتَ مِنَ الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ بِمَا لَا طَنْ  
فِيهِ لِمُرِيبٍ ، وَتَعَلَّقْتَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ بِأَوْثَقِ سَبَبٍ فَأَتَيْتَ بِكُلِّ لَفْظٍ حَسَنٍ وَمَعْنَى

غريب ؛ إلا أن الدراية ، موقوفة على الرواية ؛ وكيف يقع نظر الناظر في حديث قبل  
وُصُوله إليه ، أو يتأتى العلم بمعناه قبل الوقوف عليه ؟ ؛ وهل يثبت فرع على غير أصل  
في مقتضى القياس ، أو يُرقى من غير سلم أو يُبنى على غير أساس ؟ ؛ فكل الحديث  
تقديم العلم بالرواية بشرطها ، ومعرفة أقواله صلى الله عليه وسلم بالسمع المتصل  
وتحريرها وضبطها .

فقال علم التفسير : قد تبين لدى العلماء بالشريعة أن حكم الكتاب والسنة  
واحد ، وإن اختلفت في الأسماء فلم تختلف في المقاصد ؛ إلا أنها وإن اختلفا  
في الدلالة والإرشاد ، فقد اختلفت في النقل بالتواتر وجاء أكثر السنة بالأحاد .

فقال علم القراءات : إلا أنه لا ينبغي للقصر أن يقدم على التفسير ما لم يكن  
بقراءة السج والشاذ حلياً ، وبلغتها عارفاً والنظر في معانيها ملازماً ؛ مع ما يتحقق  
بذلك من علم قوانين القراءة المتعلق من المصاحف بخطها ، والأشكال والعلامات  
المتكفلة بتحريرها وضبطها .

فقال علم النواميس : ( وهو العلم بمتعلقات النبوة ) : إنك لفرع من فروع  
الكتاب المبين ، وما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين ؛ وإلى النظر  
في أحوال النبوة وحقيقتها ، وميسيس الحاجة إليها في بيان الشريعة وطريقاتها ؛ والفرق  
بين النبوة الحققة ، والدعوى الباطلة غير المحققة ؛ ومعرفة المعجزات المختصة بالأنبياء  
والرسل عليهم السلام ، والكرامات الصادرة عن الصديقين الأبرار والأولياء الكرام ؛  
فإن المقدم على سائر العلوم الشرعية ، وإمام الأصلية منها والقرعية .

فقال علم الإلهي : لقد تحققت أن اللازم الحتم ، والواجب تقديمه على كل  
مقدم ، العلم بمعرفة الله تعالى والطريق الموصل إليها ، وإثبات صفاته المقنسة

وما يجب لها ويستحيل عليها؛ وأنه الواجب الوجود لذاته، وبإثبات الرسل لإقامة الحجّة على خلقه بحكم آياته؛ وأنا الزعيم بإقامة الأدلة على ذلك من العقول والمنقول، والمنكفل بتصحيح مقدمات البرهانية بتحرير المقدم والثاني والموضوع والمحمول .

فقال علم أصول الدين : حيث قد فُزْتُ من جميعكم بالشرقيين ، وجميع لي منكم الفضل بطريقه فيصرت بكم معلّم الطرفين ؛ وميزت بين صحيح الاعتقاد وقاسده فكان لي منهما أحسن الاختيارين ، وبينت طريق الحق لسالكها فكنت سبباً للفوز والنجاة في الدارين ؛ فانا المقصود للإنسان بالذات في كمال ذاته ، وكلّ علم يستمدّ مني في مبادئه ويفتقر إلى في مقدماته .

فقال علم التصوّف : لو كشف النطاء ما أزددت هيناً ، إذ كان كلّ أمرئ بما عمل مجازي وبما كسب رهيناً ؛ إنه يجب على كلّ من كان بمعتقد الحقّ جازماً ، أن يكون عن دار الغرور متجافياً ولاعمال البرملازماً ؛ فأنما الدنيا مزرعة للآخرة ، إن حصلت النجاة فعليك التجارة الرابحة وإن كانت الأخرى فذلك إذا ذكره خاسره ؛ فمن لزم طريقتي في الإعراض عن الدنيا والزهد فيها سلم ، ومن أقتر بزهرها القاني فقد خاب في القيامة وندم .

فلما كثرت الدعاوى والمعارضات ، وتتابعت الحجج والمناقضات ؛ نهض علم السياسة قائماً ، وقصد حسم مادة الجدال وطالب ؛ وقال : أنا جديها المحكك وعديها المرجب ، وسأنسها الكافي وحاكمها المهذب ؛ لقد ذكر كلّ منكم من فضله ما يشوق السامع ، وأظهر من جليل قدره ما ستقطع دونه المطامع ، وأتى من واضح كلامه بما لا يحتاج في إثباته إلى دليل ظني ولا برهان قاطع ؛ غير أنه لا يليق بالمنصف أن يخطئ قدره المحدود ولا يتعدى جزئه المقسوم ، ولكلّ أحد حدّ يقف عنده

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ؛ فَلَوْ سَلَكَ كُلُّ مَنكُم سَبِيلَ الْمَحْدَلَةِ ، وَأَضْفَ مِنْ نَفْسِهِ فَوَقَفَ عِنْدَ مَا حَدَّ لَهُ ؛ لَكَانَ بِهِ أَلْقَى ، وَلِمَقَامِ الْعِلْمِ أَرْفَقُ .

فَقَالَ عِلْمُ تَدْيِيرِ الْمَنْزِلِ : لَقَدْ تَحَرَّيْتُ الصُّوَابَ ، وَنَطَقْتُ بِالْحِكْمَةِ وَفَضَّلْتُ الْخِطَابَ ؛ لِكَيْتَهُ لَا يُدَّ لَكُمْ مِنْ حَبِيرِ طَلَمٍ ، وَإِمَامٍ حَاكِمٍ ؛ يَكُونُ لَكُمْ جَامِعًا ، وَلِمَوَاقِعِ الشُّكِّ فِي حِلِّ التَّفَاضُلِ بَيْنَكُمْ رَافِعًا ؛ يُحِيطُ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِمَقْصُودِهِ وَمُرَادِهِ ، حَارِفٌ بِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مَبَادِيهِ مِنْ حَلِّهِ وَمَوْضُوعِهِ وَقَائِدِهِ وَأَسْتِمْدَادِهِ ؛ لِيُبلِّغَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ مُنْتَهَاهُ ، وَيَقِفَ بِهِ مِنَ الشَّرَفِ عِنْدَ حَدِّ لَا يَتَعَدَاهُ ؛ فَلَا يَدَّعِي مُدْجِعَ بَنِيهِ مُسْتَحَقٌّ ، وَلَا يَطَالِبُ طَالِبٌ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ ؛ إِلَّا أَنَّ الْحَمِيضَ بِكُلِّكُمْ مَعًا ، وَالْقَائِمَ بِجَمِيعِكُمْ قَهْمًا ؛ أَعَزُّ مِنَ الْجَوْهَرِ الْقَرْدِ وَالْكَبَرِيَةِ الْأَحْمَرِ ، وَأَقْلُّ وَجُودًا مِنْ بَيْضِ الْأَثَوِقِ بَلْ يَبْضُ الْأَثَوِقُ فِي الْوُجْدَانِ أَكْثَرَ .

فَقَالَ عِلْمُ الْفِرَاسَةِ : عَلَى الْخَلِيرِ سَقَطَتْ ، وَبَابُنِ يَحْتَسِبُهَا حَطَطَتْ ؛ أَنَا بِذَلِكَ زَعِيمٌ ، وَبِمُطَيَّنَتِهِ عِلِيمٌ ؛ فَلَعَلَّمُ عَرَفَ بِنِي عَلَى صَاحِبِهِ ، وَتَلَوُّهُ عَلَيْهِ بِوَارِقِهِ وَإِنْ أَكْتَنَهُ بَيْنَ جَوَانِيهِ ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ لَا تَنْفَعِي رِيحُهُ عَلَى غَيْرِ ذِي زُكَامٍ ، وَالتَّهَارُ لَا يَنْفَعِي ضَوْؤُهُ عَلَى ذِي بَصِيرٍ وَإِنْ تَسَرَّتْ شَمْسُهُ بِأَذْيَالِ النَّيَامِ ؛ وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ وَجُوهَ الْعُلَمَاءِ الْكَمَلَةِ ، الَّذِينَ طَلَوِيَاهُمْ عَلَى أَجْمَلِ الْعُلُومِ مُنْطَوِيَةً وَعَلَى تَقَاصِيلِهَا مُشْتَمَلَةً ؛ وَسَبَرْتُ وَقَسَمْتُ ، وَتَقَرَّرْتُ وَتَوَسَّعْتُ ؛ فَلَمْ أَجِدْ مِنْ يَلِيْقُ لِهَذَا الْمَقَامِ ، وَيَصْلُحُ لِقَطْعِ الْحِدَالِ وَالْخِصَامِ ؛ وَيَعْرِفُ بِلُغَةِ كُلِّ عِلْمٍ فُجُيْبُ بِلْسَانِهِ ، وَيَحْكُمُ فَلَا يَنْقُصُ حُكْمُهُ غَيْرُهُ لَا تَخْطِئُهُ عَنْ بُلُوغِ مَكَانِهِ ؛ إِلَّا الْبَحْرُ الرَّائِحُ ، وَ<sup>(١)</sup> الَّذِي لَا يَعْلَمُ لِقَضِيلِهِ أَوَّلُ وَلَا يَنْتَرِكُ لِمَدَاهِ<sup>(٢)</sup> .

(١) يَبَاضُ بِالْأَصْلِ وَلِلَّهِ : الْقَائِلُ أَوْ نَحْوُهُ .

(٢) أَصْلُهُ وَتَامَتْ بِالْمَدِّ نَحْفَهُ مِنْ قَرَأَ كَتَبَهُ قَمَهُ .

شيخ الإسلام، وخلاصة غرر الأيام، جلال الدين، يقيه المجتهدين؛ أبو الفضل عبد الرحمن البلقيني الشافعي، الناظر في الحكم العزيز بالديار المصرية، ومائر الممالك الإسلامية وما أضيف إلى ذلك من الوظائف الدينية؛ لازلّت فواضل الفضائل معروفة: فهو العالم الذي إذا قال لا يمارض، والحاكم الذي إذا حكم لا يناقض، والإمام الذي لا يتخلل أجهاده خلل، والمناظر الذي ما حاول قطع خصم إلا كان لسانه أمضى من السيف إذا يقال: «سبق السيف العذل»:

إذا قال بذا القائلين ولم يدع \* لمتميس في القول جدا ولا هزلا!

إن تكلم في الفقه فكأنما بلسان «الشافعي» تكلم، و«الربيع» عنه يروى و«المزني» منه يتعلم؛ أوحاض في أصول الفقه. قال «الغزالي»: هذا هو الإمام باعناق، وقطع السيف «الأميدي» بأنه المتقدم في هذا الفن على الإطلاق؛ أو جرى في التفسير. قال «الواحدي»: هذا هو العالم الأوحى، وأعطاه «أبْنُ عَطِيَّة» صفة يده بأن مثله في التفسير لا يوجد؛ وأعترف له «صاحب الكشاف» بالكشف عن القوامض، وقال الإمام «غفر الدين»: «هذه مفاتيح القيب وأسرار التتيريل» فارفع الخلاف وأدفع المعارض؛ أو أخذ في القراءة والرسم أزدى بأبي «عمرو الداني»، وعدنا شأو «الشاطبي» في «الرأية» وتهدمه في «حزب الآماني»؛ أو نحت في الحديث شهيد له «السفيان» بملو الرتبة في الرواية، وأعترف له «أبن معين» بالتبريز والتقدم في الدراية؛ وهتف «الحطيب البغدادي» يذكره على المنابر، وقال «أبن الصلاح»: لئلا هذه الفوائد تتعين الرحلة وفي تحصيلها تفقد الحماير؛ أو أبدى في أصول الدين نظرا تعلق منه «أبو الحسن الأشعري» بأوفي زمام، وسد باب الكلام على المعتزلة حتى يقول «عمرو بن عبيد» و«أصيل بن

عطاء : لَيْتَنَا لَمْ تَفْتَحْ بَابًا فِي الْكَلَامِ ؛ أَوْ دَقَّقَ النَّظْرَ فِي الْمُنْطَقِ بِهَر « الْأَجْهَرِي »  
 فِي مَنَازِلِهِ ، وَكُتِبَ « الْكَاتِبِي » عَلَى نَفْسِهِ وَثِيقَةً بِالْعِزِّ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ ؛ أَوْ أَلَمَ بِالْجَلَلِ  
 رَحَى « الْأَرْمَوِي » نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَعَلَ « الْعَمِيدِي » عُمْدَتَهُ فِي آدَابِ الْبَحْثِ  
 عَلَيْهِ ؛ أَوْ بَسَطَ فِي اللُّغَةِ لِسَانَهُ أَعْرَفَ لَهُ ابْنُ « سَيِّدِهِ » بِالسِّيَادَةِ ، وَأَقْرَبَ بِالْعِزِّ لَدَيْهِ  
 « الْجَوْهَرِي » وَجَلَسَ « ابْنُ فَارِسٍ » بَيْنَ يَدَيْهِ بِمَجْلِسِ الْإِسْتِفَادَةِ ؛ أَوْ نَحَا إِلَى التَّحْوِ  
 وَالتَّصْرِيفِ أَرْبَى فِيهِ عَلَى « سَيِّبَوِيهِ » ، وَصَرَفَ « الْكِسَائِي » لَهُ عَزَمَهُ فَسَارَ مِنْ  
 الْبُعْدِ إِلَيْهِ ؛ أَوْ وَضَعَ أُنْمُودَجًا فِي عُلُومِ الْبَلَاغَةِ وَقَفَ عِنْدَهُ « الْجُرْجَانِي » ، وَلَمْ يَتَعَدَّ  
 حُدُودَهُ « ابْنُ أَبِي الْإِصْبَحِ » وَلَمْ يُجَاوِزْ وَضْعَهُ « الرَّمَّانِي » ؛ أَوْ رَوَى أَشْعَارَ الْعَرَبِ أَنْزَى  
 بِ« الْأَضْمَعِي » فِي حِفْظِهِ ، وَفَاقَ « أَبَا عَيْبَةَ » فِي كَثَرَةِ رِوَايَتِهِ وَغَزِيرِ لَفِظِهِ ؛ أَوْ تَمَرَّضَ  
 لِلْعُرُوضِ وَالْقَوَائِي أَسْتَحَقَّهُمَا عَلَى « الْخَلِيلِ » ، وَقَالَ « الْأَنْخَشُ » عَنْهُ : أَخَذْتُ  
 الْمُنْدَارَكَ وَأَعْتَرَفَ « الْجَوْهَرِي » بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي هَذَا الْقَنْ مِثِيلٌ ؛ أَوْ أَصَلَ  
 فِي الطَّبِّ أَصْلًا قَالَ « ابْنُ سِينَا » : هَذَا هُوَ الْقَانُونُ الْمُعْتَبَرُ فِي الْأُصُولِ ، وَأَقَامَ  
 « الرَّازِي » بُحْثِي الْمَوْتَى إِنْ « قِرَاطٌ » لَوْ تَمِمَّعَهُ لِمَا صَنَّفَ « الْفُصُولُ » ؛ أَوْ جَنَحَ  
 إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ فَكَأَنَّمَا طَبَعَ عَلَيْهِ ، أَوْ جَنَّبَ لَهُ ذَلِكَ الْعِلْمَ بِزَمَانٍ  
 فَاتَّقَادَ إِلَيْهِ ؛ أَوْ سَلَكَ فِي عُلُومِ الْمُتَنَدِمَةِ طَرِيقًا لَقَالَ « أَوْفَلِيدِس » : هَذَا هُوَ الْخَطُّ  
 الْمُسْتَقِيمُ ، وَأَعْرَضَ « ابْنُ الْهَيْثَمِ » عَنْ حَلِّ الشُّكُوكِ وَوَلَّى وَهُوَ كَيْطِيمٌ ، وَحَدَّ  
 « الْمُؤَنَّنُ بْنُ هُوَيْدٍ » عِلْمَ إِكْمَالِ كِتَابِهِ « الْأَسْتِكْمَالُ » وَقَالَ : عَرَفْتُ قَدْرَ نَفْسِي : وَفَوْقَ  
 كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ؛ أَوْ عَرَّجَ عَلَى عُلُومِ الْهَيْئَةِ لِأَعْتَرَفَ « أَبُو الرِّجَّانِ الْبَيْرُونِي » أَنَّهُ الْأَعْجُوبَةُ  
 النَّادِرَةُ ، وَقَالَ ابْنُ أَفْلَحٍ : هَذَا الْعَالَمُ قُطْبُ هَذِهِ الدَّائِرَةِ ، أَوْ صَرَفَ إِلَى عِلْمِ الْحِسَابِ نَظَرَهُ  
 لَقَالَ « السَّمُوعِلِيُّ بْنُ يَحْيَى » : لَقَدْ أَحْيَا هَذَا الْقَنْ الدَّارِسُ ، وَتَأَدَّى « ابْنُ جَمَلٍ الْمَوْصِلِي »  
 قَدْ أَنْجَلَتْ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ غَيَابَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ سَمَةٌ لَمَامِيهِ وَلَا عُمَّةٌ عَلَى مُمَارِسِهِ .

وَقَدْ وَجَدَتْ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ \* فَلَمْ تَجِدْ لِسَانًا قَائِلًا فَقِيلَ !

وَكَيْفَ لَأَتَأْتِيَ إِلَيْهِ الْعُلُومُ مَقَالِيدَهَا، وَتَصِلُ بِهِ الْفَضَائِلُ أَسَانِيدَهَا، وَهُوَ ابْنُ شَيْخِ  
الإسلام وإمامه، ووَاحِدُ النُّجْمِ وَعَلَامِيهِ، وَجَامِعُ الْعُلُومِ الْمُتَفَرَّدِ، وَمَنْ حَقَّقَ وُجُودَهُ  
فِي أَوَّلِ الْأَعْصَارِ أَنَّ الزَّمَانَ لَا يَخْلُو مِنْ مُجْتَمِدٍ، وَمَنْ لَمْ يَزَلْ مَوْضِعُ الْأَوْضَاعِ الْمَعْتَبَرَةِ  
عَلَيْهِ تَحْمُولًا، وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْسِ الْمَسَائِلِ الثَّامِنَةِ مُضَاهِيًا لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى رَأْسِ  
الْمَسَائِلِ الْأُولَى؛ فَالْتِمَاصُ عَلَيْهِ وَعَلَى وَلَدِهِ تَقَعْدٌ، وَلَا غَرَوَ إِنْ قَامَ مُنْشِدُهُمَا فَانْتَسَدَ :

إِنَّ الْمَسَائِلَ الْأُولَى عَلَى رَأْسِهَا أَنِّي \* لَهَا عُمْرُ الثَّانِي لَدَا الدِّينِ صَانَتُهُ،

وَوَلَّى رِجَالًا بَعْدَ ذَلِكَ كَمِثْلِهِ \* فَهَا عُمَرُ وَاقٍ عَلَى رَأْسِ تَأَمُّنِهِ

يُظَاهِرُهُ تَهْلُ سَعِيدٌ غَدَتْ بِهِ \* مَعَاقِلُ عِلْمٍ فِي دُرَا الْحَقِّ أَمْنِهِ .

إِذَا شَيْخُ إِسْلَامٍ أَضَاءَ سِرَاجَهُ \* رَأَيْتَ جَلَالًا مِنْ سَنَةِ الْفَضْلِ قَارَنَهُ !

فَلَا يَدْعُمُ الْإِسْلَامُ بَجَمْعِ عَلَامَتِهِ \* وَلَنْ يَرِحَا لِلَّذِينَ دَابَا مِيَامَتُهُ !

فَقَالَ عِلْمُ الْأَخْلَاقِ : أَصَبَتْ سَوَاءَ الثَّنَةِ وَجِئْتَ بِالرَّأْيِ الْأَكْلِ، وَعَرَفْتَ مِنْ  
أَيْنَ تُؤْكَلُ الْكَتِفُ فَطَبَّقْتَ الْمِفْصَلَ بِالْمِفْصَلِ؛ إِلَّا أَنَّ مِنْ عَظَمَةِ الْأَخْلَاقِ، وَمَعَالِمِ  
الْإِرْفَاقِ؛ أَنْ تَعُودُوا بِفَضْلِكُمْ، وَتَرْجِعُوا بِمَعْرِفَتِكُمْ وَرُكَّتِكُمْ، إِلَى مَنْ جَرَى بِكُمْ فِي التَّقَاتُرِ  
جَرَى الْإِنْصَافِ، وَبَسَطَ لِسَانَهُ بِمَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ مَنْكُمْ مِنْ جَمِيلِ الْأَوْصَافِ؛  
ثُمَّ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ وَصَلَ بِالْأَتَّاقِ وَالْإِكْتِثَامِ حَبْلَكُمْ، وَجَمَعَ بِالْحَقْلِ الْكَرِيمِ بَعْدَ التَّبَاعَدِ  
شَمْلَكُمْ؛ وَذَكَرَكُمْ بِجُسْنِ الْمَصَافَاةِ أَصْلَ الْوِدَادِ الْقَدِيمِ، وَقَلَّ لِسَانُ الْأَثَقَةِ فِيمَكُمُ :  
( فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ) . بَانَ يَتَصَبَّ كُلُّ مَنْكُمْ لَهُ شَفِيعًا  
إِلَى هَذَا السَّيِّدِ الْجَلِيلِ ، وَيَكُونُ لَهُ وَسِيلَةً إِلَى هَذَا الْإِمَامِ الْحَقِيلِ ؛ أَنْ يَصْرِفَ إِلَيْهِ  
وَجْهَ الْعِتَابَةِ، وَيَنْظُرَ إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْإِقْبَالِ وَالرَّاهِبَةِ ؛ لِيَعْرِىَ فِي النَّاسِ جَانِبَهُ ، وَيُطْلَعَ



في أفق السعد بعد الأقول غاربُه ؛ ويبلغ من منتهى أمَلِه ماله جِهْد ، ويسعد  
بالنظر السعيد جَدُّه فقد قيل : « من وقع عليه نظر السعيد سعد » .

على أنه - أمتع الله الإسلام ببقائه وبقاء والده ، وجمع بينهما في دار الكرامة  
كما جمع لما بين طارف الحيد وآلده ؛ - قد فتح له من الترقى أول باب ، ولا شك  
أن نظرة منه إليه بعد ذلك ترقيه إلى السحاب .

فأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه \* وأول الغيث قطر ثم يسكب !

فقال علم التاريخ : أهيطوا مضرا فلن لكم ما سألتم ، وقرؤا عينا فلي القصد  
الجليل وصلتم ، وعلى غاية الأمل - وفيه الحمد - حصلتم ؛ فقد بلوت الأوائل والأواخر ،  
وخبرت حال المنقّم والمعاصر ؛ فلم أرَ فيمن مضى وغبر ، وشاع ذكره وأشهر ؛ من  
ذوى المراتب العالية ، والمناصب السنية ؛ من يساوى هذا السيد الجليل فضلا ،  
أو يداينه في المعروف قولاً وفعلًا ؛ قد ليس شرفاً لا تطمع الأيام في تحليه ، ولا يتطلع  
الزمان إلى نزعه ؛ وأتته إلى المجد فوقف ، وعرف الكرم مكانه فأنحاز إليه وعطف ؛  
وحلت الراسة بفنائيه فاستغنت به عن السوى ، وأناخت السيادة بأفنائيه فالتقت  
عصاها واستقر بها النوى ؛ فقصرت عنه خطا من يحاربه ، وضاق عنه باع من  
يناوليه ؛ واجتمعت الألسن على تحريضه فمدح بكل لسان ، وتوافقت القلوب على  
حبه فكان له بكل قلب مكان :

ولم يحل من إحسانه لفظ محير ، \* ولم يحل من تحريضه بكن دقير !

فهو الحري بأن يكتب بأفلام الذهب جميل مناقبه ، وأن يرقم على صفحات  
الأيام جيد مطالبه ؛ فلا يذهب على ممر الزمان ذكرها ، ولا يزول على توالي  
السنون تحريها .

ولما تمّ للعلوم هذا الاجتماع الذي قَارَنَ السُّعْدُ جَلَّالَهُ ، وَفَضَّرَتْ يَنَابِيعُ الْفَضْلِ  
خِلَالَهُ ؛ أَقْبَلُوا بِوُجُوهِهِمْ عَلَى الشَّعْرِ مُعَاتِرِينَ ، وَبِمَا يُلْزِمُهُ مِنْ تَقْرِيصِ هَذَا الْحَبْرِ  
وَمَنْعِهِ مُطَالِبِينَ ؛ وَقَالُوا : قَدْ آتَى النَّثْرُ مِنْ مَنِّهِ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ يُوفِ بِجَلِيلِ  
قَدْرِهِ وَرَفِيعِ مَكَاتِهِ ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَنْتَحِمَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ بِآيَاتِ بِالْقَامِ لِإِثْمِهِ ، وَلِمَا نَحْنُ  
فِيهِ مِنَ الْقَضِيَّةِ الْوَاقِعَةِ مُطَابَقَهُ ؛ قَائِمَةٌ مِنْ مَنِّهِ بِالْوَاجِبِ ، سَالِكَةٌ مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ  
الْمَسَالِكِ وَأَجْمَلَ الْمَذَاهِبِ ؛ لِنُكْمَلْ هَذِهِ الرِّسَالَةَ نَفْلاً وَثَرًا ، وَنَقْنَنَ فِي صِنَاعَةِ الْأَدَبِ  
خُطَابَةً وَشِعْرًا ؛ فَقَالَ : سَمِعًا وَطَاعَةً ، وَأَسْتِكَانَةً وَضِرَاعَةً ؛ ثُمَّ لَمْ يَلَيْتُ أَنْ قَامَ عَجَلًا ،  
وَأَشْدَّ مُرْتَجِلًا :

بُنُرَا كَمْ مَعَاشِرَ الْمُلُومِ أَنْ \* جُمِعْتُمْ بِصَدْرِ حَبِيرٍ كَامِلِ !  
فُتُونُهُ لَمْ تَجْتَمِعْ لِعَالِمٍ \* وَفَضْلُهُ لَمْ يَكْتُمِلْ لِقَاضِلِ !  
بَشَنَى الصُّلُورِ إِنْ فَنَدْنَا مُنَاطِرًا ، \* وَبَحْثُهُ فَرِيضَةُ الْحَافِلِ !  
كَمْ عَمَرْتُ دُرُوسُهُ مِنْ دَارِيسٍ ، \* وَزَيْلَتْ بِحُلِيِّهَا مِنْ حَاطِلِ !  
وَأَوْحَصَتْ أَقْوَالُهُ مِنْ مُشْكِلٍ \* لِمَا آتَى بِأَوْضَحِ الدَّلَائِلِ !  
وَكَمْ غَلَّتْ أَرَاؤُهُ حِمْلَةً ، \* وَنَهَتْ بِحُلْعَا مِنْ خَامِلِ .  
وَحُكْمُهُ فَكَّكُمْ أَقَالَ عَقْرَةً \* وَجُودُهُ قَفَّوْقَ قَصْدِ الْإِمْلِ !  
هَذَا : وَقَدْ فَاقَ الْوَرَى رَأْسَةً \* مَعْقُوفَةً بِالطَّلِفِ الشَّمَائِلِ !  
مَنْ ذَا يَرُومُ أَنْ يَنَالَ شَأْوَهُ ؟ \* أَتَى لَهُ بِأَمْثِلِ الْأَمْثِلِ ؟  
مَوْلَى عَلَا قَفَّوْقَ السَّمَاءِ رُبِّيَّةً \* قَدْ زَيَّنَتْ بِأَفْضَلِ الْفَوَاضِلِ !  
فَمَا لَهُ فِي فَضْلِهِ مِنْ مُشْبِهِ ، \* وَمَا لِبَحْرِ جُودِهِ مِنْ سَاحِلِ !  
حَاشَى لِرَاجٍ فَضْلُهُ أَنْ يَنْتَقِي \* صِفَرِ الْيَدَيْنِ أَوْ مُمْنَى الْإِجْلِ !

قُلْتُ : ولم أر من تعرّض للمُفَاخَرَةِ بين العلومِ مِوَى القاضى الرّشيدِ أبى الحسينِ ابنِ الزبيرِ فى مقالتهِ المُقدّمِ ذكرها على أنّها لم تكن جاريةً على هذا النمط ، ولا مُرتبّةً على هذا الترتيب ، مع الاختصار فيها على علومٍ قليلةٍ ، أشار إلى المُفاضلةِ بينها على ما تقدّم ذكره . ولكن الله تعالى قد هدّى بفضلِهِ إلى وجوه التّرجيح التى يربّحُ بها كلّ عليمٍ على خصمه ، ويُفْلِحُ به على غيره ؛ والمُنْصِفُ يعرف لذلك جُقه ، والذي أعطى على ذلك جلاله قَدِيرٌ من صُنْعَتِ له وعُلوِّ رتبته ، وآساعُ فضله ، وكثرةِ علومه ، وتعداد قُتُونه ، إذ صفاتُ الممدوح تَهْدِي المادح وتُرْشِدُه .



ومنها المُفَاخَرَةُ بين السَّيْفِ والقَلَمِ ، وقد أكثر الناس منها : فمن حالٍ وهابط ، وصايدٍ وساقط .

وهذه رسالةٌ فى المُفَاخَرَةِ بين السَّيْفِ والقَلَمِ ، أنشأها القَرّ الزيّنى أبى يزيد الدّوادار الظّاهرى ، فى شهر سنة أربع وتسعين ومِسمِئة ، ومِسمِئة : « حِلْيَةُ الْفَضْلِ وَزِينَةُ الْكَرَمِ ، فى المُفَاخَرَةِ بين السَّيْفِ والقَلَمِ » وهى :

الحمد لله الذى أعزّ السَّيْفَ وشرف القَلَمَ ، وأفردهما برُتَبِ الْعِلْيَاءِ فقرن لهما بين الحمْدِ والكَرَمِ ، وساوَى بينهما فى القِسْمَةِ فهذا لِحْظُكُمْ وهذا لِحْظُكُمْ .

أحمدُه على أن جمَعَ بَحِيرَ أَمِيرٍ بعد التّفَرُّقِ بَتَلَمَّها ، ووَصَلَ بِأَعَزِّ مَلِكٍ بعد التّقاطُعِ حَبَلَمَا ؛ وأزغَبَ إليه بِسُكْرِيكَائِ النّجومِ فى عِدِيدِهَا ، ويَكُونُ لِلنِّعْمَةِ على مَرِّ الزّمانِ أَبَا يَزِيدِهَا ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً يَأْتُمُّ الإخلاصُ بِمَلْعَمِهَا ، ولا يَنْجُو من سَيْفِهَا إلا من أجاب دَاعِيَهَا وأَقْرَبَهَا ؛ وأن عَمَّا عبَّه ورسولُه

(١) لم تذكر هذه المقالة فيما مضى فلعلها سقطت من قلم النساخ .

الذى حُصَّ بأشرف المناقب وأفضل المائر، وأستأثر بالسؤدد في الدارين لحاز أنغر المعالي وقال أعلى المقائر؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قامت بنصرتهم دولة الإسلام فسمت بهم على سائر الدول، وكرّعت في دماء الكفر سيوفهم فعادت بتخلوق النصر لا بجمرة الخبيل؛ صلاة ينقضى دون آهضاتها تعاقب الأيام، وتكمل السنة الأقاليم عن وصفها ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام .

وبعد، فإنه ما تعارب آثان في الرتبة إلا تحاسدا، ولا اجتمعما في مقام رفعة إلا أزدحا على المحمد وتواردًا؛ ودام كل منهما أن يكون هو الفائز بالقدح المملئ، وأن يكون مفرقه هو المتوجّح وجيده هو المحلّئ؛ وأدعى كل منهما أن جواده هو السابق في حلبة السباق، والفائز يقصّب السبق بالإتفاق؛ وأن نجمة هو الطالع الذي لا يأفل، وسؤدده هو الحاسم الذي لا يعزل؛ وأن المسك دون غيره، والبحر لا يبحى نقطة في غيره؛ والذلل لا يصلح له صدا، ونفيس الجوهر لا يعادله شرف؛ وأن متاير المعالي موقوفة على قدميه، ومجامر المقائر فامحة بنشر كرمه .

ولما كان السيف والقلم قد تدانيا في التجدد وتعاربا، وأخذنا بطريق الشرف ونجاذبا؛ إذ كانا قطبين تدور عليهما دوائر الكمال، وسعدتين يجتمعان في دائرة الاعتدال؛ وتجهين يهديان إلى المعالي، ومضباحين يستضاء بهما في حناديس الليالي؛ وقاعدتين تبنى الدول على أركانها، وتجزعين يُحْنِي العِزُّ من أعضائهما؛ جرّ كل منهما ثوب الخيلاء نفرا فتمشي وتفتخر، وأسبل رداء العجب نيتها فما تحبّل ولا تمتر؛ وأوسع له المجال في الدعوى بخل، وطاوعته يد اللقال فقال وطال؛ وتطرقّت إليهما عقارب الشحائم ودبت، وتوقدت بينهما نار المنافسة وشبت؛ وأظهر كل منهما ما كان يُخفيه فكُتِبَ وأملئ، وباح بما يكنه صدره والمؤمن لا يكون حبلئ؛ وبدأ القلم فحكّم، ومضى في الكلام يصنق عثرهم فما توقف ولا تلعثم؛ فقال :

باسم الله تعالى أستفتح، وبحمده أتمن وأستفتح؛ إذ من شأني الكتاب، ومن قتي الخطابة؛ وكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله تعالى فهو أجزم، وكل كلام لا يفتح بحمده فأساسه غير محكم وريأؤه غير معلّم، والعاقِل من أتى الأمر من فَعِه، وأخذ الحديث بَنَصِه؛ والحق أحق أن يتبع، والباطل أجدر أن يترك فلا يضمن إليه ولا يستمع؛ إني لأوّل مخلوق بالنص الثابت والحجة القاطعة، والمستحق لفضل سبق من غير منازعه؛ أقسم الله تعالى بي في كتابه، وشرّقي بالذكر في كلامه لرسوله وخطابه، قال جلّ من قائل: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَآ يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِحُنُونٍ﴾. وقال جلّت قدرته: ﴿إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. فكان لي من الفضل وأفر القسمة، وخصّصت بكلال المعرفة بجمعت شوارِد العلوم وكنت قيم الحنكة.

فقال السيف: بسم الله والله أكبر: ﴿نَضْرَمِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. لكل باج مصرع، وللصائل بالمتنون مهلك لا يتجوز منه ولا يتجّع؛ وفتح باب الشر يفتق به، وقادح زند الحرب يحرق بلمه؛ أقول بموجب استدلالك، وأوجب الاعتراض عليك في مقالك:

نعم أقسم الله تعالى بالقلم ولست بذلك، وكان أوّل مخلوق ولست المعنى بما هنالك؛ إن ذلك المعنى يكل فهمك عن إدراكه، ويضلّ تبحر أن يسيرى في أفلاكه؛ وأنت وإن ذكرت في التريل، وتمسكت من الأمتنان بك في قوله: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ بشبهة التفضيل؛ فقد حرم الله تعالى تعلّم خطك على رسوله، وحرمك من مس أنامله الشريفة ما يؤسى على قونه ويسرّ بمحبوه؛ لكيّ قد نلت من هذه الرتبة أسنى المقاصد، فشهدت معه من الوقائع ما لم تشهد؛ وحلاني من كفّه شرّاً لا يزول

حليته أبداً، ولتُ بنصره في كل مُعترك : وسل حنيناً وسل بدمراً وسل أحداً !!! ؛  
 ذكر الله تعالى في القرآن الكريم جنسى الذى أنا نوعه الأكبر ، ونبّه على ما فيه من  
 المنافع التى هى من فَعَلِك أُمُّ وأشهر؛ وما اجتمع فيه من عَظِيمِي الشَّدة والبأس ،  
 فقال تَهَنَّمت عَظَمته : (( وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ )) . على أنك  
 لو اعتبرت جنسى القَصَب والحديد ، وعرفت الكَلِيلَ منهما والجَلِيدَ ؛ لتحققت  
 تسلط الحديد عليك قطعاً وبرهاً ، ونَحْكَمَكْهَ فيك أمراً ونهياً .

فقال القلم : قررت من الشريعة وعظمتها ، وعولت على الطبيعة وجهلها ؛ فانتخرت  
 بحيفك وصدوانك ، واعتمدت في الفضل على تعديك وطغيانك ؛ فلت إلى الظلم  
 الذى هو إليك أقرب ، وظب عليك طبعك في الجور : و «الطبع أغلب» ؛ فلا فتنة  
 إلا وأنت أساسها ، ولا غارة إلا وأنت رأسها ؛ ولا شر إلا وأنت فاتحُ بايه ، ولا حرب  
 إلا وأنت وأصل أسبابه ؛ تؤكّد مواقع الجفاء ، وتكدر أوقات الصفاء ؛ وتؤثر  
 القساوة ، وتؤثر العداوة ؛ أما أنا فالحقُّ منهي ، والصدق مرئي ؛ والعَدْلُ شمتي ،  
 وحليّة الفضل زيتي ؛ إن حكمت أقسّطت ، وإن استحضفتُ حفظتُ وما فرطت ؛  
 لا أفشى سرا يريد صاحبه كتمه ، ولا أكتُمُ علماً يتنى مُتعلّمه علمه ؛ مع عموم  
 الحاجة إلى ، والافتقار إلى علمي والاكتساب مما لدى ، أدير في القرباس كاسات  
 تمرى فأزري بالمزايير وأهزأ بالمزاهر ، وأفتك فيه مَحَرَّيَانِي فألعبُ بالألباب  
 وأستجلبُ الخواطر ، وأنفذُ جيوشَ سطورى على بُعْدِ فَأَهْرِمِ العساكر :

فَلَكُمْ يُقَلَّ الْجَيْشُ وَهُوَ عَرَمَرَمٌ \* وَالْيَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ !

فقال السيف : أطلت النّيه ، وجمت بالخبية ؛ وسكت ألقا ، ونطقت خلفا

السيف أصلقُ أنباء من الكُتب \* في حَمِّهِ الحَدُّ بينَ الحَدِّ واللَّعبِ

إِنْ نَجَادِي لِحَيَّةِ الْعَوَاتِقِ ، وَمُصَاحِبِي أَمْنَةٍ مِنَ الْبَوَائِقِ ، مَا تَهْلِكُنِي عَاتِقُ إِلَّا بَاتَ  
عَزِيزًا ، وَلَا تَوَسَّدُنِي سَاعِدٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ حَزِيزًا حَرِيزًا ، أَمْرِي الْمَطَاعُ وَقَوْلِي الْمُسْتَمْعُ ،  
وَرَأْيِي الْمَصُوبُ وَحُكْمِي الْمُتَّبَعُ ، لَمْ أَزَلْ لِلنَّصْرِ مِفْتَاحًا ، وَلِلظَّلَامِ مِصْبَاحًا ، وَلِلْعِزِّ قَائِمًا ،  
وَلِلْعُدَاةِ ذَائِمًا ، فَأَنَّى لَكَ بِمَسَاجِلِي ، وَمُقَاوِفِي فِي الْفَخْرِ وَمُبَاقِرِي ؟ ، مَعَ عُرَى جِسْمِي  
وَتَحَافَةِ بَدَنِي ، وَإِسْرَاجِ تَلَاظِكِ وَقِصْرِ زَمَنِكَ ، وَنَحْسِ أَمَانِكَ عَلَى بُعْدِ وَطَنِكَ ،  
وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ جَرَى دَمْعِكَ ، وَضَيْقِ ذَرْعِكَ ، وَتَهَرُّقِ جَمْعِكَ ، وَقِصْرِ بَاطِكَ ،  
وَقِلَّةِ أَنْبَاطِكَ .

فَقَالَ الْقَلَمُ : مَهْلًا أَيُّهَا الْمَسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسْلِكَ أَيُّهَا الْمُخَالِبُ وَالْمُنَاضِلُ ، لَقَدْ  
أَخْشَتُ مَقَالًا ، وَتَمَقَّتْ عُجَالًا ، فَتَادَرْتُكَ سُبُلُ الْإِصَابَةِ ، وَنَحِيتُ عَنْ جَادَةِ الْإِتَابَةِ ،  
وَمُرُوتَ سَمْعًا فَأَسَاتَ جَابَهُ ، إِنْ لِمَبَارِكِ الطَّلَعَةِ وَسَمِيحِهَا ، شَرِيفِ النَّفْسِ كَرِيمِهَا ،  
أَخَذَ بِالْفَضَائِلِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا ، مُسْتَوِفٍ لِلْمَادِحِ بِسَائِرِ صِفَاتِهَا ، فَطَائِرِي مَيِّمُونَ ،  
وَعُغُولِي مَأْمُونٌ ، وَعِطَائِي خَيْرُ مَمْنُونٍ ، أَصِلْ وَتَقَطَّعْ ، وَأَعْطِنِي وَتَمْنَعْ ، وَتَفَرَّقْ وَأَجْمَعْ ،  
وَأِنْ أَزِيدُوا لَكَ بِي مِنَ الْكِبَرِ الْمُنْتَهَى عَنْهُ ، وَغَضَبِكَ عَنِّي مِنَ الْعُجْبِ الْمُسْتَعَاذِ مِنْهُ ،  
وَمَنْ حَقَّرَ شَيْئًا قَتَلَهُ ، وَمَنْ أَسْتَهَانَ بِفَضَائِلِ فَضْلِهِ ، وَإِنِّي وَإِنْ صَغُرَ جَرْمِي فَإِنِّي لَكَبِيرُ  
الْفِعَالِ ، وَإِنْ تَحَفَّ بَدَنِي فَإِنِّي لَشَدِيدُ الْبَاسِ عِنْدَ التَّزَالِ ، وَإِنْ عَرَى جِسْمِي فَكَمْ  
كَسُوتُ عَارِيَا ، وَإِنْ جَرَى دَمْعِي فَكَمْ أُرْوِيَتْ ظُلُمِيَا ، وَإِنْ ضَاقَ ذَرْعِي فَإِنِّي بِسَعَةِ  
الْجَهْلِ مَشْهُورٌ ، وَإِنْ قَصُرَ بَاعِي فَكَمْ أَطْلَقْتُ أَسِيرًا وَأَنَا فِي بَيْحِنِ النُّوَاةِ مَأْسُورٌ ، إِذَا  
أَمْتَطَيْتُ طَرَبِي ، وَتَنَزَّعْتُ نَهْيِي ، وَتَهَلَّلْتُ تَحْمِي ، وَجَاسَتْ عَلَى الْأَعْلَاءِ نَفْسِي :-

رَأَيْتَ جَلِيلًا شَأْنُهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ \* ضَنْبِي وَسَمِيحًا خَطْبُهُ وَهُوَ تَاحِلٌ !

أَتَسَيِّتُ إِذْ أَنْتَ فِي الْمَعْدِنِ تُرَابٌ تَدَاثُ بِالْأَقْدَامِ ؟ ، وَتَتَسَفَّكُ الرِّيَاحُ وَتَزْرِي بِكَ  
الْأَيَّامُ ؟ ، ثُمَّ صَرْتُ إِلَى الْقَيْنِ تَهْتَدُ لَكَ السَّائِدِينَ بِالْمَرَاصِدِ ، وَتَتَسَفَّكُ الْمَقَامِعُ وَتَسْطُو

بك المبارد ؛ ثم لولا صَبَالُكَ لأَذْهَبَكَ الْحَرْبُ وَأَكَلَكَ الصَّدَى ، مع قِلَّةِ صَبْرِكَ على  
المَطَرِ وَالنَّدَى .

قَالَ السَّيْفُ : إِنَّا لِلَّهِ ! لَقَدْ اسْتَأْسَدَتِ النَّعَالِبُ ، وَاسْتَنْصَرَتِ الْبَغَاتُ قَعْدَ  
الْمُصْفُورِ نَفْسَهُ مِنْ طَيْرِ الْوَاجِبِ ؛ وَجَاءَ الْغُرَابُ إِلَى الْبَاذِي يُهْدِيهِ ، وَرَجَعَ ابْنُ آوَى  
عَلَى الْأَسَدِ يُسَرِّدُهُ ؛ فَلَوْ عَرَفْتَ قَدْرَ نَفْسِكَ ، وَلَزِمْتَ فِي السَّكِينَةِ طَرِيقَ ابْنَاءِ  
جَنَسِكَ ؛ وَوَقَفْتَ عِنْدَ مَا حُدَّ لَكَ ، وَذَكَرْتَ عِجْزَكَ وَكَسَلَكَ ؛ لَكَانَ أَجْدَرُ بِكَ ،  
وَأَحْمَدُ لِمَا قَبِيتُكَ ، وَالْيَقِي بِأَدَبِكَ .

إِنَّ الْمُلُوكَ لَتَعِدُّنِي لِهِمَاتِهِا ، وَتَسْتَعِجِدُنِي فِي مَلِمَاتِهِا ، وَتَتَعَالَى فِي نَسَبِي ، وَتَتَعَالَى  
فِي حَسَبِي ؛ وَتُنَاقِصُنِي فِي قُنَيْتِي وَتُتَحَادُّ ، وَتَجْعَلُنِي عُرْضَةً لِأَيْمَانِهِا فَتَتَعَاقَدُ بِالْخَلِيفِ  
عَلَى وَتَتَعَاهَدُ ؛ وَتَدِيحُنِي فِي خَزَائِنِهِا أَدَارَ الْأَعْلَاقِ ، وَتَعِدُّنِي أَنْفَسَ ذَخَائِرِهِا عَلَى  
الْإِطْلَاقِ ؛ فَتُكَلِّلُنِي الْجَوَاهِرَ ، وَتُخَلِّقُنِي الْعُقُودَ فَتُظَهِّرُنِي أَحْسَنَ الْمَظَاهِرِ ؛ أُبْرِزُ  
لِلشُّجْعَانِ حَدَى الْأَسِيلِ فَأُتَسَيِّمُهُمُ الْخُلُودَ ذَوَاتِ السَّوَالِفِ ، وَأَزْهَوُ بِقَدَى فَاسِلِهِمُ  
هَيْفَ الْقُدُودِ مَعَ لَيْنِ الْمَعَاطِفِ ؛ وَأَوْهِمُ الظُّمَانِ مِنْ قُرْبٍ أَنْ بَأْنَاهِي مَاءَ يَسِيلِ ،  
وَأُخَيِّلُ لِلْقُرُودِ مِنْ بُعْدٍ أَنَّ جَنُودَهُ تَارِيضُطُّنِي عَلَى الْمَدَى الطَّوِيلِ ؛ وَتَحَالِي مُتَوَقِّعُ  
الْفَيْتِ بَرَقًا لَا مِعَا ، وَيُظَلِّقُنِي الْجَائِزُ فِي الشَّرْقِ نَجْمًا طَالِعًا ؛ فَالشَّمْسُ مِنْ شُعَاعِي فِي نَجْمٍ ،  
وَاللَّيْلُ مِنْ ضَوْئِي فِي وَجَلٍ ، وَمَا أَسْرَعْتُ فِي طَلَبِ تَارِي لَا قَيْسِلِ : « قَاتَ مَا دُمِجَ »  
و« سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ » .

قَالَ الْقَلَمُ : بَرَّقَ لِمَنْ لَاعَرَكَ ، وَرَوَّجَ عَلَى غَيْرِ الْجَوَاهِرِيِّ صَدَفَكَ ؛ فَا أَنْتَ  
مِنْ بَرَى وَلَا عِطْرِي ، وَلَسْتَ بِمُسَاوِي حَدِّكَ الْقَاطِعِ بَقْلَامَةِ ظُفْرِي ؛ إِنْ بَرَقَ نَلْبُكَ ،  
وَإِنْ رِيحَكَ لِأَرْزَبِ ؛ وَإِنْ مَأَكَ الْجَاهِدُ ، وَإِنْ تَارَكَ لِحَامِدِ ؛ وَمِنْ أَدْعَى مَا لَيْسَ لَهُ  
فَقَدْ بَاءَ بِالْفُجُورِ ، وَمِنْ تَشَبَّحَ بِمَا لَمْ يُعْطَ فَهُوَ كَلَّاسٍ قَوِي زُورُ .



وَمَنْ قَالَ : إِنَّ النَّجْمَ أَكْبَرُهَا السَّمَى \* بِسَيْرٍ دَلِيلٍ كَذَّبَتْهُ دُكَّاءُ !

أنا جُذِلْتُهَا الْحَكَّ ، وَعَذِقْتُهَا الرُّجْبَ ، وَكَرِهْتُهَا الْمُبْجَلِ وَطَلَمَهَا الْمُهْدَبُ ؛ يَخْتَلَفُ  
حَالِي فِي الْأَفْعَالِ السَّيْنَةِ بِاخْتِلَافِ الْأَعْرَاضِ ، وَأُمِئْتُ مَعَ الْمَقَاصِدِ الشَّرِيفَةِ بِحَسَبِ  
الْأَعْرَاضِ ؛ وَأَتَرِيًّا بِكُلِّ زَيٍّْ جَمِيلٍ ، فَأَنْزَلُ فِي كُلِّ حَيٍّ وَأَسِيرُ فِي كُلِّ قَبِيلٍ ؛ فَتَارَةً  
أَرَى إِمَامًا طَلَمًا ، وَتَارَةً لُدْرَ الْكَلَامِ نَائِرًا وَآخَرَى لَعُقُودِ الشَّعْرِ نَاطِلًا ؛ وَطَوْرًا تَلَقُّنِي  
جَوَادًا سَابِقًا ، وَمَرَّةً تَجِدُنِي رُحْمًا طَاعِنًا وَمَهْمًا رَاشِقًا ؛ وَأَوْنَةً تَحَالِي تَجَمُّا مُشْرِقًا ،  
وَحِينًا تَحْسِبُنِي أَفْعَوَاتًا مُطْرِقًا ؛ قَدْ قَفَّتِ الشَّيْبَابَةُ فِي الطَّرَبِ ، وَبَرَزَتْ طَلِيمَا فِي كُلِّ  
مَعْنَى وَإِنْ جَمَعَ بَيْنَنَا جِنْسُ الْقَصَبِ ؛ فَكَانَتْ لِلْأَغَانِي ، وَكُنْتُ لِلْعَانِي ؛ وَجَاءَتْ  
بَغْرِبِ النِّعَمِ ، وَجِئْتُ بِبَدِيعِ الْحِكْمِ ؛ وَلَبِثْتُ بِالْأَسْبَاعِ طَرَبًا ، وَلَوَلْتُ بِالْأَلْيَابِ  
فَأُتِمِّنْتُ لِنَهْرِهَا مِمَّا عَرَاهَا عَجَبًا .

فَقَالَ السَّيْفُ : ذَكَّرْتَنِي الطَّمَنَ وَكُنْتُ نَاسِيًا ، وَطَلَبْتَ التُّكْثَرَ فَازْدَدْتَ قِلَّةً وَصُدْتَ  
خَاصِيًا ؛ فَكُنْتَ كَطَالِبِ الصَّبْدِ فِي مِرْسَةِ الْأَسَدِ إِنْ قَبِيهِ أَهْلَكَهُ ، وَخَالَفْتَ النَّصَّ  
فَالْقَيْتَ بِيَدَيْكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ ؛ فَاقْتَعْتَ مِنَ النِّعْمَةِ بِالْإِيَابِ ، وَعُدَّ الْهَزِيمَةَ مَعَ السَّلَامَةِ  
مِنْ أَرْحِجِ الْأَكْسَابِ ؛ فَلَسْتَ مِمَّنْ يَشُقُّ غُبَارِي ، وَلَا يُقَابِلُ فِي الْمُهْجَاءِ ضَرْمِي  
وَلَا يَصْطَلِي بِنَارِي ؛ فَكَمْ مِنْ بَطَلٍ أَبْطَلْتُ حِرَاكَهُ ، وَكَمْ مِنْ شُجَاعٍ عَجَلْتُ هَلَاقَهُ ؛  
وَكَمْ مِنْ صِنْدِيدٍ أَرْقَتْ دَمَهُ ، وَكَمْ نَائِبٍ الْجُلُثُنِ زَلَزَلْتُ قَدَمَهُ .

وَأَرَادَ الْقَلَمُ أَنْ يَأْخُذَ فِي الْكَلَامِ ، وَيَرْجِعَ إِلَى الْجَدَلِ وَالْإِحْصَامِ ؛ فَتَلَبَّ عَلَيْهِ رِقَّةٌ  
طَبِيعُهُ وَحُسْنُ مَوَارِدِهِ ، وَسَلَاةُ قِيَادِهِ وَجَمِيلُ مَقَاصِدِهِ ؛ فَالَى إِلَى الصُّلْحِ وَجَنَحَ  
إِلَى السَّلَمِ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِ وَتَمَسَّكَ بِالْحِلْمِ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَى السَّيْفِ بِقَلْبِ صَافٍ ،  
وَلِسَانِ رَطْبٍ غَيْرِ جَافٍ ؛ قَالَ : قَدْ طَالَتْ بَيْنَنَا الْمُجَادِلَةُ ، وَكَثُرَتْ الْمُرَاجَعَةُ وَالْمُقَاوَلَةُ ؛

مع ما بيننا من قرابة الشرف ، وأخذ كل منا من الفضل بطرف ؛ فتحن في الكرم شقيقان ، وفي المجد رفيقان ؛ لا يستقل أحدهما بنفسه ، ولا يأبس بغير صاحبه وإن كان من غير جنسه ؛ وقد حليت النهر أشطره ، وطابت أصفاه وأكدره ؛ وقلبت ظهرا وبطنا ، وجبت فيا فيه سهلا وحزا ؛ وإن معاداة الرقيق ، ومباينة الشقيق ؛ توجب سماتة العدو وتقم الصديق ؛ فهل لك أن تعقد للصلح عقدا لا يتعدى حده ، ولا يحل على طول الزمان عقده ؛ لتكون أبدا متالفين ، وعلى السراء والضراء متصاحبين ؛ حتى لا يضرب بنديجي جذيمة مع أصطحابنا مثل ، ولا يتشبه بنا الفرقدان إلا بأما بالخطل .

ولست بمستيق أخا لائمه \* على شعث ، أي الرجال المهلب ؟

فقال السيف : لقد رأيت صوابا ، وزفقت عن وجه المحبة يقابا ؛ وسرت أحسن مسرى وسرت أجمل سير ، وصحبك التوفيق فاشترت بالصلح : والصلح خير .

وقد يجع الله الشيتين بعدما \* يظنان كل الظن أن لا تلاقيا !

ثم قال : لا بد من حكم يكون الصلح على يديه ، وحاكم نرجع في ذلك إليه ؛ لتحظى بزيادة الشرف ، وتظفر من كمال الرقعة بغرف من فوقها غرف ؛ ولسنا بفائزين بطليتنا ، وظافرين ببغيتنا ؛ إلا لدى السيد الأكل ، والمالك الأفضل ؛ الماجد الميرى ، والبطل الكي ؛ والبحر الحضم ، والغيث الأعم ؛ مولى المعالي ومولى النعم ، ومتمطي جواد العز ودافع أعلام الكرم ؛ جامع أشات الفضائل ومالك زمامها ، وضابط أمري النبوة الظاهرية وحافظ نظامها ؛ المقر الكريم ، العلى ، المولوى ، الزينى ، أبى يزيد الدوادار الظاهري : ضاعف الله تعالى حسناته المتكاثرة ، وزاده رفعة في الدارين ليجمع له الأرتقاء بين منازل الدنيا والآخرة ؛ فهو قطب

الملكة الذى عليه تدور، وفارسها الأزوع وأسدها المصور؛ وطلها السميع وإيثها  
الشهير، وأبو طيرتها حقاً من غير نكر وأبن يحدتها الساقطة منه على الخير، ومعقلها  
الأمع وحرزها الحصين، وعقدتها الأقس وجوهرها الثمين؛ وبلادها العليم  
بأحوالها، والجدير بمعرفة أقوالها وأفعالها؛ وترجمانها المتكلم بلسانها، وطلها المتفنن  
فى أفنانها؛ وطبيبها العارف بطبها، ومُنَجِّدُهَا الكاشف لكرها .

هذا : وإنه لما لك أمرنا ، ورأى قَدْرنا ؛ والصَّائِلُ منا الحَدِيثَ ، والجائع منا  
بين الضَّيَّين ؛ فلو قيله «فارسٌ حبس» لولى طامسا ، أو طروق حمى «كليب» لبات من  
جماء أسا ؛ أو قارعه «ربيعه بن مكدّم» لملأ بالسيف مفرقه ، أو نازله «بسطام»  
لبدّد جمعه وفرقه ؛ كما أنه لو قرّن خطه بنفيس الجوهر لعلاه قيمة ، أو قاسمه  
«أبن مقلّة» فى الكتابة لما رضى أن يكون قسيمه ، أو فانه «أبن هلال» لرأى  
أنه سبقه إلى كلّ كرمه .

وبالجملّة فمرّه الظاهر وقضله الأكل ، ومما كره الرّاح وممّا كره غيره الأعزل ؛  
فلا يَسْمَحُ الزّمانُ أن يأتى له بتظير ، ولا أراد مدّج بلوغ شأوه إلا قيل : أتمدّ فلقد  
حاولت الانتهاض بحتاج كبير :

فحيملاً بالمكرّمات وبالمسلى \* وحيلاً بالفضل والسؤدد الفاضل !

فالحمد لله الذى جمعنا بأكرم محلّ وأفضل ، وأحسن مقام وأجمل ، فلهلمّ إليه ينفذ  
بيننا عقد الصلح ، وتبأيه على ملازمة الخدمة والنصح .

ثم لم يلبث أن كتبَ بينهما كتاباً بالصلح والمصافاة ، وتماهدا على الودّ والمؤاافاة ؛  
وأعلنَ عقدَ الصلح مُتَاحِدِيهما ، وحداً يذكر التماضد والتناصر حاديهما ؛ وراح يُنشدُ :  
حسم الصلح ما أشتهته الأملدى ، \* وأذاغته السُّنُ الحساد !

وَزَالَتْ عَنْهُمَا الْأَحْفَادُ وَالْإِخْنُ ، وَبَاتَا فِي أَعْرَ مَكَانٍ وَأَشْرَفِ وَطَنٍ ؛ وَتَلَّتْ قِرَانَهُمَا فَاسْعُدْ ، ثُمَّ قَامَ مُنْشِدُهُمَا فَأَنشَدَ :

لَا يُبْنِكُ الصُّلْحُ بَيْنَ السَّيْفِ وَالْقَلَمِ \* فَصَاقِدُ الصُّلْحِ عَلَى الْقَدَرِ وَالْهِمَمِ !

أَبُو يَزِيدَ نِظَامُ الْمُنْكَ مَالِكًا \* وَوَصِلُ الْعِلْمِ فِي عَلِيَّاهِ بِالْعِلْمِ .

فَهُوَ الْمُرَادُ بِمَا أَبْيَدِيهِ مِنْ مِدَحٍ \* وَغَايَةُ الْقَصْدِ مِنْ تَرْتِيبِ ذَا الْكَلِمِ !

وَأِنْ جَرَى مَدْحُ سَيْفٍ أَوْ عِلَاقَمٌ ، \* فَذَلِكَ وَصْفٌ لِمَا قَدْ حَازَ مِنْ كَرَمِ !

قلت : وسبب إني أنشأت هذه الرسالة أن الأمير أبا يزيد الموضوع له ، تقدمه الله تعالى بالرحمة والرضوان ، كان من جودة الخطِّ وتحريروا قواعد في الطبقة العليا ، وعظمت مكانته عند سلطانه الملك الظاهر «برقوق» وصلت رتبته حتى ولّاه وظيفة الدوايرية بإمرة هامة ألف ، ولم يزل مقلداً عنده حتى مات وهو متولياً ، وأولاني عند عملها له من الصلة والبر المتوالى ما يقصر عنه الوصف ، ويكفل عنه اللسان .

### الصَّنْفُ الْخَامِسُ

( من الرسائل - الأسئلة والأجوبة ، وهي على ضربين )

#### الضرب الأول

#### ( الأمثلة الامتحانية )

قد جرت عادة مشايخ الأدب وفصلاء الكُتّاب أنهم يكتبون إلى الأفاضل بالمسائل يسألون عنها : إما على سبيل الاستفهام واستماعة ما عند المكتوب إليه في ذلك ، وإما على سبيل الامتحان والتعجيز . ثم تارة يُجاب عن تلك الأسئلة بأجوبة تُكتب ، وتارة لا يُجاب عنها ، بحسب ما تقتضيه الحال .

وهذه رسالة كتبها الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري إلى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي صاحب ديوان الإنشاء بالملكة الشامية ، وقد بلغه أن بعض أهل الديوان نال منه ، وأن الشيخ شهاب الدين المذكور ناضل عنه ودافع ، فكتب إليه يشكره على ذلك ويسأل كُتاب الديوان عن أسئلة بعضها يرجع إلى صنعة الإنشاء ، وأكثرها يرجع إلى فن التاريخ . وقد بينت بعضها ونهت عليه في مواضعه في خلال هذا الكتاب ، وهي :

لا يُخْرِجُ الكُوفَةُ مَنِّي غَيْرُ نَائِيَةٍ <sup>(١)</sup> \* وَلَا أَلَيْنُ لِمَنْ لَا يَتَنَبَّأُ لِيْنِي !

الاستفتاح بـ «لَا» تَمْنُّ بِبِرْكَ الشَّهَادَةِ ، وهي ههنا مَقْرَاضٌ يَقْطَعُ مِنَ الْعَيْبِ الْمَلَّةَ وَيَحْصِمُ الْمَادَّةَ ، فَحَسَمَ اللَّهُ عَنْ مَسِيدِنَا الْإِمَامِ الْعَلَامَةِ الْقُدْوَةِ ، شِهَابِ الدِّينِ ، مُكْمَلِ الْأَدَابِ ، وَمَلِكِ الشُّعْرَاءِ وَالْكَتَّابِ ، شَرَّ كُلِّ عَيْنٍ حَاسِدٍ وَلَوْ أَنَّهَا عَيْنُ الشَّمْسِ ، وَحَمَاهُ عَنْ مَذْأَلِ السَّيِّئَةِ ذَوِي الْأَغْيَابِ وَالْأَرْتِيَابِ مِنَ الْهَمِجِ وَالْهَمْسِ ، وَهَيَّا لَهُ أَسْبَابَ الْخَيْرِ حَتَّى يَكُونَ يَوْمُهُ فِيهِ مَقْصَرًا عَنِ النَّدَى زَائِدًا عَلَى الْأَمْسِ ، وَاسْتَعْمَدَ لَهُ الْأَقْدَارَ حَتَّى تَكُونَ فَرَائِضُ تَهْنِئَةِ أَنْامِلِهِ الْعَشْرِ عَنْهُمْ كَفَرَائِضِ الْخَمْسِ ، وَجَعَلَ مَا يَرُدُّ عَنْهُ الْعَيْنَ مِنَ الْعَيْبِ بَعْدَ شَأْنِهِ عَنِ الْمُتَنَاوُلِ سَوَاقِيَةً عَنِ الْخَمْسِ ، حَتَّى يَكُونَ الْمَغْنَى بِقَوْلِ الْقَائِلِ :

وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنْ عِلَاءَهُ \* إِذَا حَادَّوْهُ كَانَ قَدْ جَاوَزَ الْحَدَّ ،

وَلَا عَيْبَ أَيْضًا فِي مَا تَرَى بِرَبِّهِ \* سِوَى أَنَّا تَرَوْنِي بِالْإِسْنَةِ الْأَعْدَا !

وَحَتَّى يُؤْمَنَ عَلَيْهِ الْقَائِلُ :

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الْكَلَالِ إِلَيَّ \* عَيْبٌ يُوقِيهِ مِنَ الْغَيْرِ !

(١) هذا الشطر من صناعة ابن نباتة غيره لما يريد وإنما هو : لَا يُخْرِجُ الْقَرْصَ مَنِّي غَيْرُ مَائِيَةٍ . فَتَقَرَّرُ .

الْقَهْرُ وَالْمَائِيَةُ مَصْدَرٌ كَالْحَيَّةِ صَنَاةُ الْإِبَاءِ . وَالْيَتِ مِنْ كَلِمَةِ قَدَى الْإِصْحَاحِ الْعَدَاوَى .

وَيُقْبَلُ مِنَ الْآخِرِ قَوْلُهُ :

شَخَصَ الْأَنَامُ إِلَى كَلَالِكَ فَاسْتَعِذْ \* مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بَعِيبٍ وَاحِدٍ!  
 الْعَبْدُ يَحْتَمِلُ بِسَلَامٍ مَارَوْضَةً قَطَطَهَا الْجُودَرُ سَحَائِدَهُ ، وَأَفْرِغَ عَلَيْهَا الْأَفْقُ سَقَطَ  
 كَوَاكِبِهِ ، وَأَمْتَدْ نَوَى الدَّرَاجِ لِنُدْبِجِ سَمَائِهَا ، وَتَارِجِ أَرْجَائِهَا ، وَتَمِيشِ مَعَاصِمِ أَنْهَارِهَا  
 الْمَشْقَةِ بِأَفْنَانِهَا ، وَصِقَالِ نَسَمَاتِهَا السَّحَرِيَّةِ ، وَمُغَازَلَةِ عَيْنِهَا السَّحَرِيَّةِ ، وَهَوَاكِ  
 النَّالِيَةِ بِنَفْحَاتِهَا الشَّجَرِيَّةِ ، تَصْرِفُ دَنَائِرَ أَزْهَارِهَا الصُّرُوفِ ، وَيَسْلُ جَنُودَهَا عَلَى  
 الْمُحْمُومِ السُّيُوفِ ، وَتَجْنِبُ حَامِيَهَا الْقُلُوبَ بِالْأَطْوَاقِ ، وَيَتَشَفَّعُ دَوْحُهَا إِلَى النَوَاضِرِ  
 بِالْأَوْرَاقِ ، قَدْ تَرَقَّرَ فِي وَجَنَاتِهَا مَاءُ الشَّبَابِ ، وَغَنَى مُطَرِبُ حَامِيهَا وَعَتَرَهُ فِي حَكِّ  
 مِنَ الدُّبَابِ ، وَبَحَرَهَا رَوِّقُ السَّيْفِ وَفِي قَلْبِ رَوْضَتِهِ الدُّبَابُ .<sup>(٢)</sup>

فَا كُلُّ أَرْضٍ مِثْلَ أَرْضِ هِيَ الْحَيَاةِ ، \* وَمَا كُلُّ نَبْتٍ مِثْلَ نَبْتٍ هُوَ الْبَاقُ !  
 يَوْمًا بِأَنْجٍ مِنْهُ أَشْوَاقًا ، وَأَطْيَبَ مِنْهُ أَشْشَاقًا وَأَنْسَاقًا ، وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ،  
 وَلِكُلِّ غَيْثٍ نَبَاتٌ ، وَمَا لَئِكَ الْغَيْثِ إِلَّا هَذَا النَّبَاتُ .

وَنُعَوِدُ فَقُولُ : لَا أَذْرِي أَلَّا تَعْجَبُ :

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرَتْ كُلُّهَا \* عَجَائِبُ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ !!  
 مِنْ قَوْمٍ هُمْ مَا هُمْ : شَرِبُ مُنَاسِبٍ ، وَطِيبُ مَكَاسِبٍ ، قَدْ أُمَكَّتْهُمْ الْمَعَالَى ،  
 وَطَاوَعَتْهُمْ الْأَيَّامُ وَالْأَيَّامُ ، وَخَدَمَتْهُمْ جَوَارِي السُّعُودِ ، وَتَطَامَنَتْ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَرَاقِي  
 الصُّعُودِ ، كَابِرُ بَسْكَوْنِ الْجَاشِ مِنْحَلَرِ (٩) وَكَتَبْتُ قَدْ أَسْتَجَدَّيْتُ كُلًّا مِنْهُمْ وَلَكِنْ  
 بِالْكَلامِ ، وَأَمْتَسَقَيْتُ وَلَكِنْ قَطْرَةً مِنْ تَهَامِ الْأَقْلَامِ :

وَأَيُّسَرُ مَا يُعْطَى الصَّدِيقُ صَدِيقَهُ \* مِنْ الْخَيْرِ الْمَوْجُودِ أَنْ يَتَكَلَّمَ !

(١) النمر الدباب أوصوته . (٢) ذباب السيف حده أو طرفة المصروف .

”وَلْيُسْعِدِ اللَّهُ لِمَنْ لَمْ يُسْعِدِ الْحَالُ“ فَصَّنَ وَطَنَ مَاطِنَ ، وَاسْتَعِطَفَ بِسَمِ الْكَلَامِ  
غُصْنُ بَرَامِهِ فَمَا عَطَفَ وَلَا حَنَ ، وَيَجَلُ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ فَإِنَّ الْفَضِيلَةَ مِنَ الرِّزْقِ ،  
وَحَرَمَنِي لَذَّةَ الْفَاطِلَةِ فَإِنَّمَا الَّتِي إِذَا أُدْخِلْتَ فِي رَقٍّ دَخَلَ سُرُّ الْبَلَاغَةِ تَحْتَ ذَلِكَ الرِّقِّ ؛  
وَهَلْ هُوَ الْبَحْرُ فَكَيْفَ تَجَّ بِمَدَّةٍ مِنْ مَدَّةٍ ، وَالْغَيْثُ وَلَا أَقُولُ : إِنْ الَّذِي حَسَبَهُ  
إِلَّا مَا قَسَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحَظِّ عِنْدَ عَيْنِهِ :

وَإِذَا الزَّمَانُ جَفَاكَ وَهُوَ أَبُو الْوَرَى \* طَرَأَ فَلَا تَعْتَبِ عَلَى أَوْلَادِهِ !

فَاعْلَمْ أَنَّ كَلِمَةَ سَيِّدِنَا الْعَلَامَةِ فِي الدَّارَيْنِ ، وَشَكَرْتَنِي جُودِ كَرَمِهِ وَكَلِمَةَ الدَّارَيْنِ ،  
[فَهُوَ] صَاحِبُ دِيَوَانِهِمْ ، وَحُجَّةُ زَمَانِهِمْ ؛ فَلَقَدْ وَصَفَنِي بِمَا يَزِيدُ عَلَى الْجَوَابِ ، وَشَافَنِي  
مِنَ الشُّكْرِ بِمَا لَا يَتَوَارَى مِنَ الرِّزْقِ بِجَبَابٍ ، وَأَمَّنِّي الْعِزَّ وَالزَّمَانَ حَرْبٍ ، وَنَصَرَنِي  
وَالْإِيَّامُ سَيُوفٌ تَنْتَقِعُ مِنَ الضَّرْبِ فِي كُلِّ ضَرْبٍ ؛ وَأَعْطَانِي كَرَمَهُ وَالْجَسْلُ جَلٌّ ،  
وَفِي قَلْبِ الزَّمَانِ دَحْلٌ ، وَتَحَلَّى شَهْدَةَ إِحْسَانِهِ وَالْأَوْقَاتُ كِبَارُ النَّحْلِ ؛ حَتَّى صَدَرَنِي  
فِي حُبِّهِ مِنْ كَانَ مِنَ الْأَمِينِ ، وَأَهْتَدَيْتُ مِنْ لَفْظِهِ وَفَضْلِهِ بَقَرَيْنِ لَا يَمِيلُ أَحَدُهُمَا  
وَلَا يَمِينُ ، وَصُلْتُ مِنْ جَاهِهِ وَمَالِهِ بَيِّدَيْنِ إِلَّا أَنْ كَلَّمْتُهُمَا فِي الْإِعْرَاضِ يَمِينِ :  
وَيُؤَيِّنِي فِي حُبِّ عُلُوِّ نِسْوَةٍ \* جَعَلَ الْإِلَهُ خُلُودَهُنَّ نِمَالًا !

وَحَرَسَ اللَّهُ سَيِّدَنَا شَهَابَ زَمَانِهِمْ ، كَمَا حَرَسَ بِهِ سَمَاءَ دِيَوَانِهِمْ ؛ فَلَقَدْ أَسْمَعَنِي  
مِنَ الشُّكْرِ مَا أَرَبْنِي عَلَى الْأَرْبِ ، وَجَعَلَنِي كَلَجِبٍ حِينَ دَخَلَ عَلَى كِسْرَى وَهُوَ وَاحِدٌ  
مِنَ الْعَرَبِ تَخَرَّجَ وَهُوَ سَيِّدُ الْعَرَبِ ، وَهَدَنَنِي أَنْوَارَهُ وَأَنَا أَخْطِئُ مِنْ لَيْلِ الْقَرِيحَةِ  
فِي عَشَوَاءَ ، وَجَادَتْ عَلَى أَنْوَارِهِ وَتَاهِيكَ بَتْلُكِ الْأَنْوَارِ مِنَ الْأَنْوَاءِ ، وَدَفَعَنِي الْفَاطِلَةُ  
وَلَكِنْ عَلَى السَّمَاءِ بَرَقَ حُسُودَى الْمَوَاءِ ؛ وَهَذِهِ قِصَائِكَ فِي تَنَادُرِهَا أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ ،  
وَتَكْتَسِبُ بِأَقْلَامِ اللَّيَالِي عَلَى صَفْحَاتِ الْأَيَّامِ ؛ مِنْ كُلِّ بَيْتٍ هُوَ بَيْتٌ مَالٍ لَا يَنْقُصُهُ  
الْإِفْهَاقُ ، وَلَوْلَا النَّثْقُ لَقُلْتُ : إِنَّهُ الْبَيْتُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِجَهَنَّمَ الرَّفَاقُ مِنَ الْأَقْلَامِ ؛

فَتَى أَقْرَعُ لَطَلَبَ مَدْحِهِ ، وَقَدْ شَغَلِي بِمَنْحِهِ ؟ ، وَمَتَى أَجَارِيهِ بِامْتِدَاحِ وَإِنَّمَا مَدْحِي  
لَهُ مِنْ فَوَائِدِ مَدْحِهِ :

وَمَا هُوَ إِلَّا مَنْ نَدَاهُ وَإِنَّمَا \* مَعَالِيهِ تُمْلِيَنِ الَّذِي أَنَا كَاتِبُهُ !

أَمْ أَتَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ عِثَانِ الثَّنَاءِ إِلَيْهِ ، وَجَلَوْتُ عِرَائِسَ الْمَدَائِحِ عَلَيْهِ ؛ وَعَادَيْتُ  
فِي تَضْيِيدِ أَوْصَافِهِ الْكَرَى ، وَأَنْفَضَيْتُ بِالْقَلَمِ لَهُ فِي نَهَارِ الطُّرْسِ وَلَيْلِ النَّفْسِ مِنَ السَّيْرِ  
وَالسَّرَى ؛ وَمَدَحْتُهُ بِمَلَأَةٍ فِي وَاجْتِهَدْتُ فِي وَصْفِهِ وَكَانَ سِوَاهُ عَلَى أَنَّ أَجْهَدْتُ ،  
فِي وَصْفِهِ أَوْ أَجْهَدْتُ ؛ بِخَازَانِي مُجَازَاةِ السَّنَارِ ، وَأَوْقَعَنِي مِنْ عَنَتِ عَيْنِهِ فِي النَّارِ ،  
وَجَعَلَ عَاسِنِي الَّتِي أُدَلِّي بِهَا دُورًا فَكَيْفَ يَكُونُ الْاِعْتِنَارُ ؟ :

وَكَانَ كَذِبُ السُّوءِ إِذْ قَالَ مَرَّةً : \* لِعَمْرُوسَةٍ وَالذَّبُّ غَرَّانُ مُرْمِلُ :

أَأَنْتِ الَّتِي مِنْ غَيْرِ سُوءٍ شَمَمْتِنِي ؟ \* قَالَتْ : مَتَى ذَا ؟ قَالَ : ذَا عَامٍ أَوَّلُ

قَالَتْ : وَلَيْدَتِ الْآنَ بَلْ رُمْتُ فَدَرَّةً \* فَلَوْ نَاكَ كُلِّي لَا هَذَا لَكَ مَا كُلُّ !

وَحُلْ هَذَا الْمُتَرَجِّمَ ، وَتَحْقِيقَ هَذَا الطَّنِّ الْمُرْجَمِ ؛ أَنَّهُ بَلَعَنِي أَنْ جَمَاعَةً مِنَ الَّذِينَ  
اسْتَفْتَيْتُهُمْ اسْتِبْطَاطًا لِقَوَائِمِهِمْ ، وَالْإِيقَاطًا لِقَرَائِمِهِمْ ؛ لَا تَكْلِيْفًا لَهُمْ فِيمَا لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا  
الْأَقْوَى مِنَ الْأَقْوَامِ ، وَلَا يُسْتَجَدُّ بِهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَّا بَارِبَابِ صَفَحَاتِ السُّيُوفِ  
لَا أَرْبَابِ قَبَابَاتِ الْأَقْلَامِ ؛ أَرَادُوا النَّصَّ مِنِّي ، وَقَتِي الْإِحْسَانَ عَنِّي ؛ وَهَيْهَاتَ !

\* أَنَا أَبُو النِّجَمِ وَشِعْرِي شِعْرِي \*

هَآؤَا وَبِضَافَتِي ، وَهَذِهِ يَدِي لَا أُنَى الْقَيْتُ بِهَا إِلَى السَّلَامِ وَلِكِنْ لِأَخْرِصَ  
صِنَاعَتِي : \* هُوَ الْحَيُّ وَمَعَانِيهِ مَعَانِيهِ \*

وَلِيْنِهِمْ أَجْتَمَعُوا بِالْمِيدَانِ عَلَى حَدِيثِي ، وَذَكَرُوا قَدِيمِي وَحَدِيثِي ؛ وَتَسَابَقُوا فِي الْفَيْتَةِ  
أَفْرَاسَ رِهَانٍ ، وَأَعْجَبَ كُلُّهُمْ أَنْ يَقُولَ : هَذِهِ الشُّقْرَاءُ فِي يَدِي وَهَذَا الْمِيدَانُ ؛



وَلَا مُؤَاوَدَةً لَهُمْ ، وَمَهُمُ بِالْإِسْبَاقِ وَقَعُوا ، وَاسْتَطَابُوا لَحْمَ أَخِيهِمْ فَسَلَقُوهُ بِالسِّنَةِ حِدَادَ  
وَأَكَلُوا ، حَتَّى تَمَدَّى ذَلِكَ إِلَى مِنْ جَادَ عَلَى الْجَوَابِ ، وَفَعَلَهُ إِمَامًا جَزَاءً لِلدَّجِّ وَإِمَامًا  
لِلشَّوَابِ :

قُلْتُ لِمَا عَيْتِي جَعَارَ وَجَرِي \* بَلِّغْ أَمْرِي لَمْ يَشْهَدِ الْيَوْمَ نَاصِرَهُ !

وما كان المليك أن يفري في من سبق مدحه إلى ، ومن انتصر به لنفسه فما  
انتصر لذي "وهذا لعمري جهد من لآله جهد" وما تخلو هذه الأفعال: إِمَامًا أَنْ تَكُونَ  
مُجَازَاةً عَلَى مَدْحِهِمْ ، فَإِنَّ الْكَرَامَ وَقَضَاهُمْ ، وَالْمُنْصِفُونَ وَمَدْحُهُمْ ؟ ، أَوْ ظَنًّا أَنِّي  
عَرَضْتُ بِهِمْ فِيمَنْ عَرَضْتُ ، فَإِنَّ ذِكَاةَ الْأَيَّامِ وَأَيْنَ عَقْلُهُمْ ؟ ، وَمَلَّ تَطَنُّ السَّمَاءِ  
أَنْ يَدَا تَفْصِلَ إِلَيْهَا ، وَالنُّجُومُ أَنْ حَلَقًا تَحْكُمَ عَلَيْهَا ؟ ، وَالذَّهَبُ مَحْرُوسٌ لَا يَصْدَأُ  
جَرْمُهُ ، وَالْجَوْهَرُ مَعْرُوفٌ لَا يَجْهَلُ حُكْمُهُ ، وَمَنْ الَّذِي يُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ أَنْ يَجْعَلَ الشَّمْسَ  
فَضْلَهَا الْبَاطِلَ ، أَوْ يُحَسِّنَ لَهُ عَقْلَهُ أَنْ يَقُولَ : مَحْيَانٌ وَإِثْلٌ بِكَافِلٍ ؟ ، ... .. (١)  
أَذْرَكْنِي ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلِمَا أَمْرَقَ ، وَأَتَّخِذُنِي بِكُلِّ لَفْظَةٍ هِيَ أَمْضَى مِنَ السَّهْمِ وَأَرْشَقُ ،  
وَأَضْوَاءُ مِنَ النُّجُومِ وَأَشْرَقُ ، وَمَا أَعْرِفُ كَيْفَ صَبَّرِي عَلَى هَذَا الْحَرْبِ فِي صُورَةِ  
السَّلَمِ ؟ ، وَمَا أَظُنُّهُ أَرَادَ إِلَّا أَنْ يَلْمَ قَلْبِي الَّذِي فِي يَدِهِ الْحُكْمُ ، كَمَا عَلَّمَهُ لِلْقَلَمِ ، وَحَيْثُ  
قَضَى الْحَلِيقُ مَا قَضَى ، وَمَضَى الْوَقْتُ وَمَا كَانَ إِلَّا سَيِّفًا فِي عَرْضِ الْعَبْدِ مَضَى :

فَكَرَّرْتُ تَبَتُّيهِ فَصَادَقْتُهُ \* عَلَى دَمِهِ وَمَصْرَعِهِ السَّبْعَا

فَأَنَا أَتَشَدُّ اللَّهُ تَعَالَى هَؤُلَاءِ السَّادَةِ الْعَائِلِينَ ، أَوْ الْقَوْمِ الْعَائِلِينَ ، هَلْ يَعْرِفُونَ أَنَّ  
الَّذِي عَرَضْتُ بِهِ مِنْهُمْ قَوْمٌ قَدْ اسْتَوَلَى عَلَيْهِمُ الْبُحْرُ بِمُحَرِّضِهِ ، وَزَلَّ فِيهِمُ الْجِهَادُ  
بِقَضَاهُ وَقَضِيضِهِ ، وَأَصْبَحَ بَابُهُمْ لَمْ كُتِبَتْ بِلَا ثِمَارٍ ، وَدِيَارُهُمْ عَلَى رَأْيِ أَبِي الْعَلَاءِ  
كَدِيوَانِ أَبِي مِهْيَارٍ لَا يُحْسِنُ أَحَدُهُمْ فِي الْكِتَابَةِ غَيْرَ الْعَامَةِ الْمُدْرَجَةِ ، وَالْعَذْبَةِ الْمُعْجَهِ ،

وَالْعَبَاةَ الضَّيْقَةَ وَالْأَتُوبَ الْمُفْرَجَةَ ؛ وَيَتَنَاوَلُ السَّلْمَ بِالْيَمِينِ وَكَتَابَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى  
بِالشِّمَالِ ، وَمَشَى هُنَا عَلَى هَذَا وَلَكِنْ عَلَى الضَّلَالِ ؛ لَوْ سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ «الْبَدِيعِ»  
فِي الْكِتَابَةِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ السُّؤَالِ غَيْرَ التَّرِيدِ ، وَعَنْ «عَبْدِ الْحَمِيدِ» زَادَ فِي الْفِكْرِ وَقَصَّ :  
وَعَبْدُ الْحَمِيدِ عَبْدُ الْحَمِيدِ ؛ وَ«الصَّاحِبِ» لَقَالَ : إِنَّهُ يَهْرَقُ بِحُجْلَيْهِ ، وَ«الْحَوَارِزْمِيِّ»  
لَقَالَ : سَرَّجُ قَرْسِيٍّ ، «وَالْفَاضِلُ» لَقَالَ : هَا هُوَ ذَا ذَيْلِ مَلَيْسِي . فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ  
كَذَلِكَ فَفِيمَ الْمَلَامِ وَالتَّنْفِيدِ :

عَلَّقُوا اللَّحْمَ لِلْبُرَا \* عِطَى ذُرُوفِي حَضَنَ ،<sup>(١)</sup>

ثُمَّ لَامُوا الْبُرَاةَ أَنْفَ \* قَطَعْتَ نَحْوَهَا الرِّسْنَ ،

لَوْ أَرَادُوا صِيَانَتِي \* حَجَبُوا وَجْهَكَ الْحَسْنَ !

وَالْوَجْهَ الْحَسْنَ هُنَا وَجْهَ الْمُنْتَصِبِ وَحِجَابُهُ عَنْ شَيْءٍ تِلْكَ الْأَتَارُ ، وَتَحْمِشُ تِلْكَ  
الْأَكْفَافُ .

وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَمَا مِثْلِي مَعَ مَنْ ذَكَرْنِي إِلَّا قَوْلُ الْقَائِلِ :

سَافِرٌ بِطَرَفِكَ حَيْثُ شَفَعْتُ ظَنُّ تَرَى إِلَّا بِحَيْلٍ !

فَقِيلَ لَهُ : بَحَلَّتِ النَّاسَ ، قَالِ : كَذَّبُونِي بِوَاحِدٍ ، وَهَآؤُنَا فَتُكَذَّبُونِي بِوَاحِدٍ مِنْ  
عَرَضَتْ ، وَصَحِيحٌ مِنْ أَمْرَضَتْ ؛ وَلِيُزَيَّزَ إِلَى مَضْجِعِهِ ، وَلِيَكُنَّ عَلَى يَقِينٍ مِنْ مَضْرَعِهِ ؛  
وَلَا يَتْرَكَ شَيْئًا مِنْ أَدْوَاتِهِ ، وَلَا يَأْتِي إِلَّا وَمَعَهُ نَادِيَّتُهُ مِنْ حَتَامِ هَمَزَاتِهِ .

وَأَنَا أَقْتَرِحُ عَلَيْهِ مِنْ مَسَائِلِ الْكِتَابَةِ بَعْضَ مَا أَقْتَرَحَهُ الْقُضَلَاءُ ، وَبَنَى عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ ؛  
وَالْأَفْأَفُ أَنَا أَبُو عُدْرَتِهِ ، وَمَالِكُ أَمْرَتِهِ ؛ وَلَا يَلُومُ إِلَّا الْقَائِلُ :

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ \* فَضَحَّتْهُ شَوَاهِدُ الْإِمْتِحَانِ !

فانه الذى تَبَيَّنَ عليه وإن لم أَكُنْ سَاهِيَا، وَذَكَرَنِ الطَّنَّ وما كُنْتُ نَاسِيَا؛ حَتَّى رَمَيْتُهُ مِنْ هَذِهِ الْمَسَائِلِ، فِي جَهْلٍ، لَا يُتَدَنَّ فِيهَا بَنِي الدَّعْنِ الْوَارِدُ، وَأَقْتَصَحْتُ بِهِ فِي بَحَارٍ لَا يَعْصِمُ مِنْهَا جَبَلُ الْفِكْرِ الْجَامِدِ؛ عَلَى أَنَّهَا فِيمَا أَغْفَلْتُ كَالْتَمِدِ مِنَ الْبَحَارِ، وَاللَّحْمَةِ مِنَ النَّهَارِ؛ وَلَوْلَا الْأَخْتِصَارُ، لَأَتَيْتُ مِنْهَا بِالْجَمِّ الْجَمِّ فَلَنَحْمِدَ اللَّهَ وَالْإِخْتِصَارَ، فَأَقُولُ :

مَنْ كَتَبَ فِي الْوَرَقِ وَأَسْتَنْبَطَهُ ؟ وَمَنْ خَتَمَ الْكُتُبَ بِالطِّينِ وَرَبَطَهُ ؟ وَمَنْ فَتَرَ طِينَ الْكُتُبَ بِاللَّشَا وَضَبَطَهُ ؟ وَمَنْ قَالَ : أَمَا بَعْدُ فِي كِتَابِهِ ؟ وَمَنْ جَعَلَهَا فِي الْخُطْبِ وَأَسْقَطَهَا فِي آيَاتِهِ فِي الْمَكَاتِبِ وَجَوَابِهِ ؟ وَمَنْ كَرِهَ الْإِسْتِشَادَ فِي مَكَاتِبِ الْمُلُوكِ بِالْأَشْعَارِ ؟ وَكَيْفَ تَرَكَهَا عَلَى مَا فِيهَا مِنَ الْآثَارِ ؟ وَمَنْ أَلْدَى أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ ثَمًّا بَعْدَ شَعْرًا ؟ وَمَنْ وَضَعَ هَذِهِ الطُّورَةَ فِي التَّقَالِيدِ وَأَخْتَرَعَهَا ؟ وَمَا حُجَّتُهُ إِذْ قَدَّمَهَا عَلَى أَمِّهِ وَرَفَعَهَا ؟ وَمَنْ أَلْدَى بَعْدَ بَيْنِ السُّطُورِ وَوَسَّعَهَا ؟ وَكَيْفَ تَرَكَ بِالتَّعَاطُلِ فِي كُتُبِهِ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَسْمَعْهُ مِنَ التَّوَاضُّعِ مَا وَسَّعَهَا ؟ وَمَنْ اسْتَفْتَى بِكَلَامَةِ آيَةٍ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ عَنِ الْجَوَابِ ؟ وَمَنْ أَكْتَفَى بَيْتَ مِنَ الشُّعْرِ عَمَّا يَحْتَاجُ مِنْ تَطْوِيلِهِ الْكُتَابِ ؟ وَمَنْ أَلْدَى عَنِ الْمُتَرْجِمَاتِ وَرَتَّبَهَا ؟ وَأَخْنَى مُلَطَّفَاتِ الْجَوَاسِمِ وَفِيهَا ؟ وَمَنْ أَلْدَى سَنَ الْبُرْدِ وَبَعَثَهَا فِي الْمَلِمَاتِ ؟ وَمَنْ حَاكَى شَيْطَانًا مِنْ مُلْكِ سُلَيْمَانَ فَاسْتَعْدَمَ الطُّيُورَ بِشُعْرِ الْمُهَمَّاتِ ؟ وَمَا أَوْجَزَ مَكَاتِبَهُ كُتُبُهَا عَنْ خَلِيفَةٍ فِي مَعْنَى ؟ وَمَا أَلْبَغَ جَوَابٍ وَأَوْجَزَهُ أَجَابَ بِهِ عَنْ خَلِيفَةٍ مِنْ لَأَسْمَى وَلَا كَتَى ؟ وَلَمْ أَرَّجْ بِحُجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَكَيْفَ لَمْ يُؤَرَّجْ بِمَوْلَاهُ أَوْضَرَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيَّامِ ؟ وَمَنْ أَلْدَى أَمْرَهُ الْخَلِيفَةُ بِكَلَامَةِ مَعْنَى فَأَرَّجَ عَلَيْهِ الْكَلَامَ وَقَلَّعَهُ فِي الْمَنَامِ ؟ وَمَنْ أَلْدَى وَصَفَ بِرِسَالَةٍ طَوِيلَةٍ شَيْئًا لَمْ يَصِفْهُ بِثَنَائٍ وَلَا نِظَامٍ ؟ وَكَيْفَ جَازَ الْكَاتِبُ أَنْ يَكْتُبَ آيَةً مِنَ الْكُتُبِ فِي لَفْظَةٍ يَحْسِبُهَا مِنْ لَا يَحْفَظُ أَنَّهَا مِنْ جِنْدِهِ

لامن خِفَظِه ؟ ، مثلُ قوله مع الرسول : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . وقول الآخر في كتابه : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يُنْطَلِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ . وكثير من هذا ؟ وهل يُؤخَذُ عليه في مثل ذلك كما أُخِذَ على الجحّاج في أسماء المُستَغْنِينَ به من أهل السّجن : ﴿ اخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون ﴾ ؟ . وما الفرقُ بينهما ؟

وَعَلَامَ يُطَوِّلُ الْكَاتِبُ بَاءَ الْبَسْمَلَةِ ؟ ، وَلَا يُثَبِّتُ إِلَّا قَلِيلًا وَأَوَّ الْحَسْبَةَ ؟ ، وَلَا يُعَدِّلُ وَلَا يُسَمِّلُ عَلَى مَا أَلْفَ ، وَكَيْفَ يُعَلِّمُ فِي بَعْضِ السَّجَّاتِ عَلَى الْأَسْمَاءِ الْمُقْصُورَةِ بِالْيَاءِ وَالْأَصْلُ فِيهَا الْأَلِفُ ؟ ، وَأَسْأَلُهُ كَيْفَ يَصِفُ الْقَرَّاطِيسَ وَالْأَقْلَامَ وَيَسْتَنْصِيهَا ؟ ، وَالسَّكِينِ وَالنَّوَاةَ وَيَسْتَهْلِسُهَا ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ مَلِكٌ طَلَبَ مِنْهُ عَدُوٌّ قَطِيعَةً عَنْ جَيْشِهِ يُعْطِيهَا ؟ ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ عَنْ خَلِيفَةٍ أَسْتَسْقَى وَلَمْ يُمْطَرْ ؟ ، وَخَلِيفَةٍ صَارَعَ فُصْرَجَ كَالْمُعَصَمِ وَكَيْفَ يُعَذِّرُ ؟ ، وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ فِي نَارٍ وَقَفَتْ فِي حَرَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ عَنِ الْمَهْزُومِ إِلَى مَنْ هَزَمَهُ فِي مَعْنَى رُكُونِهِ إِلَى الْإِحْجَامِ ؟ ، وَكَيْفَ يُنَبِّئُ خَلِيفَةً خُلِعَ فَرَجُ ، وَغُرِبَ عَنِ السَّجْنِ وَطَلَعَ ؟ ، وَأَسْرَهُ الْعَدُوُّ ثُمَّ تَخَلَّصَ وَاسْتَقَامَ بَعْدَ مَا نَهَضَهُ النَّهْرُ بِمَرَضٍ ، أَوْ تَمَرَّضَ فَانْتَهَضَ ؟ ، وَكَيْفَ يُنَبِّئُ مِنْ زَوْجٍ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ أُمِّهِ ، وَيُعْزِي وَالِدًا قَتَلَ وَلَدَهُ وَوَلَدًا قَتَلَ وَالِدَهُ وَيُصَوِّبُ حُكْمَهُ ؟ ، وَيَكْتُبُ عَمَّنْ حَاصِرٍ حَصْنًا وَتَرَكَ بَعْدَ تَسْهِيلِ الْمَسَالِكِ ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ فِي نَيْلٍ لَمْ يَوْفِ لَا أَحْوَجَ اللَّهُ لَذَلِكَ ؟ ، وَيُعْزِي كَافِرًا عَنْ بَعْضِ الْأَعْرَاءِ الْأَقْرَامِ ، وَيُنَشِّئُ عَهْدَ يَهُودَى بوزارة أمير المؤمنين عليه السلام ؟ ، وَيَكْتُبُ تَقْلِيدًا لثَلَاثَةِ أَوْ أَرْبَعَةِ مِنَ الْحُكَّامِ ، وَيَسْتَنْجِدُ بِأَمْوَالٍ أَوْ مَسَاكِينٍ (؟) مِنْ عَدُوِّ كَافِرٍ عَلَى كَافِرٍ ؟ وَيُشَرِّعُوا بِأَخْذِ بِلَادِهِ مِنْهُ ، وَيَعْتَدِرُ عَنْ مَلِكٍ أَخَذَتْ شَوَانِيهِ وَحُجِرَتْ عَنْهُ ؟ ، وَيُنَبِّئُ خَصِيصًا بِزَوَاجِهِ ، وَيَعْتَدِرُ عَنْ فَرٍّ وَتَرَكَ وَلَّهُ تَحْمُكَ الظُّبَا فِي أَوْدَاجِهِ ؟ ،

وَيَكْتُبُ لِمَا بَنَى مَبَانِي فَأَحْتَرَقَتْ أَوْ وَقَعَتْ ، أَوْ أَجْرَى خِيُولَ رَهَانٍ فَسُقِيتْ خَيْلُهُ  
وَأَقْطَعَتْ ؟ ؛ أَوْ خَرَجَ لَصِيدٍ فَلَمْ يَجِدْ مَا يُصَادُ ، أَوْ لِبَرْدَةٍ بِنْدَقٍ أَخْتَلَّ فِيهَا وَلَمْ يَصْرَعْ  
شَيْئًا مِنَ الْوَاجِبِ الْمُنَادِ ؟ ؛ أَوْ رَكِبَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ تَمَلُّكِهِ فَقَطَّرَ بِهِ الْجَوَادُ ،  
أَوْ وُضِعَتْ لَهُ أَثْقَى فَضْلُهَا بِكَلَامٍ عَلَى مَا يَرْجُوهُ مِنْ ذُكُورِ الْأَوْلَادِ .

وَمِنْ هُنَا أَكْتُفِ الْقَلَمَ عَنْ شَوْطِهِ ، وَأُزْفَعَ عَنْهُ مَا وَضَعَهُ اللِّسَانُ مِنْ سَوَاطِيهِ ؛  
خَوْفًا مِنَ الْمَلَالِ وَالصَّخَبِ ، وَكَفَى بِالْفَرْقَةِ عَنْ مَعْرِفَةِ النَّهْرِ .

فَإِذَا تَسَيَّطَ هَذَا الْكَاتِبُ مِنْ هَذَا الْعِقَالِ ، وَتَصَرَّفَ فِي فُنُونِ هَذَا الْمَقَالِ ، وَخَرَجَ  
مِنْ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ خُرُوجَ السَّيْفِ مِنَ الصِّقَالِ ؛ أَمْتَدَّتْ كَفُّ الثَّرْيَا فِي هَذَا النَّسِيانِ  
بِمَسْحِ جِهَتِهِ ، وَجَاءَ بِجَوَابِ هَذَا النِّكَتِ كَمَا يُقَالُ : بَرَنَسُهُ ؟ (؟) وَأَمَاطَ لِثَامَهَا ،  
وَتَمَرَّ عَنْ أَزْهَارِهَا أَكْثَامَهَا - أَقْطَعْتَ الْأَطَاعَ دُونَ غَايَتِهِ ، وَبَسِطْتَ أَيْدِي رَسَائِلِ  
الْبَلَاءِ لِمُبَاسَاةِ رَسَائِلِهِ ، بَلْ أَتَيْتُهُ وَحَمَلْتُ قَلْبَهُ عَلَى أَقْلَامِ قُرْآنِ الْكَلَامِ سَوْدَاءَ رَأْيَتِهِ ؛  
وَبَانَ هُنَاكَ ظُلُمُ الْعَائِبِ وَحَقِيقَةُ ، فَكَانَ كَمَنْ سُلَّ لِنَحْرِهِ سَيْفُهُ ، وَعُذِرَ عَلَى تَوَالِي  
الْأَتَائِبِ مُؤْنَبَهُ ، وَكَانَ يَوْمُئِذٍ لَهُ الْوَيْلُ لِأَمِنْ يَكْذِبُهُ ، وَامْتَازَ هَذَا الْفَاضِلُ بِمَا تَحَدَّثُهُ  
هَذِهِ الْوَاقِعَةُ مِنَ الْفَخْرِ وَتَجَلُّبِهِ ؛

فَعَاجُوا فَاتَّسُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ \* وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ !

وَالْمُسْتَوَلُ مِنْ إِحْسَانِ سَيِّدِنَا أَنْ يَسُدَّ الْخَطْلَ كَيْفَ مَا وَجَدَهُ ، وَيُصْلِحَ الْخَطَأَ وَالْخَطْلَ  
كَمَا عَوَّدَتْهُ مِنْهُ وَكَمَا عَوَّدَهُ ؛ فَإِنَّهُ أَمِيرُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَنَحْنُ الرُّطَايَا ، وَشَيْخُ الْقَصَاحَةِ  
وَنَحْنُ الْقُرُقَاءُ الَّذِينَ كُنَّا وَجَدْنَا فِي زَوَايَاهُ مِنْهَا خَبَايَا ؛ وَمَا هَذِهِ الرِّسَالَةُ إِلَّا يَدٌ  
أَمْتَدَّتْ تَسْأَلُ مِنَ الْحِلْمِ مَا يَسْمَعُهَا ، وَهَذِهِ السُّطُورُ إِلَّا حَبَائِلُ تَنْصِيدُ مِنْ عَوَائِدِهَا  
مَا يَنْقَعُهَا وَيَرْقِعُهَا :

فَارْخَ عَلَيْهَا مِمَّا مَعْرُوفَكَ الَّذِي \* سَكَتَتْ بِهِ قِدَمًا عَلَى عَوَارِي !

والله تعالى العالم أنها وردت عن قلب منهول عن حُسن الإيقان، مُعَلِّدٍ عليه  
نوايب الدهر بآمال الخفقان؛ مَرْمِيٍّ لِسهام الأعداء في قَبْضِ الضُّلوع، ظائِبٍ في بحر  
الهم وكما رُمْتُ أن يلقي إلى دُر الكلام التي دُر الدُّموع :

أَيْكِ فَخَرِي مُهَجِّي فِي عَيْنِي \* وَكَأَنَّ مَا أَبْكَيْتُهُ أَبْكَانِي !

لا يَدْعُ لِي الْفِكْرُ فِي قَلَةٍ ..... (١) ..... الْإِخْوَانُ وَقَدْ اسْتَلِيطَ فِيهِ مَعْنَى ، وَلَا يُفْسِحُ لِي  
التَّعَجُّبُ مِنْ أَيْتَاءِ الزَّمَانِ لِقَصِّهِمْ أَنْ أَصَحَّ قَدًّا وَلَا وَزَنًا ؛ أَجْنَحُ لِسْلَمِ الْأَيَّامِ فَكَأَنِّي  
لَحْرِبَهَا جَحَّتْ ، وَأَقْدَحُ فِكْرِي فِي اسْتِعْطَافِ الزَّمَانِ فَكَأَنِّي فِيهِ قَدْ قَدَحْتُ ، فَلَوْ قَضَى  
اللهُ لِي بِالْمُنْيَةِ مِنَ الْمُنْيَةِ لَأَرَحْتُ الزَّمَانَ وَأَسْتَرَحْتُ :

فَالْأَرْضُ تَمْلَأُ أَتَى مُتَصَرِّفٌ \* مِنْ فَوْقِهَا وَكَأَنِّي مِنْ تَحْتِهَا !

وَلَا فَرْقَ بَيْنَا بَيْنَنَا غَيْرَ أَتْنَا \* بِمَسِّ الْأَذَى نَلْدِي وَمِنْ مَاتَ لَا يَلْدِي !  
وَلَا بَدَى أَنْ أَطْلَقَ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ طَلَاقًا قَطْعِيًّا ، لَا طَلَاقًا رَجْعِيًّا ؛ وَأَجَاهِرُهَا  
جِهَارًا حَرْبِيًّا لَا جِهَارًا عَيْنِيًّا ؛ وَأَضَعُ صَعْدَةَ حُلْمِي مِنْ أَدَبٍ عَنِ بَدَنِ ، وَأَتَوَلَّى قَوْسَ  
دَالِهِ مَعَ سَهْمِ بَانِيهَا فَمَا أَصْبَحْتُ غَيْرَ كَيْدِي ؛ "كَأَنَّ الْقَوْسَ مِنْهَا مَوْضِعُ الْوَرْدِ" ، وَقُلْتُ  
أَنْهَيْ بِأَصْبُورِي بَسْلَامٍ "فَإِذَا قَبِيتُ مِنْ آفَاتِهَا ، وَمُنِيتُ بِهِ مِنَ الْخَوَافِ فِي عَرَفَاتِهَا ،  
وَمُطِرْتُ لَامِنْ عَوَارِضِ قَطْرِهَا وَلَكِنْ مِنْ عَوَارِضِ مَرَجَاتِهَا :

وَأَيُّ رَأَيْتُ الْحُبَّ فِي الْقَلْبِ وَالْأَذَى \* إِذَا أَجْمَعَا لَمْ يَلَيْتُ الْحُبُّ يَلْعَبُ !

وَمَعَ هَذَا الْحَدِيثِ لَمْ أَشْكُ أَنْ أَحْدَا سَبَقْتُ عَلَى تَشْيِيعِي ، وَطَرَفُهُ قَدِيمَةٌ فِي اسْتِفْتَاحِ  
الْمَكَاتِبِ ، وَأَسْتَفْتَاحِ الْمُخَاطَبَةِ ؛ وَيَقُولُ : تِلْكَ أُمَةٌ قَدْ خَلَّتْ ، وَدَوْلَةٌ فَاضِلَةٌ أَذْرَتْ  
مِثْلَ مَا أَقْبَلْتُ ؛ فَكَيْفَ تَبِعَهَا وَتَرَكَ طَرِيقَةَ فَضْلَائِهِ عَصْرِهِ ، وَأَبْنَاءَ مَضْرِهِ ، فَالْجَوَابُ

(١) يَأْتِي بِالْأَصْلِ وَلَهُ : «صِنَاعَةُ الْإِخْوَانِ» أَوْ نَحْوُهُ .

ما قاله القاضي السعيد بن سناء الملك رحمه الله تعالى ، فإِ كان أمدَّ حَاطَرِهِ ! ،  
وَأَكْثَرَ ذَهَبَ لَفْظِهِ وَجَوَاهِرِهِ !! :

إِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ ثُمَّ رَأَيْتُهَا \* مَاذَا عَلَيَّ إِذَا عَشِيتُ الْأَحْسَاءَ ؟ !

وذكرت أن الاس عدوه ونسيت أن الاس أفلها <sup>(١)</sup> .

اتَّهت إلى هذا الموضع ، والدريك قد نفي بيمد الظلام ، وبلغ عن الصبح السلام ،  
والأزهار قد سلبته عينه فقام من كراه يصبح ، ويميدان النُصُون قد أَمَحَّ بِمَغْنَى  
الْأَطْيَارِ وَشَغِبَ الرِّيحُ ، وَنَسُرَ السَّمَاءُ قَدَرًا مِنَ الْغَدَاةِ وَبَازِيهَا ، وَالنُّجُومُ قَدْ حُمِلَتْ  
إِلَى مَلَحِهَا مِنَ الْغَرَبِ عَلَى نُعُوشٍ دِيَانِيهَا ، وَالْمَجَرَّةُ مِنَ الْجَوَازِ عَاطِلَةٌ أَنْخَصِرَ ،  
وَحَاقَانُ الصُّبْحِ قَدْ حَمَلَ عَلَى تَجَاشِي الظَّلامِ رَايَةَ النُّصَرِ .

لَا بَرَحَ سَيِّدَتَا مَقْصُومِ الرُّوْيَةِ وَالْأَرْجِيَالِ ، مَسْجِلًا بِشَجَاعَةِ الْبِرَاعَةِ وَالْحَرْبِ مَجَالِ ،  
تَجُودُ الْمَوَاقِفِ وَالْمَسَاحِي "وَالنَّقْصُ قَعْمُ وَالطُّرُوسُ مَجَالٌ" ، وَالسَّلَامُ .

### الضنف السادس

( من الرسائل ما تكتب به الحوادث والمآثرات )

ويختلف الحال فيها باختلاف الوقائع : فلذا وقعت للأديب ما جرى وأراد  
الكتابة بها إلى بعض إخوانه ، حكى له تلك المساجرة في كتابه مع تنقيح الكلام  
في ذلك ، إما ابتداء وإما جواباً ، عند مصادفة ورؤد كتابه إذ ذاك إليه .

وهذه نسخة رسالة أنشأها الإمام قاضي قضاة المسلمين محي الدين ، أبو الفضل  
يحيى ، بن قاضي القضاة الإمام محي الدين أبي المعالي محمد ، بن علي ، بن محمد ،

(١) وردت هذه الجملة في الأصل هكذا ولا معنى لها .

ابن الحسين، بن علي، بن عبد العزيز، بن علي، بن الحسين، بن محمد، بن عبد الرحمن،  
 ابن القاسم، بن الوليد، بن القاسم، بن عبد الرحمن، بن أبان، بن عثمان، بن عفان  
 رضى الله عنه، لما ورد إلى القاهرة المحروسة في التاسع من جمادى الأولى من سنة  
 تسع وعشرين وستمائة، وتُعرف «برسالة الشمس» وهي :

وَرَدَتْ رُقْعَةُ سَيِّدِنَا أَسْعَدَهُ اللَّهُ بِتَوْفِيقِهِ، وَأَوْفَّحَ فِي آكْتِسَابِ الْخَيْرَاتِ سُبُلَ  
 طَرِيقِهِ ؛ فَوَقَفْتُ عَلَيْهَا وَقُوفُ السَّائِرِ بُوْرُودَهَا، الْمُتَسَعِّدِ بُوْفُودِهَا، الْمُبْتَلِ إِلَى اللَّهِ  
 فِي إِبْقَاءِ مُهْجَتِهِ الَّتِي يَنْشَرُّ الْوُجُودَ بُوْجُودَهَا :

وَلَيْسَ بِتَرْوِيقِ اللِّسَانِ وَصَوْغِهِ \* وَلَكِنَّهُ قَدْ مَازَجَ الْقَلَمَ وَالِدَمَامَ !

وَفَضَّضْتُهَا عَنْ مِثْلِ التَّوْرِ تَفَتَّحَهُ الصَّبَا، وَبُرُودِ الرِّيَاضِ تَسَاهَمَتْ فِي آكْتِسَاءِ  
 وَشِبَاهِ الْأَهْضَابِ وَالرَّبَا ؛ يَكْبُوْ جَوَادُ الْبَلِغِ فِي مِضَارِ وَصْفِهَا، وَيَثْبُو عَضْبُ لِسَانِهِ  
 عَنْ مِجَارَاتِهَا فِي رِصْفِهَا؛ يُجْجِلُ نَحْيَا النَّهَارِ بِيَاضِ طَرِمْهَا، وَيُوْدُّ اللَّيْلَ لَوْ تَقَضَّتْ عَلَيْهِ  
 صِبْغَةً نَفْسِهَا ؛ وَتَحْسَدُ الْكَوَاكِبُ رَاقِي مَعَانِيهَا، وَتَنْقَى لَوْ أُعِيرَتْ فَضْلَ إِشْرَاقِهَا  
 وَتَلَالِيهَا ؛ فِي كُلِّ فِقرَةٍ رَوْضَةٌ وَكُلُّ مَعْنَى كَأْسٌ مُدَامٌ، وَكُلُّ أَلْفِ سَائٍ وَكُلُّ سَيِّرٍ  
 طَرَّةٌ غُلَامٌ ؛ وَكُلُّ وَارٍ عَطْفَةٌ صُدُجٌ وَكُلُّ نُونٍ تَقْوِيسٌ حَاجِبٌ، وَكُلُّ لَامٍ مَشَقَّةٌ  
 عِذَارٍ وَكُلُّ صَادٍ خَطَّةٌ شَارِبٌ ؛ تَصِيبُ مَنْ سَامِعَهَا أَقْصَى مَا يُرَادُ بِالْبَقِيَّةِ فِي الْعُقْدِ،  
 وَتَسْتَوِي بِلَقْظِهَا عَلَى لُبِّهِ أَسْتِيلَاءُ الْجَوَادِ عَلَى الْأَمْدِ .

فَلَمَّا اجْتَلَيْتُ مِنْهَا الْمَعَانِي الْمُسْتَهْبَةِ فِي اللَّفْظِ الْمَوْجِزِ، وَأَجَلْتُ طَرَفِي مِنْهَا مَا يَبِينُ  
 نَزْهَةَ الْمُطَمِّنِّ وَعُقْلَةَ الْمُسْتَوِفِّزِ، وَأَسْلَمْتُ قِيَادِي إِلَى مِغْرَمَا الْحَمَالِ وَإِنْ جَنَى قَتَلَ  
 الْعَاشِقِ الْمُصَحَّرِ - عَلِمْتُ أَنَّ سَيِّدَنَا أَجْرَى فِي حَلِيَةِ السَّيَاقِ فَازَ قَصَبَ سَبْقِهَا،



وَذَلَّتْ لَهُ الْبَلَاةُ فَتَوَضَّلَ فِي شِعَابِهَا وَطُرُقِهَا، وَحَكَّتْ يَدُهُ فِي أَعْنَةِ الْفَضَائِلِ فَسَلَّمَتْ  
الْقَوْسَ إِلَى بَارِيهَا، وَدَرَجَاتِ الْعُلَى إِلَى مُسْتَحَقِّهَا، فَمَنْ وَائِلٌ؟ وَمَنْ تَحْبَانُ؟ ، وَمَنْ  
عَبْدُ الْحَمِيدِ؟ وَأَبْنُ صُوحَانَ ، وَأَيُّ خَيْرٍ يُقَابِلُ الْبَيَانَ؟ وَمَنْ يُقَاوِمُ مَا هُوَ كَائِنٌ بِمَا  
كَانَ؟ . فَسَأَلْتُ خَاطِرِي الْجَامِدَ أَنْ يَسَارِضَ بَوَائِلَهُ طَلَّهَا، وَأَنْ يُقَابِلَ بِجُنَّاتِهِ ظَلَّهَا،  
وَأَنْ يُجَارِيَهَا فِي حَلَبَةِ الْمُسَاجَلَةِ وَإِنْ دُعِيَ بِالسُّكَيْتِ ، وَلَقَدْ أَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا  
وَكَيْفَ يُنْطِقُ مِنْ مَيِّتٍ؟ وَأَتَى يُطْمَعُ فِي مُجَارَاةِ الْبَحْرِ وَلَاتَ حِينَ لَعَلَّ أَوْلَيْتَ؟  
فَوَجَدْتُهُ أَصْلَدَ مِنَ الصَّخْرَةِ مَسًّا، وَأَلْفَيْتُ بِأَقْلَامٍ لَدَيْهِ قَسًّا، فَمَا كُلُّ مَنْ طَرِقَ قَرَى،  
وَلَا مَنْ إِذَا خَلَقَ قَرَى؟ وَهَذَا الْمَعْمُودُ مِنْ خَاطِرِي إِذَا كَانَ جَلْمًا فَكَيْفَ وَقَدْ نَضَبَ  
مَائِهِ وَكَدَرَتْ الْحَوَادِثُ بِحَرِّهِ وَالنِّيرَ، فَمِنْ دُونِ أَنْ تُسْتَخْرَجَ مِنْهُ الدَّرْدُ أَنْ يَكُونَ  
لِضَرْبِ الْمَاضِغِ الْحَجَرِ؛ فَبَدَّلَ جُهِدَهُ لِمَا شَعِبَتِ الْمُحُومُ سُبُلُهُ ، وَتَمَنَّعَ بِالْخَلْقِ مَنْ  
لَا جَبِيدَ لَهُ .

هَذَا مَعَ وَاقِعَةٍ وَقَعَتْ لَهُ فَأَصْبَحَ مُبْشَتًا، وَتَقَى عِنَانَهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا بِهَا مُتَقَفًّا؛  
وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي بَارِحَتِهِ أَسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْقَائِقُ بِسُلْطَانِهِ، وَأَسْتَلَبَتْ يَدُ الْأَرْقِ كَرَاهٍ مِنْ بَيْنِ  
أَجْفَانِهِ، كَأَنَّهُ سَاوَرَتْهُ ضَبِيلَةُ مُنْمَا تَأْقِعُ، أَوْ مَلَّتْ إِلَيْهِ خَطَايِيفُ حُجْنٍ لَهَا أَيْدِي  
الْخُلُوبِ تَوَازِعُ :

إِذَا اللَّيْلُ الْهَسَى تَوَبَّهَ \* تَهَلَّبَ فِيهِ قَيَّ مَوْجٍ

فَنَارَةٌ فِكْرُهُ مُتَوَجِّهَةٌ خَوْفَلَةٌ حَظَلُهُ، وَأَوْنَةٌ لَا يَمُحُّ إِلَّا عَلَى مَا يَهْدِيهِ طَارُفُ لَحْظِهِ؛  
وَأَنْ يَدَ الْخَمُولِ قَدْ أَسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ، وَأَزِمَةُ الْمَطَالِبِ صُرِفَتْ عَنْهُ وَحَقُّهَا أَنْ تُصَرَّفَ  
إِلَيْهِ، وَالسَّعَادَةُ شَارِدَةٌ عَنْهُ وَمَا أَجْدَرُهَا أَنْ تُطِيفَ بِبَابِهِ وَتَسْتَقِرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ :

لَنْ كَانَ أَذْلَى حَائِلٌ قَعْدَرَتْ \* عَلَيْهِ وَكَانَتْ رَادَّةً فَخْطَطَتْ،

لَمَّا تَرَكْتَهُ رَغْبَةً عَنِ حِبَالِهِ \* وَلَكِنَّهَا كَانَتْ لَا تَحْرُخُطُ !!

ولقد جَهِدَ في سِلْمِ السَّهْرِ وهو يُحَارِبُهُ، "وَكَيْفَ تُوقُّ ظَهْرَ مَا أَنْتَ رَاكِبُهُ؟" فما شَامَ بَارِقَةَ أَمَلٍ إِلَّا أَخْفَقَتْ وَرَجَعَ بِمُخَيِّ حُتَيْنٍ، وَقَرَّتْ أَمِينُ أَصْلَادِهِ كُلَّمَا مَخَّضَتْ مِنْهُ الْعَيْنُ، فَلَقَدْ أَصْبَحَ أَفْرِغٌ مِنْ حِجَامٍ سَابَاطٍ وَإِنْ كَانَ "أَشْفَلُ مِنَ ذَاتِ النَّحْيَيْنِ".

وكما تَأَمَّلُ جَدَّهُ الْعَائِلَ النَّاصِبَ، وَتَنْظُرُ رِزْقَهُ النَّاصِبَ النَّاقِصَ؛ وَقَابَلَهُ الدَّهْرُ بِالْوَجْهِ الْعَابِسِ الْكَالِجِ، وَمَتَّى نَفْسَهُ عُقْبَى يَوْمٍ صَالِحٍ، رَجَعَ عَلَيْهَا فَنَلِيَ بِالسَّائِحِ بَدَ الْبَارِحِ؟؛ وَتَاجَى نَفْسَهُ بِأَعْمَالِ الرَّاكِبِ، وَالْأَضْطِرَابِ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَأَنْ يَرَى بِالْجُودِ حَلَقَةَ نَائِرٍ وَبِالْعَرِيسِ غُرَّةَ آثِبٍ؛ وَيَصِلُ التَّهْيِيزَ بِالسَّرِيِّ، وَيُدْتُّ مِنَ قَيْدِ الْأَوْطَانِ مُوَقَّاتِ السَّرِيِّ؛ وَإِنْ كَسَدَتْ فَضِيلَةٌ مِنْ فَضَائِلِهِ، أَوْ رَثَتْ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِهِ؛ اكْتَسَبَ بِأَحَدٍ مِنْ أَخَوَاتِهَا، وَفَقَتْ فِي عُقْدِهَا وَمَتَّ بِهَا وَقَالَ: أَنَا ابْنُ يَمْدَنِيَّتِهَا؛ فَلَا أَمَّ وَعَلَامَ وَحَتَّى مَتَّى، أَجَاوِرُ مِنْ أَنَا فِيهِمْ أَضْيَعُ مِنْ قَرَرِ الشَّتَاءِ؟؛ وَحَالِي أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ، وَ"إِذَا ذَلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهُوَ ذَلِيلٌ":

وَمَا أَنَا كَالْعَبْرِ الْمُقِيمِ بِأَهْلِهِ \* عَلَى الْقَيْدِ فِي مَجْبُوحَةِ الدَّارِ يَرْقُ!

ثُمَّ اسْتَهْوَلَ تَقَعُّمُ الْإِغْوَارِ وَالْإِنْجَادِ، وَاسْتَفْتَحَ لِقَادِحَ زَنَادِ الْحِظِّ الْإِكْمَاءِ وَالْإِصْلَادِ، وَأَقُولُ: أَخْطَأُ مُسْتَجْبِلٌ أَوْ كَادٍ. فَأَتَوَّبُ مَتَابٍ مِنْ حَلَبِ الدَّهْرِ أَشْطَرُهُ، وَأَخَذْتُ إِذَا ارْتَقَعَ عَنِ الدُّنْيَا مِنْ حَطَلِهِ أَيْسَرَهُ، وَبَنَى كَمَا بَنَى سَلَفُهُ وَقَرَّرَ مَا قَرَّرَهُ؛ فَأَقُولُ: أَرْفُضُ الدُّنْيَا وَلَا تَوَلَّيْتُهَا، فَتَكُونُ "أَحْمَقُ مِنَ الْمَثُورَةِ إِحْدَى خَلْمَتَيْهَا"، "فَالْخُرَّةُ تَجْوَعُ وَلَا تَأْكُلُ بَنَدِيَّتَهَا":

وَلَسْنَا بِأَوَّلِ مَنْ فَاتَهُ \* عَلَى رِيقِهِ بَعْضُ مَا يَطْلُبُ.

وَقَدْ يَدْرِكُ الْأَمْرَ غَيْرَ الْأَرِيبِ \* وَقَدْ يَصْرَعُ الْحَوْلُ الْقَلْبُ!

وَأَرَادَ يُخَطِرُ أَنْ لَوْ شَكَّوْتُ حَالِي إِلَى أَصْدِقَائِي مِنْ ذَوِي الْجَاهِ، وَسَأَلْتُهُمْ بِالْحَاقِ  
بِهِمْ فِي الْإِحْتِجَاءِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، وَأَحْضَمْتُ عَلَى آتِنَازِ فُرْصَةِ الْإِحْسَانِ قَبْلَ الْقَوْتِ،  
وَأَضْرَبُ لَهُمْ: «أَمِنْ أَحَاكَ وَلَوْ بِالصَّوْتِ» فَلَيْسَ عَلَى مِثْلِي مَنْ يُجِيفُهُ النَّهْرُ فِي ذَلِكَ  
مِنْ جُنَاحٍ، «وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بِغَيْرِ جُنَاحٍ»؟ ثُمَّ أَرَى أَنَّهُمْ لَوْ فَضَّلَ عَنْهُمْ شَيْءٌ لَجَادُوا،  
بَلْ لَوْ زُوِيَتْ الْأَرْضُ لَهُمْ لَأَزْدَدُوا، وَلَوْ نَلَكُوا ظِلَّ اللَّهِ لَأَصْبَحَتْ لِسَيْمٍ صَاحِبِي،  
وَمَا حَالِي بِخَافٍ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بَرْقَاتِي مُنَادِيًا، وَقِيلَ بَنِي عَلَى الْأَمْرِ فَهَاتِهِ وَادْرِكِ الْجَسَدَ  
السَّعِيدَ مُعَاوِيَا، وَإِلَى كَمْ أَطَّلَ تَمْلِيلُ الْقَطْمِ بِالْحَضَابِ :

سَمِعْتُ الْمَيْسَ حِينَ رَأَيْتُ دَهْرِي \* يُكَفِّنِي التَّذَلُّلَ لِلرِّجَالِ !

وَأُخْرَى يُسَلِّ تَفْسَهُ عَنْ مُصَابِيهَا وَمَصَائِبِهَا، وَيُمْنِيهَا كَرَّ الْأَيَّامِ بِتَعَاقِبِهَا، وَيَقْصُ  
عَلَيْهَا تَهْلُبُ اللَّيَالِي بِالْأَلَمِ الْمَاضِيَةِ فِي قَوَالِيهَا، وَأَنَا مَا قَلَمْتُ لِأَحَدٍ سَعَادَةً إِلَّا عَقَبْتُهَا  
بِتَغْيِيرٍ، وَمَا سَقَتُ صَفْوَةَ الْأَمَانِي بَشَرًا إِلَّا شَابَتْ كَلِمَةُ بِنَكْدِيرٍ، وَأَنْ سَيْدِلَ كُلِّ أَحَدٍ  
مِنْهَا سَيْدِلُ ذِي الْأَعْوَادِ، وَقُصَارَايَ وَلَوْ أَخَذْتُ الْأَرْضَ مَسْكًا وَأَهْلَهَا حَوْلًا سَيْدِلُ  
رَبِّ الْقَصْرِ مِنْ مَسْتَدَادٍ، وَلَوْ عَمَرْتُ عُمُرُوجَ كَنْتُ كَأَنِّي وَادِمَ وَقْتُ الْوَفَاةِ عَلَى  
مِيعَادٍ، فَإِنْ شِلْتُ فَارَقَ عَصَا التَّسْيِيرِ أَوْضَعُ، فَا هُوَ إِلَّا: «جَارِبُ بَيْدٍ أَوْدَعُ» .

فَبَيْنَا أَنَا أَعُومُ فِي هَذِهِ الْخَوَاطِرِ مُتَفَكِّرًا، وَأَقْرَعُ سِنَّ النَّيْمِ عَلَى تَهْقِي عُمُرِي فِي ضَيْرِ  
مَارِي مُتَحَسِّرًا، وَأَسْأَلُ بِمَصَارِعِ الْأَوَّلِينَ أُخْرَى مُتَعَبِّرًا، وَلَوْ أَنْجَزْتَنِي الْأَيَّامَ مَوَاعِيدَ  
عُرُقُوبٍ، لَأَقْبَضْتُ بِي إِلَى أَحَدٍ مِنْ مِيرَاثِ الْعَمَةِ الرُّقُوبِ، وَلَقَدْ تَقَاعَسَ أَمَلِي حَتَّى  
قَبِعْتُ بِحَالِي «وَشَرُّ مَا أَلْهَاكَ إِلَى حُجَّةِ عُرُقُوبٍ» ثُمَّ يُحَاطِنِي حِمَايَ بَانَ تَهْتَبُ وَأَضْبِرُ،  
فَاللَّيْلُ طَوِيلٌ وَأَنْتَ مُقِمَّرٌ، فَسَتَلِمُ بِكَ الْأَسْبَابُ، وَيَتَنَسَّى بِكَ إِلَى الْمَقْدُورِ الْيَكْتَابُ،  
فَلَا تَجْعَلْ بَحْرِي الْمَذِيكَاتِ غَلَابَ .

فاستروحتُ إلى فتح بابٍ كان مُرتجاً ، وأردتُ باستجلاء حياءِ السماء من بعض  
 همي فرجاً ، وانتشفتُ من نسيم السحر ما جعلتُ به من ضيقٍ فكري مُفرجاً ؛  
 ففتحتُه عن شباكٍ كتخطيط الأوفاق ، أو كرقعة شطرنج وضعتُ بين الرقاق ؛  
 أليس من صبغة الليل شعاعاً ، وأتخذ لاستجلاء وجه الغزالة نهاراً ؛ جليد على القيام  
 والكد ، صبور على الحالتين في الحر والبرد ؛ يحول جثمان المرء عما وراه ، ويبيع  
 إنسان الطرف رضى حياه ؛ يدلُّ من ظلمة الليل ضوء النهار ، وينم بما أسودته  
 من الأسرار ؛ يُشير إلى غيضة قد آلتفت أغصانها ، وتهدلت ثمارها ، ورقصت  
 أغصانها إذ غنت أطيافها ، وأطردت بصافي الزلال أنهارها ، وتمت بعرف العنبر  
 الشمعى أزهارها ؛ وقد قامت عرائس النارج على أرجلها ، تحتال في حلقها وحلقها ؛  
 قد أليست من أوراقها خلماً خضراً ، وحليت من ثمارها نيراً ، ونظم قداحها  
 في جيايدها لؤلؤاً رطباً ، وزعمها نسيم السحر فالت عجباً ؛ وقد مدت في أرضها  
 من البنسج مقارش سندس فروزت بالجلدول ، كسائط أخضر سلّت أيدي القيون  
 عليه صقيلات المعاول ؛ وقد حذقت عيون الرقياء من النرجيس قائمة على ساق ،  
 ولعبت بها يد اللسيم فتمايلت كعتاق المحبين عند الفراق ، فأجثت حياءٍ وسيماً تتبلج  
 أسرته ، ومنظراً جسيماً تروى بهجته ؛ قد مد السياط بساطاً أزرقاً ، بزهر الكواكب  
 مشرقاً ، وطورزه بالشقي طرازاً مذهباً ، وأبدى تحته للأصباح مفرقاً أشيأ :

ورث قميص الليل حتى كأنه \* سليل بانفس الصبا متفتح ،  
 ورقع منه الدليل صبح كأنه \* . وقد لاح شخص أشقر اللون اجلح ،  
 ولاحت قبات النجوم كأنها \* على كبد الخضر نور مفتوح !

وجنح البدر للغروب فداعت الكواكب تبته كوكبا فكوكبا ، فكانه ملك اتخذ  
 الحجرة عليه مضرباً ، وتوج بالثريا إكليلاً ، وخسبت الكواكب بين يديه توقيراً له

وتجّيلا ، وأصطفّت حوله خدما وجنودا ، ونشرت من أشعّيبا ألويا وبنودا ،  
وأخذت مقاماتها في مرّا كرها بجيوش عبثت للقاء مناجرها ، ومسايقها أخذ فرصة  
النصر ومنهجها :

ولاح سميل من بعيد كأنه \* شهاب يبعثه عن الرمح قابس !

وأثرى نسيم السحر عيلا ، وجر على أعراف الأزهار ذبلا يليا ، وروى أحاديث  
الرياض بلسان نثره ، مديبا لأسرار نركامه وزهره ، وغردت خطباء الطير على منابر  
الأغصان ، واستنطقت من قلوب الحيين دقات الإثجان ، وحث داعي الفلاح ،  
طائفة النقي والصلاح ، على أن تؤدى قرضا وفلقها ، وترقى بجسوعها بين يدي  
مولاه درجات السادة التي كانت أحق بها وأهلها ، وهتف بشير النجج عن أحيا  
ليته لما تمزق قبض الليل وأنقرى : «عند الصباح يمدّ القوم السرى» .

فينا أنا أنكر في أن جملة ما عاينته سيضبح زاعلا ، ومن تلك الصبغة العجيبة  
حالا ، وأتدبر : «ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا»  
إذ أهدت إلى الأيام إحدى طرفها وغرائها ، وكبرى أو أيدىها وتجاها ، فطرق سمى  
من الشباك نباه ، وتلتها وجبة نعيمها وثبه ، فاستعدت من كيد الشيطان المرید ،  
وقلت : أسعد أم سعيد ؟ وإذا بتمس قد فارق ويساره إلى وجرى ، واختارنى على  
الصحرأ جارا فأرقيته بلوكرى ، فوج مستانسا ، ومرح بين يدى آتسا ، وأرأى  
أحد كيفيه فى الامرسال لبنا والآخر بالجمع شامسا ، فدلله الحرس على جوره حبال  
مكره وشباك ، ويد العيش تحول دون قنصه وإمساكه ، وبقايا الغلام تقضى  
بنعيمه ، وتصد عن جملة من الوثاق فى موضعه ، وأنا ملازمه ملازمة الميسر لرّب  
الدين ، حتى يتبين الصبح لدى عيني .

فلما خَشِيتُ عَلَى صَلَاتِي الْقَوْتَ عَدَلْتُ إِلَى تَأْدِيَةِ قَرْضِهَا ، وَتَوَجَّيْتُهَا بَيْنَ يَدَيَّ مُوجِبَهَا وَعَرَضَهَا ، فَلَمَّا أَقْبَلْتُ مِنْ مُصَلَّيٍّ ، وَأَتَصَرَّفْتُ عَنْ مُنَاجَاةِ مُوَلَايَ ، بَرَقَتْ لِي بَارِقَةٌ ، خُبِلَ إِلَيَّ أَنَّهَا صَاحِقَةٌ ؛ فَقُلْتُ : أَدْرَقَرُّ الْغَزَالَهَ ؟ ، وَإِلَا فَلَاتَ حِينَ ذُبَالَهَ ؛ فَقِيلَ : إِنَّ الْغَلَامَ نَظَرَ إِلَيْهِ شَرًّا ، وَهَزَّ لَهُ الْمُهَنْدُ فَشَقَّ لَهُ مِنَ الظُّلُمَاءِ بَجْرًا ، وَأَبْدَى لَهُ وَجْهًا مُكْفَهَرًا ، وَرَأَى أَنْ يُعْطِيَهُ مِنَ الْمَنِيَةِ مَرَجًا وَعَرًا ، كَأَنَّهُ قَدْ لَاقَى أَسَدًا هَزْزًا ؛ وَأَتَرَعَ لَهُ كَأْسُ الْحَمَامِ بِالْوَفَى ، وَرَمَاهُ بِثَلَاثَةِ الْإِنْفَافِ ؛ فَصَطَفْتُ عَلَيْهِ بِاللَّائِمَةِ مُنْكَرًا لِحَمَلِهِ ، وَهَتَفْتُ بِهِ زَاحِرًا عَنْ قُبْحِ فِعْلِهِ ، ثُمَّ عَذَرْتُهُ : ” وَمَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلَّهُ “ ؛ وَقُلْتُ لَهُ : مَاذَا تَرَكَ تَصْنَعُ لَوْلَا قِيْتُ أَسَدًا أَغْلَبَا ؟ ، لَقَدْ خِلْتُ أَنَّكَ تَرْتَدُّ - وَإِنْ كُنْتُ وَلِيدًا - أَشْيَاءَ ؛ أَمِنْ هَذَا بَادَرْتُ إِلَى السَّيْفِ مُحْتَرِطًا ؟ ، ” إِنَّكَ لَأَجَبٌ مِنَ الْمُتَرَوِّفِ ضَرِطًا “ لَقَدْ أَظْهَرْتَ مِنَ الْقَشَلِ مَا جَاوَزَ قَدْرَ الْحَدِّ ، وَوَضَعْتَ الْمِزَاحَ فِي حِمْلٍ الْجِدِّ وَقَابَلْتَ الْأَسْهَلَ بِالْأَشَدِّ ؛ فَسُحِقًا لَكَ وَبُعْدًا ، لَقَدْ قَدَحَ مُرَجِيكَ بَعْدَهَا زَنَادًا صُلْدًا ، وَاسْتَتَبَعَ الْمَاءَ جَلْدًا جَلْدًا .

فَصَوَّبَ طَرَفَهُ فِي وَهْتٍ مُنَادِيًا ، وَأَظْهَرَ وَفَاءَهُ أَزْرَى بِالسَّمَوَاتِ بْنِ حَادِيَا : أُنْجِ هَرَبًا وَلَا إِخَالِكَ نَاجِيًا ؛ إِنِّي رَمَيْتُ مِنَ الْخُطُوبِ بِأَصْعَبِهَا ، وَلَا يُنْبِتُكَ بِالْحُرُوبِ كُجْرَتُهَا ، وَالنَّاصُ بِالْقِمَةِ أَخْبَرُهَا ؛ فَلَقَدْ أَوْطَأَنِي مَا لَا أَسْتَقِيلُ مِنْهُ الْعَثْرَةَ ، وَمَا لَقِيْتُ فِي حَرْبٍ كَهَذِهِ الْمَرَّةِ ، ” وَالْعَوَانُ لَا تَعْلَمُ الْخِمْرَةَ “ ؛ لَقَدْ صَرَّحَ لِي بِالشَّرِّ وَلَمْ يُجْعِمْ ، وَكَثُرَ عَنْ أَنْبِيَائِهِ خَيْرٌ مُتِمِّمٌ ؛ ” وَحَسْبُكَ مِنْ شَرِّ مِمَامَةٍ “ ” وَأَسْتُ الْبَاطِنِ أَعْلَمُ “ ؛ تَالَلَّهِ إِنَّهُ لَأَجْرًا مِنْ خَاصِي الْأَسَدِ ، وَلَكِنْ سَبَرْتَهُ لَتَعْلَمَنَّ مَا بَيْنَ الدَّنْبِ وَالنَّقْدِ ؛ وَلَقَدْ رَضِيتُ نَفْسِي مِنَ الْغَنِيمَةِ أَنْ تُؤَوِّبَ بِدِمَائِهَا ، لِمَا تَشَبَّهَتْ بِخَنَاصِرِ نَفْسِهَا بِدِمَائِهَا ، فَقُلْتُ : ” أَجْزَلُ عَنْ جَنَاتِكَ الْخَيْرُ وَأَجْزَلُ “ ” أَضَرُّهَا وَأَنْتَ الْأَعْلَى “ ؟ ؛ ثُمَّ تَضَاحَكْتُ إِلَيْهِ لِمَا شَاهَدْتُ اسْتِعْبَارَهُ ، وَأَوَيْتُ لَهُ إِذْ رَأَيْتُ اسْتِكْثَارَهُ الْخُطْبَ وَاسْتِكْجَارَهُ ؛ وَقُلْتُ : مِنْ ضَافِ الْأَسَدِ

قَرَاهُ أَظْفَارَهُ، وَمِنْ حَرَكِ الدَّهْرِ أَرَاهُ أَقْدَارَهُ؛ وَصَدَلْتُ إِلَى الدُّلُولِ الشَّامِسِ، الْمُسْتَأْمِدِ  
الْمُسْتَأْنِسِ؛ وَمَدَدْتُ يَدِي إِلَيْهِ فَأَقَادَ لَهَا طَائِمًا، وَخَضَعَ لِإِجَابَةِ دَعْوَتِي سَامِعًا.

فَلَمَّا حَازَهُ فِي الْقَبْضَةِ الْإِسَارَ، وَبَطَلَ الْإِقْلَالُ مِنْ ذَلِكَ الْآلَفِ وَالْإِكْثَارَ؛ وَقَدْ  
كَانَ أَعَزَّ مِنَ الْأَبْلَقِ الْعَقُوقِ، وَأَبْعَدَ مِنْ بَيْضِ الْأَنْوَقِ؛ اسْتَجَلِيْتُ صُورَتَهُ مُتَأَمِّلًا،  
إِذْ لَمْ يَبْقَ لَهُ سِوَى قَبْضَتِي سِوًى، فَارْتَأَيْتُ هَامَةً نَفْسَهُ، وَجَنَّةَ خَفْمِهِ؛ وَشَدَقًا أَهْرَتًا  
رَحْبًا، ذَا مِرَّةٍ عَلَى اخْتِلَافِ الْحَوَادِثِ صَبِيًّا، وَأُنْيَابًا مُحَدَّدَةً عُصَلًا كَالنِّصَالِ، وَطَرَفًا  
مُخَالِسًا غَيْرَ غَرٍّ بِالْمَكْرِ وَالْخِتَالِ؛ كَأَنَّهُ شِهَابٌ يَتَوَقَّدُ، أَوْ شُعْلَةٌ تَارٍ لَمْ تَحْدُ؛ وَسَامِعَتَيْنِ  
تَتَوَجَّسَانِ مَادَارَ الْأَوْهَامِ، وَتُدْرِكَانِ مَا يَنْبَغِي بِهِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَلَوْ فِي الْأَحْلَامِ؛ قَدْ  
نَيْطَلَتْ بِمَقْصُوفٍ صَغُرَتْ هَامَتُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، إِنْ اسْتَدْبَرْتَهُ قُلْتُ: هُوَ مُشْرِفٌ عَلَيْهَا  
أَوْ اسْتَقْبَلْتَهُ قُلْتُ: هِيَ مُشْرِفَةٌ عَلَيْهِ؛ يَشْتَمِلُ عَلَى تَحْرِيرِ خَيْصَبٍ، وَصَدْرِ رَجَبٍ؛  
فِيهِ تَزَعَا بِيَاضِ كِهْلَايْنِ قُرْنَا فِي نَسَقٍ، أَوْ تَجَمَّى ذُؤَابَةُ ظَهَرَا فِي خَسَقٍ، فَتُسْرِفُ  
النَّاظِرُ إِلَيْهَا، وَيُقَدَّرُ خَنْصَرُ الْأَخْيَارِ فِي حُسْنِ الشَّيْءِ عَلَيْهَا؛ أَتَّصِلُ ذَلِكَ بِمَنْكَبِ  
عَتِيدٍ، وَسَاعِدِ شَدِيدٍ، وَبُرْئَيْنِ شَيْنٍ وَعِلَاقِ حَدِيدٍ:

ذَوَاتِ أَشَافٍ رُكِبَتْ فِي أَكْثَفِهَا \* نَوَافِدَ فِي صَمِّ الصُّخُورِ نَوَاشِيبِ،

مُعَقَّفَةِ التَّرْهِيْفِ جُوجَ كَأَنَّهَا \* تَعْقُرُ أَصْدَانِ الْحَسَانِ الْكَوَايِبِ!!

قَدْ جَاوَرَ جُوجًا نَهْدًا، وَقَابَلَ كِهْلًا مُتَسَدًّا؛ يَكَادُ خَصْرُهُ يَنْقَدُ اضْطِرَارًا،  
وَهِمَّتْ تَسْعَرُ نَارًا؛ بِرَجْلَيْنِ تَسْبِقُ فِي الْحُضْرِ يَدَيْهِ، وَتَقْدُّ بِأَظْفَارِهَا أَذْنَيْهِ؛ وَذَنِبٌ  
كَالِدَائِ الْمَسْبَلِ يَمْجُرُهُ اخْتِيَالًا وَمَرَحًا، وَيَدْبُهُ مُجْبَا وَفَرَحًا؛ إِنْ أَنْسَابَ قُلْتُ: أَنْسَابُ  
أَفْئُونٍ، أَوْ صَالٍ قُلْتُ: أَسَدُ حَفَّانٍ؛ أَوْ وَتَبَ مَبْقَى الْوَهْمِ فِي انْخِطَاطِهِ، أَوْ طَلَبَ  
أَدْرَكَ الْبَرَقَ مِنْ نَقَاطِهِ، أَوْ طَلَبَ فَاتَ الطَّرْفِ فِي انْخِرَاطِهِ؛ أَنْعَمَ مَعًا مِنْ أَرْتَبِهِ،

وَأَزْهَى مِنْ مَلَبٍّ ؛ قَدْ كَسَاهُ الظَّلَامُ خِلْعَتَهُ ، وَقَبْلَ الصَّبَاحِ طَلَعَتْهُ ؛ حَازَ مِنَ الْقَدَسِ  
صِقَالَهُ وَبَهْجَتَهُ ، وَمِنَ الْفَتَكِ لَيْتَهُ وَنَعْمَتَهُ ؛ أَلَيْسَ رِذَاءُ الشَّيْبَابِ ، وَزَوْجُهُ عَنْ تَرْوِيرِ  
الْخِضَابِ ؛ إِنْ أَخْتَلَسَ فَمَا تَابَطَ شَرًّا ، أَوْ خَاتَلُ أَرْزَى بِالشَّقَرَى مَكْرًا ؛ أَحَدُ نَفْسَا  
مِنْ عَمْرٍو بْنِ مَعْدَى ، لَا يُصَلِّدُ قَادِحَ زِنَادٍ بَطْشُهُ وَلَا يُكَلِّدِي ؛ أَنْزَقُ مِنْ أَبِي عِبَادٍ ،  
وَأَصُولُ مِنْ عَتَرَةِ بَنِي شَدَادٍ ؛ أَفْتُكُ مِنَ الْحُرِثِ بْنِ ظَالِمٍ ، وَأَنْهَرُ فَصْدًا لِلدَّمِ مِنْ حَاتِمٍ ؛  
لَا يَلِيَنَّ وَلَا يَشْكُرُ إِلَى ذِي تَصْبِيصٍ ، "كَأَنَّهُ كَوَّكَبٌ فِي إِثْرِ عَفْرِيتٍ" ؛ يَكَادُ عُنْدَ  
الْمُخَاتَلَةِ فِي أَنْبِيَائِهِ ، يَفُوتُ الْخَاطِرُ أَوْ يَخْرُجُ مِنْ إِهَابِهِ ؛ إِنْ قَارَنَ طَيْرًا أَبَاهُ مِتْسِرًا  
كَتَمْسِرِ الْأَسَدِ ، أَظْلَبَ فِيهِ شَعًا كَأَنَّهُ قَدْ تَمَازَيْنَ فِي الْعَدَدِ ؛ فَيْلِشِدُهُ : أَلَا عِمَّ صِبَا حَا  
أَيُّهَا الظَّلَلُ الْبَالِي ، فَلَا يُحْسُ لَهُ بَعِيْنٌ وَلَا أُنْرُ يُحْيِسُ الْيَالِي ، فَكَأَنَّ قُلُوبَهَا رَطْبًا  
وَيَا سَيِّدَا لَدَى وَكْرِهِ الْعُنَابِ وَالْحَشَفِ الْبَالِي ؛ أَعْتَادَ قَنْصَ السَّائِحِ وَالْبَارِحِ ، فَمَا فَاتَ  
وَرَدَ الْمَنِيَّةِ مِنْهُ غَايِدٌ وَلَا رَائِحٌ ؛ طَوِيلُ الْقَرَا مُدْجُ الْأَعْظَمِ ، لَهُ عُخَاتَالَةُ سِرْحَانٍ وَهَجْمَةٌ  
ضَيْغَمٌ ؛ أَحَسَ مِنْ نَقَبِهِ (؟) ، وَأَعْظَمَ مِنْ حَيِّهِ ، أَطْلِشُ مِنْ فَرَّاشِهِ ، وَأُسْبِقُ إِلَى الْغَايَاتِ  
مِنْ عُمُكَاشِهِ ؛ أَخْطَفُ مِنْ عُنَابِ ، وَأَتَجَبَّعُ مِنْ سَاكِنِ قَابِ ؛ أَسْرِقُ مِنْ جُرْحِي وَأَتَوْمُ  
مِنْ فِدَى ، وَالْبَيْنُ مِنْ عَيْنٍ وَأَخْشِنُ مِنْ قَدٍّ ؛ بِأُسِهِ قَضَاءُ حُلِّ الطَّيْرِ مُنْزَلِ ، وَبَطْشُهُ  
مَلَكٌ بِأَجَالِهَا مُرْسَلٌ .

فَلَمَّا تَأَمَّلْتُ خَلْقَهُ ، وَسَبَرْتُ بِتَجْرِيبَةِ الْفِرَاسَةِ خُلْقَهُ ؛ عَجَلْتُ لَهُ جَرِيرًا مُسْتَحْصِدَ  
الْمِرَّةِ لَوْنَاتِهِ ، وَأَحْكَمْتُ شَدَّهُ فِي حَمَلِ خِنَاقِهِ ؛ وَقُلْتُ لَهُ : إِنِّي بِجُرْحِكَ مَحَابَّةَ هَذَا  
النَّهَارِ ، "وَمِنْ سَلَكِ الْجَلْدِ أَمِنْ مِنَ الْعِتَارِ" ؛ فَعَلَّ ذِي خَبْرَةٍ بِمَكْرِهِ ، وَعَلَى تَقِيَّةٍ مِنْ غَدْرِهِ ؛  
فَإِنْ أَلَيْتُمْ ذُو صَوْلَةٍ بَعْدَ الْخُضُوعِ ، وَفَضَحَ التَّلَطُّعُ شِمِيَّةَ الْمُطْبُوعِ ؛ وَكَيْفَ التَّعَبُ بِهِ  
وَإِنْ أَسْتَقَرَّ وَلَمْ يَتَّيَسَّرْ ؟ وَأَيُّ الطُّمَأْنِينَةِ إِلَيْهِ وَهُوَ الْأَزْرَقُ الْمُتَمَتِّسُ ؟ .



ثم أنصرفت إلى البلد لبعض شأني ، والأجتماع بإخلائني وأخذتني ، وأستغرقت  
أيام النهار فيما توجهت له ، وقطعتُ عمر يوم ما كان أطوله ! .

فلما قضيتُ نهمتي ، من نُجعتي ، وحانت مع وجوب الشمس رجعتي ، ألقينته  
عمد إلى الوثاق ققرضه ، ووقاه بالكل الوافي ما أقرضه ؛ وصال على شبيخة تستسعد  
بدعائها ، وتفرغ إن دهمنا هم قبل نداء أولى البطش إلى نذلنا ؛ ذات خلقي عظيم ،  
ومنطقي رخم ، وقلب رخم ، وجه ذي نضرة ونعيم ؛ إن قامت أحبت الليل بالسهر ،  
أو قرأت رأيتنا حولها زمرا بعد زمرا ؛ إن حادتها نطقت بالسحر محلا ، أو تاركتها  
رأت الصمت على كثير من النطق مفضلا ؛ تسر نفسك في حلاله الصخب ، وتريك  
وجه الرضا في صورة النصب ؛ فذ إليها يد المدون ، وأطاع بأذاها أمر الشيطان ؛  
ولم يرقب فيها إلا ولا ذمه ، وحملها حملنا من أذاها غمه ؛ ومزق قشيب أنوارها ،  
وحكم محالها الحليدة في إهابها ، فظم مصاب من حوث داري بمصاها .

فلما وصلت رأيتها باكية ذات قلب مريض ، وجناح مهيب ؛ فسليتها بأن  
المصائب تلقاها الأبرار ، وتوقفت بها إلى أن رقأت تلك الأدمع الغزار ، وأوردت :  
« إن جرح المجيء جبار ؛ وقلت : إني لك وكها ، لقد ارتكبت خطئة ما أليقها بعذرك  
وأولاه ! ! » ، فظعد أنصف القارة من راماها ؛ ثم آلت ألية بره ، لأوطنته من الوثاق  
بحره ، ولأقنصن بهذه المرة تلك المرة ؛ وأبنته بسلسلة تلبو أنيابه عن عجمها ،  
ولا تثبت شياطين مكره برحها ؛ قد أبدع قينها الصنعة بإحكامها ، وأنى بالعجب  
في نظامها ، فقه هو بمن تحكم فيما يقطع الجلسد ، بحله من اللطافة يمل ويسعد ؛  
فاستودعت عقه منها أمينا لا يخفر وثيق نيمته ، ولا تتطرق الأوهام إلى نهمته ؛  
مستحكم القوة في الشد ، فتتبط تنيط الأمير على القيد ؛ وتظر إلى بطرف حديد ،

وتَذَلُّلٍ بعد بَأْسٍ شديد، وبَصْبَصٍ بَذَنِهِ قَلْتُ : «أَمْكُرًا وَأَنْتَ فِي الْحَبِيدِ» . فلَمَّا  
أَيَّسَ من الْخُلَاصِ ، تَلَوْتُ : ( وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ) .

فلَمَّا تَمَّ مَا ذَكَرْتُهُ ، وَأَبْدَأْتُهُ وَأَعَدْتُهُ ؛ وَرَدَّتْ رُقْعَةُ سَيِّدِنَا عَلَى عَقَائِلِ هَذِهِ الرُّقْعَةِ  
الَّتِي وَقَعْتُ ، وَصَلَّتْ عَنِ الْجَوَابِ وَمَنَعَتْ ؛ وَأَقْتَضَى بِي الْحَالُ كَتَبَ هَذِهِ الْخُرَافَةَ  
وَأِنْ تَشِبَّتُ بِأَذْيَالِ الْحَدِّ ، فَأَنْجِزْهَا مَخْرَجَ الْمَرْزُومِ وَإِنْ دَلَّتْ عَلَى حَوَازِ قَصَبَاتِ  
الْمَجْدِ ، لِيُعْلَمَ أَنَّ فِي الزُّوَايَا خَبَايَا ، وَإِذَا صَحَّ أَنَّ الْأَصُولَ طَلِيهَا تَبَتُّ الشَّجَرُ فَنَاظَرْنَا ابْنَ جَلَا  
وَطَلَّاعَ النَّبَا .

هَذَا : وَإِنْ أَتَيْتُ قِرَاعَ الْخُطُوبِ فِي حَدِّي قُلُوبًا ، «فَالْفَعْلُ يَتَنَبَّي شَوْلُهُ مَعْقُولًا» ؛  
وَلَقَدْ تَجَمَّعَتِ الْخُطُوبُ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَأَوْبٍ ، وَطَرَقَتِ الزُّوَايَا جَنَابِي مِنْ كُلِّ  
صَوْبٍ ؛ وَجَرَيْتُ مَعَ الْخُطُوبِ كَقَرَّيْسِي الرَّهَانِ ، وَمَا هَمَمْتُ بِمَقْصِدٍ إِلَّا سَقَطَ بِي  
الْعَشَاءُ عَلَى مِرْحَانٍ ؛ وَكُلُّ حَبْلٍ يَحْتَقِقُ الشَّقِي ، وَلَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي أَمْرُهُ كَيْفَ يَتَنَبَّي ؛  
وَالْجَلْدُ يَرَى عَوَاقِبَ الْأُمُورِ فَيَحْمَدُ عِنْدَ التَّجَاحِ عُقَى السَّيْرِ ، ( وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ  
لَاكْتَشَفْتُ مِنْ الْخَبِيرِ ) .

تَجُوزُ الْمُصِيبَاتُ الْفَتَى وَهُوَ عَاجِزٌ \* وَلَيْعَبُ صَرْفُ الْبَهْرِ بِالْجَائِزِ الْجَلْدُ

فَسَطَّرْتُ هَذِهِ الْأَخْرُفَ إِلَى سَيِّدِنَا لِيُوَافِقَ خَبْرِي عِنْدَ أَصْحَابِهِ خُبْرُهُ ، وَنَمِّنَ بِشَرِّي  
سَيِّئِي وَهَذَا أَثَرُهُ «وَأَعْلَمُ أَنَّهَا سَيُضْرَبُ بِهَا فِي بَابِهَا الْمَثَلُ ، وَقَدْ «أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ  
مُشْتَمِلٌ» .



وهذه رسالة في الشكر على نزول النيث ، من إنشاء أبي عبد الله محمد بن أبي  
الحصّال الفافقي الأندلسي ، نقلها من خط الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن محمد  
أبن سيد الناس اليعمرى المصرى ، وهى :

الحمد لله الذى لا يكشفُ السوءَ سواء ، ولا يدعو المضطّر إلا إياه ، نزلَ قَرْنًا بِنَاءً ،  
وَنُزُودًا مِنْ مَخْطِطِهِ بِرِضَاهُ ، وَتَسْتَغْفِرُهُ مِنْ ذُنُوبِنَا : (وَمِنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) .

وأشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحده لا شريكَ له إلهًا علَا فَأَقْدَرُ ، وَأُورِدَ عِبَادَهُ  
وَأَصْدَرَ ، وَبَسَطَ الرِّزْقَ وَقَدَرَ ؛ وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله الذى بَشَّرَ وَأَنْذَرَ ،  
وَرَضَّ وَحَدَّرَ ؛ وَغَلَبَ الْبُشْرَى عَلَى الْإِحْطَاظِ ، وَدَلَّ عَلَى الصِّرَاطِ ، وَأَشَارَ إِلَى السَّاعَةِ  
بِالْأَشْرَاطِ ، وَلَمْ يَأَلْ أَمْتَهُ فِي الذَّنْبِ وَالْإِحْطَاظِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوُزَرَاءِ الْخُلَفَاءِ ،  
وَالْبَرِيَّةِ الْأَقْبِيَا ، وَالْأَشْدَاءِ الرَّحْمَا ، وَالْأَمْحَابِ الرَّحْمَا ، صَلَاةً تَمْلَأُ مَا بَيْنَ الْأَرْضِ  
وَالسَّمَاءِ ، وَتُوَافِيهِمْ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ وَالْآثَا ، وَتَضَعُ الثَّنَاءَ مَوْضِعَ الثَّنَا .

ولما لَحَحَتْ حَرْبُ الْجَنْدِ عَنْ حِيَالِ ، وَأَشْفَقَ رَبُّ الصَّرِيحَةِ الْعِيَالِ ، وَتَنَادَى  
الْخَيْرَانُ لِلتَّفَرُّقِ وَالزِّيَالِ ، وَتَنَاحَتْ فِي الْمُبُوبِ رِيحُهَا الْجَنُوبُ وَالشِّمَالِ ، وَتَرَاحَتْ  
عَلَى الْقُلُوبِ رَاحَاتُ الْيَمِينِ وَالشِّمَالِ ؛ وَأَحْضَرَتْ أَنْفُسُ الْأَغْنِيَاءِ الشَّحَ ، وَوَدَّوْا أَنْ  
لَا تَنْشَأَ مُرْنَةٌ وَلَا تَسْبَحَ ؛ وَتَوْهَمَ خَازِنُ الْبَرِّ ، أَنَّ صَاعَهُ يَبْدُلُ صَاعَ الثَّرَى ؛ وَخَفَّتْ  
الْأَزْوَادُ ، وَبَاجَتْ الْأَرْضُ وَأَلْتَقَتْ الرُّوَادُ ؛ وَأَتَرَعَتِ الْمَازِبُ الْقَبْعَى ، فَأَلْقَتِ الْعَيْصَى ،  
وَصَدَرَتْ بِمَحْسَرَاتِهَا ، وَقَدْ أَسْلَمَتْ حَزْرَاتُهَا ؛ وَأَصْبَحَتْ كُلُّ قُنَّةٍ قَدْءَاءَ ، وَهَضْبَةٌ قَدْءَاءَ ،  
(صَفَاءَ وَهْمًا وَتَقْبًا وَهْمًا) (١) ؛ وَالصَّبِيحُ فِي كُلِّ أَفْقٍ قَطْرٌ أَوْ قَطْعٌ ، وَالْأَرْضُ كُلُّهَا سَيْفٌ  
وَيَنْطَعُ ؛ وَالشَّعْرُ يَشْمُرُ ذَيْلَهُ لِلتَّفَاقِ ، وَيُضَمِّرُ خَيْلَهُ لِلسَّبَاقِ ؛ وَجَاءَ الْجَلْدُ وَرَاحَ الْحَزْلُ ،

(١) كلما في الأصل ؛ ولم تصل إل حله مع البحث والتعقب .

وَقُلْنَا : هَذِهِ الشَّيْءَ هَذَا الْأَزَلْ ، وَلِلرَّجَفِينَ فِي الْمَدِينَةِ عَجَاجَةٌ طَنُوهَا لَا تَلْبَدُ ،  
وَقَمِيٌّ نَحْوُ الْغُيُوبِ تَطْطَفُ وَتَلْبَدُ ، فَمَا يَسْقُطُ السَّائِلُ مِنْهُمْ إِلَّا عَلَى نَافِ يَحْرُقُ ،  
وَشِهَابٍ يَبْرُقُ ، حَتَّى إِذَا عَقَدُوا الْإِيمَانَ ، وَآخَذُوا بِرَعْمِهِمُ الْأَمَانَ ، وَقَالُوا : لَا يُطْمَعُ  
فِي الْغَيْثِ ، وَزُحَلٌ فِي اللَّيْلِ ، فَإِذَا فَارَقَ الْأَمْسَ ، لَكَدْ مَا أَفْسَدَ :

تَحَرُّصًا وَاحَادِيثًا مُفَقَّصَةً \* لَيْسَتْ بَنِي إِذَا عُلْتُ وَلَا غَرَبَ !

أَنْشَأَ اللَّهُ الْعَنَانَ ، وَقَالَ لَهُ : كُنْ فَكَانَ ؛ فَبَيْنَا النُّجُومُ دَرَارِيهَا الْأَعْلَامَ ، وَأَغْفَلَهَا  
الَّتِي لَا تُنْجِدُ عَنْهُمْ وَلَا تَلَامُ ؛ قَدْ اخْتَلَطَ مَرْطَاهَا بِالْهَمَلِ ، وَلَمْ تَدْرِ السُّدَّةَ بِالْجَمَلِ ؛  
وَلَا عِلْمَ الْجَدَى بِالرَّثْبَالِ ، وَلَا أَحْسَسَ الثَّوْرَ بِالرَّأْسِ ذِي الشَّمَالِ ؛ إِذْ غَشِيَتْهَا ظُلُلُ النَّهَامِ ،  
وَجَبَّيْتَهَا أَسْتَارَ كَأَجْنَةِ الْحَمَامِ ؛ وَأَخَذَتْ عَلَيْهَا فِي الطُّرُوقِ ، مَصَادِرُ الْغُرُوبِ وَالشُّرُوقِ ؛  
فَمَا مِنْهَا إِلَّا مُقْتَعٌ بِبَصِيفٍ ، أَوْ مَزْمَلٌ فِي نِيَادٍ خَصِيفٍ ؛ لَمْ تَرَ لَهُ عَيْنٌ تَطْرِيفَ ،  
وَلَا قَبَّةٌ يَطْلُعُ مِنْهَا أَوْ يُشْرِفُ ؛ فَبَاتَتْ بَيْنَ دُورٍ مُتَدَارِكَةِ السَّقُوطِ ، وَدَرٍ مُتَنَازِعَةِ  
السُّمُوطِ ، وَدِيمٍ مُنْخَلَةٍ الْخُيُوطِ ؛ وَجُيُوشٍ مُنْصَوِرَةِ الْأَعْلَامِ ، نَابِتَةِ الْأَقْدَامِ ؛ وَكَتَابَ  
صَادِقَةِ الْمُجُومِ ، صَائِبَةِ الرُّجُومِ ، تَطْلُبُ الْهَمَلُ مَا بَيْنَ التَّخُومِ وَالنُّجُومِ ؛ وَمَا زَالَتْ  
تَرْمِيهِ بِأَجْمَارِهِ ، وَتَحْتَرِشُهُ فِي أَجْمَارِهِ ؛ وَتَقْزُوهُ فِي عُقْرِ دَارِهِ ، حَتَّى عَفَتْ عَلَى آثَارِهِ ،  
وَأَخَذَتْ لِحْزِينَ وَالسَّهْلَ بِثَارِهِ .

فَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ بِالْكَوَاكِبِ ، أَنْظِرْ لِي الدِّيمَ السَّوَاكِبِ ؛ وَأَسْبِجْ فِي لَحَجِّ سُبُوحِهَا ،  
وَارْتَحِ فِي مَرْدُيُوحِهَا ؛ وَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ الَّذِي قَلَّفَ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَأَعَادَ  
الْحَقَّ إِلَى الْعَاطِلِ ؛ فَبُرُودُ الظَّوَاهِرِ مُحَضَّرُهُ ، وَتُفُورُ الْأَزَاهِرِ مُقَفَّرُهُ ؛ وَمَسَرَّاتُ النُّفُوسِ  
مُنْقَشِرُهُ ، وَالْأَنْبِيَاءُ صَاحِكَةُ مُسْتَشِيرِهِ ؛ وَأَرْوَاحُ الْأَدْوَالِ حَامِلُهُ ، وَأَعْطَافُ الْأَغْصَانِ  
مَائِلُهُ ؛ وَأَوْرَاقُ الْأَوْزَاقِ مُفْصَلُ ، وَأَجْنِمَةُ الظَّلَالِ تُرَاشُ وَتُوصَلُ ؛ وَخُطْبَةُ الطَّيْرِ

تَرَوِي وَتُحْمَرُ، وَتُسَبِّحُ الْحَارِبَ تُهْلَلُ وَتُكَبَّرُ؛ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُخَضِّعَ لِحَبْرَتِهِ،  
وَيُشْهَدُ لِلْمَكُوتِهِ، وَتُلَوِّحُ الْحِكْمَةَ مَا بَيْنَ مَنْطِقَتِهِ وَسُكُوتِهِ .

فَأَمَّا الْخَطَاطِيْفُ فَقَدْ سَبَقَ هَاهُنَا، وَنَطَقَ شَادِيهَا، وَزَارَعَ شُكْرًا قَدَّ نَادِيهَا؛  
فُعْشُ يَوْمٍ، وَلَيْلَةٍ إِلَى أُخْرَى تَزِمُ، وَشَعْتُ يَلْمُ، وَبَدَأَةُ تَوْفِي وَتَمُّ؛ وَكَأَنَّهَا حَتَّتْ  
نَحْوَ الْمَشَاهِدِ، وَسَابَقَتِ اللَّقَائِقَ إِلَى الْمَعَاهِدِ؛ فَظَلَّتِ اللَّقَائِقُ بَعْدَهَا تَزَاوًا، وَسَقَطَتْ  
عَلَى أَطَامِيهَا أَوْزَاعًا، وَأَجَدَّتْ إِقْطَاعًا، وَأَجَابَتْ مِنَ الْخَضْبِ أَسْرًا مُطَاعًا؛ وَسَارَتْ  
مِنَ الْحَدَائِقِ وَالْبَسَائِنِ إِقْطَاعًا؛ وَسِغَرْدُ فِي رَوْضَتِهِ الْمَكَّاءُ، وَبُضْحِكُهُ هَذَا الْوَابِلُ  
الْبَكَّاءُ، وَتُرُومُهُ فَلَا تَلْحَظُهُ ذُكَاةٌ؛ نَحْتَهُ مِنَ الْأَفْئَانِ النَّاعِمَةِ قِلَاصَ، وَأُخْصَتَتْهُ مِنَ  
الْخَضْرَاءِ النَّبِيصَةِ دِلَاصَ؛ فَالْوَيْلُ لِأَهْلِ الْأَفْوَالِ الْمُنْكَرَاتِ، وَالنَّيْلُ لِأَهْلِ التَّنَاءِ  
وَالْخَيْرَاتِ، وَالْمَرْحَى وَالسَّعْدَانِ، وَأَرْضُ بَكْوَاكِبِ النُّورِ تَزْدَانُ، وَبِقَاعُ تَدْيِنِ النَّيْتِ  
كَمَا تَدَانُ؛ أَذْكَرَهَا فَذَكَرَتْ، وَمَسَكَرَتْ مِنْ أَخْلَافِهِ فَشَكَرَتْ، وَمَعَرَفَهَا مَا أَنْكَرَتْ؛  
كَأَنَّمَا أَعْدَاؤُهَا مِنْ أُمِّ خَارِجَةٍ نَسَبَ أَوْ مَلَحَ، قَالَتْ لَهَا : خُطْبُكُ قَالَ : نَحْجُ،  
فَقَطَلَتْ الْأَزْهَارَ بِسَيْلِهِ، وَنَبَتَتْ فِي مَسِيلِهِ، وَنَبَتَتْ كَالْقُطْلَةِ فِي شَطْئِ نَحْمِيلِهِ .

فِي نَجَاسِ تَرَوْ الرُّوَانِي بِأَحْدَاقِهِ، وَتَسْتَعِيرُ الشَّمْسُ بَهْجَةً إِشْرَافَهُ، وَيُودُّ الْمِسْكُ  
نَفْعَةَ أَنْتِشَاقِهِ، يَحْسُدُ السُّنْدُسُ خُضْرَةَ مَنَاقِهِ، وَيَتَمَنَّى الْحَمَامُ بَدَلًا مِنْ أَطْوَاقِهِ؛ كَلَّةٌ  
تَدَى تَتَقَرَّقُ، أَوْ غُصْنٌ يَنْ لَا يَزَالُ يُورِقُ .

وَمِنْ عَرَارٍ قَتْنِي مُطَالُمُهُ عَلَى عَرَارٍ، وَكَلَّفَتْ بِهِ السَّوَارِي وَالنَّوَادِي كَلْفَ غَيْرِ  
بِرَّارٍ؛ بِلْغَاءِ كَسَاوَالِ الْغَيْدِ تَرْقُ، وَكَوْمِيضِ الثُّغُورِ يَعْجُ وَيَسِفُ .

وَمِنْ أَقْوَانٍ جَرَى عَلَى الثَّنَايَا الْمَتَرُ، وَسِيكَ مِنَ نَاصِجِ الثَّرَى؛ يُقْبَلُهُ النَّسِيمُ فَيَعْبَقُ،  
وَيَصْبِغُ الْجَوَّ بِمَا <sup>(١)</sup> وَيَغْنِقُ، وَيَسْتَحْبِلُهُ نَاطِرُ الشَّمْسِ فَيُشْرِقُ .

ومن بَنَفَسٍ كَاطَوَاقِ الْوُرُقِ، أَوْ كَالْيَوَاقِيتِ الزُّرْقِ؛ تَشَرَّفَ بِأَبْدِجِ الْخَلْقِ،  
وَتَأَلَّفَ مِنَ النَّفْسِ وَالْخَلْقِ؛ تَحَفَّظَهُ مِنْ يَدِ أَوْرَاقِهِ نَوَاطِرُ دُعَى الْأَجْفَانِ وَقِيَّتِ،  
وَبَدُمُوعِ الْكُحْلِ سَقِيَّتِ؛ نَسِيَمُهُ الْيَمِّ مِنَ الْحَرِيرِ، وَنَفْسُهُ أَعْطَرُ مِنَ الْمَيِّدِ؛ يَهْأَخِرِبُهُ  
كَأَنُودُ الْبَرْدِ، مُقَانَرَةُ نَيْسَانَ بِالْوَرْدِ .

وَكُلَّ رَبْوَةٍ قَدْ أَخَذَتْ زُرْعُفَهَا وَأَزَيَّنَتْ، وَبَيَّنَتْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَا بَيَّنَتْ؛ كَمَا تَنْتَجَحُ  
فِي إِيوَانِهِ كَثْرَى، وَأَسْتَقْبَلَتْهُ وَقُودُهُ تَتَرَى، وَأَهْلَبَتْ عَنْ حُسْنِ نَآدِيهِ النَّوَاطِرُ حَسْرَى،  
وَكُلَّ تَلْعَةٍ مَذَائِبِ نُصُولِهَا تُسَلُّ وَمَضَارِبِ فُصُولِهَا لَا تُثْنَى؛ وَأَرَأَيْمُ تَسَابِ، وَبَلْحَيْنِ  
يُدَابِ وَيَذَابِ؛ عَلَى حَافَاتِهَا تُجُومُ مِنَ النُّورِ مُشْنَبِكَةٌ، وَجُيُوبٌ عَنْ لَبَّاتِ الْغَوَاصِي  
مُنْتَبِكَةٌ؛ فَلَوْ أَفْضَحَتْ الظُّهُورُ وَالْبُطُونُ، وَنَطَقَتِ السُّهُولُ وَالْحُزُونُ، لَقَالَتْ :  
( قَتَلَ الْخَرَاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي عَجْمَةٍ سَاهُونَ ) .

فَشُكْرًا لِرَبِّنَا شُكْرًا، وَصُحْقًا لِلَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا؛ اللَّهُمَّ بَارِئِ النَّسَمِ،  
وِدَارِي الْقَسَمِ، وَنَاشِرِ الرَّحْمَةِ وَالنِّعَمِ، وَمُنْزِلِ الدِّيمِ، وَبَاعِثِ الرَّحْمِ، وَنَحْيِ الْأُمِّ؛  
فَلَمَّا تَوَكَّلْنَا بِقُدْرِكَ : خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، وَنَطْوَى غَيْشَكَ عَلَى غِرِّهِ، وَلَا تَتَعَرَّضْ لِنَشْرِهِ  
حَتَّى تَأْذَنَ بِنَشْرِهِ؛ وَنَعْتَقِدُ رُبُوبِيَّتَكَ كُلَّ الْأَعْتِقَادِ، وَنَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ أَهْلِ الْمُرُوقِ  
وَالْإِلْحَادِ؛ وَنَسْتَرْيُكَ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَمَنَافِعِ الْبِلَادِ؛ رِزْقِنَا لَدَيْكَ، وَنَوَاصِيئَنَا  
بِيَدَيْكَ، وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ، وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْكَ؛ وَلَا تُشْرِكْ بِكَ فِي غَيْبِكَ أَحَدًا، وَلَا يَجِدُ عَبْدُكَ  
مِنْ دُونِكَ مُتَّحِدًا؛ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، وَأَمَّتْ الْحَيُّ وَأَحْيَيْتَ الْمَيِّتَ؛ لَا هَادِيَ  
لِمَنْ أَضَلَّاتَ وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، فَاسْكُنَا فِيمَنْ كَفَيْتَ، وَتَوَلَّنا فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ،  
إِنَّكَ تَهْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَتَهْرَأُ : ( أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ  
الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ) الْآيَةُ .



وهذه نسخة رسالة ، كُتِبَ بها الصاحبُ نضر الدين عبد الرحمن بن مكناس ،  
تَعَمَّدَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ ؛ إِلَى الشَّيْخِ بَدْرِ الدِّينِ الْبُشْتَكِيِّ عِنْدَ مَا زَادَ النَّيْلُ الزِّيَادَةَ الْمَفْرُطَةَ ،  
سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وهى :

رَبَّنَا اجْعَلْنَا فِي هَذَا الطُّوفَانِ مِنَ الْآمِينَ ، وَسَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ .  
مَا تَأْخِيرُ مَوْلَانَا بِحَجْرِ الْعِلْمِ وَشَيْخِهِ عَنْ رُؤْيَا هَذَا الْمَا ؟ ، وَمَا قُدَّاهُ عَنْ زُرْقَةِ  
هَذَا النَّيْلِ الذِّى جُعِلَ النَّاسُ فِيهِ بِاثْوِيَّةٍ كَالْمَلَكَةِ لِمَا غَدَا هُوَ أَيْضًا كَالْمَا ؟ ،  
وَكَيْفَ لَمْ يَرَهُ هَذَا الطُّوفَانُ الذِّى اسْتَحَالَ لِلزِّيَادَةِ فَمَا أَشْبَهَ زِيَادَتَهُ بِالْقَلْبَا ؛ فَهِيَ كِرِيَادَةُ  
الْأَصَابِعِ الدَّالَّةُ فِي الْكَفِّ عَلَى تَقْصِيهِ ، وَأَوَّلَى أَنْ نَفْسِدَ يَتَّ الْمَثَلُ بِنَصْبِهِ :

طَفَحَ السُّرُورُ عَلَى حَتَّى إِنَّهُ \* مِنْ عَظِيمِ مَا قَدَّرَ سِرِّي أَبْكَائِي !

فَإِنَّهُ قَارِبٌ أَنْ يَمْتَرِحَ بِنَهْرِ الْخَيْرَةِ بِلِ وَصَلٍ وَأَمْتَرَجَ ، وَأَرَانَا مِنْ عَجَائِبِهِ مَا حَقَّقَ أَنَّهُ  
الْمَعْنَى [ بِقَوْلِ الْقَائِلِ ] : " حَلَّتْ غَرْبَ الْبَحْرِ وَلَا حَرْجَ " ؛ وَتَجَاوَزَ فِي عَشْرِ الثَّلَاثِينَ  
الْحَدَّ ، وَأَرَانَا بِالْمَعَانِيَةِ فِي كُلِّ سَاحِلٍ مِنْهُ مَا سَمِعْتُهُ مِنَ الْخَزَرِ وَالْمَدَّ ؛ وَأَسَاءَ فِي دَفْعِهِ  
فَلَمْ يَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، وَأَقْعَدَ الْمَآثِيَّ عَنِ السَّبَبِ وَالْحَرَكَةِ حَتَّى شَكَا إِلَى اللَّهِ  
فِي الْحَالَتَيْنِ جُورَ الزَّمَنِ ؛ وَبَسَقَى النَّاسَ مِنْ مَاءِ حَيَاتِهِ الْمَعْهُودَةِ كَمَا شَرِبُوا مِنَ الْمَوْتِ  
أَضْحَبَ كَاسَ ، وَسُئِلَ أَبْنُ أَبِي الرَّادِ عَنْ قِيَاسِ الزِّيَادَةِ فَقَالَ : زَادَ بِلَا قِيَاسٍ ؛  
أَمْتَلَأَ الْيَابَ ، وَهَالَ الْعِيَابَ ، وَضَاعَ الْعُدَّ وَأَخْطَطَ الْحِسَابَ ؛ كَالَّذِي فَطَفَفَ ، وَزَارَ  
فَمَا خَفَّفَ ؛ غَسَلَ الْجُسُورَ ، وَأَعَادَ الْإِمْلَاقَ بِزَمِهِ إِلَى الْبُحُورِ ، وَبَرَّجَ فَكَانَ أَوَّلَى  
بِقَوْلِ الْحِلِّيِّ مِنْ أَبْنِ مَتَّصُور :

بِمَكَارِمِ تَذَرُّ السَّبَابِ أَبْجُورًا \* وَعِزَائِمِ تَذَرُّ الْبَحَارَ سَبَابًا !

جمع في صُعودِهِ إلى الجِبَالِ بين الحَادِي والمَلَّاحِ، ودَخَلَ النَّاسُ إلى أَبْوَاقِ مِضَرٍ  
وَحُصُوصًا سُبُوقِ الرِّقِيقِ عَلَى كُلِّ جَارِيَةٍ ذَاتِ أَلَوَاحٍ ؛ وَغَدَا تِيَارٌ يَسْأَبُ فِي كُلِّ يَمٍّ  
كَالْأَنِّمْ، وَأَضْبَحَتْ هِضَابُ الْمَوْجِ فِي سَمَاءِ الْبَحْرِ وَكَأَنَّهَا هِيَ قِطْعُ الْغَيْمِ ؛ وَأَسْتَحَالَتْ  
الْأَفْلاكُ فَكُلُّ بُرْجٍ مَائِي، وَتَغَيَّرَتِ الْأَلْوَانُ فَكُلُّ مَا فِي الْأَرْضِ سَمَائِي ؛ وَحَكَّى مَائِهِ  
حُكَاكَةَ الصَّنَدَلِ لِمَا مَسَّهُ شَيْطَانُ الرَّيْحِ فَتَخَبَّطَ ، وَزَادَ فَاسْتَحَالَ قَعُهُ فَتَحَقَّقَ  
مَا يُنْسَبُ إِلَى الصَّنَدَلِ مِنَ الْأَسْعَالَةِ إِذَا أَقْرَطَ ؛ فَلَقَدْ حَكَّتْ أَمْوَاجُهُ وَدَوَّاهُ  
الْأَعْكَانَ وَالسَّرَرَ، وَغَدَا كُلُّ حَيٍّ مَيِّتًا مِنْ زِيَادَتِهِ لَا كَمَا قَالَ الْمَعْرِيُّ : حَيًّا مِنْ بَنِي مَطَرٍ<sup>(١)</sup>؛  
وَتَحَالَى إِلَى أَنْ أَقْرَفَ اللَّيْمُونَ الْأَخْضَرَ، وَأَحْمَرَّتْ حَبْنَةُ عَلَى النَّاسِ فَأَذَاقَهُمُ الْمَوْتَ  
الْأَحْمَرَّ؛ وَلَقَدْ صَعَبَ سُكُوكُهُ وَكَيْفَ لَا؟ وَهُوَ الْبَحْرُ الْمَلِيدُ، وَأَصْبَحَ كُلُّ جَدْوَلٍ مِنْهُ  
جَعْفَرًا وَيَزِيدَ :

فَلَسْتُ أَرَى إِلَّا إِفَاضَةً شَاخِصَ \* إِلَيْهِ بَعَيْنٍ أَوْ مُشِيرًا بِأَصْبَعٍ !

فَلَمَّا قَالَ الْحَرَمُ لِلسَّارِيْنَ يَا سَارِيَةَ الْجَبَلِ، وَأَتَشَدَّ وَقَدْ شَمَّرَ سَاقَهُ تَحْوِيزًا : أَنَا الْغَرِيقُ  
فَمَا خَوْفِي مِنَ الْبَلَلِ؟ وَكَمْ قَالَ أَبُو الْهَوَلِ : لَا هَوَلَ إِلَّا هَوَلٌ هَذَا الْبَحْرُ، وَقَالَ  
الْمَسَافِرُونَ : مَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا النَّيْلِ مِنْ هُنَا إِلَى مَاوَرَاءَ النَّهْرِ، وَقَالَ الْمُؤَرِّخُونَ : لَمْ تَنْقُلْ  
كَهَذِهِ الزِّيَادَةِ مِنْ عَهْدِ التَّهْرَوَانِ وَإِلَى هَذَا الْعَهْرِ .

وَكَيْفَ يَسُوغُ مَوْلَانَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ غَيْرَ آرْتِشَافٍ قِمِّ الْخَمُورِ؟ وَلَمْ لَا يُغَيِّرْ مَذْهَبَهُ  
وَيُطِيبَ عَلَى هَذِهِ انْخِلَاجَ السَّلْسَلِ وَالنُّورِ؟ ؛ وَكَيْفَ وَكَيْفَ؟! ، وَلَمْ لَا يَتَّقِدْ  
مَوْلَانَا حَمَوَ النَّيْلِ وَبَرْدَةَ رَحْلَةِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ؟ ؛ وَهُوَ فِي الْمَبَادِرَةِ إِلَى طُلُوعِ الْمَعَالِ  
وَعُلُوِّ الْمَعَانِي، وَأَتَهَازَ الْقُرْصُ فِي بَلَاغِ الْأَمَالِ وَبُلُوغِ الْأَمَانِي :

(١) يُشِيرُ إِلَى بَيْتِ الْمَعْرِيِّ فِي قَوْلِهِ :

وَلَيْتَ بَجَلْتُ عَنْ الْأَحْيَاءِ كَلِمَةً \* فَاسْقِ الْمَوَاطِرَ حَيًّا مِنْ بَنِي مَطَرٍ

أَنْظُرْ سَقَطَ الزُّنْدِ (ج ١ ص ٣٠) .



عَجِبُ مِنْ عَجَائِبِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَنَوْعُ فُرْدَوْشِكُلْ غَرِيبُ !

نَعَمْ :

مَنْ قَاسَمُكُمُ يَسْوَاعُكُمْ \* قَاسَ الْبَحَارَ إِلَى التَّمَادِ !

أَعْلَى الْأَنَامِ فِي الْعُلُومِ قَدْرًا ، وَإِمَامِ النُّعْمَةِ مِنْ عَهْدِ سَيَّوِيَّةٍ وَهَلَمْ جَرًّا ، وَشَيْخِ  
الْعَرُوضِيِّينَ عَلَى الْحَقِيقَةِ بَرًّا وَبَحْرًا :

وَشَيْخِ سَيَّحُونَ وَالنَّيْلِ وَالْفُرَاتِ وَدِجَلَةَ ،

وَشَيْخِ جَبَّحُونَ أَيْضًا ، \* وَشَيْخِ نَهْرِ الْأَبْهَةِ !

إِى وَأَقْبَهُ :

أَقُولُهَا لَوْ بَلَغَتْ مَا عَنَى : \* الطُّبْلُ لَا يُضْرَبُ تَحْتَ الْكُفَا !

لَا تَجِبْ لِمَطْرٍ بَعْدَ عُرْوَسٍ ، أَنْتَ أَعُوْمُ فِي بُحُورِ الشَّعْرِ مِنْ أَيْنَ قَانُوسٌ ، وَأَصْلَحُ  
إِذَا حَدَّثْتَ مِنْ صَالِحِ بْنِ عَبْدِ الْقُدُّوسِ ، وَأَشْمَهُ إِذَا هَزَلْتَ مِنْ أَيْنَ حِجَابُ إِلَى  
النُّفُوسِ :

وَلَوْ أَنَّ بَحْرَ النَّيْلِ جَارَكَ مَا زَحَا \* وَحَقَّكَ مَا اسْتَحْلَى لَهُ النَّاسُ زَائِدًا !

تَعُودُ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنْ وَصْفِ النَّيْلِ ، وَذِكْرِ حَالِهِ الَّذِي أَصْبَحَ كَمَا قَالَ ابْنُ  
عَبْدِ الظَّاهِرِ : كَوْنِهِ جَمِيلٌ ؛ : فَلَوْ رَأَاهُ مَوْلَانَا وَقَدْ هَجَمَ عَلَى مِصْرَ بَغَاسٍ خِلَالَ الدَّيَّارِ ،  
وَدَخَلَ إِلَى الْمَشْهُوقِ فَتَرَكَهَ كَالْمَاشِقِ الْمَهْجُورِ لَمْ يَرْمَنْهُ غَيْرَ الْآثَارِ ؛ لَبَكَّى بِمَعْنَى عُرْوَةٍ ،  
وَأَوَّى مِنَ الرَّصْدِ وَقَدْ تَهَجَّرَتْ مِنْ صَلَاحِهِ عِيُونَ النَّاسِ إِلَى رُبُوعِهِ ؛ أَوْ رَأَى لَرُوضِ الْجَزِيرَةِ  
وَقَدْ خَلَعَ حِلَاهُ ، وَتَخَلَّصَتْ عَرَائِشُ أَشْجَارِهِ عَلَى الْحَالِيَيْنِ بِالْمِيَاهِ . وَالنَّيْلُ وَقَدْ قُتِلَتْ  
مُلَاكُمَا - حِينَ قَتَلْتَكَ بِالْأَسْفِ ، وَجَفَّ أَحْمَرُ تَمَرِهَا وَأَصْفَرَّهَ فَأَرَانَا الْعُنَابَ وَالْحَشَفَ .  
وَالْخِيَرَةُ وَقَدْ قُلْتُ لَهَا : تَبًّا لِحَارِكَ النَّيْلِ إِذْ أَفْسَدَكَ صُورَةٌ وَمَعْنَى ، وَسَكَنَ مَغَانِيكَ قَسْوًا

دِيَارَكَ بغيرِ آمْنَيْنَا . وقَرَامَا القَرْيَةَ وقد قَلْتُ لَهَا حِينَ أَوْتِ إِلَى أَعَالِي الْأَرْضِ هَرَبًا  
 مِنَ الْمِيَاءِ ، وَأَعْتَصَمْتُ بِالْجَبَلِ الْقَرْبِيِّ : لَا طَاصِمَ الْيَوْمِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . وَكُلُّ سَفِينَةٍ  
 وَقَدْ عَلَتْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، وَأَرْتَهَتْ لِارْتِقَاءِ الْبَحْرِ إِلَى أَنْ أَخْتَطَطَ بِالسَّمَاءِ ؛ وَقَدْ  
 قَالَتْ لَهَا أَتْرَابُهَا عِنْدَ الْفِرَاقِ : إِلَّا تَرْجِي ، وَقُلْنَا لَهَا نَحْنُ عَلَى سَبِيلِ التَّفَاوُلِ : بِأَسْمَاءِ  
 أَقْلِيصٍ ؛ وَالنَّيْلُ تَبْدُو عَلَيْهِ الْقُلُوعُ خَافِيَةً لِبُعْدِهَا فَكَأَنَّمَا انْطَلَمَ بَذَى طُلُوعِ<sup>(١)</sup> ، وَجَارَ عَلَى  
 النَّاسِ بَطْفِيَانِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ أَخُو فِرْعَوْنَ مِصْرَ أَوْ ابْنُ طُوفَانَ نُوحٍ .

فلقد طَارَ النَّسْرُ مَبْلُولُ الْجَنَاحِ ، وَدَنَا نَهْرَ الْحَبْرَةِ مِنَ السَّكَارَى بِالشَّخَايِيتِ إِلَى أَنْ  
 كَادَ يَدْفَعُهُ مِنْ قَامٍ بِالرَّاحِ . وَتَرَجَّسَ الْهَسَاتِينَ وَقَدْ أَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ  
 كَقَلِيمٍ ، وَفَارَقَ أَحِبَّابَهُ مِنَ الرِّيَاحِينَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ غَيْرَ الْقَلَانِسِ صَدِيقٍ وَغَيْرِ الْمَاءِ حِمِيمٍ .  
 وَالْوَرْدُ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : مَا لَكَ مِنْ أَسٍ ، وَغَضَبِ الْبَايِنِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : طُوبَى لِمَنْ عَاقَبَكَ  
 وَلَا يَأْسَ . وَالْإِثْمَاكِ وَقَدْ أَبْجَهَمَ الْعَرَقُ ، وَالْقُلُقُلُاسِ وَقَدْ شَكَا شَكَاؤِي أَبْنَ فَلَاقِسَ  
 وَأَيْنَهُ مِنَ الْفَرَقِ . وَالْقَصَبُ بِالْجَيْزَةِ وَقَدْ شَرِبَ مَاءَ النَّزْفِ فَهُوَ بَلَسَ الشَّرَابِ ، وَالْقَصَبُ  
 بِبُولَاقٍ لَمْ يُنْجِ مِنْ مُشَاهَدَةِ الْفَرَقِ إِلَّا كَوْنُهُ غَابٍ ، وَالْفَارِيسِيُّ بِالْهَسَاتِينَ وَقَدْ تَرَجَّلَ  
 وَوَقَعَ فَارَانًا كَيْفَ تَكْسِيرِ الْأَقْصَابِ ؛ وَقِيلَ لِلْأَسِ : طَالَجَ جِيرَانُكَ بِالنَّيْطَانِ فَالْأَسُ  
 بِالنَّاسِ ، وَبَاكِدٍ إِلَى جَبَرٍ مَا كُسِرَ فَالْحَاجَةُ تَدْعُو الْمَكْسُورَ فِي الْحَالِينِ إِلَى الْآسِ .

هَذَا وَأَنَا مُقِيمٌ بِالرُّوْضَةِ إِذْ زَهَتْ عَلَى سَائِرِ الرِّيَاضِ ؛ وَسَلِمَ جَوْهَرُ حَضْبَانِيهَا مِنْ  
 أَكْثَرِ هَذِهِ الْأَعْرَاضِ ؛ وَإِنْ أَعْتَلْتُ بِالْأَسْتِسْقَاءِ فَهُوَ عَيْنُ الصَّحْبَةِ كَمَا يُنْسَبُ السَّقَمُ  
 إِلَى الصُّوْنِ الْمِرَاضِ ، أَوْ كَمَا قَالَ الْمَلُوكُ قَدِيمًا مِنْ قِصْبَةِ فِي بَعْضِ الْأَعْرَاضِ :

وَقَائِلُ : فِي لِحَاطِ النَّيْدِ بِأَقْبَسَةٍ \* مِنْ السَّقَامِ وَمَا صَمَّتْ خُصُورُهُمْ ،

وفي النسيم قلت : الأمر مُشْتَبِهٌ \* عليك فالزم فانت الحاذق الفهم .

قلت الصحيح ولكني بوجبه \* أقول : تلك دواء بروها السقم !

قد أحاط بها النيل إحاطة المراسف بالسا ، فاشرفت ضياء بين زرقته فكأنها  
البدر في كبد السما :

بصحن خد لم يفيض مأؤه \* ولم تحضه أعين الناس !

تمتعش مع هذا الطوفان لرياك ، مشوّف وإن كنت منازل النجوم الأرضية  
والسماوية يا بدر لرؤياك ؛ لكني يسئني أني ما نظرت إلى النيل إلا رأيتك من سائر  
الجهات ، ولا تحت بيوت البحر بل البحور إلا رأيتك عمارة الأبيات :

ولا أتمست بشرب الماء من عطش \* إلا رأيت خيالاً منك في الماء !

ولكن العيان لطيف معني \* له طلب المشاهدة الكليم !

فهلم إلى التمتع برؤية هذا النيل الذي لم ترمته العيون ، والنظر إلى سائر المخلوقات  
لعمومه وكل في فلك يسبحون ؛ فليس يطيب للتلميذ رؤية هذا البحر بغير رؤية  
شيعه ، ولا يلد له التملّ بمشاهدة هذا الفلك ما لم يُشرق وجهه وذهنه بيدرومريه ؛  
فما هذا الإهمال ؟ ، ولت شعري يا أديب تهاذك بأي الأعمال ؟ ، أبا لكاه ؟  
فتكن في هذا النيل الذي هو كالطليحة بنير مثال ، أو بالثر والنظم ؟ ففي هذا البحر  
الذي منه تؤخذ الدرر وفيه تضرب الأمثال ؛ ولقد ولد فيه الفكر للملوك ، كيف  
تصادم الأكفاء وقهر الملوك للملوك ؛ فإنه لم يُسمع في مملكة الإسلام ، ولا ورح  
في عام من الأعوام ؛ يمثل هذه الزيادة الزائدة ، والجري على تحري العادة التي لا جعل

الله بها صِلَةٌ ولا منها طَائِفَةٌ ، وغايَةُ ما وَصَلَ إِلَيْهِ في الماضي من عِشْرِينَ : فَضِيقُ  
بَسْعَتِهِ الْمَسَالِكِ ، وأَوْجِبَ المهالك ، وتَطَرَّقَ تَطَرَّقَ أَهْلُ الجرائمِ والفسادِ فَفَقَطَعَ  
الطَّرِيقَ على السَّالِكِ ، وأُخْوِجَ مَرَّاتٍ إِلَى الاستضعافِ لا أُخْوِجَ اللهُ لُذَّكَ .

وَدَلِيلُ ما شَمِلَ بِهِ من الفسادِ ، وما حَامَلَ بِهِ الْبِلَادَ وَأَهْلَ الْبِلَادِ ؛ ما قاله أَدْبَاءُ كُلِّ  
عَصْرِ ، عند ما أْبِيجَ لُلسَافِرِ في مَدِّ عَرْضِهِ الْقَعْرِ .

فمن ذلك ما قاله مولانا الْقَاضِي الْقَاضِلُ ، وما هو روحه الله إِلَّا بِحَرْقِ طَمَعِ دُرِّهِ ،  
فَلَهُ دُرُّهُ ، من رسالة :

وَرُدُّ مِثَالِهِ يَتَضَمَّنُ نَبَأَ سُطُورِهِ الْعَظِيمَةِ أَمْرَ طُوفَانِ النَّيْلِ الَّتِي كَانَتْهَا جَدَائِلُهُ ،  
وَأَنَّهُ جَادَ لِمَوْلَاهُ بِنَفْسِهِ الَّتِي لَيْسَ فِي يَدِهِ فَبَرَّهَا فَلَيَقِيَّ اللهُ سَائِلُهُ ... ..

ومنها : وَلَمْ يَزَلْ يَجْرِي مُسْتَقَرًّا لَهُ ، وَيَضُمُّهُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ أَدْرَكَ آخِرَهُ أَوَّلُهُ ؛  
حَتَّى إِذَا تَكَمَّلَ سُمُوْ أُمُوجِهِ حَالًا عَلَى حَالٍ ، وَسَوَّرَ أَقَاصِي الْأَرْضِ مِنْ بَيْتَةِ الْمِقْيَاسِ  
فَادْنَاهَا النَّظَرُ الْعَالِ ؛ فَلَمْ يَرَكْ بُقْعَةً كَانَتْ مِنْ قَبْلِ فَارِغَةٍ إِلَّا وَكَلَّهَا عِنْدَ نَظَرِهِ مَاقٌ ،  
وَكَيْتَ هَوَاهُ الْمُعْتَلَّ كَانَ عَدْلًا لِفِعْلِ كُلِّ غَدِيرٍ مَا أَطَاقَ ؛ وَطَلَمًا جَرَى بِالْصَّفَا وَلَكِنْ  
كَدَّرَ صَفَاهُ بِهَذَا الْمَسْعَى ، وَالْمَرْجُوْ مِنْ اللهِ أَنْ يَتَلَوَّ مَا أَصْدَهُ هَذَا الْمَاءُ مَا يُصْلِحُهُ  
خُرُوجُ الْمَرْعَى .

وما قاله الْقَاضِي مُحَمَّدِي الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الْبَظَاهِرِ ، سَقَى اللهُ تِلْكَ الْإِلْفَاطَ النَّيْلِيَّةَ  
صَوْبَ الْمَاطِرِ :

وَيُنْهَى إِلَيْهِ أَمْرَ النَّيْلِ الَّذِي سَرَّقَى أَوَائِلَهُ الْأَنْفُسَ بِاتِّمَنِ بَشَرِيٍّ ، وَيَقْصُ عَلَيْهِ  
نَبَأَهُ الْعَظِيمَ الَّذِي مَا يُرِينَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنَ الْأُخْرَى ، وَيَصِفُ لَهُ مَا سَاقَهُ  
إِلَى الْأَرْضِ مِنْ كُلِّ طَلِيعَةٍ إِذَا تَنَفَّسَ الْقَيْلُ تَفَرَّقَ صُبْحُهَا وَتَفَرَّقَ ؛ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ

خَصَّ اللهُ الْبِلَادَ الْمِصْرِيَّةَ بِوَفْوِهِ وَوَفَائِهِ ، وَأَغْنَىٰ بِهَ قَطْرَهَا عَنِ الْقَطْرِ فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَىٰ مَدِّ  
كَافِهِ وَفَائِهِ ، وَتَرَمَّهَ عَنْ مِثَّةِ الْغَامِ الَّذِي هُوَ إِنْ جَادَ فَلَا بُدَّ مِنْ شَهْقَةٍ رَمَدِهِ وَدَقَقَةٍ  
بُكَائِهِ ؛ فَقَدْ وَطِئَ يَلَادَهَا بِسُكْرِهِ الْعَبَاجِ ، وَزَاخَمَ سَاحَتَهَا بِأَفْوَاجِ الْأَمْوَاجِ ؛ فَعَمِلَ  
فِيهَا بِذِرَاعِهِ ، وَدَارَ عَلَيْهَا بِخَيْفِهِ وَتَحَلَّلَهَا بِزَارِعِهِ ، وَحَمَلَهَا عَلَىٰ سَوَارِي الصَّوَارِي نَحْتِ  
قُلُوبِهِ وَمَا هِيَ إِلَّا عُمْدٌ قَلَاعِهِ ؛ وَزَارَ زَرَابِي الثُّورِ الْمَبْثُوثَةِ ، وَجَاسَ خِلَالَ الْحَنَائِيَا  
كَأَنَّ لَهُ فِيهَا خَبَايَا مَوْرُوثِهِ ؛ وَمَرَّقَ كَالْمَهْمِ مِنْ قَنَاطِرِهِ الْمُنْكُوسَةِ ، وَعَلَا زَبْدُ حَرَكَتِهِ  
وَلَوْلَاهُ ظَهَرَتْ فِي بَاطِنِهِ مِنَ الْأَكْمَارِ وَالتَّجْوِمِ أَشْعَثُهَا الْمَعْكُوسَةِ ؛ وَحَمَلَ عَلَىٰ بَرَكَةِ  
الْفِيلِ حَمْلَ الْأَسْوَدِ عَلَى الْأَطْلَالِ ، وَجَعَلَ الْمُتَعَنُّوتَةَ مِنْ تَبَازُهُ الْمُتَحَدِّرِ فِي السَّلَاسِلِ  
وَالْأَغْلَالِ ؛ وَالْمَرْجُوُّ مِنْ اللَّهِ أَنْ يُزِيلَ أَذَاهُ ، وَيُعِيدَ عَلَيْنَا مِنْهُ مَا عَهْدَنَاهُ ؛ فَإِنَّ لَهُ الْإِيَابَ  
الْأَكْبَرَ ، وَفِيهِ التَّجَاوُبُ وَالْعِزُّ ؛ فَهَا وَجُودُ الْوَفَاءِ ، عِنْدَ عَدَمِ الصَّفَاءِ ؛ وَبُلُوغُ الْحَرَمِ ،  
إِذَا أَحْتَمَمَ وَأَضْطَرَّمْ ؛ وَأَمِنْ كُلِّ فَرِيقٍ ، إِذَا قَطَعَ الطَّرِيقَ ؛ وَفَرِحَ قُطَّانُ الْأَوْطَانِ ،  
إِذَا كُسِرَ وَهُوَ كَمَا يُقَالُ : سُلْطَانٌ ؛ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِهِ ، وَبَرَائِهِ مَعَ الزَّادَةِ  
مِنْ تَقَاتِلِهِ ؛ طَالَمَا فَتَحَ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ بِتَعْلِيْقِهِ ، وَقَارَزَ كُلَّ أَحَدٍ عِنْدَ رُؤْيَا مَا يَمُوتُ  
الْمُصْغَرُ بِتَخْلِيْقِهِ .

وَمَا قَالَهُ الْمَوْلَىٰ زَيْنُ الدِّينِ عُمَرُ الصَّفِيدِي تَقْدِمُهُ اللَّهُ بِعَفْوِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ حَلَاوَةِ  
الْكُتُورِ وَصَفْوِهِ :

وَأَمَّا النَّبِيلُ فَقَدْ أَخَذَ الدَّارَ وَالسَّكَّانَ ، وَقَالَ ابْنَ الْخَمَلِ كَمَا قَالَ ابْنُ النَّبِيِّ : الْأَمَانُ  
الْأَمَانُ ، وَيَكُنِي النَّاسُ عِنْدَ مَا رَأَوْهُ مُقْبِلًا عَلَيْهِمُ بِالطُّوفَانِ ؛ وَأَنْسَابَاتُ أَرَاثِمِ غُدْرَانِهِ  
فِي الْإِقْلَامِ قَابِلَتَتْ غُدْرَانَ أَرَاثِمِهِ ، وَمَا سَبِيلُهُ الْمَتَدَقُّ مَعَالِمَةَ الْمُجْهُولَةِ فَاسْتَعْمَلَ  
الْأَقْلَامَ فِي إِثْبَاتِ مَعَالِمِهِ ؛ وَأَحَاطَ بِالْقُرَى كَالْمُحَاصِرِ فَضَرَبَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّمَاءِ بِسُورٍ ،  
وَأَخَذَ الطَّرِيقَ عَلَى السَّالِكِينَ فَلَا مَرَكَبَ إِلَّا الْمَرَاكِبُ وَلَا عَاصِمَ إِلَّا الْبُحُورُ .

وما قاله السيد ابن كاتب المرح ، نُصْرَةُ الأقباط ، وأحد عميد الشعر المشهورة  
بالفسطاط ؛ فما أطيب مدائح النبوة التي جعلها سورا بينه وبين النار ، وما أعجب  
رثاه : جعل الله قبره بالرحمة كالروض غيب القطار !!! :

يا نيل يملك الأنهار قد شريت \* منك البرايا شرابا طيبا وغدا ،  
وقد دخلت القرى تبني منافعها \* فعمها بعد فرط النفع منك أذى .  
فقال : يذكر عن أني ملك \* وتعتدي ناسيا : إن الملوك إذا !

وما قاله شيخنا الشيخ جمال الدين بن نباتة الذي أطاعته من الآداب جوانح  
نظمها وقرحها ، ونشرت له بحور الشعر فقالت له الآداب : اختر من درها ؛ فسيحان  
من يسر له تمتيع الكلام وهونه ، وجعله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛  
لما أشف دقيق فكره الجليل ، وما أكثر ما يضحك زهر تقاطيعه على زهر مقطعات  
النيل ؛ فما كان إلا انحصوصا في الأدب ببحور الهيات ، وكلامه في المدح والبلادة  
يزري بالقرات وابن القرات ؛ وإن قيل أى أصدق كلمة قالها شاعر بعد ليد ، يقال  
قول ابن نباتة .

فلا تحب للفظي حين يحلو \* فهذا القطر من ذاك النبات ! :

وأما النيل فقد استوى على الأرض فتبتت فيها قلعه ، وأمتد تصل تياره كالسيف  
الصقيل فقتل الإقليم وهذا الإحمرار إنما هو دمه :

حمرتها من دماء ما قتلت \* والدم في النيل شاهد عجيب !

فلم يترك وعدا بل وعيدا إلا وفاه ، ولا وعدا بل جبلا إلا أخفاه ؛ أقبل كالأسد  
المصور إذا احتشد وأضطرم ، وجاء من سن الجنادل فتندر وعلا حتى بلغ أقصى  
الحرم ؛ وعامل البلاد بالخيلاء وكيف لا ؟ وهو سلطان جائر أيد بالنصر ، فاقلا :

إِنْ كُنْتُ بِلَيْتٍ بِالْأَحْتِرَاقِ فِي أَرْضِكُمْ فَأَنَا أَيْضُ بِأَنْ أَرِيَّ مِنْ بُرُوقِ تِيَّارِي  
بِشَرِّ كَالْقَصْرِ .

هذا وطلعت قبلها بوجه جميل ، وسمعتنا عنه كل خير خير ثابت ويزيد كما قال  
جميل ، وكل يدعي من آثار جود يصبغ الثرى فيخضر بخلاف المشهور عن صبغة  
الليل ، وطلعتا خصصناه بدهاء فكانت الراحة به كقياسه ذات بسطة ، وكنائز  
الخصب بقُدومه المبارك ذات فيطه ، ومحنه بولاء وثناء هذا يدور من الإخلاص  
بفلك وهذا يئلب من البحار بنقطه ، كم ورد إلى البلاد ضيقا ومعه القري ، وكم أتى  
مرسلا بمعجز آيات الخصب إلى أهل القرى ، فهو جواد قد خلغ الرسن ، ساهم  
في مصالح الخلق وقد ملأ الأمن أجفانهم بالوسن ، جامع لأهل مصر من سقياه  
ومرماه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن ، كم بات مسير بقياسه يشمل  
بظله القاتنين والجاهزين ، وكم رفع على الوفاء راية صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ،  
وبلغ وبلغ بحرير التيار سلامه ، وبات الناس بوقائه من حذار الغلاء تحت السمر  
والسلامه ، وخلق صدر العمود وكيف لا يخلق بشير العباد والبلاد ، ودعا مصر لأخذ  
زجرها فسواء قيل : ذات العمود أو ذات العباد ، وبسط يده ببركة الماء قيل :  
سلام لك من أصحاب اليمين ، وخضب بنائه وأقسم بمحصول الخير قيل تخضوب  
البان يمين ، وأشار إلى وصول المد المتابع ، وقبض يده الخلق على الماء فوفت  
وما خابت قروج الأصابع ، ونادى رائد الوفاء ولكن كم حياة في الأرض لمن ينادي ،  
ونمت أصابع الزيادة وتمت حتى قال الناس : ما ذى أصابع ذى أيادي .

هذا وقد قرئت زراعي الدور المبتومة بالنمارق ، وقال المقياس : تفتت منها  
الدرج فقال الرعاء وظهريت الدقاق ، فهو جم المنافع ، جذب المتابع ، يسارق الحقيقة  
والجهاز إليه بالأصابع .

فأعاده الله إلى ذلك النفع المعهود ، وأرانا منه الأمان من الطوفان إلى أن ترد الحوض المورد ؛ وكفى أهل مضر هذه المصيبة التي إذا أصابتهم قالوا : **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ، ولأبتلاهم بمثل ما ابتلى به قوما جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم فأصموا فاستغشى ثيابه منهم الفقراء في المطر ويحعل أصابعهم في آذانه منهم المؤذنون ؛ **اللَّهُمَّ إِنَّكَ وَلِيُّ النِّعَمِ** ، وأولى برحمة خلقك من قبض هذه الرحمة .

وما قاله صاحبنا الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة الذي كان أغرب من زرقاء اليمامة ، وأعجب إذا ركب بقلته وزروره من أبي دلامة ؛ الأديب الذي كان حجة العرب ، والنائر الذي كان ينسبته إلى الطيور محرك المناطق وإلى الشمر صناجة الأدب ، والناظم الذي كان إذا أشد مقاطيعه في التشبيب فاق على المواويل ذوات الطرب ؛ والصادق الذي كانت منه عوائد الوفاء مألوفة ، وشيخ الصوفية الذي لا تعجب إذا كانت له المقامات الموصوفة ؛ أسكنه الله فسيح الجنان ، وخص ذلك الوجه الجميل بالعارض الحتان ؛ من مقامه الزعفرانية عن أبي الراس :

**فَاعْتَقَتْهُ لَدَى السَّلَامِ** ، وقلت : ما وراءك يا عصام ؛ قد بلّنا أن النيل ترأيد دفعه ، وأدى إلى الضرر فقه ؛ فقال : **خُذِ الْعَفْوَ** ، ولا تذكر بذكر النيل الصفو ؛ فقد أمتزج بالمعصيات تمجأه ، وأعني بطبيب الفيطان علاجه :

**وَشَرِقَ حَتَّى لَيْسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقٌ \* وَغَرِبَ حَتَّى لَيْسَ لِلْغَرْبِ مَغْرِبٌ !**

قلت : فما فعل النغير ، يمزرة الطير ؛ قال : لم يبق بها هاتف يشتر الصباح ، ولا ساج يسعى برجل ولا طائر يطير بجناح ؛ إلا اتخذ قفا في الأرض أو سلكا في السماء ، أو أوى إلى جبل يعصمه من الماء ؛ فأذاق بها الحمام الحمام في المروج ، وترك أرضها



كَيْسَاءٍ مَالِهَا مِنْ فُرُوجٍ، وَتَلَا عَلَى الْحَمَامِ : ( أَيُّهَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ ) ، وَكَمْ فِي سَمَاءِ بَابِهَا مِنْ نَسِيرٍ وَاقِعٍ ، وَبُيُوتُهُ تُصَفِّرُ عَلَى دِيَارِهَا الْبَلَّاقِجِ :  
وَمَنْهَسِلٍ فِيهِ الْغُرَابُ مَيِّتٌ \* مَقِيَّتٌ مِنْهُ الْقَوْمُ وَأَسْتَقِيَّتُ !

قُلْتُ : فَمِصْرٌ ؟ قَالَ : زَحَفَ عَلَيْهَا بَسْكَرُهُ الْجَرَّارُ ، وَفَقِطَ مَائِهِ الطَّيَّارُ .

قُلْتُ : فَالْجَلِيزَةُ ؟ قَالَ : طَلَعِيَ الْمَاءُ حَتَّى عَلَا عَلَى قَنَاطِيرِهَا وَتَجَسَّرَ ، وَوَقَعَ بِهَا الْقَدَمُ مِنْ قَائِمَتِهِ حِينَ عَلَا عَلَيْهِ الْمَاءُ وَتَكَسَّرَ ؛ فَاصْبَحَ بَعْدَ اخْضِرَارِ بَرْقَتِهِ شَايِبَ الْإِهَابِ ، تَأَصَّلَ الْخَضَابُ ، غَارِقًا فِي قَعْرِ بَحْرِ يَضَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَحَابٍ ؛ وَقَطَعَ طَرِيقَ زَاوِيَتِهَا عَلَى مِنْ بَهَا مِنَ الْمُتَقَطِّعِينَ وَالْفُقَرَاءِ ، وَتَرَكَ الطَّالِجَ كَالصَّالِحِ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ ؛ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ، أَلَا يَدْخُلُهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ؛ وَأَذْرَكَهُمْ الْفَرْقُ فَأَلْبَسُوا مِنَ الْخَلَّاصِ ، وَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَلَلَّتْ حِينَ مَنَاصٍ ؛ وَتَرَعَلِيهِمُ السَّقْفُ مِنْ تَوَفُّهِمْ فَهَلَّتْ قُوَاهُمْ ، وَأَسْتَقَاتُوا مِنْ كَثَرَةِ الْمَاءِ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ .

قُلْتُ : فَالْزُورَةُ ؟ قَالَ : أَحَاطَ بِهَا إِحَاطَةُ الْكَيْلَامِ بِزَهْرِهِ ، وَالْكَلَّاسُ بِجُبَابِ نَعْمِهِ :

فَكَانَتْهَا فِيهِ بِسَاطٌ أَخْضَرَ \* وَكَانَتْ فِيهَا طِرَارٌ مُنْعَبِ !

فَلَمْ يَكُنْ لَهَا بَلْعُ أَصَابِهِ يَدَانِ ، وَكَمْ أَتَشَدَّ مَرَجُهَا خِينَ مَرَجِ الْبَحْرَيْنِ يَتَّقِيَانِ :  
أَعْنَى كُفَاً عَنْ فُرَادَى فَإِنَّهُ \* مِنَ الْبَنِيِّ سَعَى أَتَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدٍ !

قُلْتُ : فَتَدَارُ النُّحَاسُ ؟ قَالَ : انْحَسَرَ حَالُهَا ، وَأَفْسَدَ مَا عَلَيْهَا وَمَا لَهَا ؛ فَدَخَلَ مِنْ حَمَامِهَا الْبُطْهَرُ ، وَقَطَعَ الطَّرِيقَ بِالْجَامِعِ الظُّهْرِ ؛ فَالْحَقَّ بِجَازِ بَابِهِ بِالْحَقِيقَةِ ، وَرَقَى مِنْهُ عَلَى دَرَجَتَيْنِ فِي دَقِيقَةٍ ؛ كَمْ أَتَقَرَّفَ مَا جَاوَزَهُ مِنَ التَّرَفِّ عَرَفَا ، وَأَطْلَقَ مِنْ مَائِهِ الْأَحْمَرِ النَّارَ بِمُورِدَةِ الْخَلْقَا .

قلت : فالخليج الحاربي ؟ قال : نرج عسكر موجه بعد الكسر على حية ،  
ومرق من قسي قنطرة مروق السهم من الرمية .

قلت : فالمشاة ؟ قال : أصبحت للبحر مقره ، بعد أن كانت لليون قره ، وقيل  
للمشاة : أتى يحيى هذه الله بعد موتها قال : يحيى الذي أنشأها أول مره ؛ قد مال  
على ما فيها من شون الغلال كل الميل ، وتركها تتلويقها الذي شفتاه مصراعا  
بابها : ( ياءبانا منع منا الكيل ) .

قلت : بغزيرة أروى ؟ قال : قد أفسد جل ثمارها ، وأتى على مغانيها فلم يدع  
شيئا من رديها وخيارها ؛ أخلق ديباجة روضها الأنف ، وترك قفاسها في الجروف  
على شفا جرف :

بيني رأيت الماء يوما وقد جرى \* على رأسه من شاعق فكسرا !  
طالما تضرع بأصابعه إلى ربه ، ولطم برؤوسه الحيطان مما جرى من الماء  
على قلبه ؛ ويمثل بقول الأول :

وإن سألوك عن قلبى وما قاسى \* قل : قاسى ، وقل : قاسى ، وقل : قاسى !!!  
لم يفده تحصنه من ورقه بالدري والسائر ، ولا حن عليه حين تضرع بأصابعه  
فصيح أن الماء سلطان جائر .

قلت : ففكر ابن الأمير ؟ قال : لم يبق منه غير الثلث والثلث كثير ؛ قد انعمل  
من دوره تعالها ، وجعل طليها ساظها ؛ فكم دار أهدم صاحبها قراره ، وتادى  
في عرصاتها المتداعية : لياك أحنى فاقمى بإجاره ؛ فأصبحت بعد نعمها قليسة  
الجدى ، مستولية عليها يد الردى ، شبيهة بدار الدنيا لأنها دار منى أصحكت في يومها  
أبكت غدا .

قلتُ : فبولاق ؟ قال : إملاق ، قد أَلَفْتُ بها من الزَّيْلِ السَّاقِ بالسَّاقِ ، فأتى من الثَّوبَةِ على الصَّغِيرِ والكَبِيرِ ، ومن المَرَاكِبِ ومَرَّها على التَّيْمَرِ والقَطْمِيرِ .

هذا بعد أن ترك جامع الخطيرى على خطر ، وحِطَّانَه يَأْمَنَةُ الثَّمَرِ ، قد دَنَا قَطَافُهَا ، وَحَانَ تَلَاغُهَا ؛ فكَأَنِّي به وقد مَنَعَ رِقْدَه ، وتَلَا على عِجْرَاهِ سُورَةَ السَّجْدَةِ .

قلتُ : بغزيرة الفَيْسَلِ ؟ قال : أَقْلَعَ أَشْجَارُهَا بِشُرُوشِهَا ، وَتَرَكَ سَوَاقِيهَا خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا .

قلتُ : فالتَّاجِ والسَّبْعَةِ وَجْوه ؟ قال : هَمَّ عَلَى حُرْمِهَا ، وَهَمَّ الْوُجُوهَ مِنْ فَرْقِهَا إِلَى قَدَمِهَا ؛ فَبَلَّ تَرَى الْمَوْتَى فِي الثُّغُومِ ، وَصَنَتِ الْوُجُوهُ لِقَى الْقِيُومِ ؛ قلتُ : فالحِيلَةُ ؟ قال : تَرَكَ الْحِيلَةَ :

دَعَا تَمَسَاوِيَةً يَهْرَى عَلَى قَدَرٍ \* لَا تَقْسِدْنَهَا بِرَأْيِ مَنِكَ رَاضِي (٩)

طَالَ الْكِبَابُ ، وَتَجَرَّعْنَا عَنْ قَصَلِ الْخَطَّابِ :

وَلَرَّبَّمَا سَاقَ الْمُحَلَّتُ بَعْضَ مَا \* لَيْسَ النَّدَى إِلَيْهِ بِالْمُتَحَاجِّ !

وَكَأَنِّي بِقَائِلٍ يَقُولُ : أَلَيْسَ مِنَ الْكِبَرِ أَنْ يَسْتَخْلِمَ هَذَا فِي رِسَالَتِهِ مُلُوكَ الْكَلَامِ ، وَمِنَ الْخُفَى أَنْ يَحْمِلَ عَرَائِسَ أَفْكَارِهِ بِمَا لِلنَّاسِ مِنْ حَلِي النَّارِ وَالنَّظَامِ ؛ فَأَقُولُ : مُسَلِّمٌ أَنْ كُلَّ مَا أَوْرَدْتَهُ دُرُورُ وَجَوَاهِرُ ، وَعُقُودُ كَرَاهِيَةِ الرِّبَاعِ عِيُونَ وَجُوهِهَا النُّوَاضِرِ تَوَاطُرُ ، وَلَكِنَّهَا هَاهُنَا أَمْتَلُ ، وَجَمْعُ تَمَثُّلِهَا عَلَى هَذِي الْمَرْوَسِ أَجْمَلُ :

\* وَفِي عُنُقِ الْحَسَنَاءِ يُسْتَخَسَّنُ الْعَقْدُ ! \*

وعلى الجُمْلَةِ فِيرْجَحُ الْمُلُوكُ إِلَى التَّوَاضُّعِ وَهُوَ الْأَلْبَقِيُّ بِالْأَدَبِ ، فيقول : لَا عَيْبَ عَلَى الْفَقِيرَةِ إِذَا تَجَمَّلَتْ بِحُلِيِّ النَّفْسِ ، وَلَا عَارَ عَلَى الْجَوْهَرِيِّ إِذَا نَقَمَ سَبْلُكَ كَانَتْ دُرُّهُ عَلَى الطَّرِيقِ مَرْمِيَةً ؛ وَتَرْجِعُ إِلَى مَا وَلَدَهُ الْفَيْكُرُ مِنْ عَجَبِ الْبَحْرِ ، وَمَا ظَهَرَ مِنْ دَفْعِ

الملوك لأمتالها عن جريها إلى غاياتها بصُور القمر، فاقول : إنما قالت الأدباء ذلك لما جرى من جور النيل على الأرض، ولما عم الناس من الإرجاف بطول أذاه وقرجه فكأنما هم في يوم العرض، وكل ذلك وما وصل إلى هذا الارتفاع، وربما كان أنقص من هذه الزيادة بقريب الذراع.

وعلى هذا القياس إنما دفع ضرره، وجعل في البلاد أثره، وحسن في المياه خبره وفي الأرض خبره؛ السرى الذي أهنيته بالمعروف معروف، وسيف الدين الذي سهر في مصالح الرعايا لما تنام ملء أجفانها السيف؛ أتاك العساكر، والملك الذي هو بالإسلام وله منصور وناصر؛ حصن سائر الكوى بالجسور، وركز على أفواه البحر والخليج الأمراء كما يركز المجاهدون على الثغور؛ وقابل البحر من سطواته بما ليس له به قبل، ورد دفعه بكل دفع من الرأى والتدبير يعني عن البيض والأسل؛ وحارب به جيش عزم إلى أن وثى هارباً مع التراجع والقتار، وجاهد به يجتد ركمهم على جوانبه لما تحقق أن البحر سلطان جائر؛ وحصره بالتضييق عليه كما تحصر البرك والتراجع، وفل يده من التصرف فسفاه الموت كما سقى الناس أنواع التراجع؛ فما هو إلا أن تضائل بينان سطواته وأحترق، وذلك خاضعاً وكفى به تضرعاً بالأصابع وتوسلاً بالملق، وأطاع لما لم ينجح مجاهرته من تياره بالسيف ولا تحصنه من داراته بالدق.

على أنه تناول ليضاهي إصابه جود أيديه فقصر، وتحمس فركب خيل خيلته ليحاكي بأه فوقع من جسور تحججه وتقطر، وسمت نفسه كبيراً لأن يبلغ قدره قليل؛ يا بحر هذا خليفة الله في أرضه والله أكبر؛ نعم :

رأى البحر الخضم نداه ملام \* فيض على الورى منه يحار.

فصار البحر موطئاً وأحصى \* على الحائين ليس له قرار!

فلو زدت في أيام غيره من الملوك المترفين ، وفيمن يؤثر لاذ نفسه على مصالح  
 المساكين ؛ كنت أيها الملك بلغت قصدك ، وفعلت في أبناء مصر كجهتك ؛ وكنت  
 من الملوك الذين إذا دخلوا قرية استعملوا فيها الأهل ، وأفسدوها وجعلوا أعزة أهلها  
 أذلة ؛ لكن هب قبورك إدبارا ، ولاقت ريحك إعصارا ؛ فليس لك به قيل ،  
 "والسبل أدرى بالجبل" ؛ فمالك سبيل إلى بلاده ، ولا طاقة بآباب الخير على عاده ؛  
 فانه خايم الحرمين ، والمدعو له حتى في مواقف الحرب بين العالمين ؛ حامي السواحل  
 والنفور ، والمخدوم بأبداى السحاب وأصابع الجور ، وإن كنت يا أبا خالد أبا جعفر  
 فلست بمنصور ؛ والرأى أن تقف مستغفرا ، وتقول متذبرا ؛ : لم أفرط بالزيادة  
 في أيامه ، ولم أفيض على طرف الميدان إلا لأنوز بتقيل آثار جواد خيله ومواطئ  
 أقدامه ؛ وتلعب نواحيه وتمتثل أوامره ، وتدعوله كالرعايا بطول البقاء في الدنيا  
 وحسن الثواب في الآخرة .

ونحن نسأل الله كما بلغ بك المنافع ، أن يرينا كوكب نورك عن قريب راجع ؛  
 وكما أغنى بزيادتك عن الاستسقاء ، لا ينجونا في قصصك إلى الاستضعاء ، إنه سميع  
 مجيب الدعاء ؛ بتمه وكرمه .

## الفصل الثالث

## من الباب الأول من المقالة العاشرة

( في قَدَمَاتِ الْبَيْتِ )

يَجْمَعُ قِدْمَةُ بِكْمَرِ الْقَافِ وَتَكُونُ الدَّالُ الْمُهْمَلَةُ ، وَهِيَ رَسَائِلُ تَشْتَمِلُ عَلَى حَالِ  
الرَّحْمِيِّ بِالْبَيْتِ ، وَأَحْوَالِ الرِّمَاءِ ، وَأَسْمَاءِ طَيْرِ الْوَاجِبِ ، وَأَصْطِلَاحِ الرِّمَاءِ وَشُرُوطِهِمْ .

وَهَذِهِ نَسْخَةُ قِدْمَةٍ ، كَتَبَ بِهَا شَيْخُنَا الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الصَّائِغِ الْحَنْفِيُّ  
الْأَدِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ ، لِصَلَاحِ الدِّينِ بْنِ الْمُقَرَّرِ الْحَمَوِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ ، وَنَصَّهَا :

الْحَمْدُ لَهُ الَّذِي سَدَّدَ لِصَلَاحِ الدِّينِ سِهَامَ الْوَاجِبِ ، وَشَدَّدَ بِتَحَاجِ الْمَطْلُوبِ مَرَامَ  
الطَّالِبِ ، وَجَعَلَ حُصُولَ الرِّزْقِ الشَّارِدِ بِالسَّعْيِ فِي الْمَنَاجِبِ ، وَمَهَّلَ الْمُتَتَبِعَ عَلَى  
الْقَاصِدِينَ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ رَجَعَ وَهُوَ صَائِبٌ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا وَلَدٌ وَلَا صَاحِبٌ ، شَهَادَةٌ تَرْجُو  
طَيْرَ الْإِشْرَاقِ بِهَذِهِ الْأَشْرَاقِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي  
قَرَّبَهُ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ؛ وَهَذِهِ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ  
وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ رَفَعُوا فِي الْعِلْيَاءِ لَمَرَّاقٍ لَمْ يَسْمُ إِلَيْهَا طَيْرٌ مُرَاقِبٌ ، صَلَاحٌ يَسْبِقُ بِهَا الْمَصْلَى  
إِلَى يَفَاجِ شَرْفٍ يُشْرِقُ سَنَاهُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، وَيَرْجِعُ طَائِرًا بِالشُّرُودِ وَلَا رُجُوعَ  
إِلَّا طَائِرُ الشَّارِدِ إِلَى الْمَشَارِبِ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الصَّيْدَ مِنْ أَحَلِّ الْأَشْيَاءِ وَأَحْلَاهَا ، وَأَجَلَّهَا وَأَجْلَاهَا ، وَأَبْهَرَهَا وَأَبْهَرَهَا ،  
وَأَشْهَرَهَا وَأَشْهَرَهَا ؛ وَانْخَرَجَ بِهَا قِيمَةٌ ، وَأَغْزَرَهَا دِيمَةٌ ؛ يُوْرِدُ الطَّيْرُ فِيهِ إِلَى الْمَنَاجِلِ  
تَلْخِيشَ الْمَصْدُورِ ، وَبُوقُوعَهُ فِي شُرُورِ الشَّرَكِ تَيْمُ الشُّرُودِ ؛ يُحْصَلُ عِنْدَ مَتَاعِهِ  
نَشَاطًا ، وَيَزِيدُهُ أَنْبَاسًا ؛ وَيُسْرَحُ خَاطِرُهُ ، وَيُسْرَحُ نَازِلُهُ ؛ وَيَلْأُ عَيْنَهُ قُرَّةٌ ،

وَقَلْبَهُ مَمَرٌ؛ يُسَجِّعُ الْجَبَانَ، وَيُنَبِّتُ الْجَنَانَ، وَيُقَوِّى الشُّهُوَّةَ، وَيُسَوِّى الْخَطُوءَ؛  
وَيُسَوِّقُ الظُّفْرَ، وَيُسَوِّقُ النَّظَرَ، وَيُرْوِّقُ مِنْهُ الْوَرْدَ وَالصَّدْرَ، وَفَوْقَ فِيهِ الْخُبْرُ عَلَى  
الْخُبْرِ. قَالَ بَعْضُ الْحِكَمَاءِ: قَلْبًا يَغْمَشُ نَظِيرُ زَهْرَةٍ، أَوْ يَزِمُنْ مُرِيْعٌ طَرِيدَةٍ، يَعْنِي  
بِذَلِكَ مَنْ أَتَمَّنَ الْحَرَكَةَ فِي الصَّيْدِ وَنَظَرَ إِلَى الْبَسَائِنِ، فَاسْتَمَعَ طَرَفَهُ بُضْرَتَهَا،  
وَأَتَّبَعَ مَنَظَرَهَا.

وَمَنْ ذَا الَّذِي يُبْكِرُ لَلَّةَ الْأَصْطِيَادِ، وَالطَّرَبَ بِالْقَنَاصِ عَلَى الْإِطْرَادِ؟ وَهَذَا نَزَّ الْقَائِلُ:

تَوَلَّاهُ طَرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكُ لَلَّةٌ \* قَطَّارِدِي لِي بِالْوَصَالِ قَلِيلًا.

هَذَا الشَّرَابُ أَخُو الْحَيَاةِ وَمَا لَهُ \* مِنْ لَلَّةٍ حَتَّى يُصِيبَ عَلِيلًا

يَا حُسْنَهُ مِنْ فِعْلٍ آعَنْتَ بِالنَّسِيمِ مَوَارِدُهُ وَمَصَادِرُهُ، وَقَافَتْ أَوَائِلُهُ فِي اللَّذَائِدِ  
أَوَائِرُهُ؛ وَهَذَا الْقَائِلُ:

إِنَّمَا الصَّيْدُ هِمَّةٌ وَنَسَاطٌ \* يُغِيبُ الْجَنَمَ صَحَّةً وَصَلَاحًا،

وَرَجَاءٌ يُنَالُ فِيهِ سُورٌ \* حِينَ يَلْقَى إِمْرَأَةً وَنَجَاحًا!

وَمَا أَطْيَبَ الْاِقْتِنَاصَ بَعْدَ الثَّرْوَةِ، وَكَيْفَ بَرَى مَوْقِعَ الْوَصْلِ بَعْدَ الصُّلُودِ:

وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْحُبِّ أَنْ مَنَعْتَ، \* أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مَنَعَا!

تَقْضِي رِيَاضَاتُ التَّقْوَمِ السَّامِيَةِ بِمُعَاطَاةِ كَاسِهِ، وَمُصَافَاةِ نَاسِهِ؛ لِمَا فِيهِمْ مِنْ  
الْفُتُوَّةِ، وَكُلِّ الْمُرُوَّةِ؛ وَصِدْقِ اللِّسَانِ، وَتَبَاتِ الْجَنَانِ؛ وَطِيبِ الْأَخْلَاقِ، وَحِفْظِ  
الْمِثَاقِ؛ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ الصَّدَقِ وَإِنْ كَانُوا يَمِيلُونَ إِلَى الْمَلَقِ، وَلَا يَمْنُونُ بِصَاحِبِهِمْ  
يَذِلُّوا يَعْطِفُونَ عَلَيْهِ عَطْفَ النَّسَقِ؛ لَا سِيَّمَا تَعَاطَى صَبَدٌ طَيُّورُ الْوَاجِبِ، الَّذِي سَنَّهُ  
الْأَكْبَرُ وَجَعَلُوا أَمْرَهُ مِنَ الْوَاجِبِ؛ وَتَشَرَّفَتْ بِهِ هِمَّتُهُمُ الْعَالِيَةُ: تَارَةً إِلَى السَّمَاءِ،  
وَأُورَةً إِلَى مَشَارِيعِ الْمَلَأِ.

لَا يَتِمُّ مَرُورُهُمْ إِلَّا بِرُؤْيَا تَمَّ كِبْدَرُ السَّحَابِ ، وَصَبَاحُ الظَّلَامِ ؛ يَفِرُّ مِنْ ظِلِّهِ فَرَارًا ،  
وَيُرِيكَ بَيَاضَ لَوْنِهِ وَسَوَادَ مَنَاقِرِهِ شَيْبًا وَوَقَارًا ؛ وَلَا يَدَاوِي هُمُومَ لَعَنِهِمْ مِثْلَ كُفٍّ ،  
لَا جَنَحَتَهُ الْخَوَافِقُ فِي الْحَافِقِينَ تَشْرُوطِي ؛ وَلَا تَبْتَهِجُ نَفُوسُهُمُ النَّفِيسَةَ إِلَّا بِأَوْرِهِ ،  
يَزْدِرِي دَلَالُهَا بِالْكَأَبِ الْمُعْتَرِّ ؛ وَلَا يُطْرِبُ أَسْمَاعَهُمْ غَيْرُ لَفَاتِ اللَّفْلَفَةِ ، حِينَ تَمْتَدُّ  
كَأَنَّهُا مُدَامَةٌ فِي الزَّجَاجَةِ مَفْرَقَةٌ ؛ وَلَا يُؤْنِسُهُمْ إِلَّا الْإَيْسَةُ الْإَيْسَةُ ، وَالدَّرَّةُ النَّفِيسَةُ ؛  
وَلَا يَذْهَبُ حَرَجُهُمْ غَيْرُ الْمُبْرِجِ الصَّادِحِ ، الْمُسْتَوْفِ بِحُسْنِهِ كُلِّ غَايَةٍ وَرَائِحَةٍ ؛ تَكَادُ  
قُلُوبُهُمْ تَطِيرُ بِالْفَرَجِ عِنْدَ رُؤْيَا النَّشْرِ الطَّارِ ، وَيَجْبُرُ خَوَاطِرُهُمْ بِكَثْرِ ذَلِكَ الْكَاسِرِ ؛  
إِذَا طَابُوا عَقِبَانًا أَعْقَبَهُمُ الْقَرَجُ ، وَزَجَّ عَنْهُمْ الْقَرَجُ ؛ وَإِنْ كَرَّ كَرَّ كُفٍّ فَرَّ عَنْهُمْ الْيُوسُ ،  
وَرَأَوْا عَلَى رَأْسِهِ ذَلِكَ النَّجَّاجَ الَّذِي لَمْ يَحُلْ مِثْلُهُ عَلَى الرُّؤُوسِ ؛ وَإِنْ عَرَّضَ غَيْرُ نَوْقٍ  
غَيْرَ قَوَا فِي بِحَارِ أَفْكَارِهِمْ ، وَجَدُوا إِلَى أَنْ يَقَعَ يَجْدُلُ أَوْتَارَهُمْ ؛ وَإِنْ لَاحَ ضَوْعٌ  
كَالْثَّغْبِ الْمَصْبُوعِ ، أَلْقَوْهُ فِي الْحَبَالِ وَهُوَ بَدِيهٌ مَصْبُوعٌ ؛ وَإِنْ مَرَّ مَرَزَمٌ كَالْخَوْدَةِ  
الْحَسَنَاءِ ، ضَرَبُوا لَهُ الْآلَةَ الْحَدْبَاءَ ؛ وَإِنْ مَرَّ السَّيْطَرُ أَجْنَحَتُهُ كَالسَّحَابِ ، جَاءَتْهُ  
الْمَرَامِي مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ؛ وَإِنْ عَنَّ عَزَّزٌ مَحْمَدُوا إِلَيْهِ ، حَتَّى يُسْقَطَ فِي يَدَيْهِ ؛ قَدْ تَعَالَوْا  
فِي رُتَبِنَا ، وَتَعَالَوْا فِي وَصْفِ وَشَيْهَا .

وَجَعَلُوا كُلَّ آلَةٍ مَنِيْعَةٍ ، وَرَبَّةَ جَمَالٍ مَنِيْعَةٍ ، وَبَيْلَةَ الرَّبِّيِّ بَدِيْعَةٍ : —

مِنْ كُلِّ قَوْسٍ هِيَ فِي الْعَيْنِ كَالْحَاجِبِ ، أَوِ النَّوْنِ الَّتِي أَجَادَهَا الْكَاتِبُ ؛ تُدَوِّرُ  
الطَّارِ حَنْدَ الرَّبِّيِّ وَتُنْيِيْهِ ، وَتَنْشِئُ أَيْنَمَا أَوْلَى بِهِ مِنْ تُصْيِيْهِ . وَتَنْشِئُ جُبِلَتْ طَبِئَتُهُ  
عَلَى صَوْبِ الصَّوَابِ ، يَسْتَنْزِلُ الطَّيْرُ وَلَوْ اسْتَرْ بَذِيلَ السَّحَابِ ؛ كَأَنَّهُ النَّجْمُ النَّاقِبُ ،  
وَالشَّهَابُ الصَّابِغُ ؛ يَرَى الطَّيْرُ كَالسَّحَابِ الْوَاكِفِ ، فَيَتَقَضَّى عَلَيْهِ أَهْضَاضُ الْبَرَقِ  
الْخَاطِطِ ؛ وَيَرْجِعُ النَّشْرُ مِنْ حَتْفِهِ رَانِمًا ، وَيَنْدُو بِعَدِّ أَنْ كَانَ طَائِرًا وَاقِعًا ؛ وَيَصِيرُ  
بَعْدَ أَنْ كَانَ كَاسِرًا مَكْسُورًا ، وَفِي سَوَارِ الْقَمَى مَأْسُورًا ؛ فَهَذَا لِكَيْ يُلْقَى الْقَالِبُ



وهو مغلوب ، والطير الواجب وهو مندوب ؛ فحينئذ تنشرح النفوس ، وتطرب ولا طربها بالكؤوس .

ولما كان بهذه المنزلة العظيمة ، والمرتبة الجسيمة ؛ تماطته الملوك وأبناء الملوك ، ونظموا عقده بحسن السلوك ؛ وأرتاضت به النفوس الطاهرة ، وأعتاضت به عن الكؤوس الدائرة ؛ ورأت به تكيسل الأتوات ، وسامت به فعل الواجب وإن قيل : إن ذلك من الهفوات ؛ فهو تعب تنشأ الراحة عنه ، ولعب لم يكن شيء أشبه بالجد منه .

فلذلك قصد الجنب الكريم ، العالى ، الصلاحي ، صلاح الدنيا والدين ، ونجاح العالمين ؛ سليل الوزراء ، وبجل الكبراء ، وصدر الرؤساء ، وعين العظماء ؛ ابن الموزن المحيوى بن فضل الله ، أدام الله تعالى علاه ، وكبت عناه ؛ وأعلى معاليه ، وشكر مساعيه ؛ وأطال حياته ، وأطاب ذاته - أن يسلك تلك المسالك ، ويرضى نفسه الكريمة بذلك ، ويعتدل على تحصيل اللذات بالتحول ، عملاً بقول الشاعر :

\* تتقل فلذات الهوى في التقل ! \*

وعمد إلى تحصيل آلايه ، سائر كاليسر في حالاته ؛ فسار مع سرايا كالنجوم ، يتفككهون في الحديث بالمشور والمنظوم ؛ ويخطون جد القول بهزله ، كلب خلط لم طل الجود بوبله ؛ وأخذوا في التلبيح بجمعهم الصحيح ، وقصصوا المراكب العالية ولم يقتنعوا من الأيام بالرجح ؛ وظلوا يسبرون في تلك المراكب ، التي كأنها قطع السحاب .

هنا وهم يشوقون إلى المصايد ، ويثيرون إلى الشوارد ؛ فيطلعون أحياناً إلى البر متفرجين ، وبطيح ذلك النسيم متارجين :

نَسِيمٌ قَدْ سَرَىٰ فِيهِمْ بَشِيرٌ \* فَأَذَكَّرَهُمْ بِمَسْرَاهِ السَّرِيَّا !  
كَرَامَتُهُ اسْتَعَزَّتْ حِينَ وَاقَىٰ \* لَهُ نَفْسٌ يُعِيدُ الْمَيِّتَ حَيًّا !

وَيَحْتَسِنُونَ مِنَ الْفُضْنِ الرَّاهِي قَدًا ، وَيَحْتَلُونَ مِنَ الْوَرْدِ الرَّاهِرِ حَدًّا ؛ وَيَتَأَمَّلُونَ  
يُحْكَمُ الْإَرْضَ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ ، وَشِمَاخَةِ الْقُضْبِ عِنْدَ خَرِيرِ الْمَاءِ ؛ لَا تَلْدُقُ أَجْفَانُهُمْ  
حَلَمَ الْكَرَى ، وَلَا يَمِيلُونَ عَنِ السَّيْرِ وَلَا يَمْلُونَ السَّرَى ؛ مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ إِذَا رَأَى الطَّيْرَ  
جَانِسًا ، عَادَ مِنْ وَقْتِهِ لَهُ حَاشَا ؛ بَيْنَمَا هُمْ يَسِيرُونَ مُتَفَرِّقِينَ ، حَتَّى إِذَا لَاحَ لَهُمْ طَيْرٌ  
تَدَاعَوْا إِلَيْهِ غَيْرَ مُقَصِّرِينَ ، وَأَتَفَقُوا مُحْكَمِينَ ؛ وَلَمْ يَزَالُوا كَذَلِكَ يَنْهَمُونَ الْعَيْشَ ، بِالْأَمَّةِ  
وَالطَّيْشِ ؛ حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ الْيَوْمُ الْمُبَارَكُ الثَّامِنُ وَالْعَشْرُونَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ  
تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَسِعِمَانَةَ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي عَزَمَ فِيهِ الْجَنَابُ الصَّلَاحِي عَلَى الْأَصْطِيَادِ ،  
بِالْبَنَادِقِ الْحِلْدَادِ ؛ فَنَبَاشَرَتْ بِهِ الطُّيُورُ ، وَسَلَّتْ بِأَجْنِحَتِهَا الثُّغُورَ ، وَسَهَّلَ عِنْدَهَا  
فِيهِ تُرُولَ الرَّيْسِ ، فَجَادَتْ لَهُ بِالنَّقِيسِ ؛ وَنَحِجَّتْ مِنْ قَشْرِهَا ، وَسَمَحَتْ عِنْدَ  
مَدِّ الْقَوْسِ بِحَزْزِ نَحْرِهَا ؛ وَرَغِبَ كُلُّ مَنْهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ بِذَلِكَ أَوْفَرُ الْقِسَمِ ، وَتَرَجَّى أَنْ  
يَكُونَ هُوَ الْمَكْتُوبُ لَهُ فِي الْقَدَمِ .

وَمَدَّ يَدَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ ، فَاصْبَابَ مَرْزَمًا ، فَيَالَهُ مِنْ صَبَدٍ فَاقَ بِهِ عَلَى الْأَكْبَرِ الصَّيْدَ !  
وَيَالَهُ مِنْ يَوْمٍ صَارَ يَخْفِى الطَّيْرُ يَوْمَ الْعِيدِ ! قَامَ فِيهِ بِوَاجِبِ مَاسْرَعَةِ الرَّمَاةِ مِنَ الشَّرْعِ ،  
وَذَكَّرَنَا بِهَذَا الصَّرْعِ يَوْمَ ذَلِكَ الصَّرْعِ ؛ فَلَا زَالَ مَتْنُهُ مَسْتَدَ الْأَعْرَاضِ ، وَجَوْهَرُهُ  
نَحِيًّا مِنَ الْأَعْرَاضِ ؛ يَخْرَى بِمُرَادِهِ الْمَقْدُورُ ، وَيُطِيعُهُ فِي سَائِرِ الْأُمُورِ .

وَقَدْ نَظُمْتُ تَحْسَنًا مُشْتَمَلًا عَلَى ذِكْرِ طُيُورِ الْوَاجِبِ ، وَطَرِزْتُهُ بِاسْمِهِ ، لِأَنَّ هَذِهِ  
الْقِسْمَةَ قَدْ قُدِّمَتْ لَهُ وَجُعِلَتْ بِرَسْمِهِ ، خَيْرَ أُنَى أَحْتَذِرُ عَنْهَا ، لَمَدَمَ مَادَّةٍ عِنْدِي  
أَسْتَمِدُّ مِنْهَا :

جَلَّ كُؤُوسًا عَطَّلَتْ بِالرَّاجِ، \* وَلَا تَطْعُ فِيهَا كَلَامَ لَا حِي،  
وَأَشْرَبَ هَنِيئًا وَأَشْفَنِي بِاصْبَاحِ، \* وَأَذْكُرُ زَمَانًا مَرًّا بِالْأَفْوَاجِ،  
\* هَبَّتْ بِهِ فَيَا مَقَى رِيَا حِي ! \*

أَيَّامَ كُنْتُ أَحْبَبُ الْأَكَابِرَاءِ، \* وَأَحْتَدِي مَعَ الرُّمَاءِ سَارِيَا،  
وَلَا أَزَالُ بِالْفِيَارِ عَارِيَا، \* إِذَا رَأَيْتُ فِي اللَّيَالِي طَارِيَا،  
\* نَحْوَهُ مِنْ سَائِرِ التَّوَاهِي ! \*

فَتَارَةً كُنْتُ أَصِيدُ النَّسْرَا، \* وَبَعْدَ الْعَقَابِ يَحْكِي الْجَمْرَا،  
وَالْكُرَى وَالْكُرَى صَدْتُ جَهْرَا، \* وَصَلْتُ غِرَّ نَوْفًا وَهَيَّا قَهْرَا،  
\* وَكُنْتُ بِالْإَوْرَى فِي أَنْتَرَجَا ! \*

وَتَارَةً ثَمَّا كَبِيرُ السَّمِّ \* تَبِعَهُ أَيْسَةُ كَالنَّجْمِ،  
وَلَفَّخَ أَسْوَدُ مِسْكُ الْهَمِّ، \* وَخَرَجَ مِنَ الرُّمَاءِ مَحْيِ،  
\* وَالشُّوعُ<sup>(١)</sup> مَعَ سَيْطَرِ سَبَاحِ ! \*

وَكَمْ وَكَمْ قَدْ صَدْتُ يَوْمًا مَرَّ زَمَا، \* أَنْزَلْتُهُ بِالْقَوْمِ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ،  
جَنَاحُهُ يَحْكِي طَرَا زَا مُعَلَّمَا، \* عَلَى بَيَاضِ شَيْءٍ شَبِيهِ السَّمَاءِ،  
\* كَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَى صَبَاحِ ! \*

حَيْثُ الصَّبَا تُسَمِّعُ بِالْقُبُولِ، \* وَتَمْلَأُنَا بِمُجَمِّعِ الشَّمُولِ،  
فِي مَجْلِسٍ لَيْسَ بِهِ فُضُولِي، \* وَجَاءَتِ التَّوْقِيعُ فِي الْوُصُولِ :  
\* فَسَادُكُمْ يَنْقُرُ بِالْمَصْلَاحِ ! \*

(١) ورد في (ص ٦٧ ج ٢) من هذا الكتاب : بالثين المصيبة مضمومة .

السَّيِّدُ الْفَاتِي فِي أَفْسَالِهِ ، \* وَالْمُزْدَرِي بِالْبَدْرِ فِي كَمَالِهِ ،  
وَالْمُشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ ، \* لَا أَحَدٌ يَمْكِكُهُ فِي نَوَالِهِ :  
\* إِلَّا أَخُوهُ مَعْلِدُ السَّحَابِ ! \*

مَنْ سَادَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكُتَابِ ، \* وَصَانَ سِرَّ الْمُلْكِ فِي حِجَابِ ،  
عَلَى الْعَالِي عَلَى السَّحَابِ ، \* الْبَائِلِ الْمَالَ بِلَا حِسَابِ !<sup>(١)</sup>  
زَادَهُ اللَّهُ نِعْمًا ، وَأَجْرِي لَهُ فِي النَّدَى يَدًا وَثِيَّتُ لَهُ فِي الْعُلَى قَدَمًا ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .



وهذه نسخة رسالة في صَيْدِ الْبُنْدُقِ ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين أبي الثناء  
محمود بن سلمان الحلبي رحمه الله ، وهي :

الرِّيَاضَةُ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْجَنَابِ الْفُلَانِي ، وَجَعَلَ حُبَّ كَقَلْبِ عَدُوِّهِ وَأَحِبًّا ، وَسَعَدَهُ  
كَوَصْفِ حَيْدِهِ لِمَسَارِّ جَالِيَا ، وَلَقَضَا حَاجِيَا - تَبَثُّ النَّفْسِ عَلَى مُجَانِبَةِ الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ ،  
وَتَصَوُّفُهَا عَنْ مُشَابَهَةِ الْحَمَامِ فِي الرُّكُونِ إِلَى الْوُكُونِ ، وَتَحْضُّهَا عَلَى اخْتِذِ حَظِّهَا مِنْ كُلِّ  
فَنٍّ حَسَنٍ ، وَتَحْضُّهَا عَلَى إِضَافَةِ الْأَدْوَاتِ الْكَامِلَةِ إِلَى فَصَاحَةِ اللِّسَنِ ، وَتَأْخُذُ بِهَا طَوْرًا  
فِي الْحَدِّ وَطَوْرًا فِي اللَّيْلِ ، وَتَصْرِفُهَا مِنْ مَلَاذِّ السُّمُوفِ الْمَشَاقِّ الَّتِي يَسْتَرْوِجُ إِلَيْهَا  
التَّيْبُ . فَتَارَةً تَجْمَلُ الْأَكْبَارَ وَالْعُظَمَاءَ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ عَلَى مُوَاصَلَةِ الْمَرْئِي ، وَمُتَاعِمَةِ  
الْكُرَى ، وَمُهَابِرَةِ الْأَوْطَارِ ، وَمُهَابِمَةِ الْأَخْطَارِ ، وَمُكَلِّبَةِ الْمَوَاجِرِ ، وَمُبَادِرَةِ الْأَوَابِدِ  
الَّتِي لَا تُدْرِكُ حَتَّى تَبْلُغَ الْقُلُوبُ . الْحَتَّاجِ ، وَذَلِكَ مِنْ تَحَاسِنِ أَوْصَافِهِمُ الَّتِي يَكُمُّ الْمُعْرِضُ  
عَنْهَا ، وَإِنَّا كَانِ الْمَقْصُودُ مِنْ مِثْلِهِمْ جَدُّ الْحَرْبِ فَهَذِهِ صُورَةُ لَيْسَ يُخْرِجُ إِلَيْهَا مِنْهَا .  
وَتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَى الْبُرُوزِ إِلَى الْمَلَقِ ، وَيَحْتَدِّثُهُمْ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهَا مَعَ مَنْ هُوَ دُونَهُمْ

على ملازمة الصديق ومجانبة الملق؛ فيعتصمون إليها الدجى؛ إذا سجدوا؛ ويقتحمون في بلوغها حرق النهار؛ إذا أتهاروا؛ ويتنعمون بوجاهة السفر؛ في بلوغ الظفر؛ ويستصغرون ركوب الخطر؛ في إدراك الوطر؛ ويؤثرون السهر على النوم؛ واليلة على اليوم؛ والبندق على السهام؛ والوحدة على الانظام .

ولما عدنا من الصيد الذى اتصل به حديثه، وشرخ له قديم أمره وحديثه؛ قلنا إلى أن نشفع صيد السوايح، برعى الصوايح؛ وأن نفعل في الطير الجوارح، بأهله القمى ما نفعل الجوارح؛ تفضيلاً للملازمة الأرتحال، على الإقامة في الرحال؛ وأخذنا بقول:

لأبصالح النفس إذ كانت مدبرة \* إلا التنقل من حال إلى حال !

فبرزنا ونشمس الأصيل نجود بنفسيها، ونسير من الأفق الغربى إلى موضع رميها؛ ونغازل عيون النور بمقلة أرمده، وننظر إلى صبهات الورد نظر المريض إلى وجهه المؤد؛ فكانها كهيئ أصحى من الفراق على فرق، أو عليل يقضى بين صحبه بقايا مدة الرمق؛ وقد أخضلت عيون النور لوداعها، وهم الروض بطلع حلت المومة بلهب شعاعها :

والطل في أعين النوار تحسبه \* دما تحير لم يرقاً ولم يحكف:

كلؤلؤ نخل عطف النمن منسحا \* بعقد وتبدى منه في شيف.

يضم من سندس الأوزاق في صرر \* خضر ويحنى من الأزهار في صدف!

والشمس في طفيل الإساء تنظر من \* طرف غدا وهو من خوف العراق خفي:

كهاشي سار عن أحبابه وهفا \* به الهوى قراهم على شرف.

إلى أن نضى المغرب عن الأفق حل قلائدها، ووضه عنها من الجوع بجدتها ولا يلها؛ فليتنا بعد أداء الفرض لبث الأله، ومتعنا جفوتنا أن ترد النوم

إِلَّا تَحِلُّهُ ؛ وَنَهَضْنَا وَبُرْدَ اللَّيْلِ مُوَشَّعٌ ، وَفَقْدَهُ مَرَصَّعٌ ؛ وَإِكْلِيلُهُ مُجَوَّهَرٌ ، وَأَدِيمُهُ  
مُعْتَبَرٌ ؛ وَبَدْرُهُ فِي خَنْدَرِ سِرَارِهِ مُسْتَكِنٌ ، وَبَغْرُهُ فِي حَشَا مَطَالِيعِهِ مُسْتَجِنٌ ؛ كَانَ  
أَمْتَرَجَ لَوْنُهُ بِسَفَقِ الْكَوَاكِبِ خَلِيطًا مِسْكٍ وَصَنْدَلٍ ، وَكَانَ ثَرِيًّا لَا أَمْتَدَادَهُ مُعَلَّقَةً  
بَأَمْرَاسٍ تَكْنَانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلٍ :

وَلَا حَتَّ نَجُومُ اللَّيْلِ زُهْرًا كَانَتْهَا \* عُقُودٌ عَلَى خَوْدٍ مِنَ الزَّيْجِ تُنْظَمُ ،

مُحَلَّقَةٌ فِي الْجَوْثُخَسَبِ أَنْهَا \* [طُبُورٌ] عَلَى نَهْرٍ الْحَمْزَةِ حُومٌ

إِذَا لَاحَ بَازِي الصَّبِيحِ وَلَّتْ يَوْمَهَا \* إِلَى الْقَرَبِ خَوْفًا مِنْ نَسْرِ وَمِرْزَمٍ !

إِلَى حَدَائِقِ مُلْتَقَّةٌ ، وَجَدَائِلُ مُخَمَّعَةٌ ؛ إِذَا نَحَسَّ النَّسِيمُ غُصُونَهَا أَعْتَقَتْ أَعْيُنُنَا  
الْأَحْيَابَ ، وَإِذَا فَرَكَ مَرَّ الْمِيَاهِ مُتُونَهَا أَنْسَابَتْ فِي الْجَدَائِلِ أَنْسِيَابُ الْحَبَابِ ،  
وَرَقَصَتْ فِي الْمَسَاحِلِ رَقَصَ الْحَبَابِ ؛ وَإِنْ لَمْ تُنَوِّرْ نَوْرَهَا حَيْثُ بَانَفَاسُ الْمَشُوقِ ،  
وَأِنْ أَيْقَظَ نَوَاحِسَ وَرَقِهَا غَتَّتْهُ بِالْحُلَانِ الْمَشُوقِ ؛ فَتَسِيْمُهَا وَأَنْ ، وَتَسِيْمُهَا لَعْرِفِ الْحِنَانِ  
عُنُونٌ ، وَوَرْدُهَا مِنْ سَهَرٍ تَزِيْجِهَا ضِيَانٌ :

وَطَلَّهَا فِي خُدُودِ الْوَرْدِ مُنْبَعِثٌ \* طَوْدًا وَفِي طُرُقِ الرِّيحَانِ حَيْرَانٌ !

وَطَائِرُهَا غَيْرِدٌ ، وَمَأْوَاهَا مُطَرِدٌ ؛ وَغُصْنُهَا تَارَةً يَعْطِفُهُ النَّسِيمُ إِلَيْهِ فَيَنْعَطِفُ ، وَتَارَةً  
يُغَلُّ تَحْتَ وَرَقَاتِهِ فَيُحَسِّبُ أَنَّهَا هَمَزَةٌ عَلَى أَلْفٍ ؛ مَعَ مَا فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ مِنْ تَوَاقُفٍ  
الْحَاسِنِ وَتَبَاقُفِ التَّرْتِيبِ ، إِذْ كَلَّمَا أَعْتَلَّ النَّسِيمُ مَعَ الْأَرْبَعِ وَكَلَّمَا نَرَّ الْمَاءُ شَمَخَ الْقَضِيبِ :

فَكَأَنَّكَ تِلْكَ الْغُصُونُ إِذَا نَلَّتْ \* أَعْطَافَهَا رِيحَ الصَّبَا أَحْبَابُ :

فَلَهَا إِذَا أَقْرَقَتْ مِنْ أَسْتَعْطَافِهَا \* صَلَاحٌ وَمِنْ سَجْعِ الْحَمَامِ عِتَابُ .

وَكَاَنَّهَا حَوْلَ الْعُيُونِ مَوَاسِمًا \* شَرِبٌ وَمَهَاتِيكَ الْمِيَاءِ شَرَابُ !

فَقَدِيرُهَا كَأَنَّهَا وَطَلَبُ نَظَافِهَا \* رَاحٌ وَأَضْوَاءُ النَّجُومِ حَبَابُ !

يحيط بآلتي نطافها صاف، وظلال دوحها صاف، وحصاها لصفاء ماها في قيس  
الأمري راكد وفي رأي العين طاف ؛ إذا دغدغها النسيم حبت ماعها بتأيل الظلال  
فيه يتبرج ويميل ، وإذا أطردت عليه أنفاس الصبا ظننت أفياء تلك الغصون تارة  
تتموج وتارة تسيل :

فكانه محب هام بالغصون هوى قتلها في قلبه ، وكان النسيم كلف بها غار من  
دورها إليه قبلها عن قربه :

والنور مثل عرائس \* لفت حلين الملاء،

شمرن فضل الأزر عن \* سوق خلاخلن ماء،

والنهر كالمرآة تظفر وجهها فيه السماء !!

وكان صواف الطيور المتسقة بتلك الأرض خيام، أو ظباء بأعلى الرقبتين قيام،  
أو أباريق فضية رؤوسها لها أقدام ، ومتاقيرها الحمرة أوائل ما انسكب من الندام،  
وكان رقابها رماح استنها من ذهب ، أو تموج أسود رؤوسها ما انطفت وأحمره  
ما ألتهب ، وكما كالطير الحليل حده ، وكطراز العمر الأول حده :

من كل ألبج كالنسيم لطافة \* عف الضمير مهذب الأخلاق،

مثل البذور ملاحه ، وكهملها \* عندنا ، ويمثل الشمس في الإشراق !

ومعهم قيس كالغصون في لطافتها ولينها ، والأهله في تحافتها وتكوينها ، والأزاهر  
في تراقبها وتلوينها ، بطونها مدبجه ، ومثونها مدرجه ، كأنها كواكب الشولة في أنساطها ،  
أو أزواق الأطباء في أنصافها ؛ لأوتارها عند القوادم أوتار ، وليناديقها الحواصل  
أو كارب ؛ إذا انتضيت لصيد ذهب من الحياة نصيبه ، وإن انتضت لرمي بدا لها  
أنها أحق به ممن يصيبه ؛ ولعل ذلك الصوت زجر لبنديقها أن يبطى في سبيله ،

أَوْ يَقْطَعِي الْفَرَسَ إِلَى غَيْرِهِ ، أَوْ وَحْشَةً لِمُقَارَقَةِ أَفْلَاحِ كَيْدِهَا ، أَوْ أَسْفُ عَلَى  
خُرُوجِ بَيْنِهَا مِنْ يَدِهَا ؛ عَلَى أَنَّهَا طَالَمَا نَبَذَتْ بَيْنَهَا بِالْعَبْرَاءِ ، وَشَفَعَتْ لِحَصْمِهَا  
التَّحْذِيرَ بِالْإِغْرَاءِ :

مِثْلُ الْعَقَارِبِ أَذْنَابًا مُعَقَّدَةً \* لِمَنْ تَمَلَّهَا أَوْ حَقَّقَ النَّظْرَ !  
إِنْ مَلَّهَا قَمَرٌ مِنْهُمْ وَعَيْنُهُ \* مُسَافِرُ الطَّيْرِ فِيهَا أَوْ نَوَى سَفَرًا ،  
فَهُوَ الْمُسَيِّءُ اخْتِيَارًا إِذْ نَوَى سَفَرًا \* وَقَدْ رَأَى طَالِعًا فِي الْمَقَرِّبِ الْقَمَرَا !

وَمِنَ الْبَيِّنَاتِ كُرَاتٌ مَنِيغَةُ السَّرْدِ ، مُتَّحِدَةُ الْعَكْسِ وَالطَّرْدِ ، كَأَنَّهَا تُخْرِطُ مِنَ  
الْمَنْدَلِ الرُّطْبَ أَوْ تُجَيِّتُ مِنَ الْعَبْرِ الْوَرْدَ ؛ تَسِيرُ كَالشَّهْبِ فِي الظَّلَامِ ، وَتَسْبِقُ إِلَى  
مَقَاتِلِ الطَّيْرِ مُسَدَّدَاتِ السَّهَامِ :

مِثْلُ التَّجُومِ إِذَا مَا مَرَّ فِي أَفْقٍ \* عَنِ الْأَهْلَةِ لَكِنْ نُؤْنِبُ رَأً ،  
مَا قَاتَمَتْهَا مِنْ نُجُومِ اللَّيْلِ إِنْ رُمِيتْ \* إِلَّا تَبَاتُ بِرُؤْيِهَا وَأَضْوَاءُ ،  
تَسْرَى وَلَا يَسْعُرُ اللَّيْلُ الْبَيْمُ بِهَا \* كَأَنَّهَا فِي جُفُونِ اللَّيْلِ إِغْفَاءُ ،  
وَتَسْمَعُ الطَّيْرَ إِذْ تَهْفُو قَوَادِمُهُ \* خَوَافًا فِي الدَّيَاجِ وَهِيَ صَمَاءُ !!

يَصُونُهَا جِرَافَةٌ كَأَنَّهَا دُرُجٌ دُرٌّ ، أَوْ دُرُجٌ غُرٌّ ، أَوْ كَأَنَّهَا مَرٌّ ؛ أَوْ كَأَنَّهَا تَبَلٌ ،  
أَوْ عَمَامَةٌ وَبَلٌ ؛ حَالِكَةُ الْأَدِيمِ ، كَأَنَّهَا رُقِيتْ بِالشَّفَقِ حُلَّةٌ لَيْلِهَا الْبَيْمُ :  
كَأَنَّهَا فِي وَضْعِهَا مَشْرِقٌ \* تَبَيَّنَتْ مِنْهُ فِي الدُّجَى الْأَنْجُمُ ،  
أَوْ دِيمَةٌ قَدْ أَطْلَعَتْ قَوْسَهَا \* مُلُونًا وَأَنْبَثَقَتْ تَسْجُمُ !

فَاتَّخَذَ كُلُّ لَهٍ مَرَكْرَأً ، وَتَهَضَّى مِنَ الْإِصَابَةِ وَعَدَا مُنْجَزًا ، وَصَحَنَ لَهُ السَّعْدُ أَنْ  
يُصْبِحَ لِمَوَادِهِ عُرْزًا :



كَأَنَّهُمْ فِي يَمِينِ أَفْصَالِهِمْ \* فِي نَظَرِ الْمُنْصِيفِ وَالْجَالِدِ:

قَدْ وَلِدُوا فِي طَالِحٍ وَاحِدٍ، \* وَأَشْرَقُوا مِنْ مَطْلَعٍ وَاحِدٍ!

فَسَرَتْ لَيْلَانَا مِنَ الطَّيْرِ عَصَابَهُ، أَظَلَّتْنَا مِنْ أَجْنَحِهَا مَحَابَهُ؛ مِنْ كُلِّ طَائِرٍ أَقْلَعَ  
يَرْتَادُ مَرَّتَمًا، فَوَجَدَ وَلَكِنْ مَضْرَبًا، وَأَسَفَ يَتَنَبَّأُ مَاءَ جَمًّا فَوَجَدَ وَلَكِنْ السَّمَّ مُنْقَعًا،  
وَحَلَّقَ فِي الْقَضَاءِ يَنْبُئِي مَلْعَبًا فَبَاتَ هُوَ وَأَشْيَاعُهُ مُجِدًّا لِحَارِيبِ الْقَيْسِيِّ وَرُكْمًا؛ فَتَبَرَّكَا  
بِذَلِكَ الْوَجْهِ الْجَمِيلِ، وَتَدَارَكَا أَوَائِلَ ذَلِكَ الْقَبِيلِ .

فَاسْتَقْبَلَ أَوَّلُنَا نَمَامَ بَدْرِهِ، وَعَظَمَ فِي نَوْعِهِ وَقَدْرِهِ؛ كَأَنَّهُ بَرَقَ كَرَعٍ فِي غَسَقٍ،  
أَوْ صُبْحٍ عَطَفَ عَلَى بَقِيَّةِ الدُّجَى عَطَفَ النَّسَقِ؛ تَحْسَبُهُ فِي أَسْدَادِ الْمُنَى غُرَّةَ نُجُجٍ،  
وَتَحَالُهُ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى طُورَةَ صُبْحٍ؛ طَلَبَهُ مِنَ الْبَيَاضِ حُلَّةٌ وَقَارٌ، وَلَهُ كَدُهُنٌ عَنِيرٌ  
فَوْقَ مِقْيَازٍ مِنْ قَارٍ، لَهُ حَقٌّ ظَلِيمٌ، وَالْإِفْهَانَةُ رِيمٌ، وَسُرَى عَيْمٍ يُصَرِّفُهُ نَسِيمٌ :

كَلَوْنِ الْمَشِيبِ، وَعَصْرِ الشَّبَابِ، \* وَوَقْتِ الْوَصَالِ، وَيَوْمِ الظُّفْرِ!

كَلَفِ الدُّجَى غَارَ مَنْ لَوْنِهِ \* فَأَمْسَنَكَ مِقْيَازُهُ ثُمَّ فَزْرًا!

فَارْسِلْ إِلَيْهِ عَنِ الْهَلَالِ نَجْمًا، فَسَقَطَ مِنْهُ مَا كَبُرَ بِمَا صَغُرَ حُجْمًا؛ فَاسْتَبْشَرَ بِنَجَاحِهِ،  
وَكَبُرَ عِنْدَ صِبَاحِهِ، وَحَصَّلَهُ مِنْ وَسَطِ الْمَاءِ يَمْنَانَهُ .

وَتَلَاهُ كُنَى نَفْيِ اللَّبَاسِ، مُشْتَعِلُ شَيْبِ الرَّاسِ، كَأَنَّهُ فِي عَرَايِنِ شَيْبِهِ لَا وَلِيَهُ كَبِيرٌ  
أَنَاسٌ؛ إِنْ أَسَفَ فِي طَلَبَاتِهِ فَنَامَ، وَإِنْ خَفَقَ يَمْنَانَهُ فَقَطَعَ لَهُ بَيْدَ النَّسِيمِ زَمَانٌ؛  
نَوْعِيَّةٌ كَالْحَرَابِ، وَمِقْيَازٌ كَالْحَرَابِ، وَلَوْ أَنَّ يَتَرَفَى الدُّجَى كَالْعَجَمِ وَيَجْتَدِعُ فِي الضُّعْفَى  
كَالْمَرَابِ؛ ظَاهِرُ الْحَرَمِ، كَأَنَّمَا يُخْبِرُ عَنْ عَادٍ وَيُحَدِّثُ عَنْ إِيَامٍ :

إِنْ حَامَ فِي زُرْقِ الْقَدِيرِ حَبِيبَتُهُ \* مَبِيعُ غَيْمٍ فِي أَدِيمِ سَمَاءٍ؛

أَوْ طَارَ فِي أَفْئِ السَّمَاءِ ظَلَنَّتُهُ \* فِي الْجَوْ شَيْخًا طَائِمًا فِي مَاءٍ،

مُتَنَاقِضِ الْأَوْصَافِ فِيهِ خِفَّةُ السَّجْهَالِ تَحْتِ رَزَانَةِ الْعُلَمَاءِ !  
فَتَنَى الثَّانِي إِلَيْهِ عَنَانَ بَنْدِقِهِ ، وَتَوَخَّاهُ فِيمَا بَيْنَ رَأْسِهِ وَعُنُقِهِ ، نَحْرَ كَارِدٍ آتَقَضَ  
عَلَيْهِ نَجْمٌ مِنْ أَفْقِهِ ؛ فَلَقَّاهُ الْكَبِيرَ بِالتَّكْبِيرِ ، وَاخْتَلَفَهُ قَبْلَ مَصَافَحَةِ الْمَاءِ مِنْ  
وَجْهِهِ الْغَدِيرِ .

وَقَارَنَتْهُ إِوْرَةُ حَلْيَاءٍ دَنَكَاءَ ، وَحُلَّتْهَا حَسَنَاءُ ؛ لَهَا فِي الْقَضَاءِ جَمَالٌ ، وَعَلَى طَيْرَانِهَا خِفَّةٌ  
ذَوَاتُ التَّبْرِجِ وَخَفَرُ رَبَاتِ الْجَمَالِ ؛ كَأَنَّهَا عَبَثَتْ فِي ذَهَبٍ ، أَوْ خَاصَتْ فِي لَهَبٍ ؛  
تَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهَا كَالْكَاغِبِ ، وَتَتَأَنَّى فِي خَطْوِهَا كَالْأَلَاغِبِ ؛ وَتَمُطِّفُ بِجِيدِهَا كَالظُّفْرِ  
الغَرِيرِ ، وَتَتَدَاخِعُ فِي سَيْرِهَا مَشَى الْقَطَاةِ إِلَى الْغَدِيرِ :

إِذَا أَقْبَلَتْ تَمِثِي نَفْطَرَةَ كَكَايِبِ \* رَدَّاجٍ ، وَإِنْ صَاحَتْ فَصُولُهُ حَازِمٍ ،  
وَإِنْ أَقْلَعَتْ قَالَتْ لَهَا الرِّيحُ : لَيْتَ لِي \* خَفَا ذِي الْخَوَافِ أَوْ قُوَى ذِي الْقَوَادِمِ .  
فَأَنِيمُ بِهَا فِي الْبُعْدِ زَادُ مَسَافِيرِ ، \* وَأَحْسِنُ بِهَا فِي الْقُرْبِ مُحَفَّةُ قَادِمِ !  
فَلَوْى الثَّلَاثُ جِيدَهُ إِلَيْهَا ، وَعَطَفَ بِوَجْهِهِ إِقْبَالَهَا عَلَيْهَا ؛ فَلَجَّتْ فِي تَرْفَعِهَا مَعْنَمَةً ، ثُمَّ زَلَّتْ  
عَلَى حُكْمِهِ مُنْخَنَةً ؛ فَأَعْجَبَهَا عَنْ أَسْتِكْمَالِ الْمُبْطُوطِ ، وَأَسْتَوْلَى عَلَيْهَا بَعْدَ أَسْتِمْرَارِ الْقُنُوطِ .  
وَحَازَتْهَا لَمْلَعَةٌ تَحْكِي لَوْنٌ وَشَيْعَا ، وَتَصِفُ حُسْنَ مَشْيِهَا ؛ وَتُرْنِي عَلَيْهَا بِتُرْنَتِهَا ،  
وَتَتَنَافَسُ فِي الْحَاسِنِ كَضَرَّتِهَا ؛ كَأَنَّهَا مُدَامَةً قَطِيبَتْ بِكَأْسِهَا ، أَوْ غَمَامَةً شَفَّتْ مِنْ بَعْضِ  
مُجُومِ سَمَائِهَا :

بُشْرَةٌ بَيْضَاءَ مَيْمُونَةٍ \* تُشْرِقُ فِي اللَّيْلِ كَبَدْرِ النَّمَامِ !

وَإِنْ تَبَيَّنَتْ فِي الضُّحَى حِلَّتُهَا \* فِي الْحُلَّةِ الدُّكْلَاءِ بَرَقَ النَّمَامِ !

فَهَنُ الرَّاغِبِ لَا اسْتِعْبَالُهَا ، وَرَمَاهَا عَنْ فَلَكَ سَعْدِهِ نَجْمٌ وَبَاهِلُهَا ؛ فَجَلَّتْ فِي أَلْوَرِّ  
مُبْتَدَهُ ، وَتَطَارَدَتْ أَمَامَ بَنْدِقِهِ وَلَوْلَا طِرَادُ الْعَبِيدِ لَمْ تَكُ لَهُ ؛ وَأَهْضَى عَلَيْهَا مِنْ يَدِهِ

شهابٌ حَفِيها، وأدركها الأَجَلُ نَلْفَةً طَيَّرَها من حَفِيها، فوَقَعَتْ من الأُفُقِ في كَفِّه،  
ونَقَر ما في بَقايا صَفِّها من صَفِّه.

وَأَتَتْ في إثرها أَيْسَةً آتِسَه، كأنها العَذراءُ العائِسَه، أو الأَذماءُ الكائِسَه؛ عليها  
خَفَرُ الأَبْكارِ، وَخَفَّةُ ذَوَاتِ الأَوْكارِ، وَحَلَاوَةُ اللَّعَانِ التي تُجَلَّى على الأَفْكارِ؛ ولها  
أُنْسُ الرِّيبِ، وإِدْلالُ الحَيْبِ، وَتَلَقُّتُ الزائرَ المُرِيبَ من خَوْفِ الرِّيبِ؛ ذَاتُ عُنُقٍ  
كالإِريقِ، أو المُضْمِنِ الوَرِيقِ، قَدْ جَمَعَ صُفْرَةَ البَهارِ إلى خُمْرةِ الشَّقِيقِ؛ وَصَدْرُ بَيْتٍ  
المَلْبُوسِ، شَبَّهَ إلى النُّفُوسِ، كأَمَّا رَقِمَ فيه النَهارُ بِاللَّيْلِ أَوْ قُشِّ فِيهِ السَّاجُ بِالْأَبْنُوسِ؛  
وَجَنَاحُ يُجَيِّها من العَطَبِ، يَحْكِي لَوْنُها المَنْدَلُ الرُّطْبَ لولا أَنه حَطَبٌ :

مُدْبِجَةُ الصَّدْرِ تَهْوِي فُكُّهُ \* أَضَافَ إلى اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهَارِ!

لَهَا عُنُقٌ خَالَهَ مِنْ رَأَاهُ \* شَقَاتِي قَدْ سَيَّجَتْ بِالْبَهارِ!

فَوَثَبَ الخَلَامِسُ منها إلى النِّعِمَةِ، وَنَظَّمَ في سِلْكِ رَمِيهِ تِلْكَ الدُّرَّةَ اليَمِينَةَ، وَحَصَلَ  
بِخَصِصِها بَيْنَ الرِّمَاءِ على الرُّبَّةِ الجَسِيمَةِ .

وَأَتَى على صَوْتِها حَبْرٌ تَسْبِقُ هَمَّتُهُ جَنَاحَهُ، وَيَقْلِبُ خَفَقُ قَوَادِمِهِ صِبَااحَهُ؛ مُدْبِجُ  
المَطَا، كأَمَّا خَلَعَ حُلَّةَ مَنَكِيَّتِهِ على القَطَا؛ يَنْقُرُ من لَبِّ، وَيَخْطُو على رِجْلَيْنِ من ذَهَبٍ :

يَزُورُ الرِّيَاضَ، وَيَخْفُو الجِيَاضَ \* وَيُشِيهِ في اللَّوْنِ كَدْرَ القَطَا،

وَيَنْفِي الزُّرُوعَ وَيَلْهُو بِها، \* وَلَا يَرِدُ المَاءَ إِلَّا خَطَا!

فَبَدَّرَهُ السَّادِسُ قَبْلَ أَرْضَاعِهِ، وَأَمَّا نَ قَوْسَهُ بِانْتِدَادِ بَاغِهِ، نَغَرَ على الأَلَاءِ كِبْطَامِ  
أَبْنِ قَيْسٍ، وَأَقْصَصَ عَلَيْهِ رَامِيَهُ لِحَمَلِهِ بِحُلِيِّ وَحَلِهِ بِكَيْسٍ .

(١) يَشِيرُ إلى قول الشاعر في بَطْطام :

نَغَرَ على الأَلَاءِ لَمْ يَوْسَدَ \* كَأَنَّ جِبْتَهُ سَيْفٌ مَقِيلٌ :

الأَلَاءُ : بوزن اللامِ : خَيْبَرُ والأَلَاءَةُ : أَعْيُنُ .

وتعسّر على السابح مرأته، ونبا عن بلوغ الأرب مقامه؛ فصعد هو وترّب له إلى جبل، وثبت في موقفه من لم يكن له بهماقتها قبل .

فمن له تسرّد قوائم شلداد، ومنايس حلداد . كأنه من سُور لقمان بن عاد؛ تحسبه في السماء ثالث أخويه، ومخاله في الفضاء قُبته المنسوبة إليه ؛ قد خلق كالفقراء رأسه، وجعل مما قصر من الدلوقي الدكن لباسه؛ وأشتمل من الرياش المسلي إزارا، وألف المزلة فلا يجد له إلا في قنّ الجبال الشواقي مزارا؛ قد شابت نواصي الليل وهو لم يشب، ومضت النهور وهو من الحوادث في معقل أشب :

ملك طيور الأرض شرقاً ومغرباً \* وفي الأفق الأعلى له أخوان!

له حال فكّك، وحيلة ناسيك، \* وإسراع مقدم، وقرة وإن!

فدنا من مطاره، وتوتئى بئذقه عنقه فوقه في منقاره؛ فكأما هدّ منه صفرا، أو هدم به بناء مشمخرا؛ ونظر إلى رفيقه، مبشّر له بما أمتاز به عن فريقه .

وإذا به قد أظفنه عقاب كاسر، كأما أضلت صيدا أفلت من المناسر؛ إن حطت فسحاب أنكشف، وإن أقامت فكان قلوب الطير رطباً وياساً لدى وكرها العناب والحشف، بعيدة ما بين المناكب :

إذا أقلمت لجّت علواً كأنما \* تُحاول نارا عند بعض الكواكب!

يرى الطير والوحش في كفها \* ومنقاريها ذا عظام مزا له.

فلو أمكن الشمس من خوفها \* إذا طلعت ما تسمت غزاله!

فوشب إليها الثامن وثبة ليت قد وثق من حركاته بجناحها، ورمها بأول بندقة فما أخطأ قادمة جناحها؛ فأهوت كمود صرع، أو طود صيدع؛ قد ذهب بأسها،

وَتَهَبُ بِدَمَاهِ لِبَاسُهَا ، وَكَذَلِكَ الْقَدَرُ يُجَادِعُ الْجَوْنَ عَنْ عِقَابِهِ ؛ وَيَسْتَرِلُ الْأَعْمَى مِنْ عِقَابِهِ ؛ فَعَمَلُهَا يَمْنَحُهَا الْمَيْهِيضُ ، وَرَفَعَهَا بَعْدَ التَّرْفَعِ فِي أَوْجِ جَوْهَا مِنَ الْحَضِيضِ ، وَنَزَلَ إِلَى الرَّقَّةِ ، جَذَلًا بِرِيحِ الصَّبْفَةِ .

فَوَجَدَ التَّاسِعَ قَدَمًا بِهِ كُرْكِيٌّ طَوِيلُ الشَّفَارِ ، مَرِيحُ النَّقَارِ ؛ شَبَّهِ الْفِرَاقِ ، كَثِيرُ الْإِعْتِرَابِ يَنْشَوُ يَمْضُرُ وَيَصِيْفُ بِالْعِرَاقِ ؛ لِقَوَادِمِهِ فِي الْجَوْ حَفِيفٌ ، وَلَدَيْهِه لَوْنٌ سَمَاءٍ طَرَأَ عَلَيْهَا غَيْمٌ خَفِيفٌ ؛ تَمَيَّنَ إِلَى صَوْتِهِ الْجَوَارِحِ ، وَتَحَبَّبَ مِنْ قُوَّتِهِ الرِّيحُ الْبَوَارِحِ ؛ لَهُ أَثَرُ حُمْرَةٍ فِي رَأْسِهِ كَوْمِيضٍ جَمْرٍ تَحْتَ رَمَادٍ ، أَوْ بَقِيَّةُ جُرْجٍ تَحْتَ ضِمَادٍ ، أَوْ قَصٌّ عَقِيْقِي سَفَتَ عَنْهُ بَقَايَا تِمَادٍ ؛ ذُو مِثْقَالِ كِسْتَانٍ ، وَعُتْقِي كِسْتَانٍ ؛ كَأَنَّمَا يَنْبُوسُ ، عَلَى عُودَيْنِ مِنْ آبَنُوسِ :

إِذَا بَدَأَ فِي أَفْئِي مُنْغِلَمَا \* وَالْجَوْ كَلِمَاءٍ تَفَاوِيَهُ :

حَسِبْتَهُ فِي بَلْحَةٍ مَرَبَّكَا \* رِبْجَاهُ فِي الْأَفْقِ جَمَادِيَهُ !

فَصَبَرَهُ حَتَّى جَازَهُ مَجْلِيًا ، وَعَطَفَ عَلَيْهِ مُصَلِّيًا ؛ نَحْرُ مَضْرَجًا بِدَمِهِ ، وَسَقَطَ مُشْرِقًا عَلَى عَدَمِهِ ؛ وَطَلَبًا أَفَلَتْ لَدَى الْكَوَامِرِ مِنْ أَطْفَالِ الْمُنُونِ ، وَأَصَابَهُ الْقَدَرُ بِحَبَّةٍ مِنْ حَمِيٍّ مَسْنُونٍ ؛ فَكَثُرَ التَّكْيِيرُ مِنْ أَجَلِهِ ، وَحَمَلَهُ عَلَى وَجْهِهِ الْمَاءَ بِرِجْلِهِ .

وَحَازَاهُ غَيْرُ تَوَقُّعٍ حِكَاةٍ فِي زِيَّهِ وَقَدِيرِهِ ، وَأَمْتَازَ عَنْهُ بِسَوَادِ رَأْسِهِ وَصَدْرِهِ ؛ لَهُ رِبَشَتَانِ مَمْدُودَتَانِ مِنْ رَأْسِهِ إِلَى خَلْفِهِ ، مَعْقُودَتَانِ مِنْ أَذُنَيْهِ مَكَانَ شَفَتَيْهِ :

لَهُ مِنَ الْكُرْكِيِّ أَوْصَافُهُ \* سَوَى سَوَادِ الصَّنَدِرِ وَالرَّاسِ .

إِنْ شَالَ رِجْلَاهُ وَأَنْبَرَى قَائِمًا \* أَلْقَيْتَهُ هَيْئَةً بِرِجَالِ !

فَأَضْحَى الْعَاشِرُ لَهُ مُنْصَبَتَا ، وَرَمَاهُ مُتَلَفَّتَا ؛ نَحْرُكَ كَأَنَّهُ صَرِيحُ الْأَلْحَانِ ، أَوْ تَزْيِيفُ بِنْتِ الْحَنَانِ ؛ فَاهْوَى إِلَى رِجْلِهِ بِيَدِهِ ، وَأَهْضَى عَلَيْهِ أَهْضَاضَ الْكَاسِرِ عَلَى صَدْرِهِ .

وَتَبِعَهُ فِي الْمَطَارِ ضَوْجٌ <sup>(١)</sup>، كَأَنَّهُ مِنَ النَّضَارِ مَصْنُوعٌ، تَحْسِبُهُ عَاشِقًا قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ،  
أَوْ بَارِقًا قَدْ بَتَّ لَفْحَتَهُ :

طَوِيلُهُ رِجْلَاهُ مُسَوَّدَةٌ \* كَأَمَّا مِثْقَالُهُ خَنْجَرٌ :

مِثْلُ عَجُوزٍ رَأْسُهَا أَشْمَطُ \* جَاءَتْ فِي رَقَبَتِهَا مِعْجَرُ !

فَاسْتَقْبَلَهُ الْحَادِي عَشَرَ وَوَبَّ، وَرَمَاهُ حِينَ خَازَاهُ مِنْ كَتَبٍ، فَسَقَطَ كَقَارِيسٍ تَقَطَّرَ  
عَنْ جَوَادِهِ، أَوْ وَاثِقٍ أَصِيبَتْ حَبَّةُ قُوَادِهِ؛ فَحَمَلَهُ بِسَاقِهِ، وَعَدَلَ بِهِ إِلَى رِقَاقِهِ .

وَأَقْرَبَ مِنْ مَرْتَمٍ لَهُ فِي السَّمَاءِ سَمِيُّ مَعْرُوفٍ، ذُو مِثْقَالٍ كَصُدُغٍ مَعْطُوفٍ، كَانَ  
رِيَاشَتُهُ قَلَقٌ أَتَّصَلَ بِهِ شَفَقٌ، أَوْ مَاءٌ صَافٍ مَلَقَ بِأُطْرَافِهِ عَلَقَ :

لَهُ جِسْمٌ مِنَ التَّلَجِّجِ \* عَلَى رِجْلَيْنِ مِنْ نَارِ :

إِذَا أَقْلَعَ لَيْلًا قَلَّتْ بَرْقُ فِي الدُّجَى سَارَى !

فَاتَّحَاهُ الثَّانِي عَشَرَ مِثْمًا، وَرَمَاهُ مُصْعِمًا، فَأَصَابَهُ فِي زَوْرِهِ، وَحَصَلَهُ مِنْ قُوْرِهِ،  
وَحَصَلَ لَهُ مِنَ الْمَرِّ وَرَمَانِ حَرَجٍ بِهِ عَنْ طَوْرِهِ .

وَأَلْحَقَ بِهِ سَيْطَرٌ، كَأَنَّهُ مِذْبَةُ مَيْسَطَرٍ، يَتَحَطُّ كَالسَّيْلِ، وَيَكُرُّ عَلَى الْكَوَاكِبِ كَالنَّجْلِ،  
وَيَجْمَعُ مِنْ لَوْنِيَّةِ بَيْنِ صَدَّتَيْنِ يُقْبَلُ مِنْهُمَا بِالنَّهَارِ وَيَذْبُرُ بِاللَّيْلِ، يَتَلَوَّى فِي مِثْقَالِهِ الْأَيْمُ،  
تَلَوَّى التَّيْنِ فِي التَّيْمِ :

تَرَاهُ فِي الْجَوِّ مُتَمَدِّدًا فِي قَبْضِهِ \* مِنَ الْأَقَاعِي شَجَاعٌ أَرْقَمُ ذَكْرُ :

كَأَنَّهُ قَوْسٌ رَامٍ عَتَقَهُ يَدُهَا \* وَرِجْلُهُ رِجْلُهَا وَالْحَيَّةُ الْوَرْدُ !

(١) هو بضم الصاد المعجمة وكسر هاء فتح الواو. وورد في الجزء الثاني (ص ٦٤) من هذا الكتاب :  
”سَوْجٌ“ وأنظر ما كتبت عليه في الحاشية الثانية هناك .

فصوب الثالث عشر إليه بُنْدَقَه ، فقطع لحيه وعُنُقَه ؛ فوقع كالصَّرحِ المُرْدِ ،  
أو الطَّرَافِ المُمَدَّدِ .

وَاتَّبَعَهُ عِنَّا زُصْبِجٌ فِي اللَّوْنِ زِيَدُهُ ، وَفِي الشَّكْلِ نِدَّهُ ؛ كَأَنَّهُ لَيْلٌ صَمَّ الصُّبْحِ إِلَى  
صَدْرِهِ ، أَوْ أَنْطَوَى عَلَى هَالَةٍ بِدَرِهِ :

تَرَاهُ فِي الْجَوِّ عِنْدَ الصُّبْحِ حِينَ بَدَأَ \* مُسَوِّدَ أَجْنَمَةٍ مُبَيَّضَ حَيَرومِ :

كَأَنَّهُ حَبَشِيٌّ عَامٌ فِي نَهْرٍ \* وَضَمٌّ فِي صَدْرِهِ طِفْلٌ مِنَ الرُّومِ !

فنهض تَمَامُ القومِ إِلَى التَّيْمَةِ ، وَأَسْفَرَتْ عَنْ نُجُجِ الْجَمَاعَةِ تِلْكَ اللَّيْلَةُ الْمُدْهِمَةُ ؛  
وَعَدَا ذَلِكَ الطَّيْرُ الْوَاجِبُ وَاجِبًا ، وَكُلُّ الْمَدُّ بِهِ قَبْلَ أَنْ تُطْلِعَ الشَّمْسُ عَيْنًا أَوْ تُبْرِزَ  
حَاجِبًا ؛ فَيَا لَهَا لَيْلَةٌ حَضَرْنَا بِهَا الصَّادِحُ فِي الْفَضَاءِ الْمُنِيعِ ، وَلَقِيتُ فِيهَا الطَّيْرَ مَا طَارَتْ بِهِ  
مَنْ قَبْلَ عَلَى كُلِّ تَمَثُّلٍ مُجْتَمِعٍ ؛ وَأَصْبَحْتَ أَشْلَاؤُهَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ كَقِرَائِدِ خَانِهَا  
النِّظَامِ ، أَوْ شَرِبَ كَأَنَّ وَقَابِهِمْ مِنَ اللَّيْلِ لَمْ يَخْلُقْ لَمْ يَخْلُقْ عِظَامَ ، وَأَصْبَحْنَا مُثْنَيْنِ عَلَى  
مَقَامِنَا ، مُثْنَيْنِ بِالْفَقْرِ إِلَى مُسْتَقَرِّنَا وَمَقَامِنَا ؛ دَاعِينَ لِلْوَلَى جُهِدَنَا ، مُدْعِينَ لَهُ قِيلَنَا  
أَوْ رَدَّنَا ؛ حَامِلِينَ مَا صَرَعْنَا إِلَى يَدَيْهِ ، حَامِلِينَ عَلَى التَّشْرِفِ بِخُصْمَتِهِ وَالْإِتْمَاءِ إِلَيْهِ :

فَأَنْتَ الَّذِي لَمْ يُلَفَّ مِنْ لَا يُوَدُّهُ \* وَيُدْعَى لَهُ فِي السَّرِّ أَوْ يُدْعَى لَهُ :

فَإِنْ كَانَ رَمِيٍّ ، أَنْتَ تُؤَخِّجُ طَرَفَهُ ، \* وَإِنْ كَانَ جَيْشٍ : أَنْتَ تَقِي قَيْلَهُ !

وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْمَلُ الْأَمَالَ مُتَوَلِّةً بِهِ وَقَدْ قَتَلَ ، وَيَعْمَلُهُ كَهَقًّا لِلْأَوْلِيَاءِ وَقَدْ جَعَلَ ؛  
بِمَنْنِهِ وَكَرَمِهِ :

## الفصل الرابع

من الباب الأول من المقالة العاشرة  
(في الصنقات ، وفيه طرفان )

### الطرف الأول

(في الصنقات الملوكة وما في معناها)

قد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة أن تكتب له خطبة صدق تكون في الطول والقصر بحسب صاحب العقد، فتطال للوك وتقصّر لمن دونهم بحسب الحال .

وهذه نسخة صدق، كتبت به للوك السعيد بركة ، آبن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري، على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى الأثنى قبل سلطنته، بالقلمة المحروسة، من إنشاء القاضي عيسى الدين بن عبد الظاهر، وهى :

الحمد لله موفق الآمال لأشعد حركه ، ومصدق الفأل لمن جعل عنده أعظم بركة ، ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانته وصهره ملكه ؛ الذى جعل للأولياء من لدنه سلطاناً نصيراً ، وميز أقدارهم بأصطفاء تأهله حتى حازوا نبياً وملكاً كبيراً ، وأفرد تغارهم بتقريبه حتى أفاد غمهم آمالهم ضياءً وزاد قهرها نوراً، وشرف به ووضعتهم حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيماً وإنعامه كثيراً ، مهياً أسباب التوفيق العاجلة والآجلة ، وجاعل رُبوب كل إمام من الأملاك بالشموس والنبوء والأهله أهله ، جامع أطراف الفخار لنوى الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة وحلت عندهم البركة الكاملة .



تَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ أَحْسَنَ عِنْدَ الْأَوْلِيَاءِ بِالنِّعْمَةِ الْاِسْتِغْنَاءَ ، وَأَجَلَ لِتَأْمِيلِهِمُ الْاِسْتِغْلَاعَ ،  
وَكُلَّ لِأَخْيَارِهِمُ الْأَجْنَاسَ مِنَ الْعِزِّ وَالْأَنْوَاعِ ، وَأَتَى أَمَلَهُمْ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِ  
أَحْسَابِهِمْ مِنَ الْاِبْتِدَاءِ بِالتَّخْوِيلِ وَالْاِبْتِدَاعِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ  
لَهُ شَهَادَةٌ حَسَنَةٌ الْاَوْضَاعِ ، مَلِيَّةٌ بِتَشْرِيفِ الْأَلْسِنَةِ وَتَكْرِيمِ الْأَسْمَاعِ ؛ وَصَلَّى عَلَى  
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي أَعْلَى اللَّهُ بِهِ الْأَقْدَارَ ، وَشَرَّفَ بِهِ الْمَوَالِي وَالْأَصْهَارَ ، وَجَعَلَ كَرَمَهُ  
دَارًا لَهُمْ فِي كُلِّ دَارٍ ، وَبَحَّرَهُ عَلَى مَنْ اسْتَظَلَّمَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْاَنْصَارِ مُشْرِقَ الْأَنْوَارِ ،  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَطَلَبِهِمْ صَلَاةَ زَاهِيَةِ الْأَزْهَارِ ، يَا نِعْمَ الثَّمَارَ .

وَبَعْدُ ، فَلَوْ كَانَ اتِّصَالُ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِ الْمُتَّصِلِ بِهِ فِي تَفْضِيلِهِ ، لَمَا اسْتَصْلَحَ  
الْبَدْرُ شَيْئًا مِنَ الْمَنَازِلِ لُزُومُهُ ، وَلَا الْفَيْثُ شَيْئًا مِنَ الرِّيَاضِ لَهْطُولِهِ ، وَلَا الذُّكْرُ  
الْحَكِيمُ لِسَانًا مِنَ الْأَلْسِنَةِ لِقَرْنِيَّةِ ، وَلَا الْجَوْهَرُ الثَّمِينُ شَيْئًا مِنَ التَّجَانِّ لِحُلُولِهِ ، لَكِنْ  
لِيَتَشَرَّفَ بَيْتٌ بِحُلٍّ بِهِ الْقَمَرُ ، وَتَبْتَ زُورُهُ الْمَطَرُ ، وَلِسَانٌ يَتَعَوَّدُ بِالْآيَاتِ وَالسُّورِ ،  
وَنِتَارٌ يَقْعَمُلُ بِاللَّاتِي وَالنَّارِ ، وَلِذَلِكَ تَجَلَّتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْهَارُهُ  
وَأَحْصَابُهُ ، وَتَشَرَّفَتْ أَنْسَابُهُمْ بِأَنْسَابِهِ ؛ وَتَرَوَّجَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ ، وَنَمَتْ لَهُمْ  
مَرْيَةُ الْفَخَارِ حَتَّى رَضُوا عَنْ اللَّهِ وَرَضَى عَنْهُمْ .

وَالْمُرْتَبَ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ الْفَاضِلَةِ نُورُ اسْتِمْنَةِ الْوُجُودِ ، وَتَقْرِيرُ أَمْرِ بِقَارِنِ سَعْدِ  
الْأَخْيَرِ مِنْهُ سَعْدُ السُّعُودِ ؛ وَإِظْهَارُ خَطِيئَةِ قَوْلٍ لِلثَّرِيَّا لِاتِّسْطَامِ عُقُودِهَا : كَيْفَ ،  
وَأَبْرَازُ وَصْلَةٍ يَقْبَعُلُ بِتَرْصِيعِ جَوْهَرِهَا مَتْنُ السَّيْفِ الَّذِي يَنْبِطُهُ عَلَى إِبْدَاعِ هَذَا  
الْجَوْهَرِ بِهِ كُلِّ سَيْفٍ ؛ وَنَسْجُ صَهَارَةِ يَتِيمٍ بِهَا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - كُلِّ أَمْرِ سَيِّدٍ ،  
وَيَتَّفِقُ بِهَا كُلُّ نَوْفِيٍّ تَخْلُقُ الْأَبَّامُ وَهُوَ جَلِيدٌ ، وَيُخْتَارُ لَهَا أَبْرَكَ طَالِعٍ : وَكَيْفَ لَا تَكُونَ  
الْبَرَكَةُ فِي ذَلِكَ الطَّالِعِ وَهُوَ السَّعِيدُ ؟ .

وذلك بأن المَرَامِ الشريفة السلطانية أراحت أن تُحصَن المجلس السامي بالإحسان  
المُبْتَكِر، وتُفَرِّد بالمواهب التي يُهَفِّف بها الحُدَّ المُتَنَضِّي وَيُعْظِمُ الحَدَّ المُتَنَظِّر،  
وأن ترفع من قدره بالصَّهَارَةِ مِثْلَ ما رَفَعَهُ صَبِي الله عليه وسلم من قَدَرِ صَاحِبِيهِ :  
أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، نَخْطِبُ إِلَيْهِ أَسْعَدَ الْبَرِيَّةِ ، وَأَمْنَعُ مِنْ تَحْمِيهِ السُّيُوفِ الْمُشْرِفَةِ ،  
وَأَعَزَّ مِنْ تُسْبَلِ عَلَيْهَا سُتُورِ الصُّنُونِ الْخَفِيَّةِ ، وَتُضْرَبُ دُونَهَا خُذُورُ الْجَلَالِ الرُّضِيَّةِ ،  
وَتُجْمَلُ بِنَعْوَتِهَا الْمُقُودُ : وكيف لا ؟ وهى الدَّرَّةُ الْأَلْفِيَّةُ ؛ قَالَ وَالِدُهَا وَهُوَ الْأَمِيرُ  
الْمَذْكُورُ : هَكَذَا تُرْفَعُ الْأَقْدَارُ وَتُزَانُ ، وَكُنَّا يَكُونُ قِرَانُ السَّعْدِ وَسَعْدُ الْقِرَانِ !! ؛  
وَمَا أَسْعَدَ رَوْضًا أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمَرَامِ الشريفة السلطانية لَهُ نَجِيلُهُ ! ، وَأَشْرَفَ  
مَسِيْقًا غَدَتْ مِنْطَقَةُ بُرُوجِ مَمْلَاكَتِهَا لَهُ حَيْلُهُ ! ؛ وَما أَعْظَمَهَا مُعْجِزَةُ آتَيْتِ الْأَوْلِيَاءَ مِنْ  
لَدُنْهَا سُلْطَانًا ! ، وَزَانَتْهُمْ مَعَ إِيْمَانِهِمْ إِيْمَانًا ! ؛ وَما أَفْخَرَهَا صَهَارَةُ يَقُولُ التَّوْفِيقِ  
لِإِبْرَاهِمَ : لَيْتَ ! ، وَأَشْرَفَهَا عُبُودِيَّةً كَرَّمَتْ سَلَامَتَهَا بِأَنْ جَعَلَتْهُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ! .  
وَإِذْ قَدْ حَصَلَتْ الْأَسْتَخَارَةُ فِي رَفْعِ قَدَرِ الْمُلُوكِ ، وَخَصَّصَتْهُ بِهِذِهِ الْمَرْيَةِ الَّتِي  
تَقَاصَرَتْ عَنْهَا آمَالُ أَكْبَارِ الْمُلُوكِ ؛ فَالْأَمْرُ لِلْمَلِكِ الْبَسِيطَةِ فِي رَفْعِ دَرَجَاتِ عِبِيدِهِ كَيْفَ  
يَشَاءُ ، وَالتَّصَدَّقْ بِمَا يَتَقَوَّهُ بِهِ هَذَا الْإِنْشَاءُ ؛ وَهُوَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا كِتَابٌ مُبَارَكٌ تَحَاسَدَتْ رِمَاحُ الْخَطِّ وَأَقْلَامُ الْخَطِّ عَلَى تَحْرِيرِهِ ، وَتَنَافَسَتْ  
مَطَالِيعُ الثَّوَارِ وَمَشَارِقُ الْأَنْوَارِ عَلَى تَقْظِيمِ سَطُورِهِ ؛ فَاضَاءَ نُورُهُ بِالْجَلَالَةِ وَأَشْرَقَ ، وَهَطَلَتْ  
نُورُهُ بِالْإِحْسَانِ فَأَغْلَقَتْ ، وَتَنَاسَبَتْ فِيهِ أَجْنَاثُ تَجَنُّيسِ لَفْظِ الْفَضْلِ فَقَالَ الْاعْتِرَافُ :  
هَذَا مَا تَصَدَّقَ ، وَقَالَ الشُّرْفُ : هَذَا مَا أَصْلَقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ : أَصْدَقَهَا مَا مَلَأَ خَزَائِنَ  
الْأَخْصَابِ نَخَارًا ، وَتَجَمَّرَ الْأَنْسَابَ تِمَارًا ، وَمِشَكَاةَ الْجَلَالَةِ أَنْوَارًا ، وَأَضَافَ إِلَى

ذلك ما لولا أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأمنصارا؛ فبذل لها من العين المصرى ما هو باسم والدها قد تشرف ، وبشؤته قد تعرف ، وبين يدي هباته وصداقاته قد تصرف .



وهذه نسخة صديق المقام الشريف العالى السيفى أنوك ، ولده السلطان الشهيد الملك الناصر «محمد بن قلاوون» على بنت المقر المرحوم السيفى «بكتمر الساقى» . وكان العاقده قاضى القضاة جلال الدين القزوينى، والقابيل السلطان الملك الناصر والدة الزوج، وهى :

الحمد لله مسير الشمس والقمر، وميسر حياة كل شئ؛ باتصال الروض بالمطر، ومبشر المتقين من درارى الدرارى بأشعة كوكب ينظر ، وأحد عاقبة تهترل أعطاف عظماء الملوك على كبر ، وتنبأ عن الأنجاب كما تنفتح الأكام عن القمر؛ الذى مد من الشجرة المباركة الملوكية فروعا ألقت بعضها على بعض، ورفق على من آمنظل بها فراقب السماء على الأرض .

نحمد على نعمة التى أطابت لنا جنى الفروس ، وأطالت منا منى النفوس ، وأطافت بملوكنا حتى مدت لسؤالهم الأيدي وخضعت لأمرهم الرؤوس؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تقيها عصمة نأفقه ، ونعمة لحسن العاقبة جامع ، ورحمة تبارك على أئمتنا وعلى أبنائهم البدور الطالعة ، والألوان الساطعة ، والبروق اللامعة ، والغيوث الهامعة ، والسيوف الدافعة ، والسيوف القاطعة ، والأسود التى هى عن حرم حضرتها مانعة؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أزان من تمسك له بحسب ، وشرف من أعزى إليه بالقرى أو أعز منه بصر أو نسب؛

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَرْضَاهُمْ وَرَضِيَ عَنْهُمْ ، وَكَرَّمَهُمْ بِصَلَاتِهِ الشَّرِيفَةِ  
لِمَا زَوَّجَهُمْ وَزَوَّجَ مِنْهُمْ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعدُ ، فَإِنَّ مِنْ عَادَةِ الْقَامِ أَنْ يَتَفَقَّدَ الْأَرْضَ بِمَطَرِهِ ، وَالْبَحْرَ أَنْ يَسْقَى الزُّرُوعَ  
بِمَا قَاضٍ مِنْ تَهَرِهِ ؛ وَلِالصَّابِغِ أَنْ تَعْدَّ بِأَنْوَارِهَا مَا يَتَوَقَّعُ ، وَالسَّمَاءُ أَنْ لَا يَحْمِلُوا أَثْقَاهَا  
مِنْ اتِّصَالِ فَرْقِدٍ بَفَرْقِدٍ ؛ وَلَوْ تَوَقَّضَتِ الْقُرْبَى عَلَى مُقَارَبَةٍ كَبِيرَةٍ ، أَوْ مُقَارَنَةِ نَظِيرٍ ،  
لِمَا صَلَحَتِ الْأَعْمَادُ لِمَضَاجِعِ السُّيُوفِ وَلَا دَنَّتِ الْكَوَاكِبُ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ  
الْمُبِيرِ ؛ وَلَا صَاحَتِ يَمِينٌ شِمَالًا ، وَلَا جَاوَرَتْ جَنُوبٌ شِمَالًا ؛ وَلَا حَوَّتِ الْكَائِنُ  
سِهَامًا ، وَلَا جَمَعَ السَّلَكُ لِلْجَوَاهِرِ نِظَامًا ؛ وَلَا طَمَحَ طَرْفٌ إِلَى غَايَةٍ ، وَلَا قَدَّرَ لِسَانُ  
إِنْسَانٍ عَلَى تِلَاوَةِ سُورَةٍ وَلَا آيَةٍ ؛ وَإِنَّمَا الصَّدَقَاتُ الشَّرِيفَةُ الْمُلْكِيَّةُ لَهَا فِي الْبَرِّ  
عَوَائِدُ ، وَفِي الْخَلْقِ مَجَازٍ يَقْتَدِي فِيهَا الْوَلَدُ بِالْوَالِدِ .

وَلَمْ يَزَلْ مِنَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ ، الْأَعْظَمِ ، الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيِّ ، السُّلْطَانِيِّ ، الْمَلِكِيِّ ،  
لِلنَّاصِرِيِّ ، أَمَرَ اللهُ سُلْطَانَهُ عَلَى مِنْ لَادَ بِهِ تُسْبِلُ ذُبُولَ الْفَخَارِ ، وَتُودِعُ فِي هَالَاتِ  
أَقْفَارِهِمْ وَدَائِعِ الْأَنْوَارِ ، وَتُؤَهِّلُ أَهْلَهُمْ لِأَنْ يَكُونَ مِنْهَا أَحَدُ الْأَبَوَيْنِ لِدَرْجَتِهِ الْأَطْهَارِ ،  
وَتَحْطُبُ مِنْ حُجُبِهِمْ كُلَّ مَصُونَةٍ يَنْوِزُ بِهَا بَدْرُ الدُّجَى وَتَقَارُ مِنْهَا شَمْسُ النَّهَارِ .

وَكَانَ مِنْ تِمَامِ النِّعْمَةِ الشَّرِيفَةِ السُّلْطَانِيَّةِ ، النَّاصِرِيَّةِ ، عَلَى مَنْ تَمَرَّضَ لِسَحَابِهَا  
الْمَاسِطَرِ ، وَوَقَّفَ لِلْأَقْرَافِ مِنْ بَحْرِهَا الزَّائِرِ مَا رَفَعَتْ بِهِ ذِكْرَهُ إِلَى أَنْتِ الْأَبَدِ ،  
وَأَتَمَّتْ لَهُ السَّعَادَةُ إِذْ كَانَ يُعَدُّ فِي جُلُودٍ مِنْ يُنْسَبُ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدٍ ؛ وَأَكْدَتْ لَهُ  
بِالْقُرْبَى مَرْيَّةَ مَرِيدٍ ، وَاسْتَخْرَجَتْ مِنْ بَحْرِهِ جَوْهَرَةً لَا يَطْمَعُ فِي التَّطَوُّقِ بِهَا كُلُّ  
جِيدٍ ؛ وَقَالَتْ : نَحْنُ أَحَقُّ بِتَكْوِيلِ مَا بَيْنَنَا ، وَتَحْوِيلِ الْخُؤُولَةِ مِنْ أَوْلِيَانَا ؛ وَتَاهِيلِ مَنْ قَرَّ  
بِنَا عَيْنًا وَقَرَّبَنَا إِلَيْنَا ، وَتَفْضِيلِ غَرَسِ نِعْمَةٍ نَحْنُ غَرَسْنَاهُ وَاجْتَنَيْنَا ثَمَرَاتَهُ بَيْنَيْنَا .

فاقتضى حُسن الاختيار الشريف الملكي الناصري، لولده المقام العالي السيفي؛  
 أحسن الله لها الاختيار، وأجرى باراتهما أقدار الأقدار أن تُرفَّ أتمَّ الشمس إلى  
 سُورِهِ الرفيع، وتُصانَ أكلُ معاقِلِ العقائل بِحُجْبِهِ المنيع، وتُحاطَ أشرفُ الدررِ  
 في مُستودَعِهِ، وتُطاطَ أشرفُ الدراري بِمَطلَعِهِ، وتُساقَ إليه الكريمةُ حَسْبًا، العظيمةُ  
 بَأْيِهِ - عَظَّمَ اللهُ سُلْطَانَهُ - أَبَا، الذي كَمَ له في خِدمةِ الدولة القاهرة من مَنَاقِبِ  
 كالنجوم، ومَذَاهِبَ تَسَبَّهَ بها البرقُ قَشَبَتْ بِأَذْيَالِ الغيوم، وصرَّاتِبَ قَدَّمَ فيها على  
 كُلِّ نَظِيرٍ قال: وما مِنَّا إِلَّا مَنْ له مَقَامٌ معلوم، مَنْ قَدَرَهُ لَا يُسَامَى وَلَا يُسَام، ورأيه  
 لَا يُرَامَى وَلَا يُرَام، وَسَبَقَهُ في غير طاعتنا الشَّرِيفَةُ لَا يُشِيمُ وَلَا يُنَام، وهو «سَيْفُ  
 الدولة» لَا كَلِمًا يُسَمَّى به من استمارَ هذا اللَّقَبَ في سَالِفِ الأيام؛ كَمَ له في مَرَاضِي  
 سُلْطَانِهِ من رُغْبَةٍ بَدَّلَ بها مَا لَدَيْهِ، وَسَمَحَ فيها بَوْلَدِهِ وهو أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ، وجاد  
 بَرُوحِهِ أَوْ بِمَا هو أَعَزُّ عَلَيْهِ؛ كَمَ تُبْهِتُ بِعَزَائِمِهِ السُّيُوفُ من سِنَانِهَا، كَمَ وَهَبَتْ من  
 مَكَارِمِهِ الأيامُ مَا يَحْدُ من حَسَنَاتِهَا؛ كَمَ أَلْهَبَتْ صَوَارِمُهُ نَارًا بَقَرَتْ أَنْهَارًا بَجَرَتْ  
 من جَنَابَاتِهَا؛ كَمَ لَمَعَ المُلْكُ بِشُهُبِهِ من حَرَسٍ، وَبُقُصَصِهِ من قَبَسٍ، وَكَمَ قَامَ وَقَدَّ  
 في مَصْلَحَةِ وَكَانَ أَذْنَاهُم من مِلْكِهِ مَقَامًا لِمَا قَامَ وَأَعْلَامُهُ مَجْلِسًا لِمَا جَلَسَ؛ فَسَمِعَ  
 المقامُ العالي السَّيْفِيُّ وَأَطَاعَ، وَأَتَمَّى إِلَى مَا بَرَزَتْ به مَرَامِ والده - أُنْفَذَهَا اللهُ -  
 وَأَمْتَلَّ أَمْرَهُ المَطَاعَ، وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ الشريف وهو نَاصِرُ السَّنَةِ قَدَّمَ فيها مَا اسْتَطَاعَ،  
 وَسَارَعَ إِلَى مَا أَمَرَ اللهُ به من الْأَقْصَى والأَجْنَاعِ، وَأَتْبَعَ السَّنَةَ النَّبَوِيَّةَ في تَكْثِيرِ الْأُمَّةِ  
 بِرُبِّيَّةِ أَعْمَةٍ مُلْكِيَّةٍ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لِهَ الْأُمَّةِ أَتْبَاعٍ؛ لِعَلِّهِ الْيَقِينُ أَنَّهُ لو خَطَبَ له  
 وَالِدُهُ في أَطْفَارِ الْأَرْضِ إِلَى جَمِيعِ المُلُوكِ، لَمْ يَحْدُ مِنْهُمْ إِلَّا كُلُّ مَلِكٍ عَظِيمٍ وهو له  
 حَبْدٌ مُلُوكٍ؛ فَاحْتَجَى سُنَّةَ شَرِيفَةِ مُلْكِيَّةٍ مَا بَرَحَتْ الْخُلَفَاءُ والمُلُوكُ تحفظ بها قُلُوبُ  
 أَوْلِيائِهَا عَلَى أُمْدَادِ المَدَنِيِّ، وَيَكْفِي من هَذَا مَيِّمُونَ قِيلَ «الْمَأْمُونِ» لِمَا تَرَوَجَّ

«يُودَان» من أيها «أَبْنِ سَهْل» وَخَطَبَ «الْمُعْتَصِدُ» إِلَى «أَبْنِ طُولُون» أَبَتَهُ  
«قَطْرَ النَّدى» .

ورأى والدها أعزّه الله تعالى قدرا هاله مهابة فسلم وقال : لَسَّا لِكَ التَّصَرُّفِ  
وَلِلَّهِ التَّصْرِيفِ ، وَإِذَا أَقْتَضَى حُسْرُ النَّظَرِ الشَّرِيفِ شَرِيفَ عَيْدٍ فَيَا حَبْدَا  
التَّشْرِيفِ ؛ وَيَا حَبْدَا السَّبَبُ الَّذِي أَتَصَلَّتْ لَهُ بِالْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْأَسْبَابُ ، وَأَحْتَقَلَتْ  
دِيمُ النِّعَمِ وَأَحْتَقَتْ لِلْاجْتِمَاعِ عَلَى سُنَّةٍ وَكَتَابٍ ؛ فَبَحَاسَدَتْ عَلَى إِثْبَاتِهِ صُفْرُ الْأَصَابِلِ  
وَحُمُرُ النِّعَمِ ، وَتَنَافَسَتْ عَلَى رَقَمِ سَطُورِهِ صَحَائِفُ السَّحَابِ وَصَفِيفُ الْمَاءِ وَصَلِيلُ  
السَّيْفِ وَصِرُّ الْقَلَمِ ، وَتَمَنَّتْ الْكَوَاكِبُ لَوْ اجْتَمَعَتْ مَوَاكِبَ فِي يَوْمِهِ الْمَشْهُودِ ،  
وَالْمُنَاقِبُ لَوْ أَنَّهَا حَوَّلَتْ بِمَقَانِبِ خَافِقَةِ الْبُنُودِ ؛ وَوَدَّتْ نَسَمَاتُ الْأَنْفَحَارِ لَوْ كَانَتْ هِيَ  
الَّتِي سَعَتْ بِالْإِتِّفَاقِ ، وَالْحَمَائِمُ لَوْ أَسْبَحَ لَهَا أَنْ تُفَرِّدَ وَتَحْلُجَ مَا فِي أَعْنَاقِهَا مِنَ الْأَطْوَاقِ ؛  
بَلِ السُّيُوفُ لَمَّا رَأَتْ مَقَامَ الْجَلَالَةِ أَغْضَتْ وَغَضِبَتِ الْأَحْدَاقُ ، وَالرِّمَاحُ لَمَّا بَدَأَ لَهَا  
سِرُّ الْمَلِكِ مَا لَهَا وَقَفَتْ عَلَى سَاقٍ .

فبرزت المراسم الشريفة - زادها الله شرفا - بتحرير هذا الكتاب الكريم ، وتضييد  
ما يصلح من الدُّرَرِ لهذا العَقْدِ النِّظَامِ ؛ وَفَعْدَ الْمَرْسُومِ الْعَالِي الْمَوْلُويِّ السُّلْطَانِيِّ مَا أَمَرَ  
بِهِ وَصَدَّقَ ، وَتَأَدَّبَ إِجْلَالًا لِمَقَامِ أَبِيهِ الشَّرِيفِ فَاطِرِ ، وَتَوَاضَعَ لِلَّهِ فَلَمْ يَقُلْ : هَذَا  
مَا تَصَدَّقَ بِهِ ، بَلْ قَالَ : هَذَا مَا أَصَدَّقَ الْمَقَامُ الْعَالِي السَّنِيُّ أَنُوكَ أَبْنُ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ  
الْأَعْظَمِ ، مَالِكِ رِقَابِ الْأَيَمِّ ، الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، السَّيِّدِ الْأَجَلِّ ، الْعَالِمِ ، الْعَادِلِ ، الْقَازِي ،  
الْمُجَاهِدِ ، الْمُؤَيَّدِ ، الْمُرَاطِبِ ، الْمُتَنَافِزِ ، الْمُظْفَرِ ، الْمَنْصُورِ ، الشَّاهِدِ شَاهِ ، نَاصِرِ الدُّنْيَا  
وَالدِّينِ ، سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، مُجِيَّ الْعَدْلِ فِي الْعَالَمِينَ ، مُنْصِفِ الْمَظْلُومِينَ  
مِنَ الظَّالِمِينَ ، مَلِكِ الْبَسِيطَةِ ، نَاصِرِ السُّنَّةِ ، رُكْنِ الشَّرِيعَةِ ؛ ظَلَّ اللَّهُ فِي أَرْضِهِ ،

القائم بسنته وفرضه ؛ وأرث الملك ، ملك العرب والجمم والترك ، خداوند عالم  
بادشاه بنى آدم ، بهلوان جهان ، شهریار ایران ، اسکندر الزمان ، مملأ أصحاب المنابر  
والأسيرة والتخوت والتيجان ؛ فالج الأقطار ، وأهب الممالك والأقاليم والأمنابر ،  
مبيد البغاة والطغاة والكفار ؛ صاحب البحرين ، حامي الحرمين ، خادم القبليين ؛  
كفيل المباد والعباد ، مقيم شعائر الحج والجهاد ؛ إمام المتقين ، قسيم أمير المؤمنين ،  
أبي المعالي محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور ، السيد ، الأجل ، العالم ، العادل ،  
المجاهد ، المؤيد ، سيف الدين ، والد الملوك والسلاطين ، أبي الفتح «قلاوون» خلد  
الله سلطانه ، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه - : الحجاب الكريم ، الرفيع ، المنيع ،  
المصون ، المكنون ، الجهة المكرمة ، المفخمة ، المعظمة ، بنت الجناب الكريم ،  
العالى ، الأميرى ، الأجل ، الكبيرى ، العالى ، العادل ، المهدى ، المشيدى ،  
الزيمى ، المقدسى ، الغياثى ، الفتوى ، النخري ، الأرحمى ، الظهيرى ، الكافى ،  
السبى ، ركن الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء فى العالمين ، نصير الغزاة والمجاهدين ،  
زعيم الجيوش ، مقدم العساكر ، عون الأمة ، غياث الملّة ، مهد النول ، مشيد  
الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين ، بكتمر الساقى الناصرى ،  
ضاعف الله نعمته .

أصنّفها ما تلت به أنسابها لإجلالا ، وبقّت به أحسابها بجمالا ، وطلعت فى سماء  
الملك هلالا ، وليست نغارا ، وقبست أنوارا ؛ وأوت إلى حصن حصين ، ووصلت  
إلى مقام أمين ، واسم (؟) بأموال وبينين ؛ مالولا أدب الشرف ، وتجنب الشرف ؛  
والعمل بالشرع فى تعيين معلوم ، وتبين مقبدر مفهوم ؛ نخرج عن كل وصف  
محدود ، وقدر محدود ؛ ولما قام به موجود ، ولكان مما قل له المالك  
ولا يستكثر لأجله الوجود .

قَدَّمْ لَهَا مِنَ الذَّهَبِ الْعَيْنِ الْمِصْرِيَّ الْمَسْكُوكِ مَا هُوَ بِتَقْدِ مَمَالِكِ وَالِدِهِ مَعْرُوفٍ ،  
وَمِنْ حُقُوقِهِ مَقْبُوضٌ فِي هَيَاتِهِ مَصْرُوفٌ ؛ مَا يُجَدُّ مَا لَا ، وَيُتَمَّى مَا لَا ، وَيَأْتِي كُلُّ  
دِينَارٍ مِنْهُ وَوَجْهُهُ بِذِكْرِ اللَّهِ وَأَمِّهِ يَتَلَلَا .

أَصْدَقَهَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ كَذَا وَكَذَا ، عَجَّلْ لَهَا كَذَا وَكَذَا ؛ قَبْضَهُ  
وَكَيْلُ وَالِدِهَا مِنْ وَكَيْلِهِ ، قَبْضًا تَامًا كَامِلًا ، وَأَتَّخِذْ ذَلِكَ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا حَالًا ؛  
عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ إِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيجٍ بِإِحْسَانٍ : ( إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ  
اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ) .

وَوَلَّى تَرْوِيجَهَا مِنْهُ عَلَى الصَّدَاقِ الْمُعَيَّنِ بِإِذْنِ وَالِدِهَا - أَحْرَزَهُ اللَّهُ تَعَالَى - الْمَقْدَمِ  
ذِكْرُهُ : - الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، قَاضِي الْقَضَاةِ ، حَاكِمُ الْحُكَامِ ، خَطِيبُ خُطَبَاءِ  
الْمُسْلِمِينَ ، جَلَالُ الدِّينِ ، خَالِصَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَبُو الْمَعَالَى ، مُحَمَّدُ بْنُ قَاضِي الْقَضَاةِ  
سَعِيدِ الدِّينِ أَبِي الْقَاسِمِ ، عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ الْعَلَّامَةِ إِمَامِ الدِّينِ ،  
أَبِي حَفِصٍ عُمَرَ بْنِ أَحْمَدَ الْقَزْوِينِيَّ الشَّافِعِيَّ ، الْحَاكِمَ بِالْأَبْيَارِ الْمِصْرِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ وَأَعْمَالِهَا  
وَبِلَادِهَا ، وَجُنَّتِهَا وَضَوَاحِيهَا ، وَسَائِرِ الْمَمَالِكِ الْمُضَافَةِ إِلَيْهَا ، بِالْوِلَايَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، أَدَامَ  
اللَّهُ أَيْامَهُ ، وَأَعَزَّ أَقْصِيَّتَهُ وَأَحْكَامَهُ . فَقَبِلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - لَوْلَهُ  
الْمُسَمَّى - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ - ذَلِكَ مِنْهُ قَبُولًا شَرْعِيًّا ، بِخَاطِبٍ عَلَيْهِ شِفَاةَا مُحْضُورِ  
مِنْ تَمَّ التَّقْدُّ بِمُحْضُورِهِ ، فِي دَارِ الْمُلْكِ بِالْقَصْرِ الْأَبَاقِ ، بِقَلْعَةِ الْجَبَلِ ، حَرَمِهَا اللَّهُ  
تَعَالَى ، بُكْرَةَ يَوْمِ السَّبْتِ حَادِي عَشْرِينَ مِنْ صَفَرٍ مِئَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ .



وهذه نسخةُ صَدَاقِ الْمُقَرَّرِ الشَّرِيفِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ  
ابْنِ قِلَاوُونَ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْمُقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ ، وَهِيَ :



الحمد لله مغيي الملوك بالمظاهرة ، ومكثري زينة الأسماء بمجومهم الزاهره ، ومكبر أقدار الأولياء بما تمت النعمة به من شرف المصاهرة .

نحمده على نعمه التي شرفت قدرا ، وصرفت أمرا ، وأطلعت من هالة البدر المنير شمسا لا تتخذ غير الأفق خذرا ، ولا تنتهي الليالي والأيام إلا أن تهللها من الأشعة ياقوتا ومن الكواكب دوا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تجمع من حمة الدين نسبا وصهرا ، وترفع في أنباء الأبناء لها حصبا وذكرا ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي عصم به ، وخص صفوة الخلق في المصاهرة باختلاط نسبهم بنسبه ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تستوثق بها الأسباب ، وتستوسق الأنساب ، وتبقى أنوارها بملك أبناء الملوك كلمة باقية في الأعقاب ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فلما جمع الله بملوك البيت الشريف المنصوري - كثر الله عددهم - شتات الإسلام ، ومحا بيوارق جهادهم ما أمند من ظلام ، حتى انتهت النوبة إلى من أصبحت به الدولة القاهرة وكل أوقاتها أنوار صباح ، وتوار أفاق ، وسماء سماح ، وأتمى نعم لا تعد إلا مقامه تيجان الملوك على كل جبين وضاح ، المقام الشريف العالي المولوي ، السلطاني ، الملكي ، الناصري ، زاد الله شرفه ، وأعلى على شرفات بروج السماء غرفه ، فأحب - لما أجراه الله به وبمن سلف من ملوك بيته الشريف من تأييد هذه الأمة ، وتأييد ما شملها بفتوحاتهم المنجيات الفتوح من سوانح النعمة ؛ - أن يعمل بقول نبيه المشرف بمواقة أنبيائه ومتابعة حكمه في الترويح ، وأن تقع مواقع أمطاره على كل أرض حرة فطنت كل زوج يسبح . وكان من بينه - أدام الله سعدهم - من يطبع في كل أمر أميره العالي أدام الله تمكينه ، ولولا هذا لما رضى سوى أقران الفرسان له قرينه ، وكان من نجباتهم إذا

عَلَّتِ الأولاد، وَأَحْبَبْتَهُمْ إِذَا كَانَ كَمَا يُقَالُ : الْوَلَدُ ثَمَرَةُ الْفُؤَادِ ؛ وَمَنْ هُوَ لِمَجْلِسِهِمْ  
بِمَالٍ، وَلِدَوْنَهُمْ دَلَالٌ، وَلِفَانِهِمْ أَسَدُ الْأَشْبَالِ - مَنْ يَعْرِفُ كُلَّ مَنْ عَرَفَهُ بِفَضْلِهِ ،  
وَيُؤْتِلُ فِي أَبْنَائِهِ مَا لِأَبْنَاءِ سَمِيَةِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَرَكَاتٍ تَمْلِيهِ .

بَرَزَ الْمَرْسُومُ الشَّرِيفُ الْعَالِي ، الْأَوَّلِيُّ ، السُّلْطَانِيُّ ، الْمَلِكِيُّ ، النَّاصِرِيُّ ، أَنْفَذَهُ  
اللَّهُ فِي الْأَفْطَارِ - بَارِعٌ يُخَيِّرُ لِمَقَرِّبِهِ الْكَرِيمِ ، وَنَسَبَهُ الصِّمِيمِ ؛ وَصَبَّاحَهُ الْمُشْرِقِ ،  
وَسَمَّاحَهُ الْمُتَدِقِ ؛ فَصَادَفَ الْإِحْسَانَ مُوَضِّعُهُ ، وَأَتَتْخَبَ لَهُ مِنْ مَشْرِقِ الْبَيْدَرِ الْبَهَامِ  
مَطْلَعُهُ ؛ وَمَنْ هُوَ مِنْ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِالْيَمِينِ ، وَمَنْ هُوَ الْبَحْرُ الزَّائِحُ  
وَمِنْ مَكُونَتِهِ يُسْتَخْرِجُ أَفْخَرُ الثَّمِينِ ؛ فَبَادَرَ الْخَاطِبُ إِلَيْهِ إِلَى اخْتِنَامِ هَذَا الشَّرَفِ  
الَّذِي لَا يُطَاوَلُ ، وَطَاجَلَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الَّتِي لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ وَصَدَقَاتُ سُلْطَانِيهِ - خَلَّدَ اللَّهُ  
مُلْكَهُ - مَا كَانَتْ مِمَّا تُحَاوَلُ ؛ وَقَالَ : إِنْ رَضِيَتْ تِلْكَ السُّورُ بِهَيْئِهِ الْمَخْطُوبَةِ ،  
أَوْ أَهَلَّتْ تِلْكَ السَّمَاءُ الْعَالِيَاءُ هَذِهِ الْمُحْجُوبَةِ ؛ فَهِيَ لِمَا أَهَلَّتْ لَهُ فِي خِزْمَةِ ذَلِكَ الْمَقَامِ  
الْأَمِينِ ، وَهِيَ كَمَا شَاءَ مَالِكُهَا الْمُتَصَدِّقُ مِنْ ذَوَاتِ الْبَيْفَةِ وَإِلَّا فَهِيَ مِمَّا مَلَكَتِ  
الْيَمِينِ ؛ فَاتَّيَتْ الصَّدَقَةُ الشَّرِيفَةُ عَوَارِفَهَا بِمَا هُوَ أَشْرَفُ مَقَامًا ، وَأَعْظَمُ لَهَا فِي رَتَبَةِ  
الْفَخَارِ فَهِيَ تَسْمُو بِهَذَا وَلَا تُسَامَى ؛ وَشَرَفَتْهُ بِمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ عِنْدَ الْمَقَرِّ الشَّرِيفِ  
مِنْ الْمَقَامِ الْكَرِيمِ ، وَلَمْ تَكُنْ إِلَّا مِنْ ذَوَاتِ الْعُقُودِ وَلَا تَكِيدُ وَلَا كِرَامَةُ لِمَا يَحْتَمِلُ بِهِ  
اللَّيْلُ الْبَيْمِ ، وَلَا لِمَا يَحْتَمِلُ فِي جَيْدِ الْجَوَازِ مِنْ عَقْدِ دُرِّهَا النَّظِيمِ ؛ وَلَوْلَا إِبْجَالُ  
الْمَقَامِ عَنِ التَّطْوِيلِ لِمَا أَخْتَصَرَ الْقَائِلُ فَقَالَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا مَا أَصْدَقُ ..... بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## الطرف الثاني

( في صدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم )

وهي على نحو من الصدقات الملوكية في الترتيب ، إلا أنها أخصر ، ومن الألقاب بحسب أحوال أصحابها من أبواب السيوف والأقلام .

وهذه نسخة صدق جمال الدين عبد الله [ بن سيف الدين أبي سعيد أمير حاجب ]<sup>(١)</sup>  
على بنت بيدمر العمري ، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله ، وهي :

الحمد لله مبلغ كل أمل ما يرجوه ، ورأى ذم من لم ينسوا عهده ولم يحلفوه ،  
ومكمل الخير لكل ذي<sup>(١)</sup> يصد من يحفوه ، وعجب كل منيب يدعو قائما  
وقامدا : ( ولما قام عبد الله يدعو ) .

لحمده حمدا نكر فضله وتثله ، وتعل مفضله وتجلوه ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله  
وحده لا شريك له شهادة يتظافر عليها الأمر المسلم وبثوه ، وتفيض بها وجوه  
الأوداء ، وتسود وجوه الأعداء ، يوم تفيض وجوه وتسود وجوه ؛ ونشهد أن سيدنا  
حمدا عبده ورسوله الذي سجد به نوره ، وصعد قدر صهره وحموه ، وشرف نسبنا  
ما ألقى فيه على سجاج هو ولا أولوه ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا يزال  
بها الروض الأريج يفوه ، والسحر يلفها ولو سكّت وختم بالبرق فوه ؛ وسلم تسليما .

وبعد ، فإن أزهى زهر طاب مجتونه ، وطال باقا في الفخار مجتبه ؛ زهر كرامة  
جرت عنها لامة كبري ، وأبرزتها سنة الإسلام من حجاب ذي أنف حمي ؛ وطلعت  
من أفق بدرى طالبا سح مجتلوه ، وحى سيف أمن في كلته بكلامه مجتلوه .

(١) يباض بالأصول والتصحيح من الصفحة التالية .

وكان الجانبُ الجمالُ عبدُ الله بنُ المرحوم سيفِ الدين أبي سعيدٍ أميرِ حاجبٍ ،  
أدام الله تعالى علاه ، ورحم أباه ، هو ولدُ ذلك الوالد ، وطارِفُ ذلك الثالث ؛ ونَسَوُ  
هذه الدولة الشريفة الكاملة التي أخذَ منها حظُّه بالتمام والكمال ، وأصبحتْ به  
كالعادة الحسناء ذاتِ الحُسْنِ والجمال ؛ ولم يمتْ أبوه في أيامِ سلطانها - خلد الله  
ملكه - حتى قوتْ به عينه ، وسأواه في الإمرة لولا تفاوتِ العدة وقدمُ الملة بينه  
وبينه ؛ وجاء منه ولدٌ عجيب ، وابنٌ شاع وذاعِ سراييه ومجد وهذا عجيب !!! .

ولما استقلَّ والدُه رحمه الله تعالى إلى رحمة ربِّه ، وشرب بالكأس الذي لا بدَّ لكلِّ  
حَيٍّ من شربه - تطلبَ مِثْلَ ذلك الأب ولم يزلْ يَجِدْ حتى وجد ، وظفر بوالدٍ إن  
لم يكن ولده حقيقةً فإنه عنده مِثْلُ الوالد ؛ وهو المقز يدمر ، وهو الوالد الذي لم يفقد  
معه من والده ذرَّه ، والأب الذي هو أرف من كلِّ أمِّ به ؛ والنير البندري الذي  
سعيد قرانا ، وصعيد وداس بقلته أقرانا ، وقسمَ دهره شطرين : نهاره الضيوف قري  
وليَّله لله قرانا .

هذا إلى أنه طالما طيبَ لزكاة أمواله وتمرها ، وزينَ في أعماله بمدرسة عمرها ،  
وقد شوارِدَ حسناته وقصَّفها ؛ مع أنه شيدَ المالِكَ وسدَّ أمورها ، وسدَّ ثغورها ؛  
وجمى بيضُ مُسيوفه السوادَ الأعظم ، ورعى بصوابٍ سهامه التوابِ ولم تُستعظم ؛  
ولم تزلْ نوبُ الأيام مجرَّب منه مسودياً ، ومجرَّد حراً كريماً جاء في أولِ السنة صقرا  
بذرياً ؛ فكان من تمامِ به بمن سلف إجابةً ولده ، وإجالة الرأي فيما يكون سببا  
لصيانته عزِّمته وذاتِ يده ؛ فانهم له بعقيلته المنعم ، وربيته التي غلت الشمس منها  
سافرة مقننه ؛ وقال : على الخير والخير ، وابنُ أئح كريم وجدع الحلال أنف الغيرة ؛  
وما أنسى عقداً يكون متوليه ، ومنشئه إحساناً منه وسنيه ؛ مولى به نظمت عقود  
الآلى ، ورقت بعليه أحلامُ الأيام وذوائبُ الليالي ؛ وسلمت القضايا به إلى منقذ

أحكامها، ومُنِيل الفضل لحكامها؛ البحر الزانح، والنجم الذى تَمَّ ترك الأول منه  
للآخِر؛ والقام إلا أنه قَضَتْ صَوَاعِقُهُ على الخُصُوم، والإمام الذى أجمعت عليه  
السنة ولم تُكْرِ الشَّيعة أنه الإمامُ المعصوم؛ والعالم الذى ما برحت برؤفهُ تُسام، وحقوقه  
على أهلِ مِصر والشَّام؛ والذى وَلَّى الظُّلُمَ مندُ وَلِي، وأعترف ذُوو الفضل والفضل  
فى القضاء أن أنقامهم تَقَى الدين وأقضاهم :

قَاضِ الْقَضَاةِ أَبُوالْحَسَنِ \* بَيْقَاتِهِ يُحِلُّ الْحَزْنَ ،  
و[هو] الذى فى حُكْمِهِ \* يَجْرِى عَلَى أَقْوَى <sup>(١)</sup> [سُنَنِ] !  
طَوْدٌ إِذَا وَازَتْهُ \* بِالطَّوْدِ فى حُكْمٍ وَزَن !  
والبَحْرُ طَى رِدَائِهِ \* قَلْدُ الْمُقُودِ بِلَا ثَمَنِ ! <sup>(٢)</sup>

فأضاء المحفل به وبالحاضرين، وقام شعار الدين حتى قال القائل : هذه سِيُوفُ  
المجاهدين وهذا سيف المناظرين ؛ وقيل : هذا وَقْتُ جُودٍ قد حضر، ومَوْضِعُ  
مُرُورٍ يَنْبَغِي أَنْ يُسَجَّلَ منه ما يُتَقَلَّرُ؛ فَأَبْتَدَأَ السَّعْدَ عِمَاءَ الوَسِيمِ، وأَفْتَحَ فقال :  
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هذا ..... \* .....



وهذه نسخةُ صَدَاقِ نَاصِرِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ الخَطِيطِ، من إنشاءِ الْمُقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ بن  
فضل الله، وهى :

الحمد لله الذى زاد الْأَصُولَ الطَّيِّبَةَ قُرْبًا، وزَانَ الْأَنْسَابَ الطَّاهِرَةَ بِصَلَةِ نَسَاكِدِ  
حُبًّا، وصَانَ كَرَامِ السُّيُوفِ الْقَدِيمَةِ الضَّخَارِ بَنَ يَنَاضِلُ عَنْ حَسْبِهِ ذَبَا، وَيُنَاطِرُ الْعُلِيَاءَ  
فَلَمْ يَبْنِ إِلَّا بَيْنَ مَنَازِلِ النُّجُومِ يَبُوتًا وَلَمْ يُسَيِّلِ سِوَى السُّمْرِ شُمَيْرِ الْقَنَا حُبًّا .

(١) يياض بالأصول، والصحيح من القام .

(٢) بمعنى جمع .

نحمدُ محمدَ من دعاه قبلَ بثِّ النِّسَمِ فلبَّى ، وأستدعاه لأخذِ العهدِ عليه أمامَ  
تفريقِ القِسمِ فما تَأبَّى ، ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له شهادةٌ تستنطقُ  
أَلْسِنَةً وتشكرُ قُلُوبًا ، وتستغنى أنواءُ السُّرُورِ فحُضِيءُ البَشَائِرِ بَرُوقًا وتُمطرُ الرَّحْمَةُ سُحُبًا ،  
ونشهدُ أن عِداَ عبدِهِ ورسولَهُ الذي قامَ في تَكثيرِ الأُمَّةِ حتى زادَ عدَدُها على مَوَاقِعِ  
الْقَطَرِ وأَرَبِيٍّ ، وقالَ مما أَمَرَ بِهِ : ( قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى )  
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَعَلَى أَقْرَبَائِهِ صَلَاةً تَعْمُ الْآلَ وَصَحْبًا ، مَامَسَّ الشُّبَّ  
تَحَطُّعُ الْآفَاقِ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَسَلَمٌ تَسْلِمًا .

وبعدُ ، فَإِنَّ أَوَّلِي مَا أَشْتَبَكَ وَشَبَّجُهُ ، وَأَشْتَبَهُ فِي مَنَاقِبِ الْإِلَهِكَ بِهَيْبِهِ ، وَأَنْتَبَهُ  
فِي أَرَاثِكَ انْتِمَائِلِ أَرِيحِهِ ، وَأَتَدَبَّ لِإِتْيَانِهِ الْأَفُقَ وظَهَرَ طِيَهُ مِنْ ذَهَبِ الْعِشَاءِ تَوَيُّهُ  
وَمِنْ لَمَجِ الصَّبَاحِ تَدْيِيغِهِ - مَا أُتِيْعَتْ فِيهِ الشَّرِيفَةُ الْمُطَهَّرَةُ حَيْثُ لَا تَخْلُفُ الْأُمَّةُ ،  
وَالسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ عَلَى مَنْ سَنَاهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ فِيمَا تَأَلَّفَ بِهِ الْبُعْدَاءُ وَتَكَثَّرَ  
لِمُبَاهَاةِ الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذِهِ الْأُمَّةُ ، وَتَدْنُو بِهِ الْأَجَانِبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَيَجْعَلُ  
بَيْنَهُمْ مَوَدَّةَ وَرَحْمَةٍ ، وَتُعَدُّ بِهِ أَيَادِي جَمَّةٍ لَا تُحْصَرُ وَيُحْلَدُّ بِهِ فِي الْعَاقِبَةِ شَرَفُ الذِّكْرِ  
وَيُجْعَلُ بِهِ شَرَفُ النِّعَمَةِ ، وَهُوَ النَّكَاحُ الَّذِي تَشْتَدُّ بِهِ الْأَوَاصِرُ ، وَتَعْتَدُّ بِهِ الْمَوَارِدُ  
تَتِمُّلُ أَكْثَرُ الصُّوَرِ مِنْ أَزَى النَّصَائِرِ ، وَتَعْتَدُّ بِهِ هِمَمُ الْأَبْطَالِ لِمَا يَسْتَخْرِجُهُ بِجَهْدِهِ  
أُنْسَانُهُ مِنْ أَمِّ قُوَّةٍ وَنَاصِرٍ . وَأَكْمَلَهُ مَا تَمَائَلَتْ فِي أَشْرَفِ الْبُيُوتِ الرِّقِيقَةِ وَجُوهُ  
نَخَّارِهِ ، وَهَابَلَتْ فِي مَطَالِعِ السُّمُودِ - حَيْثُ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ وَالشَّرَفُ الْخَلِيلُ - مَشَارِقُ  
شُمُوسِهِ وَمَطَالِعُ أَقْبَارِهِ .

وَكَانَ الْأَبْرَارُ فِي أَهْلِ الْفَخَارِ مِنْ جُرُومِهِ بَسَاقًا ، وَأَرْوَمِيَةٍ تَفَرَّقَتْ فُرُوعُهَا  
ثُمَّ تَلَاقَتْ مِنْهَا غُصْنَانِ وَأَعْتَقَا ، مِنْ بَيْتٍ مَا مَجَّبُهُ إِلَّا مَوَاضِي الصَّفَاحِ ، وَلَا شُبُهَةَ

إلا طلائع الأسيّة في رؤوس الرماح، ولا حُجَب إلا ما يفيض على جنباته من النفوس  
أو يفيض من السحاب، ولا حُجَب إلا المناقب لولا أن الثريا جاذبت ما يفيض  
في السماء أنشاء الرياح، وكان هو الرائب إلى عمه، الخاطب إليه ما لم يكن مُجَبّاً  
إلا لقسمه، الطالع بنظره إلى عقيلة الفخار في غرورها، الطالع بخطبة الشمس شمس  
النهار إلا أنها في بيت شرفها، المُتَوَقَّع من كرم عمه الإجابة التي لحظها بآله، وتولية  
يد كريمة لا يتبدل الزمان إلا إذا حلت شممها في بيت حمله، توقعا للسيل لا يزال به  
شرف هذا البيت الكريم موجودا، ونسب إذا عدّ ولد منه الآباء عدّ جدّين سيدين  
هذا مسعودا وهذا محمودا، فتلوّى قصده بأكرام بؤاه أكاف الشرف، وأوطأه  
فرض الكرامة ممّعا بعم الترف، أبداً للكرم المألوف، وأتباعا للسنة الشريفة  
إذ كان الأقبون أولى بالمعروف .

فتباريا جودا سارع كل منهما في أداء حقه إلى الواجب، وتجاريا إليه ليتحقا  
شاؤا بوجهها وكل منهما يعلم أنه العين والعين لا ترتفع على الحاجب، وأتمّ الجانب  
الشرقي محمود - أدام الله نعمته بحسن إجابته، ويمن رغبته في أهل عصبته، وأهل  
جنوده إلى أن ساروا إلى الميحاء تحت عصاه - بأن فوض هذا الأمر إلى أخيه  
الكبير والد الخاطب، وسكت وقال : هو في التصرف وعنى الخاطب، وله الأمر  
ولولا الشرف بنسبة الأخوة إليه لما قلنا : إلا أننا ملك يده، وإذا كان الم صنو  
الأب فأى فرق بين ولدى وولده؟ ولكن اختص في نسبة هذه الزوجة في يومه هذا  
فإن أولادها لا تعرف إلا به في غده، فكل هذا القدر، وأشرق به السعد الطالع  
أضوا مما قلّم وأخر من القدر، وكان من تمام التكرم، أن قال قائلا :



وهذه نسخة صديق القاضى تقي الدين، وهى :

الحمد لله الذى رَفَعَ إلى المَنَازِلِ العَليَّةِ من كانَ حَقِيًّا ، وجمَعَ شَمْلَ من لم يَبْرَحْ لِسَنَ السَّنَنِ تَابِعًا وبها حَقِيًّا ؛ وَخَلَعَ أُنُوبَ الثَّوَابِ عَلَى من سَرَحَ طَرَفَ طَرَفِهِ فى رَوْضِ التَّاهُلِ وجعلهُ وَضِيًّا .

بِحَمْدِهِ عَلَى نِعَمِهِ الِى من هَبَزَ جُدْعَ تَحْطِئِهَا تَسَاقَطَ طَلِيهِ رُطْبًا جَنِيًّا ، وَشَكَرَهُ عَلَى فَضْلِهِ الذى كَمَّ أَجْرُهُ لِقَاصِدِهِ من بَحْرِهِ للمَعْرُوفِ سَرِيًّا ، وَشَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ شَهِادَةً تَمْنَحُ قَائِلُهَا فى غُرْفِ الْجَنَّةِ مَكَانًا عَلِيًّا ، وَشَهِدَ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الذى آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وجعلهُ نَبِيًّا ، الْإِمْرَ أَمَّتَهُ بِالنِّكَاحِ لِيُكَامِلَ بِهِمُ الْإِقَامَ يَوْمَ يُقَرَّبُهُ اللَّهُ حَقِيًّا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَحُلُّ مِنْهُمْ فى حَالَتِي الْكَرَمِ وَالْكَرَامَاتِ وَلِيًّا ، مَا أَطْلَعَ التَّوْفِيقُ فى آفَاقِ الْأَنْصَالِ مِنَ الْأَنْسَابِ الْكَرِيمَةِ كَوْنًا دُرِّيًّا ، وَسَلَّمُ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعدُ ، فَإِنَّ أَوَّلَى السَّنَنِ بِالْإِكْتِبَاعِ سُنَّةُ النِّكَاحِ ، الِى أَخْفَى نُودُ مِصْبَاحِهَا شَمْسَ الصَّبَاحِ ، وَخَفَقَتْ عَلَى مَمَالِهَا أَصْلَامُ النِّجَاةِ وَالنِّجَاحِ ، وَحَمِدَ الْمَسِيرَ إِلَى رُبُوعِهَا الْإِهْلَةِ بِأَهْلَةِ الْعِصْمَةِ فى النُّدُورِ وَالْأَرْوَاحِ ؛ يَا هَا سُنَّةُ سُنَّةٍ وَجْهَهَا جَمِيلَةٌ ، وَأَصَابِعُ نَيْلِ نَيْلِهَا بِلْ أَيْادِيهِ جَزِيلَةٌ ؛ بِهَا تُنْحَى أَشْجَارُ النَّسَبِ وَيَطْيَبُ جَنَاهَا ؛ وَتَبْلُغُ النُّفُوسُ مِنَ الصِّيَانَةِ أَقْصَى مَنَاهَا ؛ وَيَنْظُرُ أَوَّلُو الرِّغْبَةِ فِيمَا أَحَلَّ اللَّهُ بِمَطْلُوبِهِمْ ، وَتُؤَلَّفُ بَيْنَ مَنْ لَوْ اتَّفَقَتْ مَا فى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ؛ وَهِيَ الْوَسِيلَةُ الِى تَكْثُرُ سَوَادُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَالذَّرِيسَةُ إِلَى [ بَقَاءِ ] النَّوَجِ الذى أَطْهَرَ اللَّهُ فى سَمَاءِ الشُّكْرِ تَجْمَعُ ، وَإِلَيْهَا الْإِشَارَةُ فى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ .



ولما كان كذلك رَغِبَ في آفَتِنَاءِ آثَارِهَا ، وَاهْتَدَى بِالصُّوَرِ الْأَلَمِ من أَفْهَارِهَا ؛ مَنْ  
يَتَشَرَّفُ الْمَكَانُ بِذِكْرِ وَصْفِهِ ، وَيَتَعَطَّرُ مَا انْتَشَرَ فِي طَبِيعِهِ مِنْ طِيبِ عَرَفِهِ ؛ مَا جَدَّ  
عَمَرُ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ بِدَوَامِ دِيَمِهِ ، وَجَوَادُ مَا جَاوَرَهُ الْبَحْرُ إِلَّا لِيَقْتَنِسَ مِنْ كَرَمِهِ ؛  
وَرِئِيسُ أَمْتُنَى ذِرْوَةِ الْعُلَيَاءِ بِحُسْنِ السُّلُوكِ ، وَارِيحِي لَوْ لَمْ يَكُنْ صَدْرًا لِمَا أُودِعَ سِرُّ  
الْمُلُوكِ ؛ إِنْ تَكَلَّمَ أَبْرَزَ لَكَ الْجَوْهَرُ الْمَصُونُ ، وَإِنْ كَتَبَ صَحَّكَتْ لِبُكَاءِ قَلْبِهِ تُنُورُ  
الثُّنُورُ وَالْحُصُونُ ؛ فَهُوَ تَسْبِيهِ الْمَشْهُورِينَ الْأَكْبَارِ الْأَعْيَانِ ، وَبَيْتُهُ الْمَمُورُ بِالْعَيْنِ  
الْمَرْفُوعِ خَبَرُهَا إِلَى فِتْيَانٍ ؛ نَحْطِبُ مِنْ حَلَا قَدْرُهَا ، وَاشْتَهَرُ بِالْحُسْنِ الْجَمِيلِ ذِكْرُهَا ؛  
وَجَلَّتْ عَنْ أَنْ تَرَى الْعِيُونَ لَهَا فِي الصُّوْنِ شَيْئًا ، وَعَمَتْ الْبِقَاعُ حُبَّ بَرَكَةِ أَيْهَا ؛  
أَكْرِمْ بِهِ عَالِمًا عَامِلًا ، وَإِمَامًا لَمْ يَزَلْ يَنْدَى فَضْلًا وَيُسْدَى نَائِلًا ؛ كَمْ لَهُ مِنْ آثَارِ  
مَشْهُورَةٍ ، وَمَتَابِقِ مَأْثُورَةٍ ، وَصِدَقَاتِ مَبْرُورَةٍ ، وَمَوَاطِنَ بِذِكْرِ اللَّهِ مَعْمُورَةٍ .

فَقُولِ بِالْإِشْرَاقِ قَوْلَ رَسُولِهِ ، وَرَدِّ رَأْيِهِ مُخَرَّجًا بِلُغِ سُوْلِهِ ؛ وَقِيلِ لَهُ بِلِسَانِ الْحَالِ ، :  
هَذَا مَا كَانَتْ تَنْتَظِرُ الْأَمَالَ ؛ يَا إِلَهَ عَقْدَا قَلْتِ جَوَاهِرَ عُقُودِهِ ، وَأَنَارَتْ فِي آفَاقِ  
الْأَنْهَاقِ أُنْجُمُ سُعُودِهِ ؛ وَتَمَاطَلَتْ قُدُودُ أَغْصَانِ الْأَفْرَاحِ ، وَزَهَتْ مَجَالِسُ الشُّرُورِ  
بِالْأَنْشِرَاحِ ؛ وَهَبْتَ قَبُولَ الْإِقْبَالِ ، وَقَامَ الْقَلَمُ حَظِييًّا عَلَى مِثْرِ الطَّرَسِ فَقَالَ :

هَذَا مَا أَصْدَقُ ... ..



وهذه نسخة صداق من إنشاء الشيخ صلاح الدين الصفدي، للتأضي بذكر الدين  
حطيب بيت الآثار، على بيت شمس الدين الحطيب من بيت الآثار، تسمى  
سولي، في مستهل جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، في مجلس مولانا  
قاضى القضاة تقي الدين السبكي الشافعي، أدام الله أيامه، وهي :

الحمد لله الذي زينَ سماءَ المعالي ببدنها ، وأثبتَ في رياضِ السعادةِ يانعَ زهرها ،  
والهم ذوى الهمم أن يبتذلوا في الكرام غوالي مهريها .

نحمدُه على نِعَمِهِ التي حَلَّتْ ما ضَفَا من لَبَاسِها ، وَسَوَّغَتْ ما صَفَا من رُضَابِ  
كَاسِها ، وَخَصَّنَا بما عَمَّتْ به من أنواعِ أَجْناسِها ؛ وَأَشْهَدُ أن لا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ  
لا شَرِيكَ لَهُ ، أَعْلَمُنَا في الإِيْمَانِ نَصْها بالأداء ، وَبَنَى آمِنَها على الفَتْحِ كما قُتِعَ  
المُضَافُ في النَّدَاءِ ، وَرَفَعَ خَبَرها : إِمَّا على رَأْيِ الرُّوَاةِ للشُّهْرَةِ وإِمَّا على رَأْيِ النُّحَاةِ  
بِالِابْتِدَاءِ ؛ وَنَشْهَدُ أن سَيِّدَنَا عَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الذي شَرَعَ النِّكَاحَ لهذه الأُمَّةِ ،  
وَمَتَّعَ السَّفَاحَ فلم يكنْ أَمْرُنا عَلَيْنَا عُمَّةً ، وَنَهَجَ الصُّوَابَ فإِذَا ظَنَنْتُكَ بالصَّبَاحِ إِذَا أَبْتَلَجَ  
عَظِيمُ اللَّيْلِ المُنْطَمِئُ ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَلَقَّوْا أَوْامِرَهُ بالطَّاعَةِ ،  
وَأَجْتَنَبُوا نَوَاهِيهِ حَتَّى بَلَغُوا جُهْدَ الاسْتِطَاعَةِ ، وَفَهِمُوا حُرَادَةَ بِكَاتَرَةِ الأُمَمِ فَكَانَ  
البِضَاعُ عِنْدَهُمْ خَيْرَ بَضَاعَةٍ ؛ صَلَاةَ رِضْوَانِها يُضَيِّئُ إِضَاءَةَ الكَوَاكِبِ في أَبْرَاجِها ،  
وَعُقْرَانُها يُكَارِهُنَّ البَحَارُ في أَصْدَادِ مَوْجِها ؛ مَا اتَّصَلَ سَبَبٌ بِالنِّكَاحِ ، وَأَنْفَصَلَ نَسَبٌ  
بِالسَّفَاحِ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيماً كَثِيراً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وبعدُ ، فإن النِّكَاحَ من عَمَاسِينِ هذا الدينِ القِيَمِ ، وَفَضَائِلِ هذا الشَّرْعِ الذي  
لا زَالَ شَرَفُهُ بَدْرًا بينَ مُشْرِقاتِ النُّجُومِ وهو حَيٌّ ؛ بِهِ يُحَقِّقُ النِّسْبُ الشُّرُودَ ، وَيُرْعَى  
عَهْدُ القَرِينَةِ الوُلُودِ الوُدُودِ .

وَكَانَ فَلَاحُ مَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ ، وَأَيَّانَ ما أَوْدَعَهُ من نَفَائِسِ المُلُومِ وَحَبَائِبِ تَصَدَّرَ  
في المَجَالِسِ ، وَدَرَسَ في المَدَارِسِ ، وَأَوْرَدَ ما عِنْدَهُ مِنَ النِّفَائِسِ ؛ كَيْفَ لا ؟ وَهُوَ  
سَيِّطُ شَيْخِ الإِسْلَامِ وإِمَامِ المُسْلِمِينَ ، وَقَاضِي قُضَاةِ الشَّافِعِيَّةِ وَأَوَّحِدُ المُجْتَهِدِينَ ؛  
وَقَدْ أَرَادَ الآنَ إِحْصَانَ فَرْجِهِ ، وَأَنْ تَنْزِلَ الزُّهْرَةُ مَعَ بَدْرِهِ في بَرْجِهِ .

فلذلك رَغِبَ إلى المَجْلِسِ العَالِي (المسمى) وَخَطَبَ الجَهْمَةَ المَصُونَةَ المَحَجَّةَ ،  
النَّقِيَّةَ ، النَّقِيَّةَ ، الْعَفِيفَةَ ، الْخَاتُونَ ، غُصْنَ الإسلام ، شَرَفَ الْخَوَاتِينَ ، جَمَالَ ذَوَاتِ  
السُّتُور ، قُرَّةَ عَيْنِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينَ ، السَّيِّدَةَ "سُؤلى" بِنْتَ فُلَان ، صَانِ الله  
حِجَابِهَا - فَأَكْرَمَ مَوَارِدَ قَصْبِهِ ، وَحَبَاهُ أَنْفَسَ ذُرَّةٍ فِي عَقْدِهِ .

فلذلك قام خَطِيبُ هذا الحَقْلِ الكَرِيم ، وَالتَّجَمُّمِ الذِّى لَمْ يَزَلْ تَجَمُّهُ بِالطَّالِعِ الْمُسْتَقِيمِ ،  
وقال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ... ..



قُلْتُ : وهذه نسخةُ صِدَاقِ زَيْنِ الدِّينِ صَدَقَةِ السَّيْفِيّ أَزْدَمَر ، عَلَى بِنْتِ أَمِيرِ  
المُؤْمِنِينَ «الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ» . أَنشَأَتْهُ لَهُ فِي خِلَافَةِ أَخِيهَا الْمُسْتَعِينِ بِاللهِ الْعَبَّاسِيّ ، وَهِيَ :  
الْحَمْدُ لله مُسْتَخْرِجِ النُّوْحَةِ الْمَاهِئِيَّةِ مِنْ أَطْيَبِ الْعَنَاصِرِ ، وَمُفْرِجِ النِّبَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ  
مِنْ أَكْرَمِ صِنُوفِهَا أَنْعَقَدَتْ عَلَى فَضْلِهِ الْخَنَاصِرِ ، وَمُخَصِّصِ يَدِ الْخِلَافَةِ مِنْهَا بِأَعَزِّ  
جَانِبِ ذَلِكَ لِمَزِهِ عُظْمَاءُ الْمُلُوكِ مَا يَبِينُ مُتَقَدِّمٌ وَمُعَاصِرٌ .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ صَانَ عَقَائِلَ الْخُلَفَاءِ بِمَقَالِ الْحَسَبِ ، وَحَصَرَ كِفَايَتَهَا فِي الْعِلْمِ وَالْدِّينِ  
حَيْثُ لَمْ يَكُنْ بِمَحْرُومَةٍ وَلَا تَسَبُّ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي  
سَنَّ النِّكَاحَ وَشَرَعَهُ ، وَأَرْزَقَ بِالْحِلِّ أَتَفَّ الْغَيْرَةِ لَدَى الْإِبَاءِ وَقَعَهُ ؛ شَهَادَةً يُسْتَشَقُّ  
مِنْ رِيَاءٍ عِوِهَا كُلُّ شَيْءٍ أَرِيجُ ، وَتُجَنَّبُ نِمَارُيَتُهَا بِشَرِيفِ النَّجَاحِ مِنْ كُلِّ نَوْحِ  
بَيِّحٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا عَمْدًا عَلَيْهِ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِيٍّ وَفَرَفَى الْفَضْلِ مَهْمُهُ حَتَّى لَمْ  
يُسَاهَمْ ، وَأَكْرَمُ رَسُولٍ رَخَّصَ فِي تَرْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ خِصَابِهِ وَإِلَّا فَايَنْ كَفَّ رَسُولُ اللهِ  
مِنَ الْعَالَمِ ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ شَرَّفَهُمْ بِقُرْبِهِ ، وَقَرَنَ الصَّهْرَ

بالنسيب فيهم نخص مصاهرته أخصهم به ؛ صلاة تصل سبب قائلها بسببه ،  
وتجمل الفخار بها كلمة باقية في عقيدته ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى ما أطل فيه المطيل ، ونحذ في وصفه الذهن الكليل ، ورفقت  
محاسن ذكره على صفحة النهار بذائب ذهب الأصيل - ما تواصلت به الأنساب ،  
وتوصل بواسطته في دراري الذراري إلى شرف الأوصاف ؛ وتوقرت عليه النواصي  
فاشتدّت به الأواصر ، وحسنت في طريق قصده المساعي فتأكدت به المودة  
في البواطن والظواهر . وهو النكاح الذي تدب الله تعالى إلى معاطاته ، وحض  
على التحلّي بجله حتى ألحقه بالمادة في بعض حالاته ؛ طلبا للتحصين الكافل بسؤوك  
نهج الاستقامة ، ورغبة في تكثير النسل الواقع [به] مكثرة الأثم يوم القيامة .

هذا ورائهم بيت الخلافه ، وربائب محمد المجيد والإتافه ؛ في سيزلو طلب مناو  
مكافئها لطلب معوزا ، أو رام مقاوم مضاهاتها في علو الرتبة لرام معجزا ؛ لما  
اختصت به من السيادة التي لا يرقى إلى منزلتها ، والمعالي التي لا تسمو النفوس  
وإن شمتحت إلى رتبته ؛ إذ كان النظر لشرف أرومتها ممتنا ، والتقيض بما ثبت من  
طيب جرموتها مرفعا ؛ فبرق معاليها في التطاول لا يسام ، وجوهر نفاها في المائر  
لا يسام ولا يسام ، فز بذلك في الوجود مكافئها ، وأمتنع خوف الهجوم بالأخطاب  
موافيها ؛ إلا أن المواقف الشريفة المقتسة المتوكلة - زاد الله تعالى في شرفها ،  
وأدام رعايتها بحلة الملوك وحياتها وكفها - مع ما انفردت به من العز الشاخي الذي  
لا يساوى ، والشرف الباذخ الذي لا يناوى ؛ قد رغب تفضلها في أهل الفضل فال  
إليهم ، وأختص بأقباله أهل الدين فاقبل بكنيته عليهم ؛ محلا لهم من شريف مقامه  
العلّي محل الاصطفاء ، ومقدما لهم في المصاهرة على أبناء الملوك والخلفاء ؛ فوافق

فِي الْفَضْلِ شَنْ طَبَقَهُ، وَحَاوَلَ سَارَةَ النِّعَمِ مِنْهَا خَيْرَ حَاطِبٍ فَلَقِيَ بِقَبُولٍ : إِنَّ اللَّهَ تَهْتَدِقُ عَلَيْكَ بِصَلَتِهِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَتَتْهُ الْقَلَمُ مِثْرَ الطُّرْسِ لِحَطَبٍ، وَخَطَبَ بِالْمُحَامِدِ لِسَانَهُ اللَّسِنُ فَكَتَبَ :

هَذَا مَا أَصْدَقَ الْعَبْدَ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، الْجَنَابُ الْعَالِي، الْأَمِيرُ، الْكَبِيرُ،  
الشَّيْخُ، الْإِمَامُ، الْعَالِي، الْعَامِلُ، الْعَائِدُ، الْخَلِيشِيُّ، النَّاسِكُ، الْبَلِيغُ،  
الْمُقَوِّهِ، الصَّنَدِيُّ، الرَّئِيسُ، الْأَصِيلُ، الْعَرِيقُ، الرَّزِيُّ، أَبُو الْعَالِي صَدَقَةُ -  
الْحَمَّةِ الشَّرِيفَةِ الْعَالِيَةِ، الْكُبْرَى، الْمُعْظَمَةُ، الْمُحَجَّجَةُ، الْمُصُونَةُ، سَلِيلَةُ الْخِلَافَةِ، فَرَعُ  
الشَّجَرَةِ الزَّكِيَّةِ، جَلِيلَةُ الْمُصُونَاتِ، بَجِيلَةِ الْمُحْجَبَاتِ، سَارَةُ، الْبِكْرُ الْبَالِغُ، ابْنَةُ سَيِّدِنَا  
وَمَوْلَانَا الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ، الْمُقَدَّسِ، الْعَالِي، الْمَوْلَوِيِّ، السَّيِّدِيِّ، الْإِمَامِيِّ، النَّبَوِيِّ،  
الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ "أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ" أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَبْنِ الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ الْعَالِي، الْمَوْلَوِيِّ،  
الْإِمَامِيِّ، الْمُتَعَزِّدِ بِاللَّهِ "أَبِي الْفَتْحِ أَبِي بَكْرٌ" بَنِ الْإِمَامِ الْمُسْتَكْنِيِّ بِاللَّهِ "أَبِي الرَّبِيعِ  
سُلَيْمَانَ" أَبْنِ الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِهِ "أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدٌ" لَا زَالَ شَرُّهُ بِإِذَاخَا، وَصِرَافَتِهِ  
الشَّرِيفِ شَاخَا، وَذِكْرُ مَنَاقِبِهِ الْعَالِيَةِ لِكُلِّ مَنَاقِبَةٍ نَاصِحًا - صَدَقًا جُمْلَتُهُ كَذَا وَكَذَا،  
زَوْجَهَا مِنْهُ بِذَلِكَ فَلَانٌ، وَقِيلَهُ فَلَانٌ؛ وَتَمَّ عَلَى بَرَكَاتِهِ اللَّهُ تَعَالَى وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ، كَامِلَةٌ  
شُرُوطُهُ وَلَوَازِمُهُ، مُبَارَكَةٌ عَوْدُهُ وَمَنَاسِكُهُ، مَيْمُونَةٌ فَوَائِحُهُ وَخَوَائِمُهُ ؛ مُفْتَتَحَةٌ بِطَيْبِ  
الْعَيْشِ أَزَاهِرُهُ مُفَقَّرَةٌ عَنْ [نُورِهِ] إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى كَرَّمَ اللَّهُ

## الفصل الخامس

### من الباب الأول من المقالة العاشرة

( فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب مما جرت العادة بمراعاة النثر المسجوع فيه ،  
ومحاولة الفصاحة والبلاغة ، وفيه طرفان )

### الطرف الأول

( فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ، ثم هو على صنفين )

### الصنف الأول

( الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعروضات الكتب ونحوها )

أما الإجازة بالفتيا ، فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس -  
أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس ، ويكتب له بذلك . وجرت العادة أن يكون  
ما يكتب في الغالب في قطع عريض ، إما في فرجة الشامي أو نحوها من البلد ،  
وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطرًا متوالية ، بين كل سطرين نحو أربع عريض .

وهذه نسخة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه  
وأرضاه ، كتبت لي حين أجازني شيخنا العلامة سراج الدين أبو حفص عمر بن  
أبي الحسن الشهير بابن الملقن ، سقى الله تعالى عهده ، عند قدومه مقر الإسكندرية ،  
وأنا مقيم به في شهور سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، وكتب لي بذلك القاضي تاج  
الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بالإسكندرية في درج ورق شامي في قطع الشامي  
الكامل ، وسني يومئذ إحدى وعشرون سنة ، فضلًا من الله ونعمة .

وَسُحَّتْهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

الحمد لله الذى رَفَعَ لِلْعُلَمَاءِ مَقْدَارًا ، وَأَجْزَلَ نَعَمَهُ طَهِيمٍ إِذْ أَعْلَى لَمْ مَنَارًا ، وَوَقَّى  
بِسَوَاءِ الطَّرِيقِ مَنْ أَقْدَى بِهِمْ إِرَادًا وَأَصْدَارًا ؛ أَشْرَعَتْ هِمَمُهُمُ الْعَلِيَّةُ فِي حَلَبَةِ  
السَّبَاقِ فَهِيَ لَا تُجَارَى ، وَتَحْلُوا بِالْمَقَانِرِ جَهْرًا وَقَدْ عَجَزَ غَيْرُهُمْ أَنْ يَحْتَلَى بِهَا إِمْرَارًا ؛  
أَبْرَزَ بِهِمْ فِي هَالَاتِ الْمَقَانِرِ أَفْئَارًا ، وَأَزَالَ بَضِيَاءَ عُلُومِهِمْ رَيْبَ الشَّكِّ حَتَّى عَادَ لَيْلُ  
الْجَهْلَةِ نَهَارًا ؛ جَعَلَهُمْ لِدِينِهِ أَنْصَارًا ، وَصَيَّرَهُمْ نُجْبَةَ أَصْفِيَانِهِ إِذْ أَوْدَعَهُمْ مِنَ الْمَعَارِفِ  
أَسْرَارًا ، وَأَخْتَصَمَهُمْ بِكَوْنِهِمْ وَرَثَةً أَنْبِيَائِهِ : وَتَاهِيكَ بِهَا نَحَارًا .

أَحْمَدُ مُحَمَّدٌ مِنْ هُدًى إِلَى الْحَقِّ جَعَلَهُ شِعَارًا ، وَاسْتَضَاءَ بُنُورُ الْهُدَى قَلْبًا إِلَى  
مَوْلَاهُ فِي حَالَتِي سِرِّهِ وَجْهِيهِ أَفْقَارًا ، وَعَجَزَ عَنْ شُكْرِهِ مَا اسْدَى إِلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ لِمَا تَوَالَى  
طِيَهُ وَبَلَّهَا مِذَارًا ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ تَصْدِيقًا وَإِقْرَارًا ،  
وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَالْأَصْنَامُ قَدْ صُدَّتْ جِهَارًا ، وَالْكَفَّارُ قَدْ أَعْرَضُوا  
عَنِ الْحَقِّ اسْتِجَارًا ؛ فَقَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ أَتْقِيَارًا ، وَقَهَرَ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ أَفْقَارًا ،  
وَأَحْمَدُ بَضِيَاءُ نُورِهِ الْبَاطِلِ وَأَهْلُهُ إِهْدَارًا ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَحِيَّةُ صَلَاةٍ  
تَزِيدُنَا فِي دِينِنَا اسْتِجَارًا ، وَتُحِطُّ عَنَّْا مِنْ قَبْلِ الذُّنُوبِ أَوْزَارًا ، وَتُبَوِّزُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ  
تَعَالَى فِي دَارِ الْخُلُودِ قَرَارًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ وَضَعَ لِنَدْوَى الْأَبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ ، وَأَتَضَحَّ عِنْدَ ذَوَى الْأَسْرَارِ وَالسَّرَائِرِ ؛  
وَأَسْتَقَرَّ عِنْدَ ذَوَى الْقُلُوبِ السَّلِيمَةِ ، وَالْقَوْلِ الرَّابِحَةِ الْمُسْتَعْمِلَةِ ؛ أَنْ مَنَزَلَةَ عِلْمِ  
الشَّرِيعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَعْلَى الْمَنَازِلِ ، وَفَضْلُهُ أَفْضَلُ الْمَآثِرِ وَأَثَرُ الْفَضَائِلِ ؛ وَخُصُوصًا  
مَعْرِفَةُ فَرَاصِدِ أَحْكَامِ أَعْمَالِ الْمُكَلَّفِينَ بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، الَّتِي مَنَ عَلَيْهَا وَعَمِلَ بِهَا  
وَعَلَّمَهَا فَقَدْ سَمِعَ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ ؛ إِذْ هِيَ الشَّرِيعَةُ الْجَامِعَةُ لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،

النَّاحِيَةُ لِمَا خَلَقَهَا مِنَ الشَّرَائِعِ الْغَايَةِ ، الْبَاقِيَةُ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ وَعِيدُ اللَّهِ وَكُلُّ شَرِيعَةٍ سِوَاهَا دَائِرَةٌ ، فَقَدْ أَعْظَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ حَفِظَهَا عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ ، إِذْ جَعَلَهُ وَقَايَةً لِمَنْ مِنْ مَهَالِكِ الْجَهْلِ وَجُنَّةً ، وَوَعَدَهُ أَنْ يَنْزِلَ فِي أَهْلِ مَنَازِلِ الْجَنَّةِ ، لِمَا شَهِدَتْ بِهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ . فَتَبَّهَ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ أَقْوَى أَسْبَابِ الْعِبَادَةِ ، إِذْ خَصَّصَهُ بِهِ وَحَصَّهُ عَلَى أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الزِّيَادَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَسْمُرُ تَوَالِيَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ . فَتَقَى يَذْكُرُهُمْ بَعْدَهُ ، لَكُونِهِمْ أَفْضَلُ الْخَلَائِقِ عِنْدَهُ . وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَسْمُهُ ، وَتَقَدَّسَ مَلِكُهُ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . فَأَوْضَحَ بِذَلِكَ أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ خَلْقِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِذْ وَصَفَهُمْ وَخَصَّهُمْ بِأَنَّهُمْ الْخَائِفُونَ مِنْهُ الْآتِقِيَاءُ . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ" . وَقَالَ أَيْضًا : "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ" . وَقَالَ أَيْضًا : "أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونَةٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا وَالَاهُ ، وَطَلَّمَ وَتَعَلَّمَ" .

وَلَمَّا كَانَ فَلَانٌ - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى تَسْلِيْدَهُ وَتَوَفِيْقَهُ ، وَبَسَّرَ إِلَى الْخَيْرَاتِ طَرِيقَهُ - مِمَّنْ شَبَّ وَنَشَأَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَالْقَضِيْلَةِ ، وَتَخَلَّقَ بِالْأَخْلَاقِ الْمَرْضِيَّةِ الْجَمِيلَةِ الْجَلِيلَةِ ، وَتَحَبَّبَ السَّادَةَ مِنَ الْمَشَافِخِ وَالْفُقَهَاءِ ، وَالْقَادَةَ مِنَ الْأَكْبَارِ وَالْمُفَضَّلَاءِ ، وَاشْتَغَلَ مَلِيهِمْ بِالْعِلْمِ الشَّرِيفِ أَشْتَغَالًا يُرِضِي ، وَإِلَى نَيْلِ السَّعَادَةِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - يُفْضِي - أَسْتَخَارَ اللَّهَ تَعَالَى سَيِّدُنَا وَشَيْخُنَا وَبَرَكَتُنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ ، الْحَبْرُ الْقَهَّامَةُ ، فَرِيدُ دَهْرِهِ ، وَنَسِيْجُ وَحْدِهِ ، جَمَالُ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحَدُ الْمُفَضَّلَاءِ ، عَمُدَةُ الْفُقَهَاءِ وَالْمُصَلِّحَاءِ ، سِرَاجُ الدِّينِ ، مُقْنَى الْإِسْلَامِ وَالْمَسَامِينِ ، أَبُو حَفِصٍ عَمْرُ بْنُ سَيِّدِنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ ، الْعَامِلُ ، الْأَوْحَدُ ، الْكَامِلُ ، الْقُدْوَةُ ، الْمَرْحُومُ نُورُ الدِّينِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيٌّ ، ابْنُ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ،



الشيخ الصالح، الزاهد، العابد، الخاشع، الناسك، القدوة، المرحوم شهاب الدين،  
بركة الصالحين، أبي العباس أحمد، أبي سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ  
الصالح، القدوة، العارف، المرحوم، شمس الدين، أبي عبد الله محمد الأنصاري  
الشافعي، أدام الله تعالى النفع به وبركته، وأشركنا والمسلمين في صالح أدينته،  
بمحمد وآله وصحبه وصيرته .

وَأَذِنَ وَأَجَازَ لِفُلَانِ الْمَسْئِي فِيهِ ، أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى مَعَالِيهِ ؛ أَنْ يُدْرَسَ مَذْهَبُ  
الإمام المجتهد المطلق العالم الرباني ، أبي عبد الله محمد بن إدريس المظلي ، الشافعي ،  
رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مقبلة ومتواه ؛ وَأَنْ يقرأ ما شاء من الكتب  
المصنفة فيه ؛ وَأَنْ يُعيد ذلك لطالبيه ؛ حَيْثُ حَلَّ وَأَقَامَ ، كَيْفَ مَا شَاءَ مَتَى شَاءَ  
وَأَيْنَ شَاءَ ، وَأَنْ يُفَيَّ مَنْ قَصَدَ اسْتِفْتَاهَ خَطَاً وَلَفْظاً ، عَلَى مَقْتَضَى مَذْهَبِهِ الشَّرِيفِ  
المشار إليه : لِعَالِيهِ بَدِيَانَتُهُ وَأَمَانَتُهُ ، وَمَعْرِفَتِهِ وَدِرَازَتُهُ ، وَأَهْلِيَّتِهِ لِنَاكَ وَكِفَايَتِهِ .

فَلْيَتَّقِ أَيْدِ اللَّهِ تَعَالَى هَذِهِ الْحُلَّةَ الشَّرِيفَةَ ، وَلْيَتَّقِ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى ذِرْوَةَ هَذِهِ  
المرتبة المنيقة ؛ وَلْيَعْلَمْ قَدْرَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ، وَأَسَدَيْهِ مِنَ الْإِحْسَانِ الْوَافِرِ إِلَيْهِ ؛  
وَلْيُرَاقِبْهُ مِرَاقَبَةً مِنْ عِلْمِ أَطْلَاعِهِ عَلَى خَاسَةِ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَلْيُعَامِلْهُ مَعَامِلَةً  
مَنْ يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يُخْفِيهِ الْعَبْدُ وَمَا يُبْدِيهِ فِي الْوُرُودِ وَالصُّدُورِ ؛ وَلَا يَسْتَكْفِ  
أَنْ يَقُولَ فِيمَا لَا يَعْلَمُ : لَا أَعْلَمُ : فَذَاكَ قَوْلُ سَيِّدِ قَائِلِهِ . وَقَدْ جَاءَ : "جُنَّةُ الْعَالِمِ لَا أُدْرِي  
فَإِنْ أَخْطَأَهَا أَصِيبَتْ مَقَالَتُهُ" فَاللهُ تَعَالَى يَرْزُقُنَا وَإِيَّاهُ التَّوْفِيقَ وَالتَّحْقِيقَ ، وَيَسْلُكُ بِنَا  
وَبِهِ أَقْرَبَ طَرِيقٍ ؛ وَيَهْدِينَا إِلَى سِوَاهِ السَّبِيلِ ، فَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

وَكُتِبَ فِي تَارِيخِ كَذَا .

وَكُتِبَ شَيْخُنَا الشَّيْخُ سِرَاجُ الدِّينِ الْمَشَارُ إِلَيْهِ تَحْتَ ذَلِكَ بِمَدْحِ اللَّهِ تَعَالَى  
مَا صُورُهُ :

ما نُسِبَ إلى في هذه الإجازة المباركة من الإذن لفلان - أدام الله تعالى النفع به ، وأجرى كل خير بسببه ؛ بتدريس مذهب الإمام المظلي ، محمد بن إدريس الشافعي ، قدس الله روحه ، ونور ضريحه ؛ والإفتاء به لفظاً وخطاً صحيح . فإنه ممن فاق أقران عصره بذكائه ، وبرع طبعه بالاستحضار وتحرير المقول ووقائه .

وقد أعتنى وفقه الله تعالى وإياي من جملة محفوظاته بـ "مختصر الجوامع" لشيخنا العلامة كمال الدين النشائي فعمده الله تعالى بفقرانه ، فاستحضر بحضرتي مواضع منه جمه ، وأزال يديع فصاحته جملة منظمه ؛ وأظهر من مشكلاته ما يعجز عنه اللبيب ، ومن أغاريه ما يقف عنده البارع الأريب .

فلتقي الله حينئذ فيما بيديه ، وليصحرو الصواب في لفظه وخطه وليراقب الله فيه ؛ فإنه موقع عن الله تعالى فليحذر الزلل ، ومعاولة الخطأ والخلل ؛ ويستحضر ما أشملت عليه من الجلاله ، فإن الله تعالى تولأها بنفسه حيث قال : (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) .

وأجزت له مع ذلك أن يروي عنّي ما لي من التأليف ، ومنها "جامع الجوامع" أعان الله على إكماله ، وكذا شرح "صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري" . ومنها "البدر المير" في تخرج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير" للإمام أبي القاسم الرافعي . وبه تكمل معرفة الفقيه وبصير محدثاً قبيها .

وأجزت له مع ذلك ما جاز لي وعني روايته بشرطه عند أهله ، زاده الله وإياي من فضله . ومنها الكتب الستة : "البخاري" و"مسلم" و"أبو داود" و"الترمذي" و"النسائي" و"أبن ماجه" . والمسانيد : "مسند أحمد" و"مسند الشافعي" وغير ذلك .

وكان ذلك في تاريخ كنا . وكتب عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي ،  
غفر الله لهم : حامدا ومُصَلِّيا ومُسَلِّما ، وأشهد عليه جماعة من أهل العلم بأخيه .

قلت : وتكون ألقاب المجاز على قدر رتبته ، مثل أن يكتب له : «الفقير إلى الله  
تعالى ، الشيخ ، الإمام ، العالم ، العايل ، الأوحَد ، الفاضل ، المقيد ، البارِع ، علم  
المفيعين ، رُحْلَةُ القاصدين ، فلان الدين ، أبو فلان فلان بن فلان» (بحسب رتب  
آبائه) . وإنما اُهمِلْتُ ذِكْرُ الألقاب في هذه الإجازة ، من حيث إنه لا يليق بأحد  
أن يذكر ألقاب نفسه في مُصَنَّف له ، لأنه يصير كأنه اتخا على نفسه .

وأما الإجازة بِعَرَضِية الكُتُب ، فقد جرت العادة أن يَمُضَّ الطَّلَبَةُ إنا حفظ كتابا  
في الفقه ، أو أصول الفقه ، أو النحو ، أو غير ذلك من الفنون ، يَرْضُهُ على مشايخ  
العصر ، فيقطع الشيخ المروض عليه ذلك الكتاب ، ويفتح منه أبوابا ومواضع ،  
يستقرئها إياها من أى مكان أتمنى ، فإن مضى فيها من غير توقُّف ولا تَلَمُّ ، استدل  
بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب ، وكتب له بذلك كل من عرَضَ  
عليه ، في ورقي مرصع صغير ، يأتي كل منهم بقدر ما عنده من الملكة في الإنشاء ،  
وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها : فمن عالٍ ، ومن هابط . وربما  
خفف بعضهم فكتب : «وكذلك عرَضَ على فلان» ، أو : «عرَضَ على وكتبه  
فلان» . إما رِياسَةً وتأييًّا عن شغل فكره وكَدِّ نفسه فيما يكتبه ، وإما عجزا عن  
مُضَاهَاة من يكتب معه .

وقد اخترت أن أضح في هذا المحل ماوافق الصنعة ، وجرى على أسلوب البلاغة .

فمن ذلك ما كتب به الشيخ الإمام العلامة ، لسان العرب ، وحجة الأدب ، بدر  
الدين محمد بن أبي بكر الخزومي المالكي ، للتعليل النليل الذي تنهى الألقاب ولا نهاية

لَمَنَاقِيهِ، شَهَابُ الدِّينِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ سَيِّدِنَا الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، ذِي الْأَوْصَافِ  
الَّتِي تَكِلُ شَبَابَ الْأَنْسَيْنِ عَنْ حَلِّهَا، شَمْسُ الدِّينِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الْعُمَرِيُّ الشَّافِعِيُّ،  
حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ "عَمَلَةُ الْأَحْكَامِ" لِلْحَافِظِ عَبْدِ النَّبِيِّ، وَ"شُئُورُ الذَّهَبِ" لِلشَّيْخِ  
جَمَالِ الدِّينِ بْنِ هِشَامٍ، فِي رَمَضَانَ سَنَةِ سَبْعِ عَشْرَةِ وَثَمَانِمِائَةٍ، وَهُوَ :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ عَلَى كَرَمِهِ الَّذِي هُوَ عَمَلُنَا فِي النَّجَاةِ يَوْمَ الرِّضَى وَنَاهِيكَ بِهَا عَمَدَهُ،  
وَمُسْنَدُنَا الَّذِي لَا يَزَالُ لِسَانُ الدُّوْقِ يَرَوِي حَلِيَّتَ حَلَاوَتِهِ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ مِنْ  
طَرِيقِ شُهَدَائِهِ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي أَحْيَا بُرُوجَ سُنَّتِهِ الشَّرِيفَةِ  
كُلِّ مَنْ جَاءَ وَمِنْ ذَهَبٍ، وَأَعْرَبَتْ كَلِمَاتُهُ النَّفِيسَةَ عَنْ عُقُودِ الْجَوْهَرِ وَ"شُئُورِ  
الذَّهَبِ" وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ أَحْسَنُوا الرِّوَايَةَ وَالذِّرَايَةَ، وَبَنَوْا الْأَمْرَ عَلَى أَسَاسِ  
التَّقْوَى وَأَعْرَبُوا عَنْ طُرُقِ الْمَيْدَانِ؛ مَا أَنْهَلَ مِنْ أَفْقِي الْكَرَمِ الْمُحَمَّدِيِّ كُلِّ عَارِضٍ  
صَيِّبٍ، وَتَحَلَّتِ السَّمَاعُ وَالْأَفْوَاهُ مِنْ أَخْبَارِهِ بِنَفَاسِ الشُّئُورِ الْبَدِيعَةِ وَحَلَاوَةِ الْكَلِمِ  
الطَّيِّبِ - فَقَدْ عَرَضَ عَلَى الْجَنَابِ الْعَالِي الْبَارِعِيِّ، الْأَوْحَدِيِّ، الْأَلْمَعِيِّ، الْوَدَّاعِيِّ،  
الشَّهَابِيِّ، شَهَابُ الدِّينِ، نُجْبَةُ الْمُجَبَّاءِ، أَوْحَدُ الْأَيَّاءِ، نَجْمُ السَّادَةِ الْعَظْمَاءِ، سُلَالَةُ  
الْأَحْيَاءِ الْعُلَمَاءِ، أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ سَيِّدِنَا الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ الْعَالِي، الْمَوْلَوِيِّ، الْعَالِمِيِّ،  
الْفَاضِلِيِّ، الْبَلِيغِيِّ، الْمُفِيدِيِّ، الْفَرِيدِيِّ، الْمُفَوِّهِ، الشُّمَعِيِّ، الْعُمَرِيُّ، أَطَابَ  
اللَّهُ حَلِيَّتَهُ، وَجَمَعَ لَهُ بِالْإِعْرَابِ عَنْ مُلَوِّهِمَةِ قَدِيمِ الْفَضْلِ وَحَدِيثِهِ - طَائِفَةٌ  
مُتَفَرِّقَةٌ مِنْ "عَمَلَةِ الْأَحْكَامِ" لِلْحَافِظِ عَبْدِ النَّبِيِّ الْقَلْبَسِيِّ، وَ"شُئُورِ الذَّهَبِ" لِلْعَلَامَةِ  
جَمَالِ الدِّينِ بْنِ هِشَامٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمَا - عَرَضًا قَصُرَتْ دُونَهُ الْقَرَائِحُ عَلَى طَوْلِ  
جَهَنِمِهَا، وَكَانَتْ الْإِقْلَاطُ الْمُوَرَّدَةُ فِيهِ لِأَمَّةٍ حَرَبِ الْفِتْنَةِ الْبَاغِيَةِ عَلَيْهِ فَأَحْسَنَ عِنْدَ  
الْعَرَضِ فِي سَرْدِهَا، وَزَيْنَ أَبْقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى تِلْكَ الْأَمَّا كَنْ بِطَيِّبِ لَحْنِهِ وَإِعْرَابِ لَقِظِهِ،  
وَأَدَنَ أَمْتِجَانِهِ فِيهَا بِأَنَّ جَوَاهِرَ الْكَافِيَيْنِ قَدْ حَصَلَتْ يَجْمَعُهَا فِي خَزَانَةِ حِفْظِهِ .

فَبَدَأَ هُوَ مِنْ حَافِظِ رَوَيْ حَدِيثَ فَضْلِهِ عَلَيَّ ، وَتَلَا عَلَى الْأَسْمَاعِ مَا أَقْضَى  
تَقْدِيمَهُ عَلَى الْأَقْرَانِ فِيهِ دَرَهُ مُقْتَمًا وَتَالِيًا ؛ وَسَارَ فِي حُكْمِ الْعَرْضِ عَلَى أَغْلَى طَرِيقِ  
وَنَاهِيكَ بِالسَّيْرِ الْعُمَرِيَّةِ ، وَصَانَ مَنْطِقَهُ عَنْ خَلَالِ الْمَعَانِي وَكَيْفَ لَا ؟ وَقَدْ تَمَسَّكَ  
بِطَرِيقَةِ وَالِدِهِ وَهِيَ "الْمُقْتَمَةُ الشَّمْسِيَّةُ" ؛ وَمَا بَقِيَ أَقْرَانُهُ فَكَانَتْ لَهُ زُبْدَةُ التَّفْصِيلِ  
فِي حَلَبَةِ السَّبَاقِ ، وَطَائِقِ بَيْنِ رَفِيعِ شَأْنِهِ وَخَفِضِ شَأْنِهِ وَلَا يُتَكَلَّمَنَّ هُوَ مِنْ هَذَا  
الْبَيْتِ حُسْنُ الطَّبَاقِ ؛ وَأَشْتَغَلَ فَلَمْ يَقَعْ التَّنَازُعُ فِي حُسْنِ دُخُولِهِ مِنْ بَابِ  
الْإِسْتِغَالِ ، وَنَصَبَ فِكْرَهُ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ فَمَعْنَى تَمِيْزِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ؛ وَتَوَقَّعَتْ نَارُ ذَهَبِهِ  
فَطَلَّتْ حَاسِدُهُ بِالْإِكْتِهَابِ ، وَرُوِيَتْ أَحَادِيثُهُ بِالْفَنَاءِ فِي الْعُلُوِّ إِلَى سَمَاءِ الْفَضْلِ وَلَا يَدَعُ  
إِذَا رُوِيَتْ أَحَادِيثُ الشَّهَابِ ؛ وَافْتَخَرَ مِنَ وَالِدِهِ بِالْفَاضِلِ الَّذِي أَرْتَمَعَ فِي دِيَارِ  
الْإِنْسَاءِ حَبْرَهُ ، وَهَزَّ الْمَعَاطِفَ بِتَوْقِيعِهِ الَّذِي لَا يَزَالُ يُجَرِّدُهُ وَيُجَبِّدُهُ ؛ وَوَشَّى الْمَهَارِقَ  
فَكَأَنَّمَا هِيَ رِيَاضٌ قَدْ غَرَّدَ فِيهَا بِسَجْمِهِ ، وَتَحَاوَا بِإِنْسَانِهِ الَّذِي هُوَ عُذْمَةُ الْمَتَادِينِ  
فَلَا عَجَبَ فِي رَفِيعِهِ ؛ وَنَظَّمَ بَيَانَهُ قَائِلِسُ الدَّرَرِ قَدَفَتْهَا بِالْعَيْنِ "صِحَاحُ الْجَوْهَرِيِّ" ،  
وَفُتِحَ بِجَيْشِ بَلَاحَتِهِ مَعَاقِلُ الْمَعَانِي الْمُتَمَتِّعَةِ وَحَسْبُكَ بِالْفَتْحِ الْعُمَرِيُّ :

بَيَانُهُ السَّحَرُ قَدْ أَخْفَى مَعَايِدَهُ \* لَكِنْ أَرَانَا لِمِصْرَ الْفَضْلِ إِشَاءَ

إِذَا أَرَادَ أَدَارَ الرَّاحِ مَنْطِقَهُ \* نَفْطًا وَيُطْرِبُنَا بِالنَّشْرِ إِنْ شَاءَ !

وَاللهُ تَعَالَى يُبْجِعُ نَفْسَهُ بِمَا يُصْبِحُ بِهِ الْحَاسِدُ وَهُوَ مُكَبَّدٌ ، وَيُقِرُّ عَيْنَهُ بِهَذَا الْوَلَا  
النَّجِيبِ حَتَّى لَا يَرِجَ يَقُولُ : أَشْكُرُ اللهَ وَأَحْمَدُهُ بِمُجْمَدٍ وَآلِهِ .



وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْبَاقِ ، لَوْلَدِي تَحِيَّاتِ الدِّينِ  
أَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدٍ ، حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ "الْمِنْهَاجُ" فِي الْفِقْهِ لِلتَّوَوِي ، فِي سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةِ  
وَعِشْرَةِ مِائَةِ ، وَهُوَ :

الحمد لله الذي أَوْضَحَ بَيِّنَاتِ الدِّينِ مِنْهَاجَ الْفَقْهِ وَأَثَارَهُ ، وَأَفْصَحَ لِسَانَهُ بِكَلَامٍ مِنْ  
عِنْدِ اللَّهِ وَأَثَارَهُ ، فَسَطَعَتْ أَنْوَارُ شَهَادِهِ لِمَنْ أَسْتَنْبَطَهُ وَأَثَارَهُ ، مَنْ يُرِيدُ اللَّهَ بِهِ خَيْرًا  
يُتَّقِ اللَّهَ فِي الدِّينِ وَيَرْفَعُ مَنَازِلَهُ ؛ وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمُخْصَوِّصِ بِعُمُومِ  
الرَّسَالَةِ ، وَالْمُنْصَوِّصِ فَضْلَهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الدَّلَالَةِ ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ نَجْمِ الْهُدَى ،  
وُشْهِبِ النَّامُوسِ وَالْإِقْتِدَا ،

وبعد ، فقد عَرَضَ عَلَى الْفَقِيهِ الْفَاضِلِ تَجَلُّلِ الْأَفَاضِلِ ، وَسَلِيلِ الْأَمَائِلِ ؛ دُوَاهِمَةَ  
الْعَالِيَةِ ، وَالْفِطْنَةَ الدِّيكِيَّةَ ، وَالْفِطْرَةَ الزَّكِيَّةَ ؛ نَحْمُ الدِّينَ ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَانٍ :  
نَفَعَ اللَّهُ بِهِ كَمَا قَفَعَ بِوَالِدِهِ ، وَبَتَّحَ لَهُ بَيْنَ طَارِفِ الْعِلْمِ وَتَالِيَةِ - مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ  
"الْمِنْهَاجِ" فِي فِقْهِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ الْمُطَّلَبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنَّا بِهِ ، تَالِيفَ الْحَبْرِ الْعَلَامَةِ  
وَلِيِّ اللَّهِ أَبِي زَكَرِيَّا بْنِ شَرْفِ بْنِ مَرْيَمَ النَّوَوِيِّ ، نَسَقَ اللَّهُ تَعَالَى ثَرَاهُ ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ  
مَأْوَاهُ ؛ دَلَّ حِفْظُهُ لَهَا عَلَى حِفْظِ الْكِتَابِ ، كَمَا قَفَعَ اللَّهُ لَهُ مَنَاجِيخَ الْخَيْرِ دَقَّةً وَجِلَّةً ،  
وَكَانَ الْعَرَضُ فِي يَوْمٍ كَذَا .



وَكُتِبَ عَلَامَةُ الْعَصْرِ الشَّيْخُ حُزْنَ الدِّينِ بْنِ جَمَاعَةَ مَا صُورَتْهُ :

كَذَلِكَ عَرَضَ عَلَى الْمَذْكُورِ بَاطِنُهَا عَرَضًا حَسَنًا ، مُحَرَّرًا مُهَذَّبًا مُجَادًا مُتَقَنًا ؛ عَرَضَ  
مِنْ أَتَمِّ حِفْظِهِ ، وَزَيْنِ مُحَسِّنِ الْأَدَاءِ لِقَطْعِهِ ، وَأَجْرَلِ لَهُ مِنْ عَيْنِ الْعَنَاءِ حَظَّهُ ، مَرَّرَ  
فِيهِ مُزُورَ الْهِنْدِلَاجِ الْوَسَّاعِ ، فِي قَسِيحِ ذِي السَّبَاعِ . وَقَدْ دَلَّنِي ذَلِكَ مِنْهُ - نَفَعَهُ اللَّهُ  
تَعَالَى وَقَفَعَ بِهِ ، وَوَصَلَ أَسْبَابَ الْخَيْرِ بِسَبَبِهِ ؛ عَلَى عُلُوِّ هِمَّتِهِ ، وَوُفُورِ أَرْجِيئَتِهِ ، وَتَوَقُّدِ  
فِكْرِهِ ، وَأَتْقَادِ فِطْنَتِهِ ؛ وَأَصْلُهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَرِيقٌ :

بَيِّنَةُ تِلْكَ مِنْهُمْ ضَيْرُ مُحَمَّدِيَّةٍ \* إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاعِلَةً شَرُّهَا الْبِدْعُ !

وقد أدت له أن يروى عنى الكتاب المذكور، وجميع ما يجوزلى وعن رايته  
من مصنفاتى وضريها من منظوم ومثثور، ومثقول ومثثور، ومثثور، بشرطه المعبر،  
عند أهل الأثر. وكتب فلان فى تاريخ كذا .



ومن ذلك ما كتبه لمن اسمه «محمد» ولقبه «شمس الدين» من أبناء بعض الإخوان:  
وقد عرض على «الأربعين حليتنا» للشيخ محيى الدين النوى رحمه الله، و«الورقات»  
فى الأصول لإمام الحرمين، و«اللمعة البليدة» فى النحو للشيخ أمير الدين أبى حيان  
دقة واحدة، وهو لثون عشرين، وهو:

الحمد لله الذى أطلع من درارى الأفاضل فى أفق النجاة شمساً، وأظهر من  
أفاضل الدرارى ما ينض به المخالف طرماً ويرفع به المخالف رأساً، وألحق بالأصل  
الكريم قرعة فى النجاة فطاب جنى وأغرق أصلاً وزكاً غرساً؛ وأبرز من ذوى  
الفطر السليمة من فاق بذكائه الأقران فأدرك العريفة فى تحه، وسما بفهمه الثاقب  
على الأمثال فامتضى وقهم «الورقات» لديه كالصفحة، ونرق بكرم بدايته المائدة بفاز  
الأربعين لثون العشر وأتى على ذلك بما يشهد له بالصحة، والصلاة والسلام على  
سيدنا محمد الذى عمّت بركة أسميه الشريف سميّه ففاض منها بأوفر نصيب، وخُصّ  
بإلهام التسمية به أولو الفضل والنهى؛ فما سمي به إلا كريم ولا سمي به إلا نجيب؛  
وعلى آله وصحبه الذين أئمت بهم روضة العلم وأزهرت، وأورقت شجرة المعارف  
وأثمرت .

وبعد، فقد عرض على فلان مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا، فز فيها مرود  
الصبا، وجرى فى ميدانها جرى الجواد فما حاد عن ستر الطريق ولا جأ .

وأما الإجازة بالمرويات على الاستدات : -

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصبلي رحمه الله على استدعاء كتب له به القاضي شهاب الدين أحمد الحنبلي خطيب بيت الآلهة ، وكتب الدست بالشام ، يطلب منه فيه الإجازة لنفسه ، وهو :

الحمد لله الذي إذا دعي أجاب ، وإذا أتم على الأديب بنوق أتى في نظمه ونثره بالشباب ، وإذا وهب البلغ فطرة سايمة لم يكن على حجاب .

نحمده على نعمة التي منها البلاغة ، وإتقان ما لصناعة الإنشاء من حسن الصياغة ، وصيد أرايد المعاني التي من أتمل فكره في اقتناصها أو روى [أين] رواه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة فطر الضمير على إخلاصها ، وجبل الفكر على اقتناء أدلتها القاطعة واقتناصها ، وجعل وقاية لقائلها يوم يضيئ على الخلائق فيسبح عراصها ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أنصح من نطق بهذا اللسان ، وجاء من هذه اللغة العربية بالنكت الحسان ، وحث على الخير وحض على الإحسان ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين رَوَوْا أقواله ، وبلغوا لمن لم يره سنته وأفعاله ، وعلموا أن هذه الشرمة المطهرة أذنتها الله تعالى له فلم تكن تصلح إلا له ؛ صلاة هامة الثفران ، نامة الرضوان ؛ ما أجاب يجب لمن استدعى ، وعملت إن في المبتدأ نصبا ولم تغير على الخير رفا ، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن [علم] الرواية من محاسن الإسلام ، وخصائص الفضلاء الذين تحقق لهم ذوائب الطروس وتنصب رماح الأعلام ؛ ولم تزل رغبة السلف تنور عليه ، وتسير أنامل إرشادهم للانام بالحث إليه . قيل للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ما تشتهي ؟ فقال : سند عال ، وبيت خال . وما برح الأئمة الكبار يرمحون إلى أقاصي



الأقاليم في طلبه، ويحملون المشاق والمتاعب فيه ويحملون بسببه؛ فقد ارتحل الإمام الشافعي رضي الله عنه وغيره إلى عبد الرزاق بايمن، وكان فيمن أخذ عنه ممن هو أحق بالفضل عليه قن؛ ولكنه قن يحتاج إلى ذوق يعاضد من لا يعانده، وأمر لا يصبر عنه من آلفه وما يعلم الشوق إلا من يكابده؛ فاعند من طلب الرواية أجل من أبناء جنسه، ولا عند المفيد المفيد أحلى من قوله: حلتنا فلان أو أئسنا فلان لنفسه، ولكن:

ماكل من طلب المال يافئنا \* فيها ولا كل الرجال خولا!

ولما كان الشيخ الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ .... ممن نظم قودت الدرر في أفلاكه لو آسقت، وكتب فرقم الطروس وشأها، وشأها من زهرات الرياض ماغشاها؛ وحل المترجم فسر عقل كل لبيب وخلب لبه، ووقع على القصد فيه فكانت شئ من النيب خص الله به قلبه، وأتى فيه بدائع ما تساوى ابن الصبري ولا ابن (١) عندها بحبه؛ وخطب فصدع القلوب، وأجرى ذنوب المدايع من أهل الذنوب، وحذر فكانت أصابعه كاللحان إصمق وسامعه يبكى بأجفان يعقوب؛ كأنما هو في حلة الخطابة يندري غمامه، أو منبره غصن وهو فوقه حمامه، أو بحر وفضائله مثل أمواجه ودره يحكي كلامه؛ لو رآه "ابن نباتة" ما أورت بالفصاحة أعواده، أو "ابن المثير" ماركت بالبلاغة أبراده، أو "ابن تيمية" ما حطيت بالحنود أجناده؛ فأراد أن يثرف قدرى، ويثرف ثركى؛ فطلب الإجازة مني وأنا أحق بالأخذ عنه، وأستدعي ذلك مني: ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

(١) يباح بالأصول وله: ولا ابن نباتة.

فَنَعَمْ قَدْ اسْتَحَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَجَزْتُ لَهُ مَا يَحْزُلِي تَسْمِيْعُهُ ، وَذَكَرْتُ هُنَا شَيْئًا  
مِنْ مَرْوِيَّاتِي وَأَشْيَاخِي رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَذَكَرْتُ مُصَنَّفَاتِي :

إِجَازَةُ قَاصِرٍ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ \* يَسِيرٌ مِنَ الرَّوَايَةِ فِي مَقَازِهِ :

لَمَنْ مَلَكَ الْقَضَائِلَ وَأَقْتَنَاهَا \* وَجَازَ مَدَى الْعُلَى سَبْقًا وَحَازَهُ !



وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّائِغُ عَلَى اسْتِدْعَاءِ  
بَعْضٍ مِنْ سَأَلِهِ الْإِجَازَةَ .

أَقُولُ بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُحِبُّ مِنْ اسْتِجْدَائِ كَرَمِهِ ، وَلَا يُحِبُّ مِنْ اسْتِدْعَائِي  
نَمَمَتِهِ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَخِدْمَتِهِ وَمَا أَسْوَدَ مَدَمُهُ : (١)

أَثَرْتُ الْجَوَى بِي إِذْ أَرَدْتُ جَوَابِي \* وَعَظَمْتُ خَطِيئِي إِذْ قَصَبْتُ خَطَايِي :

وَمَنْ أَنَا فِي الدُّنْيَا أُجِيبُ وَمَنْ أَنَا ! \* أُجِيزُ؟ مَضَى الْأَشْيَاخُ تَحْتَ تُرَابِ !

عَجِيبٌ لَطْلَابٌ لَنَيْنَا تَحَقُّقُوا \* وَكَمْ قَدْ أَنَا قَهْرُنَا بِجَبَابِ !

نَحْنُ إِلَى الْمَوْلُوحَةِ أَمْرُنَايَ \* عَرَبِيَّاهُ بِالْعَذِيبِ عَذَابِ (٢)

يَا أَهْلَانَا : إِنَّ بِضَاعَتَنَا فِي الْعِلْمِ مُزْجَاهُ ، وَبِضَاعَتُنَا فِي الْوَقْتِ مُزْجَاهُ ، وَنَسِمْ أَخْبَارَهُ  
عَلِيلَ ، وَأَدَبَ إِخْبَارَهُ قَلِيلَ ؛ وَتَصَانِيفِي وَجْهٌ أَكْثَرُهَا مُسَوَّدَةٌ ، وَأَمَالِي فِي تَبْيِيضِهَا  
لِقِصْرِ الْمَهْمِ مَمْتَدَّةٌ ؛ سُبُلْتُ قَدِيمًا مِنْ بَعْضِ الْفَضْلَاءِ أَنْ أُعْلِمَهَا ، فَكَتَبْتُ فِيهَا رِسَالَةً  
لَا أُعْرِفُ لِمَقَرِّ الْأَثَدَانِ حَلَّتْهَا ؛ وَمَنْ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَصَانِيفِ أَنْتَرِ ، وَمَقَاطِيعِ إِنْ لَمْ  
تَكُنْ كَالْزَهْرِ فَهِيَ كَالزَّهْرِ ؛ ثُمَّ عَدَدْتُ نِيفًا وَثَلَاثِينَ مُصَنَّفًا ، مِنْهَا "تَجْمَعُ الْفَرَائِدُ"  
فِي سِتِّ عَشْرَةِ مَجْلَدَةٍ . ثُمَّ أَتَشَدُّ فِي أَنْتَرِ ذَلِكَ :

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَمْ يَهْدِ إِلَيْهِ مَعَ دَقَّةِ الْبَحْثِ .

(٢) فِي كَشَفِ الظُّلُومِ : ثَمَّةٌ عَشْرُ مَجْلَدَاتٍ .

وَلَقَدْ شَرَّفْتُ قَدْرِي \* بِنَفْسٍ مِنْ هَدَايَا:  
بِنَقَامِ شَنْفِ السَّمْعِ يَدْرُ كَالثَنَائَا.  
فَارْوَيْتَنِي وَأَرْوَيْتَنِي \* وَأَغْنَى عَنْ شَدِّ الْمَطَايَا،  
وَأَتَيْتَنِي الْفَضْلَ وَحَصَّلْتَنِي \* وَأَحْظَى مِنِّي بِمَزَايَا،  
وَتَحَرَّ الصَّدَقَ وَأَعْلَمَ \* أَنَّهُ خَيْرُ الْوَصَايَا !!!  
أَجَزْتُ لَكَ أَنْ تَرَوِيَ هَذِهِ وَغَيْرَهَا عَنِّي، وَلَكَ الْفَضْلُ فِي قَبُولِ ذَلِكَ مِنِّي .

### الصنف الثاني

( التقریضات التي تكتب على المصنّفات المصنّعة والقصائد المنظومة )

قد جرت العادة أنه إذا صنّف في فنٍّ من الفنون أو نظم شاعراً قصيدة فأجاد فيها أو نحو ذلك ، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقریض والمُدح ، ويأتي كلٌّ منهم بما في وسعه من البلاغة في ذلك .

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي على مُصنّف وضمه الشيخ تاج الدين علي بن الدرهم الموصلي الشافعي في الاستدلال على أن البسملة من أول الفاتحة ، وهي :

وَقَعْتُ عَلَى هَذَا التَّصْنِيفِ الَّذِي وَضَعَهُ هَذَا السَّلَامَةُ ، وَنَشَرَهُ فِي الْمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَعْلَامَهُ ، وَأَصْبَحَ وَنَسَبَتْهُ إِلَيْهِ أَشْهُرُ عِلْمٍ وَأَبْهَرُ عِلَامَةٍ ؛ فَأَقْسِمُ مَا سَامَ الرُّوحُ حِدَاتِهِ ، وَلَا شَامَ أَبُو شَامَةَ بَوَارِقَهُ ؛ كُلُّ الْأُمَمَةِ تَعْتَرِفُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَدِلَّةِ ، وَكُلُّ التَّصَانِيفِ تَهْوِلُ أَمَامَهُ : بِسْمِ اللَّهِ ؛ كَمْ فِيهِ مِنْ دَلِيلٍ لَا يُعَارِضُ بِمَا يَقْضِيهِ ، وَكَمْ فِيهِ مِنْ حُجَّةٍ يَكِلُ عَنْهَا الْخَصْمُ لِأَنَّ عَقْلَهُ عَلَى عَمَلِكِ النَّقْدِ يَرْضَاهُ ؛ قَدْ أَيْدَمَ مَا أَدَّاهُ بِالْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ ، وَقَتْلَ مَذْهَبِ كُلِّ إِمَامٍ سَبَقَ وَمَا عَقَرَهُ ؛ لَقَدْ مَرَّ الشَّافِعِيُّ بِنَصِّ

قوله الذى هدّبه ، وجعل أعلامَ منعه منعه ؛ وأتى فيه بَنَكِتِ تُطْرِبُ من  
أسرار الحَرْفِ ، وقوائد عُرِفَ بها ما بين ابن الترهيم وبين البونى من البون  
فى تفاوتِ الصّرفِ :

أضكِّمَ به مُصَنَّفًا \* فاقَ تصانيفَ الورى !  
لَبَّلِ المِدادِ فيه بالَمَعْنَى المُنِيرِ أَقْرَأ !  
كَمْ فيه بُدْ مُجْمِية \* قد حاكه مُحَرَّرًا ،  
وكَمْ دَلِيلَ سَفِيه \* إذا أَلْتَقَى خُصْمًا قَرِئًا .  
فَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَعْدِهِ \* مُحَالِفٌ قَطُّ بَرِئًا !!



ومن ذلك ما كتب به المَقَرُّ الشَّهابُ بنُ فضيل الله على قَصِيدَةِ مِيمِيَّةٍ ، للشيخ  
غَرَسُ الدِّينِ خليل الصَّفَدِيِّ المعروف بالصِّلَاحِ الصَّفَدِيِّ ، مدح بها الأمير سيف  
الدين ألبابى الدَّوَادَارِ النَّاصِرِيّ ، فى شهور سنة تِسْعٍ وعشرين وسبعمائة ، وهى :

وقفت على هذه القصيدة التى أشرقت معانيها فكانت تُرى ، وتمكّنت قوافيها  
فاستمسك بها الأدبُ لَمَّا كانت المِياثُ فيها كالعرَا ؛ فوجدتها مشتملةً من البلاغة  
بوزنها على البحر المحيط ، لطيفةً لا تُعْاَشُ بأمثالها من الكلام المُركَّبِ لأنها من البسيط ؛  
فنظرتُ إليها مُكتَسِبًا من بيانها سحرَ الحَدَقِ ، مُتَعَجِّبًا من مُنِشِئِهَا لِفَرَسٍ يُسْرِعُ  
الإيمَارَ فى الورقِ ؛ ثم فطنْتُ إلى أَنَّ الممدوحَ بها أعزّه الله تعالى بَحَثَ دِيَمِهِ فَرَوَّضَتِ  
الطُّرُوسَ ، وَبَرَّحَتْ مَنَاقِبُهُ بما كان مَصْنُوعًا فى أَخْبِيَةِ النُّفُوسِ ؛ وقد استوجبَ هذا  
المادحُ عَطْفَ الله تعالى قَلْبَهُ عليه من مَنَاقِحِهِ حَظًّا جَرِيلاً ، وَجَبًا يقول به لمن قصد  
المساواة به : لو كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَأَتَّخِذْتُ قُلُوءًا خَلِيلًا :

مَدَرُ الْمَلِكِ لَهُ = عَلَى الْمَلِكِ مَقَاعِدُ  
تَهْوِي إِلَى جَنَابِهِ الْقُصَادُ وَالْقَصَائِدُ!



قُلْتُ : وَكُنْتُ عَلَى قَصِيدَةٍ نَظَمَهَا شَرَفُ الدِّينِ عِيصَى بْنُ حِجَّاجٍ الشَّاعِرُ الْمَعْرُوفُ  
بِالْعَالِيَةِ ، مَدَحَ بِهَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفَّيَهَا أَنْوَاعَ الْبَدِيعِ ، ضَلَّى بِهَا يَدَيْهِ  
الصَّبِيَّ الْحَلِيَّ ، فِي شَهْرٍ سِتَّةَ أَثْنَيْنِ وَتَسْعِينَ وَسَبْعَانَهُ ، مَا صُورَتْهُ :

أَمَّا بَعْدُ حَمْدُ اللَّهِ الَّذِي أَحَلَّ يَحْيَى الْبَيَانَ ، وَأَقْدَرُ أَهْلَ الْبَلَاغَةِ مِنْ بَدِيعِ التَّخِيلِ عَلَى  
مَا يَشْهَدُ بِصِحَّتِهِ الْعِيَانُ ؛ وَذَلَّلَ بِرَائِضِ أَفْكَارِهِمْ صَعَابَ الْأَقْلَافِ فَاتَّطَعُوا مِنْ مُتَوْنٍ  
أَحْسَنَهَا الْحِبَادَ ، وَأَوْفَحَ لَهُمْ طُرُقَ الْفَصَاحَةِ فَفَتَتْ لَهُمْ - بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى - سَهْلَةً  
الْقِيَادِ ؛ وَأَحْيَى مَيِّتَ الْأَدَبِ بِرُوحِ الْأَنْفَاسِ الْعِيسَوِيَّةِ وَعَمَّرَ بِأَنْشِبَاءِ رُبُومَةِ الْخَالِيَةِ ،  
وَحَمَّى نَفْسَ الْفَضْلِ فِي رُقْعَةِ الْمُسَاجَلَةِ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهَا فَرَايَةُ الدَّعَاوِي وَلَا غُرُوَانُ  
حَمَاهَا الْعَالِيَةِ ؛ وَالصَّلَاةُ عَلَى رَسُولِهِ عَمِدِ صَلَّيَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْصَحَ مِنْ نَطْقِ الضَّادِ ،  
وَأَوْفَى جَوَامِعِ الْكَلِمِ فَلَنْ تَحْصُرَ مَعَانِي كَلَامِهِ الْأَعْدَادُ - فَإِنِّي وَقَفْتُ عَلَى الْبَدِيعَةِ  
الْبَدِيعَةِ الَّتِي نَظَمَهَا الْفَاضِلُ الْأَرْفَعُ ، وَاللَّوْذِيُّ الْمِصْقَعُ ؛ أَدِيبُ الزَّمَانِ ، وَشَاعِرُ  
الْأَوَانِ ؛ شَرَفُ الدِّينِ أَبُو الرُّوحِ عِيصَى الْعَالِيَةِ - أَطَى اللَّهُ تَعَالَى مَنَارَ آدِبِهِ وَرَفَعَهُ عَلَى  
مُنَاوِيهِ ، وَيُلَاحِظُ بِهِ مِنْ قَصَبِ السَّبْقِ مَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَرَاهُ عَلَى الْبُعْدِ مُضَاهِيهِ - فَالْفَيْتُهَا  
الدَّرَّةَ الثَّمِينَةَ غَيْرَ أَنَّهَا لَا تُسَامُ ، وَالْحَرِيدَةَ الْمُخَدَّرَةَ إِلَّا أَنَّهَا لَا يَلِيْقُ بِهَا الْأَحْتِشَامُ :

تُرُومُ أَحْتِشَامًا سَرَّ لَا لَاءَ وَجْهَهَا ! \* وَمَنْ نَا لِدَاتِ الْحُسَيْنِ يُحْيِي وَيَسْتُرُ !

قَدْ أَخَذْتُ مِنَ الْأَحْتِشَامِ مَقَالًا وَحِصْنًا لَا يُغْنَى ، وَأَتَقَبَّلْتُ مِنْ حُسَادِهَا مَكَانًا  
قَصِيًّا فَلَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَحْتَسِي :

وَلَمْ أَدِرْ - وَالْأَلْفَاظُ مِنْهَا شَرِيفَةٌ - \* إِلَى الْبَدْرِ تَسْمُوْا مَ إِلَى الشَّمْسِ تَرْتَقِيْ ؟ !  
أَرَادَ الْمُدْعَى بِلَوْغِ شَأْنِهَا الْجَرَى فِي مِضَارِهَا فِقِيلٌ : كَلَّا ، وَرَأَى الْمُلْحِدُ فِي آيَاتِهَا  
الْفَضْلَ مِنْهَا عِنَادًا فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا :

مَا إِنْ لَهَا فِي الْفَضْلِ مِثْلُ كَاشٍ ! \* وَبَيَّأَتْهَا أَحْلَى الْبَيَانِ وَأَمْثَلُ !  
فَأَدَسُوا فِي مُعَارَضَتِهَا غَيْرَ طَامِعِينَ ، وَتَلَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ بَلَاغَتِهَا : ( فَظَلَّتْ أَعْنَائُهُمْ  
لَهَا سَاضِعِينَ ) :

كَمْ جَمَلَتْ يَوْمَ الْوَعَى مِنْ جَنْدِلٍ \* صَاحَتْ بِهِ فَا أَلْطَاقُ تَصَبُّرًا !  
وَكَيْفَ لَا تَخْضَعُ لَهَا الْأَعْنَاقُ ، وَتَذِلُّ لَهَا رِقَابُ الشُّعْرَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ وَهِيَ  
الْيَتِيْمَةُ الَّتِي أُعْجِمَتِ الْأَفْهَامُ عَنْ مِثْلِهَا ، وَالْفَرِيْدَةُ الَّتِي أَعْتَرَفَ كُلُّ طَوِيلِ النَّجَادِ  
بِالْقُصُورِ عَنْ وَصْلِهَا :

زَادَتْ عَلَى ، مَنْ ذَا يُطِيقُ وَصَالَهَا ؟ \* وَمَحَلُّهَا مِنْهُ الثَّرَى أَقْرَبُ !  
وَأُنَى ! بَلْكَ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنَ الْحَاسِنِ بِزِمَامِهَا ، وَأَحَاطَتْ مِنَ الطَّلَاوَةِ بِكَامِهَا ؛  
وَأَحْدَقَتْ رِيَاضَ الْأَدَبِ بِحَدَائِقِهَا ، وَأَقْطَعَتْ مِنْ أَفْنَانِ الْغُنُونِ ثِمَارَ مَعَانٍ تَلَدُّ  
لِنَظَرِهَا وَتَحْمُلُوْا لَذَائِقَهَا ؟ :

وَلَا تُسْرِغْ بِهَا تَمَمًا وَلَا نَظَرًا \* فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلٍ !  
وَتَصَرَّفَتْ فِي جَمِيعِ الْعُلُومِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى الْبَسِيجِ مَقْصُورَةً ، وَشَرَفَتْ بِشَرَفِ  
مُتَعَلِّقِهَا فَاصْبَحَتْ بِالشَّرَفِ مَشْهُورَةً :

أَهَانَتِ الدُّرَّ حَقْنَى مَالِهِ تَمَنُّ ، \* وَأَرْخَصَتِ قِيَمَةَ الْأَمْثَالِ وَانْطَظَبَا !  
لَا جَرَمَ أَمَحَتْ أُمُّ الْقَصَائِدِ وَكُتِبَ الْقُصَادُ ، وَحَطَّ الرِّجَالُ وَمَنْهَلُ الْوَرَادِ ؛ فَارْتَبَتْ  
فِي الشُّهُرَةِ عَلَى " الْمَثَلِ السَّائِرِ " ، وَأَعْتَرَفَ بِفَضْلِهَا جَزَالَةُ الْبَادِي وَسُهولةُ الْحَاضِرِ :

فَلَا تَأْخِضْ فِي عَلَيَّهَا سَمَرٌ \* إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْعِلْمَاءِ أَمَّارُ!

فَأَعْجِبْ بِهَا مِنْ بَادِرَةِ جَمْعَتَيْنِ مُضَادَّتَيْنِ مُمَرِّ وَتَمَرٍ، وَقَرْنَتَيْنِ مُتَبَاعِدَتَيْنِ زَهْرٍ وَزَهَرٍ، وَجَادَتِ بِمُسْتَرْهِينِ رَوْضٍ وَنَهْرٍ؛ وَتَفَنَّنَتْ فِي أَسَالِيبِ الْكَلَامِ وَجَالَتْ، وَطَاوَعَتْهَا يَدُ الْمَقَالِ فَقَالَتْ وَطَالَتْ؛ وَدَعَتْ قُرْآنَ الرَّيِّسَةِ إِلَى الْمُبَارَاةِ فَتَكَسَّوْا، وَتَحَقَّقِ الْمُفْلِقُونَ الْحِجَرَ عَنْ مَوَاقِعَتِهَا وَلَوْ حَرَّصُوا :

فَأَعْرَبَ عَنْ كُلِّ الْمَعَانِي فَصِيحُهَا \* بِمَا عَجَزَتْ عَنْهُ زَلَّارٌ وَيَسْرُبُ!

إِنْ ذُكِرَتْ أَلْفَاظُهَا فَمَا الدُّرُ الْمُنْتَوَرُ؟ أَوْ جُيِلَتْ مَعَانِيهَا أُنْجِلَتْ الرُّوضُ الْمُطْغُورُ؛ أَوْ أُعْتَبِرَ تَحْرِيرُ وَزْنِهَا فَاقِ الدَّعْبَ تَحْرِيرًا، أَوْ قُوِلَتْ قَوَائِمُهَا بِغَيْرِهَا زَكَّتْ تَوْفِيرًا وَسَمَتْ تَوْفِيرًا؛ أَوْ تَقَرَّرَتْ أَسْكَنْتِ الْوُرُقِ فِي الْأَغْصَانِ، أَوْ ائْتَمَّنَتْ قَتَتْ إِثْرَ «كَعْبٍ» وَسَلَكَتْ سَبِيلَ «حَسَّانٍ»؛ فَأُطَانِبُهَا - لِقَصَاحَتِهَا - لَا يُعَدُّ أُطَانِبًا، وَإِيجَازُهَا - لِبَلَاغَتِهَا - يُمَدُّ عَلَى الْمَعَانِي مِنْ حُسْنِ السَّبْكِ أُطَانِبًا :

أَرَبُّنِي لِي مَفْزَاهَا أَخَا الْقَهْمِ لَمْنَهَا \* إِلَى الْفَضْلِ تُعْزَى أَوَّلَى الْخَيْدِ تُسَبُّ؟

هَذَا وَرَامَةُ مَطْلَعِهَا تَحُثُّ عَلَى سَمَاعِ بَاقِيهَا شَفْعًا، وَيَدْبِغُ مَخْلَصًا يَسْتَرْقِي الْأَسْمَاعَ لَطَافَةً وَيَسْتَرْقِي الْقُلُوبَ كَلْفًا، وَحُسْنُ اخْتِيَامِهَا تَكَادُ الثُّغُوسُ لِحَالَاةٍ مَقْطَعَةٍ تَنْوِبُ طَلِبَهَا أَسْفَا :

لَهَا مِنْ بَرَاهِينِ الْبَيَانِ شَوَاهِدُ : \* إِذِ الْفَضْلُ وَرَدَّ وَالْمَعَالَى مَوَارِدُ!

وَبِالْجَمْلَةِ فَمَا ثَرَمًا الْجَمِيلَةَ لِأَخْصَى، وَجَمَّاعُهَا الْمَانُورَةَ لِأَمْدٍ وَلَا تُسْتَقْصَى؛ فَكَأَنَّهَا «قُسْ بِنِ سَاعِدَةٍ» يَأْتُمُّ بِقَصَاحَتِهَا، وَ«أَبْنُ الْمُفَقَّعِ» يَتَّسِدِي بِهَيْئِهَا وَيَرَوِي عَنْ بِلَاغَتِهَا؛ وَ«وَأَمْرُ الْقَيْسِ» يَتَّهَسُّ مِنْ صَنِيعَةِ شِعْرِهَا، وَ«الْأَعْشَى» يَسْتَنْضِئُ بِطَلْعَةِ بَدْرِهَا؛ فَلَوْ رَأَاهَا «جَرِيرٌ» لَرَأَى أَنَّ نَظْمَهُ جَرِيرَةٌ أَقْرَفَهَا، أَوْ مِمِّعَهَا «الْفَرَزْدَقُ»

لعرف فضلها وتحقق شرفها ؛ أو بصريها « حبيب بن أويس » لأحب أن يكون من رواتها ، أو أطلع عليها « المتلبي » لتخيريين جميل ذاتها وحسن أدواتها :  
 فإلبصائر هادي من فضائلها \* يهدي أولى الفضل إن ضلوا وإن حاروا !  
 ولا يطيل فبلغ القول فيها أن آيتها المحكمة ناصحة لما قبلها ، وبرهانها القاطع قاض  
 بأن لا تسمح قريحة أن تسج على منوالها ولا يطمع شاعر أن يسلك سبيلها :  
 وآيتها الكبرى التي دل فضلها \* على أن من لم يشهد الفضل جاحد !

### الطرف الثاني

( فيما يكتب عن القضاة ، وهو على أربعة أصناف )

### الصنف الأول

( التقاليد الحكيمة ، وهي على مرتبتين )

### المرتبة الأولى

( أن تفتح بخطبة مفتوحة بـ « الحمد لله » )

ثم يقال : « أنا بعد » ثم يقال : « ولما علمنا من حال فلان الفلاني كذا وكذا ،  
 استخرن الله تعالى وقضنا إليه كذا وكذا ، فلباشر ذلك » ويوص بما يناسب .  
 ثم يقال : « هذا عهدنا إليك ، ومجتنا عند الله عليك ، فاعلم هذا واعمل به ، وكتب  
 ذلك عن الإذن الفلاني » .

وهذه نسخة تقليد :

الحمد لله الولي الحميد ، الفعال لما يريد ، نحمدك على ما أولانا من إحسانه فهو  
 المولى ونحن العبيد ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توصلنا إلى



جَنَّةٍ تَعِيْمُهَا مُقِيمٌ ، وَتَحِينَا مِنْ نَارٍ عَذَابُهَا شَدِيدٌ أَلِيمٌ ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ عَمَّا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ  
النَّبِيَّ الْكَرِيمَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْمُسْتَمْلِينَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْقَلْبِ السَّلِيمِ ؛  
وَمُسْلِمًا تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنْ مَرَّتَبَةُ الْحُكْمِ لَا تُعْطَى إِلَّا لِأَهْلِهَا ، وَالْأَقْصَى لَا يَنْتَسِبُ لَهَا إِلَّا مَنْ  
هُوَ كُفٌّ لَهَا ؛ وَمَنْ هُوَ مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْأَمَانَةِ وَالصَّبَاحَةِ ، وَالْعِفَّةِ وَالذَّيَّانَةِ ؛ فَنَ  
هَذِهِ صِفَتُهُ أَسْتَحَقُّ أَنْ يُوجَّهَ وَيُسْتَعْلَمَ ، وَيَرْفُقَ وَيَتَقَدَّمَ .

وَلَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِ فُلَانٍ الْفُلَانِيِّ الْأَوْصَافَ الْحَمِيدَةَ ، وَالْأَعْمَالَ السَّيِّدَةَ ؛ فَإِنَّهُ  
قَدْ حَوَى الْمَعْرِفَةَ وَالْعُلُومَ ، وَالْأَصْطِلَاحَ وَالرُّسُومَ ، وَجُمِعَتْ فِيهِ خَصَالٌ حَمَلْنَا عَلَى  
أَسْنَانَتِهِ ، وَقَوَّيْنَا عَلَى نِيَابَتِهِ ؛ - أَسْتَخَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى وَقَوَّضْنَا إِلَيْهِ كَذَا وَكَذَا .

فَلْيُبَاشِرْ ذَلِكَ مُتَمَسِّكًا بِحَبْلِ اللَّهِ الْمُتَيْنِ ، (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ  
الْمُحْسِنِينَ) وَلِيَجْتَنِبْ فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَفَصْلِ الْخُصُومَاتِ ، وَفِي النَّظَرِ فِي دَوَى الْعَدَالَاتِ  
وَالْتَّلَاسِ بِالشَّهَادَاتِ وَإِقَامَةِ الْبَيِّنَاتِ ؛ فَنَ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعَدَالَةِ نَزَاهًا ، وَإِلَى الْحَقِّ  
مُتَوَجِّهًا ؛ فَلْيُرَافِعْهُ وَيُقَدِّمَهُ عَلَى أَقْرَانِهِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ خِلَافَ ذَلِكَ فَلْيَقْصِهِ وَيُطَالِعْنَا  
بِحَالِهِ . وَلْيَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ وَيَفْعَلْ فِي ذَلِكَ الْأَعْمَالَ الْمَرْضِيَّةَ ، وَفِي أُمُورِ  
الْأَيَّامِ يَصْرِفُ مِنْهَا الْوَازِمَ الشَّرْعِيَّ ؛ فَنَ بَلَغَ مِنْهُمْ رَشِيدًا أَسْلَمَ إِلَيْهِ مَا عَسَاهُ يَقْضِي  
لَهُ مِنْهَا ، وَيُحَرِّرُ الْقُرُوضَ ، وَيُزَوِّجُ الْخَالَيَاتِ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْعَدِيدِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، مِنْ  
الْأَزْوَاجِ الْأَكْفَاءِ ؛ وَيَنْدُبُ لِنَاكَ مَنْ يَسْلُمُ دِيَانَتَهُ ، وَيَتَحَقَّقُ أَمَانَتَهُ ؛ وَيَخْتَارُ لِكِتَابَةِ  
الصُّكُوكِ مِنْ لَا يَرْتَابُ بِصِحَّتِهِ ، وَلَا يَشْكُ فِي دِيَانَتِهِ وَخَيْرِيَّتِهِ ؛ وَيَنْظُرُ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ ،  
وَمَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمُسْتَغْلَمِينَ ؛ فَنَ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْحَمِيدَةِ فَلْيُجِرْهُ عَلَى عَادَتِهِ ،  
وَلْيُثِقْهُ عَلَى خِدْمَتِهِ ؛ وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بَخْلًا ذَلِكَ فَلْيَسْتَبْدِلْ بِهِ وَلْيُقْصِهِ .

هذا عهدى إليك ، وُحِّيتى غداً عند الله عليك ؛ فاعلم هذا وأعمل به .  
وكتب ذلك عن الإذن الكريم الفلانى وهو فى محل ولايته وحكمه وقضائه ،  
وهو ناقد القضاء والحكم ماضيهما ، فى التاريخ الفلانى . (ثم يكتب الحاكم الحالى علامته  
والتاريخ) وحسبنا الله ونعم الوكيل .



وهذه نسخة تقليد :

الحمد لله الحكيم العدل الهادى عباده صراطاً مستقيماً ، الحاكم الذى لا يظلم مثقال  
ذرة وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لذه أجر عظيم ؛ المتيب من قسمة له  
الطاعة من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ، الرقيب على ما يصدر من أفعالهم  
فلا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم  
من دونه من وإل .

أحمد على نعمه التى تثنى السحاب الثقال ، وأستعينه من قيمه التى يرسلها  
فصيب بها من يشاء من عباده وهو شديد المحال ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده  
لا شريك له شهادة تفيد الخلق بها فى الإقرار النجاة يوم المآل ، وأشهد أن محمداً عبده  
ورسوله الذى نمته بأكرم الشيم وأشرف الحصال ، وعرفه بما يجب من عبوديته فقال :  
(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا أَلْتَمَسُ الْإِصْبَاحَ) .  
صل الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين أتبعوه فى الأحوال والأعمال ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإن من حسن سيرته ، وحيدته ، وعرف بورع وشهر بعفاف ،  
ودينه وغيره وإنصاف ؛ وأضحى نزه النفس عن الأمور الدنيئة ، فقيماً ديراً بالأحكام  
الشرعية ، عارفاً بالأوضاع المرضية - استحق أن يوجه ويستخدم ، ويرقى ويتقدم .

ولما علمنا من حال فلان الغلاني من الأوصاف الحميدة، والأعمال السديده -  
استخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا .

فليكن متمسكاً متمسكاً بحبل الله القوي المتين، (إنه من يتق ويصبر فإن الله  
لا يضيع أجر المحسنين) وليأثم ما قلناه أمانه الله سبحانه وتعالى، ويراج حقوق  
الله تعالى في السر والعلانية : فإنه معين من استعان به وتوكل عليه، وهادي من  
استرشده وفوض أموره إليه .

وليجهت في فصل الأحكام بين المتنازعين، والمساواة في العدل بين المتحاكين؛  
قال الله تعالى : ( وَإِذَا حُكِمَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ) .

وأن يثبت في الخصومات، ويفرق بين الحقائق والشبهات ؛ ويصف كل ظالم  
من ظالمه بالشرية الحمديه ، ليكون ذلك سبباً للسعادة الأبدية ؛ وينظر في أمر  
الشهود : فمن كان منهم زهواً، وإلى الحق متوجهاً، فليأمنه ، ومن كان منهم غير  
ذلك طالعنا بجماله . وينظر في أمر الجوامع والمساجد متمعناً في ذلك قول الله العزيز  
القاهر : ( إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ) .

وينظر في أمر الأيتام ، ويختاط على ما لهم من الأموال ، ويفعل في ذلك على  
جاري عادة أمثاله من الحكم ؛ من نفقة وكسوة ولوازم شريعته ، فمن بلغ منهم  
رشيداً أسلم إليه ما فضل من ماله بالينة المرضيه ، ويقرر الفروض على مقتضى قول  
الله تعالى : ( عَلَى الْمَوْلَى قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ ) . ويزوج النسوة الخالصة من العبد  
والأولياء ، ممن رغب فيهن من الأكفاء ؛ ويستلب للذك من يعلم أماته وخبرته ،  
وينظر في أمر المنصرمين : فمن كان منهم على الطريقة الماثورة أجراه على عادته ،

وأبقاه على حُكْمِهِ وَخِدْمَتِهِ ؛ ومن كان منهم خلاف ذلك يُعْطَهُ وَيُقْصِيهِ ، وَيَسْتَبْدِلُ  
به غيره لِيَقِيَ مَكَانَهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ .

هَذَا عَهْدِي إِلَيْكَ ، وَحُجَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَلَيْكَ ، فَتَعَلَّمْ ذَلِكَ وَتَعَمَّلْ بِهِ  
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . (وَيُؤَيِّدُ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِحُطِّ الْحَاكِمِ) وَيَكْتُبُ : «وَحَسْبُنَا اللَّهُ  
وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» وَيَتَوَجَّهُ بِعَلَامَتِهِ الْكَرِيمَةِ .



وهذه نسخة تقليد :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْفَضْلِ وَالسَّخَاءِ ، وَاللُّطْفِ فِي الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ ؛ الَّذِي مِنْ تَوَاضَعٍ إِلَيْهِ  
رَفَعَهُ ، وَمِنْ أَطَاعَةِ قَعَمِهِ ، وَمِنْ أَخْلَاصٍ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ أَمَالَ عَنْهُ كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَدَفَعَهُ ؛  
الَّذِي أَحَاطَ عَالَمُهُ بِالْمَوَارِدِ وَالْمَصَادِرِ ، وَأَسْتَوَتْ عِنْدَهُ أَحْوَالُ الْأَوَائِلِ وَالْآخِرِ ،  
وَأُطْلِعَ عَلَى ضَمَائِرِ النَّفُوسِ وَلَا يَنْبَغِي لغيرِهِ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى الضَّمَائِرِ ؛ الْخَافِضُ الرَّافِعُ ،  
وَالْمُنْطَلِعُ الْمُنَازِعُ ؛ فَإِلَيْهِ الْأَمْرُ وَالنَّذِيرُ ، الْمُنْصِطُّ الْجَامِعُ : (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ  
بِضَرْفٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِمِجْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

أَحْمَدُهُ حَمْدًا يَقْضِي لِلسَّعَادَةِ بِالتَّيْسِيرِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يُسَهِّلُ مِنَ الْمَأْرَبِ الْعَسِيرِ ،  
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ سُبْحَانَهُ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ ، وَأَشْهَدُ  
أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ، وَجَعَلَهُ لِلْأُمَّةِ خَيْرَ بَشِيرٍ  
وَنَذِيرٍ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَحَسْبَابَتِهِ شَهَادَةُ يَحْمِلُ الْمُخْلِصُونَ بِهَا جَنَّةً (يُحْمَلُونَ فِيهَا  
مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ عَارِفًا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ، مُتَهَيِّئًا لِنَيْلِ دَرَجَاتِهَا الرَّيْعَةِ ؛ مُسْتَعِدًّا  
إِلَى بَيْتِ مُشْكُورٍ ، وَقَدِيرٍ مَوْفُورٍ ؛ قُلَّدَ الْأَحْكَامَ الدِّينِيَّةَ ، لِيَعْمَلَ فِيهَا بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ .

وَلَا عَلِمْنَا فَلَانَ بَنَ فَلَانَ بْنِ فَلَانَ الْفُلَانِيَّ، قَلَدْنَاهُ كَذَا وَكَذَا .

فَبَاشَرْنَاكَ اللَّهُ : مُحَافِظًا عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الَّتِي لِإِلَهِ الْمَرْجِعِ وَالْمَصِيرِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . وَأَسْتَشِيرُ خِيفَةَ اللَّهِ وَأَجْعَلُهَا نُصَبَ حَيْرَتِكَ ، وَتَمَسَّكَ بِالْحَقِّ وَأَجْعَلْهُ حِجَابًا بَيْنَ النَّارِ وَبَيْنَكَ ؛ وَأَتَتَّصِبُ لِنَفْيِذِ الْأَحْكَامِ أَنْصَابَ مَنْ يُرَاقِبُ اللَّهُ وَيُخْشَاهُ ، وَحَاسِبُ نَفْسِكَ مُحَاسِبَةً مَنْ يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ يَطْلُغُ عَلَيْهِ وَيَرَاهُ ؛ وَأَبْذُلُ فِي أَنْصَافِ الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ وَسَعَكَ ، وَرَحَّبُ لِحَاكِيَن ذَرْعِكَ ؛ وَأَنْظُرُ فِي أَمْرِ التُّهُودِ وَحَدِّرُهُمْ أَنْ يَزُوعُوا عَنِ الْحَقِّ ، وَحَاسِبُهُمْ فِيمَا جَلَّ وَدَقَّ ؛ وَلَا تُرَخِّصْ لَهُمْ ، وَأَلْزِمُهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا الصَّدَقَ مَنَظِقَهُمْ ؛ وَأَنَّهُمْ عَنِ التَّسْمُحِ فِيهَا ، وَعَرَفَهُمُ التَّحْزِزَ عَمَّا يُوَدَّى مِنَ التُّهْمَةِ وَالطَّرْقِ إِلَيْهَا ؛ وَأَنْظُرُ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ بَابَ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ نَظَرًا يُوَدَّى إِلَى صَلَاحِهِمْ ، وَلَا تُعَوَّلُ فِي النِّيَابَةِ صَدَقَ إِلَّا عَلَى مَنْ تَحْتَارُهُ وَتَرْفُضِيهِ ، وَلَا تُعْرَجْ إِلَى مَنْ هُوَ مُسْتَنَدٌ إِلَى غَايَةِ وَلَا تَمْلُ إِلَيْهِ ؛ وَأَنْظُرُ فِي أَمْرِ الْأَحْيَاسِ نَظَرًا يَحْفَظُ أَصُولَهَا ، وَلَا تُرَاجِعْ فِي اسْتِخْلَاصِ مَا يَتَعَيَّنُ لَهَا كَبِيرًا وَلَا صَغِيرًا ، وَلَا تُعَامِلْ فِيهَا إِلَّا ذَوِي الْوَقَاءِ وَالْيَسَارِ ، وَأَرْفُضْ مَعَامِلَةً مَنْ يَسْتَنِدُ إِلَى الْعُسْمِ وَالْإِعْسَارِ ؛ وَأَفْعَلْ مَا يَفْعَلُهُ مِثْلُكَ مِنَ الْحُكْمِ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْعَدَالَةِ وَالْقِسْخِ وَالْإِنْكَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ قَلَدْنَاكَ هَذِهِ الْأَحْكَامَ ؛ فَإِنْ عَمِلْتَ فِيهَا بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ يُعِينِكَ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ عَمِلْتَ غَيْرَ ذَلِكَ فَانْتَ وَأَلِلْ هَالِكٌ ثُمَّ هَالِكٌ ؛ وَأَسْتَمِعُ نَفْسِي بِحَقِّهِ ، وَأَفْعَلُ مَا يُبَرِّدُ بِهِ جِلْدَتَكَ وَجِلْدَتِي ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قُلْتُ : وَرُبَّمَا كُتِبَ التَّقْلِيدُ بِصِغَةِ كِتَابٍ ، مِثْلُ أَنْ يُكْتَبَ إِلَى الَّذِي يَتَوَلَّى عَلَى قَدَرِ مَرْتَبَتِهِ ، مِنْ : « صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتُبَةُ » أَوْ : « هَذِهِ الْمَكْتُبَةُ » ثُمَّ يَقَالُ :

(١) هذه هي المرتبة الثانية وإن لم يأت لها بعنوان في الأصل .

«تَتَضَمَّنُ إِعْلَامَهُ أَنَّ الْمَجْلِسَ الْفُلَانِيَّ» بِقِيَّةِ، وَيُدْعَى لَهُ: «لَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا - أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى وَفَرَضْنَا إِلَيْهِ الْحُكْمَ وَالْقَضَاءَ بِمَكَانٍ كَذَا، فَيُثَابِرُ ذَلِكَ» عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي التَّقْلِيدِ الَّذِي قَبْلَهُ .

## الصف الثاني

### (إيجالات العلامة)

قَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ أَبْنَاءَ الْعُلَمَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ تَتَبَتِ عِدَالَتُهُمْ عَلَى الْحُكَّامِ، وَيُسَبَّلُ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَيَحْكُمُ الْحَاكِمُ بِعَدَالَةٍ مِنْ تَتَبَتِ عِدَالَتُهُ لَدَيْهِ، وَيُشْهِدُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَيَكْتُبُ لَهُ بِذَلِكَ فِي دَرَجٍ عَرِيضٍ، إِمَّا فِي قِطْعِ فَرْخَةِ الشَّامِيِّ الْكَامِلَةِ، وَإِمَّا فِي نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْوَرَقِ الْبَلَدِيِّ، وَتَكُونُ كِتَابَتُهُ بِقَلَمِ الرَّقَاقِ وَأَسْطُرُهُ مُتَوَالِيَةً، بَيْنَ كُلِّ سَطْرَيْنِ تَهْدِيرٌ عَرَضٌ أَصْبَحَ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ .

قُلْتُ: وَهَذِهِ نُسْخَةٌ سَيَّلَ أَنْشَأَتُهُ، كُتِبَ بِهِ لَوْلَدِي نَجْمِ الدِّينِ أَبِي الْقَتَنِجِ مُحَمَّدٍ، وَكُتِبَ لَهُ بِهَا عِنْدَ ثُبُوتِ عِدَالَتِهِ، عَلَى الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ وَلِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ، ابْنَ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْحَافِظِ زَيْنِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْعِرَاقِيِّ، خَلِيفَةِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِمِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ الْمَحْرُوسَتَيْنِ، فِي شَهْرِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ، وَهِيَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْلَعَ نَجْمَ الْعَدَالَةِ مِنْ سَمَاءِ الْفَضَائِلِ فِي أَفْقِ مَعَالِيهَا، وَأَنَارَ بَدْرَ رَأْيِ الْعُلَمَاءِ مِنْ حَنَاطِسِ الْجَهَالَةِ مُنْذِلِمٌ لِيَالِيهَا، وَكَلَّ عُقُودَ النَّجَابَةِ مِنْ نُجَبَاءِ الْأَبْنَاءِ بِأَعْلَى جَوَاهِرِهَا وَأَقْسَ لَا لِيَالِيهَا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَرُقَّى قَائِلُهَا إِلَى أَرْفَعِ الثَّرَاءِ، وَتَمْتَلِئُ مَتْنُهَا صَهْوَةَ الثَّرَاءِ: وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْخَصُوصُ بِحَاسِنِ الشَّيْمِ، وَالْمَوْصُوفُ بِكَرَمِ الْمَآثِرِ وَمَآثِرِ الْكَرَمِ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا مِنْ عُرَا الدِّينِ بِالسَّبَبِ

الأقوى، وسلَكُوا جادة الهداية فحصلوا من أقصى مُقايها على الناية القُصوى؛  
وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فلما كانت العدالة هي أس الشريعة وعمادها، ورُكْنُهَا الأعظم في الاستناد  
إلى الصواب وسنادها؛ لا تُحْبَلُ دونها شهادة ولا رواية، ولا يصح مع عدمها إسناد  
أمر ولا ولاية - فقد بنيت الشريعة المطهرة على أركانها، واعتمد الرواة في صحة  
الأخبار على أصولها وتعلقت الحُكُم في قبول الشهادة بأحضانها؛ إذ هي الملكة  
الحاملة على ملازمة التقوى، والحفيظة المانعة من الوقوع في هوة البدع المتسكك  
بسببها الأقوى؛ والحكمة الثانية عن الجراح إلى ارتكاب الكبائر، والعتان الصارِف  
عن الجنوح إلى الإصرار على الصغائر؛ والزمام القائد إلى صلاح أعمال الظواهر  
وسلامة عقائد الضمائر .

ولما كان مجلس القاضي الأجل، الفقيه، الفاضل، المشتغل، المحصل،  
الأصيل، نجم الدين، سليل العلماء، أبو الفتح محمد بن فلان القلقشندي القزاري،  
الشافعي، خليفة الحكم العزيز بالقاهرة المحروسة والدة، والحاكم بالعمل الفلاني  
ومامهما: أيد الله تعالى أحكامه، وأقر عينه بولده - هو الذي ولد على فراش الديانة،  
وظهرت عليه في الطفولة آثارها، ونشأ في أحياء الصبابة، فروي عنه بالسند  
الصحيح أخبارها؛ وأرتضع لدى العلم حين بزوغ نجمه، وغذيه مع لبان أنه فامتزج  
بدمه ولحمه وعظمه؛ وأعلن منادى نساته بجيل الذكر فافق في فيه عن الاستعجار،  
ولاحت عليه لوائح العجاجة قضى له بالكمال قبل أن يبلغ قمر عمره زمن الإبدار؛  
فلم يرد منهل التكليف إلا وقد ترين من عأمين الفضائل بأكل زين، ولم يبلغ مبلغ  
العلم حتى صار لوالده - والله الحمد - قرة عين - رفعت قصة غيرة عن حاله فيها من  
مضمون السؤال طالب الإذن الكريم بسماع بينة المذكور، وكتابة إجمال بدالته،

فَسَمِلَهَا الْخَطُّ الْكَرِيمُ الْعَالِي ، الْمَوْلِيُّ ، الْقَاضِي ، الْإِمَامِي ، الْعَالِمِي ، الْعَامِلِي ،  
 الْعَلَامِي ، الشَّيْخِي ، الْحَدِيثِي ، الْحَافِظِي ، الْحَبْرِي ، الْمُجْتَهِدِي ، الْمُحَقِّقِي ، الْمَدْقَقِي ،  
 الْوَحِيدِي ، الْفَرِيدِي ، الْمُجْتَبَى ، الْمُجْتَبَى ، الْخَطِيبِي ، الْبَلِيغِي ، الْحَاكِمِي ، الْحَلَالِي ،  
 الْكَفَّارِي ، الْبَلِيغِي ، الشَّافِعِي ، شَيْخُ الْإِسْلَام ، النَّازِرُ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْأَيَّامِ  
 الْمَصْرِيَّةِ ، وَالْمَالِكِ الشَّرِيفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى أَيْامَهُ ، وَأَعَزَّ أَحْكَامَهُ ،  
 وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَأَسْبَغَ نِعَمَهُ فِي الدَّارَيْنِ عَلَيْهِ . لَسَيِّدُنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ،  
 الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ ، الْحَافِظُ ، وَلِيُّ الدِّينِ ، شَرِيفُ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحَدُ الْقُضَلَاءِ ،  
 مُقْنِي الْمُسْلِمِينَ ، أَبِي زُرْعَةَ أَحْمَدَ ابْنَ سَيِّدُنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى زَيْنُ الدِّينِ ،  
 شَيْخُ الْإِسْلَام ، قَاضِي الْمُسْلِمِينَ ، أَبِي الْفَضْلِ عَبْدِ الرَّحِيمِ ، ابْنَ سَيِّدُنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ  
 إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِدْرِ الدِّينِ ، شَرِيفُ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحَدُ الْقُضَلَاءِ ، مُقْنِي الْمُسْلِمِينَ ،  
 أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنِ الْعِرَاقِي الشَّافِعِي ، خَلِيفَةُ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِالْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ  
 الْحَرُوسَتَيْنِ ، وَالْحَاكِمِ بِالْأَعْمَالِ الْمُتَوَفِّيَّةِ ، وَمُقْنِي دَارِ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ بِالْأَيَّامِ الْمَصْرِيَّةِ :  
 أَيْدِ اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ بِالنَّظَرِ فِي ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ .

فَإِذَا سَمِعَ سَيِّدُنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الشَّيْخُ الْإِمَامُ ، الْعَالِمُ ، الْحَافِظُ ،  
 وَلِيُّ الدِّينِ ، الْحَاكِمُ الْمَشَارُ إِلَيْهِ : أَحْسَنَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ - الْبَيِّنَةُ بِرُكْنَيْهِ ، وَصَرَّحَتْ  
 لَهُ بِالشَّهَادَةِ بِدَلَالَتِهِ ، وَقَبَلَهَا الْقَبُولُ الشَّرْعِيُّ السَّائِعُ فِي مَثَلِهِ .

ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي الْكَرِيمَةِ مَنْ حَضَرَ مَجْلِسَ حُكْمِهِ وَقَضَاتِهِ ، وَهُوَ نَافِذُ الْقَضَاءِ  
 وَالْحُكْمِ مَاضِيَهُمَا ، وَذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الْمُبَارِكِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ  
 رَجَبِ الْقُرْدِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ - أَنَّهُ ثَبَّتَ عِنْدَهُ وَصَحَّ لَدَيْهِ : أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ -  
 عَلَى الْوَضْعِ الْمَعْتَبَرِ الشَّرْعِيِّ ، وَالْقِسَانِ الْمَحْرَرِ الْمَرْغِيِّ ، بِالْبَيِّنَةِ الْعَادِلَةِ الْمُرْتَضِيَةِ ، الَّتِي



تَثَبَّتْ بِمَثَلِهَا الْحَقُوقُ الشَّرْعِيَّةُ - عَدَالَةُ الْقَاضِي الْأَجَلِّ، الْعَدْلُ، الرِّضَى، نَجْمُ الدِّينِ مُحَمَّدٍ الْمَسْمُوعُ أَعْلَاهُ : زَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى تَوْفِيقًا، وَسَهَّلَ لَهُ إِلَى الْخَيْرِ طَرِيقًا، وَمَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِهَا، وَتَحَمَّلَ بِهِ مِنْ أَدْوَاتِهَا؛ ثُبُوتًا صَحِيحًا مُعْتَبَرًا، مُسْتَوْفَى الشَّرَاطِطِ مُحَرَّرًا.

وَأَنَّهُ - أَيُّدُ اللَّهِ تَعَالَى أَحْكَامَهُ، وَسَدَّدَ قَضْيَهُ وَإِبْرَامَهُ - حَكَمَ بَعْدَائِهِ، وَقَبُولِ شَهَادَتِهِ؛ حُكْمًا تَامًا وَجَزَمَهُ، وَقَضَى فِيهِ قَضَاءَ أَرْبَمَةٍ؛ وَأَذِنَ لَهُ - أَيُّدُ اللَّهِ تَعَالَى أَحْكَامَهُ - فِي تَحْمِيلِ الشَّهَادَةِ وَأَدَانِهَا، وَبَسْطِ قَلْبِهِ فِي سَائِرِ أُنْدِيَّتِهَا وَأَوْرَاجِهَا؛ وَأَجْرَاهُ - أَجْرَى اللَّهُ تَعَالَى الْخَيْرَاتِ عَلَى يَدَيْهِ - مُجْرَى أَمَالِهِ مِنَ السُّلُوكِ، وَنَظَمَهُ فِي سِلَاقِ الشُّهَدَاءِ أَهْلِ الْقَبُولِ؛ وَنَصَبَهُ بَيْنَ النَّاسِ شَاهِدًا عَدْلًا، لِذَلِكَ صَالِحًا لِلنَّاسِ وَأَهْلًا.

فَلْيَبْسُطْ بِالشَّهَادَةِ قَلْبَهُ، وَلْيُؤَلِّفْ عَلَى شُرُوطِ أَدَانِهَا كَلِمَةً؛ وَلْيُحَمِّدِ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَعَهُ مِنْ مَلَابِسِهَا الْجَمِيلَةِ، وَأَنَالَهُ مِنَ التَّرَقُّ لِرَبَّتِهَا الْجَلِيلَةِ؛ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ تَعَالَى فِي مَوَارِدِهِ وَمَصَادِيرِهِ، وَلْيَسَلِّكْ مَسَالِكَ التَّقْوَى فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ وَآخِرِهِ؛ وَلْيَعْلَمْ أَنَّ مَنْ سَلَكَ الْحَقَّ نَجَا، وَمَنْ بَتَّى اللَّهَ يَجْعَلَ لَهُ مَخْرَجًا. أَوْزَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى شُكْرَ هَذِهِ الرَّتَبَةِ الْعَالِيَةِ، وَالْمُنْتَزِلَةِ السَّنِيَّةِ .

وَقَدَّمَ أَمْرُ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الشَّيْخِ الْإِمَامِ، الْعَالِمِ، الْحَافِظِ، وَلِيِّ الدِّينِ، الْحَاكِمِ الْمَذْكُورِ، وَقَاهُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ عَثُورٍ؛ بِكَاتِبَةِ هَذَا الْإِيجِمَالِ، فَكُتِبَ عَنْ إِذْنِهِ الْكَرِيمِ، مَنْتَضِمًا لِلنَّاسِ مُسْتَوْفَا فِيهِ، مُسْتَوْفَا شَرَائِطِهِ الشَّرْعِيَّةِ . وَأَشْهَدُ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ بِذَلِكَ فِي التَّارِيخِ الْمَقْدَمِ ذِكْرَهُ بِأَعَالِيهِ، الْمَكْتُوبِ بِحَقِّهِ الْكَرِيمِ - شَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى، حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

قُلْتُ : وَالْعَادَةُ أَنْ يَسَلَّمَ فِيهِ الْحَاكِمُ عَلَامَةً تَلَوِ الْبَسْمَلَةَ، وَيَكْتُبُ التَّارِيخَ فِي الْوَسْطِ، وَالْحَسْبَلَةَ فِي الْآخِرِ، كُلُّ ذَلِكَ بِحَقِّهِ، وَيُشْهَدُ عَلَيْهِ فِيهِ مَنْ يَشْهَدُ عَلَيْهِ مِنْ كُتَّابِ الْحُكْمِ وَغَيْرِهِمْ، كَمَا فِي سَائِرِ الْإِيجِمَالَاتِ الْحُكْمِيَّةِ .

## الصنف الثالث

( الكُتُب إلى الثَّوَاب وما في معناها )

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْكُتُبَ الَّتِي تُكْتَبُ عَنِ الْقَضَاةِ الْفَاعِلَةِ مُرْسَلَةٌ ، لِاجْتِنَاحِ فِيهَا إِلَى فَنِّ  
الْبَلَاغَةِ وَالسَّجْعِ إِلَّا فِي الْقَلِيلِ النَّادِرِ .

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به عن قاضي القضاة تَغْرَايُ الدِّينِ الشَّافِعِيِّ ، إِلَى الْحُكَّامِ  
بِالْمَمْلُوكَةِ ، وَهُوَ :

أَدَامَ اللَّهُ فَضَائِلَ الْجَنَابَاتِ الْعَالِيَةِ وَالْمَجَالِسِ الْعَالِيَةِ ، وَجَمَلَهُمْ قَادَةً يَقْتَدِي بِهِمْ  
فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَوِ  
الْأَحْضَالِ مِنْ يَمْنِي بِأَمْرِهِ وَيُخْتَلِ ، وَلَا سِيَّامَا  
مَنْ سَارَتْ طَرِيقُهُ قَضِيهِ الْمَثَلُ فِي الْأَفَاقِ سِيرَ الْمَثَلِ ، وَلَا زَالَ عَرَفُ مَعْرُوفِهِمْ عَلَى  
ذَوِي الْفَضَائِلِ يَقِيحُ ، وَجِيَادُ جُودِهِمْ تَعْدُو فِي مِيدَانِ الْإِحْسَانِ وَتُرُوحُ ، وَنَيْلُ نَيْلِهِمْ  
يَسِيرُ إِلَى الْقَصَادِ فَيُحَمَّدُ سُرَاهُ عِنْدَ الْعَبُوقِ كَمَا يُحَمَّدُ سُرَاهُ عِنْدَ الصُّبُوحِ .

هذه المكتبة إليهم تَهْرِيمٌ سَلَامًا أَلْطَفَ مِنَ النَّسِيمِ ، وَتَهْدِي إِلَيْهِمْ ثَنَاءَ مَزَاجِ  
كَاتِبِهِ مِنْ تَسْنِيمٍ ، وَتُسَيِّدِي لَعْلُمِهِمُ الْكَرَمَةَ أَنَّ الْجَنَابَ الْكَرِيمَ ، الْعَالِيَّ ، الشَّيْخِيَّ ،  
الْإِمَامِيَّ ، الْفَاضِلِيَّ ، الْبَارِعِيَّ ، الْأَوْحَدِيَّ ، الْأَنْجَلِيَّ ، الْبَلِيغِيَّ ، الْمَقْدِسِيَّ ، الْخَطِيبِيَّ ،  
الْبَهَائِيَّ ، أَوْحَدَ الْفَضَلَاءِ ، تَغْرَايُ الْعَالَمَاءِ ، زَيْنَ الْخُطَبَاءِ ، قِبْلَةَ الْأَدْبَاءِ ، قُدْوَةَ الْبُلَغَاءِ ،  
صَفْوَةَ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، خَطِيبَ الْمَوْصِلِ - أَدَامَ اللَّهُ الْمَسْرَةَ بِهِ ، وَوَصَلَ الْخَيْرَ  
بَسْبِهِ ، وَنَفَعَ بِفَوَائِدِ قَضِيهِ وَأَدَبِهِ - وَرَدَّ عَلَيْنَا بِطَوَائِلِ الْمَحْرُوسَةِ ، فَخَصَلَتِ الْمَسْرَةُ  
بِذَلِكَ الْوُرُودِ ، وَتَجَدَّدَ بِخِدْمَتِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ وَثِيقِ الْعُهُودِ ، وَأَبْدَى لَنَا مِنْ نَظَرِهِ الْفَائِقِ  
الرَّيْقِ ، وَأَشْأَانِهِ الْمُغْنَى عَنِ تَسْوَةِ الرِّيحِ ، وَكَجَائِبِهِ الَّتِي هِيَ السَّحَرُ الْحَلَالُ عَلَى

التحقيق ؛ ما زره الأَبصارُ وشَنَفَ الأسماعُ ، وقَطَعَ من قُوسانِ الأَدبِ أسبابَ  
الأطعامِ ؛ فازَالَ عن القلبِ الكَتِيبَ فِكْراً ، وأنجَلَ من الرُّوضِ الأَنيقِ زَهْراً ،  
وأَنجَلَ من المِسكِ السَّحِيقِ عَطْراً ؛ وَكَيْفَ لا ؟ وهو النَّفِيسُ الَّذِي جُمِعَ فِيهِ قَدِيمُ  
الأَدبِ وَحَدِيثُهُ ، وَالْجَلِيسُ الَّذِي لا يُسَامُ كَلَامُهُ ولا يُمَلَّ حَدِيثُهُ ؛ يَالَهُ أَرِيّاً لَيْسَ فِيهِ  
يُسَيْدِيهِ مِنَ الأَدبِ تَحْرِيفٌ ولا غُلَطٌ ، وفاضِلاً لو لم يكن بَحْراً لما كان الدُّرُّ من فِيهِ  
يُلَقِّطُ ؛ بِمِثْنِهِ وَفِطْنَتِهِ الكَرِيمَانِ ذَوَا أَفْئَانِ ، فَهِنَّ إِنْ رَقَّتْ طَرِفاً فُروُجٌ وَدِيحَانِ ،  
أَوْ بَدَلَتْ رَأً فَمِثْلَانِ تَجْرِيانِ ؛ وَهِنَّ إِنْ نَقَطَتْ شِعْراً فَيَاقُوتٌ وَمَرْجَانِ ، أَوْ نَفَرَتْ  
تَبَراً فَمِثْلَيْنِ الدُّرِّ أَلْوَانِ ؛ مَا بَرَحَ الْفَضْلَاءُ إِلَى لِقَائِهِ يُسَارِعُونَ ، وَحَقَّ لَهُمْ أَنْ يُسَارِعُوا  
وَمِنْ أَبْوَابِ مَعْرُوفِهِ يَفْتَحُونَ ؛ وَكَيْفَ لا ؟ وَهُوَ الشَّهَابُ السَّاطِعُ ، وَالْجَلِيلُ  
الَّذِي لَمْ تَزَلْ تُشِيرُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ ، وَالتَّيْسِلُ الَّذِي تَجْرِي لِفَرَاغِهِ مِنْ عُيُونِ الْاَلِيبِ  
الْمَدَامِيعُ ، وَالتَّزِيلُ الَّذِي يُنْشِلُهُ الْعَارِفُ عِنْدَ وَدَاعِهِ :

\* بِمِثْلِكَ خَبَرَنِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعٌ \*

يَعْرِفُ الْمُحْسِنُ إِحْسَانَهُ فَيَنْشُرُهُ مِنَ الثَّنَاءِ لَوَاءً ، وَيُجِئُ فِي مَنَاجِيزِ صِفَاتِهِ  
وَنُوعِيَةِ الْإِنْشَاءِ إِنْ شَاءَ ؛ وَيُجِئُ فِي ذَمِّ مَسْحِقِ الذَّمِّ مِنْهُ الْمَجَاءُ ، فَأَكْرَمَ بِهِ مَدْحاً  
وَأَعْظَمَ بِهِ مَجْءاً ؛ الْعُلَمَاءُ لِحَضُورِهِ يَتَقَبَّحُونَ ، وَإِلَيْهِ يَتَقَرَّبُونَ ؛ وَالْفَضْلَاءُ بِفَضْلِهِ  
يَتَعَرِّفُونَ ، وَمِنْ بَحْرِهِ يَفْتَرِقُونَ ؛ وَالْأَدْبَاءُ إِلَيْهِ يَسْتَقِيمُونَ ، وَمِنْهُ يَفْتَحُونَ ، وَالطُّلَبَةُ  
بَأَذْيَالِ فَضْلِهِ يَتَمَسَّكُونَ ، وَبَنَشْرِ أَثْنَيْهِ يَتَمَسَّكُونَ ؛ وَإِخْوَانُهُ فِي اللَّهِ بِوُجُودِهِ  
يَفْتَضِرُّونَ ، وَإِلَى جُودِهِ يَفْتَقِرُونَ ؛ كُلُّهَا عَرَضَتْ لَهُمْ حَاجَةٌ تَسْبُحُوا بِإِنْشَارِهِ ، وَكُلُّهَا  
عَانَتْهُمُ اللَّحْمُ سَأَلُوهُ الْإِمْدَادَ بِإِنْصَارِهِ ؛ فَيُجِئُ فِي خِدْمَتِهِمْ بَيَانُ بَنَانِهِ ، وَيُجِئُ  
فِي نُصْرَتِهِمْ سَيْفُ لِسَانِهِ .

ثم من قبل أن تَبْلُغَ منه الوَطْرَ ، ومن دُونِ أَنْ يَكْتَفِيَ مِنْهُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ ، عَرَفْنَا أَنَّهُ قَصَدَ التَّوَجُّهَ إِلَى الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ ، وَالْأَعْمَالِ الطَّرَابُلسِيَّةِ ؛ لِيُحِلَّ عَلَى أَهْلِهَا مِنْ فَضَائِلِهِ الْبَاهِرَةِ الْبَاسِقَةَ ، وَأَقَاظِلِهِ الَّتِي هِيَ كَالثَّرِيرِ الْمُتَنَاسِقَةِ ؛ وَيُحِيلَهُمْ عَلَى عَرَائِسِ الْأَفْكَارِ مِنْ أَفْكَارِهِ ، وَيُجَنِّبَهُمْ عَرَائِسَ الْأَنْمَارِ مِنْ أَشْجَارِهَا ؛ وَيُرِيهِمُ الْبَيْدِيَّةَ الْبَدِيَّةَ ، وَالْقَوَافِي الْمُحِبَّةَ الْمُطِيعَةَ .

فَلْيَقْدِّمِ الْجَمَاعَةُ - أَيُّهَا اللَّهُ تَعَالَى - بِإِكْرَامِهِ إِكْرَامَ الْأَهْلِ وَالْأَهْوَاجِ ، وَتَقْبَلِهِ بِالْبَشْرِ وَالطَّلَاقَةِ وَالتَّرْحَابِ ؛ وَإِحْلَالِهِ مِنَ الْإِحْسَانِ مَحَلًّا سَامِيًّا ، وَإِزَالِهِ مِنَ الْإِفْضَالِ مَنَزَلًا عَالِيًّا ؛ وَالْأَعْتِنَاءَ الْوَافِرَ بِأَمْرِهِ ، وَاسْتِجْلَابَ بَيْتِ حَمِيدِهِ وَشُكْرِهِ ، وَالْإِتْقَانَ دُرَرِ قَوَائِدِهِ ، وَاتِّكَاسَابَ غُرَرِ قَرَائِدِهِ ؛ وَالْإِصْفَاءَ إِلَى الْمَثُورِ وَالْمَنْظُومِ مِنْ أَقْوَالِهِ ، وَالتَّعَجُّبَ مِنْ حُسْنِ بَدَآئِهِ وَسُرْعَةِ أَرْبَابِهِ .

وَلْيُحْتَفَلْ كُلَّ يَوْمٍ بِمُخْتِمَتِهِ غَايَةِ الْأَحْضَالِ ، وَيُعْتَنَ بِأَمْرِهِ أَعْتِنَاءَ لَا يُسَارِكُهُ تَقْصِيرٌ وَلَا إِهْمَالٌ ؛ وَيُرْعَ لَهُ حَقُّ الضَّيْفِ الْجَلِيلِ ، وَالْقَادِمِ الَّذِي إِذَا رَحَلَ عَنْ بَلَدِهِ أَبْقَى لَهُ بِهَا الذِّكْرَ الْجَلِيلَ ؛ وَيُسَاعَدُ عَلَى مَا تَوَجَّهَ بِصَدِّدِهِ كُلِّ سَاعَةٍ يَعُودُ نَفْعُهَا عَلَيْهِ ، وَيُنْفِقُ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ وَيُحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ .

وَنَحْنُ نُؤَكِّدُ عَلَى الْجَمَاعَةِ - أَيُّهَا اللَّهُ - فِي ذَلِكَ كُلِّ التَّأَكُّيدِ ، وَنُبَالِغُ فِيهِ مُبَالَغَةً مَاطِلِيًّا مِنْ مَزِيدٍ ، وَنُعْذِرُهُمْ مِنَ الْإِهْمَالِ وَالتَّسْوِيفِ وَالتَّقْصِيرِ ، وَمِنْ مُقَابَلَةِ جَنَابِهِ الْكَرِيمِ بِالْقُزْرِ الْحَقِيرِ وَالتَّخْدِيرِ الْبَاسِطِ ؛ فَإِكْرَامُ هَذَا الرَّجُلِ لَيْسَ كَأِكْرَامِ مَنْ لَمْ يَسِرْ بِسِيرِهِ ، وَمَا هُوَ إِلَّا لِمَنْ لَمْ يَفْضَلْهُ وَخَيْرُهُ ، وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « وَلَيْسَ مِنْ يُكْرَمُ نَفْسُهُ كَالَّذِي يُكْرَمُ لِنَفْسِهِ » .

فَلْيُعْظَمُوهُ كُلَّ التَّعْظِيمِ وَتَقَرُّوهُ مَنَزَلَةً تَلِيْقُ بِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْإِفْضَالِ ، وَتَرْفَعُوهُ إِلَى الْمَقَامِ وَتَحْفَظُوهُ لَهُ الْقَالَ ؛ لِيَعُودَ مُحَقِّقُ الْأَمَالِ مُبْلَغُ الْمَقَاصِدِ ، نَاشِرُ الْوَيْةِ النَّشَاءِ

والمحامد ، شمولاً بجيمل الصلّة والمائد ؛ ويحُنّ متظرون ما يردّ عنه من مكاتباته  
الكريمة بما وصل إليه من ... .. الحسنه .<sup>(١)</sup>

وفي هيمهم العلية ، ومكاريمهم السنية ، ما يثني عن التاكيد بسببه والوصية ؛  
والله تعالى يديم عليهم سايغ الإفضال والإناعام ، ويحجل بوجودهم وجودهم الأحكام  
والحكّام ، بمنه وكرمه .

### الصف الرابع

( ما يُكْتَبُ في أفتاحات الكُتُب )

فمن ذلك ما يُكْتَبُ في أوائل كُتُبِ الأوقاف .

وهذه نسخة خطبة في ابتداء كتاب وقف على مسجده ، وهي :

الحمد لله جامع الناس ليوم لا ريب فيه إنه لا يخلف الميعاد ، وناصير الدين الحمدي  
بنينا صلى الله عليه وسلم وعلى آله الكرام الأجداد ، ومُشْرِف هذه الأمة بالأئمة والجمعة  
والجساعات من أهل الرّشاد ، وبنايل من أرتضاء من أرباب سنة نبيه المختار من  
عباده العباد ، ومُوسِر القربات إليه لأهل السّداد ، ومُريد الأعمال الصالحات  
ممن أخلصه بالطاعات ومُزيد الإرفاد ، ومُفضّل الأوقاف على أفضل وجوه البر  
من جعله غير أهلاً بالنفع المتمدى وكثرة الأمداد ، ومُعظم الأجر لمن بنى بيتاً لله  
بذرة خلية من الرّياء والعناد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ بَنَى  
مَسْجِداً لله وَلَوْ كَفَحَ حَصِ قَطَاةً بَنَى اللهُ تَعَالَى لَهُ بِهِ قَصْراً فِي الْجَنَّةِ " وَنَزَحُوا مِنْ كَرَمِ اللهِ  
الكَزِيدَاد .

(١) يباض بالأصل وله : من المنازل الحسة الخ أو ماشيه .

أَجِدُهُ عَلَى مَوَادِّ نِعَمِهِ الَّتِي جَلَّتْ عَنِ التَّعَدُّادِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا وَافِيًا وَإِفْرًا بِمَجْلَعِهِ  
ذَخِيرَةِ لَيْلِومِ التَّنَادِ ، وَأَسْتَعِذُّ مِنَ اللَّطِيفِ لَوَازِمِ الْفَضْلِ الْخَفِيِّ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْجَوَادُ ،  
وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْخَاتَمُ الْخَاتِمُ عَلَى  
خَوَاصِهِ الْوَرَادُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مَا أَصْنَى إِلَى الذِّكْرِ وَأُجِيبَ كُلَّ دَاعٍ  
مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادٍ .

وبعدُ ، فَلَمَّا كَانَتِ الْمَثُوبَاتُ مَضْمُونَةً الْأَجْرِ عِنْدَ الْكَرِيمِ ، وَالْأَعْمَالُ مُتَعَدِّدَةً  
فِي التَّقْدِيمِ ، وَكَانَ بُيُتُ الْمَسَاجِدِ وَإِفْرًا أَجْرًا ، لَمِنْ أَقَامَ بِوَاجِبِ تَيَانِ الظَّنِّ الْجَمِيلِ  
وَسَدَّدَ إِلَى الْخَيْرَاتِ سَبِيلًا ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : « أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي فِي فَلْيُظَنَّ  
بِي خَيْرًا » . وَرَأَى السُّقْلَاءُ أَنَّ الْأَوْقَافَ عَلَى الْمَسَاجِدِ وَالْجَوَائِعِ مِنْ أَنْفِيسِ قَوَائِدِ  
الدِّينِ وَأَعْلَى - فَلَذَلِكَ قِيلَ فِي هَذَا الْإِسْتِغْلَالِ الْمُبَارَكِ :

هَذَا مَا وَقَفَهُ وَحَبَسَهُ ، وَسَبَّلَهُ وَأَبْدَهُ فَلَان . وَقَفَ وَحَبَسَ رَغْبَةً فِي مَزِيدِ الثَّوَابِ ،  
وَرَجَاءً فِي تَهْوِيلِ يَوْمِ الْحِسَابِ ، وَأَغْنَيْنَا لِلْأَجْرِ الْجَزِيلِ مِنَ الْكَرِيمِ الْوَهَّابِ ؛  
لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ الْمَبْرُورَةِ : ( مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ  
أَضَاعَافًا كَثِيرَةً ) . وَقَفَ بِنِيَّةٍ خَالِصَةٍ ، وَعَزِيمَةٍ صَالِحَةٍ ، وَنِيَّةٍ صَادِقَةٍ ، مَا هُوَ لَهُ  
وَفِي مِلْكِهِ ، وَحَوَازِهِ وَبِيَدِهِ وَتَصَرَّفِهِ ، مِنْ غَيْرِ مُنَاطِلٍ لَهُ فِي ذَلِكَ وَلَا شَرِيكَ ،  
( ثُمَّ يَذْكُرُ الْوَقْفَ ) .

## الفصل السادس

### في العُمَرَاءِ الَّتِي تَكْتَبُ لِلْحَاجِّ

وهذه نسخةُ عُمرَةٍ اعتمَرها أبو بكر بن محمد الأنصاري الخزرجي ، عند مُجاوَرَتِهِ بِمَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ فِي سَنَةِ سَبْعٍ ، وَسَنَةِ ثَمَانٍ ، وَسَنَةِ تِسْعٍ ، وَسَنَةِ عَشِيرٍ وَسَبْعِمِائَةٍ ، لِلسُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ «مُحَمَّدِ بْنِ قُلاوُون» ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَأَيَّنَ مَنْ فِيهِ بِالْقَائِمِ بَأَمْرِ اللَّهِ وَمَنْ هُوَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرُ نَاصِرٍ ، وَجَعَلَهُ بَيْكَةً مُبَارَكًا ، وَوَضَعَ الْإِصْرَ بِمَنْ كَثُرَتْ مِنْهُ وَمِنْ سَلَفِهِ الْكَرِيمِ عَلَى الطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ الْأَوَاصِرِ ، وَعَقَدَ لِيَوَاءِ الْمُلْكِ بِخَيْرِ مَلِكٍ وَهُوَ وَاحِدٌ فِي الْجُودِ أَكْثَرُ فِي الْوَعْدَى : فَخِيَ سَائِيَهُ تَقَعَّدَ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ ، وَأَطَابَ الْمَقَامَ فِي حَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَرَمِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ السُّلْطَنَةَ بِذَاتِهِ الشَّرِيفَةِ وَشَرَفِ الْعَنَاصِرِ ، وَسَهَّلَ الطَّرِيقَ ، إِلَى حَجِّ بَيْتِهِ الشَّيْقِ ، مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ فِي دَوْلَةٍ مِنْ أَجْمَعَتِ الْقُلُوبُ عَلَى تَحِيَّتِهِ وَوَرِثَ الْمُلْكَ كَارِبًا عَنْ كَارِبٍ ، وَأَنْطَقَى الْأَلْسِنَةُ بِالْهَمَاءِ لَهُ مِنْ كُلِّ وَاقِدٍ إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ عَلَى اخْتِلَافِ لُفَاتِهِمْ وَأَهْتَرَتْ لَوْصِفِ مَنَاقِبِهِ الْمُنَاصِرِ .

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا بَلَغَ مِنْ جَزِيلِ إِعْنَائِهِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا أَسْتَرِيدُ بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وَتَوَالِهِ وَإِكْرَامِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ نِعْمَ الْآخِرَةُ لِصَاحِبِهَا يَوْمَ لِقَائِهِ وَعِنْدَ قِيَامِهِ ، وَأَقُولُهَا خَالِصًا مُخْلِصًا وَبِإِقْوَزٍ مِنْ كَانَتْ آخِرَ كَلَامِهِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَشْرَفُ مَبْعُوثٍ إِلَى الْحَقِّ دُعَى جَاءَ بِأَشْرَفِ مَلَّةٍ ، قَتَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «عُمَرَةَ فِي رَمَضَانَ تَمِيزُ حَجَّهِ» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَجْمَعِهِمْ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

خُصُّوا عَلَى خَلِيفَتِهِ فِي أُمَّتِهِ الْمُخْصُوصِ بِالسَّبْقِ وَالْمُؤَاذَرَةِ وَالتَّصَدِيقِ ، مَوْلَانَا  
أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ؛ وَعَلَى مُظْهِرِ الْأَذَانِ وَمُصَدِّقِ الْخَطِّابِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ  
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؛ وَعَلَى مَنْ جَمَعَ عَلَى الْأُمَّةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، مَوْلَانَا أَهْبِرِ الْمُؤْمِنِينَ  
عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ؛ وَعَلَى آئِينَ عَمِّهِ ، وَارِثِ عَلَيْهِ ؛ الْجَامِعِ لِجَمِيعِ الْمَآثِرِ وَالْمَنَاقِبِ ،  
مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ؛ وَعَلَى بَقِيَّةِ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ ، سَادَاتِ  
الدُّنْيَا وَمُلُوكِ الْآخِرَةِ ؛ وَمُسَلِّمًا تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَالِكُ الْمُلْكِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْخَيْرُ بِيَدِهِ يُغِيْضُهُ  
عَلَى خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ وَيُلَادِيهِ ؛ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِبَادِهِ خَيْرًا نَصَرَ نَاصِرَهُمْ وَرَفَعَ  
عَنْهُمْ السَّلَا ، وَدَفَعَ عَنْهُمْ الْعَدَا ، وَوَلَّى عَلَيْهِمْ خَيْرَهُمْ ؛ فَيُقِيمُهُمْ مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ  
لِلنَّاسِ ، يُلْهِبَ عَنْهُمْ الضَّرَرَ وَيُزِيلَ عَنْهُمْ الْبَاسَ ؛ وَيَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ  
الْمُنْكَرِ ، وَيُنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ وَيَقِيمُ مَنَارَ الشَّرْعِ الْمَطْهُورِ .

وَلَمَّا كَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ ، وَالشَّاهِنشَاهُ الْمُعَظَّمُ ، الْمَلِكُ النَّاصِرُ - خَلَدَ اللَّهُ  
سُلْطَانَهُ - قَدْ جَمَعَ فِي الْمُتَحِدِّ بَيْنَ طَارِفٍ وَتَالِدٍ ، وَوَرِثَ الْمُلْكَ عَنْ أَشْرَفِ أَيْحٍ وَأَعْظَمِ  
وَالِدٍ ؛ وَقَامَتْ عَلَى أَسْتَحْضَاقِهِ لِلْسُّلْطَنَةِ الدَّلَائِلُ ، وَأَلْفَقَ سِرُّ الْمُلْكِ وَعَرَفَ فِيهِ مِنْ  
وَالِدِهِ وَمِنْ أَخِيهِ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى - الشَّمَائِلُ ؛ فَهُوَ الْمَالِكُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ الْمُلْكُ بِهِ  
أَهْلًا وَلَمْ يَزَلْ لَهُ أَهْلًا ، وَالسَّيِّدُ الَّذِي لَيْسَ حُلَّةُ التَّقَارُفِ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ فِي السُّؤْدُودِ وَالْفَخَارِ  
مِثْلًا ، وَالْمَلِكُ الَّذِي مَا يَبْدَأُ لِرَأْيِهِ إِلَّا قَبِيلُ : بِحَرِّ طَمَعِي أَوْ بِدَرِّ تَمَلُّي ؛ وَالْمُؤَيَّدُ الَّذِي  
حَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمُلُوكَاتِهِ وَأَرْقَانِهِ ، وَلَمْ يَرْضَ مَرَاقِدَ الْفِرَاقِدِ لَعْنَاتِهِ ؛ وَالكَرِيمُ الَّذِي  
سَادَ الْأَوَائِلَ وَالْآوَاخِرَ ، وَأَضْفَيْتِ عَلَيْهِ حُلُلُ الْفَسَاحِرِ ؛ وَالْمَنْصُورُ الَّذِي أُعْطِيَ عَلَى  
الْأَعْدَاءِ قُوَّةَ وَنَصْرًا ، وَالتَّائَصِرُ الَّذِي أَسْعَى جَمَالَ نَعْرِهِ فَأَخَذَ الْكُفَّارَ حَصْرًا ، وَحَكَمَتْ  
سُيُوفُهُ الْقَوَاضِبُ فَوَضَعَتْ عَنِ الْأَوْلِيَاءِ إِصْرًا ؛ قَدْ حَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَزِّ وَالنَّصْرِ كَرَّةً



بعد كره، وقضاه على سائر ملوك الإسلام بالحجّ وزيارَةِ النبيّ صلى الله عليه وسلم  
مرة بعد مرّة، ومرّة أخرى إن شاء الله تعالى ومرّة ومرّة !!! كم سلك سنن  
وأبده وأخيه - رحمهما الله تعالى - بالفرّاة فكان له كلّ مشهد مذكور، وعُرف  
تَقْصُّمُه وإفْئامُه فكان أعظم ناصير وأشرف منصور، يحمّله الله تعالى والناس من  
جبل ذبّه عن الإسلام ويحمّده، وأسقل الخزيل فيلّ الجميل لمن أمّ أبوابه  
الشريفة فلا يُستَكْرَهْ هذا من مثله، ما حملت رايّته الشريفة كتيبة إلا نصرت،  
ولا وقف بوجهه الكريم في دفع طائفة الكفر إلا كُفِرَتْ، ولا جهّز عساكره  
المنصورة إلى قلعة إلا أنزل أهلها من صياصيمهم، ولا حاصروا قنّراً للكفار إلا أخذوا  
بنواصيمهم، ولا سير سريرة لمواجهة محارب إلا نلّ على رُحمه، ولا نطق لسان الحمد  
للمجاهد أو سار الشاهد إلا وقف الحمد على قوله وأسمه، فاختاره الله تعالى على طمّ على  
المالين، وأجابه للذبّ عن الإسلام والمسلمين، وجعله لسلطانه وآرنا، وفي الملك  
مآباً، وللقهريّن ثالثاً، ولأموره ساداً، ولثغور بلاد الإسلام ساداً، وقوّض إليه  
القيام بمصالح الإسلام، والنظر في مصالح الخاصّ والعام، وعنى به أمور الممالك  
والأملاك، وأطلع بسعادته أيمن البروج في أثبت الأفلاك، وحمى الإسلام  
والمسلمين من كلّ جانب شرقاً وغرباً، وملأ بمهاجته البلاد والعباد رعباً وحُباً،  
وبسط في الهيطة حكمه وعدله، ونشر على الخلائق حلمه وقضاه، وفرض طاعته  
على جميع الأمم، وجعله سيّداً لملوك العرب والسّجّ، وآمن بمهاجته كلّ حاضِر وبَاد،  
وتوم سُكّان الحرمين الشريفين من كنفه في أوّل مهاده، وسكّن خواطر المجاورين  
من جميع المخاوف، وصان بالحقّ في مَكَّة الطائفة والمآكف، قد حسن مع الله  
تعالى سيرة وسيراً، ودلّت أيامه الشريفة أنه خير ملك أراد الله تعالى برعيته خيراً،  
وراعى الله فيها رعي، وسعى في مصالح الإسلام طلياً أن ليس للإنسان إلا ما سعى.

قد ملأ أعين الرعايا بالطمأنينة والهجوع، وأمتهم في أيامه الشريفة بالرخاء من الخوف والجوع، وجمع لهم بين سعادة الدنيا والآخرة، وسهل لهم الدخول إلى بيته الحرام براً وبحراً، وفتح الله تعالى على يديه - خلد الله تعالى سلطانه - جميع الأمصار، وملاً من مهابته جميع الأقطار :

فسارت مسير الشمس في كل بلدة \* وهبت هبوب الريح في القرب والبعد !

فوجب على العالمين أن يدعوا لدوخته الشريفة المباركة بطول البقاء، و[دوام] اللؤلؤ والازدهار، ووجب على كل من الواصلين إلى بيته الحرام وحضرة قدسه، أن يتהל بالدعاء له قبل أن يدعوا لنفسه؛ فكيف من هو مملوكه وابن مملوكه ووارث عبوديته، ومن لم يزل هو ووالده وإخوته في صدقات وإله الشهيد - رحمه الله تعالى - وعيم نعمته، السبد الفقير إلى الله تعالى أبو بكر بن محمد بن المكرم الأنصارى الخزرجي، فإنه لم يزل مدة أيامه مبتهلاً بصالح دعواته، متوسلاً إلى الله تعالى بدوام نصره وطول حياته؛ طامئاً عند مقامه الشريف حول بيته الحرام، والمشاعر العظام .

وأحب أن يُخففه بأشرف العبادة فلم يجد أجلاً مقداراً ولا أعظم أجراً، من غمرة يستمرها عنه ويهدى ثوابها لصحافته الشريفة ويزيد بذلك نفراً قام عنه بممرتين شريفتين أعتمرهما عنه في رمضان، مكملتين بإحراميهما وتلبيتيهما، وطوافيهما وسعياً بهما؛ يتقرب بذلك إلى أبواب الشريفة، ويسأل الله تعالى ويسأل صدقاته الشريفة أن ينعم عليه بنصف معلوم صدقة عليه، وينصفه لأولاده : ليقضى بقية غمره في الثلاثة للمساجد، ويخصه بجزيل الداء من كل راحة وساجد؛ وأن يكون ذلك مستمراً عليه مدة حياته، وعلى ذريته ونسبه وعقبه بصدقاته؛ لتشمل صدقات مولانا السلطان - خلد الله تعالى ملكه - الأحياء والأموات، ويطيب لعلمايه

في أيامه الشريفة الممات ؛ جعل الله تعالى مولانا السلطان وآرث الأعمار ،  
وأجرى بديوان أيامه الشريفة المنقار ؛ وجعل كلمة الملك باقية في عقبه ، وبلغه  
من النصر والظفر والأجر غاية أرويه ؛ وجعل أيامه كلها مسار وبشار ، ودولته تسر  
النواظر ، ومعادته ليس لها آخر ؛ ويهتفه بما قد آمنه الله له من ملك والده الشهيد  
رحمه الله تعالى :

[أهنيك] بالملك ياخير من \* أجار البرايا ومن مآرها ،  
ومن ليس للأرض ملك سواه \* تميل له الخلق أبصارها !  
وأنت الذي تملك الخالقين \* <sup>(١)</sup> وأعصارها ،  
وتملك سبب تكفورها \* وتركب بالهش أوعارها ،  
وتحكم في المرء حكم الملوك \* وتشد في التخت أشعارها ،  
وتفتح بغداد دار السلام \* وتفي بملكك أكدارها ،  
وتأخذ بالسكر الناصري \* قصور الخلافة أوتارها ،  
ويأمن في ذلك العالمون \* وتفي الأسود وأوتارها ،  
وتفي إلى أن تم البلاد \* بتعني تتابع إدارها ،  
ويبلغ ملكك أقصى البلاد \* وتجرى العباد وأوطارها ،  
ويظم سيرتك الناطمون \* وتفي مفازيك ثمارها ،

[والله يقيه] <sup>(١)</sup> بعدها دائما ناصر الدنيا والإسلام والمسلمين ، كما سماه والده  
ناصر الدنيا والدين ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

## الباب الثاني

من المقالة العاشرة في الهزليات<sup>(١)</sup>

أعلم أنه رُبَّمَا أَعْتَلَّتِ الْمُلُوكُ بِمِصْهُ ، فَأَقَرَّحَتْ عَلَى كُتَّابِهَا لِإِنْشَاءِ شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ  
الْهَزْلِيَّةِ ، فَيَحْتَاجُونَ إِلَى الْإِثْنَانِ بَهَا عَلَى وَفْقِ غَرَضِ ذَلِكَ الْمَلِكِ . كَمَا وَقَعَ لِمُعِينِ الدَّوْلَةِ  
أَبْنِ بُوَيْهِ الدِّيَلْبِيِّ فِي أَقْرَاحِهِ عَلَى أَبِي إِصْحَقِ الصَّبَّاحِيِّ كِتَابَةً عَهْدٍ بِالتَّطَفُّلِ ، لِرَجُلٍ كَانَ  
عِنْدَهُ أَشْمُهُ طَلِيكًا ، يُنْسَبُ إِلَى التَّطَفُّلِ ، وَيَسْخَرُ مِنْهُ السُّلْطَانُ بِسَبَبِ ذَلِكَ .

وهذه نسخة عَهْدٍ بِالتَّطَفُّلِ ، الَّتِي أَنْشَأَهَا أَبُو إِصْحَقِ الصَّبَّاحِيُّ لَطَلِيكَا الْمَذْكُورِ :

هَذَا مَا عَهْدَ عَلَى بْنِ أَحْمَدَ الْمَعْرُوفِ بِطَلِيكَا إِلَى عَلِيِّ بْنِ عُرْسِ الْمُوَصِّلِيِّ ، حِينَ  
اسْتَخْلَفَهُ عَلَى إِحْيَاءِ سُلْطَنِهِ ، وَأَسْتَنْابِهِ فِي حِفْظِ رُسُومِهِ ، مِنَ التَّطَفُّلِ عَلَى أَهْلِ مَدِينَةِ  
السَّلَامِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنْ أَرْبَاضِهَا وَأَكْثَافِهَا ، وَيَجْرِي مَعَهَا فِي سَوَادِهَا وَأَطْرَافِهَا ،  
لِمَا تَوَسَّعَ فِيهِ مِنْ قِلَّةِ الْحَيَاءِ ، وَثِقَلَةِ اللَّقَاءِ ، وَكَثْرَةِ اللَّقَمِ ، وَجَوْدَةِ الْهَضْمِ ، وَرَأَى  
أَهْلًا لَهُ مِنْ سَدِّ مَكَانِهِ ، وَالرَّفَاعَةِ الْمُهْمَلَةِ الَّتِي فُطِنَ لَهَا ، وَالرَّفَاعَةِ الْمُطْرَحَةِ الَّتِي أَهْتَدَى  
إِلَيْهَا ، وَالتَّمِّمِ الْعَائِدَةِ عَلَى لَا يَسِيهَا بِمَلَاذِ الطُّعُومِ ، وَخَضِبِ الْجُسُومِ ، وَرَدًّا عَلَى مَنْ  
أَسْعَتْ حَالَهُ ، وَأَقْدَرَهُ اللَّهُ عَلَى غَرَائِبِ الْمَاكُولَاتِ ، وَأُظْفَرِهِ بِبِدَائِعِ الطَّيِّبَاتِ ، أَخَذًا  
مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ بِنَصِيبِ الشَّرِيكِ الْمُتَنَاصِفِ ، وَضَارِبًا فِيهِ بِسْمِ الْخَلِيطِ الْمُقَاوِضِ ،  
وَسُتْعَمَلًا لِدَخَلِ اللَّطِيفِ عَلَيْهِ ، وَالْمُتَوَجِّعِ الْعَجِيبِ إِلَيْهِ ، وَالْأَسْبَابِ الَّتِي سَتُفْشَرُ  
فِي مَوَاضِعِهَا مِنْ أَوَامِرِ هَذَا الْكُتَّابِ ، وَتُسْتَوْفَى الدَّلَالَةُ عَلَى مَا فِيهَا مِنْ رَشَادٍ وَصَوَابٍ ،  
وَبَاقِهِ التَّوْفِيقُ وَعَلَيْهِ التَّوَكُّلُ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

(١) ذكر المؤلف في بيان محتويات الكتاب في الجزء الأول (ص ٣٢) أن الباب الثاني في الهزليات  
يشتمل على ضلabin : الفصل الأول فيها أعتلت الملوك بمصه . الفصل الثاني في سائر أنواع الهزل ، ولكنه  
لم يذكر هذا الفصل الثاني ، فليتبين .

أمره بتقوى الله التي هي الجانب العزيز، والجَزُ الحَرِيز، والركن المتبع، والطود  
الرفيع، والصفة الكائنة، والجنة الواقعة، والزاد النافع يوم المعاد، وحيث الأمثلة  
من الأزواد؛ وأن يستشعر خيفته في سره وجهه، ويرأيه في قوله وفعله؛ ويعمل  
رضاه مطلبه، وتوابعه مكسبه، والقربة منه أربه، والزلفى لديه غرضه؛ ولا يخالفه  
في مسعاة قدم، ولا يتعرض عنده لعاقبة تدم، ولا يهمل على ما كره وأنكر،  
ولا يتقاعس عما أحب وأمر.

وأمره أن يتأدب بأدبه فيما يأتي ويتر، ويقف على حدوده فيما أباح وحظر؛  
فإنه إذا كان ذلك حياءً وديانة، وجرى عليه منهاجه وسننه، تكفل الله له بالتجاح  
والصلاح، وأفضى به إلى الرشاد والصلاح؛ وأظفروه بكل بنية، وأوصله إلى كل  
مشيه؛ ولم يخله من الفوز بما يُرصد، والحوز بما يقصد؛ بذلك وعد، وكذلك  
يفعل، وما توفيقنا إلا بالله، ولا مرجعنا إلا إليه.

وأمره أن يتأمل اسم التطفيل ومعناه، ويعرف مغزاه ومنهجه؛ ويتصفحه تصفح  
الباحث عن حظه بمحموده، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده؛ فإن كثيراً من الناس  
قد استقبحه من فعله، وكرهه لمن استعمله؛ ونسبه فيه إلى الشر والنهم، وحمله  
منه على التثني والقرم؛ فمنهم من خلط في استدلاله، فأساء في مقاله؛ ومنهم من شح  
على ماله، فدافع عنه بأحاديثه؛ وكل الفريقين مئوم، وجميعهما مئوم؛ لا يتلفان  
بمذير واضح، ولا يعتريان من لباس قاضح؛ ومنهم الطائفة التي ترى فيها شركة العنان:  
فهي تتدله إذا كان لها، وتتدل عليها إذا كان لغيرها؛ وترى أن المنة في المطعم للهاجم  
الآكل، وفي المشرب للوارد الواعل، وهي أحق بالحري، وأخلق بالخيرية؛ وأخرى  
بالمرء، وأولى بالفتوة؛ وقد عرفت بالتطفيل، ولا عار فيه عند ذوي التحصيل،

لأنه مُشتَقٌّ من الطَّفَل وهو وقت المساء، وأَوَّلُ العَشاء؛ فلما كَثُرَ اسْتَعْمِلَ في صَدْرِ  
النَّهَارِ وَخِجْرِهِ، وَأَوَّلِهِ وَآخِرِهِ، كَمَا قِيلَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ: قَمَرَانِ وَأَحَدُهُمَا الْقَمَرُ،  
وَلَا بِي بَكَرٍ وَخَمَرٍ: الْبُحْرَانِ وَأَحَدُهُمَا عَمْرٌ، وَقَدْ مَبَقَ إِمَامُنَا بَيَّانُ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى  
هَذَا الْأَمْرِ سَبْقًا أَوْجَبَ لَهُ نَحْوُ الدَّكَرِ، فَهُوَ بَاقٍ بَقَاءَ الدَّهْرِ، وَمُتَّجِدٌ فِي كُلِّ  
عَصْرِ، وَمَا نَعْرِفُ أَحَدًا نَالَ مِنَ الدُّنْيَا حَقًّا مِنْ حَقُولِهَا فَبَقِيَ لَهُ مِنْهُ أَثَرٌ يَخْلُفُهُ،  
وَصِيَّتٌ يَسْتَبْدِ بِهِ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ، فَبَيَّانُ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِ يُذَكِّرُ بِتَطْفِيلِهِ كَمَا تُذَكِّرُ  
الْمُلُوكُ بِسَبَرِهَا، فَمَنْ بَلَغَ إِلَى نَهَاجِهِ، أَوْجَرَ إِلَى ظَافِهِ، سَعَدَ بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ  
فِي يَوْمِهِ، وَنَهَاجُهُ ذِكْرُهُ فِي عِلْدِهِ، جَعَلَنَا اللَّهُ جَمِيعًا مِنَ السَّاهِبِينَ إِلَى مَدَاهِ، وَالْمَذْكُورِينَ  
كَذِكْرَاهِ.

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَمَدَّ مَوَائِدُ الْكِبَرَاءِ وَالْعُظَمَاءِ بِغَزَائَاهِ، وَمُحْطَاتِ الْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ بِسَرَائِيهِ،  
فَإِنَّهُ يَنْظُرُ مِنْهَا بِالْفَنِيمَةِ الْبَارِزَةِ، وَيَصِلُ عَلَيْهَا إِلَى الْغَرِيْبَةِ النَّادِرَةِ، وَإِذَا اسْتَقْرَاهَا  
وَجَدَ فِيهَا مِنْ طَرَائِفِ الْأَلْوَانِ، الْمُلَذَّةِ لِلْسَّانِ، وَبَدَائِعِ الطُّعُومِ، السَّائِغَةِ فِي الْحَقُومِ،  
مَا لَا يَجِدُهُ عِنْدَ غَيْرِهِمْ، وَلَا يَنَالُهُ إِلَّا لِنَيْهِمْ، لِخَلْقِ صِنَاعَتِهِمْ، وَجُودَةِ أَدْوَانِهِمْ،  
وَأَتْرَافِ عِلَالِهِمْ، وَكَثْرَةِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ، وَاللَّهُ يُوفِّرُ مِنْ ذَلِكَ حَقْلَنَا، وَيُسَدِّدُ نَحْوَهُ لِحَقْلَنَا،  
وَيُوجِّعُ عَلَيْهِ دَلِيلَنَا، وَيُسَهِّلُ إِلَيْهِ سَبِيلَنَا.

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَّبِعَ مَا يَغْرِضُ لِمُوسِرَى الثُّجَارِ، وَيُجَهِّزِي الْأَمْصَارِ، مِنْ وَكْرَةِ الدَّارِ،  
وَالْعُرْسِ وَالْإِخْطَارِ، فَإِنَّهُمْ يُوسِعُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي التَّوَاتُبِ، بِحَسَبِ تَقْصِيفِهِمْ عَلَيْهَا  
فِي الرِّائِبِ، وَرُبَّمَا صَبَرُوا عَلَى تَقْطِيفِ الْمُسْتَطْفِلِينَ، وَأَغْضَوْا عَلَى تَهْجُمِ الْوَاعِلِينَ،  
لِيَتَحَدَّثُوا بِذَلِكَ فِي عَمَافِهِمُ الرِّذْلَةِ، وَيَعُدُّوهُ فِي مَكَارِمِ أَخْلَاقِهِمُ التَّنَلَةِ، وَيَقُولُ قَائِلُهُمُ  
الْبَاحِجُ بِأَسَاعِ طَعَامِهِ، الْمُسَاهِمِينَ بِكَثْرَةِ حُطَامِهِ: إِنْ كُنْتُ أَرَى الْوُجُوهَ الْغَرِيْبَةَ  
قَاطِعِيهَا، وَالْأَيْدِي الْمَمْتَنَّةَ قَامِلُوها، وَهَذِهِ طَائِفَةٌ لَمْ تُرَدِّ بِمَا فَعَلَتْهُ الْكَرَمُ وَالسَّعَةِ،

وإنما أَرَادَتِ الْمَنَّ وَالسُّمْعَةَ ؛ فَإِذَا أَهْتَدَى الْأَرِيبُ إِلَى طَرِيقِهَا وَصَلَ إِلَى بُغْيَتِهِ  
مِنْ إِعْلَانِ قَضِيَّتِهَا ، وَفَازَ بِمُرَادِهِ مِنْ ذَخَائِرِ حَسَنَتِهَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يُصَادِقَ قَهَّارَةَ الثَّوْرِ وَمُدَبِّرِيهَا ، وَيُرَاقِبَ وَكَلَاءَ الْمَطَايِجِ وَحَمَالِيهَا ؛ فَإِنَّهُمْ  
يَمْلِكُونَ مِنْ أَصْحَابِهِمْ أَزِمَةً مَطَاعِمِهِمْ وَمَشَارِبِهِمْ ، وَيَضَعُونَهَا بِحَيْثُ يُحِبُّونَ مِنْ أَهْلِ  
مَوَدَّاتِهِمْ وَمَعَارِفِهِمْ ؛ وَإِذَا عَدَّتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا مِنْ خَلَلِهَا ،  
وَأَتَّخَذَتْهُ آخًا مِنْ إِخْوَانِهَا ؛ سَعِدَ بِمُرَاقَبَتِهَا ، وَوَصَلَ إِلَى عَاجِبِهَا مِنْ جِهَاتِهَا ، وَمَآرِيهِ  
فِي جَنَابَتِهَا ،

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَمَهَّدَ أَسْوَاقَ الْمُسَوِّقِينَ ، وَمَوَاسِمَ التَّنَاجِيحِينَ ؛ فَإِذَا رَأَى وَظِيفَةً قَدْ زِيدَ  
فِيهَا ، وَأَطْعِمَةً قَدْ أَحْتَشَدَ مُشْتَرِيهَا ؛ أَتْبَعَهَا إِلَى الْمَقْصِدِ بِهَا ، وَشَبِعَهَا إِلَى الْمَنْزِلِ  
الْحَاوِي لَهَا ؛ وَاسْتَعْلَمَ مِيقَاتَ الدَّعْوَةِ ، وَمَنْ يَحْضُرُهَا مِنْ أَهْلِ النَّسِيَانِ وَالْمُرُوءِ ؛  
فَإِنَّهُ لَا يَخْلُو فِيهِمْ مِنْ مَآرِفٍ بِهِ يُرَاعَى وَقْتُ مَصِيرِهِ إِلَيْهَا لِيَتَّبِعَهُ ، وَيَكُنَّ لَهُ لِيَصْحَبَهُ  
وَيَدْخُلَ مَعَهُ ؛ وَإِنْ خَلَا مِنْ ذَلِكَ أَخْطَلَطَ بَزْمِ الدَّخَالِينِ ، وَعُصْبِ الرَّاحِلِينَ ؛  
فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ حَتَبَ الْأَبْوَابِ ، وَيَخْرُجَ مِنْ سُلْطَانِ الْبَوَايِنِ وَالْمَجْجَابِ ؛ حَتَّى  
يَحْتَصِلَ حَصُولًا قَلَّ مَا حَصَلَ [عَلَيْهِ] أَحَدٌ قَبْلَهُ فَانْصَرَفَ عَنْهُ إِلَّا ضَلِيلًا مِنَ الطَّلَامِ ،  
بَرِيْقًا مِنَ الْمُلْدَامِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَنْتَصِبَ الْأَرَصَادُ عَلَى مَنَازِلِ الْمُفْغِيَاتِ وَالْمُفْغِيَتَيْنِ ، وَمَوَاطِنِ الْأَبْيَاتِ (٩)  
وَالْمُحْشِيَتَيْنِ ؛ فَإِذَا آتَاهُ خَبَرُ تَجَمُّعِ بَعْضِهِمْ ، وَمَادِيَةِ تَعَمُّقِهِمْ ؛ ضَرَبَ إِلَيْهَا أَعْنَاقَ إِيْلِهِ ،  
وَأَنْفَضَى نَحْوَهَا مَطَايَا خَيْلِهِ ؛ وَحَمَلَ عَلَيْهَا حِمْلَةَ الْحَوْتِ الْمُتَقِمِّ ، وَالثَّعْبَانِ الْمُتَلَتِّمِ ؛  
وَاللَّبِثِ الْمَاصِرِ ، وَالْعُقَابِ الْكَامِرِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَجَنَّبَ جَمَاعَ الْعَوَامِّ الْمُقْلِينَ ، وَمَحَافِلَ الرِّعَاعِ الْمُفْتَرِينَ ؛ وَأَنْ لَا يَنْقُلُ  
إِلَيْهَا قَدَمًا ، وَلَا يُسْقِرَ لَهَا كَلِمَةً ؛ وَلَا يَلْقَى فِي حَتَبِ ثَوْرِهِا كَيْسَانًا ، وَلَا يَمُدَّ الرَّجُلُ

منها إنسانا ؛ فإنها عصابةٌ يجتمع لها ضيقُ النفوس والأحلام ، وقلةُ الإحكام والأموال ؛  
وفى التطفيل عليها إخمافٌ بها يؤسم ، وإزرائؤه برؤية المتطفل يومه ؛ والتجنبُ لها  
أحرى ، والأزورار عنها أحمى ؛ إن شاء الله .

وأمره أن يجزُر الخوانَ إذا وُضِع ، والطعامَ إذا قُهِل ؛ حتى يعرف بالحدس  
والتقريب ، والبحث والتفتيش ؛ حدَّ الاكوان في الكثرة والقلَّة ، وأقناتها في الطيب  
واللَّذَّة ؛ فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها ، ويتبهى منها عند آتائها ؛ ولا يفوته  
النصيبُ من كثيرها وقليلها ، ولا يخطئه الحظُّ من دقيقها وجليلها . ومتى أحسَّ بقلَّة  
الطعام ، وعجزه عن الأقوام ؛ أَمِنَ في أوله إيمانَ الكيس في سَعته ، الرشيد في أمره ،  
المالِي لبطنه ؛ من كُلِّ حارٍّ وبارد ، وخبيثٍ وطيب ؛ فإنه إذا فعل ذلك سلمَ من  
عواقب الأحمار الذين يكفون قَطْرًا ، ويقلون تَأْدِبًا ؛ ويظنون أن المأدَّة تبلغهم  
في آخر أمرهم ، وتنتهي بهم إلى غاية سَمِّهم ؛ فلا يلبثوا أن يحجلوا بحملة الواثق ،  
ويتقلبوا بحمرة الخائب ؛ أَعَاذَنَا اللهُ من مثل مقامهم ، وعصمتنا من شقاء جلودهم ؛  
إن شاء الله .

وأمره أن يروض نفسه ، ويقاطح حسه ؛ ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحا ،  
ويطوى دونه كشفا ، ويستحسن الصمم عن الفحشا ؛ وإن آتته اللذَّة في حلقه ،  
صبر عليها في الوصول إلى حَقِّه ؛ وإن وقعت به الصفعة في رأسه ، صبر عليها لموقع  
أضرارها ؛ وإن لقيه لاقٍ بالحقاء ، قابله باللطف والصفاء ؛ إذ كان قد وُجَّح الأبواب ،  
وخاطب الأسباب ؛ وجلس مع الحضور ، وأمتزج بالجمهور ؛ فلا بدُّ أن يلقاه المنكر  
لأمره ، ويمر به المستغرب لوجهه ؛ فإن كان حراً حياً أمسك وقدم ، وإن كان ظناً  
غلطاً منهم وتكلم ، وتجنب عند ذلك الخاشنة ، واستعمل مع المخاطب له الملاينة ؛  
ليبرد غيظَه ، ويقل حَمَدَه ؛ ويكفَّ غمرَه ، ويأمن شغبَه ؛ ثم إذا طال المدى



تكررت الإلحاط عليه فعرف، وأثبتت النفوس به فألف؛ ونال من الحال المجتمع عليها، مثال من حُشِمَ وسئل التَّعَابَ إليها .

وقد بلغنا أن رجلاً من العصابة كان ذا فهم ودراية، وعقل وحصافة؛ طُفِّلَ على وليه، لرجل ذي حال عظيمه؛ فرمقته فيها من القوم العيون، وصرفت بهم فيه الظنون؛ فقال له قائل منهم : من تكون أعزك الله ؟ فقال : أنا أول من دُعِيَ إلى هذا الحق . قيل له : وكيف ذاك ونحن لا نعرفك ؟ فقال : إذا رأيت صاحب الدار عرفتني وعرفته نفسي . فحى به إليه ، فلما رآه بدأه بأن قال له : هل قلت لطباخك : أن يصنع طعامك زائداً على عدد الحاضرين، ومقدار حاجة المدعوين؛ قال : نعم ! قال : فإنما تلك الزيادة لى ولا مثالى، وبها يُستظهر لمن جرى مجرى، وهي رزق لنا أنزله الله على يدك وبك، فقال له : كرامة ورُحبا، وأهلاً وقرباً؛ والله لا جلست إلا مع عليّة الناس ووجوه الجلساء، إذ أطرفت في قولك، وتفتنت في فعلك . فليكن ذلك الرجل إماماً يُقتدى به، ويُقتنى طريقه، إن شاء الله .

وأمره بأن يكثر من تعاهد الجوارشات المتقدمة للسدد، المقوية للبعد؛ المشبهة للطعام، المسهلة لسبل الانهزام؛ فإنها عماد أمره وقوامه، وبها انتظامه وأثبتانه؛ إذ كانت تعين على عمل الدعوتين، وتنهض في اليوم الواحد الأكتين؛ وهو يتناولها كذا كالكتاب الذى يقط أعلامه، والحندي الذى يصقل حسامه؛ والصانع الذى يحمّد آتته، والماهر الذى يصلح أدواته، إن شاء الله .

هذا عهد طليكان أحمد إليك، ومُجته لك وعليك؛ لم يالك فيه إرشاداً وتوقيفاً، وتهذيباً وتثقيفاً، وبعثاً وتبصيراً، وحنّاً وتذكيراً؛ فكن بأوامره مؤثراً، وبزواجره مُزديراً؛ ورسومه متبجاً، ويحفظها مضطجلاً؛ إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

## الخاتمة

في ذكرِ أمورٍ تتعلق بديوان الانشاء غير أمور الكتابة ،  
وفيها أربعة أبواب

## الباب الأول

في الكلام على البريد ، وفيه فصلان

## الفصل الأول

في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها ، ويتعلق الغرض  
من ذلك بثلاثة أمور

## الأمر الأول

(معرفة معنى لفظ البريد لفظةً وأصطلاحاً)

أما معناه لفظةً ، فالمراد منه مسافة معلومة مقسمة بأثنى عشر ميلاً ، وأحتاج له  
الجوهري بقول مُرَرِّدٍ يَمْلَحُ عَرَابَةَ الْأَوَيْسِ :

فَذَلِكَ عَرَابَ الْيَوْمِ أَيُّ وَخَالَي ، \* وَنَاقِي النَّجَى إِلَيْكَ يَرِيدُهَا !

يُرِيدُ سَيْرَهَا فِي الْبَرِيدِ . وقد قدره الفقهاء واصلها المسالك والممالك بأنه أربعة  
فَرَاسِخَ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي ، وهو أربعة  
وعشرون أضعاً ، كُلُّ أَصْبَعٍ سِتُّ شَعِيرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ ، ظَهَرُ أَحَدَاهَا لِبَطْنِ الْأُخْرَى ،  
وَالشَّعِيرَةُ سَبْعُ شَعْرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ مِنْ ذَنْبٍ بَقِيلٍ أَوْ رَذُونٍ .

قال الجوهري: ويقال أيضا على البريد: المُرَبُّ، يقال: حَمَلَ فُلَانٌ عَلَى الْبَرِيدِ.  
قال: وَيُطْلَقُ أَيْضًا عَلَى الرَّسُولِ بَرِيدٌ.

ثم اختلف فيه قيل: إنه عَرَبِيٌّ. وعلى هذا ذهب الخليل إلى أنه مُشْتَقٌّ مِنْ  
بَرَدْتُ الْحَلِيدَ إِذَا أَرْسَلْتُ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ، وقيل: من أَبْرَدْتُهُ إِذَا أَرْسَلْتُهُ، وقيل: من بَرَدَ  
إِذَا تَبَّتْ، لأنه يَأْتِي بِمَا تَسْتَقِرُّ عَلَيْهِ الْأَخْبَارُ، يقال: \* الْيَوْمَ يَوْمٌ يَأْرِدُ مُمْمُوهُ \*  
أَي تَأَيَّتْ.

وذهب آخرون إلى أنه فَارِسِيٌّ مَرْبٌ. قال أبو السامدات بن الأمير في كتابه  
”النهاية في غريب الحديث“: وأصله بالفارسية بريد دم، ومعناه مقصود  
الذنب، وذلك أن ملوك الفرس كانت من عادتهم أنهم إذا أقاموا بئلا في البريد قصوا  
ذنبه، ليكون ذلك علامة لكونه من يقال البريد، وأنشد الجوهري لأمرئ القيس:  
عَلَى كُلِّ مَقْصُوصٍ الذَّنَابِيُّ مُعَاوِدٌ \* بَرِيدَ السَّريِّ بِاللَّيْلِ مِنْ خَيْلٍ بَرِّارٍ.

### الأمير الثاني

(أول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن)

أما في الجاهلية، فقد ذكر في ”التعريف“: أن البريد كان موجودًا في عهد  
الأكاسرة من ملوك الفرس، والقباصرة ملوك الروم. قال: ولكن لا أعرف هل  
كان على البريد المحرر أو كانت مقاديره متفاوتة كما هو الآن؟ ثم قال: ولا أعلمه  
إلا على التقدير المحذور، إذ كانت حكومتهم تأتي إلا ذلك.

وأما في الإسلام فقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه ”الأوائل“: أن أول من  
وضعه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما. قال في ”التعريف“:

وذلك حين استقرت له الخلافة، ومات أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وسلم له ابنه الحسن عليه السلام، وخلا من المنازع، فوضع البريد لتسريح إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها، فأمر بإحضار رجال من دعاة القيس وأهل أعمال الروم وعرفهم ما يريد، فوضعوا له البريد. قال: وقيل: إنما قيل ذلك زمن عبد الملك ابن مروان حين خلا وجهه من الخوارج طيه: كعمرو بن سعيد الأشدق، وعبد الله بن الزبير، ومصعب بن الزبير، والمختار بن أبي عبيد.

والذى ذكره العمري: أن عبد الملك إنما أحكمه. ويذكر عنه أنه قال لابن الدغيدغة: وليتك ماحضر باني إلا أربعة: المؤذن، فإنه داعي الله تعالى فلا حجاب عليه. وطارق الليل، فتر ما أتى به ولو وجد خيرا نأتم. والبريد، فتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه، فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة. والطعام إذا أدرك، فأفجج الباب وأرفع الحجاب وخل بين الناس وبين الدخول. ثم قال: ويذكر هذا الكلام عن زياد أيضا.

قال في "التعريف": وكان الوليد بن عبد الملك يحمل عليه الفسيفساء وهي النصف المذهب من القسطنطينية إلى دمشق، حتى صفع منه حيطان المسجد الجامع بها، ومساجد مكة والمدينة والقدس.

قال: ثم لم يزل البريد قائما، والعمل عليه دائما، حتى آن لبناء الدولة المروانية أن يتقضى، ولحليها أن يتحكت، فأقطع ما بين نجرسان والعراق، لأنصرف الوجوه إلى الشيعة القائمة بالدولة العباسية. ودام الأمر على ذلك حتى انقضت أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وملك السفاح، ثم المنصور، ثم المهدي، والبريد لا يسد له سرج، ولا تلجم له دابة. ثم إن المهدي أغرَى ابنه هرون الرشيد الروم، وأحب أن لا يزال على علم قريب من خبره، فرتب فيا بينه وبين

مُسَكَّرَ آيَةٍ بُرْدًا كَانَتْ تَأْتِيهِ بِأَخْبَارِهِ، وَتُرِيدُهُ مُجَدِّدَاتِ أَيَّامِهِ . فَلَمَّا قَفَلَ الرَّشِيدُ قَطَعَ الْمَهْدِيُّ تِلْكَ الْبُرْدَ ، وَدَامَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا بَاقِيَ مَدَّتِهِ وَمُدَّةِ خِلَافَةِ مُوسَى الْهَادِي بَعْدَهُ . فَلَمَّا كَانَتْ خِلَافَةُ هُرُوفِ الرَّشِيدِ، ذَكَرَ يَوْمًا حُسْنَ صَبِيحِ آيَةٍ فِي الْبُرْدِ الَّتِي جَمَعَهَا بَيْنَهُمَا، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : لَوْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِجْرَاءِ الْبَرِيدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، كَانَ صَلَاحًا لِلْمَلِكَةِ . فَأَمَرَهُ بِهِ فَقَرَّرَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ، وَرَتَّبَهُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ، وَجَعَلَ الْبَغَالُ فِي الْمَرَكَزِ، وَكَانَ لَا يُجَهَّزُ عَلَيْهِ إِلَّا الْخَلِيفَةُ أَوْ صَاحِبُ الْخَبَرِ، ثُمَّ اسْتَمَرَ عَلَى هَذَا . فَلَمَّا دَخَلَ الْمَأمُونُ بِلَادَ الرُّومِ وَنَزَلَ عَلَى نَهْرِ الْبَرْذَوْنِ وَكَانَ الزَّمَانُ حَرًّا، وَالْفَصْلُ صَبِيحًا، قَعَدَ عَلَى النَّهْرِ وَدَلَّ رِجْلِيهِ فِيهِ وَشَرِبَ مَاءَهُ ، فَاسْتَعْدَبَهُ وَأَسْتَبْرَدَهُ وَاسْتَطَابَهُ ، وَقَالَ لِمَنْ كَانَ مَعَهُ : مَا أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ؟ ، فَقَالَ كُلُّ رَجُلٍ بِرَأْيِهِ . قَالَ هُوَ : أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ رُطْبُ إِزَازٍ ، فَقَالُوا لَهُ : يَبِيشُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْتِيَ الْعِرَاقَ وَيَأْكُلَ مِنْ رُطْبِهَا الْإِزَازَ ، فَمَا اسْتَمْتَمُوا كُلَّامَهُمْ حَتَّى أَقْبَلَتْ بِغَالِ الْبَرِيدِ تَحْمِلُ أَطْفَالًا فِيهَا رُطْبُ إِزَازٍ ، فَأَتَى الْمَأمُونُ بِهَا فَأَكَلَ مِنْهَا وَأَمْعَنَ وَشَرِبَ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ . فَكَثُرَ تَعَجُّبُ الْحَاضِرِينَ مِنْهُ لِسَعَادَتِهِ فِي أَنَّهُ لَمْ يَقُمْ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى يَلْغُ أَمْنِيَّتُهُ ، عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ مِنْ تَعَدُّرِهَا . فَلَمْ يَقُمْ الْمَأمُونُ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى حُمِيَ حَادَّةً كَانَتْ فِيهَا مَنِيَّتُهُ .

ثُمَّ قَطَعَ بَنُو بُوَيْهِ الْبَرِيدَ حِينَ طَلَوْا عَلَى الْخِلَافَةِ وَظَلَمُوا عَلَيْهَا ، لِيَخْفَى عَلَى الْخَلِيفَةِ مَا يَكُونُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ أحيانًا قَصِيمٍ بَغْدَادَ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ لَا يَرَالُ بِأَخْبَارِهِمْ عَلَى بَشَّةٍ .

ثُمَّ جَاءَتْ مَلُوكُ السَّلَاجِقَةِ عَلَى هَذَا ، وَأَمَّهُمْ مَلُوكُ الْإِسْلَامِ اخْتِلَافُ ذَاتٍ بَيْنَهُمْ وَتَنَازُعُهُمْ ، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ إِلَّا الرُّسُلُ عَلَى الْخَيْلِ وَالْبَغَالِ، فِي كُلِّ أَرْضٍ بِحَسَبِهَا .

فلما جاءت الدولة الزنكية أقامت لذلك النجاة ، وأمدت له التجب المتخبة .  
 ودام ذلك مدة زماينها ثم زمان بني أيوب إلى اقراض دولتهم . وتبعها على ذلك  
 أوائل الدولة التركية ، حتى صار الملك إلى الملك الظاهر بيبرس رحمه الله ، واجتمع له  
 ملك مصر والشام وحلب إلى القرات ، وأراد تجهيز دولته إلى دمشق فعين لها نائبا ،  
 ووزيرا ، وقاضيا ، وكتيبا للأشياء .

قال : وكان عمي صاحب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب رحمه الله هو كاتب  
 الإنشاء ، فلما مثل إليه ليودعه ، أوصاه وصايا كثيرة ، أكدها مواسلته بالأخبار  
 وما يتجدد من أخبار التار والفرنج ، وقال له : إن قدرت أن لا تبيني كل ليلة إلا على  
 خير [ ولا تُصبغني إلا على خير ] فافعل ، ففعل <sup>(١)</sup> ، فمضى له بما كان عليه البريد في الزمان  
 الأول وأيام الخلفاء ، وعرضه عليه حسن موقعه منه وأمر به . قال عمي : فكنت أنا  
 المقرر له قدامه وبين يديه . ثم ذكر أنه لم يزل باقيا على ذلك إلى أيامه . ثم قال :  
 وهو جناح الإسلام الذي لا يحصى ، وطرف قديمته التي لا تحصى .

قلت : ولم يزل البريد بعد ذلك مستقرا بالديار المصرية والممالك الشامية إلى أن  
 غشي البلاد الشامية تمرلك صاحب ما وراء النهر ، وقنع دمشق وعربها وحرقتها  
 في سنة أربع وثمانمائة ، فكان ذلك سببا لحص جناح البريد وبطلانه من سائر  
 الممالك الشامية . ثم سرى هذا السم إلى الديار المصرية فالحقها بالهمل ، ورماها  
 بعد الحلي بالطل ، فذهبت معالم البريد من مصر والشام ، وعفت آثاره ، وصار إذا  
 عرض أمر من الأمور السلطانية في بعض نواحي الديار المصرية أو الممالك الشامية ،  
 ركب البريد على قوس له ، يسير بها الهويتا سير المسافر إلى المكان الذي يريد ،  
 ثم يعود على هذه الصورة ، فيحصل بواسطة ذلك الإبطاء في الذهاب والإياب .

## الأمر الثالث

## (بيان معالم البريد)

إِعلم أنه كان فيما تقدم في زمن الخلفاء للبريد شخص مخصوص يتولى أمره بتفصيل ما يصدر وتلقى ما يرد، يُعبر عنه بـ «صاحب البريد». ومن تعرض إلى ذلك أبو جعفر النحاس في كتابه «صناعة الكتاب» في الكلام على أرباب الوظائف، وأشتقاق اسمائهم. وقد أشار إليه الجوهري في صحاحه أيضا فقال: ويقال أبرد صاحب البريد إلى الأمير فهو مُبرِدٌ يعني أرسل إليه البريد.

ثم قد تقدم في مقدمة الكتاب في الكلام على صاحب ديوان الإنشاء وماله التحدث عليه. أن صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية هو المتولى لأمر البريد وتنفيذ أموره في الإيراد والإصدار. وكان للبريد ألواح من فضة محلاة بديوان الإنشاء تحت أمر كاتب السر بالأبواب السلطانية، مقلد على وجهي اللوح نقشا من دوجا ماضورة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون». ضرب بالقاهرة المحروسة. وعلى الوجه الآخر ماضورة: «عن مولانا السلطان الملك الغلاتي: فلان الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، فلان، ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الغلاتي فلان، خلد الله ملكه». وفي ذلك اللوح ثقب معلق به شراية من حرير أصفر ذات بتدين، يعطها البريدي في عنقه، بإدخاله رأسه بين البتدين، ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه، والشراية خلفه من فوق ثيابه. فلذا نخرج بريدي إلى جهة من الجهات، أعطى لوتحا من تلك الألواح، يعلقه في عنقه، على ما تقدم ذكره، وينهب إلى جهة قصده، فكل من رأى تلك الشراية خلف ظهره علم أنه بريدي. وبواسطة

ذلك تُدْعَى لَهُ أَرْبَابُ الْمَرَآكِرِ بِتَسْلِيمِ خَيْلِ الْبَرِيدِ . وَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَذْهَبَ  
وَيَعُودَ ، فَيُعِيدُ ذَلِكَ اللَّوْحَ إِلَى دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ .

وَكَذَلِكَ الْحُكْمُ فِي دَوَاوِينِ الْإِنْشَاءِ بِدَمْشَقَ وَحَلَبَ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْمَمَالِكِ الشَّامِيَّةِ ،  
لَا يَخْتَلِفُ الْحُكْمُ فِي ذَلِكَ إِلَّا فِي الْكَتَابَةِ بِحَلَبَ ضَرْبِ اللَّوْحِ . فَإِنْ كَانَ بِدَمْشَقَ  
كُتِبَ : «ضُرِبَ بِالشَّامِ» . وَإِنْ كَانَ بِحَلَبَ كُتِبَ : «ضُرِبَ بِحَلَبَ الْمَحْرُوسَةِ»  
وَكَذَلِكَ بَاقِي الْمَمَالِكِ .

## الفصل الثاني

من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مَرَآكِزِ الْبَرِيدِ

وهي الْأَمَّاكِزُ الَّتِي تَحْفُفُ فِيهَا خَيْلُ الْبَرِيدِ لِتَغْيِيرِ خَيْلِ الْبَرِيدِيَّةِ فِيهَا قَرَسًا بَعْدَ  
قَرَسٍ . قَالَ فِي «التَّعْرِيفِ» : وَلَيْسَتْ عَلَى الْمَقْدَارِ الْمُقَدَّرِ فِي الْبَرِيدِ الْمُحَرَّرِ ، بَلْ هِيَ  
مُتَّفَاوِيَةٌ الْأَبْعَادِ ، إِذْ أَبْجَلَّتِ الضَّرُورَةُ إِلَى ذَلِكَ : تَارَةً لِبُعْدِ مَاءٍ ، وَتَارَةً لِلْأُنْثَى بِقَرْيَةٍ ،  
حَتَّى إِنَّكَ لَتَرَى فِي [ هَذِهِ ] الْمَرَآكِزِ الْبَرِيدِ الْوَاحِدَ بِقَدَرِ بَرِيدَيْنِ . وَلَوْ كَانَتْ عَلَى  
التَّحْرِيرِ [ الَّذِي عَلَيْهِ الْأَعْمَالُ ] لَمَّا كَانَ تَقَاوُتٌ . وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا الْمُقَوِّمَ الشَّهَابِيَّ بْنَ  
فَضْلِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «التَّعْرِيفِ» مَا أَرَبْنَا فِي ذَلِكَ عَلَى الْقَصُودِ وَزَادَ ، وَهُوَ بِذَلِكَ  
أَدْرَى وَأَدْرُبُ . وَهَآنَا أَذْكَرُ مَا ذَكَرَهُ ، مَوْحِيًّا لِمَا يَحْتَاجُ مِنْهُ إِلَى التَّوَضُّيْحِ ، مَعَ  
الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ وَتَقْرِيبِ التَّرْتِيبِ .

وَيَشْتَمِلُ عَلَى سِتَّةِ مَقَامِدَ :



## المقصود الأول

(في مركز قلعة الجبل المحروسة بالديار المصرية التي هي قاعدة الملك، وما يتفرع عنه من المراكز، وما تنهى إليه مراكز كل جهة)

اعلم أن الذي يتفرع عن مركز القلعة وينشعب منه أربع جهات، وهي: جهة قوص من الوجه القبلي، ولا يتصل بذلك من أسوان وما يليها من بلاد النوبة، وعين شاب وما يليها من سواكن. وجهة الإسكندرية من الوجه البحري، وجهة دمياط من الوجه البحري أيضا، وما يتفرع عنها من جهة غزة من البلاد الشامية.

فأما مراكز قوص وما يليها: فن مركز قلعة الجبل المحروسة، ومنها إلى مدينة الحيزة، وهي قاعدة الأعمال الجيزية، وقد تقدم الكلام عليها في الكلام على بلاد الملكة في المقالة الثانية. ثم منها إلى زاوية أم حسين، وهي قرية من عمل الجيزة. قال في "التعريف": والمركز الآن بمنية القائد وهي على القرب من زاوية أم حسين المذكورة، ثم منها إلى ونا وهي بلدة من عمل البهنسي<sup>(١)</sup>، ثم منها إلى دهروط وهي بلدة من عمل البهنسي أيضا. ثم منها إلى أفلوسنا، وهي بلدة من عمل الأشمونيين. ثم منها إلى منية بني خصب، وهي مدينة من عمل الأشمونيين، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية. ثم منها إلى مدينة الأشمونيين، وهي قاعدة بلادها، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية. ثم منها إلى ذروة مريام وهي بلدة من عمل الأشمونيين على قيم الخليج اليوسفي الواصل من النيل إلى الفيوم، وتعرف بذرورة الشريف، إضافة إلى الشريف ناصر الدين محمد بن تغلب الذي كان عصى بها في زمن الظاهر بيبرس، وبتمت نفسه إلى الملك حتى كاده الظاهر وقبض عليه وشقه بالإسكندرية، وبها

(١) في معجم البلدان لا تعرف: قلبيستا.

دِيَارُهُ وَقُصُورُهُ وَالْجَامِعُ الَّذِي أُنْشِأَ بِهَا إِلَى الْآنَ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ مَقْلُوطَ ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْمُتَقَلُّوْطِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَجَلٌ خَاصٌّ لِلْسلْطَانِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ أُسْيُوطَ ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْأُسْيُوطِيَّةِ ، وَمَقَرُّ نَائِبِ الْوَجْهِ الْقَبْلِيِّ الْآنَ ، وَقَدْ تَهْتَمُ ذِكْرَهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طِيَا ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ عَمَلِ أُسْيُوطَ الْمُقَدِّمَةِ الذَّكْرُ عَلَى حَصَّةِ النَّيْلِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَرَاعَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَرُبَّمَا سُمِّيَتْ الْمَرَاعِغُ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَلْسُورَةَ وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ أَيْضًا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَرُبَّمَا قِيلَ بَلْسُورَةُ بِإِبْدَالِ السَّيْنِ زَايَا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى جَرِحَا ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ الْعَمَلِ الْمَذْكُورِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْبَلِينَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ ، وَيُقَالُ فِيهَا الْبَلِينَا بِإِبْدَالِ الْهَاءِ أَلِفًا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى هَوَ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ أَيْضًا ، قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَيَلِيهَا الْكُومُ الْأَحْمَرُ ، وَهِيَ مِنْ خَاصِّ السُّلْطَانِ ، وَعِنْدَهَا يَتَقَطِّعُ الرَّفُّ فِي الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ ، وَيَكُونُ الرَّمْلُ الْمُتَّصِلُ بِدَنْدَرَى وَيُسَمَّى خَانَ دَنْدَرَى ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَوْفَى فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . وَمِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ قُوصَ قَاعِدَةِ الْأَعْمَالِ الْقُوصِيَّةِ ، وَقَدْ تَهْتَمُ الْكَلَامَ طِيهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ .

ثُمَّ مِنْ قُوصَ تَنْقَطِعُ مَرَاكُزُ الْبَرِيدِ ، وَيَتَشَعَّبُ الطَّرِيقُ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ وَبِلَادِ النُّوبَةِ ، وَجِهَةِ عَيْدَابَ وَمَوَاكِنَ .

فَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ رَكِبَ الْهَيْجَنَ مِنْ قُوصَ إِلَى أُسْوَانَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ النُّوبَةِ .

وَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى عَيْدَابَ سَارَ مِنْ قُوصَ إِلَى كِيَانٍ فَقَطَّعَ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ قُوصَ .

قُلْتُ : ثُمَّ يَسِيرُ فِي قَفَارٍ وَجِبَالٍ ، مِنْ كِيَانٍ قَطَّعَ إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى لَيْطَةَ عَلَى مَرَحَلَةٍ مِنْ الْكِيَانِ ، بِهِ عَيْنٌ تُنْبِغُ وَلَيْسَتْ جَارِيَةً ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى التَّرِيحَ عَلَى الْقُرْبِ

من معدن الزمرد ، به صين صغيرة يُسْتَقَى منها من الماء ما شاء الله ، وهي لا تزيد ولا تنقص . ثم منها إلى حميرة حيث قبر سيدي أبي الحسن الشاذلي ، وهناك عين ماء يُسْتَقَى منها . ثم منها إلى عذاب ، وهي قرية صغيرة على ضفة بحر القلزم في الشمال إلى الغرب ، وعلى القرب منها عين يُسْتَقَى منها .

وتهدير جميع المسافة من الكيان إلى عذاب نحو عشرة أيام يسير الأتقال . على أنه في "مسالك الأبصار" قد ذكر أن الطريق إلى عذاب من شعبة على القرب من أسوان ، ثم يسير منها في بلاد عرب يُسمون بنى عامر إلى سواكن ، وهي قرية حاضرة البحر صاحبها من العرب ، وكُتِبَ السلطان انتهى إليه ، على ما تقدم ذكره في الكلام على المكتبات .



وأما الإسكندرية فالمرآة الموصلة بها في طريقين :

الطريق الأولى : الآخذة على الجبل الغربي ويسمى طريق الحاجر . والمسير فيها من مركز القلعة المقدم ذكره إلى مدينة الجيزة . ثم منها إلى جزيرة القط ، وهي قرية من آخر عمل الجيزة من الجهة البحرية . ثم منها إلى وردان ، وهي قرية من عمل البحيرة . [ثم منها إلى الطرانة<sup>(١)</sup> . ثم منها إلى طيلس وهي بلدة من عمل البحيرة أيضا وتعرف براوية مبارك . قال في "التعريف" : وأهل تلك البلاد يقولون : أنبارك . ثم منها إلى مدينة دجنهور وتعرف بدجنهور الوحش ، وهي قاصدة أعمال البحيرة ، وعمل مقام نائب السلطنة بالوجه البحري ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى لوقين وهي قرية من عمل البحيرة . ثم منها إلى الإسكندرية .

الطريق الثانية : الآخذة في وسط العمران ، وتعرف بالوسطى .

وهي من مَرْكَر القلعة إلى مدينة قَلْيُوب قاعدة الأعمال القَلْيُوبِيَّة ، وقد هُتَم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مَدِينَةِ مَنُوف العُلَيَّا ، وهي قاعدة الأعمال المَنُوفِيَّة ، وقد هُتَم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة الحِلَّة المَعْرُوفَة بِالْحِلَّةِ الْكُبْرَى ، وهي قاعدة الأعمال الْفَرَسِيَّة ، وقد هُتَم الكلام عليها في المقالة الثانية . وقد وَهَم في " التعريف " فصاها حِلَّة المَرْحُوم بلدة من بلاد الْفَرَسِيَّة غيرها . ثم منها إلى النَحْرِيَّة ، وهي مدينة من عَمَل الْفَرَسِيَّة . ثم منها إلى الإسْكَندَرِيَّة .



وأما الطريق إلى دِمَياط وَغَزَّة ، فن مَرْكَر القلعة إلى مِرْيَاقُوس ، وهي بلدة من ضَوَاحِي القَاهِرَة ، وليس المَرْكَر في قَعَسِ الْبَلَد ، بل بِالْقَرْيَةِ الْمُسْتَجِدَّة بِجَوَارِ الْخَلِيقَةِ النَّاصِرِيَّة الَّتِي أَنشَأَهَا السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ مِرْيَاقُوس . قَالَ فِي " التَّعْرِيف " : وَكَانَ قَبْلَ هَذَا بِالْعَشِّ ، وَكَانَ طَوِيلَ الْمَدَى فِي مَكَانٍ مُتَقَطِّعٍ ، وَكَانَتِ الْبَرِيدِيَّةُ لَا تَزَالُ تَنْشَكُّ مِنْهُ ، فَصَلَّحَ بِقَلْبِهِ ، وَحَصَلَ بِهِ الرَّفْقُ لِأُمُورِهِ لَمْ يَكُنْ مِنْهَا إِلَّا قُرْبُهُ مِنَ الْأَسْوَاقِ الْمَجَاوِرَةِ لِلنَّاقَةِ النَّاصِرِيَّةِ وَمَا يَوْجَدُ فِيهَا ، وَأُنْثِيَ بِمَا حَوْلَهَا [ لَكِنِّي ] . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَرِّ الْبَيْضَاءِ ، وَهِيَ مَرْكَرُ بَرِيدٍ مُتَقَرِّدٍ لَيْسَ حَوْلَهُ سَاكِنُونَ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ بَلْبَاسِ قَاعِدَةِ الْأَعْمَالِ الشَّرْقِيَّةِ ، وَقَدْ هُتَمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . قَالَ فِي " التَّعْرِيف " : وَهِيَ آخِرُ الْمَرَكَزِ السُّلْطَانِيَّةِ ، وَهِيَ الَّتِي تُسْتَرَى خِيَلُهَا مِنَ الْأَمْوَالِ السُّلْطَانِيَّةِ وَتُقَامُ لَهَا السُّوُاسُ وَتَصْرَفُ لَهَا الْعُلُوفَاتُ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى السَّعِيدِيَّةِ . ثُمَّ مِنَ السَّعِيدِيَّةِ إِلَى أَشْجُمِ الرُّمَّانِ قَاعِدَةِ بِلَادِ الدَّقْهَلِيَّةِ وَالْمُرْتَاحِيَّةِ ، وَقَدْ هُتَمَ ذِكْرُهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . وَمِنْهَا إِلَى دِمَياط وَمَنْ أَرَادَ غَزَّةَ . وَقَدْ هُتَمَ أَنَّ مَدِينَةَ بَلْبَاسِ هِيَ آخِرُ الْمَرَكَزِ السُّلْطَانِيَّةِ . ثُمَّ السَّعِيدِيَّةُ وَمَا بَعْدَهَا

إلى الخروبة تُعرف بالشهارة، خَيْلُ البريد بها مقررة على عُمران نوى إقطاعات، عليهم خيولٌ موطَّفةٌ يحضرُ بها أربابُها عند هلال كل شهر إلى المراكز، وتستعبدُها في آخر الشهر ويأتي غيرها، ومن هنالك سُميت الشهارة. قال في "التعريف":  
وطيهم وآل من قبل السلطان يستعرض في رأس كل شهر خيول أصحاب النوبة ويدفعها بالداغ السلطاني. قال: وما دامت تستجد فهي قائمة، ومتى أكثرى أهل نوبة من قبلهم فسدت المراكز، لأن الشهر لا يهل وفي خيل المُسلخ قوة، لاسيما والعرب قليلة العلف.

وأول هذه المراكز السعيدية المقمَّم ذكرها، ثم منها إلى الخطارة، ثم منها إلى قبر الوائل. قال في "التعريف": وقد استجد به أئمة وأسواق وبساتين حتى صار كأنه قرية. ثم منها إلى الصليحية، وهي قرية لطيفة <sup>(١)</sup>. قال في "التعريف": وهي آخر معمر الدير المصرية، ثم منها إلى برغزى، وإلى هذا المركز يجلب الماء من بئر وراعه. ومنها إلى القصير. قال في "التعريف": وقد كان كريم الدين ويكلُ انخلص بقى بها خاناً ومسجداً ومثدنة، وعمل ساقية، فهدم ذلك كله، ولم يوجد له من يمدده، وبقيت المثدنة خاصة، ورُتب بها زيت للتنوير. قال: وهذا القصير يقارب المركز القديم المعروف بالماقولة المقارب لقطرة الجسر الجارى تحتها قواضل ماء النيل أوان زيادته إذا خرج إلى النيل. ثم منها إلى حبوة. قال في "التعريف": وليس بها ماء ولا بناء، وإنما هي موقف يقف به خيل العرب الشهارة، ويحلب الماء إليها من بئر وراعه. ثم منها إلى النرابي. ثم منها إلى قليب، وهي قرية صغيرة بها تؤخذ المرتبات السلطانية من التجار الواردين إلى مصر والصادرين عنها،

(١) الذي في التعريف: برغزى، أقصر (١٩٠).

وهناك رمّل بالطريق يُحْتَم في الليل ويُحَفَظ ما حوله بالبربان ، حتى لا يَمُرُّ أَحَدٌ لَيْلًا . فَيَكُونُ مِنَ الْقَاهِرَةِ إِلَى قَطِيَا اثْنَا عَشَرَ بَرِيدًا . ثم منها إلى صَبِيحَةَ نَحْلَةٍ مَعْن . قال في " التعريف " : ومن الناس من يَقْتَصِرُ عَلَى إِحْدَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي تَسْمِيَّتِهَا . ثم منها إلى الْمُطَلِب ، ثم منها إلى السَّوَادَةِ . قال في " التعريف " : وقد حُوِّلَتْ عَنْ مَكَانِهَا فَصَارَ الْمُسَافِرُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعْرِيجِهَا إِلَيْهَا . ثم منها إلى الْوَرَادَةِ ، قال في " التعريف " : وهى قَرْيَةٌ صَغِيرَةٌ بِهَا مَسْجِدٌ عَلَى قَارِعَةِ الطَّرِيقِ ، بَنَاهُ الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ « خَلِيل » بْنُ الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ تَقَدَّمَ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ ، حَصَلَ بِهِ الرَّفْقُ بِمَيْتِ السَّفَارَةِ بِهِ . قال : وقد كَانَ تَقَرُّ الدِّينِ كَاتِبُ الْمَالِكِ بَنَى إِلَى جَانِبِهِ خَانًا فَبِيعَ بَعْدَهُ . ثم منها إلى يَرْ الْقَاضِي . قال في " التعريف " : والمدى بينهما بعيدٌ جِدًّا يَمْلِكُهُ السَّالِكُ . ومنها إلى الْعَرِيش . قال في " التعريف " : وقد أَحْسَنَ كَرِيمُ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ بِعَمَلِ سَاقِيَةٍ سَبِيلٍ بِهِ وَبَنَاهُ خَانَ حَصِينٍ فِيهِ يَأْوِي إِلَيْهِ مِنَ الْجَاهِ الْمَسَاءِ ، وَيَنَامُ فِيهِ آمِنًا مِنْ طَوَارِقِ الْقَرَبِجِ . ثم منها إلى الْخُرُوبَةِ ، وَبِهَا سَاقِيَةٌ وَخَانٌ ، بَنَاهُمَا تَقَرُّ الدِّينِ كَاتِبُ الْمَالِكِ ، حَصَلَ بِهِ مِنَ الرَّفْقِ وَالْأَمْنِ مَا بِالْعَرِيشِ . قال في " التعريف " : وهذا آخر مَزَاكِرِ الْعَرَبِ الشَّهَارَةِ . ثم مِمَّا يَلِيهَا خَيْلُ السُّلْطَانِ قَوَاتُ الْإِسْطِبْلَاتِ وَالْخَلْمُ تُشْتَرَى بِمَالِ السُّلْطَانِ وَتُطْفَئُ مِنْهُ ، وَأَوَّلُهَا الرُّعْقَةُ ، ثم منها إلى رَفْعٍ ، ثم منها إلى السَّلْقَةِ . قال في " التعريف " : وَكَانَ قَبْلَ هَذَا الْمَرْكَزِ بَيْنُثْرَ طَرْفَايَ حَيْثُ الْجَمِيزُ وَيُسَمَّى مَطْرَحًا . قال : وَكَانَ فِي قَهْلِهِ إِلَى السَّلْقَةِ الْمُصْلَحَةُ . ثم منها إلى النَّازُومِ ، ثم منها إلى غَزَّةَ . يكون من قَطِيَا إِلَى غَزَّةَ أَحَدَ عَشَرَ مَرَكَا .

## المقصود الثاني

(في مَرَاكِ غَزَّة وما يتفرع عنه من البلاد الشامية)

والذي يتفرع عنه مَرَاكِ ثَلَاثِ جِهَاتٍ، وهى: الكَرْك، ودمشق، وصفد:

فأما الطريق إلى الكرك: فمن غَزَّة إلى ملاس وهو مَرَكُ بَرِيد، ثم منها إلى بلد الخليل عليه السلام، ثم منها إلى جنبا، ثم منها إلى الصافية، ثم منها إلى الكرك:

وأما مَرَاكِ دِمَشق: فمن غَزَّة إلى الحنين، وهو مَرَكُ بَرِيد، ومنها إلى بيت دَارِس، والناس يقولون: تدارس، وبها خانُ بناء ناصر الدين خزندار شكر. قال في "التعريف": وكان قديماً بياسور، وكان قريب المدنى فُتِلَ وكانت المصلحة في قتله، ثم منها إلى قطري. قال في "التعريف": وهو مَرَكُ مُسْتَجِد كان المشير به طاجار الدوادار الناصرى، وبه بُرْ سَيْلٌ وَأَنَارُهُ. قال: وقد حصل به رِفَقٌ عَظِيمٌ لبعدهما بين [لُدُّ وَيَتِ دَارِس] <sup>(١)</sup> أو ياسور، ثم منها إلى لُد، ثم منها إلى العوجاء. قال في "التعريف": وهى زَوْرَاء عن الطريق، ولو قُلْتُ منه لكان أَرْفَق، ثم منها إلى الطيرة. قال في "التعريف": وبها خانٌ كان قد شَرَعَ في بناءه ناصر الدين دوادار شكر ثم كَلَّ بِيَدِ غَيْرِهِ. ثم منها إلى قَافُون، ثم منها إلى حَفْمَة [ثم منها إلى جِينِين] <sup>(٢)</sup>. قال في "التعريف": وهى على صَفْد، يعنى القيام به، وبه خانٌ لطاجار الدوادار، حَسَنُ الْبِنَاءِ جَلِيلُ النَّقْعِ، ليس على الطريق أَحَصُّ منه ولا أَحَصَنُ، ولا أَزِيدُ نَفْعاً منه ولا أَزَيِّنُ:

(١) بياض بأمله والتصحيح من التعريف (ص ١٩١):

ومن أراد دِمَشْقَ وما يليها سَارَ مِنْ جِزِينَ إِلَى خَزْعِينَ . قَالَ فِي "التعريف" :  
 وَمِنْهَا يَنْزِلُ عَلَى عَيْنِ جَالُوتَ ، وَهُوَ مَرْكَزٌ مُسْتَجِدٌّ حَصَلَ بِهِ أَكْثَرُ الرِّفْقِ وَالرَّاحَةِ مِنْ  
 الْعَقَبَةِ الَّتِي كَانَ [مُسْلِكٌ<sup>(١)</sup>] عَلَيْهَا بَيْنَ جِزِينَ وَيَسَّانَ مَعَ طُولِ الْمَدَى . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى  
 يَسَّانَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْحَجَامِيعِ . قَالَ فِي "التعريف" : وَهُوَ مَرْكَزٌ مُسْتَجِدٌّ عِنْدَ جِسْرِ  
 سَامَةِ ، كُنْتُ أَنَا الْمَشِيرَ بِهِ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَحَصَلَ بِهِ الرِّفْقُ لِبُعْدِ  
 مَا كَانَ بَيْنَ يَسَّانَ وَزَحْرٍ . قَالَ : وَقَدْ كَانَ الطَّرِيقُ قَدِيمًا مِنْ يَسَّانَ عَلَى طَبِيعَةِ أُنْهَمَ ،  
 ثُمَّ إِلَى أَرْبَدَ ، وَكَانَتْ غَايَةً فِي الْمَشَقَّةِ ، إِذْ كَانَ الْمَسَافِرُ مَا بَيْنَ يَسَّانَ وَطَبِيعَةِ أُنْهَمَ يَحْتَاجُ  
 إِلَى خَوْضِ الشَّرِيعَةِ ، وَبِهَا مَعْلَمَةٌ لِلْفَارِسِ دُونَ الْقَرْسِ ، وَإِنَّمَا يَبْغُرُ فِيهَا الْقَرْسُ  
 سِبَاحَةً ، وَكَانَ فِي هَذَا مِنَ الْمَشَقَّةِ مَا لَا يُوصَفُ ، لَا سِوَمَا أَيَّامُ زِيَادَةِ الشَّرِيعَةِ وَكَلْبِ  
 الْبَرْدِ : لَقَطْعِ الْمَاءِ وَمُعَانَاةِ الْعَقَابِ الَّتِي لَا يَنْقُصُهَا جَنَاحُ الْعُقَابِ . وَلَكِنْ الْأَمِيرُ  
 الطَّنِيفَا كَافِلُ الشَّامِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَلَّ هَذِهِ الطَّرِيقُ وَجَعَلَهَا عَلَى الْقَصِيرِ حَيْثُ هِيَ الْيَوْمَ ،  
 وَنَقَلَ الْمَرْكَزَ مِنَ الطَّبِيعَةِ إِلَى زَحْرَيْنَ غَرَّقَ بَعْضُ الْبَرِيدِيَّةِ الْجَلِيلِينَ بِالشَّرِيعَةِ . ثُمَّ مِنْ  
 الْحَجَامِيعِ الْمَذْكُورَةِ إِلَى زَحْرٍ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى أَرْبَدَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طَفُسَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْحَجَامِيعِ .  
 قَالَ فِي "التعريف" : وَكَانَ قَدِيمًا فِي الْمَكَانِ الْمَسْمُومِ بِرَأْسِ الْمَاءِ ، فَلَمَّا مَلَكَه الْأَمِيرُ  
 الْكَبِيرُ تَسَكَّرَ كَافِلُ الشَّامِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَلَّ الْمَرْكَزُ مِنْهُ إِلَى هَذَا الْحَجَامِيعِ ، فَقَرَّبَ بِهِ الْمَدَى  
 فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ طَفُسَ ، وَكَانَ بَعِيدًا فَمَا جَاءَ إِلَّا حَسَنًا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الصَّنَمِيْنِ ، ثُمَّ مِنْهَا  
 إِلَى خَبَاغِبَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْكُشُوءَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى دِمَشْقَ الْحُرُوسَةِ .

وَأَمَّا الطَّرِيقُ الْمُوصَلَةُ إِلَى صَفَدَ : فَمِنْ جِزِينَ الْمَقْدَمِ ذِكْرُهَا إِلَى تَيْتِينَ ، ثُمَّ مِنْهَا  
 إِلَى [حَطَّيْنِ<sup>(١)</sup>] وَبِهَا قَبْرُ جُبَيْتٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى صَفَدَ .

(١) يابض بالأصل والصحيح من التعريف (ص ١٩٢) .



## المقصود الثالث

(في ذكر مركز دِمَشْق وما يتفرع عنه من المراكز الموصلة  
إلى خمس وخمسة وحب، وإلى الرحبة، وإلى طرابلس، وإلى جعتر، وميضاب  
ومروت وصيدا وعلبك والكرك وأذرحات)

فأما طريق حلب : فقال في "التعريف" : من دِمَشْق إلى القَصِير . والذي  
رأيتُه في بعض السَّماهير أنه من دِمَشْق إلى خَانِ لَاجِن ، ثم إلى القَصِير . قال  
في "التعريف" : ثم من القَصِير إلى القَطِيفَة ، ثم منها إلى القَسْطَل . ورأيتُ  
في الدُّسْتُور المَذْكُور أن من القَصِير إلى خَانِ الوَالِي ، ثم إلى خَانِ الرُّوس ، ثم إلى  
القَسْطَل ، ثم منها إلى قَارَا ، ثم منها إلى بَرِج العَطَش ويقال فيه البَزِج أيضا .  
قال في "التعريف" : وقد كان مَقْطَع طَرِيقِي ، ومَوْضِعْ خَوْفٍ ، فَبَنَى به قَاضِي  
القَضَاة نَجْمُ الدِّينِ أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ صَمْرَى رحمه الله مَسْجِدًا وَبَرَكَةً ، وَأَجْرَى  
المَاءَ إِلَى الْبَرَكَةِ مِنْ مَلِكٍ كَانَ لَهُ هُنَاكَ وَقْفُهُ عَلَى هَذَا السَّيْلِ ، فَبَدَّلَ الْخَوْفَ أَمْنًا ،  
وَالْوَحْشَةَ أُنْسًا ، أَتَاهُ بِهِ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ . ثم منها إلى الغُبُولَة ، ثم منها إلى ثَمِينِينَ ،  
ثم منها إلى حِمَصَ ، ثم منها إلى الرِّسْقِينَ ، ثم منها إلى حِمَاة ، ثم منها إلى لَطَمِينَ ،  
ثم منها إلى طَرَابُلُسَ ، ثم منها إلى المَعْرَةَ ، ثم منها إلى أَهْرَاءَ ، ثم منها إلى إِزَادِ ، ثم منها  
إلى قَصِيرِينَ ، ثم منها إلى حَلَبَ .

وأما طريق الرِّحْبَةِ : فمن القَطِيفَةِ الْمُقَدَّمَةِ الذَّكْرُ إِلَى الْعُطْنَةِ . قال في "التعريف" :  
وليس بها مَرَكَزٌ ، وَإِنَّمَا بِهَا خَانٌ تُحْرَقُ بِهِ صَدَقَةٌ مِنَ الْخُزَيْنِ وَالْأَخْذِيَّةِ وَيُنَالُ الدُّوَابُّ  
إِلَى جُلَيْجِيلَ ، ثم منها إلى المَصْنَعِ ، ثم منها إلى الثَّرَيَّتِينَ ، ثم منها إلى الحُسَيْرِ ، ثم منها  
إلى الْيَبْضَاءِ ، ثم منها إلى تَدْمُرَ ، ثم منها إلى أَرَاكِ ، ثم منها إلى السُّخْنَةِ ، ثم منها إلى

قَبَابٍ، ثم منها إلى كَوَائِلَ . قال في "التعريف" : وهو اليوم عَظْل . ثم منها إلى الرَّحْبَةِ وهي حَدُّ هذه المملكة .

وأما طريق طَرَابُلُسَ : فنِ السُّوْلَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ [ إلى القصب ، ثم منها إلى قَدَسْ ] إلى أَهْصَارَ، ثم منها إلى الشَّعْرَاءِ، ثم منها إلى عَرَقَا، ثم منها إلى طَرَابُلُسَ .

وأما طريق جَعْبَرُوما يليها : فنِ حِصْنِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إلى سَلَامِيَّةَ ، ثم منها إلى بُغْدِيدَ، ثم منها إلى سُورِيَا، ثم منها إلى الحَصَّ، ثم منها إلى جَعْبَرِ، إلى عَيْنِ بَذَالِ، ثم منها إلى صِهْلَانِ، ثم منها إلى الْخَابُورِ، ثم منها إلى رَأْسِ عَيْنِ .

وأما طريق مِصْيَافَ : فنِ حِصْنِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إلى مِصْيَافَ .

وأما طريق صَفَدَ : فنِ دِمَشْقَ إلى بَرِجِ الْفُلُوسِ، ومنه إلى أُرَيْبَةَ، ومنها إلى لُغْرَانِ، ومنها إلى صَفَدَ .

وأما طريق يَبُوتَ : فنِ دِمَشْقَ إلى خَانَ مِيسْلُونِ، ومنها إلى زُبْدَانَ، ومنها إلى الْحَصِينِ، ومنها إلى يَبُوتَ .

وأما طريق صَبَدَاءَ : فنِ دِمَشْقَ إلى خَانَ مِيسْلُونِ الْمُتَقَدِّمِ الذِّكْرِ، إلى بَحْرِيَّةَ صَبَدَاءَ، إلى كَرْكِ نُوحَ، ثم منه إلى بَلْبَلِكَ . قال في "التعريف" : وأعلم أن من صَبَدَاءَ إلى يَبُوتَ قَدْرُ مَرَكَزٍ .

وأما بَلْبَلِكَ ، فلها طريقان : إحداهما من خَانَ مِيسْلُونِ الْمُتَقَدِّمِ الذِّكْرِ إلى كَرْكِ نُوحَ إلى بَلْبَلِكَ . والثانية من دِمَشْقَ إلى الزُّبْدَانِيَّ إلى بَلْبَلِكَ .

ومن أراد من بَلْبَلِكَ حِصْنَ تَوَجَّهَ منها إلى الْقَصَبِ، ثم إلى السُّوْلَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ، وبعدها ثَمْسِينِ، ثم حِصْنَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

وأما طريق البرك : فمن دمشق - فالمرآكر المذكورة في الوُصول من غَزَّة إلى دمشق - على عكس ما هُتَم ، إلى طفس ، ومنها إلى القنية ، ومنها إلى البرج الأبيض ، ومنها إلى حُسْبَارَت ، ومنها إلى [ ديساج ] <sup>(١)</sup> ومنها إلى [ اكره ] <sup>(٢)</sup> ومنها إلى البرك .

وأما طريق أذربايجان ، مَقَرَّ وِلَايَةِ الْوَلَاةِ بِالصَّفْقَةِ الْقِبْلِيَّةِ : فمن طفس المقدمة الذَّكْر إلى أذربايجان . قال في " التعريف " : فهذه جملة مَرَاكِرِ دِمَشْقَ إلى كل جِهَةٍ .

قال : فأما مقدار الولايات ، فمن كل واحدة إلى ما يليها ، حتى يتوصل المسافر على البريد إلى حيث أراد .

### المقصود الرابع

( في مراكب حَلَب وما يتفرع عنه من المراكب الواصلة إلى البيرة وههنا )  
وما يليهما ، وقلة المسلمين المعروفة بقلة الروم ، وآياص مدينة  
الفتوحات الجاهانية ، وجعبر

فأما الطريق الموصلة إلى البيرة : فمن حَلَب إلى الباب ، ثم منها إلى الساجور ، ثم منها إلى كلناس <sup>(٣)</sup> ، ثم منها إلى البيرة ، وهي في البر الشرقي من الفرات . قال في " التعريف " : وهي أجل شُورها <sup>(٤)</sup> .

(١) يخاص بالأصل ، والتصحيح من التعريف (ص ١٩٤) .

(٢) لم يذكرها التعريف .

(٣) عبارة التعريف : « والبيرة أجل قلاع الاسلام ، وتقاتل المقاتل التي لم تنزع على طول الأيام »

فصل ما هنا رواية عن نسخة أخرى وقت بيد المؤلف (انظر ص ١٩٣) .

وأما طريق بهسني وما يليها : فن حَلَب إلى السموقة، ثم منها إلى نَسندرا،<sup>(١)</sup>  
[ ثم منها إلى بيت الفار ] ثم منها إلى عَيْتَاب ، ثم منها إلى بهسني .

ثم منها يُدْخَلُ إلى جِهَةِ قَيْسَارِيَّةِ وَالْبِلَادِ الْمَعْرُوفَةِ الْآنَ بِبِلَادِ الرُّومِ وَهِيَ بِلَادُ  
الشُّرُوبِ . قال في "التعريف" : وقد اسْتَضَفْنَا نَحْنُ ( يعني أهل هذه المملكة )  
في هذا الحَيَازِ الْقَرِيبِ إِلَيْنَا مِنْهَا : قَيْسَارِيَّةَ وَدَرَنْدَةَ ، وَإِنَّمَا الْمُسْتَقَرُّ الْمَعْرُوفُ أَنَّ  
آخِرَ حُدِّ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ - بهسني .

وأما طريق قَلْعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَمَا يَلِيهَا : فن عَيْتَابَ الْمَقْدَمَةِ الذَّكَرُ إِلَيْهَا ، وَهِيَ وَسَطُ  
الْفُرَاتِ ، وَهُوَ خُلُجَانُ دَائِرَةِ عُلْيَا . ثم من قلعة المسلمين إلى جسر الحجر ، ثم إلى  
الكَحْطَا ، وَهِيَ آخِرُ الْحُدِّ مِنَ الطَّرْفِ الْآخَرِ .

وأما طريق آيَاس : فن حَلَبَ إلى أَرْحَابِ ، ثم منها إلى تِيزِينَ ، ثم منها إلى بَغْرَاسَ ،  
ثم منها إلى بَغْرَاسَ ، قال في "التعريف" : وَهِيَ كَانَتْ آخِرَ الْحُدِّ مِمَّا عَلَى بِلَادِ  
الْأَرْمَنِ . قال : وقد اسْتَضَفْنَا نَحْنُ فِي هَذَا الْحَيَازِ مَا اسْتَضَفْنَا ، فَصَارَ مِنْ بَغْرَاسَ  
إِلَى بَايَاسَ ، وَهِيَ أَوَّلُ جَبَلِ الْأَرْمَنِ ، ثم من بَايَاسَ إِلَى آيَاسَ .

وأما طريق جَعْبَر : فن حَلَبَ إلى الْجَبُولِ ، ثم منها إلى بَالَسَ ، ثم منها إلى جَعْبَرِ .  
قال في "التعريف" : هَذِهِ بَجْلَةٌ مُرَاكِرُ حَلَبَ . أما بقايا الْفِلَاحِ وَمَقَارُ الْوِلَايَاتِ ،  
فَنُشَبِّهُ هَذِهِ الطَّرِيقَ ، أَوْ مِنْ وَاحِدَةٍ إِلَى أُخْرَى :

(١) في التعريف ستار .

(٢) الزيادة من التعريف (ص ١٩٥) .

### المقصود الخامس

(في مَرَكز طَرَابُلُس وما يَنْفَرُجُ عَنْهُ مِنَ الْمَوَاصِلِ إِلَى جِهَاتِهَا)

فأما طريق الأَذَقِيَّةِ : فمن طَرَابُلُس إلى مَرْقِيَّة ، ثم منها إلى يَلْبِزِيس ، ثم منها إلى الأَذَقِيَّة ، ثم منها إلى صِهْيُون ، وهي قَلْعَةٌ جَلِيلَةٌ كَانَتْ دَارَ مُلْكٍ . ثم منها إلى بَلَّاطُنُس . قال في "التعريف" : "ومن شاء فن صِهْيُون إلى بُرْزِيَّة ، وهو حصنٌ سُمِّيَ بِاسْمِ مَنْ عَمَّرَهُ أَوْ عُرِفَ بِمُلْكِهِ ، ومن شاء فن بَلَّاطُنُس إلى الْعَلِيقَةِ أَوَّلِ قَلَاعِ الدَّعْوَةِ مِمَّا عَلَى بَلَّاطُنُس ، ثم منها إلى الْكَهْفِ ، ثم منها إلى الْقُدْسُوس ، ثم منها إلى الْحَوَابِ ، ثم منها إلى الرُّصَافَةِ ، ثم منها إلى مِصْبَافٍ . قال في "التعريف" : فهذه جملة مَرَاكِزِ طَرَابُلُس . فأما مَقَارُ الْوَلَايَاتِ فمن واحدة إلى أخرى ، ثم ذكر جميع مَرَاكِزِ الْبَرِيدِ بِأَمَّاكِ الْحَزُونَةِ .

قال : فأما من أطراف مَمَالِكِهَا إلى حَضْرَةِ الْأَرْدُو ، حيث هو مُلْكُ بَنِي هَوْلَاكُو ، فلهم مَرَاكِزٌ تُسَمَّى خَيْلُ الْأَوَّلَاقِ وَخَيْلُ الْيَامِ يُحْمَلُ عَلَيْهَا ، لَا تُشْتَرَى بِمَالِ السُّلْطَانِ وَلَا يُكَلَّفُ تَحْمِلُهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ عَلَى أَهْلِ تِلْكَ الْأَرْضِ ، نَحْوَ مَرَاكِزِ الْعَرَبِ فِي رَمْلِ مِصْرٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

### المقصود السادس

(في معرفة مَرَاكِزِ الْحِجَازِ الْمَوْصِلَةِ إِلَى مَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ وَالْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى سَاكِنِهَا)

سيدنا عبد أفضل الصلاة والسلام والتحية والأكرام ، إذ كانت من

بِمَنَّةِ الطُّرُقِ الْمَوْصِلَةِ إِلَى بَعْضِ أَنْطَارِ الْمَمْلَكَةِ

وكما ضُبِطَتْ تِلْكَ بِالْمَرَّاكِزِ قَدْ ضُبِطَتْ هَذِهِ بِالْمَرَاكِزِ . وَعَادَةُ الْحِجَّاجِ أَنَّهُمْ يَقْطَعُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مِنْهَا مَرَّحَلَتَيْنِ بِسِيرِ الْأَتْقَالِ ، وَدَيْبِ الْأَهْدَامِ ، [وَيَقْطَعُونَهَا

كلها] في شهر، بما فيه من أيام الإقامة بالعبقة والينبع نحو ستة أيام . أما من يسافر على التَّجِبْ مُخْفًا مع الحِدْفِ في المَيزَانِ فإنه يقطعها في نحو أحد عشر

ثم أول مَصِيرِهِم من القاهرة إلى البركة المعروفة بركة الحاج، ثم منها إلى البوَّيب، ثم منها إلى الطَّلِيحَات، ثم منها إلى المتفرج، ثم منها إلى مراكم موسى، ثم منها إلى عجروذ، وبها بئر ومَصْنَعُ ماء مُتَّسِعٌ بِلَا منها . ثم منها إلى المنصرف، ثم منها إلى وادي القناب، وهو كثير الرَّمْل . ثم منها إلى أول تيه بنى إسرائيل، وهو وادٍ أَفْنَحٌ مُتَّسِعٌ . ثم منها إلى العُنُق، ثم منها إلى نخل، وبها ماء طيب . ثم منها إلى حَسَنَد الحى، ثم منها إلى بئر بيدرا، ثم منها إلى تمد الحصا، ثم منها إلى ظُهر العبقة، ثم منها إلى سَطْحِ العبقة، وهو عُرْقُوب البقلة على جانب طَرَفِ بَحْرِ القُلْزُم، وفيها ماء طيب من حَقَائِر . ثم منها إلى حَفْن على جانب طَرَفِ بَحْرِ القُلْزُم، وفيها ماء طيب من الحفائر، ثم منها إلى عَشِّ الغراب، ثم منها إلى أَسْرِ الشرفة، ثم منها إلى مَقَارَةِ شُعَيْب، وبها ماء ومَصْنَعٌ . ثم منها إلى وادي حَقَان، ثم منها إلى ذَاتِ الرَّحِم، ثم منها إلى عَيُونِ القَصَب، وبه ماء نَجٍ وَأَجْمَةٌ قَصَبٌ نَائِيَةٌ فِيهَا . ثم منها إلى المَوْبِلَةِ، وبها ماء في آبار . ثم منها إلى المُنْتَجِج، ثم منها إلى سَلَمَى مَجَاوِدِ بَحْرِ القُلْزُم، وبها ماء ملح . ثم منها إلى الأُمَيَّات، ثم منها إلى الأَزْنَم، والناس يقولون: الأَزْنَمُ بِاللَّامِ بَدَلُ التَّوْنِ، وبه آبارُها ماء رَدِيءٌ يُطْلَقُ بَطْنٌ مِنْ شَرِبِهِ، لَا يَسْقَى مِنْهُ ظَالِمًا إِلَّا الْجَهْلُ، وَهِيَ نِصْفُ الطَّرِيقِ . ثم منها إلى رَأْسِ وَادِي حَضْرَ . ثم منها إلى الْوَجْه، وبه آبارٌ قَلِيلَةُ الْمَاءِ، وما هو داخل الوادي يَمُزُّ الْمَاءَ فِيهِ ظَالِمًا وَلَا يُوْجَدُ فِيهِ إِلَّا حَقَائِرُ، ويقال: إنه إذا طَلَمَتِ الشَّمْسُ طَلِيحَهُ نَصَبَ مَائِهِ، وفيه يقول بعض من حجَّ من الشَّعْرَاءِ وَطَّرَ عَلَيْهِ وَجُودَ الْمَاءِ فِيهِ :

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ ، وَلَا خَيْرَ فِي وَجْهِهِ بِغَيْرِ حِيلَةٍ .

ثم منه إلى المحاطب ، ثم منها إلى أكرأ ، ثم منها إلى رأس القاع الصغير ، ثم منه إلى قبر القروى ، ثم منه إلى كلبغا ، ثم منها إلى آخر القاع الصغير ، ثم منه إلى الحوراء ، وبها ماء غير صالح . ثم منها إلى العقيق بضم العين تصغير عقيق يفتحها ، وهو مضيق صعب . ثم منها إلى مغارة نبط ، وبها ماء عذب ليس بطريق الحجاز أطيب منه . ثم منها إلى وادى الثور ، ثم منها إلى قبر أحد الأعرج الدليل ، ثم منه إلى آخر وادى الثور ، ثم منه إلى رأس السبع وعربات ، ثم منها إلى دار البقر ، ثم منها إلى الينبع ، وهى النصف والرُّبع من الطريق ، وبها تقع الإقامة ثلاثة أيام أو نحوها ، وبها يودع الحجاج ما ثقل عليهم إلى حين العود ، ويستميرون منها مما يصل إليها من الديار المصرية في سفن بحر القلزم . ثم منها إلى المحاطب في الوعر . ثم منها إلى رأس وادى بدر ، وهى مثلة حسنة بها عيون تجري وحدائق . ثم منها إلى رأس قاع البرزة ، ثم منه إلى وسط قاع البرزة ، ثم منه إلى رابع ، وهو مقابل الجحفة التى هى ميقات الإحرام لأهل مضر ، وبها يحرم الحجاج ولا يفتشون الجحفة ، إذ قد دعا النبي صلى الله عليه وسلم بنقل حى المدينة إليها بقوله : «وأثقل حماها إلى الجحفة» فلو مر بها طائر لحجم . ثم منها إلى قديد بضم القاف . ثم منه إلى عقبة السويق ، ثم منها إلى خلص ، وبه مصنع ماء . ثم منها إلى عسفان ، ثم منها إلى ملتزج على ، وهو كثير الوعر . ثم منه إلى بطي مر ، والعاملة يقولون : مرو ، بزيادة واو ، وبه عيون تجري وحدائق . ثم منه إلى مكة المشرفة شرقها الله تعالى وعظمها ، ثم من مكة إلى منى ، وبها ماء طيب من آبار محقر ، ثم منها إلى المشعر الحرام والمزدلفة ، ثم منها إلى عرفة وهى الموقف ، وإليها ينتهى سفر الحجاج .

ثم العود في المنازل المتقدمة الذكر إلى وادى بدر على مكس ما هتلم .

الطريق إلى المدينة النبوية  
(على ساكنها أفضل الصلاة والسلام)

من مضر في المراحل المتقدمة الذكر ، إلى وادي بدر المتقدمة الذكر ، إلى رأس وادي الصفراء ، وبه عيون تجري وحدائق وأشجار . ثم منها إلى وادي بني سالم ، ثم منه إلى وادي الغزالة ، ثم منه إلى القرش ، ثم منه إلى يثرب ، وبها ماء طيب . ثم منها إلى المدينة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والأكرام .

ومن شاء ذهب إليها من ينبع إلى رأس قتب على عند طرف الجبل ، ثم إلى وادي الصفراء ، ثم في المراحل المتقدمة الذكر إلى المدينة . وهي أقرب الطريقين للذهاب من مضر ، وتلك أقرب للعائد من مكة .



## الباب الثاني

من الخاتمة في مطارات الحمام الرسائلي، وذكر أبراجها المقررة بطرق  
الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان

## الفصل الأول

## في مطاراته

قد تقدم في الكلام على أوصاف الحمام - عند ذكر ما يحتاج إلى وصفه في أواخر  
مقاصد المكاتبات من المقالة الرابعة - أن الحمام أتم جنس يقع على هذا الحمام  
المتعارف بين الناس، وعلى الحمام والدبابي والقهاري والقواخيت وغيرها، وأن المتبادر  
إلى فهم السامع عند ذكر الحمام هو هذا النوع المخصوص، وأن أعلاه قيمة وأعله  
رتبة الحمام الرسائي، وهو الذي يفتنه الملوك لحمل المكاتبات، ويبرع عنه به المهدي .  
وتقدم هناك الكلام على ذكر ألوانها على اختلافها، وصدد الرياش المعتبرة فيها، وهي  
رياش أجنتها وأذناها، وبيان الفرق بين الذكر والأنثى، وصفة الطائر القاري،  
والفراسة في تجماته في حال صغره، والزمان والمكان اللاتين بالإفراخ، وما يجري  
بحرى ذلك مما يحتاج إليه الكاتب عند وصفه لبيان التعجب منه من غيره، فأغنى  
عن ذكره هنا .

والمختص منه بهذا المكان ذكر الاعتناء بهذا الحمام، وأول من أهتم بشأنه،  
واعتنى بأمره، ومن قام به من الملوك، ومسافات طيرانه، وما يجري بهذا  
المجسرى .

فاما الاعتناء به والاهتمام بشأنه - فقد أعنى به في القديم خلفاء بني العباس :  
 كالمهدي ثالث خلفائهم ، والناصر منهم . وتنافس فيه رؤساء الناس في العراق لاسيما  
 بالبصرة . فقد ذكر صاحب "الروض المعطار" أنهم تنافسوا في اقتنائه ، ولمحجوا  
 بذكره ، وبالقوا في أمثاله ، حتى بلغ ممن طائر القارة منها سبعة دينار . ثم قال :  
 ويقال : إنه بلغ ممن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار . قال :  
 وكانت تباع بيضتا الطائر المشهور بالفراة بعشرين ديناراً ، وأنه كان عندهم دفاتر  
 بأساب الحمام كأساب العرب ، وأنه كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه  
 ولا العدل من اتخاذ الحمام ، والمتافسة فيه ، والإخبار عنها ، والوصف لأمرها ،  
 والتفت لمشهورها ، حتى وجه أهل البصرة إلى بكار بن شيبنة البكراني قاضي مصر ،  
 (وكان في فضله وعقله ودينه وورعه على ما لم يكن عليه قاض) بمهمات لهم مع  
 محلات ، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسال نفسه ، ففعل . وكان الحمام عندهم  
 متجزاً من المتاجر ، لا يروى بذلك بأساً .

وذكر المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" أن الحمام أول ما أنشأه الديار  
 المصرية والبلاد الفارسية من الموصل ، وأن أول من أعنى به من الملوك [وقال] <sup>(١)</sup>  
 من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله ، في سنة خمس  
 وستين ومئتمنة . وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالقوا حتى أقروا له  
 ديواناً وجرألاً بأساب الحمام . وصنف فيه الفاضل محي الدين بن عبد الظاهر كتاباً  
 سماه : "تمام الحمام" .

قلت : وقد سبقه إلى التصنيف في ذلك - أبو الحسن بن ملاح الفوارس  
 البغدادي . فنهض فيه كتاباً للتأجير لدين الله الخليفة العباسي ببغداد . وذكر فيه

(١) يابض بالأحول ، والصحيح من "التعريف" (ص ١٩٦) .

أسماء أعضاء الطائر وبأشبهه ، والوشوم التي تُوسم في كلّ عضو ، وألوان الطيور وما يُستحسن من صفاتها ، وكيفية إخراجها ، وبعد المسافات التي أرسلت فيها ، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجري هذا المجرى . وأظن أن كتاب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر نتجة عن مقتضاه .

وأما مسافات طيرانيه ، فقد تقدم أن الطائر الذي يبع بألف دينار طار من القسطنطينية إلى البصرة ، ولأن الحمام أرسل من مصر إلى البصرة بمحضرة القاضي بكار قاضي مصر .

وذكر ابن سعيد في كتابه " حيا المحل وجنى الثعل " أن العزيزاني خلفاء الفاطميين بمصر ، ذكر الوزير يعقوب بن كلث أنه ما رأى القراصية البلطجية ، وأنه يحب أن يراها . وكان يدمشق حمام من مصر ومصر حمام من دمشق ، فكتب الوزير لوقته بطلاقة يأمر فيها من هو تحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصري ، ويعلق في كلّ طائر حبات من القراصية البلطجية ، ويرسلها إلى مصر ، ففعل ذلك ، فلم يمض النهار حتى حضرت تلك الحمام بما علق عليها من القراصية ، فجمعها الوزير يعقوب بن كلث وطلع به إلى العزيز في يومه ، فكان ذلك من أجرب القرايب لديه .

وذكر أيضا في كتابه " المغرب في حلى المغرب " أن الوزير البازودي المغربي ، وزير المستنصر بالله الفاطمي وجه الحمام من تونس من أفرقية من بلاد المغرب فناء إلى مصر ، والهدية عليه في ذلك .

## الفصل الثاني

من الباب الثاني من الخاتمة في أبراج الحمام المقررة لإطارتها  
بالديار المصرية والبلاد الشامية

وهي من القواعد والطرق، على ما تقدم في البريد .

أما في المسافات فإنها تختف، فإن مطارات الحمام ربما زادت على مرارة  
البريد .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل المحروسة

إلى جهات الديار المصرية

قال في "التعريف" : وأعلم أن الحمام قد أقطع تدريجه من مصر إلى قوص  
وأسوان وعبدا . وهذا ظاهر في أن الحمام كان يدرج إلى هذه الأماكن ،  
ثم أميل تدريجه بعد ذلك . قال : ولم يبق منه الآن إلا ما هو من القاهرة إلى  
الإسكندرية ، ومن القاهرة إلى دمناس ، ومن القاهرة إلى السويس من طريق  
الحاج ، ومن القاهرة إلى بلبيس متصلاً بالشام .

قلت : وأهل هذه الأبراج كلها يرجع قلعة الجبل المحروسة، ومنها التدرج إلى  
سائر الجهات .

ثم لم يذكر في "التعريف" : الأبراج الموصلة إلى أسوان وعبدا والإسكندرية  
ودمناس .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل إلى غزة

من بروج قلعة الجبل — إلى بلبيس ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى قفيا ،  
ثم منها إلى الوردية ، ثم منها إلى غزة .

## الأبراج الآخذة من غزّة وما يتفرّع عنها

اعلم أن الأبراج من غزّة تتشعب فيها مسارج الحمام إلى غير جهة دمشق وإلى جهتها .

فأما غير جهة دمشق ، فمن غزّة إلى بلد الخليل عليه السلام ، ومن غزّة إلى القدس الشريف ، ومن غزّة إلى نابلس .

وأما جهة الشام : فمن غزّة إلى لُد ، ومن لُد إلى قاقون ، ومن قاقون إلى جيبين . ومن جيبين تشعب المسارج إلى غير جهة دمشق وإلى جهتها .

فأما ما إلى غير جهة دمشق : فمن جيبين إلى صقد . وأما ما إلى جهة دمشق : فمن جيبين إلى بيسان ، ومن بيسان إلى أربد ، ومن أربد إلى طفس ، ومن طفس إلى الصنمين ، ومن الصنمين إلى دمشق .

قال في "التعريف" : ومن كل واحد من هذه المراكز إلى ما جاور ذلك من المشاهير : مثل من بيسان إلى أنرطاي مقر ولاية الولاية بالصفقة القليلة ، ومن طفس إليها - لإشعار وإلى الولاية .

## الأبراج الآخذة من دمشق وما يتفرّع عنها

تتشعب مسارج الحمام من دمشق إلى غير جهة حلب ، وإلى جهتها .

فأما إلى غير جهة حلب : فمُسَرَّح من دمشق إلى بعلبك ، ومن دمشق إلى القريتين .

وأما ما هو إلى جهة حلب : فمُسَرَّح من دمشق إلى قارا ، ثم من قارا إلى حصص ،

ثم من حصص إلى حماة ، ثم من حماة إلى المعرة ، ثم من المعرة إلى حلب .

## الأبراج الأربعة من حَلَب وما يتفرع عنها

تُدرجُ الحمام من حَلَب إلى البيرة<sup>(١)</sup> ومن حَلَب إلى قلعة المسلمين، ومن حَلَب إلى بيسان. قال في "التعريف": وإلى بقية [ماله شاة<sup>(١)</sup>] مما حوتها [ثم من القرنيين إلى تدمر، ومنها إلى السخنة، ومنها إلى قباقيب، ومنها إلى الرخبة. وقد تعطل الآن تدريجُ السخنة إلى قباقيب، وإنما صار يسوق بيطائقي تدمر الواقعة بالسخنة منها إلى قباقيب، ثم يُتدرج على الجناح من قباقيب إلى الرخبة<sup>(١)</sup>]. قال: وبما ذكرتم ذكرنا الحمام في سائر المناطق الإسلامية:

قَلْب: وقد تعطل تدريج الحمام الآن.

## الكتاب الثالث

من الخلقة في ذكر هجن التلج والمراكب المعلقة تحمل التلج الذي يحمل  
من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية،

وفيه ثلاثة فصول

## الفصل الأول

في نقل التلج

.. اعلم أن ماء نيل مصر لما كان من الحلاوة واللطافة على ما لا يساويه فيه نهر من  
الأنهار، على ما تقدم ذكره في الكلام على الديار المصرية في المقالة الثانية، مع شدة  
القيظ بها في زمن الصيف، ومخوفة الهواء الذي قد لا يتأتى معه تبريد الماء، وكان  
التلج غير موجود بها، وكانت الملوك قد اعتادت الرفاهية مع اعتدائها على تحصيل  
الأشياء العزيزة، ولوعهم بحلبها من الأماكن البعيدة - إكالا لحال الرفاهية،  
وانظهارا لأبهة الملك - دأبهم كمال الرفاهية والأبهة إلى جلب التلج من الشام إلى  
مصر: لتبريد الماء به في زمن الحر. على أن ذلك كان في غيرهم من الملوك التي  
لا تلج بحاضرتهم.

وقد ذكر أبو هلال السبكي في كتابه "الأوائل" أن أول من جلب إليه التلج  
النجاش بن يوسف بالعراق. ثم إعتنه ملوك مصر بالتلج فرددوا له هجنا تحمله في البر  
وسفنا تحمله في البحر، حتى يصل إلى القلعة المحروسة.

## الفصل الثاني

من الباب الثالث من الخاتمة في المراكب المَعْدَّة لنَقْلِ التَّلْج من الشام  
قد ذكر في "التعريف" أنها كانت في أيام الملك الظاهر «بيبرس» قَمَلَهُ اللهُ  
بِرَحْمَتِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ في السنة، لا تَرِيدُ على ذلك . قال : ودامت على أيام سُلْطَانِنَا  
(يعني الملك الناصر «محمد بن قلاوون») في السُّلْطَنَةِ الثَّالِثَةِ ، وَبَقِيَتْ صَدْرًا مِنْهَا ،  
ثم أخذت في التَّريُّدِ إلى أن بلغت أحدى عَشَرَ مَرَّجًا في مملكتي الشام وطَرَابُلُسَ ،  
ورُبَّمَا زادت على ذلك . قال : وأخير عَهْدِي بها من السَّبْعَةِ إلى الثَّمَانِيَةِ تُطْلَبُ  
من الشام ولا تُكَلَّفُ طَرَابُلُسَ إلا المساعدة، وكلُّ ذلك بحسَبِ اختلافِ الأوقاتِ  
ودَوَاعِي الضَّرُورَاتِ .

قال : والمراكبُ تأتي دُمِياطَ في البَحْرِ ، ثم يخرج التَّلْجُ في النَّيْلِ إلى ساحلِ  
بولاق ، فيُنْقَلُ منه على البغال السلطانية ، ويَحْمَلُ إلى الشَّرَافِيحَاءِ الشَّرِيفَةِ ، على  
ما تقدَّم ذكره .

وقد جَرَتْ العَادَةُ أن المراكبَ إذا سَفَرَتْ سَفَرًا مَعَهَا من يَتَدَرَّكُهَا من تَلَاوِينِ  
لمداراتها . ثم الواصِلون بها في البَحْرِ يعودون على البرِّ .

## الفصل الثالث

من الباب الثالث من الخاتمة في المِهْجَنِ المَعْدَّة لنَقْلِ ذلك

قد ذكر في "التعريف" أنه مما حَدَّثَ في الدَّوْلَةِ النَّاصِرِيَةِ «محمد بن قلاوون»  
وَأَسْتَمَرَّ . وقد كان قبل ذلك لا يُجْلَى إلا في البَحْرِ خَاصَّةً . ثم ذكر أن هذه المراكِبُ  
من دِمَشْقَ إلى الصَّنَمِينَ ، ثم منها إلى بَابِئِيَّاسَ ، ثم منها إلى أَرْبَدَ ، ثم منها إلى بَيْسَانَ ،



ثم منها إلى جينين ، ثم منها إلى قاقون ، ثم منها إلى لُد ، ثم منها إلى عَزَّة ، ثم منها إلى العريش ، ثم منها إلى الورداء ، ثم منها إلى المطيب ، ثم منها إلى قطيا ، ثم منها إلى القصير ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى بلبيس ، ثم منها إلى القلعة .

قال : والمستقر في كل مركز من هذين : خمسة للأحبال ، وهين للهجان ، تكون كل قلة خمسة أحبال . وهذه الهجن من الشام إلى العريش على المملكة الشامية ، خلا جينين فلها على صقد . ومن الورداء إلى القلعة هجن من المناخات السلطانية ، والكلفة على مال مصر . ولا تستقر هذه الهجن بهذه المراكز إلا أو أن حمل التلج ، وهي : حزيران وتشرين الثاني . وعدة قلاته إحدى وسبعون قلة ، متقارب مدد ما بينها ، ثم صار يزيد على ذلك . ويجهز مع كل قلة بریدی يتداركه ، ويجهز معه ثلاث خيول بجملته ومُدَارَاتِهِ ، يُحْمَلُ عَلَى فَرَسٍ بَرِيدٍ ثَانٍ . قال : واستقر في وقت أن يُحْمَلَ التَّلَاجُ عَلَى خَيْلِ الْوَلَايَةِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ التَّلَاجَ إِذَا وَصَلَ عَلَى الْمَرَكَبِ وَالْهَجْنِ حَتَّى آتَى إِلَى الْقَلْعَةِ ، خُرِنَ بِالنَّبَرِ ابْجَانَاهُ السُّلْطَانِيَّةِ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَمَذْقُورٌ أَنْ يُحْمَلَ مِنَ التَّلَاجِ عَلَى الظُّهْرِ مَا يُحْمَلُ ، اسْتَقَرَّ مِنْهُ خَاصُّ الْمَشْرُوبِ ، لِأَنَّهُ يَصِلُ أَنْظَفَ وَأَمْنًا قَابِلَةً ، عَلَى أَنْ الْمُتَسَفِّرِينَ يَأْخُذُونَ الْجَاشَنِي مِنْهُ بِمَحْضُورِ أَمِيرِ مَجْلِسٍ وَشَادَّ الشَّرَاجِنَاهُ السُّلْطَانِيَّةِ وَتُرَاتِبَاهُ . أَمَا الْمَقُولُ فِي الْبَحْرِ فَلَيْسَ عِلًا ذَلِكَ . قَالَ : وَالْمُجَهِّزِينَ بِهِ مِنْ الْخَلْعِ وَرُسُومِ الْإِنْعَامِ رُسُومٌ مُسْتَقَرَّةٌ ، وَعَوَائِدُ مُسْتَمَرَّةٌ .

قُلْتُ : وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ وَاصِلَ التَّلَاجِ فِي كُلِّ قَلْعَةٍ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تُكْتَبُ بِهِ رَجْعَةٌ مِنْ دِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ ، وَهَذَا هُوَ وَجْهٌ تَقْلُفُهُ بِدِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ .

## الباب الرابع

من الخاتمة في المناور والمحرقات ، وفيه فصلان

### الفصل الأول

#### في المناور

قال في "التعريف" وهي مواضع ترفع النار في الليل والدخان في النهار .

وذلك أن مملكة إيران لما كانت بيد هؤلاء من التتار ، وكانت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة ، كان من جملة احتياطات أهل هذه المملكة أن يجعلوا أماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلاً و [يتأثر] الدخان نهاراً ، للإعلام بحركة التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو إغارة . وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال ، وتارة تكون في أبنية عالية ، ومواضعها معروفة تعرف بها أكثر السفارة ، وهي من أقصى نفور الإسلام كالبيرة والرجبة ، وإلى حضرة السلطان بقعة الجبل ، حتى إن المتجند بالقرات إن كان بكرة علم به عشاء ، وإن كان عشاء علم به بكرة . ولما ترفع من هذه النيران ، أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها ، تارة في العدد ، وتارة في غير ذلك . وقد أُرصد في كل منور الديادب والنظارة ، لرؤية ما وراءهم وإبراء ما أمامهم ، ولهم على ذلك جوامع مفرقة كانت لا تزال دائرة . قال : وكان ينور بمدينة طائفة من تلك المملكة قوم من النصارى بحصة أمر سوى التتار ، ويستريح عليهم أهل البلد حياً للملوك ، فترى [تأثره] أو دخانه بجبهة الروم وبالطرف أيضاً ، ويرفع قهقهة أوفى [أحداهما يرى] (١)

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠) .

بن كل منهما بواى الهيكل، ويرفع فيه فيرى [بالقناطر، ويرفع بالقناطر فيرى بالوجهة  
وقاه الله، ويرفع بها فيرى في كوايل، ويرفع فيها فيرى في مظنة جليلية، ويرفع  
فيها فيرى في حفير أسد الدين، ويرفع بها فيرى<sup>(١)</sup> بالسحنة، ويرفع فيها فيرى بمظنة  
أرك، ويرفع فيها فيرى بالبويب وهو مظنة [يل أرك<sup>(١)</sup>]، ويرفع فيها فيرى  
بمظنة تدعى، ويرفع فيها فيرى بمظنة البيضاء، ويرفع فيها فيرى بالحير، ويرفع فيها  
فيرى بجليل، ويرفع فيها فيرى بالقريتين، ويرفع فيها فيرى بالعطنة، ويرفع فيها فيرى  
بتيّة العقاب، ويرفع فيها فيرى بمظنة العروس، ويرفع فيها لما حولها، إنذاراً للرايا  
وصحاً للأطراف، ويرفع حول دمشق بالجبل المطل على برزة فيرى بالمناخ، ويرفع به  
فيرى بتل قرية الكتبية، ثم يرفع فيها فيرى بالطرة، ثم يرفع فيرى بجبل أريد ويجعل  
عجلون، ثم يرفع بها فيرى بجبل طينة أتم، ثم يرفع بها فيرى بالمسور المصنوع، نازاه  
الذي الذي برأس الجبل المنحدر إلى يسار المعروف بقبة البريد لا يطول الطريق<sup>(٢)</sup>  
البريد الآن عنه، ويرى منه أطراف أعمال نابلس في نحو جبال أريحا وما حولها  
ويرفع من هذا المنور الذي برأس عقبة البريد فيرى بالجبل المعروف بقبة خيتين  
ثم يرفع منه فيرى بجبل خيمة، ثم يرفع منه فيرى بشرفة قاقون، ثم يرفع منه فيرى  
بأطراف أعمال نابلس<sup>(١)</sup> ويرى على قصد الطريق بذروة الجبل المصاحب لجبل بابا،  
ويرفع منه فيرى بمرکز ياسور المعدول بالبريد الآن عنه، ثم يرفع منه فيرى بالجبال  
المطلّة على غزة، ويرفع بقبة على أعالي الحدب المعروف بمجدب غزة، ثم لا منور ولا  
إخبار بشأن التار إلا على الجناح والبريد.

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠ - ٢٠١).

(٢) الذي في التعريف : وقد عدل الآن طريق الخ فقه.

قال : ثم أعلم أن جميع ما ذكرناه مناورٌ تشعب إلى ما ترجع عن جادة الطريق إلى البلاد الآخذة على جنبٍ جنوباً وشمالاً ، شرقاً وغرباً . أما منذُ أصبح الله بين الفتيين ، وأمن جانب الجهتين ، فقد قلَّ بذلك الإخفال ، وصُرفَ عن البال . وهذه المناورُ رسومٌ قد عفت ، ونُصومُ [أكلتُ شُعْلُ النارِ أرواحها] <sup>(١)</sup> فأنطقت ، على أنه قد نصَّ في "التعريف" على مناورِ طريقِ البيرة ، ومناورِ طريقِ الرُّجبة ، وهما من نفسِ الملكة .

قلتُ : وهذه المناورُ مأخوذةٌ من ملوكِ الهند . فقد رأيتُ في بعضِ الكتبِ أنَّ ببلادهم مناورٌ على جبالٍ مرتفعةٍ ، ترى النارُ فيها على بُعدٍ أكثر من هذه . على أن مُرتبها بهذه الملكة أولاً أتى بحِكْمَةٍ ملوكيةٍ لا تُساوَى مقدارا ، إذ قد ترقى في سرعةٍ بلوغِ الأخبار إلى الغايةِ القصوى . وذلك أن البريدَ يأتي من سرعةِ الخبَرِ بما لم يأت به غيره ، والخبَرُ يأتي من الخبَرِ بما هو أسرعُ في البريد ، والمناورُ تأتي من الخبَرِ بما هو أسرعُ من الخبَرِ . وناهيك أن يظهرَ عنوانُ الخبَرِ في القُرأتِ بمصر في مسافةٍ يومٍ وليلةٍ .

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠١) .

## الفصل الثاني

### من الباب الرابع من الخاتمة في المحرقات

قال في "التعريف": وهي مواضع مما يلي بلادنا من حد الشرق داخله في تلك المملكة (يعني مملكة بني هولاكو من التار) يُجهز إليها رجالٌ فُخِرْقُ زرعها، كارض البقعة والتُّنار والقينة، وباشرة، والختاخ، ومشهد ابن عمر، والمولى، وبلاد ينوي من برالموصل التي يقال، إن يؤنس عليه السلام بُعث إلى أهلها، والوادي، والميدان، والباب، والصومعة، والمرج المعروف ببني زيد، والمرج المحترق، ومنازل الأورانية، وهي أطراف هذه المواضع إلى جبل الأكراد. وبلاد سنجار والمنطق والمنظرة والمزينة، وتحت الجبال عند التيللات، وكذلك التارات، وأعلى جبل سنجار وما إلى ذلك.

وذلك أنه كان من عادة التار أنهم لا يكتفون علوفة نخيلهم بل يَكُونُها إلى ما نبتت الأرض، فإذا كانت تلك الأرض مُحَصَّبة سَلَكُوها، وإذا كانت مُحَصَّبةً تَجَبُّوها، وكانت أرض هذه البلاد المتقدمة الذِّكْر أرضاً مُحَصَّبةً، فهو يكفاه خيل القوم إذا قصدوا بلادنا، فإذا أحرقوا زرعها ونبتاتها ضَعُفُوا عن قصد بلادنا وحصل بذلك جميع الرقيق، والدفع عن مباحة الأطراف ومهاجمة الثُغُور.

وكان طريقهم في إحراقها أن يُجهزوا إليهم الرجال ومعهم التعالِبُ الوحشية وكلاب الصَّيْد، فيَكْتُون عند أمناء النَّصاح في كهوف الجبال وبُطُون الأودية، ويرتقبون يوماً تكون ريحُه عاصفة وهواؤه زَعَزَع، تُعلَق النار موقدة في أذناب تلك التعالِب والكلاب، ثم تُطْلَق التعالِب، والكلاب في أثرها وقد جُوعَت، لتجدها

التعالبُ في القَدْوِ ، والكِلَابُ في الطَّلَبِ ، تُحْرِقُ ما مَرَّتْ به من الزَّرْعِ والنَّباتِ ،  
وتُعَلِّقُ الرِّيحُ النَّارَ منه فيما جَاوَرَهُ ، مع ما يُقْبِلُهُ الرِّجَالُ بِأَيْدِيهِم في اللَّيَالِي المُظْلِمَةِ ، وَعِشَاءِ  
الأيامِ المَعْتَمَةِ . وكان يَنْفَقُ في نَظِيرِ هذا الإِحْرَاقِ من خِزَانَةِ دِمَشقَ جُلٍّ من الأموالِ .  
قال : وكان الأَهْتمامُ بذلك في أوَّلِ الأمرِ قبل أن يَفْطَنُوا بِقَصْدِ التَّحْرِيقِ ، ثم نَهَبَهُم  
على ذلك أَهْلُ المُنَاجَاةِ ، فَصارُوا يَرْطُون عليها الطُّرُقَ ، وَيَمْسِكُون منها بالأَطْرافِ ؛  
وَقَتْلَ عِدِيدٍ من الرِّجالِ بِسَبَبِها ، وَأَحْرَقُوهم بِأَشَدِّ من نَارِها .

وَذَكَرَ أَنَّ مِمَّا كَانَ يُحْتَسَبُ تَحْرِيقُهُ - أَرْضَ الجِبَالِ ، من حيثُ إنها بِلَادُ بَقِيَّةِ  
السَّلفِ الصَّالحِ من ذُرِّيَّةِ شَيْخِ الإسلامِ الإمامِ الكَبِيرِ العارِفِ باللهِ «عَبْدِ القَادِرِ الجِيلِيِّ»  
المَعْرُوفِ بِالْكِيلَانِيِّ ، فَخِ اللهُ تَعَالَى بِرِكَائِهِ ، لَتَعْظِيمِهِم من الجَهِتَيْنِ ، مع ما لَمْ عِنْدَ  
مُلُوكِها من المَكائِنِ العَلِيَّةِ : لِقَدِيمِ سَلَفِهِمْ ، وَصَمِيمِ شَرَفِهِمْ ، وَلِإِسْلامِ أَهْلِهِ من  
إِسْعادِهِمْ بِما تَصِلُ لِمَالِهِ القُدْرَةُ وَيَتَلَفَنُ الإِمْكَانُ .

قلتُ : وَبِتَّامِ القَوْلِ في هَذَا الطَّرَفِ قَدْ تَمَّ ما كُنْتُ أَحْاولُهُ من التَّالِيفِ ، وَأَهْتَمُّ  
به من الجَمْعِ ؛ وَبِاللهِ التَّوْفِيقَ ، وَإِلَيْهِ الرُّغْبَةُ ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .  
وَأَعْلَمُ أَنَّ المَصَنَّفَاتِ تَتَفَاوَتْ في الحُظُوظِ إِقْبَالاً وَإِدْبَاراً : فَمِنْ مَرَّغُوبٍ فِيهِ ،  
وَمَرَّغُوبٍ عَنْهُ ، وَتُوسِّطُ بَيْنَ ذَلِكَ . على أَنَّهُ قَلَّ أَنْ يَنْفَقَ تَأْلِيفٌ في حَيَاةِ مُؤَلِّفِهِ ،  
أَوْ يَرْوِجَ تَصْنِيفٌ على القُرْبِ من زَمَانِ مُصَنِّفِهِ .

قال السَّعُودِيُّ في كِتابِهِ «التَّحْيِيهِ والإِشْرَافُ» «قَدْ تَشَرَّكَ الخُوطِرُ ، وَتَتَفَقَّ الضَّائِرُ ؛  
وَرُبَّمَا كانَ الآخِرُ أَحْسَنَ تَأْلِيفاً ، وَأَمْتَنَ تَصْنِيفاً ؛ لِحِكْمَةِ التَّجَارِبِ ، وَخَشْيَةِ التَّبَعِ ،  
وَالْأَحْزَانِ من مَوَانِجِ المَضَارِّ . وَمن هَاهُنَا صَارَتْ العُلُومُ نَائِيَةً ، فَبَرَزَتْ نَائِيَةً ،  
لِوُجُودِ الآخِرِ ما لا يَحْسُدُهُ الأوَّلُ ، وَذَلِكَ إلى غَيْرِ غَايَةٍ مُحْصُورَةٍ ، وَلا نِهَايَةٍ مُحْدُودَةٍ .

على أن من شيم كثير من الناس إطرأ المتقدمين ، وتُعْظِمُ كُتُبَ السَّالِفِينَ ؛  
ومَدَحَ المَاضِي ، وذَمَّ البَاقِي ، وإن كان في كُتُبِ المُحْدِثِينَ ما هو أعظم فَائِدَةً ،  
وأكثر عَافِيَةً .

ثم حَكَى عن الجَلِاحِظِ - على جَلَالَةِ قَدْرِهِ - أنه قال : كُنْتُ أُؤَلِّفُ الكُتُبَ الكَثِيرَ  
المَعَانِي ، الحَسَنَ النِّظْمَ ، وَأُنَسِّبُهُ إِلَى تَفْعِي ، فَلَا أَرَى الإِسْمَاعَ تُصْنِي إِلَيْهِ ،  
ولا الإِرَادَاتِ تَبْتِغِمُ نَحْوَهُ ، ثم أُؤَلِّفُ ما هو أَقْصَى مِنْهُ رُتْبَةً ، وَأَقَلُّ فَائِدَةً ، وَأَحْمَلُهُ  
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُقَفِّعِ ، أَوْ سَهْلُ بْنُ هُرُونَ ، أَوْ غَيْرُهُمَا مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ ، مِمَّنْ صَارَتْ  
أَسْمَاؤُهُمْ فِي الْمُصَنِّفِينَ ، فَيُقْبَلُونَ عَلَى كِتَابِهَا ، وَيُسَارِعُونَ إِلَى تَنْسِيخِهَا ، لَا لِشَيْءٍ  
إِلَّا لِإِسْبَتِهَا لِلتَّقَدِّمِينَ ، وَلِيَّا يَدْخُلَ أَهْلُ هَذَا الْمَصْرِ مِنْ حَسَدٍ مَنْ هُوَ فِي عَصْرِهِمْ ،  
وَمُنَافَسَتِهِ عَلَى الْمَنَاقِبِ الَّتِي عُنِيَ بِتَشْيِيلِهَا .

قال : وهذه طَائِفَةٌ لَا يَمُتُّ بِهَا بِكَارِ النَّاسِ ، وَإِنَّمَا الْعَمَلُ عَلَى أَهْلِ النَّظَرِ وَالْأَمَلِ  
الَّذِينَ أَعْطَوْا كُلَّ شَيْءٍ حَقَّهُ مِنَ الْقَوْلِ ، وَوَفَّقُوهُ قِسْطَهُ مِنَ الْحَقِّ ؛ فَلَمْ يَرْفَعُوا الْمُتَقَدِّمَ  
إِذَا كَانَ نَاقِصًا ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمُتَأَخِّرَ إِذَا كَانَ زَائِدًا ؛ فَلْيَمْنِلْ هَؤُلَاءِ تُصَنَّفُ الْعُلُومُ ،  
وَيَكُونُ الْكُتُبُ .

وإذا كان هذا قَوْلَ الْمَسْعُودِيِّ عَنِ الْجَلِاحِظِ الَّذِي هُوَ رَأْسُ الْمُصَنِّفِينَ ، وَعَيْنُ  
أَعْيَانِهِمْ ، قَبْلَ ظَنِّكَ بِغَيْرِهِ ؟ .

لِكُنِّي أَحْمَدُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى رَوَاجِ سُوْقِي تَالِيْنِي ، وَتَفَاقِ سِلَاحَتِهِ ، وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى  
اسْتِكْثَانِهِ قَبْلَ أَهْضَاءِ تَأْلِيْفِهِ ، حَتَّى إِنْ قَلَبْتِ التَّأْلِيفَ وَالنَّسِجَ يَتَسَابَقَانِ فِي مِيزَانِ  
الْعُرْسِ إِلَى أَكْبَتَانِهِ ، وَمُرْتَقَبَ تَجَاوِزِهِ لِاسْتِنْسَاجِ بِسَائِهِمَا فِي أَرْقَابِهِ . فَضْلًا مِنْ  
اللَّهِ وَبِعَمَّةٍ ، ( ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ) .

قال المؤلف : تَجَزَّتْ تَالِيقَهُ فِي الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ الثَّامِنِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ ، سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ .

وَتَجَزَّتْ هَذِهِ النُّسخَةُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارَكِ التَّاسِعِ وَالْعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ صَفَرِ الْخَمْرِ ، سَنَةِ تِسْعِ وَثَمَانِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ .

فَرَّغَ مِنْهُ كِتَابَةً وَسَيِّدَةً قَبْلَهُ ، فَقَبِيرُ رَحْمَةِ رَبِّهِ الْفَتَى الْفَاتِحِ ، عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ  
أَبْنِ مُحَمَّدٍ النَّاسِخِ الشَّافِعِيِّ ، نَزَلُ الصَّالِحِيَّةِ النَّجْمِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالسَّادَةِ الْحَنَابِلِيَّةِ ، بِحُطِّ  
بَيْنِ الْقَصْرَيْنِ : فَفَرَّغَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ ، وَسَتَرَ عِيُوبَهُ ، وَخَتَمَ لَهُ وَالسَّامِعِينَ بِخَيْرٍ ، آمِينَ

وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ  
وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ : سُبْحَانَ رَبِّكَ  
رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ  
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ









